الرافدين على الجلالين

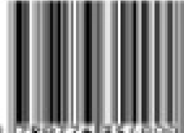
بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨



الدار العلمية للنشر والتحقيق

العالمية للثقافة الدولية

 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء الثاني والثلاثون





بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) .

{وأما ثمود فهديناهم} بينا لهم طريق الهدى {فاستحبوا العمى} اختاروا الكفر {على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون} المهين {بما كانوا يكسبون}(١).

(١) **قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: فبينا لهم سبيل الحق وطريق الرشد".

قال ابن كثير:"أي: بصرناهم، وبينا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح ﷺ".

عن ابن عباس، قوله: "{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ}، أي: بيَّنا لهم".

قال قتادة:"يقول: بينا لهم".

قال قتادة:"بينا لهم سبيل الخير والشرّ".

قال الثوري:"دعوناهم".

قال ابن زيد:"أعلمناهم الهدى والضلالة، ونهيناهم أن يتبعوا الضلالة، وأمرناهم أن يتبعوا الهدى".

قال الضحاك: "{وأما ثمود فهديناهم}، أخرجنا لهم الناقة تبيانا وتصديقا لصالح ﷺ".

قوله تعالى: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [فصلت: ١٧]، أي:"فاختاروا العمى على الهدى".

قال الطبري:"يقول: فاختاروا العمى على البيان الذي بينت لهم، والهدى الذي عرفتهم، بأخذهم طريق الضلال على الهدى، يعني على البيان الذي بينه لهم، من توحيد الله".

=

=

قال ابن كثير:"فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم".

قال قتادة:"فاستحبوا العمى على الهدى".

قال السدي:"اختاروا الضلالة والعمى على الهدى".

عن ابن عباس، قوله: "{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}، قال: أرسل الله إليهم الرسل بالهدى فاستحبوا العمى على الهدى".

قال ابن زيد:"استحبوا الضلالة على الهدى، وقرأ: و {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} ... إلى آخر الآية، قال: فزين لثمود عملها القبيح، وقرأ: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ} ... إلى آخر الآية".

قوله تعالى: {فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [فصلت: ١٧]، أي:"فأهلكتهم صاعقة العذاب المهين؛ بسبب ما كانوا يقترفون من الآثام بكفرهم بالله وتكذيبهم رسله".

قال الطبري:"يقول: فأهلكتهم من العذاب المذل المهين لهم مهلكة أذلتهم وأخزتهم؛ {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} من الآثام بكفرهم بالله قبل ذلك، وخلافهم إياه، وتكذيبهم رسله".

قال ابن كثير:"أي: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا وعذابا ونكالا {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} أي: من التكذيب والجحود".

قال السمعاني:"فـ «صاعقة العذاب»: نار نزلت من السماء إلى الأرض فتصيب من يستحق العذاب، وقوله: {الهون} أي: ذي الهون، والهون والهوان بمعنى واحد، وهو عذاب يهينهم ويهلكهم".

قال القرطبي:"أضيف الصاعقة إلى العذاب، لأن الصاعقة اسم للمبيد المهلك، فكأنه قال: مهلك العذاب، أي: العذاب المهلك، {بما كانوا يكسبون} من

=

=

تكذيبهم صالحا وعقرهم الناقة".

عن السديّ: "{عَذَابَ الْهُونِ}، قال: الهوان".

قال الزجاج:"فَالهونُ والخزيُ: الذي يهينهم ويخزيهم".

وفي «الصاعقة»-هنا- أربعة أقوال:

أحدها: النار، قاله السدي.

الثاني: الصيحة من السماء، قاله مروان بن الحكم.

الثالث: الموت، وكل شيء أمات، قاله ابن جريج.

قال مقاتل: كل من يموت من عذاب أو سقم أو قتل فهو مصعوق".

الرابع: أن كل عذاب صاعقة، وإنما سميت صاعقة لأن كل من سمعها يصعق لهولها. حكاه الماوردي.

وقال العثيمين: أمَّا التَّقسيمُ الثَّاني فقال: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ} بيَّنَّا لهم طَريقَ الهُدى.

{ثَمُودُ} بِلا تَنوينٍ و (عادٌ) بتَنوينٍ؛ لأنَّ (ثمودَ) مَمْنوعَةٌ مِن الصَّرفِ و (عاد) ليست مَمْنوعَةً مِنَ الصَّرفِ، والصَّرفُ جرُّ ما لا يَنْصرِفُ بالفَتْحةِ أو عَدمُ التَّنوينِ، قال ابنُ مالكٍ:

الصَّرفُ تَنوينٌ أتى مُبيِّنًا ... مَعْنى به يكونُ اسمٌ أَمْكَنا

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ} بَيَّنَّا لهم طَريقَ الهُدَى]، فالهِدايَةُ هنا هِدايَةُ بَيانٍ، يعني بَيَّنَ لهمُ الحَقَّ.

واعلم أنَّ كُلَّ مَن كَفَرَ فإنَّه كَفَرَ بعدَ أن تَبيَّنَ له الحَقُّ إذا جاءَه الرَّسولُ؛ لأنَّ الرُّسلَ-عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- يُبيِّنون الحَقَّ لا يَدَعونَ شيئًا يَحتاجُ إلى بَيانٍ إلَّا بيَّنوه، قال هُنا: {فَهَدَيْنَاهُمْ} أي: بَيَّنَّا لهم طَريقَ الحقِّ، فالهِدايَةُ هُنا هِدايَةُ بَيانٍ وإِرْشادٍ.

=

وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨).

{ونجينا} منها {الذين آمنوا وكانوا يتقون} الله(١).

=

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى} اختاروا الكُفْرَ عَلى الهُدَى]؛ أي: هِدايَةُ التَّوفيقِ، يَعني على الاهْتِداءِ، استحبُّوا العَمَى الَّذي هو الكُفْرُ على الهُدَى الَّذي هو الإسلامُ.

قال اللهُ تعالى: {فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [فُصِّلَت: ١٧]، أَخَذَتْهم صاعِقَةُ العَذابِ يَعني عَذابَ الصَّاعقَةِ؛ لأنَّ ثَمودَ صِيحَ بهم ورُجِفَ بهم، فصُعِقوا هَلَكوا هَلَكَةَ رَجلٍ واحدٍ {فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [هود: ٦٧] والعِياذُ باللهِ على رُكَبِهِمْ هامِدينَ.

وقولُهُ: {الْعَذَابِ الْهُونِ} أيِ العَذابُ [المُهينُ] لأنَّ الهونَ هو الإذلالُ.

وقولُهُ: {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (الباءُ) للسَّببيَّة، و (ما) إمَّا موصولَةٌ، وعليه فيَكونُ عائدُها محذوفًا، التَّقديرُ: بما كانوا يَكسِبونَهُ، وإمَّا أن تَكونَ مَصدريَّةً فلا تَحتاجُ إلى عائدٍ، ويَكونُ التَّقديرُ: بِكَسْبِهِمْ.

(١) قال مقاتل: "{وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يعني: صدقوا بالتوحيد، من العذاب الذي نزل بكفارهم، {وَكَانُوا يَتَّقُونَ} الشرك".

قال الطبري: "يقول: ونجينا الذين آمنوا من العذاب الذي أخذهم بكفرهم بالله، الذين وحدوا الله، وصدقوا رسله، وكانوا يخافون الله أن يحل بهم من العقوبة على كفرهم لو كفروا ما حل بالذين هلكوا منهم، فآمنوا اتقاء الله وخوف وعيده، وصدقوا رسله، وخلعوا الآلهة والأنداد".

قال الماتريدي: "أي: أنجينا الذين اختاروا الهدى على العمى، وكانوا يتقون اختيار العمى على الهدى".

قال القرطبي: "{ونجينا الذين آمنوا}، يعني: صالحا ومن آمن به، أي: ميزناهم

=

=

عن الكفار، فلم يحل بهم ما حل بالكفار، وهكذا يا محمد نفعل بمؤمني قومك وكفارهم".

قال ابن كثير:"أي: من بين أظهرهم، لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح عليه السلام بإيمانهم، وتقواهم لله، ﷻ".

وقال أبو السعود:"{وكانوا يتقون} من تلك الصاعقة".

قال القاسمي:"أي: يخشون ربهم ويخافون وعيده. وذلك بالإيمان به وحده وتصديق رسله".

عن سعيد بن جبير:"قوله: {آمنوا بالله}، يعني: بتوحيد الله".

عن الضحاك:"{الْمُتَّقِينَ}، قال: "الذين يتقون الشرك.

عن السدي: "{المتقين}، قال: هم المؤمنون".

وقال العثيمين: قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَنَجَّيْنَا} منها] أي: من صاعِقَةِ العَذابِ الهونِ {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [فُصِّلَت: ١٨] نَجَّينا من هذا العَذابِ الَّذين آمَنوا، وكانوا يَتَّقونَ، جَمَعوا بَينَ الإيمانِ والتَّقْوى، وهذا هو سَبَبُ النَّجاةِ.

من فوائِدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: عَدْلُ اللهِ ﷻ يُؤخَذُ من قولِه: {وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} فيها إِثباتُ العَدْلِ لله ﷻ والعَدْلُ مَعناه عَدَمُ الجَوْرِ وعَدَمُ الظُّلمِ، ووَجهُ الدَّلالَةِ في الآيَةِ والَّتي قَبلَها إِثباتُ النَّجاةِ لِلمُؤمِنينَ والعَذابُ لِلمُعرضينَ هذا دَليلٌ على الْعَدْلِ؛ لأَنَّه أَعْطى سبحانه وتعالى كلَّ إنسانٍ ما يَستحِقُّ، ولا شكَّ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أحكمُ الحاكِمينَ، ومن كونِه أَحكم الحَاكمينَ لازِمٌ أنْ يكونَ أَعْدلَهم؛ لأنَّه كُلَّما كان الحُكْمُ أَعدلَ كان أَحْكمَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإيمانَ والتَّقْوى سببٌ للنَّجاةِ؛ لقولِهِ: {وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} ومثلُه قولُه تَعالَى: {وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ} [الزُمَر:

=

=

[٦١].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الإيمانَ وَحدَه لا يَكفي بَلْ لا بدَّ من إيمانٍ وتَقْوى؛ لقولِهِ: {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} ووَجْهُ المُقارَنَةِ بَيْنَ هذِهِ الآيَةِ وبَيْنَ قولِه تَعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: ٦٢] أنَّ الَّذين آمَنوا وكانوا يَتَّقونَ والَّذينَ يُنَجِّيهُمُ اللهُ هم أولياءُ اللهِ؛ لأنَّ قولَهُ: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} يُطابقُ تمامًا هذِهِ الآيَةَ حتَّى في اللَّفظِ هُناكَ {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} وهذه {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَوازُ حَذْفِ ما يُعلَمُ، يُؤخَذُ مِن قولِهِ: {وَكَانُوا يَتَّقُونَ} والمَحذوفُ مَفعولُ {يَتَّقُونَ}؛ أي: وكانوا يَتَّقون اللهَ، وإن شِئتَ فقُلْ: وكانوا يَتَّقونَ ما يَجِبُ اتِّقاؤُهُ؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى أحيانًا يَقولُ: {وَاتَّقُوا اللهَ}، وأحيانًا يَقولُ: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ} [البقرة: ٤٨]، {وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [آل عمران: ١٣١] فإذا قُلنا: وكانوا يتَّقون ما أُمِروا باتِّقائِه صار ذلك أَعَمَّ، وقد أَمَرنا بتَقْوى اللهِ، وتَقْوى النَّار وتَقْوَى يَومِ القيامَةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فَضيلَةُ الإيمانِ والتَّقوَى وأنَّه سَببٌ للنَّجاةِ؛ لقولِهِ: {وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} فإذا قال قائلٌ: أَلَيْسَ اللهُ تعالَى يُنزِلُ عُقوبَةً أحيانًا في أَقْوامٍ فيهم المُتَّقي وفيهم غَيْرُ المُتَّقي؟

فالجَوابُ: أنَّ اللهَ تعالى يَأخُذُ المُتَّقيَ بذَنْبِ غير المُتَّقي في الدُّنيا، ففي الدُّنيا يُعذَّبون جَميعًا ويُبْعَثون في الآخِرَةِ على نِيَّاتِهم وأعمالِهِمْ، دَليلُ هذا قوْلُه تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال: ٢٥] يعني: احْذَروا هذه الفِتْنَةَ، وهذا يَعني أَنَّنا نَأْمُرُ بالمَعروفِ ونَنْهى عن المُنْكَرِ لنتَّقِيَ بها {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩).

{و} اذكر {يوم يحشر} بالياء والنون المفتوحة وضم الشين وفتح الهمزة {أعداء الله إلى النار فهم يوزعون} يساقون.

حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠).

{حتى إذا ما} زائدة {جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون}.

وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١).

{وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء} أي أراد نطقه {وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون} قيل هو من كلام الجلود وقيل هو من كلام الله تعالى كالذي بعده وموقعه قريب مما قبله بأن القادر على إنشائكم ابتداء وإعادتكم بعد الموت أحياء قادر على إنطاق جلودكم وأعضائكم.

وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢).

{وما كنتم تستترون} عن ارتكابكم الفواحش من {أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم} لأنكم لم توقنوا بالبعث {ولكن ظننتم} عند استتاركم {أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون}.

وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣).

{وذلكم} مبتدأ {ظنكم} بدل منه {الذي ظننتم بربكم} نعت والخبر

{أرداكم} أي أهلككم {فأصبحتم من الخاسرين}.

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤).

{فإن يصبروا} على العذاب {فالنار مثوى} مأوى {لهم وإن يستعتبوا} يطلبوا العتبى أي الرضا {فما هم من المعتبين} المرضيين[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ}؛ قال: كان رجلان من قريش وختن لهما من ثقيف -أو رجلان من ثقيف وختن لهما من قريش- في بيت، كثيرة شحم بطونهم قليلة فقه قلوبهم، فقال بعضهم لبعض: أترون أن الله يسمع حديثنا؟ قال بعضهم: يسمع بعضه (وفي رواية: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا)، وقال بعضهم: لئن كان يسمع بعضه لقد يسمع كله (وفي رواية: إن كان يسمع إذا جهرنا؛ فإنه يسمع إذا أخفينا)؛ فأنزل الله عز وجل: {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢)}.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٨١٦، ٤٨١٧، ٧٥٢١)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ٢٧٧٥/ ٥).

وعن بشير بن تميم؛ قال: نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمار بن ياسر: {أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ}: أبو جهل، {خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ}: عمار بن ياسر.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ١٨٨): نا ابن عيينة عن بشير به. وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: الإعضال؛ فبشير من أتباع التابعين.

الثانية: قال أبو حاتم فيما نقله عنه ابنه في "الجرح والتعديل" (٢/ ٣٧٢ رقم ١٤٣٩): "روى عنه ابن عيينة مرسل".

=

=

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٣٠) وزاد نسبته لابن المنذر وعبد بن حميد وابن عساكر.

وعن عكرمة؛ قال: نزلت في عمار بن ياسر وفي أبي جهل.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٣٠) ونسبه لابن عساكر. وهو ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ}، أي:"واذكر يوم يُجمع أعداء الله المجرمون في أرض المحشر لسوقهم إلى النار".

قال الطبري: يقول:"ويوم يجمع هؤلاء المشركون أعداء الله إلى النار، إلى نار جهنم".

قال ابن كثير:"أي: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار".

قال الزمخشري:"أي: يحشر الله ﷻ أَعْداءُ اللهِ الكفار من الأوّلين والآخرين".

قوله تعالى: {فَهُمْ يُوزَعُونَ} [فصلت: ١٩]، أي:"تَرُدُّ زبانية العذاب أولَهم على آخرهم".

قال مقاتل: يعني: يساقون إلى النار تسوقهم خزنة جهنم".

قال الطبري: يقول:"فهم يحبس أولهم على آخرهم".

قال ابن كثير:"أي: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: {وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا} [مريم: ٨٦]، أي: عطاشا".

قال الزمخشري:"أي: يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم، وهي عبارة عن كثرة أهل النار، نسأل الله أن يجيرنا منها بسعة رحمته".

قال السديّ:"يحبس أوّلهم على آخرهم".

قال قتادة:"عليهم وزعة تردّ أولاهم على أُخراهم".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا

=

=

كَانُوا يَعْمَلُونَ}، أي:"حتى إذا ما جاؤوا النار، وأنكروا جرائمهم شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون في الدنيا من الذنوب والآثام".

قال الطبري:"يقول: حتى إذا ما جاءوا النار شهد عليهم سمعهم بما كانوا يصغون به في الدنيا إليه، ويسمعون له، وأبصارهم بما كانوا ينظرون إليه في الدنيا {وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون} ".

قال ابن كثير:" {حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا}، أي: وقفوا عليها، {شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}،أي: بأعمالهم مما قدموه وأخروه، لا يُكْتَم منه حرف".

قال مقاتل: "{حَتَّى إِذا ما جاؤُها}، يعني النار وعاينوها، قيل لهم أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون في الدنيا؟ قالوا عند ذلك: {وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِين} [الأنعام: ٢٣]، فختم الله على أفواهم وأوحى إلى الجوارح فنطقت بما كتمت الألسن من الشرك، فذلك قوله: {شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ وأيديهم وأرجلهم بِما كانُوا يَعْمَلُونَ} من الشرك".

قال الزمخشري:"فإن قلت: ما في قوله حَتَّى إِذا ما جاؤُها ما هي؟

قلت: مزيدة للتأكيد، ومعنى التأكيد فيها: أنّ وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم، ولا وجه لأن يخلو منها. ومثله قوله تعالى: {أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ}، أى: لا بدّ لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به شهادة الجلود بالملامسة للحرام، وما أشبه ذلك مما يفضى إليها من المحرّمات".

وفي قوله تعالى: {وَجُلُودُهُمْ} [فصلت: ٢٠]، أقوال:

أحدها: لجلودهم أنفسها وهو الظاهر.

الثاني: أن «جلودهم»: كناية عن الفروج، قاله عبيد الله بن أبي جعفر، والسدي، وزيد بن أسلم، وبه قال ابن قتيبة.

=

قال السدي:"أراد بالجلود: الفرُوج".

عبيد الله بن أبي جعفر، يقول: "{حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ}، قال: جلودهم: الفروج".

وروي عن الحكم الثقفي، رجل من آل أبي عقيل رفع الحديث، " {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا}، إنما عني فروجهم، ولكن كني عنها".

قال الطبري: وهذا القول" وإن كان معنى يحتمله التأويل، فليس بالأغلب على معنى الجلود ولا بالأشهر، وغير جائز نقل معنى ذلك المعروف على الشيء الأقرب إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها".

الثالث: أنه يراد بالجلود الأيدي والأرجل، قاله ابن عباس.

قال الماوردي:"وقيل إن أول ما يتكلم منه فخذه الأيسر وكفه الأيمن".

عن عقبة، سمع النبي ﷺ يقول:"إن أول عظم تكلم من الإنسان يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل الشمال".

عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه قال:-وأشار بيده إلى الشأم-، قال:"هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركبانا ومشاة على وجوهكم يوم القيامة، على أفواهكم الفدام، توقون سبعين أمة أنتم آخرها وأكرمها على الله، وإن أول ما يعرب من أحدكم فخذه".

وفي رواية:"وتجيئون يوم القيامة على أفواهكم الفدام، وإن أول ما يتكلم من الآدمي فخذه وكفه".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {يُحْشَرُ} فيها قِراءتانِ: {يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ} وعَلَى هذه القِراءةِ يَكونُ الفِعلُ مَبنيًّا لِما لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ، {يُحْشَرُ} يَكونُ مبنيًّا لما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، وكلَّما رَأَيتَ فِعلًا مُضارعًا مَضمومَ الأَوَّل مَفتوحَ ما قَبْلَ الآخِرِ فهو مَبنيٌّ لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، فإنْ رأيتَه مَضمومَ الأوَّل فقط فلا يَكونُ مبنيًّا لِما لم يُسَمَّ

فاعلُهُ؛ لأنَّ المُضارعَ من الرُّباعيِّ يَكونُ مَضمومَ الأوَّل مثل: يُقْدِمُ الرَّجلُ، يُكرِمُ الرَّجلَ وما أَشْبَهَ ذلك.

إذن هذا اللَّفظُ إِحْدى القِراءتَينِ {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ} وعلى هذا فيَكونُ {يُحْشَرُ} فِعلًا مُضارعًا مبنيًّا لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، ولاحِظْ أنَّ قولَنا لما لَمْ يُسمَّ فاعلُه أولى من قولنا مبنيٌّ للمَجهولِ؛ لأنَّه قد يَكونُ الفاعِلُ معلومًا كقولِه تعالى: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} الخالِقُ اللهُ، مَعلومٌ مع أنَّ الفِعلَ مبنيٌّ لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، ولهذا فالتَّعبيرُ بقولِكَ: (خُلِقَ) فِعلٌ ماضٍ مبنيٌّ لما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، أَولَى مِن قولِكَ: (خَلَقَ) فِعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمَجهولِ، وكذلك {يُحْشَرُ} فِعلٌ مُضارعٌ مَبنيٌّ لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، وقولُهُ: {أَعْدَاءُ اللهِ} {أَعْدَاءُ} نائبُ فاعلٍ.

وفيها قِراءةٌ أُخْرى: "ويَومَ نَحشُرُ أَعداءَ اللهِ" أشار إليه المفسِّر ما حاجَةٌ للتَّعليقِ، ويومَ نَحشُرُ أَعداءَ اللهِ، وعلى هذه القِراءةِ تَكونُ (نَحشُرُ) فعلًا مضارعًا مبنيًّا للفاعلِ، والفاعلُ هنا مُستتِرٌ وُجوبًا، و (أعداءَ) مَفعولٌ به مَنصوبٌ.

والفاعلُ إذا كان تَقديرُه أنا أو أنت أو نحن فهو مُستتِرٌ وجوبًا؛ وإذا كان تَقديرُه هو أو هي فهو مستتِرٌ جوازًا. مَثَلًا: (أَقُومُ) مُستتِرٌ وجوبًا تَقديرُه: أنا، (تَقُومُ) تُخاطِبُ رجلًا تَقولُ أنت تَقومُ وجوبًا؛ لأنَّ تَقديرَه أنت، (نَقومُ) وجوبًا؛ لأنَّ تَقديرَه: نحن، (قام) جوازًا؛ لأنَّ تَقديرَه: هو، (قامت) جوازًا؛ لأنَّ تَقديرَه هي، (تقوم) إذا كان تَتَحدَّث عن امرأةٍ فقلت: هندُ تَقومُ فهو مستتِرٌ جوازًا؛ لأنَّ التَّقديرَ: هي، وإذا كنت تُخاطِبُ رجلًا فهو مُستتِرٌ وجوبًا؛ لأنَّ التَّقديرَ: أنت، إذن هذا الضَّابطُ ما كان تَقديرُه هو أو نحن أو أنت فهو مستتِرٌ وجوبًا، وما كان تَقديرُه هو أو هي فهو مستتِرٌ جوازًا.

وقوله تعالى: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ} (يوم) ظرفٌ، وكُلُّ ظرفٍ لا بدَّ له من مُتعلِّقٍ؛ لأنَّ الظَّرفَ اسمُ مفعولٍ فيه، فلا بدَّ من فِعلٍ، ولهذا قال ناظمُ الجُمَلِ:

=

لابدَّ للجارِ مِن التَّعلُّق ... بفِعلٍ أو معناه نحو مُرتَقي

والعامِلُ في (يوم) مَحذوفٌ، التَّقديرُ كما قال المفسِّر: [واذكر يومَ يُحشَرُ] {أَعْدَاءُ اللهِ} و {يُحْشَرُ} بمعنى يُجمَعُ ويُساقُ، وفيها قِراءتانِ: بالياءِ والنُّون المَفتوحَةِ، يَعني يُحشَرُ بالياءِ والنُّونِ المَفتوحَةِ وضَمِّ الشِّينِ. يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِالياءِ والنُّون المَفتوحَةِ وضَمِّ الشِّينِ وفَتحِ الهَمْزَةِ].

لم يُكمِلِ المفسِّر في الواقِعِ القِراءةَ الثَّانيةَ، {يُحْشَرُ} فيها قِراءتانِ: الأُولَى ضَمُّ الياءِ وفتحِ الشِّينِ، وعلى هذه القِراءَةِ يَجِبُ أن تَكونَ {أَعْدَاءُ} مَرفوعَةً على أَنَّها نائبُ فاعِلٍ.

القِراءَةُ الثَّانيةُ: بفَتحِ النُّون (نَحشُرُ) وضَمِّ الشِّين وعلى هذِهِ القراءِةِ فيَجِبُ أن تَكونَ (أعداءَ) مَنصوبَةً على أَنَّها مَفعولٌ به، "ويَومَ نَحشُرُ أعداءَ اللهِ".

والقِراءتانِ اللَّتانِ تَكونانِ في القُرآنِ الَّذي بَيْنَ أَيدينا ليس هما الحُروفَ السَّبعةَ، فالحُروفُ السَّبعَةُ الآنَ غَيرُ مَعلومَةٍ؛ لأنَّه قُضِيَ عليها بتَوحيدِ المُصحفِ في عَهدِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكنَّ القِراءاتِ السَّبعَ المَوجودَةَ في حَرفٍ واحدٍ وهو حَرفُ قُريشٍ الَّذي تَوحَّدت المَصاحِفُ عليه في عَهْدِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولهذا لا حاجَةَ إلى التَّفتيشِ والتَّنقيبِ عن الحُروفِ السَّبعَةِ في وقتنا هذا؛ لأنَّها انتهت وقُضِيَ عليها.

قال اللهُ تَعالَى: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} {أَعْدَاءُ اللهِ} يُمكنُ أن نَعرفَهم بمَعرِفَةِ أولياءِ اللهِ، وأَوْلياءُ اللهِ تعالَى قال اللهُ في بَيانِهِمْ: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: ٦٢ - ٦٣]، ضِدُّ الإيمانِ الكُفْرُ، وضِدُّ التَّقوى المَعاصي والفُسوقُ، فأعداءُ اللهِ إذن هُمُ الكُفَّارُ والفَسَقَةُ يُحشَرونَ {إِلَى النَّارِ}؛ أي: يُساقونَ إليها ويُجمَعون إليها.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ}: يُساقونَ] ولها معنًى آخَرَ أيضًا:

=

يُساقونَ بالتَّوزيعِ، يَعني أنَّهم طَوائِفُ وأُمَمٌ كُلَّما دَخَلت أُمَّةٌ لعنت أُخْتَها، فهم يُوزَعونَ بالسِّياقِ أي يُساقونَ، ويُوزَعونَ أيضًا بالتَّفريقِ، كُلُّ أُمَّةٍ وَحْدَها فهُمْ يُوزَعونَ.

قال اللهُ تعالى: {حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ} إلخ [فُصِّلَت: ٢٠].

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا} زائدَةٌ] يَعني: كَلِمَةَ {مَا} زائدَةٌ؛ لأنَّها وقعت بَعْدَ {إِذَا}، وكُلَّما وقعت (ما) بعدَ (إذا) فهي زائدَةٌ، وعليك بحِفْظِ البيتِ:

يا طالبًا خُذْ فائدَه ... (ما) بَعدَ (إذا) زائدَه

قولُه تعالى: {حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا} {جَاءُوهَا} أي وصلوا إليها {شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} قَبْلَ أن يَدخُلوها تَستَشْهِدُ عليهم هذه الجوارحُ حتَّى يَدخُلوا وهم موقِنونَ أنَّهم عومِلوا بالعَدْلِ والإنصافِ.

ويَشْهَدُ عليهم سَمْعُهم، فهل يَشْهَدُ بما سَمِعوا مِن اللَّغوِ والكَلامِ المُحرَّمِ، أو يَشهدُ السَّمْعُ بجَميعِ الأعمالِ؟ يَحتَمِلُ وَجْهَينِ: إمَّا أن يَكونَ المَعنَى: شَهِدَ عليهم سَمْعُهم بما سَمِعوا مِنَ الباطِلِ، وأَبصارُهُم بما شاهَدوه مِن الباطلِ، وجُلودُهم بما لمَسوا مِنَ الباطلِ، أو أنَّ هذه الأعضاءَ تَشْهَدُ على كُلِّ عَمَلٍ عَمِلوه، يَحتَمِلُ هذا وهذا، والثَّاني أَعظَمُ، أن يَكونَ السَّمعُ يَشهَدُ بما حَصَلَ عن طَريقِهِ، وبما حَصَلَ عن طَريقِ البَصَرِ، وبما حَصَلَ عن طَريقِ اللَّمْسِ، هذا أعظَمُ مِمَّا لو شَهِدَ بما حَصَلَ منه فقط.

وهَلْ هذا الإِشْهادُ بعد إنكارٍ أو لِلتَّحقيقِ والتَّوكيدِ؟

الجواب: ليس في الآيَةِ ما يَدُلُّ على ذلك، لكن قيلَ -كما في آيَةٍ أُخرَى- أنَّ هذا إِنَّما يَكونُ بعدَ إنكارِهِم أن يَكونوا أَشْركوا كما قال تَعالَى: {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣].

وقولُهُ: {وَجُلُودُهُمْ} بما مَسَّت، وهي أَعَمُّ من شَهادَةِ السَّمعِ والبَصَرِ؛ لأنَّه يَدْخُلُ

في ذلكَ اليدُ والرِّجلُ والشَّمُّ وغيرُ ذلك، كُلُّ هذا عَن طَريقِ المُلامَسَةِ.
قوله تعالى: {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا}.
قال الطبري:"وقال هؤلاء الذين يحشرون إلى النار من أعداء الله سبحانه لجلودهم إذ شهدت عليهم بما كانوا في الدنيا يعملون: لم شهدتم علينا بما كنا نعمل في الدنيا؟ ".
قال مقاتل:"قالت الألسن للجوارح: {لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا}، يعني: الجوارح قالوا أبعدكم الله إنما كنا نجاحش عنكم فلم شهدتم علينا بالشرك ولم تكونوا تتكلمون في الدنيا".
قال ابن كثير:"أي: لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم".
قال الزمخشري:"وإنما قالوا لهم: {لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا}، لما تعاظمهم من شهادتها وكبر عليهم من الافتضاح على ألسنة جوارحهم".
قوله تعالى: {قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [فصلت: ٢١]، أي:"فأجابتهم جلودهم: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء".
قال الطبري:"فأجابتهم جلودهم: {أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} فنطقنا".
قال الزمخشري:"أراد بكل شيء: كل شيء من الحيوان، كما أراد به في قوله تعالى {وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، كل شيء من المقدورات، والمعنى: أنّ نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان".
عن زيد بن أسلم، قال: "الأشهاد أربعة الملائكة: الذين يحصون أعمالنا، وقرأ: {وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد}، والنبيون شهداء على أممهم، وقرأ: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد}، وأمة محمد ﷺ شهداء على الأمم، وقرأ: {لتكونوا شهداء على الناس}، والأجساد والجلود، وقرأ: {وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء} ".

=

عن أنس، قال: "ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم حتى بدت نواجذه، ثم قال:"ألا تسألوني مم ضحكت؟ " قالوا: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال:"عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة! قال: يقول: يا رب أليس وعدتني أن لا تظلمني؟ قال: فإن لك ذلك، قال: فإني لا أقبل علي شاهدا إلا من نفسي، قال: أوليس كفى بي شهيدا، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال فيختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، قال: فيقول لهن: بعدا لكن وسحقنا، عنكن كنت أجادل".

قوله تعالى: {وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [فصلت: ٢١]، أي:"وهو الذي خلقكم أول مرة ولم تكونوا شيئًا".

قال مقاتل: "يعني: هو أنطقكم أول مرة من قبلها في الدنيا، قبل أن ننطق نحن".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والله خلقكم الخلق الأول ولم تكونوا شيئا".

قال السعدي:"فكما خلقكم بذواتكم، وأجسامكم، خلق أيضا صفاتكم، ومن ذلك، الإنطاق".

قال ابن كثير:"أي: فهو لا يخالف ولا يمانع".

قوله تعالى: {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [فصلت: ٢١]، أي:"وإليه مصيركم بعد الموت للحساب والجزاء".

قال الطبري:"يقول: وإليه مصيركم من بعد مماتكم".

قال الزمخشري في قوله: {وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} :"المعنى: أنّ نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على خلقكم وإنشائكم أوّل مرّة، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه".

عن جابر بن عبد الله قال:"لما رجعت إلى النبي ﷺ مهاجرة البحر قال: "ألا تحدثون بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟ " فقال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينا نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل على رأسها

=

=

قلة من ماء، فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها فخرت على ركبتيها، فانكسرت قلتها. فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا غُدَر، إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدا؟ قال: يقول رسول الله ﷺ: "صَدَقَتْ و صدقت، كيف يُقدس الله قوما لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟ ".

وقال العثيمين: قال اللهُ تعالى: {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا} ولم يَقُلْ: لأبصارِهِم؛ لأنَّ شَهادَةَ الجُلودِ أَعْظَمُ وأعَمُّ، {وَقَالُوا} أي: أعداءَ اللهِ، {لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا} وهذا الاسْتِفهامُ اسْتِفهامُ إنكارٍ، كأنَّهم يَقولونَ: نَحنُ نُجادِلُ عنكم فكيفَ تَشهدونَ عَلينا.

{قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} يَعني أنْ شَهِدْنا؛ لأنَّ اللهَ أَنطَقَنا واللهُ ﷻ بيدِه مَلكوتُ السَّمَواتِ والأَرْضِ يُنْطِقُ كُلَّ شيءٍ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: أراد نُطقَهُ] ولا حاجَةَ إلى هذا القَيدِ؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى لا يَكرهُه أحدٌ حتَّى نَقولَ إنَّ هذا الفِعْلَ مُقَيَّدٌ بالإرادَةِ، ونَقولُ: أَنْطقَ كُلَّ شيءٍ ولا نَقولُ أراد نُطْقَه لأنَّه لا يُمكِنُ أن يَنطِقَ الشَّيءُ إلَّا بعدَ إرادَةِ اللهِ، ومثل هذا القَيْدِ غَيرُ مُناسبٍ؛ لأنَّنا لو اعتبَرناه لقلنا: كُلُّ فِعلٍ ذَكَرَه اللهُ عن نَفْسِه يَجِبُ أن نُقيِّدَه بالإرادَةِ، وهذا أَمْرٌ مُستكرَهٌ إذ إنَّنا نَعلَمُ أنَّ كلَّ فِعلٍ فَعَلَه اللهُ فإنَّما هو عن إرادةٍ، كما قال تَعالَى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢].

فاللهُ تعالى أَنْطَقَ كلَّ شيءٍ، أنطَقَ الحَجَرَ والشَّجَرَ، وسُمِعَ تَسبيحُ الحَصا والطَّعام بين يَدَيِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-، بل قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء: ٤٤] كُلُّ شيءٍ يُسبِّحُ اللهَ بلِسانِ المَقالِ إلَّا الكافِرَ

=

=

فإنَّه لا يُسَبِّحُ اللهَ بلسانِ المَقالِ؛ لأنَّه كافِرٌ يَصِفُ اللهَ تعالى بكُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، وكُلُّ شيءٍ يُسَبِّحُ اللهَ بِلِسانِ الحالِ حتَّى الكافِرُ يُسبِّحُ اللهَ بلسانِ الحالِ، بما أودَعَ اللهُ فيه مِنَ الآياتِ في الخِلقَةِ والخَلْقِ وما أَشبَهَ ذلكَ، كُلُّه يُسبِّحُ اللهَ ﷻ؛ أي: يُستَدَلُّ به على تَنزيهِ اللهِ عن كُلِّ نقصٍ وعَيبٍ. فإنْ قال قائلٌ: هل عُمومُ قولِه تَعالَى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} ينطبق على قول الصحابة أن الطعام كان يسبح بين أيديهم {وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} بأن يَكونَ سَبَّحَ ولكن لم يَفْقَهوا تَسبيحَه إلَّا بإخبارِ النَّبيِّ ﷺ، أو أنَّه سَبَّحَ حَقيقةً يَفهمُه أيُّ أحدٍ.

فالجَوابُ: ظاهرُ النُّصوصِ أنَّه يُسبِّحُ حَقيقةً، لكنَّ التَّسبيحَ {لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} باعتِبارِ المَجموعِ لا باعتِبارِ كُلِّ فردٍ، فإنَّ مِنَ الأشياءِ ما نَسمَعُ تَسبيحَه يُسبِّحُ تمامًا {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ} [ص: ١٨] فالظَّاهرُ أنَّها تُردِّدُ كما قال تعالى: {يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ} [سبأ: ١٠].

فإن قيلَ: هل التَّسبيحُ كما نقولُ نَحنُ أو خاصٌّ بها؟

فالجَوابُ: أنَّه تَقولُ سبحانَ اللهِ.

وإن قيل: هل صوتُ غَديرِ الماءِ هو تَسبيحُهُ؟

فالجَوابُ: لَا، هذا خطأٌ، فخَريرُ الماءِ ليس صوتَ تَسبيحٍ، بل هذا طَبيعيٌّ، فهل نَقولُ حركةُ الإنسانِ بالأرضِ إذا وَطِئت أقدامُه الأرضَ وسَمِعَ لها الصَّوتَ هذا تَسبيحٌ؟ !

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} قيل: هو مِن كلام الجلودِ، وقيل هو مِن كَلامِ اللهِ تَعالَى كالَّذي بَعدَهُ، وموقِعُه قَريبٌ مِمَّا قَبلَه، بأنَّ القادِرَ على إِنشائِكم ابتداءً وإِعادَتِكم بعدَ الموتِ أَحياءً قادرٌ على إِنطاقِ جُلودِكم وأَعضائِكم].

وقولُهُ: {خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} يَحتَمِلُ أنَّه مِن كَلامِ اللهِ يُخاطِبُ به هَؤلاءِ المكذِّبينَ

=

=
والأعداءَ، ويَحتَمِلُ أنَّه تَتِمَّةُ كَلامِ الجلودِ، يعني أنَّ الجلودَ تَستدِلُّ على قُدرةِ الله تعالَى على إنطاقِها بأنَّه خَلَقَهم أَوَّل مَرَّة.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان ذلك: [قيل: هو مِن كَلامِ الجُلودِ، وقيل: هو مِن كَلامِ اللهِ]، وإذا قال المُؤَلِّفونَ: قيل كذا وقيل كذا، فالخِلافُ هنا مُطلَقٌ لا تَقديمَ فيه ولا تَأخيرَ، وإذا قيل: هو مِن كَلامِ الجُلودِ، وقيل: مِن كَلامِ الله هنا يَكونُ قَدَّمَ الأَوَّلَ، أمَّا إذا قال المُؤَلِّفون: قيل وقيل، فهذا لَيسَ فيه تَقديمٌ، بل هو نَقْلُ خِلافٍ على وَجهِ الإطْلاقِ.

وعلى هذا فالقَولانِ لَدى المفسِّر مُتساويانِ؛ وأَن نَجعلَه من كَلامِ الجُلودِ حتَّى يَتَّصِلَ الكَلامُ بَعضُه ببَعضٍ: أَقْرَبُ من حيثُ اللَّفظِ، أَقْرَبُ أنَّ الجُلودَ تَقولُ: {أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ}، وتَقولُ لِهؤلاءِ: هو الَّذي خَلَقَكم أَوَّل مَرَّةٍ وإليه تُرجَعونَ.

لكنَّ القَولَ الثَّاني أَقوَمُ للمَعْنى، يَعني: أنَّ اللهَ لمَّا بَيَّنَ أنَّ هؤلاءِ يُعادونَ يومَ القيامَةِ ويُحاسَبونَ وتَشهَدُ عليهِمُ السَّمعُ والأبصارُ والجُلودُ بَيَّنَ عَجَّلَ أنَّه قادرٌ على الإعادَةِ؛ لأنَّ هؤلاءِ الَّذينَ كَذَّبوا يُنكِرونَ البَعْثَ فقال: {وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}، والقادِرُ على الخَلْقِ أَوَّلَ مَرَّةٍ قادرٌ على إعادتِهِ، دَليلُ ذلك قولُه تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧] فهو يَقولُ: {وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}، والقادِرُ على ذلك قادِرٌ على الإعادَةِ.

وقولُهُ: {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} هذا فيه أيضًا إشارَةٌ إلى الحِكْمةِ مِن خَلْقِ الخَلْقِ أَنَّهم يُبتَلونَ فيُؤمَرونَ ويُنْهَونَ، ومَآلُهُم إلى اللهِ عَجَّلَ، يُجازيهم بِحَسَبِ أعمالِهِم الَّتي كَلَّفهم بها.

فإنْ قال قائلٌ: هَلِ العَذابُ الواقعُ على الأعضاءِ تَأثيرُه في نَفْسِ الأعضاءِ؟

فالجَوابُ: لا، الواقِعُ أنَّ العذابَ على أَهْلِ النَّارِ واقعٌ على كُلِّ البَدَنِ، ولهذا قال
=

=

اللهُ تعالى: {كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ} [النساء: ٥٦] لكن هم يتَعَجَّبون، ويُوَبِّخون السَّمعَ والأبصارَ والجُلودَ، لِمَ شَهِدْتُم علينا ونحن نُجادِلُ عنكم.

قوله تعالى: {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ....} أخرجه البخاري (رقم ٤٨١٦، ٤٨١٧، ٧٥٢١)، ومسلم (رقم ٢٧٧٥/ ٥) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: {وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم}؛ قال: كان رجلان من قريش وختن لهما من ثقيف-أو رجلان من ثقيف وختن لهما من قريش- في بيت، كثيرة شحم بطونهم قليلة فقه قلوبهم، فقال بعضهم لبعض: أترون أن الله يسمع حديثنا؟ قال بعضهم: يسمع بعضه (وفي رواية: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا)، وقال بعضهم: لئن كان يسمع بعضه لقد يسمع كله (وفي رواية: إن كان يسمع إذا جهرنا؛ فإنه يسمع إذا أخفينا)؛ فأنزل الله-عز وجل-: {وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون (٢٢)}.

قوله تعالى: {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ}.

قال ابن كثير:"أي: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تتكتمون منا الذي كنتم تفعلونه بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم".

قال السعدي:"أي: وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تحاذرون من ذلك".

وفي قوله تعالى: {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ} [فصلت: ٢٢]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: وما كنتم تتقون، قاله مجاهد.

=

=

الثاني: وما كنتم تظنون، قاله قتادة.

وقال قتادة:"والله إن عليك يا ابن آدم لشهودا غير متهمة من بدنك، فراقبهم واتق الله في سر أمرك وعلانيتك، فإنه لا يخفي عليه خافية، الظلمة عنده ضوء، والسر عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل، ولا قوة إلا بالله".

الثالث: وما كنتم تستخفون منها، قاله السدي.

قال الكلبي: "لأنه لا يقدر على الاستتار من نفسه".

قال الفراء:"يقول: لم تكونوا تخافون أن تشهد عليكم جوارحكم فتستتروا منها، ولم تكونوا لتقدروا على الاستتار، ويكون على التعبير: أي: لم تكونوا تستترون منها".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: وما كنتم تستخفون، فتتركوا ركوب محارم الله في الدنيا حذرا أن يشهد عليكم سمعكم وأبصاركم اليوم، وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك بالصواب، لأن المعروف من معاني الاستتار الاستخفاء، فإن قال قائل: وكيف يستخفي الإنسان عن نفسه مما يأتي؟ قيل: قد بينا أن معنى ذلك إنما هو الأماني، وفي تركه إتيانه إخفاؤه عن نفسه".

قال الزمخشري:"المعنى: أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش، وما كان استتاركم ذلك خيفة أن يشهد عليكم جوارحكم، لأنكم كنتم غير عاملين بشهادتها عليكم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلا".

وقال العثيمين: ثُمَّ قال اللهُ تعالى: {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ}.. إلى آخرِهِ، هذا هو معنى قولِ المفَسِّر: [كالَّذي بعده]، وهذا لا شكَّ أنَّه من كَلامِ الله ولَيْسَ من كَلامِ الجُلودِ، وقولُ المفسِّرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: [ومَوقعُه قَريبٌ مِمَّا قَبْلَه] يعني: مَوقعُ هذا الكَلامِ

{وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} قَريبٌ مِما قَبلَهُ، يعني: يُبَيِّنُ مُناسَبَةَ هذه الجُملَةِ لِما قَبلَها، وهو أنَّ القادِرَ على إنشائِكُم ابتداءً وإعادَتِكم بَعدَ المَوتِ أحياءً قادرٌ على إنْطاقِ جُلودِكم وأَعْضائِكم.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ} عنِ ارتِكابِكم الفَواحِشَ من {أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ}]، يعني: ما كُنتُم تَستَخفونَ في مَعاصيكُم وكُفْرِكم، وغَيرُ ذلك مِمَّا يَستَترونَ به خوفًا من: {أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ}، يعني: أنَّ الكُفَّارَ يَستتِرونَ أحيانًا بِالمَعاصي لكن لا يَستَتِرونَ خوفًا مِن أن تَشهَدَ عليهم سَمْعُهم وأبصارُهُم وجُلودُهُم، لأنَّ هذه الأشياءَ لا استِتارَ عنها إطلاقًا إذ إنَّها هي الإنسانُ، ولا يُمكِنُ الاستِتارُ عنها، وأيضًا هُم لا يُؤمنونَ بأنَّها سوف تَشهَدُ عليهم يومًا من الأيَّامِ، فصاروا لا يَستَتِرونَ عن هذه الأشياءِ لوَجهينِ:

الأوَّلُ: أنه لا انفكاكَ عنها، وَجهُه أنَّها هي مُكوِّناتُهم.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه ما كان يَطرأُ على بالِهم يومًا مِن الأيَّام أنَّ هذه سوف تَشهدُ عليهم؛ لأنَّهم يُنكِرونَ البعثَ، وإنكارُ البَعثْ يَستلزِمُ ألَّا يُؤمنوا بأنَّها تَشهَدُ عليهم.

قولُه تعالى: {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ} معنى {تَسْتَتِرُونَ}: تستخفون، وقولُهُ: {أَنْ يَشْهَدَ} هي على تَقديرِ محَذوفٍ، التَّقديرُ: خَوفَ أن يَشهَدَ عليكُمْ سَمْعُكم وأَبصارُكم.. إلى آخِره.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [لأنَّكم لم توقِنوا بالبَعثِ]، هذا التَّعليلُ أضفنا إليه تعليلًا آخَرَ، وهو عَدَمُ انْفِكاكِ جُلودِهِمْ وسَمْعِهم وأبصارِهِم.

قوله تعالى: {وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ} [فصلت: ٢٢]، أي:"ولكن ظننتم بارتكابكم المعاصي أن الله لا يعلم كثيرًا من أعمالكم التي

=

تعصون الله بها".

قال الطبري: يقول:"ولكن حسبتم حين ركبتم في الدنيا من معاصي الله أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون من أعمالكم الخبيثة، فلذلك لم تستتروا أن يشهد عليكم سمعكم وأبصاركم وجلودكم، فتتركوا ركوب ما حرم الله عليكم".

قال ابن كثير:"أي: هذا الظن الفاسد- وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون- هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم".

قال الزمخشري: أي:"ولكنكم إنما استترتم لظنكم {أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا كنتم تَعْمَلُونَ} وهو الخفيات من أعمالكم".

قال السعدي:"{وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ} بإقدامكم على المعاصي {أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ} فلذلك صدر منكم ما صدر".

قوله تعالى: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ} [فصلت: ٢٣]، أي:"وذلكم ظنكم السيِّئ الذي ظننتموه بربكم أهلككم، فأوردكم النار".

قال النحاس:"أي: حين ظننتم أنه لا يسمعكم".

قال السعدي:"{ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ} الظن السيئ، حيث ظننتم به، ما لا يليق بجلاله، {أَرْدَاكُمْ} أي: أهلككم".

قال الطبري: يقول:"وهذا الذي كان منكم في الدنيا من ظنكم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون من قبائح أعمالكم ومساويها، هو ظنكم الذي ظننتم بربكم في الدنيا أرداكم، يعني أهلككم. يقال منه: أردى فلانا كذا وكذا: إذا أهلكه، وردي هو: إذا هلك، فهو يردى ردى؛ ومنه قول الأعشى:

أَفِي الطَّوْفِ خِفْتِ عَلَيَّ الرَّدَى... وكَمْ مِنْ ردًى أهْلَهُ لَمْ يَرِمْ

يعني: وكم من هالك أهله لم يرم".

عن السديّ، قوله: "{أَرْدَاكُمْ}، قال: أهلككم".

=

=

قال الزمخشري: أي:"وذلك الظنّ هو الذي أهلككم. وفي هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهب عنه، ولا يزل عن ذهنه أن عليه من الله علينا كالئة ورقيبا مهيمنا، حتى يكون في أوقات خلواته من ربه أهيب وأحسن احتشاما وأوفر تحفظا وتصونا منه مع الملأ، ولا يتبسط في سره مراقبة من التشبه بهؤلاء الظانين".

قوله تعالى: {فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت: ٢٣]، أي:"فأصبحتم اليوم من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم".

قال ابن كثير:"أي: في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم".

قال السعدي:"{فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} لأنفسهم وأهليهم وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم، فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم، في العذاب، الذي لا يفتر عنهم ساعة".

عن معمر، قال: "تلا الحسن هذه الآية {وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم} [فصلت: ٢٣]، قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله: «عبدي عند ظنه بي ، وأنا معه إذا دعاني» ثم أفتن- ينطق الحسن في هذا فقال: ألا وإن أعمال الناس على قدر ظنونهم بربهم ، فأما المؤمن فأحسن بالله الظن فأحسن العمل ، وأما الكافر والمنافق فأساء بالله الظن وأساء العمل ، قال الله: {وما كنتم تستترون} [فصلت: ٢٢] حتى {فأصبحتم من الخاسرين} [فصلت: ٢٣] ".

وفي رواية عن معمر، قال: "تلا الحسن: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ}، فقال: إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم؛ فأما المؤمن فأحسن بالله الظن، فأحسن العمل؛ وأما الكافر والمنافق، فأساءا الظن فأساءا العمل، قال ربكم: {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ}... حتى بلغ: الخاسرين} [فصلت: ٢٣]. قال معمر: وحدثني وجل: أنه يؤمر برجل إلى النار،

=

فيلتفت فيقول: يا ربّ ما كان هذا ظني بك، قال: وما كان ظنك بي؟ قال: كان ظني أن تغفر لي ولا تعذّبني، قال: فإني عند ظنك بي".
قال قتادة:"الظن ظنان، فظن منج، وظن مرد قال: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ} قال: {إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَه}، وهذا الظن المنجي ظنا يقينا، وقال ها هنا: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُم}، هذا ظن مرد".
قال سهل:"الظن السيئ من الجهل، وأجهل الناس من قطع على قلبه من غير علم، فقد قال الله تعالى: {وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ} [فصلت: ٢٣] وإن العبد ليحرم الرزق الهني وصلاته بالليل بسوء الظن. وقد كان رجل من العباد نام ليلة عن ورده، فجزع عليه، فقيل: أتجزع على ما تدركه؟ قال: لست أجزع عليه، وإنما أجزع على الذنب الذي به صرت محروماً عن ذلك الخير. فقيل لسهل: ما معنى قوله ﷺ: «احترسوا من الناس بسوء الظن»، فقال: معنى هذا بسوء الظن بنفسك لا بالناس، أي اتهم نفسك بأنك لا تنصفهم من نفسك في معاملاتهم".
وقال العثيمين: يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ} عند استِتارِكم {أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ}] هذا الَّذي ظَنُّوه باللهِ فظَنُّوا باللهِ تَعالَى ظَنَّ السَّوءِ، وأنَّهم إذا استَتَروا عَنِ الخَلْقِ استَتَروا عن اللهِ، ولهذا قال: {كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ} والكَثيرُ الثَّاني: ما يَفعَلونه عَلانيَةً ولا يَهتمُّون به.
يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَذَلِكُمْ} مبتدأٌ {ظَنُّكُمُ} بَدَلٌ منه {الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ} نَعتٌ والخَبَرُ {أَرْدَاكُمْ}] المفسِّر أعرَبَ الآيَةَ على وَجْهِ التَّفصيلِ.
{وَذَلِكُمْ}: (ذا) اسْمُ إشارَةٍ و (اللَّام) للبُعْدِ و (الكافُ) حَرفُ خِطابٍ وجاءت بالجمْعِ؛ لأنَّ المُخاطَبَ جَماعَةٌ.
وهنا يَجِبُ أن نَعرِفَ أنَّ اسمَ الإشارَةِ يَعودُ إلى المُشارِ إليه، و (الكافُ) تَعودُ إلى

=

المُخاطَبِ، فإذا خاطبت ذَكَرًا تُشيرُ إلى شيءٍ مُذكَّرٍ تَقولُ: ذلك، وإذا أشرت إلى اثنين مخُاطبًا ذَكَرًا تَقولُ: ذانِكَ، وإذا أشرت إلى واحدٍ تُخاطِبُ اثنين تَقولُ: ذلكما، وإذا أشرت إلى واحدٍ تُخاطِبُ جماعَةَ نساءٍ تَقولُ: ذلكن، وإذا أشرت إلى واحدةٍ تُخاطِبُ جماعةَ إناثٍ، تَقولُ: تِلْكُنَّ، وإذا أشرت إلى جَماعَةٍ مخُاطِبًا جماعَةَ ذُكورٍ، تَقولُ: أولئكم، ففي القُرآنِ: {وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء: ٩١]، وإذا أَشَرت إلى مُؤَنَّثتين تُخاطِبُ اثنتَينِ، تَقولُ: تَانِكُما، والأمثِلَةُ كَثيرةٌ، لكنَّ المُهِمَّ ألَّا يَلتَبِسَ المُشارُ إليه بالمُخاطَبِ، فاسْمُ الإشارَةِ يَكونُ بِحَسَبِ المُشارِ إليه، والكافُ بِحَسَبِ المُخاطَبِ.

وفي (كافِ المُخاطَبِ) في الإشارَةِ أَقوالٌ ثَلاثَةٌ وكُلُّها لُغاتٌ:

١- نُلزِمُها طَريقةً واحدَةً بالإفرادِ والفَتْحِ، فنقول: ذلكَ تانكَ ذانكَ.

٢- أو نُلزِمُها الإفرادَ مع الفَتْحِ للمُذكَّر والكَسرِ للمُؤَنَّث، هذانِ وَجهانِ.

٣- أو نَقولُ: هي حَسَبُ المُخاطَبِ المُفرَدِ المُذكَّر له كافٌ مفتوحةٌ والمُفردَةُ المُؤنَّثةُ كافٌ مكسورةٌ، والمُثنَّى كافٌ مَقرونَةٌ بعَلَم التَّثنيَةِ، وجماعَةُ النِّساءِ كافٌ مقرونَةٌ بنونِ النِّسوَةِ، وجماعَةُ الذُّكورِ كافٌ مقرونَةٌ بميمِ الجَمْعِ، الأخيرِ هو الأفصَحُ، لكن يَجوزُ الوَجهانِ الآخَرانِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{وَذَلِكُمْ} مبتدأٌ {ظَنُّكُمُ} بدلٌ منه {الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ} نعتٌ، والخَبَرُ {أَرْدَاكُمْ}]، يعني مَعناه أنَّ قولَه: {وَذَلِكُمْ} وما عُطِفَ عليها أو صار صِفَةً لها في مقامِ المبتَدَأ، و {أَرْدَاكُمْ} في مقامِ الخَبَرِ.

ويُمكِنُ احتِمالَ وَجْهٍ آخَرَ أن نَجعلَ (ذا) مُبتدأٌ و {ظَنُّكُمُ} خَبرُهُ، و {أَرْدَاكُمْ} خَبَرٌ ثانٍ، وهذا الوَجهُ أَقْوَى في المعنَى، يعني: ذلكم ظَنُّكُم الَّذي ظَنَنتم بِرَبِّكم- ولم تَظنُّوا به سواه- أنَّه لن يُعيدَكم، ثُمَّ أَخبَرَ عن هذا الظَّنِّ خَبرًا آخَرَ فقال: {أَرْدَاكُمْ}، فهذا المعنى أَقْوى من قَولِ المفسِّر رحمه الله تعالى.

=

=

قال اللهُ تَعالَى: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ} وهو اللهُ ﷻ وأَضافَ الرُّبوبيَّة إليهم؛ لأنَّهم يُقِرُّون برُبوبيَّة اللهِ لا يُنكِرونها {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ} [المؤمنون: ٨٦] وفي قِراءةٍ أُخْرَى سَبعيَّةٍ: "سيقولون الله".

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: {أَرْدَاكُمْ} أي [أَهْلَكَكُمْ].

وقولُه تعالى: {فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} أي: صِرتُمْ مِن الخاسِرينَ، وهُنا (أَصْبَحَ) لو نَظَرنا إلى مجُرَّدِ لَفْظِها لكانت دَالَّةً على الإِصْباحِ، لكنَّها تُستَعْمَلُ في اللُّغة العربيَّة بمعنى الصَّيرورَةِ، تَقولُ: أصبَحَ لا يَعلَمُ شيئًا أي صار لا يَعلَمُ شيئًا، وهُنا أصبحتم مِنَ الخاسِرينَ ليس المَعْنى دَخَلْتم في الصَّباح خاسِرينَ، ولكنَّ المَعْنَى: صِرتُمْ مِن الخاسِرينَ، والخاسِرُ ضِدُّ الرَّابحِ، وإنَّما قال: {مِنَ الْخَاسِرِينَ} لأنَّ هؤلاءِ الَّذين أَنْكَروا البَعثَ خَسِروا الدُّنيا والآخِرَةَ في الواقِعِ، فدُنياهُمْ لم تَنفَعْهم وهُمْ في الآخِرَةِ في النَّار، وهذا غَايةُ الخُسْرانِ.

قوله تعالى: {فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [فصلت: ٢٤]، أي:"فإن يصبروا على العذاب فالنار مأواهم".

قال الطبري: يقول:"فإن يصبر هؤلاء الذين يحشرون إلى النار على النار، فالنار مسكن لهم ومنزل.

قال الزمخشري:"لم ينفعهم الصبر ولم ينفكوا به من الثواء في النار".

قال السعدي:"فلا جَلَدَ عليها، ولا صبر، وكل حالة قُدِّر إمكان الصبر عليها، فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار، قد اشتد حرها، وزادت على نار الدنيا، بسبعين ضعفًا، وعظم غليان حميمها، وزاد نتن صديدها، وتضاعف برد زمهريرها وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامعها، وغلظ خُزَّانها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختام ذلك سخط الجبار، وقوله لهم حين

=

يدعونه ويستغيثون: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ} ".

قوله تعالى: {وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ} [فصلت: ٢٤]، أي:"وإن يسألوا الرجوع إلى الدنيا؛ ليستأنفوا العمل الصالح لا يُجابوا إلى ذلك، ولا تُقبل لهم أعذار".

قال الطبري:"يقول: وإن يسألوا العُتبى، وهي الرجعة لهم إلى الذي يحبون بتخفيف العذاب عنهم. يقول: فليسوا بالقوم الذين يرجع بهم إلى الجنة، فيخفف عنهم ما هم فيه من العذاب، وذلك كقوله جلّ ثناؤه مخبرا عنهم: {قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا}... إلى قوله {وَلا تُكَلِّمُونِ}، وكقولهم لخزنة جهنم: {ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ}... إلى قوله: {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ} ".

قال الزمخشري:"وإن يسألوا العتبى وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعا مما هم فيه: لم يعتبوا: لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها، ونحوه قوله عز وعلا: {أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ} ".

قال السعدي:"{وَإِنْ}: يطلبوا أن يزال عنهم العتب، ويرجعوا إلى الدنيا، ليستأنفوا العمل، {فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ}، لأنه ذهب وقته، وعمروا، ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير وانقطعت حجتهم، مع أن استعتابهم، كذب منهم {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} ".

ويقرأ: «يستعتبوا»-بضم الياء وفتح التاء-؛ أي: يطلب منهم ما لا يعتبون عليه؛ «فما هم من المعتبين»،-بكسر التاء-؛ أي: ممن يزيل العتب، وقيل: المعنى: "إن سئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون، أى: لا سبيل لهم إلى ذلك.

وقال العثيمين: يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{فَإِنْ يَصْبِرُوا} على العَذابِ {فَالنَّارُ مَثْوًى} مأوى {لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا} يَطلُبوا العُتْبَى؛ أي: الرِّضا {فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ}
=

=

المَرضِيِّين].

{فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ} (الفاءُ) رابطَةٌ لجوابِ الشَّرطِ، (ما) نافِيةٌ تعمَلُ عَمَلَ (ليس)، واسم (ما): (هم) مَبنيٌّ على السُّكونِ، {مِنَ الْمُعْتَبِينَ} جارٌّ ومجَرورٌ مُتعلِّقٌ بالمَحذوفِ خبرُ (ما).

وهنا تَتَّفقُ اللُّغتانِ الحِجازِيَّةُ والتَّميمِيَّةُ من حيثُ اللَّفظِ، وتختلفان من حيثُ الإعرابُ، أمَّا في قولِه تعالى: {مَا هَذَا بَشَرًا} [يوسف: ٣١] فلا تَتَّفِقُ اللُّغتانِ، فلُغةُ تميمٍ أن يُقالَ: (ما هذا بَشَرٌ)، لأنَّ (ما) مُهمَلَةٌ عند التَّميميِّينَ، وعامِلَةٌ عَمَلَ (ليس) عند الحِجازيِّينَ، فتَقولُ مَثلًا: (ما زَيدٌ قائمًا)، وإذا كُنْتَ خاطبت إنسانًا وقلت: (ما زَيْدٌ قائمًا) عرفنا أنَّك حِجازِيٌّ، وإذا خاطبت إنسانًا وقلت: (ما زَيْدٌ قائمٌ) عرفنا أنَّكَ تَميميٌّ؛ ولهذا قال الشَّاعِرُ:

ومُهفهَف الأعطافِ قلت له انتسب ... فأجابَ ما قَتْلُ المُحِبِّ حرامٌ

قوله: "انتسب" يعني: مِنْ أين أنت؟ ؛ فأخبَرَه بنَسَبِه أنَّه تَميميٌّ إذ لو كان غَيرَ تَميميٍّ لقال: (ما قَتْلُ المُحِبِّ حَرامًا).

والاستِعتابُ طَلَبُ العُتْبَى، والعُتْبَى مَعناها قَبولُ العُذْرِ والرِّضا، فالمفسِّر فَسَّرها في النِّهايَةِ بالغايَةِ الَّتي هي الرِّضا؛ لأنَّ الإنسانَ إذا استُعْتِبَ وقُبِلَ عُذْرُه رَضِيَ عنه المُستَعتِبُ.

وهُنا وَعيدٌ شَديدٌ، إن يَصْبِروا فَالنَّارُ مَثوًى لهم، لم يَقُلْ إن يَصْبِروا فلْيَنْتَظِروا الفَرَجَ، بل قال: {فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ}، أي: لَيْسَ لهم إلَّا النَّارُ، وهذا كقولِه تعالى: {اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ} [الطور: ١٦] فَالعَذابُ سِوَى عَذابِ الآخِرَةِ يُنتَظَرُ الفَرَجُ له؛ لأنَّ دوامَ الحالِ مِنَ المُحالِ، فإذا صَبَرَ الإنسانُ على البَلاءِ فَالنِّهايَةُ الزَّوالُ، لكن في الآخِرَةِ إن يَصبِروا فلن يَسلَموا مِنَ العذابِ {فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ}، وهي مَثوًى لهم قَبْلَ الصَّبرِ وبعد الصَّبرِ، لكنَّ هذا من بابِ

=

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥).

{وقيضنا} سببنا {لهم قرناء} من الشياطين {فزينوا لهم ما بين أيديهم} من أمر الدنيا واتباع الشهوات {وما خلفهم} من أمر الآخرة بقولهم لا بعث ولا

=

التَّيئيسِ لهم، وأنَّ صَبرَهم لا يُفيدُهم شيئًا.

ومُناسَبَةُ جَوابِ الشَّرطِ لفعلِ الشَّرطِ هنا تَيئيسُ هؤلاءِ مِنَ الفَرَجِ، وقد تخفى مُناسبَتُه إذ إنَّ الإنسانُ يَتوقَّعُ أن يَكونَ الجَوابُ خِلافَ ذلك؛ لأنَّ ظاهِرَ الحالِ أن يَقولَ: فإن يَصبِروا فَالفَرَجُ قَريبٌ مَثلًا، لكنَّه قال: فالنَّارُ مثوًى لهم، أي: فلن يَتخلَّصوا منها.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا} يَطلُبوا العُتْبى أي: الرِّضا {فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ}] لأنَّهم يَسألونَ اللهَ تعالى فيَقولون: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ} [المؤمنون: ١٠٧]، والجَوابُ: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [المؤمنون: ١٠٨]، في الدُّنيا لو طالَبوا العُتْبى وتابوا إلى اللهِ لحَصَلَ لهم ذلك، لكن في الآخِرَةِ قد فات الأَوانُ، وقولُهُ: {فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} أي: مأوى، وكُلُّ إنسانٍ مأواه النَّارُ فلا حَظَّ له في الجَنَّةِ.

مسألة: إخبارُ الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسِه في القُرآنِ بصيغَةِ الغائِبِ يَقولُ: قال اللهُ قال اللهُ..، أليسَ الأَفْضَلُ في اللُّغةِ الإِخْبارَ بصيغَةِ المُخاطَبِ؟

الجَوابُ: لا هذا له أَحْوالٌ، لكن يَقولُ العُلَماءُ إنَّ المُتكلِّمَ إذا عَبَّر عن نفسِه بصيغَةِ الغائِبِ، فهذا دَليلٌ على العَظَمَةِ والتَّعظيمِ، ففَرْقٌ بينَ أن يَقولَ المَلِكُ مَلِكُ الدُّنيا: إنَّ المَلِكَ يَأمُرُكم أن تفعَلوا كذا، أو يَقولَ: إنِّي آمُرُكم، الأَوَّلُ أَعْظَمُ في التَّفخيمِ، وهذا من قَواعِدِ البَلاغَةِ تَعبيرُ المُخاطِبِ عن نفسِه بصيغَةِ الغائِبِ يدُلُّ على التَّعظيمِ لا سِيَّما إذا كان بوَصْفٍ يَقتَضي ذلك.

حساب {وحق عليهم القول} بالعذاب وهو {لأملأن جهنم} الآية {في} جملة {أمم قد خلت} هلكت {من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين}(١).

---

(١) **قال الطبري**: يقول:"وبعثنا لهم نُظراء من الشياطين، فجعلناهم لهم قرناء قرنَّاهم بهم يزيِّنون لهم قبائح أعمالهم، فزينوا لهم ذلك".

قال ابن كثير:"يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم في أفعاله، بما قَيَّض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن".

عن مجاهد، قوله: "{وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ}، قال: شياطين".

عن السديّ: "{وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ}، قال: الشيطان".

قال الزجاج:"{وَقَيَّضْنَا}: وسببنا من حيث لا يَحْتَسِبُون".

قال السعدي:"أي: وقضينا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق {قُرَنَاءَ} من الشياطين.. وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين، بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته، وجحودهم الحق كما قال تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}".

قوله تعالى: {فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} [فصلت: ٢٥]، أي:"فحسَّنوا لهم أعمالهم القبيحة، الحاضرة والمستقبلة".

قال الزجاج:"يقول: زينوا لهم أعمالهم التي يعملونها ويشاهدونها، وما يعزمون أن يعملوه".

قال الطبري:"يقول: فزين لهؤلاء الكفار قرناؤُهم من الشياطين ما بين أيديهم من أمر الدنيا. فحسنوا ذلك لهم وحبَّبوه إليهم حتى آثروه على أمر الآخرة، وحسَّنوا لهم أيضا ما بعد مماتهم بأن دعوهم إلى التكذيب بالمعاد، وأن من هلك منهم، =

فلن يُبعث، وأن لا ثواب ولا عقاب حتى صدّقوهم على ذلك، وسهل عليهم فعل كلّ ما يشتهونه، وركوب كلّ ما يلتذونه من الفواحش باستحسانهم ذلك لأنفسهم".

قال ابن كثير:"أي: حَسَّنوا لهم أعمالهم في الماضي، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} [الزخرف: ٣٦، ٣٧] ".

قال الفراء: {فزينوا لهم ما بين أيديهم} : "من أمر الآخرة، فقالوا: لا جنة، ولا نار، ولا بعث، ولا حساب، {وما خلفهم} من أمر الدنيا فزينوا لهم اللذات، وجمع الأموال، وترك النفقات في وجوه البر، فهذا ما خلفهم، وبذلك جاء التفسير، وقد يكون ما بين أيديهم ما هم فيه من أمر الدنيا، وما خلفهم من أمر الآخرة".

قال السعدي:"فالدنيا: زخرفوها بأعينهم، ودعوهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا، فأقدموا على معاصي الله، وسلكوا ما شاءوا من محاربة الله ورسله، والآخرة: بَعّدُوها عليهم وأنسوهم ذكرها، وربما أوقعوا عليهم الشُّبه، بعدم وقوعها، فترحَّل خوفها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر، والبدع، والمعاصي".

عن السديّ، " {فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ}، من أمر الدنيا. {وَمَا خَلْفَهُمْ}، من أمر الآخرة".

قوله تعالى: {وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} [فصلت: ٢٥]، أي:"ثبت وتحقق عليهم كلمة العذاب- وهو القضاء المحتَّم بشقائهم- في جملة أمم من الأشقياء

المجرمين قد مضت من قبلهم، ممن فعلوا كفعلهم من الجنِّ والإنس، لأنهم

كانوا خاسرين أعمالهم في الدنيا وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة".
قال الطبري: يقول:"وحق على هؤلاء الذين قيضنا لهم قُرَناء من الشياطين، فزيَّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم العذاب في أمم قد مضت قبلهم من ضربائهم، حق عليهم من عذابنا مثل الذي حَقّ على هؤلاء بعضهم من الجن وبعضهم من الإنس، إن تلك الأمم الذين حق عليهم عذابنا من الجنّ والإنس، كانوا مغبونين ببيعهم رضا الله ورحمته بسخطه وعذابه".
قال ابن كثير:" {وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ} أي: كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم، ممن فعل كفعلهم، من الجن والإنس، {إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ}، أي: استوَوَا هم وإياهم في الخسار والدمار".
عن السديّ: " {وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ}، قال: العذاب".
وقال العثيمين: قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَقَيَّضْنَا} سببنا] والصَّوابُ: أنَّ معناها هَيَّأنا؛ أي هَيَّأْنا لهم قُرَناءَ، وذُكِرَ الفاعِلُ بضَميرِ الجمْعِ للتَّعظيمِ؛ لأنَّ ضَميرَ الجمْعِ يُرادُ به تَارَّةً التَّعظيمُ وتَارَّةً التَّعدُّدَ، وهُنا لا يُمكِنُ أن يَكونَ المُرادُ به التَّعدُّدَ؛ لأنَّ اللهَ إِلَهٌ واحدٌ.
{وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ} يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [من الشَّياطينَ]، والمُرادُ شَياطينُ الإنسِ وشَياطينُ الجِنِّ؛ لأنَّ هُناك قَرينًا خَفيًّا وهو قَرينُ الجِنِّ يَأمُرُ الإنسانَ بالسُّوءِ وَينهاه عنِ الخَيرِ، وهُناكَ قَرينُ سوءٍ مِنَ الإنسِ، ولهذا مَثَّلَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- قَرينَ السُّوءِ بأنَّه كَنافِخ الكيرِ، إمَّا أن يَحرِقَ ثِيابَك وإمَّا أن تَجِدَ منه رائِحَةً كريهَةً.
قال اللهُ تعالى: {فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} [فُصِّلَت: ٢٥] زَيَّنوا أي القُرَناءُ، {لَهُمْ} أي للمُقْتَرِنينَ بهم، {مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} من أَمْرِ الدُّنيا واتِّباعِ الشَّهواتِ {وَمَا خَلْفَهُمْ} مِن أمْرِ

الآخِرَةِ بقَولِهِم: لا بَعْثَ ولا حِسابَ] هؤلاءِ القُرناءُ حَسَّنوا لهم ما بين أيديهم مِنْ أمْرِ الدُّنيا، وقالوا لهم: اتَّبِعوا الشَّهواتِ، كَيِّفوا كما شِئْتُمْ، أتْرِفوا كما شئتم، كما قال تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ} [الواقعة: ٤٥] ومَنُّوهم وما خَلْفَهم، أي: ما أمامهم؛ لأنَّ الخَلْفَ والوَراءَ قد يُرادُ به الأَمامُ كما في قوله تعالى: {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف: ٧٩] يعني: أَمامَهم.

إذن: زَيَّنوا لهم الآخِرَةَ أيضًا بأنْ مَنُّوهم بأَحَدِ أَمْرينِ: إمَّا بالنَّجاةِ منَ العَذابِ في قولِهِم: لا بَعْثَ ولا حِسابَ، وإمَّا أن يَنْتَقِلوا إلى خَيرٍ من ذَلِكَ، ويقولوا: إنَّ الَّذي أَتْرَفَنا في الدنيا سوف يُتْرِفُنا في الآخِرَةِ، كقول بعضهم: {هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى} [فُصِّلَت: ٥٠]، وكقولِ صاحِبِ الجَنَّتينِ: {وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} [الكهف: ٣٦]، فهكذا يُمَنِّي الشَّيطانُ أولياءَه يَقولُ: انبَسِطوا بالدُّنيا أَتْرِفوا أنفُسَكم، وفي الآخِرَةِ سوف تَنْتَقِلونَ إلى ما هو أَفْضَلُ، زَيَّنوا لهم ما بين أيديهم وما خَلْفَهم ومَنَّوا لهمُ الأمانِيَّ.

قال تعالى: {وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} [فُصِّلَت: ٢٥]، حقَّ عليهم أي: وَجَبَ القولُ، قَولُ اللهِ تبارك وتعالى، والقَولُ الَّذي حَقَّ فَسَّرَه المفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ بقوله: [وهو {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} السجدة: ١٣]. وقيل: القَولُ: هو قولُه تَعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يونس: ٩٦- ٩٧].

ونَقولُ -كما أَسْلَفنا في القاعِدَةِ في التَّفسيرِ- أنَّ الآيَةَ إذا كانت تَحتَمِلُ مَعنيينِ لا مُرَجِّحَ لأَحَدِهِما على الآخَرِ، ولا مُنافاةَ بينهما، فإنَّها تُحمَلُ على المَعنَيينِ جميعًا، نَقولُ: حقَّ عليهم قَولُ اللهِ تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا

=
يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} وهذا في الدُّنيا، يعني: مهما عالجتَ الإنسانَ الَّذي حَقَّت عليه كَلِمَةُ اللهِ، فلن يَهتَديَ، وحَقَّت عليهم كَلِمَةُ اللهِ في الآخِرَةِ وهي: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}، إذن لا فائِدَةَ.

إنَّ أَبْرَزَ مَثَلٍ لنا في هذا ما حَصَلَ للنَّبِيِّ ﷺ مع عَمِّه أبي طالِبٍ الَّذي كان -أعني: عَمَّه- يُدافِعُ عنه أَشَدَّ المُدافَعَةِ ويُؤويه وَيَنْصُرُه وَيشْهَدُ أَنَّه حقٌّ، لكنَّه لم يَنقاد لذلك ولم يَتَّبِعْ، فما أَغْنَى عنه مِنَ اللهِ شيئًا، عند موتِه يَقولُ: "يا عَمِّ، قل: لا إِلَهَ إلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحاجُّ لك بها عِنْدَ اللهِ"، ولم يَنْفَعْه ذلك كان آخِرَ ما قال: أنَّه على مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ؛ لأنَّ أبا طالِبٍ عِندَ مَوتِه حَضَرَه النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام وحَضَرَه رجُلانِ من كِبارِ قُريشٍ، فكان الرَّسُول يَقولُ: "يا عَمِّ قُلْ: لا إِلَهَ إلَّا اللهُ وهما يقولانِ له: أَتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلبِ يَعني عن مِلَّةِ الكُفْرِ"، فآخِرُ ما قال هو على مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِب، وأبى أن يَقولَ: لا إِلَهَ إلَّا اللهُ مع العِلْمِ بأنَّه يُقِرُّ وَيعترِفُ بأنَّ الرَّسولَ حَقٌّ، يَقوُل:

ولقد عَلِمْتُ بأنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِن خَيرِ أَديانِ البَرِيَّةِ دِينًا

ويقولُ في لامِيَّتِه المَشهورةِ:

لقد عَلِموا أنَّ ابْنَنا لا مُكَذَّب ... لَدَينا ولا يُعنى بقَولِ الأباطِلِ

أي: بقولِ السَّحَرَةِ، يعني: ليس بِساحِرٍ، ومع ذلك فقد حَقَّتْ عليه الكَلِمَةُ نَسأَلُ اللهَ العافِيَةَ، وأن يُحسِنَ لنا ولكم الخاتِمَةَ، حَقَّت عليه الكَلِمَةُ فلم يُؤمِنْ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحَمَهُ اللَّهُ: [{فِي} جُمْلَةِ {أُمَمٍ}] يَعني في جُمْلتِها، واحتَجْنا إلى قَولٍ في جُمْلَةٍ، يعني: إِدخالَ جُمْلَةٍ مع أنَّها مَعروفَةٌ في السِّياقِ؛ لأنَّه لو قال: في أُمَمٍ، لكان هؤلاءِ مُشارِكينَ لكُلِّ الأُمَمِ الماضيةِ والمُستَقْبَلَةِ مع أنَّهم في أُمَّتِهم وَحدَهم، فيكونُ المعنى: {فِي أُمَمٍ} أيْ [{فِي} جُمْلَةَ {أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ} هَلَكَتْ {مِنْ قَبْلِهِمْ
=

=

مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ} .. إلخ].

قولُه تعالى: {مِنْ قَبْلِهِمْ}؛ أي: قَبْلَ هؤلاءِ المُكذِّبينَ، {مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ}، الجِنُّ هم عالَمٌ غَيبيٌّ خَلَقَهمُ اللهُ تعالى من نارٍ؛ لأنَّ أباهم إبليسَ كان مِن نارٍ، ولهذا كان شأنُهم، أو كانت حالهُم الطَّيشَ والسُّرعَةَ والاِنْدِفاعَ كالنَّارِ في لَهَبِها، فهم خُلِقوا مِنَ النَّارِ، وهم مُكلَّفون بالإيمانِ باللهِ ومَلائِكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخِرِ، ولكن هل الأعمالُ الَّتي كُلِّفوا بها، هَلْ هي الأَعْمالُ الَّتي كُلِّفتْ بها الإنسُ أو غَيرُهَا؟

إن نَظَرنا إلى عُموماتِ الأدِلَّةِ قُلنا: إنَّ الجِنَّ مُكلَّفَةٌ بما كُلِّفَ به الإنسُ، لأنَّ الشَّريعَةَ الَّتي بين أيدينا لم تأتِ بشَريعَةٍ للجِنِّ، بَلِ الشَّريعَةُ واحدَةٌ والرَّسولُ واحدٌ، فهم مُكلَّفون مَثلًا بصَلاةٍ كصَلاتِنا ووُضوءٍ كوُضوئِنا وحَجٍّ كحَجِّنا وصَومٍ كَصَومِنا وصَدَقَةٍ كصَدَقَتِنا، كُلُّ ما نَحنُ مُكلَّفون به فَهُمْ مُكلَّفون به، إذ إنَّنا لا نَرى في الشَّريعَةِ الَّتي بينَ أيدينا تَشريعاتٍ لِلجِنِّ هذا إذا نظرنا إلى عُمومِ الأدِلَّةِ.

وإذا نَظَرنا إلى حِكْمَةِ اللهِ تعالى في شَرْعِه قُلنا: إنَّهم مُكلَّفون بِشَريعَةٍ تَليقُ بهم، فكما أنَّ الإنسَ إذا اختَلَفوا يُجعَلُ لكُلِّ صِنفٍ ما يَليقُ به فكذلك الجِنُّ، والجِنُّ مُخالِفونَ تمَامًا للإنسِ في الحَدِّ والحَقيقَةِ، فتكونُ شَريعَتُهُمْ خَاصَّةً تَلِيقُ بهم، لكنَّ تَحريمَ الشِّركِ والظُّلمِ والعُدوانِ وما أَشْبَهَ ذلك هذا عامٌّ على الجِنِّ والإنسِ، إنَّما أُريدَ التَّكليفاتُ البَدَنيَّةُ كالصَّلاةِ مثلًا، هل صَلاتُهُمْ كصَلاتِنا أو صِيامُهم كصِيامِنا، هذا هو مَحَلُّ الخِلافِ بينَ العُلَماءِ.

فمنهم مَنْ يَقولُ: إنَّ الجِنَّ مُكلَّفونَ كما كُلِّف الإنسُ تمامًا، وحُجَّةُ هَؤلاءِ عُمومُ الأَدِلَّةِ الَّتي بين أَيدينا الَّتي أُرسِلَ بها الرَّسولُ عليه الصلاة والسلام لا نَجِدُ فيها أحكامًا تَخُصُّ الجِنَّ، فالأصلُ العُمومُ، وَالأصلُ أنَّ كُلَّ ما كُلِّفَ بِهِ الإنسُ هو ما كُلِّفَ به الجِنُّ.

=

فإنْ قال قائلٌ: حُجَّتُهم أنَّهم خَلْقٌ من خَلْقِ اللهِ! قلنا: تَرِدُ عليه المَلائِكَةُ.
القَولُ الثَّاني: أنَّ الجِنَّ يَختَلِفونَ عن الإنسِ في العِبادَةِ وما كُلِّفوا به، ووَجهُ ذلك أَنَّنا نَجِدُ مِن حِكمَةِ اللهِ أنَّ التَّشريعاتِ مُناسِبَةٌ للمُكَلَّف بها، فالمَريضُ يُصلِّي قاعدًا، والمُسافِرُ يُؤخِّرُ الصَّومَ، والَّذي لا يَستطيعُ الرُّكوبَ على الرَّحلِ لا يَحُجُّ، فإذا كانت هذه الِاختِلافاتُ تَكونُ بين الإنسِ لاختلافِ أحوالِهم، فما بين الإنسِ والجِنِّ من باب أَوْلَى.
لكنَّ هُناك أشياءَ لا إشكالَ فيها وهي: تَحريمُ الشِّركِ والظُّلمِ والعُدوانِ وما أَشْبَهَ ذلك؛ ولذلك نَجِدُ كَثيرًا مِنَ العُلماءِ الَّذين يَقْرَؤونَ على مَنْ مَسَّهم الشَّيطانُ يُذَكِّرونهم بتَحريمِ الظُّلمِ، وأنَّه حَرامٌ، وأنَّهم مُعتَدونَ، وما أَشْبَهَ ذلك ممَّا يدُلُّ على أَنَّهم مُلتَزِمون بهذا.
فإنْ قال قائلٌ: مِنَ المَعلومِ أنَّ العِباداتِ تَوقِيفِيَّةٌ فكيفَ سيَعْبُدون اللهَ ﷻ إذن؟
فالجَوابُ: يَعْبُدونَه بشَريعَةٍ مِنَ اللهِ يَكونُ الرَّسولُ ﷺ قد عَلَّمَهُمْ؛ لأنَّهُ اجتَمَعَ بهم وعَلَّمَهم ما يَلْزَمُهم.
يَقولُ اللهُ تَعالَى: {مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ}، إذن الجِنُّ عالَمٌ غَيبيٌّ، خُلِقوا مِن نارٍ، مُكلَّفون بشَريعَةِ النَّبيِّ ﷺ إلزامًا؛ لأنَّه مُرسَلٌ إلى الجِنِّ والإنسِ، لكنَّ غَيْرَ الرَّسولِ لا نَعلَمُ هل هُمْ مُلْزَمونَ بذلك أو لا، لكنَّهم مَأذونٌ لهم أن يَعْمَلوا بها كما قال تَعالَى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى} [الأحقاف: ٢٩- ٣٠] ممَّا يدُلُّ على أنَّهم انْتَفَعوا بكِتابِ موسى: {أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأحقاف: ٣٠]، فهم مُلْزَمون بالعَمَلِ بِشَريعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.
قُلنا: إنَّهم عالَمٌ غَيبيٌّ، لكن رُبَّما يَبْرُزونَ لبَعضِ النَّاسِ يَتَلَوَّنونَ، فقد يَتَراءَى الجِنُّ

=

للإنسيِّ بصورَةِ إنسانٍ فَخْمٍ كَبيرٍ عَظيمٍ، أو بصورَةِ هيكلٍ له قُرونٌ وله آذانٌ وله أَرْجُلٌ طَويلَةٌ وما أشبه ذلك، وأمَّا ما زَعَمَ بَعضُ النَّاسِ أنَّهم أجسادٌ ليس فيها عِظامٌ، وأنَّهم إذا لمَسْتَه وَجَدتَه رَقيقًا جدًّا، وأنَّ أعينَهم مَشقوقَةٌ طولًا هكذا، فهذا لا أَصْلَ له.

إذن؛ نَقولُ: هُمْ عالَمٌ غَيبيٌّ، وَيدُلُّ لذلك المادَّةُ الَّتي يوصَفونَ بها يعني: الجِنَّ؛ لأنَّ الجيمَ والنُّونَ تَدُلُّ على الِاستِتارِ والخَفاءِ، أرأيتم الجَنَّةَ، الجَنَّةُ: هي البُستانُ الكَثيرُ الأشجارِ، والجِنَّةُ: الجِنُّ، والجُنَّةُ: ما يَتَّخِذُه المُقاتِلُ لحمايَةِ نَفسِه مِنَ السِّهامِ يَستَتِرُ به.

فإنْ قال قائِلٌ: الجِنُّ هل فيهم رَسولٌ؟

فالجَوابُ: يَقولُ اللهُ ﷻ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ} [النحل: ٤٣] وقال العُلماءُ: إنَّ الرِّجالَ لا يَكونونَ مِنَ الجِنِّ، لكن في هذا التَّعليلِ نَظَرٌ، لأنَّ اللهَ يَقولُ في سورَةِ الجِنِّ: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ} [الجن: ٦]، قالوا: الآيَةُ الأُخرى: {إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [يوسف: ١٠٩]، فيُقالُ: الجِنُّ أيضًا من أَهْلِ القُرى، لكنَّ الأحقَّ بالأرضِ الإنسُ لا شكَّ، ولهذا لو اعتَدى أحدٌ مِنَ الجِنِّ ونزل بَيتَكَ فلك أن تُخرِجَهُ، والدَّليلُ هو أنَّ الرَّسولَ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- جَعَلَ الأرضَ لمالكِها: "مَنِ اقتَطَع شِبرًا مِنَ الأرضِ ظُلمًا طَوَّقَه اللهُ بها يَومَ القِيامَةِ من سَبع أَرَضِينَ".

فأنا أَستطيعُ أن أَحْرُثَ في الأَرْضِ وأَزرَعَ وأَبني وأَعْمَلَ ما شِئتُ ولا مُعارِضَ لي، ولكن: كيف لو جاءوا واعتدوا على بَيتِك وحَفَروا فيه وأصبحت، وإذا السَّطْحُ مَملوءٌ مِنَ الزَّرعِ والمَجالِسُ مملوءةٌ مِنَ النَّخيلِ!

قال اللهُ تعالَى: {وَالْإِنْسِ} هُم هَؤلاءِ البَشَرِ مِن بَني آدَمَ وسُمُّوا إنسًا؛ لأنَّ بَعضَهم

=

=

يأنسُ ببَعضٍ، ولهذا قيل: إنَّ الإنسانَ مَدنيٌّ بالطَّبْعِ.

وقال تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} {إِنَّهُمْ}، أي الَّذين حَقَّ عليهم القَولُ {كَانُوا خَاسِرِينَ} كانوا في عِلمِ اللهِ وليس يَومَ القيامَةِ؛ لأنَّه لو كان كذلك لقال: يَكونون، لكن {كَانُوا} في عِلمِ اللهِ ﷻ وتَقديرُهُ: {خَاسِرِينَ}.

فإنْ قال قائِلٌ: ألا يَجوزُ أن يَكونَ قولُه سبحانه وتعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} على أنَّه يومُ القيامَةِ من باب قولِهِ تَعالى: {أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل: ١]؟

فالجَوابُ: لا، {أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} لو لا أنَّهُ قال: {فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} لكان على ظاهِرِه.

ولكن اعْلَموا بارَكَ اللهُ فيكم أنَّه لا يُمكِنُ لأحدٍ أن يَضِلَّ إلَّا وهو السَّببُ في ضلالِ نفسِه، لَدينا آيَةٌ من كِتابِ اللهِ حاكِمَةٌ على كُلِّ ذلك، على كُلِّ مَن يَتوهَّمُ أنَّ الضَّلالَ مُقَدَّرٌ من عِندِ اللهِ تَعالَى ابتلاءً وامتحانًا، وإن كان الأَمْرُ كذلك، لكان سَببُ ضَلالِ الإنسانِ هو نَفسُهُ، قال اللهُ تبارك وتعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥]، وقال تَعالَى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ} [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦]، فماذا نَفعَلُ إذا كان هو الَّذي أَخلَدَ إلى الأَرضِ واتَّبَعَ هَواهُ فماذا نَفعلُ؟

فاعْلَمْ أنَّ كُلَّ شيءٍ مِنَ المَعاصي فأنت سَببُه، وإن شِئتَ فاقْرَأْ قولَ اللهِ تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ} [المائدة: ٤٩] يا لها من مَوعِظَةٍ في هذه الآيَةِ، أنَّك إذا تَوَلَّيت عن أَمْرِ اللهِ فاعْلَمْ أنَّ ذلك مِن ذَنبِك، فاعْلَمْ أنَّ اللهَ إنَّما يُريدُ أن يُصيبَهم ببَعْضِ ذُنوبِهم، فصار الإعْراضُ عُقوبَةً، وهذا أَمْرٌ قد لا يَتَفَطَّنُ له بَعضُ النَّاسِ، إعراضُك عَنِ اللهِ وعن دينِ اللهِ هو عُقوبَةٌ منَ اللهِ

=

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦).

{وقال الذين كفروا} عند قراءة النبي ﷺ {لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه} ائتوا باللغط ونحوه وصيحوا في زمن قراءته {لعلكم تغلبون} فيسكت عن القراءة[1].

=

ﷻ لقولِهِ: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} [المائدة: ٤٩].

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ}، أي: "وقال الكافرون بعضهم لبعض متواصين فيما بينهم: لا تسمعوا لهذا القرآن، وتشاغلوا عنه".

قال الأخفش: "أي: لا تطيعوه. كما تقول: سمعت لك. وهو- والله اعلم- على وجه «لا تسمعوا القرآن» ".

قال الطبري: "{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} بالله ورسوله من مشركي قريش للذين يطيعونهم من أوليائهم من المشركين: لا تسمعوا لقارئ هذا القرآن إذا قرأه، ولا تصغوا له، ولا تتبعوا ما فيه فتعملوا به".

قال السعدي: "أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تصغوا إليه ولا إلى من جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه".

قال ابن كثير: "أي: تواصوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقرآن، ولا ينقادوا لأوامره".

قال ابن عباس: "هذا قول المشركين، قالوا: لا تتبعوا هذا القرآن والهوا عنه".

قال الفراء: "قاله كفار قريش، قال لهم أبو جهل: إذا تلا محمد ﷺ القرآن فالغوا فيه الغطوا، لعله يبدل أو ينسى فتغلبوه".

قال مقاتل: "{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، يعني: الكفار {لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ......}، إلى ثلاث آيات، هذا قول أبي جهل وأبي سفيان لكفار قريش قالوا لهم: إذا سمعتم القرآن من محمد ﷺ وأصحابه فارفعوا أصواتكم بالأشعار

=

=

والكلام في وجوههم، حتى تلبسوا عليهم قولهم فيسكتون".

قوله تعالى: {وَالْغَوْا فِيهِ} [فصلت: ٢٦]، أي:"وارفعوا أصواتكم بالصياح والصفير والتخليط على محمد إذا قرأ القرآن".

قال الطبري:"يقول: الغطوا بالباطل من القول إذا سمعتم قارئه يقرؤه كَيْما لا تسمعوه، ولا تفهموا ما فيه".

قال ابن قتيبة: أي:"الغَطُوا فيه".

قال ابن كثير:"أي: إذا تلي لا تسمعوا له".

قال الزجاج:"أي: عارضوه بكلام لا يفهم يكون ذلك الكلام لغوا، يقال: لغا يلغو لغوا، ويقال لغي يلغى لغوا إذا تكلم باللغو، وهو الكلام الذي لا يحصل ولا تفهم حقيقته".

قال قتادة:"أي: اجحدوا به وأنكروه وعادوه، قال: هذا قول مشركي العرب".

ن ابن عباس، قوله: {وَالْغَوْا فِيهِ}، قال: بالتصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله".

وقال الضحاك، عن ابن عباس: "{وَالْغَوْا فِيهِ}: عيبوه".

عن مجاهد، في قول الله: "{لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ}، قال: المكاء والتصفير، وتخليط من القول على رسول الله ﷺ إذا قرأ، قريش تفعله".

عن معمر، قال: "قال بعضهم في قوله: {وَالْغَوْا فِيهِ}، قال: تحدثوا وصيحوا كيما لا تسمعوه".

وقال مقاتل:"بالأشعار والكلام".

قال الكلبي:"إذا سمعتموه يتلى فالغوا وتحدثوا وضجوا، وصيحوا حتى لا تسمعوه".

قال الزمخشري:"اللغو: الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته. قال: من اللغا

=

=

ورفث التكلم. والمعنى: لا تسمعوا له إذا قرئ، وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والهذيان والزمل وما أشبه ذلك، حتى تخلطوا على القارئ وتشوّشوا عليه وتغلبوه على قراءته. كانت قريش يوصى بذلك بعضهم بعضا".

قرئ: «والغوا فيه»، بفتح الغين وضمها.

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت: ٢٦]، أي:"لعلكم تغلبونه، فيترك القراءة، وننتصر عليه".

قال مقاتل:"يعني: لكي تغلبونهم فيسكتون".

قال الطبري:"يقول: لعلكم بفعلكم ذلك تصدون من أراد استماعه عن استماعه، فلا يسمعه، وإذا لم يسمعه ولم يفهمه لم يتبعه، فتغلبون بذلك من فعلكم محمدا".

قال ابن كثير:" {لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله- سبحانه- عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: ٢٠٤] ".

قال السعدي:"وهذه شهادة من الأعداء، وأوضح الحق، ما شهدت به الأعداء، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك، ومفهوم كلامهم، أنهم إن لم يلغوا فيه، بل استمعوا إليه، وألقوا أذهانهم، أنهم لا يغلبون، فإن الحق، غالب غير مغلوب، يعرف.

وقال العثيمين: قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} عِندَ قِراءَةِ النَّبيِّ ﷺ، يعني: للقُرآنِ: {لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ} يعني: أنَّ بَعضَهم يوصي بَعضًا يَقولُ: لا تَسْمَعوا لهذا القُرآنِ، أي: لا تُنْصِتوا له ولا تَستَمِعوا إليه، وابتَعِدوا عنه؛ وذلك

=

=

لأنَّ القُرآنَ يُؤثِّرُ في قَلبِ مَنْ يَسمعُه، حتَّى إنَّ بَعضَ المُشرِكينَ مِن كُبَرائِهم يَأتونَ إلى النَّبيِّ ﷺ يَستَمِعون قِراءَتَه اختِفاءً في اللَّيلِ لئلَّا يَطَّلِع عليهم؛ لأنَّهم يَسمَعون قَولًا يَسلُبُ العُقولَ ويَأخُذُ بالنُّفوسِ، فهُم يوصي بَعضُهم بعضًا يَقولُ: {لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ}.

و{الْقُرْآنِ} هو كَلامُ اللهِ وهو على وَزنِ فَعلانَ، وفَعْلانُ مَصدَرٌ كالغُفْرانِ والشُّكرانِ.

وهل هو مِنْ قَرَأَ أو مِن قَرَى أو منهما جَميعًا؟ نَقولُ: هو صالِحٌ للجَميعِ، فإنْ كان مِن (قَرَأَ) فهو مِنَ القِراءةِ وهي التِّلاوَةُ، وإن كان مِنْ (قَرَى) يَقري بمعنى جَمَعَ، ومنه القَرْيَةُ لأنَّها تَجمَعُ أقوامًا، فالقُرآنُ جامِعٌ.

ثُمَّ هل هو فاعِلٌ أو مَفعولٌ؟ نَقولُ: إذا كان مِنْ (قَرَأَ) فهو مَفعولٌ؛ لأنَّه قُرآنٌ مَقروءٌ، فهو مَصدرٌ بمعنى مَفعولٍ، وإن كان مِن (قَرَى) فهو بمَعنى فاعِلٍ وبمعنى مَفعولٍ؛ أي: إنَّه مُشتَرِكٌ بين فاعِلٍ ومَفعولٍ، فهو جامِعٌ وهو مَجموعٌ؛ لأنَّه يُكتَبُ وتُجمَعُ حُروفُه بَعضُها إلى بَعضٍ، والمُرادُ به ما نَزَلَ على محُمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-.

{لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ} {لِهَذَا الْقُرْآنِ}، المُرادُ بالإشارَةِ هنا التَّحقيرُ يعني: هذا لا يُساوي شيئًا لا تَسمَعوا إليه، ويُشْبِهُ هذا مِن بَعضِ الوُجوهِ: {أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ} [الأنبياء: ٣٦] احتِقارٌ، يعني: أهذا الَّذي يَسُبُّها مَنْ هو، {أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا} [الفرقان: ٤١]، وهذا للاحتِقارِ لكنَّه مُستَفادٌ مِنْ الاستِفهامِ. أمَّا هُنا فهو مُستَفادٌ مِنَ الإشارَةِ الدَّالَّةِ على التَّحقيرِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَالْغَوْا فِيهِ} ائتوا باللَّغَطِ ونَحْوِه وصيحوا في زَمَنِ قِراءتِه].

{وَالْغَوْا فِيهِ} يعني: عِندَما تَسمَعون رَسولَ اللهِ ﷺ يَقرأُ صَوِّتوا وتَصايَحوا؛ لأَجْلِ أن تَخْلِطوا عليه قِراءَتَه وتَحولوا بينَهُ وبين السَّماعِ.

=

يَعني: فَهُمْ يَفْعَلون ذلك لأَمْرينِ:

الأَوَّلُ: التَّخليطُ على النَّبيِّ ﷺ في قِراءتِهِ.

والثَّاني: ألَّا يَسمَعَ أحدٌ قِراءتَه من أَجْلِ الضَّوضاءِ واللَّغَطِ.

{وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فُصِّلَت: ٢٦] (لعلَّ) للتَّعليلِ، وتَأتي لِلإشفاقِ، وللتَّرَجِّي، وللتَّمَنِّي. كُلُّ هذه المَعانِي تَختَلِفُ بِحَسَبِ السِّياقِ؛ لأنَّ السِّياقَ هو الَّذي يُعَيِّنُ مَعاني الكَلِماتِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} فيَسكُتُ عنِ القِراءةِ]؛ لأنَّه إذا سَمِعَ الأصواتَ والضَّجَّةَ والضَّوضاءَ واختَلَطَت عليه قِراءَتُهُ، فإنَّه لا يَرى فائدَةً مِنَ القِراءَةِ، وحينَئذٍ يَسكُتُ هذا ما يَفعَلُه هَؤلاءِ المُشركونَ.

فإنْ قال قائلٌ: إنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ يَشغَلونَ القُرآنَ في المَنازِلِ والمَتاجِرِ، ولم يَعتادوا اللَّغَطَ والسَّبَّ والشَّتمَ، لكن رُبَّما حَدَّثوا أَحاديثَ جانِبِيَّةً كأن يَكونَ في المَطبَخِ مثلًا أو ما أشبه ذلك.

ثُمَّ إنَّ القُرآنَ على إذاعَةِ القُرآنِ الَّتي يَأتي مَرَّةً حَديثٌ ومرةً قرآنٌ، وهم يُحبُّون القُرآنَ وَيأنَسونَ به ويَستفيدونَ فوائِدَ كَثيرةً، وَيقولون: إذا لم نُشَغِّلِ القُرآنَ تَأتي هَواجِسُ؟

فالجَوابُ: المَحظورُ اللَّغو فقط، أمَّا إن كانوا لا يَنْتَبِهون أحيانًا فإنَّ الإنسانَ الَّذي يَقرأُ والمُصحَفُ بين يديه أحيانًا يَقْرَأُ بفَمِه وقَلْبِه ليس بقارِئٍ، فالمَحظورُ مثلًا أنَّ ناسًا مَشغُولونَ بدُنياهم والقُرآنُ يُقْرَأُ، أمَّا مثلًا امْرأةٌ تطْبُخُ أو تَغسِلُ ثِيابَها وتَستَمِعُ لِلقُرآنِ، فهذا لا يوجِبُ التَّلَهِّي عنه.

فإنْ قال قائِلٌ: ما حُكْمُ مَن يُشَغِّلُ القُرآنَ في المُسَجِّلِ ويُرَدِّدُ معه للتَّحَفُّظِ وتَحسينِ النُّطْقِ؟

فالجَوابُ: لا بَأسَ به، ليس هناك مانِعٌ.

فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧).

قال الله تعالى فيهم {فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون} أي أقبح جزاء عملهم[1].

=

فإنْ قال قائِلٌ: بالنِّسبَةِ لمَنْ يَقرأُ القُرآنَ في غَيرِ الصَّلاةِ، هل يَجِبُ الاستِماعُ إليه أم لا؟

فالجَوابُ: لا، الصَّحيحُ لا يَجِبُ الاستِماعُ، لكن لا يَجوزُ اللَّغَطُ، ولهذا قال الإمامُ أَحْمَدُ في قولِهِ تَعالَى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: ٢٠٤] قال: أَجْمَعوا على أنَّ هذه في الصَّلاةِ، أمَّا غيرُ الصَّلاةِ فلا يَجِبُ أن نَستَمِعَ، لأنَّنا لو قُلنا بِوجوبِ الِاستِماعِ لقُلنا: إذا شَرَعَ قَارِئٌ يَقرَأُ وأنت إلى جَنْبِه حَرُمَ عليك أن تَقومَ؛ لِوجوبِ الِاستِماعِ، وهذا ما أَظُنُّ أحدًا مِنَ العُلماءِ يَقولُ به، المَمنوعُ اللَّغو واللَّغَطُ.

(١) قوله تعالى: {فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا} [فصلت: ٢٧]، أي:"فلنذيقن الذين قالوا هذا القول عذابًا شديدًا في الدنيا والآخرة".

قال الطبري:"بالله من مشركي قريش الذين قالوا هذا القول عذابا شديدا في الآخرة".

قال ابن كثير:"ثم قال تعالى: منتصرا للقرآن، ومنتقما ممن عاداه من أهل الكفران: {فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا} أي: في مقابلة ما اعتمدوه في القرآن وعند سماعه".

قال الزمخشري:"يجوز أن يريد بالذين كفروا: هؤلاء اللاغين والآمرين لهم باللغو خاصة، وأن يذكر الذين كفروا عامة لينطووا تحت ذكرهم".

قوله تعالى: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} [فصلت: ٢٧]،

=

=

أي:"ولنجزينهم أسوأ ما كانوا يعملون من السيئات".

قال الطبري:"يقول: ولنثيبنهم على فعلهم ذلك وغيره من أفعالهم بأقبح جزاء أعمالهم التي عملوها في الدنيا".

قال ابن كثير:"أي: بشَرِّ أعمالهم وسيِّئ أفعالهم".

قال السعدي:"وهو الكفر والمعاصي، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون، لكونهم يعملون المعاصي وغيرها، فالجزاء بالعقوبة، إنما هو على عمل الشرك {وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} ".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {فَلَنُذِيقَنَّ}، الجُملَةُ هذه مُؤَكَّدَةٌ بثَلاثَةِ مُؤَكِّداتٍ: القَسَمُ المُقَدَّرُ، ويَدُلُّنا على القَسَمِ تَوكيدُ الفِعلِ واللَّامُ أيضًا، والثَّاني: اللَّامُ، والثَّالثُ: النُّونُ.

{فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا} أي: لَنُعذِّبَنَّهم عَذابًا يَذوقونَ أَلمَه، وهو كِنايَةٌ عن شِدَّةِ هذا العَذابِ الَّذي يَصِلُ إلى مَذاقِهم حتَّى كأنَّه شَيءٌ مَحسوسٌ يَتَذَوَّقونَه بأَفواهِهم.

{فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، المُرادُ بـ {الَّذِينَ كَفَرُوا} مَن سَبَقَ، وهُم الَّذين قالوا: {لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ}، وحينَئذٍ قد يَقولُ قائل: لماذا لم يُضْمِرْ فيقول: "فلَنُذيقَنَّهم"، نَقولُ: هُنا إِظهارٌ في مَوضِعِ الإضمارِ، والإظهارُ في مَوضِعِ الإضْمارِ له فَوائِدُ:

الفائِدَةُ الأُولى: تَنبيهُ المُخاطَبِ؛ لأنَّه جَرَت العادَةُ أنَّ الكَلامَ إذا كان السِّياقُ يَقتَضي الإضمارَ، فإنَّه يَأتي الإِضْمارُ، فإذا جاء الإِظْهارُ صار هذا على خِلافِ العادَةِ، فَالعادَةُ أنَّ الكَلامَ إذا كان في سياقِ الإِضْمارِ، فإنَّ الَّذي يَأتي هو الإِضْمارُ، يَعني: الضَّميرُ، فإذا جاء الظَّاهِرُ مَوضِعَ الضَّميرِ فسوف يَتَوقَّفُ الإنسانُ، لماذا جاء الظَّاهرُ مَوضِعَ الضَّميرِ؟ فيكون في ذلك انتباهٌ له هذه فائدَةٌ.

=

=

الفائدَةُ الثَّانيَةُ: الحُكْمُ على مَرجِعِ الضَّميرِ بمُقْتَضى هذا الاسمِ الظَّاهرِ، ففي الآيَةِ الَّتي معنا: {فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، إذن تكونُ الفائِدَةُ الحُكمَ عليهم بالكُفْرِ، وهكذا كُلَّما جاء الإِظْهارُ في مَوضِعِ الإِضمارِ فاحكُمْ عليه بهذه الفائِدَةِ.

الفائدَةُ الثَّالثَةُ: العُمومُ لو قال: فلَنُذيقَنَّهم، صار هذا الوَعيدُ خاصًّا بالَّذين قالوا: {لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ}، فإذا قال: {فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} صار عامًّا لهم ولغيرهم.

قال اللهُ تعالى: {فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا} هنا {عَذَابًا شَدِيدًا} مَنصوبٌ نَصَبَهُ {فَلَنُذِيقَنَّ} وهي تَنْصِبُ مَفعولَين؛ لأنَّ لَدينا قاعِدَةً: أنَّ الفِعلَ إذا تَعَدَّى لواحدٍ فأُدخلت عليه هَمْزَةُ التَّعدِيَةِ تَعَدَّى لاثنَينِ، وإذا كان يَتَعَدَّى لاثنين فأُدْخِلت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّى إلى ثَلاثَةٍ، مِثالُ ذلك مثلًا (ذاق) تَتَعَدَّى إلى واحدٍ، (ذاقَ طَعمَ الإيمانِ ورَضِيَ باللهِ ربًّا)، فإذا أُدخِلت عليها الهَمْزَةُ تَعَدَّت إلى مَفعولَينِ.

و(رأى) تَقولُ: (رَأيتُ الرَّجُلَ قائمًا) تَنْصِبُ مَفعولَينِ، فإذا أُدْخِلت عليه الهَمْزَةُ تَعدَّت إلى ثَلاثَةٍ، تَقولُ: (أَريتُ زيدًا الرَّجُلَ قائمًا). هذه قاعِدَةٌ عَربيَّةٌ مُطَّرِدَةٌ، أنَّ الفِعلَ إذا كان لازمًا فدَخَلَت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّى لواحِدٍ، وإذا كان مُتَعَدِّيًا لواحدٍ فدَخَلَت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّى لاثنينِ، وإذا كان متعدِّيًا لاثنينِ فدَخَلت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّى لثَلاثَةٍ.

قال اللهُ تعالى: {فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا}، {عَذَابًا} أي: عُقوبَةً، {شَدِيدًا}: قويًّا.

وقولُهُ تعالى: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ} معطوفَةٌ على {فَلَنُذِيقَنَّ}، {أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ} هذه تَنْصِبُ مَفعولَينِ؛ الأَوَّلُ الهاءُ والثَّاني {أَسْوَأَ}.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي: أَقْبَحَ جَزاءِ عَمَلِهِم].

=

=

فهم يُجزَونَ الجَزاءَ، أَمَّا العَمَلُ منهم فليسوا مَجْزِيِّين به، هُمُ الَّذين عَمِلوا، فإذا قال: {أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} صار المُرادُ بذلك: أَسوَأَ الجَزاءِ، وليس المُرادُ: أَسوَأَ العَمَلِ؛ لأنَّ العَمَلَ فِعْلُ العَبدِ، والجَزاءُ فِعلُ اللهِ بهم، والمُرادُ هنا فِعلُ اللهِ بهم، ولهذا قال: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ}.

فإذا قال قائلٌ: لماذا عَبَّر بالعَمَلِ عن جَزائِهم؟

نَقولُ: إشارَةٌ إلى أَنَّ الجزاءَ بِقَدْرِ العَمَلِ، ولهذا قالَ العُلماءُ: "الجَزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ"، لكنَّه بالنِّسبَةِ للسَّيِّئاتِ عَدْلٌ، وبالنِّسبَةِ للحَسَناتِ فَضْلُ الحَسَنَةِ بعَشْرِ أَمثالِها إلى سَبع مئَةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كَثيرةٍ، والسَّيِّئةُ بمِثلِها.

وقولُهُ: {أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} ظاهِرُ الآيَةِ أَنَّ اللهَ يَجزيهم أَسوَأَ أَعمالِهم، وغَيرُ الأَسوَأِ ما دون الأَسْوأِ، يَعني: السَّيِّئَ، فهل يُجازَى الكافِرُ بأَقْبَحِ أعمالِه أو بِكُلِّ أعمالِهِ؟ هذا يَنْبَني على: هلِ الكافِرُ مخُاطَبٌ بالفُروعِ أو لا؟ يعني: مثلًا الكافِرُ هل هو مخُاطَبٌ بِصِلَةِ الرَّحمِ؟ هل هو مخُاطَبٌ بالصِّدْقِ؟ هل هو مخُاطَبٌ بالصَّلاةِ؟ هل هو مخُاطَبٌ بالزَّكاةِ؟ وما أَشبَهَ ذلك، في هذا خِلافٌ بينَ العُلماءِ، والصَّحيحُ أنَّه مخُاطَبٌ، مخُاطَبٌ بِفُروعِ الأعمالِ؛ لأنَّه إذا كان المُسلِمُ مُخاطَبًا بها، فالكَافِرُ من باب أَوْلى، كيف نَقولُ: إنَّ المُسلِمَ يُجازَى ويُعاقَبُ على عُقوقِ الوالِدينِ والكَافِرُ لا يُعاقَبُ، لا يُمكِنُ هذا، فالصَّوابُ أَنَّهم مُخاطَبونَ بِفُروعِ الشَّريعَةِ، لكنَّهم غَيرُ مُخاطَبينَ بِفعلِها. يَعني لا يُقالُ للكافِرِ مثلًا: لماذا تَشرَبُ الدُّخانَ؟ حَرامٌ عليكَ، هذا غَيرُ لائِقٍ، هذا كافِرٌ، ادعُه أَوَّلًا للإسلامِ ثُمَّ كَلِّمْهُ.

إذن يُخاطَبُ بفُروعِ الشَّريعَةِ ليس مَعناها أَنَّه يُؤمَرُ بفِعلِها، ولا يَعني أَنَّه يَقضيها إذا أَسلَمَ؛ لأنَّ اللهَ قال: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} [الأنفال: ٣٨].

=

=

إذن ما الفائِدَةُ؟ قال العُلماءُ الفائِدَةُ بقولنا: إنَّ الكافِرَ مُخاطَبٌ بفُروعِ الشَّريعَةِ هو زيادَةُ عُقوبَتِهم في الآخِرَةِ أنَّهم يُعاقَبونَ عَليها، وهذا حَقٌّ، أصحابُ اليَمينِ يَتَساءلونَ عَنِ المُجرِمينَ: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ} [المدَّثر: ٤٢] يعني: ما الَّذي أَدْخلَكم في النَّارِ؟ {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ} [المدثر: ٤٣- ٤٧]، فذَكَروا الصَّلاةَ وإطعامَ المِسكينِ، وهما مِن فُروعِ الشَّريعَةِ، فعلى القَولِ بأنَّهم لا يُجازَونَ بفُروعِ الشَّريعَةِ نَقولُ: نعم، يَومَ القِيامَةِ لا يُجازَون إلَّا على أَسوَأِ أَعمالِهم وهو الكُفْرُ، ولكن على القَولِ الرَّاجح أنَّهم يُخاطَبون بفُروعِ الشَّريعَةِ ويُعاقَبونَ عليها، ويَكونُ هنا ذِكْرُ الأَسوَأِ؛ لأنَّه هو الأَشَدُّ، والمَقصودُ هُنا التَّهديدُ، وهل الإنسانُ يُهَدَّدُ بالأَشَدِّ، هذا هو الظَّاهِرُ واللهُ أعلَمُ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي: أَقبَحُ جَزاءِ عَمَلِهم].

في الآية الكَريمَةِ هُنا وَعيدٌ لهؤلاءِ الكُفَّارِ بالعَذابِ الشَّديدِ، وهذا مِن أَساليبِ القُرآنِ، أنَّ اللهَ تعالى يُهَدِّدُ الكافِرَ والمُجرِمَ وغَيرهما مِمَّن أَساؤوا، وفيه دَليلٌ على أنَّه ليس مِنَ القَدْحِ أنْ يَقومَ الإنسانُ بطاعَةِ اللهِ خوفًا من عَذابِ اللهِ، أنَّه لا حَرَجَ، وليس مِنَ القَدْحِ أن يَتَجَنَّبَ الإنسانُ مَعصيَةَ اللهِ خوفًا من عِقابِهِ، خِلافًا لمَن قال: أَعبُدُ اللهَ لا طَمَعًا في ثَوابِهِ ولا خوفًا من عِقابِهِ، وهَؤلاءِ تَرُدُّ عليهم النُّصوصُ كُلُّها، بل إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ عُقوبَةَ الدُّنيا سَببًا للرَّدعِ عَنِ المَعاصي، قال اللهُ تعالَى في قَضيَّةِ السَّارِقِ {فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ} [المائدة: ٣٨]، فلم يُشَرِّعِ اللهُ الحُدودَ إلَّا من أَجْلِ أن يَخافَ النَّاسُ منها ويَجتَنِبوا المَعاصي، والقَريَةُ الَّتي دَمَّرت قَريَةَ بَني إِسرائيلَ حتَّى صار أَهْلُها قِرَدَةً خاسِئينَ لِماذا: {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا} [البقرة: ٦٦].

=

ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨).

{ذلك} العذاب الشديد وأسوأ الجزاء {جزاء أعداء الله} بتحقيق الهمزة الثانية وإبدالها واوا {النار} عطف بيان للجزاء المخبر به عن ذلك {لهم فيها دار الخلد} أي إقامة لا انتقال منها {جزاء} منصوب على المصدر بفعله المقدر {بما كانوا بآياتنا} القرآن {يجحدون}[(١)].

=

فالحاصِلُ: أنَّه لا حَرَجَ على الإنسانِ أن يَدَعَ المَعاصيَ خوفًا مِن عُقوبَةِ اللهِ الدُّنيويَّةِ والأُخْرويَّةِ، ولا يُعَدُّ ذلك قَدْحًا في سُلوكِهِ ومَنهجِهِ.

(١) قوله تعالى: {ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ}، أي:"هذا الجزاء الذي يُجزى به هؤلاء الذين كفروا جزاء أعداء الله النار".

قال الطبري: يقول: "هذا الجزاء الذي يجزى به هؤلاء الذين كفروا من مشركي قريش جزاء أعداء الله؛ ثم ابتدأ جلّ ثناؤه الخبر عن صفة ذلك الجزاء، وما هو فقال: هو النار".

قوله تعالى: {لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ}، أي:"لهم فيها دار الخلود الدائم".

قال الطبري:"يعني: لهؤلاء المشركين بالله في النار دار الخلد يعني دار المكث واللبث، إلى غير نهاية ولا أمد؛ والدار التي أخبر جلّ ثناؤه أنها لهم في النار هي النار".

قال السعدي:"أي: الخلود الدائم، الذي لا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينصرون".

قال الزجاج:"أي: لهم في النار دار الخلد، والنار هي الدار، كما تقول: لك في هذه الدار دار السرور، وأنت تعني الدار بعينها، كما قال الشاعر:

=

=

أَخُو رَغائِبَ يُعْطِيها ويَسْأَلُها... يَأْبَى الظُّلامَةَ منه النَّوْفَلُ الزُّفَرُ".

قال السعدي:"أي: الخلود الدائم، الذي لا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينصرون".

قوله تعالى: {جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [فصلت: ٢٨]، أي:"جزاء بما كانوا بحججنا وأدلتنا يجحدون في الدنيا".

قال الطبري:"يقول: فعلنا هذا الذي فعلنا بهؤلاء من مجازاتنا إياهم النار على فعلهم جزاء منا بجحودهم في الدنيا بآياتنا التي احتججنا بها عليهم".

قال السعدي:"فإنها آيات واضحة، وأدلة قاطعة مفيدة لليقين، فأعظم الظلم وأكبر العناد، جحدها، والكفر بها".

قال الحسن، يعني بقوله: {يجحدون}، قال: جحدوا بعد المعرفة".

وقال الحسن:"إن القوم قد عرفوه، ولكنهم جحدوا بعد المعرفة".

قال قتادة: "والجحد لا يكون إلا من بعد المعرفة".

وقال العثيمين: قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ذَلِكَ} العَذابُ الشَّديدُ وأَسوَأُ الجَزاءِ: {جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ} بتَحقيقِ الهَمزَةِ الثَّانيَةِ وإبدالِها واوًا]، يعني: أنَّ في ذلكَ قِراءتَينِ الأُولَى تَحقيقُ الهَمزَةِ، {جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ} والثَّانيَةُ قَلبُها واوًا: "جزاو أعداءِ الله" وهذا مُطَّرِدٌ في كُلِّ هَمزَةٍ بعدَ واوٍ أن تُحقَّقَ أو تُقلَبَ واوًا، ومن ذلك قَولُ المُؤذِّنِ: اللهُ أكبرُ، يَعني: أنَّه يَجوزُ إبْدالُ الهَمْزَةِ واوًا وتحقيقها اللهُ أكبَرُ، وهذه اللُّغَةُ تُهَوِّنُ علينا ما يَفعَلُه بعضُ المُؤذِّنينَ من قَلبِ الهَمزَةِ واوًا، فتَجِدُهم يَقولونَ: اللهُ وكبر، كما أنَّه يُهَوِّنُ علينا اللُّغَةَ الَّتي تَنْصِبُ الجُزْأَينِ في إنَّ وأَخَواتِها؛ حيثُ إنَّ بَعضَ المُؤَذِّنينَ يَقولُ: أَشهَدُ أنَّ محُمَّدًا رَسولُ اللهِ، فإنَّ نَصبَ الجُزأينِ بـ (أنَّ) لُغةٌ عربيَّةٌ ثابتَةٌ.

قَولُه تعالَى: {ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ} أعداءُ اللهِ تَعالَى هُمُ الَّذين نَصَبوا لَهُ العَداوَةَ

=

=

وذلك بمُحاربتِهِ بالمَعاصي، ومِنهم الَّذين آذَنوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ ورَسولِهِ أَكَلَةُ الرِّبا؛ لقَولِ اللهِ تبارك وتعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ} [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩].

المُهِمُّ: أنَّ عَدُوَّ اللهِ مَن نَصَبَ له العَداوَةَ وذلك بمُحاربتِهِ بمَعاصيه.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{النَّارُ} عَطفُ بَيانٍ للجَزاءِ المُخبَر به عن ذلك: {لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ}] يعني: أنَّ كَلمةَ {النَّار} بَدَلُ عَطْفِ بَيانٍ لِلجَزاءِ المُخبَرِ به عن ذلك. فأَفادَنا أنَّ (ذا) مُبتدأٌ، و {جَزَاءُ} خَبَرُ المُبتدإ، و {النَّارُ} عَطفُ بَيانٍ له {ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ}، كأنَّ الكَلامَ على إعرابِ المفسِّر انتهى، ثُمَّ قال: {النَّارُ} عَطْفُ بَيانٍ لهذا الجَزاءِ، ويَحتَمِلُ أن تَكونَ {ذَلِكَ} مُبتدَأٌ و {جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ} عَطفُ بَيانٍ له، لكن ما مَشي عليه المفسِّر أَقربُ للقَواعِدِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ} أي إقامَةٍ لا انتقالَ منها]، {دَارُ الْخُلْدِ} أَضافَ الدَّار للخُلْدِ من بابِ إضافَةِ المَوصوفِ إلى صِفتِهِ يعني: دارَ الخُلودِ الَّتي ليسَ فيها انتِقالٌ، ويَجوزُ أن تَكونَ من بابِ إضافَةِ الشَّيءِ إلى نَوعِهِ؛ لأنَّ الدُّورَ تَنقَسِمُ إلى أَقسام، دُورٌ هي دُورُ انتقالٍ ودُورٌ هي دارُ خُلدٍ، فيَدورُ الانتقالُ الأوَّلُ بَطنُ الأُمِّ والثَّاني الحَياةُ الدُّنيا والثَّالثُ البَرزخُ، ودارُ الخُلدِ هي الأخيرَةُ، ويُذكَرُ أنَّ أعرابيًّا سَمِعَ قارئًا يَقرأُ: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} فقال: واللهِ ما الزَّائرُ بمُقيمٍ، وإنَّ هناك دارًا أُخرى، وهذا لا شَكَّ أنَّه من قُوَّة الاستِنباطِ والفَهمِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{جَزَاءً} مَنصوبٌ على المَصدرِ بفِعلِهِ المُقدَّر]، والمَصدَرُ لا بُدَّ له مِن عاملٍ، والعامِلُ تارَّةً يَكونُ من لفظِ المَصدرِ، وتارَّةً يَكونُ من مَعناه، فإذا قلت: قُمتُ وقوفًا، فالعامِلُ مِن معناه، وإذا قلتَ: وقفتُ وقوفًا، فالعامِلُ مِن

=

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩).

{وقال الذين كفروا} في النار {ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس} أي إبليس وقابيل سنا الكفر والقتل {نجعلهما تحت أقدامنا} في النار {ليكونا من الأسفلين} أي أشد عذابا منا[1].

=

لَفظِه المُقَدَّرِ، ويُقدَّرُ مِن لَفظِه، ولا يُقدَّرُ من مَعناه؛ لأنَّنا لا نَلجأُ إلى تَقديرِ المَعنى إلَّا إذا وُجِدَ أَمامَنا ما يَختَلِفُ في لَفظِه، وأمَّا إذا لم نَجِدْ فيُقَدَّر مِنَ اللَّفظِ، وعلى هذا فيَكونُ التَّقديرُ يُجْزَونَ جَزاءً.

قال اللهُ تعالى: {بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} أي: بِكونِهم يَجحَدون، وعلى هذا فـ (ما) هُنا مَصدَرِيَّةٌ، ولا تَصِحُّ أن تَكونَ مَوصولَةً.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا} القُرآنُ {يَجْحَدُونَ}]، أي يُكذِّبون، وإنَّما قدَّرنا يُكذِّبون من أَجْلِ تَعدِّيها بالباءِ، لأنَّ جَحَدَ تَتَعَدَّى بنَفسِها، فيُقالُ: جَحَدتُ الشَّيءَ يعني: أَنْكرتُه، لكن إذا عُدِّيَ المَعمولُ بالباءِ صار الجَحدُ مُضمَّنَ معنى التَّكذيبِ؛ أي: بما كانوا يَكذِبون بآياتِنا.

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ} [فصلت: ٢٩]، أي:"وقال الذين كفروا بالله ورسوله، وهم في النار: ربنا أرنا اللذَين أضلانا من خلقك من الجن والإنس".

قال الطبري:"وقال الذين كفروا بالله ورسوله يوم القيامة بعد ما أدخلوا جهنم: يا ربنا أرنا اللذين أضلانا من خلقك من جنهم وإنسهم. وقيل: إن الذي هو من الجنّ إبليس، والذي هو من الإنس ابن آدم الذي قتل أخاه".

قال الزجاج:"معنى الآية -فيما جاء من التفسير- أنه يعني بهما ابن آدم قابيل

=

=

الـذي قتـل أخـاه، وإبلـيس، فقابيـل مِـنَ الإنـس وإبلـيس مِـنَ الجِـنِّ، ومعنـى: {نجعلْهُمَا تحت أَقْدَامِنَا، أي: يكونان- في الدَّرْك الأسفل".

قال السعدي:"أي: الصنفين اللذين، قادانا إلى الضلال والعذاب، من شياطين الجن، وشياطين الإنس، الدعاة إلى جهنم".

عن الحسن:"{أرنا}: أعطِنا".

قال قتادة:"هو الشيطان، وابن آدم الذي قتل أخاه".

قال مجاهد:"قابيل ابن آدم الذي قتل أخاه، وإبليس من الجن وقابيل من الإنس قولهم من الجن والإنس".

عن حبة بن جوين العرني، عن عليّ بن أبي طالب ﵁ في قوله: "{أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ}، قال: هو ابنُ آدم الذي قتل أخاه، وإبليس". وروي عن إبراهيم النخعي وعكرمة مثله.

وعن السدي، عن علي بن أبي طالب، في قوله: "{أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ}، الآية، فإنهما ابن آدم القاتل، وإبليس الأبالسة. فأما ابن آدم فيدعو به كل صاحب كبيرة دخل النار من أجل الدعوة وأما إبليس فيدعو به كل صاحب شرك، يدعوانهما في النار".

وثبت في الحديث: «لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل» ".

قوله تعالى: {نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ} [فصلت: ٢٩]، أي:"نجعلهما تحت أقدامنا؛ ليكونا في الدرك الأسفل من النار".

قال الطبري:"يقول: نجعل هذين اللذين أضلانا تحت أقدامنا، لأن أبواب جهنم بعضها أسفل من بعض، وكل ما سفل منها فهو أشد على أهله، وعذاب أهله أغلظ، ولذلك سأل هؤلاء الكفار ربهم أن يريهم اللذين أضلاهم ليجعلوهما

=

=

أسفل منهم ليكونا في أشد العذاب في الدرك الأسفل من النار".

قال السعدي:" {لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ}، أي: الأذلين المهانين كما أضلونا، وفتنونا، وصاروا سببًا لنزولنا. ففي هذا، بيان حنق بعضهم على بعض، وتبرِّي بعضهم من بعض".

قال ابن كثير:"أي: أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذابا منا؛ ولهذا قالوا: {لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ} أي: في الدرك الأسفل من النار، كما تقدم في "الأعراف" من سؤال الأتباع من الله أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم، قال: {لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٨] أي: إنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ} [النحل: ٨٨]".

عن ابن بن عباس: "{لِيَكُونا مِنَ الأَسْفَلِينَ} ليكونا أشد عذابًا مِنّا".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا} كَفروا باللهِ ﷻ بسببِ إضلالِ الشَّيطانِ منَ الجِنِّ والإنسِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} في النَّارِ: {رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا}]، قَولُه: في النَّارِ، هذا قَيدٌ لا يَدُلُّ عليه القُرآنُ، فإنَّه يَحتمِلُ أنَّهم يَقولونَ ذلك في النَّارِ أو في عَرَصاتِ القِيامَةِ- اللهُ أعلمُ-، لكنَّهم لا بدَّ أن يَقولوا هذا القَولَ: {رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ}.

قَولُه تعالى: {أَرِنَا} أي: اجعَلنا نَرى، و {اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ}، {اللَّذَيْنِ} اسمٌ موصولٌ مُثنًّى، والمُرادُ الجِنسُ لا الواحِدُ.

وقَولُه: {أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ} بَيانٌ للَّذي قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي إبليسُ وقَابيلُ سنَّا الكُفْرَ والقَتْلَ]، يعني: مَعناها أنَّ المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ حَمَلَ هذا العُمومَ على

=

=
التَّعيينِ، فقال: {اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا} مُثَنَّى اثنينِ، أحدُهما إبليسُ سَنَّ الكُفْرَ، هو أوَّلُ مَن كَفَرَ، والثَّاني قَابيلُ سَنَّ القَتْلَ، فالأَوَّلُ عُدوانٌ في حقِّ اللهِ، والثَّاني عُدوانٌ في حَقِّ عِبادِ اللهِ.

أمَّا إبليسُ فأَوَّلُ مَن سَنَّ الكُفْرَ؛ لأنَّ اللهَ أَمَرَه أن يَسجُدَ لآدَمَ فأبى واستكبَرَ وكان مِن الكافِرينَ، وأمَّا قَابيلُ فأَوَّلُ مَن سَنَّ القَتلَ بِغيرِ حَقٍّ؛ لأنَّه قَتَل أخاه حَسدًا وبَغيًا، قَرَّبا قُربانًا فتُقُبِّلَ من أحدِهما ولم يُتَقَبَّلْ مِن الآخرِ، وكيف عَلِما أنَّه تُقُبِّلَ من أَحدِهما دون الآخَرِ؟ اللهُ أعلمُ، إمَّا أن يَكونَ بنارٍ نَزَلَت فأَكَلَت ما تُقُبِّلَ كما يَكونُ ذلك في الغَنائمِ سابقًا، وإمَّا بغَيرِ ذلك مِن العَلاماتِ. المُهمُّ أنَّ أحدَهما تُقُبِّل منه والثَّاني لم يُتَقَبَّلْ منه، الَّذي تُقُبِّل منه هو هابيلُ، والثَّاني قابيلُ لم يُتَقَبَّلْ منه فحَسَدَه وقال: {لَأَقْتُلَنَّكَ} لماذا؟ حَسدًا؛ لأنَّ اللهَ تَقبَّل منه، فقال له أخوه هابيلُ: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة: ٢٧] كأنَّه يَقولُ له: اتَّقِ اللهَ فيَتقبَّل منك، ثُمَّ قال لَهُ: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [المائدة: ٢٨] يَعني: أنَّك إن أَردتَ أن تَقتُلَني ما أَنا بباسِطٍ يدي لأَقتلَك لأنِّي أَخافُ اللهَ.

ولعلَّ هذا كان في شَريعَةِ مَن سَبَقَ أنَّه لا يَجوزُ للإنسانِ أن يُدافِعَ عن نفسِه، أو أنَّه خاف مِن مَفسدَةٍ أَكبَرُ، ومَعلومٌ أنَّ دَفْعَ المَفسدَةِ الكُبرى أَمْرٌ واجِبٌ: {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [المائدة: ٢٩- ٣٠] فكان قابيلُ أَوَّلَ مَن سَنَّ القَتلَ بغَيرِ حَقٍّ، وصارت كُلُّ نفسٍ تُقتَلُ بغيرِ حَقٍّ فعلى قابيلَ شيءٌ مِن وِزرِها والعِياذُ باللهِ، لأنَّهُ أوَّلُ مَن سنَّ القَتلَ، ومَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فعليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها إلى يومِ القِيامَةِ.

فإنْ قال قائلٌ: قَوُل اللهِ ﷻ حكايةً عن ابنِ آدمَ الأَوَّلِ: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ
=

=

لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ} هل يَكونُ هذا في شَرعِنا فيما يَخُصُّ الفِتَنَ؟

فالجَوابُ: بلى، هذا في الفِتنَةِ لكن في مَسألَةِ قابيلَ وهابيلَ ليس فيها فِتنَةٌ، ولهذا أَمَرَ الرَّسولُ عند الفِتنَةِ أن يَكونَ الإنسانُ كخيرِ ابنَيْ آدمَ، كما فَعلَ عُثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينَ ثارَ عليه الثُّوَّارُ، وأراد الصَّحابَةُ أن يُدافِعوا عنه، أَمَر بالإمساكِ.

لكن هل الأمرُ كما قال المفسِّر: إنَّه الشَّيطانُ، يعني: إبليسُ الَّذي أبى واستكبرَ عنِ السُّجودِ لآدمَ أوِ المُرادُ الجِنسُ؟ الصَّوابُ الثَّاني بِلا شَكٍّ؛ لأنَّ كَثيرًا مِن الكافِرينَ لا يَخطُرُ ببالِهم أنَّهم كَفَروا تَأَسِّيًا بالشَّيطانِ الَّذي أبى واستكْبَرَ، وكَثيرٌ منَ القَتَلَةِ لا يَتَأَتَّى ببالِه أنَّه فَعَلَ ذلك تَأَسِّيًا بقابيلَ.

فإذا كانت الآيَةُ تَدُلُّ بلَفظِها على العُمومِ والمَعنى يَقتَضي ذلك، فإنَّه لا وَجهَ لكونِنا نَخُصُّها بمُعَيَّنٍ. وهذه قاعِدَةٌ يَجِبُ أن نَفهَمَها من قَواعدِ التَّفسيرِ: أنَّ اللَّفظَ العامَّ لا يَجوزُ أن يَقتصِرَ فيه على بعضِ أفرادِه إلَّا بدَليلٍ، فإن لم يَكُن دَليلٌ فالواجِبُ العُمومُ.

هُنا نَقولُ الواجِبُ العُمومُ؛ لأنَّ اللَّفظَ عامٌّ ولأنَّ المَعنى يَقتَضيه؛ لأنَّ كُلَّ إنسانٍ كافِرٍ قد لا يَخطُرُ ببَالِه أنَّه مُتَأَسٍّ بالشَّيطانِ بإبْليسَ، كُلُّ إنسانٍ يَقتُلُ عمدًا بلا حقٍّ لا يخطُرُ ببالِه أنَّه قتَل تأسِّيًا بقابيلَ، وحينَئِذٍ فاللَّفظُ والمَعنى لا يُساعدانِ على التَّخصيصِ بإبْليسَ وقابيلَ.

وقولُهُ: {أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ}، {الْجِنِّ} على كَلامِ المفسِّر هو إبليسُ: {وَالْإِنْسِ} قابيلُ، والصَّوابُ العُمومُ.

فإن قال قائِلٌ: نَحنُ نَعلمُ أنَّ الإنسانَ يُضِلُّه البَشَر يَأتي إنسانٌ سَيِّئٌ ويُضِلُّه، لكن كيف يَكونُ مِنَ الجِنِّ؟

قُلنا: لأنَّ الجِنَّ وعلى رَأسِهم الشَّيطانُ يَأمرُ الإنسانَ بالفَحشاءِ، وَيأمُرُه بالمُنكَرِ،

=

=

ويَأمُرُه بالكُفرِ، فيَكونُ بذلك مُضلًّا له، أرأيتم ما حَصَلَ من آدَمَ وزَوجِه ألم يَكُنِ الشَّيطانُ قد أَضَلَّهما؟ بلى، قد أَضَلَّهما، نَهاهما اللهُ عن الأَكلِ مِنَ الشَّجرَةِ، فجاء لَهما الشَّيطانُ بغُرورٍ، وجعل يُقسِمُ لهما أنَّه ناصحٌ، ووَسوسَ إليهما حتَّى أَكَلا مِنَ الشَّجَرةِ.

فإنْ قال قائِلٌ: هلِ الجِنُّ المُضِلُّ للإنسِ يَكونُ مِن جَميعِ الجِنِّ أم مِن جِنسٍ خاصٍّ؟

فالجَوابُ: مِن المَعلومِ أنَّ الجِنَّ فيهم الصَّالحونَ وفيهم دونَ ذلك، وفيهم المُسلِمونَ وفِيهم الكُفَّارُ، فالَّذي يُضِلُّ إنَّما هو الكافِرُ، أمَّا الجِنِّيُّ المُؤمنُ فلا يُضِلُّ.

وإن قيل: هل جَميعُ كُفَّارِ الجِنِّ مَكَّنَهم اللهُ ﷻ من إغواءِ الإنسِ؟

فالجَوابُ: لا، لكن أَصلُ كُفرِ الإنسانِ منَ الشَّيطانِ والنَّفسِ، والشَّيطانُ منَ الجِنِّ لا شكَّ في هذا: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ} [الكهف: ٥٠].

قال اللهُ تعالى: {نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا}، {نَجْعَلْهُمَا} بالجَزمِ جَوابُ الأمرِ في قَولِه: {أَرِنَا} يعني: إن أَريتَنا إيَّاهما: {نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا}، يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فِي النَّارِ]، ولا شكَّ أنَّ الَّذي يَجعَلَه الإنسانُ تحتَ قدمِه قد أذلَّه أعظَمَ الإذلالِ، ولهذا مِن الأمثالِ السَّائرَةِ أنَّ الإنسانَ إذا أرادَ إعزازَ شَخصٍ قال: أنت مِنِّي على الرَّأسِ، وإذا أَرادَ إذلالَه قال: أنت تَحتَ قَدَمي.

فهم يَقولونَ: {أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ}. يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: أَشَدَّ عذابًا منَّا] كما كانا عالِيَينِ علينا مِن قَبلُ فلْنَجْعَلْهما نحنُ الآنَ تَحتَ أقدامِنا؛ ليَكونا مِن الأسفَلينَ.

فإنْ قال قائلٌ: الدُّعاءُ في قولِهِ تعالَى: {رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا}، هل هو خاصٌّ بكَفَرَةِ الإنسِ أم شاملٌ لكَفَرَةِ الإنسِ والجِنِّ؟

=

إِنَّ الَّـذِينَ قَـالُوا رَبُّنَـا اللهُ ثُـمَّ اسْـتَقَامُوا تَتَنَـزَّلُ عَلَـيْهِمُ الْمَلَائِكَـةُ أَلَّا تَخَـافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠).

{إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا} على التوحيد وغيره مما وجب عليهم {تتنزل عليهم الملائكة} عند الموت {أ} بأن {لا تخافوا} من الموت وما بعده {ولا تحزنوا} على ما خلفتم من أهل وولد فنحن نخلفكم فيه {وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون}.

نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا وَفِي الْآخِـرَةِ وَلَكُـمْ فِيهَـا مَـا تَـشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١).

{نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا} أي نحفظكم فيها {وفي الآخرة} أي نكون معكم فيها حتى تدخلوا الجنة {ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون} تطلبون.

نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢).

=

فالجَوابُ: يَشملُ هذا وهذا؛ لأنَّ الجِنَّ يَدخلُ كافِرُهم النَّارَ بالإجماعِ.

وإِنْ قِيل: لماذا أتتِ الآيَةُ بصيغَةِ الماضي؟

فالجَوابُ: أنَّ هذا القَولُ لم يَحصُلْ لكنَّه على حِكايةِ الحالِ، أو يُقالُ: إنَّه لمَّا تَحقَّقَ وُقوعُه صار بمَنزِلةِ الماضي كقَولِه تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل: ١]، فإنَّ أَمْرَ اللهِ لم يأتِ بَعدُ بدليلِ قولِهِ: {فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ}.

فإنْ قال قائلٌ: ألا يُمكنُ أن يُقالَ: إنَّ قَولَ الكافِرينَ: {أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا} كذلك في النَّارِ بدَليلِ قولِهِم بعدَ ذلك: {نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا}؟

فالجَوابُ: لاَ يدُلُّ عليه؛ لأنَّه يُمكنُ أن يَجعَلونهم تَحتَ أقدامِهم وهم في عَرَصاتِ القِيامَةِ لا يَلزَمُ أن يَكونَ هذا في النَّارِ.

{نزلا} رزقا مهيئا منصوب بجعل مقدرا {من غفور رحيم} أي الله[١].

---

(١) قولـه تعـالى: {إِنَّ الَّـذِينَ قَـالُوا رَبُّنَـا اللهُ ثُـمَّ اسْـتَقَامُوا} [فـصلت: ٣٠]، أي:"إن الذين قالوا ربنا الله تعالى وحده لا شريك له، ثم استقاموا على شريعته".

قال الزجاج:"أي: وحدوا الله، واستقاموا: عملوا بِطَاعَتِهِ ولزموا سنة نبيِّه".

قال الطبري: يقول:"{إِنَّ الَّـذِينَ قَـالُوا رَبُّنَـا اللهُ} وحـده لا شـريك لـه، ويرثـوا مـن الآلهة والأنداد، {ثُمَّ اسْتَقَامُوا} على توحيـد الله، ولـم يخلطـوا توحيـد الله بـشرك غيره به، وانتهوا إلى طاعته فيما أمر ونهى".

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَقَامُوا} [فصلت: ٣٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: استقاموا على التوحيد، قاله أبو بكر الصِّدِّيق، ومجاهد، وعكرمة.

قال مجاهد:"أي على: لا إله إلا الله".

قال عكرمة:"استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله".

وقال مجاهد:"أسلموا ثم لم يشركوا به حتى لحقوا به".

وقال السدي:"تموا على ذلك".

عن سعيد بن نمران البجلي قال قرأت هده الآية على أبـي بكـر: {إن الـذين قـالوا ربنا الله ثم استقاموا}، قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئا".

وفي رواية:"استقاموا على ألا يشركوا".

عن الأسود بن هلال المحاربي، قال: "قال أبو بكر: ما تقولون في هذه الآية: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}، قال: ربنا الله ثم استقاموا من ذنـب، قـال: فقـال أبو بكر: لقد حملتم على غير المحمل، قالوا: ربنا الله ثم استقاموا فلم يلتفتوا إلى إله غيره".

عـن أنـس بـن مالـك، أن رسـول الله ﷺ قـرأ: "{إِنَّ الَّـذِينَ قَـالُوا رَبُّنَـا اللهُ ثُـمَّ اسْتَقَامُوا}، قال: «قد قالها النـاس، ثـم كفـر أكثـرهم، فمـن مـات عليهـا فهـو ممـن =

=

استقام» " وهو حديث ضعيف.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «هم أمتي ورب الكعبة استقاموا ولم يشركوا كما فعلت اليهود والنصارى» وهو حديث ضعيف.

الثاني: استقاموا على طاعته وأداء فرائضه، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد.

قال ابن عباس:"يقول: على أداء فرائضه".

قال ابن زيد:"على عبادة الله وعلى طاعته".

عن الزهري، قال: "تلا عمر رضي الله عنه على المنبر: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}، قال: استقاموا لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعلب".

قال قتادة:"وكان الحسن إذا تلاها قال: اللهمَّ فأنت ربنا فارزقنا الاستقامة".

الثالث: على الإخلاص والعمل إلى الموت، قاله أبو العالية، والسدي.

الرابع: على المعرفة ولم يرتدوا عنها. قاله مقاتل.

الخامس: ثم استقاموا في أفعالهم كما استقاموا في أقوالهم. حكاه الماوردي.

السادس: ثم استقاموا سراً كما استقاموا جهراً. حكاه الماوردي.

السابع: أن الاستقامة أن يجمع بين فعل الطاعات واجتناب المعاصي لأن التكليف يشتمل على أمر بطاعة تبعث على الرغبة ونهي عن معصية يدعو إلى الرهبة. أفاده الماوردي.

عن عبد الله بن سفيان الثقفي، عن أبيه:"أن رجلا قال: يا رسول الله مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحدا بعدك. قال: "قل آمنت بالله، ثم استقم" قلت: فما أتقي؟ فأومأ إلى لسانه".

قوله تعالى: {تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا} [فصلت: ٣٠]، أي:"تتنزل عليهم الملائكة عند الموت قائلين لهم: لا تخافوا من الموت وما بعده، ولا تحزنوا على ما تخلفونه وراءكم من أمور الدنيا".

=

=

قال الطبري:"يقول: تتهبط عليهم الملائكة عند نزول الموت بهم: ب، {أَلا تَخَافُوا} ما تقدمون عليه من بعد مماتكم {وَلا تَحْزَنُوا} على ما تخلفونه وراءكم".

وفي قوله تعالى: {تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ} [فصلت: ٣٠]، أقوال:

أحدها: تتنزل عليهم عند الموت، قاله مجاهد، والسدي، ويحيى بن سلام.

وفي الحديث: «إذا حضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون اخرجى راضية مرضيا عنك إلى روح الله وريحان ورب غير غضبان فتخرج كأطيب ريح المسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضا حتى يأتوا به باب السماء فيقولون ما أطيب هذه الريح الذى جاءتكم من الأرض فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه ماذا فعل فلان ماذا فعل فلان فيقولون دعوه فإنه كان فى غم الدنيا فإذا قال أما أتاكم قالوا ذهب إلى أمه الهاوية وإن الكافر إذا حضر أتته ملائكة العذاب بمسح فيقولون اخرجى ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتوا بها باب الأرض فيقولون ما أنتن هذه الريح حتى يأتوا بها أرواح الكفار» ".

الثاني: في الآخرة عند خروجهم من قبورهم للبعث، قاله ابن عباس، وثابت البُنَانِي، ومقاتل.

قال مقاتل:"وذلك أن المؤمن إذا خرج من قبره، فينفض رأسه، وملكه قائم على رأسه يسلم عليه، فيقول الملك للمؤمن أتعرفني؟ فيقول: لا. فيقول: أنا الذي كنت أكتب عملك الصالح فلا تخف ولا تحزن وأبشر بالجنة التي كنت توعد".

عن جعفر بن سليمان: "سمعت ثابتا قرأ سورة "حم السجدة" حتى بلغ: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ} فوقف فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره، يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا،

=

=

فيقولان له: لا تخف ولا تحزن، {وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} قال: فيؤمن الله خوفه، ويقر عينه فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين، لما هداه الله، ولما كان يعمل له في الدنيا".

الثالث: عند الموت وفي وقت البعث فلا تَهُولُهم أهَوالُ القيامة. قاله الزجاج.

الرابع: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث. قاله ابن زيد.

قال ابن كثير:"وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدا، وهو الواقع".

وفي قوله تعالى: {أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا} [فصلت: ٣٠]، وجهان من التفسير:

أحدهما: لا تخافوا أمامكم ولا تحزنوا على ما خلفكم، قاله السدي.

الثاني لا تخافوا ما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلفتم من دنياكم من أهل وولد، فإنا نخلفكم في ذلك كله. وهذا قول مجاهد.

قوله تعالى: {وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠]، أي:"وأبشروا بجنة الخلد التي وعدكم الله بها على لسان الرسل".

قال الطبري:"يقول: وسروا بأن لكم في الآخرة الجنة التي كنتم توعدونها في الدنيا على إيمانكم بالله، واستقامتكم على طاعته".

قال مقاتل:"وذلك أن الله وعدهم على السنة الرسل- فى الدنيا- الجنة".

عن السديّ: "{وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}، في الدنيا".

قال الماوردي:"قيل إن بشرى المؤمن في ثلاثة مواطن: أحدها عند الموت، ثم في القبر، ثم بعد البعث".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ}، قالوا بألْسِنَتِهم وقُلوبِهم، ولا يَكفي مجُرَّدُ القَولِ باللِّسانِ؛ لأنَّ القَولَ باللِّسانِ يَقعُ مِن المُنافقِ ومِنَ المُخلصِ، لكنَّ المُرادَ: القَولُ باللِّسانِ والقَلبِ.

{قَالُوا رَبُّنَا اللهُ} وهذا القَولُ الَّذي قالوه ليس مجُرَّدَ قَولٍ باللِّسانِ أو اعتِقادٍ

=

=

بالجَنانِ، بل هو مُستلزِمٌ لطاعَةِ اللهِ ﷻ ولهذا قال: {ثُمَّ اسْتَقَامُوا} أي: استَقاموا على طاعَةِ اللهِ، في الإيمانِ في القَلبِ والاستِقامَةِ في الجَوارحِ، فلم يَكتَفِ اللهُ بالثَّناءِ عليهم وبَيانِ جَزائِهم على الإيمانِ بالقَلبِ، بل لا بدَّ مِنْ الاستِقامَةِ، ولهذا قال: {ثُمَّ اسْتَقَامُوا}، وقول المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [على التَّوحيدِ وغيره ممَّا وَجبَ عليهم] صَحيحٌ، يعني: استَقاموا على التَّوحيدِ فلا إِشْراكَ، استَقاموا على الِاتِّباعِ فَلا بِدعةَ، استَقاموا على الطَّاعَةِ فلا مَعصيَةَ، استَقاموا على الخَيرِ فلا شَرَّ، وهَلُمَّ جرًّا.

وتَأمَّلْ قولَه: {ثُمَّ اسْتَقَامُوا} أتى بـ {ثُمَّ} الدَّالَّةِ على التَّرتيبِ بمُهلَةٍ يعني: أنَّ إيمانَهم لم يَكنْ إيمانًا خاطِفًا، آمَنَ ثُمَّ زال، بل إيمانٌ مُستقِرٌّ؛ لأنَّهم استَقاموا على دينِ اللهِ ﷻ، وقد سُئلَ النَّبيُّ ﷺ سأله رَجلٌ فقال: "يا رَسولَ اللهِ، قُل لي في الإسلامِ قولًا لا أَسألُ عنه أحدًا غَيرَك- يعني: قَولًا فَصلًا-، فقال لَه: قُل آمَنتُ باللهِ ثُمَّ استَقِمْ" وهو مَأخوذٌ من هذه الآيَةِ: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}.

وقولُه: {تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ}، {تَتَنَزَّلُ} مَدلولها يُخالِفُ مَدلولَ تَنَزَّلُ؛ لأنَّ {تَتَنَزَّلُ} فيها زِيادَةُ (التَّاء)، فهذه الزِّيادَةُ تَقتَضي مَعنيينِ: المَعنى الأَوَّلُ أنَّ تَنزُّلَهم يَكونُ شيئًا فشيئًا. {تَتَنَزَّلُ} لا تَنزَّلُ دُفعةً واحدَةً، والثَّاني: أنَّ التَّنزُّلَ أو النُّزولَ مُتكرِّرٌ، {تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ}، يعني: كُلَّما دَعت حالهُم إلى تَنزُّلِ المَلائِكةِ عليهم تَنزَّلت عليهم، فصار الفَرقُ الآنَ بين تَنزَّلُ {تَتَنَزَّلُ} من وجهين:

الوَجهُ الأَوَّلُ: أنَّ تَنزَّلُ تَعني النُّزولَ مَرَّةً واحدةً.

والوَجهُ الثَّاني: دُفعَةً واحدةً.

و{تَتَنَزَّلُ} تَقتَضي تَكرارَ النُّزولِ، وأنَّه يَكونُ شيئًا فشيئًا.

قولُه تعالَى: {عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ} سَبَقَ الكَلامُ على ذِكرِ المَلائِكَةِ، وقَول المُفسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ: [عندَ المَوتِ] فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى لم يُقيِّدْ ذلك، فالظَّاهرُ أنَّ المَلائكةَ

=

=
تَتَنَزَّلُ عليهم كُلَّما دعت الحالُ إلى النُّزولِ عندَ المَوتِ وعِندَ الخَوفِ وعندَ المَعارِكِ، وفي كُلِّ حالٍ تَقتَضي أن تنزِلَ المَلائكةُ عليهم؛ لأنَّ اللهَ أَطلقَ: {تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ}، ويَشهَدُ لهذا قولُه تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال: ١٢].

فإنْ قال قائلٌ: قولُنا نَستفيدُ نُزولَ المَلائكَةِ في الآخِرَةِ عندَ المَوتِ مِن قَصْرِ الآيةِ، هل يَصدُرُ هذا عن قولِ اللهِ ﷻ: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} [طه: ١٢٤]، يعني أنَّ أكثرَ المُفسِّرينَ على أنَّها في القَبرِ في الآخِرَةِ وهُنا الآيَةُ عامَّةٌ؟

فالجَوابُ: وهو كذلك الآيَةُ عامَّةٌ، ويدُلُّ لعُمومِها قولُه تَعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل: ٩٧]، فإنَّ مَفهومَها أنَّ مَن لم يَتَّصِفْ بذلك فَليسَ لَه حَياةٌ طَيِّبةٌ.

فإن قيل: فما الَّذي حَمَلَهم- على كَثرَتِهم- على هذا؟

فالجَوابُ: لعلَّهم فَهِموا أنَّ السِّياقَ يدُلُّ على هذا، فهُنا مثلًا: {أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} البِشارَةُ بالجنَّةِ حَقيقَةً إنَّما تكونُ عندَ المَوتِ، فلعلَّه السِّياقُ ظَنُّوا أنَّه يَقتَضي التَّخصيصَ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أَ} بأنْ لا {تَخَافُوا} مِن المَوتِ وما بَعدَهُ {وَلَا تَحْزَنُوا} على ما خَلَّفتم من أهلٍ وولدٍ، فنحن نَخلُفُكم فيهم].

نحن نَقولُ: ألَّا تَخافوا مِن مُستَقْبَلِكم ولا تَحزنوا على ماضيكم؛ لأنَّ الإنسانَ عندَ الخوفِ إمَّا أن يَخافَ من المُستقبَلِ أو يَحزنَ على ما مَضى فيَقولُ: لو أنِّي فَعلتُ كذا لكان كذا، لم يَحدُثْ لي الخَوفُ مثلًا، فالمَلائِكةُ تَتَنَزَّلُ عليهم فتَقولُ: لا تَخافوا مِنَ المُستقبَلِ ولا تَحزَنوا مِنَ الماضي، وقَدَّمَ الخَوفَ مِنَ المُستقبَلِ؛ لأنَّه أَهمُّ مِن الحُزنِ على ما مضى؛ لأنَّ مُستقبَلَ الإنسانِ هو الَّذي يَجعَلُه يَسيرُ أو
=

=

يَتوقَّفُ؛ فلهذا بَدَأَ به قَبْلَ ذِكرِ الحُزنِ.

وإذا جعلناها مَثلًا ممَّا يَدعو إلى التَّنزُّلِ حالَ المَوتِ، فالإنسانُ عندَ المَوتِ حالُه يَقتَضي أن يَزدادَ قُوَّةً ونشاطًا على الإيمانِ والتَّوحيدِ، فتَتنزَّلُ عليهمُ المَلائِكَةُ عندَ المَوتِ أيضًا وتُبَشِّرُهم بها: {أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} وهي مِن البِشارَةِ، والبِشارَةُ هي الإخبارُ بما يَسُرُّ، وسُمِّيت بِشارَةً؛ لأنَّه إذا سُرَّ الإنسانُ ظَهَرت عَلامَةُ السُّرورِ على وَجهِه فتَغيَّرت بِشرَةُ الوَجهِ.

وقد تُطلَقُ البِشارَةُ على الإِخْبارِ بما يَسوءُ من بابِ التَّهكُّمِ، قال اللهُ تَعالى: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء: ١٣٨]، وقال تعالى: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [التوبة: ٣٤]، مع أنَّ هذا مِمَّا يَسوءُ، لكنَّه على سَبيلِ التَّهَكُّمِ بهم كما تَقولُ أنت لِلعاصي: أَبشِرْ بِسوءِ العاقِبةِ أبشِرْ بالنَّارِ وما أَشْبَهَ ذلك ممَّا يَكونُ تَهكُّمًا به، ومثلُ قولِه تعالى: {ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [الدخان: ٤٨-٤٩].

قال اللهُ تَعالى: {وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} الجَنَّةُ هي الدَّارُ الَّتي أعدَّها اللهُ لأوليائِه، وفيها كما في القُرآنِ الكريمِ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧]، وفيها كما جاءَ في الحديثِ القُدسيِّ: "ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سَمِعت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بشرٍ".

{بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} وعَدَهم بها اللهُ ﷻ قال اللهُ تَعالى: {وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [التوبة: ٧٢].

قوله تعالى: {نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}، أي:"وتقول لهم الملائكة: نحن أنصاركم في الحياة الدنيا، نسددكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل ملائكته التي تتنزل على هؤلاء

=

=

المؤمنين الذين استقاموا على طاعته عند موتهم: {نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ} أيها القوم {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} كنا نتولاكم فيها؛ وفي الآخرة أيضا نحن أولياؤكم، كما كنا لكم في الدنيا أولياء".

قال ابن كثير:"أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم".

وفي قوله تعالى: {نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [فصلت: ٣١]، وجوه من التفسير:

أحدها: نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة، قاله السدي.

الثاني: نحفظكم في الحياة الدنيا ولا نفارقكم في الآخرة حتى تدخلوا الجنة. حكاه الماوردي.

الثالث: نحن أولياؤكم في الدنيا بالهداية وفي الآخرة بالكرامة. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ} [فصلت: ٣١]، أي:"ولكم في الجنة ما تشتهيه نفوسكم، وتقرُّ به عيونُكم من أنواع اللذائذ والشهوات".

قال الطبري:"يقول: ولكم في الآخرة عند الله ما تشتهي أنفسكم من اللّذات والشهوات".

قال ابن كثير:"أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس، وتقر به العيون ".

قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} [فصلت: ٣١]، أي:"ولكم فيها ما تطلبون وتتمنون".

=

قال مقاتل:"يعني: ما تتمنون.
قال الطبري:"يقول: ولكم في الآخرة ما تدّعون".
قال ابن كثير:"أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، أي: كما اخترتم ".
قوله تعالى: {نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ}، أي:"ضيافة وكرامة من ربٍ واسع المغفرة، عظيم الرحمة لعباده المتقين".
قال الطبري:"يقول: أعطاكم ذلك ربكم نزلا لكم من ربّ غفور لذنوبكم، رحيم بكم أن يعاقبكم بعد توبتكم".
قال الزجاج:"معناه: وأبشروا بالجنة تنزلُونها نُزُلا".
قال مقاتل:"هذا الذي أعطاكم الله كان {نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} ".
قال ابن كثير:"أي: ضيافة وعطاء وإنعاما من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رءوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف".
قال ابن إسحاق: {والله غفور رحيم}، " أي: يغفر الذنوب، ويرحم العباد، على ما فيهم".
قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:"أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".
وقال العثيمين: يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}] أي: نَحفَظُكم فيها {وَفِي الْآخِرَةِ} أي: نكونُ معكم فيها حتَّى تدخلوا الجَنَّةَ {وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} تطْلُبون].
تَقولُ لهم المَلائِكَةُ: {نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} يعني: أنَّ المَلائكَةَ تَتولَّى المُؤمنينَ، تَحثُّهم على الخَيرِ، وتُحذِّرُهم منَ الشَّرِّ، وقد قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-: أنَّ "للمُلكِ في قَلبِ ابنِ آدمَ لَمَّةً وللشَّيطانِ لَمَّةً، فلَمَّةُ المُلكِ إِيعادٌ بالخَيرِ وحثٌّ على الطَّاعَةِ، ولَمَّةُ الشَّيطانِ

=

بالعَكسِ".

فإنْ قال قائلٌ: هل تَرِدُ اللَّمَّتانِ في آنٍ واحدٍ؟

فالجَوابُ: نعم، قد تَرِدُ اللَّمَّتانِ في آنٍ واحدٍ فيَهوى الإنسانُ الخَيرَ وإذا بالشَّيطانِ يَصُدُّه عنه، وقد يَكونُ لم يَطرأْ على بالِه فِعلُ الخَيرِ، والشَّيطانُ قد وَسوسَ له بالشَّرِّ.

وقولُه: {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي: نَحفَظُكم فيها؛ وذلك أنَّ الإنسانَ إذا كانت المَلائِكَةُ معه فإنَّها تُسدِّدُه وتَدُلُّه على الخَيرِ وتَحثُّه عليه، {وَفِي الْآخِرَةِ} يَتولَّونَهم أيضًا، فإنَّ المَلائِكَةَ تَتلقَّاهم: {هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [الأنبياء: ١٠٣]، وفي الجَنَّةِ تَدخُلُ عليهم المَلائِكةُ من كُلِّ بابٍ {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٤]، فهُمْ أولياءُ المُؤمنينَ في الدُّنيا وفي الآخِرَةِ، جَعلَنا اللهُ منهم وإيَّاكم.

قال اللهُ تعالى: {وَلَكُمْ فِيهَا} أي: في الآخِرَةِ {مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} كُلُّ ما اشتَهاهُ الإنسانُ وإن لم يَطلُبْه فإنَّه يَحصُلُ بين يَديه، وكذلك أيضًا كُلُّ ما طَلَبَه فإنَّه يَحضُرُ بين يَديه.

في الدُّنيا لا يَتسَنَّى للإنسانِ ما يَطلُبُه حتَّى لو طَلَبَ وكرَّرَ الطَّلبَ فإنَّه قد لا يَأتيه، لكن في الآخِرَةِ مجُرَّدُ ما يَقعُ في قَلبِ الإنسانِ أنَّه يَشتَهي كذا يحضُرُ، كذلك أيضًا ما يَطلُبون يَحضُرُ أيضًا، ويَأتيهم أيضًا ما لا يَخطُرُ على بالِهم كما قال تَعالى: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق: ٣٥] يَعني يَأتيك منَ النَّعيمِ ما لم تَطلُبْه وما لم تَشتَهِه نفسُك وما لم يخطُرْ على بالِك.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{نُزُلًا}] رِزقًا مُهَيَّأً منصوبٌ بجُعِلَ مُقَدَّرًا]؛ أي: جُعِل نُزلًا [{مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} أي اللهِ] عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنَّهم لم يَصِلوا إلى الجَنَّةِ إلَّا بمغفِرتِه ورَحمتِه.

=

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣).

{ومن أحسن قولا} أي لا أحد أحسن قولا {ممن دعا إلى الله} بالتوحيد {وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين}[(١)].

=

يعني على تَقديرِ المفسِّر: أنَّ {نُزُلًا} مفعولٌ ثانٍ لجُعِلَ المَحذوفِ، أي: جُعِل {نُزُلًا} ومَفعولهُا الأوَّلُ هو نَائبُ الفاعِلِ؛ لأنَّ نائبَ الفاعِلِ يَنوبُ عن المَفعولِ به. يَقولُ: {نُزُلًا}، أي: جُعِلَ {نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} وهو اللهُ ﷻ وذَكَرَ المغفرةَ والرَّحمةَ؛ لأنَّهم بمَغفِرَةِ اللهِ ورحمتِهِ وصَلوا إلى هذا، فبِمَغفِرتِه للذُّنوبِ نقُّوا منها وبرحمَةِ اللهِ تَعالى صاروا أهلًا لدُخولِ الجَنَّةِ.

(١) قوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ}، أي:"لا أحد أحسن قولا ممن دعا إلى توحيد الله وعبادته وحده".

قال الطبري: يقول:"ومن أحسن أيها الناس قولا ممن قال: ربنا الله ثم استقام على الإيمان به، والانتهاء إلى أمره ونهيه، ودعا عباد الله إلى ما قال".

قال ابن كثير:"أي: دعا عباد الله إليه".

قال الشوكاني:"أي: إلى توحيد الله وطاعته".

قال السعدي:"هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر، أي: لا أحد أحسن قولا. أي: كلامًا وطريقة، وحالة، {مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ} بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين، بالأمر بعبادة الله، بجميع أنواعها، والحث عليها، وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه، خصوصًا من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

=

=

ومن الدعوة إلى الله، تحبيبه إلى عباده، بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلاله.

ومن الدعوة إلى الله، الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك، بكل طريق موصل إليه، ومن ذلك، الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين.

ومن ذلك، الوعظ لعموم الناس، في أوقات المواسم، والعوارض، والمصائب، بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك، مما لا تنحصر أفراده، مما تشمله الدعوة إلى الخير كله، والترهيب من جميع الشر".

عن قتادة، قوله: "{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ}،... الآية، قال: هذا عبد صدّق قولَه عملُه، ومولَجه مخرجُه، وسرَّه علانيته، وشاهده مغيبه، وإن المنافق عبد خالف قوله عمله، ومولجه مخرجه، وسرَّه علانيته، وشاهده مغيبه".

وفي قوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ}، أقوال:

أحدها: أنه رسول الله -ﷺ- حين دعا إلى الإسلام. قاله الحسن، والسدي، وابن زيد، وابن سيرين، واختاره ابن العربي.

عن معمر: "قال تلا الحسن: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، قال: هذا حبيب الله، هذا وليّ الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحبّ الخلق إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحا في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، فهذا خليفة الله".

الثاني: أنهم المؤذِّنون الصلحاء. قاله ابن عمر، وعكرمة، وقيس بن أبي حازم، ورواه الليث بن سعد ومعاوية بن صالح عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

=

=

وفي الحديث: "المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة"
وفي السنن مرفوعا: "الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، فأرشد الله الأئمة، وغفر للمؤذنين".
عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: "سهام المؤذنين عند الله يوم القيامة كسهام المجاهدين، وهو بين الأذان والإقامة كالمتشحط في سبيل الله في دمه".
وقال ابن مسعود: "لو كنت مؤذنا ما باليت ألا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد".
وقال عمر بن الخطاب: "لو كنت مؤذنا لكمل أمري، وما باليت ألا أنتصب لقيام الليل ولا لصيام النهار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "اللهم اغفر للمؤذنين" ثلاثا، قال: فقلت: يا رسول الله، تركتنا، ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف. قال: "كلا يا عمر، إنه يأتي على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم، وتلك لحوم حرمها الله على النار، لحوم المؤذنين".
عن قيس بن أبي حازم، في قول الله: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ}، قال: المؤذن، " {وَعَمِلَ صَالِحًا}، قال: الصلاة ما بين الأذان إلى الإقامة".
عن الليث بن سعد:"أن عائشة زوج النبي، قالت: "ما أحسب هذه الآية إلا في المؤذنين: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} ".
قال ابن وهب: "وسمعت معاوية بن صالح يذكر ذلك عن عائشة زوج النبي عليه السلام".

روى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نزلت في المؤذنين».
قال ابن عطية:"ومعنى القول بأنها في المؤذنين أنهم داخلون فيها، وأما نزولها فبمكة بلا خلاف ولم يكن بمكة آذان وإنما ترتب بالمدينة، وأن الآذان لمن الدعاء إلى الله تعالى ولكنه جزء منه. والدعاء إلى الله بقوة كجهاد الكفار وردع
=

=

الطغاة وكف الظلمة وغيره أعظم غناء من تولي الاذان إذ لا مشقة فيه والأصوب أن يعتقد أن الآية نزلت عامة".

قال ابن كثير:"الصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعا بالكلية؛ لأنها مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة، حين أريه عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري في منامه، فقصه على رسول الله ﷺ، فأمره أن يلقيه على بلال فإنه أندى صوتا، كما هو مقرر في موضعه، فالصحيح إذًا أنها عامة".

عن فضيل بن أبي رفيدة قال: "قال لي عاصم بن هبيرة-وكان من أصحاب ابن مسعود، وكنت مؤذنا-: إذا فرغت من الأذان، وقلت: لا إله إلا الله، فقل: وأنا من المسلمين، ثم قرأ هذه الآية: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} ".

الثالث: أنه المؤمن عمل صالحا ودعا إلى الله تعالى، قاله الحسن.

الرابع: أنه في المجاهدين، والمعنى: دعا إلى الله بالسيف. قاله زيد بن علي.

والصحيح أن الآية عامة في كل داع يدعو إلى الله تعالى. والله أعلم.

قال ابن عطية:"هو لفظ يعم كل من دعا قديما وحديثا إلى الله تعالى وإلى طاعته من الأنبياء والمؤمنين، والمعنى: لا أحد أحسن قولا ممن هذه حاله".

قال ابن كثير:"وهذه عامة في كل من دعا إلى خير، وهو في نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك".

قرأ الجمهور: «إنني» بنونين. وقرأ ابن أبي عبلة: «إني» بنون واحدة.

قوله تعالى: {وَعَمِلَ صَالِحًا} [فصلت: ٣٣]، أي:"وعمل عملا صالحًا".

قال أبو السعود: أي:"فيما بينه وبين ربه".

قال السعدي:"أي: مع دعوته الخلق إلى الله، بادر هو بنفسه، إلى امتثال أمر الله،

=

=

بالعمل الصالح، الذي يُرْضِي ربه".

قال ابن كثير:"أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومُتَعَدٍ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى".

قال ابن العربي:"قالوا: هي الصلاة، وإنه لحسن وإن كان المراد به كل عمل صالح، ولكن الصلاة أجله، والمراد أن يتبع القول العمل".

قوله تعالى: {وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: ٣٣]، أي:"وقال: إنني من المسلمين المنقادين لأمر الله وشرعه".

قال مقاتل:"يعني: المخلصين، يعني: النبي ﷺ".

قال أبو السعود:"{وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} ابتهاجا بأنه منهم أو اتخاذا للإسلام دينا ونحلة من قولهم هذا قول فلان أي مذهبه لا أنه تكلم بذلك".

قال السعدي:"أي: المنقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة، تمامها للصديقين، الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الوراثة التامة من الرسل، كما أن من أشر الناس، قولا من كان من دعاة الضالين السالكين لسبله.

وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، اللتين ارتفعت إحداهما إلى أعلى عليين، ونزلت الأخرى، إلى أسفل سافلين، مراتب، لا يعلمها إلا الله، وكلها معمورة بالخلق {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} ".

قال الزمخشري:"قوله: {وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، ليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام، ولكن جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقده، كما تقول: هذا قول أبى حنيفة، تريد مذهبه".

قال ابن العربي:"لما كان الدعاء بالقول، والسيف يكون للاعتقاد، ويكون

=

=

للحجة، وكان العمل يكون للرياء والإخلاص، دل على أنه لا بد من التصريح بالاعتقاد لله في ذلك كله، وأن العمل لوجهه، {وقال إنني من المسلمين}، ولم يقل: له إن شاء الله، وفي ذلك رد على من يقول: أنا مسلم إن شاء الله".

قال الفخر الرازي في الآية:"الآية تدل على أن أحسن الأقوال قول من جمع بين خصال ثلاثة:

أولها: الدعوة إلى الله.

وثانيها: العمل الصالح.

وثالثها: أن يكون من المسلمين.

أما الدعوة إلى الله: فهي عبارة عن الدعوة إلى الله بإقامة الدلائل اليقينية والبراهين القطعية.

وأما قوله: {وعمل صالحا}، فاعلم أن العمل الصالح إما أن يكون عمل القلوب وهو المعرفة، أو عمل الجوارح وهو سائر الطاعات.

وأما قوله: {وقال إنني من المسلمين}، فهو أن ينضم إلى عمل القلب وعمل الجوارح الإقرار باللسان، فيكون هذا الرجل موصوفا بخصال أربعة:

أحدها: الإقرار باللسان.

والثاني: الأعمال الصالحة بالجوارح.

والثالث: الاعتقاد الحق بالقلب.

والرابع: الاشتغال بإقامة الحجة على دين الله.

ولا شك أن الموصوف بهذه الخصال الأربعة أشرف الناس وأفضلهم، وكمال الدرجة في هذه المراتب الأربعة ليس إلا لمحمد ﷺ".

عن عاصم بن هُبَيرة، قال: "إذا فرغت مِن أذانِك فقُل: لا إله إلا الله، والله أكبر، وأنا من المسلمين. ثم قرأ: {ومَن أحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إلى اللهِ وعَمِلَ صالِحًا

=

=

وقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} ".

وقال العثيمين: قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا} أي: لا أَحَدَ أَحسنُ قَولًا] تَفسيرُ المفسِّر بهذه الجُملَةِ يُفيدُ أنَّ (مَن) اسمُ استفهامٍ، لكنَّها بمَعنى النَّفيِ (من أحسن) يعني: لا أَحَدَ أحسنُ.

وإذا جاء الاستِفهامُ بمَعنى النَّفيِ فإنَّه مُشْرَبٌ معنى التَّحدِّي، أَيُّهما أَبلغُ: أن تَقولَ لا أحدَ أحسنُ قولًا ممَّن دعا إلى اللهِ، أو أن تَقولَ: مَن أحسنُ؟ الثَّاني أَبلغُ؛ لأنَّ الثَّاني يَتضمَّنُ النَّفيَ ويَتضمَّنُ التَّحدِّي كأنَّه يَقولُ: ائتني ببيِّنَةٍ على أنَّ هُناك أحدًا أَحسنَ مِمَّن دعا إلى اللهِ، فكُلُّ استِفهامٍ جاء بمَعنى النَّفيِ فإنَّه مُشرَبٌ مَعنى التَّحدِّي؛ لأنَّك إذا قُلت: مَن كذا؟ يَعني: مَعناها أتَحدَّاك أن تَأتيَ لي بشَيءٍ سِوى ذلك.

{وَمَنْ أَحْسَنُ} أَشَدُّ نفيًا مِن قولِ: لا أَحَدَ أحسنُ، وذلك لأنَّها جُملَةٌ استِفهاميَّةٌ مُشرَبةٌ مَعنى التَّحدِّي.

{أَحْسَنُ} هذه خَبرُ مُبتدإٍ، و (مَن) هو المُبتَدأُ و {قَوْلًا} تَمييزٌ؛ لأنَّه كُلَّما جاءَك اسمٌ مَنصوبٌ بَعدَ اسمِ التَّفضيلِ فإنَّه تَمييزٌ له.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ} بالتَّوحيدِ]. وهذا لا شَكَّ حَسَنٌ، لكنَّ الآيَةَ أَشمَلُ مِنَ التَّوحيدِ، {مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ} بالتَّوحيدِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وغَيرِ ذلك مِمَّا يُجعلُ إلى اللهِ، وقولُه: {مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ} يَعني: إلى دينِ اللهِ، ودينُ اللهِ يَتضمَّنُ التَّوحيدَ والأعمالَ الصَّالحةَ.

ثانيًا: قال: {وَعَمِلَ صَالِحًا} فبَدَأَ بإصلاحِ الغَيرِ ثُمَّ ثَنَّى بإصلاحِ النَّفْسِ مع أنَّ مَن دعا إلى اللهِ فهو مُصلِحٌ أيضًا.

قَولُه تعالى: {صَالِحًا} صِفةٌ لمَوصوفٍ محَذوفٍ، التَّقديرُ: وعَمِلَ عملًا صالِحًا، ولا يَكونُ العَمَلُ صالِحًا إلا بشَرْطينِ هما: الإخْلاصُ للهِ، والمُتابَعةُ لرَسولِ اللهِ

=

=

ﷺ.

فعَمَلُ المُرائي فَقَدَ الإخلاصَ، وعَمَلُ المُبتَدِعِ فَقَدَ المُتابعةَ، وحينَئِذٍ نَقولُ لهؤلاء المُبتَدِعينَ الَّذين عِندَهم مِنَ الإخلاصِ للهِ ما عِندَهم: إنَّ عَمَلَكم حابِطٌ، قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-: "مَن عَمِلَ عملًا ليس عليه أَمرُنا فهو رَدٌّ".

ثُمَّ نَقولُ: حَقيقَةُ الإخلاصِ تَستلزِمُ ألَّا تَعبُدَ اللهَ إلَّا بما شَرَعَ لا تَعبُدُه بهَواكَ؛ لأنَّك إذا عَبدتَ اللهَ بهَواكَ بالبِدعَةِ فأنت غَيرُ مخُلِصٍ، المُخلِصُ لا بدَّ أن يَعبُدَ اللهَ سبحانه وتعالى بما شَرَعَ، فصار العَمَلُ الصَّالحُ ما تَركَّبَ من شَيئينِ: الأَوَّلُ: الإخلاصُ، والثَّاني: المُتابَعةُ لرَسولِ اللهِ ﷺ.

فإنْ قال قائلٌ: كيف نَجمَعُ بين هذا وبينَ حَديثِ الرَّسولِ ﷺ: "أنَّه يَخرُجُ مِنَ النَّارِ أُناسٌ لم يَعمَلوا خَيرًا قط"؟

فالجَوابُ: أنَّ هذا عُذِّبَ على ما تَرَكَ، وما تَنزَّلت عليه المَلائِكةُ، ثُمَّ لا بدَّ أن يَكونَ عِندَ الإنسانِ عَقيدَةٌ إيمانيَّةٌ وإلَّا لقُلنا: إنَّ النَّصارى أيضًا يَخرُجون مِنَ النَّارِ بعَقيدتِهم.

قال اللهُ تعالى: {وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} قال باللِّسانِ والقَلبِ بهما جَميعًا.

فإن قال قائِلٌ: قولُهُ: إنِّي مِنَ المُسلمينَ هو مِنَ العَمَلِ الصَّالحِ لا شكَّ، فما الفائِدَةُ من ذلك؟

قُلنا: الفائِدَةُ أنَّه يُعلِنُ هذا القَولَ ولا يُبالي بمَنْ خالَفَهُ؛ لأنَّ مِن النَّاسِ مَن يَعمَلُ صالحًا لكن تَجِدُه مُتَستِّرًا ليس عِندَه الشَّجاعَةُ الَّتي تَجعَلُه يُعلِنُ ذلك.

أمَّا هذا فإنَّه يُعلِنُ ويَقولُ بلِسانِ المَقالِ غَيرَ مُبالٍ: {إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، والجُملَةُ {إِنَّنِي} مُؤَكَّدةٌ بأنَّ.

ذَكَرَ بعضُ أهلِ العِلمِ أنَّ المُرادَ بذلك المُؤذِّنُ؛ لأنَّ المُؤذِّنَ يَدعو إلى اللهِ يَقولُ

=

=

للنَّاسِ: حَيَّ على الصَّلاةِ حَيَّ على الفَلاحِ، ولأنَّه مُؤمنٌ عاملٌ صالِحًا، ولأنَّه يَقولُ: أشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، يُعلِنُها وأَشهَدُ أنَّ محمَّدًا رَسولُ اللهِ، وهذا معنى قولِه: {إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.

لكنَّ الصَّحيحَ أنَّ الآيَةَ عامَّةٌ تَشمَلُ المُؤَذِّنَ وغَيرَ المُؤذِّنِ، الخَطيبُ على المِنبرِ يَدخُلُ في الآيَةِ، المُعلِّمُ في حَلْقةِ تَعليمِه يَدخُلُ في ذلك، فالآيَةُ أَعمُّ مِمَّا ذُكِرَ.

ولكنِ اعلَمْ أنَّ بعضَ السَّلَفِ يَذكُرُ للآيَةِ مَعنًى خاصًّا لا يُريدُ حَصرَها في هذا المَعنى، وإنَّما يُريدُ التَّمثيلَ، وهذه مَسأَلَةٌ قد تَفوتُ على بَعضِ النَّاسِ، دائمًا نَنظُرُ في تَفسيرِ ابنِ كثيرٍ أو ابنِ جَريرٍ أنَّه قال فُلانٌ كذا لجُزءِ المَعنى، فهم لا يُريدون أن يَقْصُروا العامَّ على الخاصِّ؛ لأنَّهم أَعلمُ مِن أن يَقتَصِروا على بَعضِ أفرادِ العامِّ مثلًا، لكنَّهم يُريدونَ التَّمثيلَ.

مِثالُ ذلك: قال بَعضُ العُلماءِ: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} [فاطر: ٣٢] قال: الظَّالمُ لنَفسِه الَّذي يُؤخِّرُ الصَّلاةَ عن وقتِها، المُقتَصِدُ الَّذي يُصلِّيها في آخِرِ الوقتِ، السَّابقُ بالخَيراتِ الَّذي يُصلِّيها في أَوَّلِ الوقتِ.

هذا لا شكَّ أنَّه حَصرٌ بل لا شكَّ أنَّه تَخصيصٌ لعامٍّ، فنَقولُ: أَرادوا بذلك التَّمثيلَ.

ويَرِدُ علينا كَثيرًا سُؤالُ: هل الأفْضلُ طَلَبُ العِلمِ أو الِاشتِغالُ بالدَّعوةِ؟

والواقعُ أنَّه سُؤالٌ غَيرُ محُرَّرٍ:

أوَّلًا: أنَّه يُمكنُ الجَمعُ بين هذا وهذا، ونحن نَعلَمُ أنَّ الدَّاعيَةَ ليس يَشغَلُ وقتَه من صَلاةِ الفَجرِ إلى ما بعدَ صَلاةِ العِشاءِ وهو يَدعو أبدًا، هل أَحَدٌ مِنَ الدُّعاةِ يَفعلُ هكذا، يَدعو نِصفَ ساعَةٍ هُنا ويصفَ ساعَةٍ هُناك، وأمَّا أن يَبقى لا يَسكُتُ من صَلاةِ الفَجرِ إلى أن يُصلِّيَ العِشاءَ، لا يُمكنُ لا بدَّ مِن فَتراتٍ، فلا يَتعذَّرُ الجمعُ

=

=

بينَ الدَّعوَةِ إلى اللهِ وطَلَبِ العِلمِ، يَطلُبُ العِلمَ ساعةً أو ساعَتين، ثُمَّ يَدعو نِصفَ ساعةٍ مثلًا فلا منافاةَ، هذه واحدةٌ.

ثانيًا: أنَّه لا يُمكنُ الدَّعوَةُ إلى اللهِ بلا عِلمٍ والدَّعوةُ إلى اللهِ عن جَهلٍ قد يكونُ فيها مِنَ الضَّررِ أكثَرُ من عَدمِ الدَّعوةِ، فكَثيرٌ مِنَ الدُّعاةِ، يَكونُ عندَه غَيْرَةٌ ومَحبَّةٌ للخَيرِ فتَجِدُه يُحرِّمُ الحَلالَ أو يوجِبُ ما ليس بواجبٍ بِناءً على ما عِندَه مِنَ الغَيرَةِ، ولو كان ذا عِلمٍ لحَصَلَ له الثَّباتُ، ولا يَخفى ما جَرى من عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في صُلحِ الحُديبيَّةِ صار يُعارِضُ الصُّلحَ، ويَأتي للرَّسولِ عليه الصلاة والسلام يُريدُ أن يَحِلَّ عُقدةَ الصُّلحِ، لكنَّ الثَّباتَ كَثباتِ أبي بكرٍ تَبيَّنَ بحَقٍّ، فلا يُمكنُ أن يَكونَ داعِيةً يَدعو إلى اللهِ بِلا عِلمٍ، هذا إذا أَردْنا العِلمَ بما يَدعو إليه، ولسنا نُريدُ أنَّه لا يُمكنُ أن يَدعوَ إلى اللهِ إلَّا مَن كان مُتبحِّرًا بالعُلومِ، لا، لو قُلنا هكذا ما صحَّ قَولُ الرَّسولِ: "بَلِّغوا عنِّي ولو آيَةً".

فالجَوابُ إذن مِن وَجهينِ:

الوَجهُ الأَوَّلُ: أنَّه لا مُنافاةَ بين العِلمِ والدَّعوةِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه لا تمُكنُ الدَّعوةُ إلَّا بعِلمٍ بما يَدعو عليه.

بَقِيَ علينا وَسائلُ الدَّعوةِ، ووَسائلُ الدَّعوةِ كَثيرةٌ يَعني: ليس الدَّعوَةُ مختَصَّةً بأن يَقومَ الإنسانُ يَتكَلَّمُ، بل الدَّعوَةُ تَكونُ بالقَولِ وتَكونُ بالكِتابَةِ وتَكونُ بنَفْسِ الفِعلِ، الإنسانُ الَّذي تَثِقُ منه تَجِدُ أنَّك تَنظُرُ ماذا يَصنَعُ وتَفعَلُ مِثلَه، هذه دَعوَةٌ، هذا نَوعٌ مِنَ الدَّعوَةِ، بل قد تَكونُ الدَّعوَةُ بالفِعلِ والعَملِ أَقوَى تأثيرًا مِنَ الدَّعوَةِ باللِّسانِ.

فإن قيل: طالِبُ العِلمِ الَّذي يُريدُ الدَّعوَةَ ولا سِيَّما الدَّعوةُ في الحاراتِ؛ لأنَّه يوجَدُ في الحاراتِ مُنكرٌ كَثير كتَركِ الصَّلاةِ وَيعرِفُ فُلانًا وفُلانًا وتَرْكَهم الصَّلاةَ، فإن مَشَى إليهم ضاعَ وَقتُه، فهل يَترُكُهم؛ لأنَّ الوَقتَ قَليلٌ؟ وهل يُعذَرُ الإنسانُ

=

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤).

{ولا تستوي الحسنة ولا السيئة} في جزئياتهما لأن بعضهما فوق بعض {ادفع} السيئة {بالتي} أي بالخصلة التي {هي أحسن} كالغضب بالصبر والجهل بالحلم والإساءة بالعفو {فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم} أي فيصير عدوك كالصديق القريب في محبته إذا فعلت ذلك فالذي مبتدأ وكأنه الخبر وإذا ظرف لمعنى التشبيه.

وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥).

{وما يلقاها} أي يؤتي الخصلة التي هي أحسن {إلا الذين صبروا وما يلقاها

=

إذا غَلَبَ على ظَنِّه أنَّ هذا الشَّخصَ بَعيدُ الاستِجابَةِ أو بَعيدٌ أن يَقبَلَ منه، ولا يَجِدُ الوَقتَ المُناسبَ له؟

فالجَوابُ: هذه في الواقِعِ مَوعِظةٌ أو أمْرٌ، فالدَّعوَةُ تَكونُ بصِفةٍ عامَّةٍ، أمَّا أن تَذهَبَ إلى فُلانٍ وتَنصَحُه فهذا في الحَقيقَةِ مَوعِظةٌ، وإن كان لك سُلطَةٌ فهو أمرٌ، أمرٌ بالمَعروفِ، وهذا كما نَعرِفُ له أَحوالٌ، لا يَجِبُ على الإنسانِ أن يَترُكَ ما يَهُمُّه في دينِه ودُنياهُ من أجلِ أن يَذهبَ إلى النَّاسِ وَيقرَعَ أبوابَهم ليَأمُرَهم أو يَعِظَهم، هذا ليس بواجبٍ.

فإن قيل: قولُهُ ﷺ: "مَن رأى مِنكم مُنكرًا فَلْيُغيِّرْه"؟

فالجواب: نعم في: (مَن رَأى)، لكنَّ الرَّسولَ ﷺ ما ذَهبَ وما قال: تطلَّبوا رُؤيَةَ المُنكَرِ، وهذا الَّذي لا يُصلِّي يُمكنُ أن أَعِظَه في السُّوقِ أو في المَسجدِ؛ ولهذا نَجِدُ النَّاسَ الآنَ يَستثقِلونَ أن يَقرعَ عليهِمُ البابَ أحدٌ فيَعِظَهم أو يَأمُرَهم، ورُبَّما حَصَلَ من ذلك ما يُسَمَّى بردِّ الفِعلِ.

إلا ذو حظ} ثواب {عظيم.

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦).

{وَإِمَّا} فِيهِ إدْغَام نُون إنْ الشَّرْطِيَّة فِي مَا الزائدة {ينزغنك من الشيطان نزغ} أي يصرفك عن الخصلة وغيرها من الخير صَارِف {فَاسْتَعِذْ بِاَللهِ} جَوَاب الشَّرْط وَجَوَاب الْأَمْر محذوف أي يدفعه عنك {إنه هو السميع} للقول {العليم} بالفعل[1].

(١) قوله تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ}، أي:"ولا تستوي حسنة الذين آمنوا بالله، واستقاموا على شرعه، وأحسنوا إلى خلقه، وسيئة الذين كفروا به وخالفوا أمره، وأساؤوا إلى خلقه".

قال الطبري: يقول:"ولا تستوي حسنة الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، فأحسنوا في قولهم، وإجابتهم وبهم إلى ما دعاهم إليه من طاعته، ودعوا عباد الله إلى مثل الذي أجابوا ربهم إليه، وسيئة الذين قالوا: {لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}، فكذلك لا تستوي عند الله أحوالهم ومنازلهم، ولكنها تختلف كما وصف جلّ ثناؤه أنه خالف بينهما".

قال الطبري: وإنما معناه" ولا يستوي الإيمان بالله والعمل بطاعته والشرك به والعمل بمعصيته".

قال ابن كثير:"أي: فرق عظيم بين هذه وهذه".

قال السمعاني:"أما «الحسنة والسيئة»، ففيهما أقوال: أحدها: أنهما التوحيد والشرك، والآخر: أنهما العفو والانتصار، والثالث: أنهما المداراة والغلظة. والرابع: أنهما الصبر والجزع. والخامس: أنهما الحلم عند الغضب والسفه".

قوله تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [فصلت: ٣٥]، أي:"ادفع -أيها الرسول- بعفوك وحلمك وإحسانك مَن أساء إليك، وقابل إساءته لك بالإحسان إليه".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: ادفع يا محمد بحلمك جهل من جهل عليك، ويعفوك عمن أساء إليك إساءة المسيء، وبصبرك عليهم مكروه ما تجد منهم، ويلقاك من قِبلهم".

قال السمعاني:"أي: ادفع السيئة بالخلة التي هي أحسن، والخلة هي أحسن الحلم عند الغضب، والعفو عند القدرة، والصبر عند البلاء، وما أشبه ذلك".

قال ابن كثير:"أي: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر رضي الله عنه ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه".

قال ابن عباس:"أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوُّهم، كأنه وليّ حميم".

وقال عن عطاء: "{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، قال: بالسلام".

قال مجاهد:"السلام عليك إذا لقيته".

قال السمعاني:"ومعناه: أنه يسلم على من يؤذيه، ولا يقابله بالأذى".

قال أبو هلال العسكري:"أمره بالصفح والتغافل".

قال هبة الله بن سلامة:"{وَلا تَستَوي الحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ}: هذا محكم، والمنسوخ قوله تعالى: {اِدفَع بِالتّي هِيَ أَحسَنُ}، نسختها آية السيف".

قوله تعالى: {فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت:، أي:"فبذلك يصير المسيء إليك الذي بينك وبينه عداوة كأنه قريب لك شفيق عليك".

قال الطبري: يقول:"افعل هذا الذي أمرتك به يا محمد من دفع سيئة المسيء إليك بإحسانك الذي أمرتك به إليه، فيصير المسيء إليك الذي بينك وبينه عداوة، كأنه من ملاطفته إياك. وبرّه لك، وليّ لك من بني أعمامك، قريب

=

=

النسب بك، والحميم: هو القريب".
قال ابن كثير:"وهو الصديق، أي: إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك، والحنو عليك، حتى يصير كأنه ولي لك حميم أي: قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك".
عن قتادة:" {كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}، أي: كأنه وليّ قريب".
قال الزجاج:"الحميم: القريب".
وقال العثيمين: قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ} في جُزئِيَّاتهما؛ لأنَّ بعضَهما فَوقَ بَعضٍ].
قَولُه: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ} فَسَّرها المفسِّر بأَنَّ المَعنى: لا تَستَوي الحَسناتُ بعضُها مع بعضٍ، ولا السَّيِّئاتُ بعضُها مع بَعضٍ، وعلى هذا التَّفسيرِ تَكونُ (لا) غَيرَ زائدَةٍ يمونُ أَصليَّةً، وَيكونُ المُرادُ بالآيَةِ انتِفاءَ تَساوي الحَسناتِ وانْتِفاءَ تَساوي السَّيِّئاتِ.
وهذا أمرٌ لا إِشكالَ فيه أنَّ الحَسناتِ بَعضُها أَحسَنُ مِن بَعضٍ وأَفضلُ مِن بعضٍ وأَوكَدُ مِن بَعضٍ، وكذلك السَّيِّئاتُ بَعضُها أَسوَأُ مِن بَعضٍ وأَشَدُّ، لكنَّ هناك تفسيرًا آخَرَ، وهو أنَّ المَعنى أنَّ الحَسناتِ والسَّيِّئاتِ لا تَتَساوى بدَليلِ قَولِه: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} إلخ؛ وبِناءً على ذلك تَكونُ (لا) زائدَةً للتَّوكيدِ كما هي في قَولِه تعالى: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٧]، فإنَّ (لا) هُنا زائدَةٌ للتَّوكيدِ، ولهذا لو قُلتَ في غَيرِ القُرآنِ العَزيزِ لو قُلتَ: غَيرَ المَغضوبِ عليهم الضَّالينَ، لاستَقامَ الكَلامَ، فإذا قال قائِلٌ: هل هُناكَ تَرجيحٌ؟ قُلنا: المفسِّر رَجَّح المَعنى الأَوَّلَ وهو: أنَّ الحَسناتِ لا تَتَساوى والسَّيِّئاتِ لا تَتَساوى. وبَعضُهُم رَجَّحَ الثَّانيَ؛ لأنَّه قال: {فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ} إلخ.
ولو قيل بالمَعنيينِ جَميعًا لم يَكُنْ هُناكَ بَأسٌ، وذلك أنَّ الآيَةَ إذا كانت تَحتمِلُ

=

=

مَعنَيينِ على السَّواءِ وهما لا يَتَنافيانِ، فإنَّها تُحمَلُ عليهما جَميعًا، هذه قاعِدَةٌ في أُصولِ التَّفسيرِ.

{الْحَسَنَةُ} هي ما يَحسُنُ ذِكرُهُ {السَّيِّئَةُ} هي ما يَسوءُ ذِكرُه، هذا التَّفسيرُ العَامُّ للحَسَنَةِ وللسَّيِّئَةِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ادْفَعْ} السَّيِّئَةَ {بِالَّتِي} أي بالخِصلَةِ الَّتي {هِيَ أَحْسَنُ}] إلى آخِرِه.

الغَريبُ أنَّ كَلامَ المفسِّر في: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} يَقتَضي أنَّ مَعنى الجُملَةِ قَبلَها: لا تَستَوي الحَسَنةُ مع السَّيِّئَةِ، {ادْفَعْ} السَّيِّئَةَ {بِالَّتِي} أي: بالخِصلَةِ الَّتي هِي أحسَنُ.

أفادَنا رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ (الَّتي) صِفةٌ لمَوصوفٍ محَذوفٍ؛ أي: بالخِصلَةِ الَّتي هي أَحسَنُ مِنَ السَّيِّئَةِ، فإذا قال قائِلٌ: السَّيِّئَةُ ليس فيها حُسنٌ، فكيف يَقولُ: أَحسَنَ مِنَ السَّيِّئَةِ؟ قُلنا: إنَّ اسمَ التَّفضيلِ قد يَأتي وليس في الطَّرَفِ الآخَرِ منه شَيءٌ، كما في قَولِه تَعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا} [الفرقان: ٢٤] مع أنَّ أصحابَ النَّارِ ليس في مُستقَرِّهم خَيرٌ ولا في مَقيلِهم خَيرٌ.

ويَكونُ معنى الآيَةِ أنَّه لمَّا كان مِن المُعتادِ أنَّ الإنسانَ لا يَدفَعُ السَّيِّئَةَ بالَّتي هي أَحسَنُ أَمَرَه اللهُ أن يَدفَعَ بالَّتي هي أحسنُ وذلك، لأنَّ مُدافعَةَ السَّيِّئَةِ تَكونُ من ثَلاثةِ وجوهٍ:

الوَجهُ الأَوَّلُ: أن يَدفَعَ سَيِّئَةً بمِثلِها وهذا جائِزٌ، يَقولُ تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} [الشورى: ٤٠].

والثَّانيَةُ: أن يَدفعَ السَّيِّئَةَ بحَسَنَةٍ- لكنَّ هناك شَيئًا أَحسنَ منها- وهذا أيضًا جائِزٌ وهو أَعلى مِنَ الأَوَّلِ.

الثَّالثُ: أن يَدفَعَ السَّيِّئَةَ {بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} يعني: بأَحسَنِ ما يَدفَعُها به، وهذا

=

=

أَفضَلُ وأَطيَبُ، وهو الَّذي أَمَرَ اللهُ به. يَعني: إذا أَساءَ إليكَ إِنسانٌ فلا تُقابلْه بإِساءَةٍ ولا تُقابلْه بحَسنَةٍ أيضًا، بل قابِلْه بما هو أَحسَنُ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ مُمَثِّلًا: [كالغَضبِ بالصَّبرِ، والجَهلِ بالحِلمِ، والإِساءَةِ بالعَفوِ]، هذه أَمثلَةُ الغَضبِ بالصَّبرِ يعني: إذا غَضِبَ عليك إِنسانٌ فاصبِرْ وتَحمَّلْ، والجَهلِ بالحِلمِ إذا جَهِلَ عليكَ إنسان بالإِساءةِ فقَابلْه بالحِلمِ.

فإذا قال إِنسانٌ: الجَهلُ هل هو يُقابِلُ الحِلمَ أو يُقابِلُ العِلمَ؟

قُلنا: أَمَّا الجَهلُ الَّذي هو عَدمُ العِلمِ فيُقابَلُ بالعِلمِ، وأمَّا الجَهلُ الَّذي هو ضِدُّ الحِلمِ بمَعنى أن يَكونَ الإنسانُ ذا عُدوانٍ على الغَيرِ فهذا يُقابَلُ بالحِلمِ، قال الشَّاعرُ العَربيُّ:

ألا لا يَجهَلَنْ أحدٌ علينا ... فنَجهلُ فوقَ جَهلِ الجاهِلينا

وكذلك الإِساءَةُ بالعَفوِ، إذا أَساءَ إليكَ إِنسانٌ فاعفُ عنه، وقد سَبَقَ مِرارًا ونُكرِّرُه تِكرارًا: أنَّ العَفوَ إنَّما يَندُبُ إليه إذا كان فيه إِصلاحٌ؛ لقَولِه تَعالى: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ} [الشورى: ٤٠].

فإنْ قال قائلٌ: الَّذي لا يَقدِرُ على رَدِّ السَّيِّئةِ بمِثلِها هل يَدخُلُ في قَولِه: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}؟

فالجَوابُ: لا، هذا ضَعفٌ وجُبنٌ، الَّذي لا يَقدِرُ على الِانتِصارِ لنَفْسِه هذا لا يُحمَدُ، بل يُقالُ: هذا ضَعيفٌ، ولأنَّه لا يُحمَدُ إلَّا العَفوُ عندَ المَقدِرَةِ، والصَّفحُ عندَ المَقدِرَةِ. أمَّا إنسانٌ عاجِزٌ فيَجيءُ شَخصٌ ضعيفٌ يَضرِبُه يَضرِبُه يَضرِبُه وهو يَقولُ: جَزاكَ اللهُ خَيرًا، عَفا اللهُ عنك، فهذا لا يُحمَدُ؛ لأنَّه عاجِزٌ.

قال اللهُ تعالى: {فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فُصِّلَت: ٣٤] فإذا فُجائيَّةٌ والفاءُ عاقبَةٌ؛ أي: فإذا دَفعتَ بالَّتي هي أَحسَنُ فاجَأتك هذه الحالُ، وهي أن تَنْقَلِبَ عَداوةُ الشَّخصِ الَّذي أَساءَ إليك، فيَصيرُ كأنَّه وَليٌّ حَميمٌ، يعني:

=

=

صَديقًا قَريبًا.

وتَأَمَّلْ كَونَ الجَوابِ بـ"إذا" الفُجائيَّةِ لِيتَبَيَّنَ لك أنَّ انقِلابَ عَداوتِهِ إلى وِلايَةٍ حَميمَةٍ لا يَتأخَّرُ كَثيرًا؛ لأنَّ إذا الفُجائيَّةَ تَدُلُّ على الفَورِيَّةِ: {فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} لو كان المُخبِرُ بذلك غَيرَ اللهِ ﷻ لكان الإنسانُ يَتردَّدُ، وكيف يَنقلِبُ العَدوُّ صَديقًا حَميمًا بهذه السُّرعَةِ، نَقولُ: إنَّ الَّذي أخبَرَ بذلك هو اللهُ ﷻ: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا} [النساء: ١٢٢].

ثُمَّ إنَّ الَّذي أخبَرَ بذلك هو الَّذي قُلوبُ بَني آدمَ بين أُصبُعينِ من أَصابعِهِ يُقلِّبُها حيثُ يَشاءُ، لا تَستبعِدُ هذه الأمورَ بَيدِ اللهِ، وكم مِن عَدوٍّ انقَلَب صَديقًا وصَديقٌ انقلَبَ عَدوًّا.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}، فيَصيرُ عَدوُّك كالصَّديقِ القَريبِ في محبَّتِه إذا فَعلتَ ذلك، فالَّذي مُبتدأٌ وكأنَّه الخَبرُ وإذا ظَرفٌ لِمَعنى التَّشبيهِ].

قال اللهُ تَعالى: {فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ} أَعرَبَها المفسِّر: يَقولُ: {الَّذِي} مُبتدأٌ {بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَة}، هذا صيغَةُ المَوصولِ {كَأَنَّهُ} الخَبرُ خَبرُ المُبتدأِ {الَّذِي}، و (إذا) في قولِهِ: {فَإِذَا الَّذِي} ظَرفٌ لمعنى التَّشبيهِ الَّذي هو {كَأَنَّهُ}؛ لأنَّ التَّشبيهَ مُضَمَّنٌ مَعنى الفِعلِ؛ فلذلك صَحَّ أن يَتعلَّقَ به الظَّرفُ، هذا ما ذَهَبَ إليه المفسِّر بالنِّسبَةِ لـ (إذا)، والصَّحيحُ أنَّ (إذا) فُجائيَّةٌ لا تَحتاجُ إلى مُتعلِّقٍ.

قوله تعالى: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا}، أي:"وما يُوفَّق لهذه الخصلة الحميدة إلا الذين صبروا على المكاره والأذى، وحملوا أنفسهم على ما يحبه الله".

قال الطبري: يقول:"وما يعطى دفع السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا لله على

=

=

المكاره، والأمور الشاقة".

قال الزجاج:"أي: ما يلقى مجازاة هذا، أي: وما يلَقى هذه الفعلة {إِلَّا الَّذِينَ} يكظمون الغيظ".

قال السمعاني:"أي: وما يؤتى هذه الخصلة، وهي دفع السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا على أوامر الله".

قال ابن كثير:"أي: وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس".

قال الحسن:"واللهِ، لا يصيبها صاحبُها حتى يكظِم غيظًا، ويصفح عن بعض ما يكره".

قوله تعالى: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}، أي:"وما يُوفَّق لها إلا ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة".

قال الفراء:"يريد ما يلقى دفع السيئة بالحسنة إلا من هو صابر، أو ذو حظ عظيم".

قال الطبري:"يقول: وما يلقى هذه إلا ذو نصيب وجدّ له سابق في المبرات عظيم".

قال السمعاني:"أي: ذو نصيب وافر من الدين".

قال ابن كثير:"أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرى".

قال ابن عباس:"يقول: الذين أعدّ الله لهم الجنة".

عن السديّ، قوله: "{وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}: ذو جدّ".

قال قتادة:"والحظّ العظيم: الجنة".

قال الزجاج:"الحظ-ههنا-: الجنَّة، أي: وما يلقاها إلا من وجبت له الجنة. ومعنى {ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}، أي: حَظٍّ عَظِيمٍ في الخير".

=

وقال العثيمين: يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَمَا يُلَقَّاهَا} أي: يُؤتى الخِصلَةَ الَّتي هي أحسنُ، {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ} ثَوابٍ {عَظِيمٍ}].

قال اللهُ تَعالى: {وَمَا يُلَقَّاهَا} قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: يُؤتى الخِصلَةَ]. وقيل: مَعناها لا يُوَفَّقُ لها، والمَعنى مُتقارِبٌ، يَعني: لا يَنالُ أحدٌ هذه الخِصلَةَ، وهي الدِّفاعُ بالَّتي هي أَحسنُ {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا}.

وهذه الجُملَةُ فيها حَصرٌ، طَريقُه النَّفيُ والإثباتُ: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا}.

وقَولُه: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا} أي: حَبَسوا أَنفُسَهم وأَجبَروها على تَحمُّلِ هذا الأمرِ؛ وذلك لأنَّ هذا الأمرَ شَديدٌ إذ إنَّ النُّفوسَ تُحبُّ الانتِقامَ ممَّن أساءَ إليها، لكن قال: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}؛ لهذا قال: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا}، فكُلُّ إنسانٍ سوف يُعاني مُعاناةً شَديدةً إذا سَلَكَ هذا الطَّريقَ وهي الدِّفاعُ بالَّتي هي أحسنُ، لا بُدَّ أن يَجِدَ عَناءً ومَشقَّةً فأَثْنَى اللهُ تَعالى على الصَّابرينَ على ذلك.

والصَّبرُ لا يَحتاجُ إلى أن نُطيلَ الشَّرحَ فيه؛ لأنَّهُم قالوا: يَكونُ ثَلاثَةَ أنواعٍ: يَكونُ صَبرًا على طاعَةِ اللهِ، وصَبرًا عن مَعصيتِه، وصَبرًا على أقدارِه.

قال اللهُ تعالى: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ذُو حَظٍّ} ثوابٍ]، والصَّوابُ أن يُقالَ: الحَظُّ النَّصيبُ، أي: وما يُلَقَّاها إلَّا ذو نَصيبٍ عَظيمٍ، ليس مِنَ الثَّوابِ فَحسْبُ، بل مِنَ الثَّوابِ والأخلاقِ والرَّزانَةِ وغيرِ ذلك، يَعني: مَن له نَصيبٌ عَظيمٌ مِنَ الثَّوابِ والأخلاقِ والرَّزانَةِ والتَّأنِّي وغيرِ ذلك، فلا يَنبَغي أن يَقتَصِرَ في ذلك على الثَّوابِ.

فإنْ قال قائِلٌ: قَولُه تعالى: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} هل يَكونُ ظاهِرًا أو معنَويًّا، لأنَّ الصَّفحَ في مَنظورِ النَّاسِ هو خَوفٌ وجُبنٌ؟

فالجَوابُ: لا، هذا هو الحِكمَةُ في أنَّ اللهَ قال: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} لأنَّ الإنسانَ يَنالُ دَرجةً عَظيمَةً عاليةً مِنَ الأخلاقِ

=
والرَّزانَـةِ والرُّجولَـةِ والثَّـوابِ، ولـيس الحَـظُّ العَظـيمُ أنَّ الإنـسانَ يَـزدادُ دِرهمًـا ودينارًا، الأخلاقُ هي كُلُّ شيءٍ سَواءٌ مَع اللهِ أو مَع عِبادِ اللهِ.

وإنَّما الأُمَمُ الأخلاقُ ما بَقِيَت ... فإن هُمُ ذَهَبت أخلاقُهم ذَهَبوا

ولمَّا ذَكَر اللهُ تَعالى دَفعَ العَدُوِّ مِن بني آدَمَ ذَكَر دَفعَ العَدُوِّ مِن غيرِ بَني آدَمَ؛ فقـال: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ} في مُدافعَةِ العَـدُوِّ مِـن غيـرِ بَنـي آدَمَ، لم يَقُلْ: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، بـل قـال: الجَأْ إلـى اللهِ؛ لأنَّـك لا تَـستطيعُ أن تَدفَعَ الشَّيطانَ إلَّا باللُّجوءِ إلى اللهِ ﷻ إذ إنَّ الشَّيطانَ ليس أَمامَك حتَّى تَلوِيَ عُنقَه وتَقتُلَـه، ولكنَّـه لا يَدفَعُـه إلَّا اللهُ ولهـذا قـال: {وَإِمَّـا يَنْزَغَنَّـكَ مِـنَ الـشَّيْطَانِ}، فالمُناسَبةُ بين هذه الآيَةِ والَّتي قَبلَها أنَّـه لمَّـا ذَكـرَ مُدافعَـةَ العَـدُوِّ مِـن بَنـي آدمَ ذَكَـرَ مُدافعَةَ العَدُوِّ مـن غَيـرِ بَنـي آدمَ فقـال: {وَإِمَّـا يَنْزَغَنَّـكَ مِنَ الـشَّيْطَانِ نَـزْغٌ فَاسْـتَعِذْ بِاللهِ}.

قولـه تعـالى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّـكَ مِـنَ الـشَّيْطَانِ نَـزْغٌ فَاسْـتَعِذْ بِـاللهِ}، أي:"وإمـا يلقـينَّ الـشيطان في نفسك وسوسـة مـن حـديث الـنفس لحملـك علـى مجازاة المـسيء بالإساءة، فاستجر بالله واعتصم به".

قال مقاتل:"يعني: وإما يفتننك {من الشَّيْطَان} فتنة فِي أمـر أَبِـي جهـل {فَاسْـتَعِذْ بِاللهِ} ".

قال الفراء:"يقول: يصدنك عن أمرنا إياك يدفع بالحسنة الـسيئة، {فاسـتعذ بـالله} تعوذ به".

قـال الزجـاج:"يقـول: إن نزغـك مِـنَ الـشيطان مـا يـصرفك بـه عـن الاحتمـال، {فَاسْتَعِذْ بِاللهِ} من شرِّه وامض على حلمك".

قال الطبري: يقول:"وإما يلقين الشيطان يا محمد في نفسك وسوسـة مـن حـديث الـنفس إرادة حملـك علـى مجـازاة المـسيء بالإسـاءة، ودعائـك إلـى مـساءته،
=

=

فاستجر بالله واعتصم من خطواته".

قال ابن كثير:"أي: إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه، كفه عنك ورد كيده. وقد

كان رسول الله ﷺ: إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» ".

قال أبو عبيدة: معناه:"وإما يستخفنك منه خفة وغضب وعجلة، ومنه قولهم: نزغ الشّيطان بينهم أي أفسد وحمل بعضهم على بعض".

عن السديّ: "{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ}، قال: وسوسة وحديث النفس".

عن ابن وهب:"قال ابن زيد {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ}، هذا الغضب".

قال الراغب:"الغضب: ثوران دم القلب إرادة الانتقام، ولذلك قال عليه السلام: «اتقوا الغضب فإنه جمرة توقد في قلب ابن آدم، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه» ".

قال ابن العربي:"كان موسى من أعظم الناس غضبا؛ لكنه كان سريع الفيئة، فتلك بتلك".

قال ابن القاسم:"سمعت مالكا يقول: كان موسى إذا غضب طلع الدخان من قلنسوته، ورفع شعر بدنه جبته؛ وذلك لأن الغضب جمرة تتوقد في القلب، ولأجله «أمر النبي- ﷺ- من غضب أن يضطجع، فإن لم يذهب غضبه فليغتسل؟» فيخمدها اضطجاعه، ويطفئها اغتساله".

عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف قال:"أخبرنى رجل من أصحاب النبى- ﷺ- أن رجلا قال يا رسول الله حدثنى بكلمات أعيش بهن ولا تكثر على قال: «اجتنب الغضب» ".

=

=

وفي الحيث:"إذا أراد الله بأهل بيت خيرا أدخل عليهم الرفق".

قال الطبري: يقول:"إن الله هو السميع لاستعاذتك منه واستجارتك به من نزغاته، ولغير ذلك من كلامك وكلام غيرك، العليم بما ألقى في نفسك من نزغاته، وحدثتك به نفسك ومما يذهب ذلك من قبلك، وغير ذلك من أمورك وأمور خلقه".

قال محمد ابن إسحاق:"أي: سميع ما يقولون، عليم بما يخفون".

عن قتادة، قوله:"{وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ} [الأعراف: ٢٠٠]، قال: علم الله أن هذا العدو مبتغ ومريد".

أخرج ابن ابي حاتم بسنده عن أبي سليمان الداراني، قال: "لولا أن الله تبارك وتعالى أمرنا بالتعوذ من الشيطان ما تعوذت منه أبدا لأنه لا يملك ضرا ولا نفعا، وكان أبو سليمان لا يذكر قبلها من الشيطان اتباعا لقول الله ﷻ".

قال قتادة:"ذُكِر لنا: أنّ نبيَّ الله- ﷺ- بينما هو يصلي إذ جعل يَسْنُد حتى يستلم السارية، ثم يقول: «ألعنك بلعنة الله التامة». فقال له بعض أصحابه: يا نبيَّ الله، ما شيءٌ رأيناك تصنعه؟ قال: «أتاني الشيطانُ بشِهاب مِن نار لِيحرقني به، فلعنتُه بلعنة الله التامة، فانكبّ لِفِيه، وطَفِئتْ ناره» ".

وقال العثيمين: يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَإِمَّا} فيه إِدغامُ نونِ (إنِ) الشَّرطيَّةِ في (ما) الزائدَةِ].

{وَإِمَّا} أَصلُها: وإنْ يَنزَغنَّك، لكن (ما) الزَّائدَةَ تُزادُ كَثيرًا في أدواتِ الشَّرطِ كقَولِه هنا: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ}، وكقَولِه تَعالى: {أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}.

{وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ} يَعني: إنْ يَنزَغْك مِن الشَّيطانِ نَزغٌ فاستَعِذْ باللهِ. يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: يَصرِفُك عنِ الخِصلَةِ وغَيرِها مِنَ الخَيرِ صارفٌ {فَاسْتَعِذْ بِاللهِ}].

المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ إذا نَظرنا إلى تَفسيرِه وجَدْناه يَقْصُرُ هذه الآيَةِ على شَيءٍ مُعيَّنٍ وهو:

=

إنْ صَرَفَك الشَّيطانُ عَنِ المُدافعَةِ بالَّتي هي أَحسنُ فاستَعِذْ باللهِ، والصَّوابُ خِلافُ ذلك، الصَّوابُ أنَّ الآيَةَ عامَّةٌ، ولهذا قال: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ} أي: يُصيبَنَّك مِن الشَّيطانِ نَزغٌ، -نَزغٌ- نَكِرَةٌ في سياقِ الشَّرطِ فتكونُ عامَّةً سَواءَ كان في المُدافعَةِ بالَّتي هي أَحْسَنُ أو غَيرَ ذلك، كُلَّما أَصابَك نَزغٌ مِنَ الشَّيطانِ فاستَعِذْ باللهِ، ولهذا أَمَرَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى اله وسلَّم- الَّذي شَكا إليه الوَسوسَةَ في الصَّلاةِ أَمَرَه بأنْ يَستَعينَ باللهِ قال: يَتفُلُ عن يَسارِه ثَلاثًا ويَستعيذُ باللهِ.

المُهِمُّ أنَّه متى نَزَغَك مِنَ الشَّيطانِ نَزغٌ فَالجَأْ إلى مَن يَستطيعُ دَفعَه، وهو اللهُ ﷻ ولكن كيف أَعرِفُ أنَّ الشَّيطانَ نَزَغَ أحدًا؟ {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ} [البقرة: ٢٦٨] كُلَّما رَأيتَ أَنَّه أُلْقِيَ في رُوعِك أن تَفعَلَ مَعصيَةً فاعلَمْ أَنَّه نَزْغٌ مِنَ الشَّيطانِ، وكُلَّما أُلقِيَ في رُوعِك أنَّك تَتْرُكُ طاعَةً فهذا نَزْغٌ مِنَ الشَّيطانِ استَعِذْ باللهِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ ليس شَيئًا محَسوسًا يَحُسُّه الإنسانُ ويَسمَعُه لكنْ يُعرَفُ بما يُلقي في القَلبِ فاستَعِذْ باللهِ أي: اعتصِمْ به.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [جَوابُ الشَّرطِ وجَوابُ الأمرِ محَذوفٌ، أي: يَدفَعُه عنك]، الأمرُ (استَعِذْ) يَعني: كأنَّ قائلًا يَقولُ: وإذا استَعَذْت فالنَّتيجَةُ أن يَدفعَه اللهُ عَنك؛ لأنَّ اللهَ تَعالى لم يَأمُرْك بِالاستِعاذَةِ به، والاستِعاذَةُ كما هو مَعروفٌ هي الاستِجارَةُ ممَّا يَسوءُ استَعِذ باللهِ يَدفَعْه عنك.

قَولُه: {فَاسْتَعِذْ بِاللهِ} جَوابُ الشَّرطِ اقْتَرَنَ بالفاءِ؛ لأنَّ الجُملَةَ طَلَبيَّةٌ، والقاعِدَةُ ذَكَرَها ابنُ مالكٍ:

واقْرِنْ بفا حَتمًا جَوابًا لو جُعِل ... شَرطًا لـ (إن) أوغَيرِها لم يَنْجَعِلْ

يعني: إذا لم يَصِحَّ مُباشرةً جَوابُ الشَّرطِ لأَداةِ الشَّرطِ فإنَّه يَجِبُ اقترانُه بالفاءِ.

فإنْ قال قائلٌ: ما مَعنى قَولِه: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الحجر: ٤٢].

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧).

{ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن} أي الآيات الأربع {إن كنتم إياه تعبدون}.

فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨).

{فإن استكبروا} عن السجود لله وحده {فالذين عند ربك} أي فالملائكة {يسبحون} يصلون {له بالليل والنهار وهم لا يسأمون} لا يملون(١).

=

فالجَوابُ: السُّلطانُ هو الَّذي يَتولَّى الأمرَ بسُلطَتِه ويَغلِبُ، فالشَّيطانُ يَنْزغُ حتَّى عِبادَ اللهِ الصَّالحينَ، ولكن ليس له عَليهم سُلطانٌ، أليس قَد تَفَلَّت على الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام شَيطانٌ يُريدُ أن يُفسِدَ عليه صَلاتَه؟ لكن ما له سُلطانٌ، فالسُّلطانُ يَقولُ ويَفعلُ، كما قال ابنُ الوَردي في المَنظومَةِ:

جانِبِ السُّلطانَ واحذَرْ بَطشَه ... لا تُخاصِمْ مَن إذا قال فَعلَ فالمُرادُ بأنَّه ليس لك عليهم سُلطانٌ، يعني: لا يُمكِنُ أن تَتَسلَّطَ عليهم فتُغوِيَهم.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ} للقَولِ {الْعَلِيمُ} بالفعل]، هذه الجُملَةُ تَعليلِيَّةٌ؛ لقَولِه: (استَعِذ باللهِ)، يَعني: فإنَّك إذا استَعذت مِنه باللهِ سَمِعَك، وإنَّه عَليمٌ بكَيفيَّةِ دَفعِ هذا الشَّيطانِ الَّذي نَزَغَك منه نَزْغٌ فهو سَميعٌ لقولك إذا استَعَذتَ به، عليم بما يَدفَعُ به عنك هذا الشَّيطانَ.

(١) قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ}، أي:"ومن حجج الله على خلقه، ودلائله على وحدانيته وكمال قدرته اختلاف الليل والنهار، وتعاقبهما، واختلاف الشمس والقمر وتعاقبهما، كل ذلك تحت تسخيره

=

=

وقهره".

قال الطبري: يقول:"ومن حجج الله تعالى على خلقه ودلالته على وحدانيته، وعظيم سلطانه، اختلاف الليل والنهار، ومعاقبة كلّ واحد منهما صاحبه، والشمس والقمر، لا الشمس تدرك القمر {وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} ".

قال الزجاج:" {وَمِنْ آيَاتِهِ} ، أَي: مِنْ عَلاَمَاتِهِ التي تَدُلُّ على أَنه واحد".

قال ابن كثير:"يقول تعالى منبها خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له وأنه على ما يشاء قادر، {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} ، أي: أنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يقران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله في فلكه، واختلاف سيره في سمائه، ليُعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق،

وأوقات العبادات والمعاملات. ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخير".

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تسبوا الليل ولا النهار، ولا الشمس ولا القمر، ولا الرياح فإنها ترسل رحمة لقوم، وعذابا لقوم".

عن ابن جريج: في قوله {ومن آياته} ، قال: "كل شيء في القرآن آيات، بذلك تعرفون الله إنكم لن تروه فتعرفونه على رؤية ولكن تعرفون بآياته وخلقه".

قوله تعالى: {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ} [فصلت: ٣٧]، أي:"لا تسجدوا للشمس ولا للقمر - فإنهما مدَبَّران مخلوقان- واسجدوا لله الذي خلقهن".

=

=

قال الطبري: يقول:"لا تسجدوا أيها الناس للشمس ولا للقمر، فإنهما وإن جريا في الفلك بمنافعكم، فإنما يجريان به لكم بإجراء الله إياهما لكم طائعين له في جريهما ومسيرهما، لا بأنهما يقدران بأنفسهما على سير وجري دون إجراء الله إياهما وتسييرهما، أو يستطيعان لكم نفعا أو ضرّا، وإنما الله مسخرهما لكم لمنافعكم ومصالحكم، فله فاسجدوا، وإياه فاعبدوا دونها، فإنه إن شاء طمس ضوءهما، فترككم حيارى في ظلمة لا تهتدون سبيلا ولا تبصرون شيئا".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [فصلت: ٣٧]، أي:"إن كنتم حقًّا منقادين لأمره سامعين مطيعين له، تعبدونه وحده لا شريك له".

قال الطبري:"يقول: إن كنتم تعبدون الله، وتذلون له بالطاعة؛ وإن من طاعته أن تخلصوا له العبادة، ولا تشركوا في طاعتكم إياه وعبادتكموه شيئا سواه، فإن العبادة لا تصلح لغيره ولا تنبغي لشيء سواه".

قال ابن كثير:"أي: ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به".

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: فذكر الله- عَزَّ وَجَلَّ الآيات، ولم يذكر معها سجودا إلا مع الشمس والقمر، وأمر بأن لا يسجد لهما، وأمر بأن يسجد له، فاحتمل أمره أن يسجد له عند ذكر الشمس والقمر، بأن يأمر بالصلاة عند حادث في الشمس والقمر، واحتمل أن يكون إنما نهي عن السجود لهما، كما نهي عن عبادة ما سواه، فدلت سنة رسول الله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على أن يصلى لله عند كسوف الشمس والقمر.

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ} أي: آياتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، والآيَةُ في اللُّغةِ العَلامَةُ وهي بالنِّسبَةِ لآياتِ اللهِ ما كان عَلامَةً على قُدرَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وقُوَّتِه وحِكمَتِه وعِلمِه ورَحمَتِه وغَيرِ ذلك. وقَولُه: {وَمِنْ آيَاتِهِ} الدَّالَّةُ على قُدرَتِه وعِلمِه

=

=

وحِكْمتِه ورحمَتِه وغَيرِ ذلك مِمَّا دَلَّ عليه هذا اللَّيلُ والنَّهارُ.

{اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ} اللَّيلُ بظَلامِه والنَّهارُ بضِيائِه، هذا من آياتِ اللهِ لا أَحدَ يَستطيعُ أن يَفعَلَ ذلك إطلاقًا يقولُ اللهُ ﷻ: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ} [القصص: ٧١] الجَوابُ: لا إِلَهَ، لا أَحَدَ يَأتي بذلك، {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [القصص: ٧٢] الجَوابُ: لا أحَدَ.

فهذا مِن آياتِ اللهِ العَظيمَةِ الدَّالَّةِ على قُدرَتِه وعلى رَحمَتِه وعِلمِه وحِكمَتِه وقُوَّتِه، بينَما اللَّيلُ قد غَشِيَ الأَرضَ بظَلامِه، وإذا بِالصُّبْحِ قد كَشَفَ هذا الغِطاءَ، فأصبحت الدُّنيا ضياءً.

كذلك مِن آياتِه الشَّمسُ والقَمرُ، وما أَعظَمَها من آيَةٍ، هذانِ الكَوكبانِ يَسيرانِ مُنذُ خَلقَهما اللهُ ﷻ إلى أن يَأذَنَ اللهُ ﷻ بخَرابِهما يَسيرانِ على نَمَطٍ واحدٍ لا يَتَعَدَّيانِه ولا يَتجاوَزانِه قال بَعضُ العُلماءِ: لو أنَّ الشَّمسَ بَعُدَت عن مَقَرِّها شَعرةً واحدةً لهَلَكَ النَّاسُ مِنَ البَردِ وجَمُدَت المَائعاتُ، ولو أنَّها نَزَلَت شَعرَةً واحدةً لَذابَت الأَرضُ مِنَ الحَرِّ، وهذا مِن قُدرَةِ اللهِ ﷻ ثُمَّ هذا الجِرمُ العَظيمُ له هذه الإضاءةُ العَظيمَةُ مع البُعدِ التَّامِّ.

وهذه الحَرارَةُ العَظيمَةُ مع البُعدِ التَّامِّ، لو أنَّك سَعَّرت أَقوَى نارٍ في الدُّنيا ما بَلَغَت مَسافةَ حَرِّها إلى مئةِ مِترٍ، ومعَ ذلك تَجِدُ مَسَّ الحَرارَةِ فقط لا أن يَصِلَ إلى هذه الدَّرجَةِ، وهذه بَينَك وبَينَها ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ ﷻ وتَجِدُ هذا الحَرَّ في أيَّامِ الصَّيفِ، قال لي بَعضُهم: رُبَّما بَدَأَ المَاءُ يَغلي مِن شِدَّةِ الحرارَةِ في بَعضِ المَناطِقِ، مِمَّا يَدُلُّ على عَظَمَةِ هذه الشَّمسِ.

والقَمرُ أيضًا عَظيمٌ، هذا القَمرُ الكَوكَبُ الكُتلَةُ يُضيءُ هذه الإضاءَةَ العَظيمَةَ مِن

=

=

بُعدٍ مع ذلك هو باردٌ لا يُسخِّنُ الجوَّ ولا يُسَخِّنُ الأرضَ؛ لأنَّه آيَةَ لَيلٍ. أرأيتم لو أنَّه كان حارًّا أيَتمتَّعُ النَّاسُ باللَّيلِ كما يَتمتَّعونَ اليومَ؟ لا يَتمتَّعونَ أبدًا، لكن مِن رحمَةِ اللهِ ﷻ أن جَعَلَه نورًا باردًا حتَّى لا تَبقى حَرارَةُ الأرضِ طَوالَ أَربعٍ وعِشرينَ ساعةً، وحتَّى يَستقِرَّ النَّاسُ في مَنامِهم وذَهابِهم ومجَيئِهم.

قال اللهُ تَعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ} (مِن) هذه للتَّبعيضِ وعَلامَةُ مِنِ التَّبعيضِيَّةِ أن يَحِلَّ مَحلَّها بَعضُ، يَعني: بَعضُ آياتِه اللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقَمرُ، وذَكَرنا وَجهَ كَونِها هذه الأربع مِن آياتِه.

ثُمَّ قال اللهُ تعالى: {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ} الخِطابُ لجميعِ العِبادِ نَهاهم أن يَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقَمرِ؛ لأنَّ مِن النَّاسِ مَن يَعبُدُ الشَّمسَ والقَمرَ ويَسجُدُ لها، وقد أَخبَرَ النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام: "أنَّ الشَّمسَ تَطلُعُ بين قَرنَيْ شَيطانٍ فإذا طَلَعَت سَجَدَ لها الكُفَّارُ"؛ ولذلك نُهِيَ عنِ الصَّلاةِ عندَ طُلوعِ الشَّمسِ وعندَ غُروبِها، وقال بَعضُ العُلماءِ رَحِمَهُمُ اللهُ: إنَّ المُرادَ: لا تَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقَمرِ عندَ تَغيُّرِ هما بالكُسوفِ.

ولكن في قوله تعالى: {وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ} يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [أي: الآياتِ الأربعَ، {إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}]، يَعني: إن كُنتُم صادِقينَ في عِبادتِه فلا تَسجُدوا لغَيرِه؛ لأنَّ مَن يعبُدُ اللهَ ويَعبُدُ غَيرَه ليس صادقًا في عِبادَتِه، فالصَّادقُ في عِبادَتِه هو الَّذي يُخلِصُ العِبادَةَ للهِ ﷻ.

وقوله تعالى: {وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ} المُرادُ بِالسُّجودِ هُنا- واللهُ أعلمُ- ما هو أعمُّ مِنَ السُّجودِ الخاصِّ الَّذي هو وَضعُ الأعضاءِ السَّبعَةِ على الأرضِ؛ أي أنَّ المُرادَ بالسُّجودِ هُنا الذُّلُّ، كما قال تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [الرعد: ١٥].

ويَحتَمِلُ أن يَكونَ المُرادُ به السُّجودَ الخاصَّ؛ لقَولِه: {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا

=

=

لِلْقَمَرِ} والقاعدَةُ في عِلمِ التَّفسيرِ أنَّه إذا كان اللَّفظُ يَحتَمِلُ مَعنيينِ أحدُهما أوسعُ وأعَمُّ وأشمَلُ، فإنَّه يُحمَلُ على الثَّاني الَّذي هو أوسَعُ وأعمُّ.

وقوله تعالى: {وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ} الَّذي خَلَقَ هذه الأشياءَ، وفي هذا إشارَةٌ إلى أنَّ اللهَ هو المُستَحِقُّ لأن يُسجَدَ له؛ لأنَّه هو الخالِقُ، وأمَّا هذه فهي مَخلوقَةٌ لا تَستَحِقُّ أن يُسجَدَ لها.

وقَولُه تَعالى: {إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} أي: إن كُنتم ذَوِي عِبادَةٍ للهِ حقًّا فاسجُدوا للهِ ولا تَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقَمرِ.

وقَولُه: {إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} العِبادَةُ بمَعنى: الذُّلِّ، ومنه قَولهُم طَريقٌ مُعَبَّدٌ؛ أي: مُذَلَّلٌ لمَن سَلَكَه ليس فيه وُعورَةٌ لا طُلوعَ ولا نُزولَ ولا التِفافَ يَمينًا ولا شِمالًا، فالطَّريقُ المُعَبَّدُ يَعني: المُذَلَّل. إذن فَالتَّعبُّدُ للهِ هو التَّذَلُّل له مَحبَّةً وتَعظيمًا.

واعلَمْ أنَّ العِبادَةَ تُطلَقُ على مَعنيينِ:

المَعنى الأَوَّلِ: التَّعبُّدُ للهِ الَّذي هو فِعلُ العابِدِ.

والمَعنى الثَّاني: المُتَعَبَّدُ به الَّذي هي العِباداتُ، ولهذا قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: "إنَّ العِبادَةَ اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يُحِبُّه اللهُ ويَرضاه" بناءً على أنَّ المُرادَ بها المُتَعَبَّدُ به.

قَولُه تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} قَدَّمَ المَفعولَ به لإفادَةِ الحَصْرِ؛ لأنَّ مِن القَواعِدِ المُقَرَّرةِ في عِلمِ البَلاغَةِ وغَيرِها أنَّ تَقديمَ ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحَصْرَ، فإذا قُلتَ مَثلًا: إيَّاك أكرَمْتُ، المَعنى لم أُكْرِمْ غيرَك، وقَولُ القائِلِ في سورَةِ الفاتِحَةِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} يَعني: لم نَعبُدْ غَيرَك {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] يَعني: لا نَستَعينُ غَيرَك.

قوله تعالى: {فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا}، أي:"فإن استكبر هؤلاء المشركون عن السجود لله".

=

=

قال الطبري: يقول: "فإن استكبر يا محمد هؤلاء الذين أنت بين أظهرهم من مشركي قريش، وتعظموا عن أن يسجدوا لله الذي خلقهم وخلق الشمس والقمر".

قال ابن كثير:"{فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا} أي: عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره".

قال الزجاج:"هذه خطاب لمحمد- ﷺ-، والمعنى: فإن استكبروا وَلَمْ يُوحِّدُوا اللهَ ويَعْبُدوه ويؤمنوا برسوله".

قوله تعالى: {فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}، أي:"فإن الملائكة الذين عند ربك لا يستكبرون عن ذلك، بل يسبحون له، وينزِّهونه عن كل نقص بالليل والنهار".

قال الطبري: يقول: "فإن الملائكة الذين عند ربك لا يستكبرون عن ذلك، ولا يتعظمون عنه، بل يسبحون له، ويصلون ليلا ونهارًا".

قال الزجاج:"{الَّذِينَ}،-ههنا- يعنى به: الملائكة، أي: فالملائكة {يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَار} ".

قال الواحدي:"يعني: الملائكة، {يسبحون له بالليل والنهار} يصلون له، وينزهونه عن السوء".

قال ابن كثير:"{فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ} يعني: الملائكة، {يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ}، كقوله {فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ} [الأنعام: ٨٩] ".

قوله تعالى: {وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} [فصلت: ٣٨]، أي:"وهم لا يَفْتُرون عن عبادته، ولا يملون".

قال الزجاج:"لاَ يَملُّون".

=

=

قال الطبري: **"**يقول: وهم لا يفترون عن عبادتهم، ولا يملون الصلاة له".

عن ابن عباس، قوله: "{فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}، قال: يعني: محمدا، يقول: عبادي، ملائكة صافون يسبحون ولا يستكبرون".

عن عبد الله بن الحارث، قال: "قلت: لكعب الأحبار: {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ}، أما يشغلهم رسالة أو عمل؟ قال: يا بن أخي إنهم جُعل لهم التسبيح، كما جُعل لكم النفس، ألست تأكل وتشرب وتقوم وتقعد وتجيء وتذهب وأنت تنفَّس؟ قلت: بلى قال: فكذلك جُعل لهم التسبيح".

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم-من طريق ابن وهب-:"{لا يستحسرون}: لا يملُّون، وذلك الاستحْسار. قال: و {لا يَفْتُرُونَ} [الأنبياء: ٢٠]، و {لا يسأمون} [فصلت: ٣٨]، هذا كله معناه واحد، والكلام فيه مختلف، وهو من قولهم: بَعِير حَسِير: إذا أعيا وقام، ومنه قول علقمة بن عبدة:

بها جِيَفُ الحَسْرى فأما عظامها... فبيضٌ، وأما جلدها فصَلِيبُ".

عن إبراهيم النخعي: "أنّه كان يسجد في {يَسْأَمُونَ} ".

عن ابن سيرين:"أنه كان يسجد في الآية الآخرة".

وقال العثيمين: ثُمَّ قال تَعالى: {فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا} يَعني: عن عِبادَةِ اللهِ والسُّجودِ له فإنَّ اللهَ تَعالى غَنيٌّ عنهم.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا} عَنِ السُّجودِ للهِ وَحدَه {فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ} أي: فالمَلائِكةُ {يُسَبِّحُونَ} يُصَلُّون {لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} لا يملون] يَعني: فإنِ استكبَرَ هَؤلاءِ عَن عِبادَةِ اللهِ فللهِ عِبادٌ آخَرون، كما في قَولِهِ تَعالى: {فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ} [الأنعام: ٨٩].

=

=

ثُمَّ على فَرضِ أنَّه لا يُوجَدُ عابدٌ للهِ فإنَّ اللهَ تَعالى يَقولُ: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ} [الزمر: ٧] {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٩٧] فهُنا شَيئانِ:

الشَّيءُ الأَوَّلُ: أن يَستكبِرَ طائفَةٌ مِن المَخلوقينَ عن عِبادَةِ اللهِ، فإنِ استكبَروا فهُناكَ طائفَةٌ أُخرى تَعبُدُ اللهَ.

الثَّاني: أن يَستكْبِرَ الكُلُّ وهذا مُحالٌ حَسَبُ ما نَعلمُ، لكن على فَرضِ أنَّ جَميعَ المَخلوقاتِ استكبَرَت عن عِبادَةِ اللهِ، فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عنهم، كُلُّ هذا أَفصَحَ اللهُ عنه: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ} {فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ}، هذا إذا كَفَرَ بَعضٌ وآمَنَ بَعضٌ.

{فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ} هذا إذا استكبَرَ بَعضٌ وذَلَّ بَعضٌ: {فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}.

جُملَةُ {فَالَّذِينَ} هي جَوابُ الشَّرطِ وقُرِنت بالفاءِ؛ لأنَّ ما بَعدَها لا يَصِحُّ أن يَكونَ فِعلًا للشَّرطِ، وهذه قاعِدَةٌ: إذا كان جَوابُ الشَّرطِ لا يَستقيمُ أن يَكونَ فِعلًا للشَّرطِ وَجَبَ اقتِرانُه بالفاءِ كما قال ابنُ مالكٍ:

واقرِنْ بفا حتمًا جَوابًا لو جُعِلَ ... شرطًا لـ (إن) أو غَيرِها لم يَنْجَعِلْ وقد ذَكَرَ بَعضُ الجامِعينَ لما يَجِبُ أن يَقترِنَ بالفاءِ جَمَعَ ذلك في بَيتٍ هو:

اسمِيَّةٌ طَلبيَّة وبجامِدٍ وبما ... قد وبلن وبالتَّنفيسِ

قال اللهُ تَعالى: {فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ} وهُم المَلائِكَةُ {يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{يُسَبِّحُونَ} هو أي: يُصَلُّون]، وهذا نَعَمْ له وِجهَةُ نَظَرٍ، لأنَّ السِّياقَ في السُّجودِ ويُمكِنُ أن نَقولَ: يُسبِّحونَ بما هو أَعمُّ مِنَ الصَّلاةِ أي: يَقولون: سُبحانَ اللهِ والحَمدُ للهِ وما أَشبَهَ ذلك مِن كُلِّ ما فيه تَنزيهٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ عمَّا لا

=

=

يَليقُ به.

وقَولُه: {يُسَبِّحُونَ لَهُ} هو أي للهِ، واعْلَمْ أنَّ التَّسبيحَ مَعناه التَنْزيهُ، فما الَّذي يُنزِّهُ اللهُ عنه؟

يُنزِّهُ اللهُ تَعالى عن كُلِّ نَقصٍ، فهو ﷻ مُنزَّهٌ عن كُلِّ نَقصٍ، لا يُمكِنُ أن يَعتَرِيَه نَقصٌ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ.

ثانيًا: يُنزَّهُ عن كُلِّ نَقصٍ في كمالِه فلا نَقصَ في سَمعِه ولا بَصَرِه ولا قُدرَته ولا قُوَته.

الثَّالثُ: يُنزَّهُ عن مُماثَلةِ المَخلوقينَ فلا يُماثِلُ المَخلوقَ أبدًا بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ، والتَّماثُلُ بينَ الخالِق والمَخلوقِ مِن أكبرِ المُحالِ.

فما يُنَزَّهُ اللهُ عنه ثَلاثَةُ أشياءَ:

الأَوَّلُ: النَّقصُ لا يُمكنُ أن يَعتَرِيَه نَقصٌ إطلاقًا.

والثَّاني: النَّقصُ في كَمالِه، فكَمالاتُه من عِلمٍ وقُدرةٍ وحَياةٍ وسَمْعٍ وبَصرٍ ورحمَةٍ وغيرِ ذلك لا يُمكنُ أن يَعترِيَها نقصٌ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ.

والثَّالثُ: مُماثلَةُ المَخلوقينَ.

ولاحِظوا هذه المَسأَلَةَ فأكثَرُ الَّذين يُعبِّرون بمِثلِ هذا يُعبِّرون بمُشابهَةٍ، وهذا ليس بصَوابٍ، الصَّوابُ أن يُعبِّرَ بما عَبَّر اللهُ به عن نَفسِه فقال: {كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١] وقال: {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} [النحل: ٧٤]، ولم يَذكُرِ التَّشبيهَ بأيِّ حالٍ منَ الأحوالِ، ولهذا كان التَّعبيرُ بنَفي التَّمثيل هو الصَّوابُ دونَ التَّشبيهِ. دَليلُ هذا أنَّ اللهَ مُنزَّهٌ عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ قَولُه: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} [النحل: ٦٠]

المَثَلُ يعني: الوَصفَ؛ لأنَّ المَثَلَ يُطلَقُ على ذلك كما في قَولِه تَعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} [محمد: ١٥] مَثَلُ بمعنى: وَصفُها صِفتُها، {فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ

=

=

مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ} فإذا كان اللهُ له المَثَلُ الأعلى؛ أي: الأَكمَلُ لَزِمَ أن يَكونَ مُنزَّهًا عن كُلِّ نقصٍ.

أمَّا النَّقصُ في كَمالِه فيَدُلُّ له قَولُه تبارك وتعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨)} [ق: ٣٨] أي: مِن نَقصٍ على أنَّ هذه المَخلوقاتِ عَظيمَةٌ جدًّا، ومع ذلك ما لَحِقَ اللهُ تَعالى فيها نَقصٌ. {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)} [الأحقاف: ٣٣].

الثَّالثُ: عدمُ مُماثلَةِ المَخلوقينَ، يَقولُ اللهُ ﷻ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٧٤]، ويَقولُ تَعالى: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٢].

إذن؛ التَّسبيحُ بمعنى: التَّنزيهِ، والَّذي يُنزَّهُ اللهُ عنه ثَلاثَةُ أشياءَ.

قال اللهُ تَعالى: {يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} الباءُ هُنا بمَعنى (في)؛ لأنَّ المَقصودَ {بِاللَّيْلِ} يَعني: ظَرفَ اللَّيلِ، وعلى هذا تكونُ الباءُ بمعنى (في) كما هي في قَولِه تَعالى: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨] باللَّيلِ يَعني: في اللَّيلِ.

فإنْ قال قائِلٌ: ما القَولُ في رَأيِ عُلماءِ البَصرَةِ الَّذين يُنكِرون تَقابُلَ الحُروفِ بَعضِها بَعضًا؟

فالجَوابُ: نَحنُ لَدينا قاعدَةٌ:

أَوَّلًا: أنَّه إذا دَلَّ القُرآنُ على شَيءٍ جائزٍ فلا عِبرَةَ بمَن خالَفَه.

ثانيًا: إذا اختَلَف النَّحويُّون في مسألَةٍ، فإنَّنا نتَّبعُ الأسهَلَ، لا يوجَدُ دَليلٌ شَرعيٌّ مَثلًا يُؤيِّدُ هؤلاءِ ولا هَؤلاءِ فنتَّبعَ الأسهَلَ، فإذا رَأيتُم عُلماءَ البَصرَةِ وعُلماءَ

=

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩).

{ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة} يابسة لا نبات فيها {فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ} تَحَرَّكَتْ {وَرَبَتْ} انتفخت وعلت {إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير}[1].

=

الكوفَةِ مخْتلِفون في شَيءٍ فاتَّبعوا الأسهَلَ، وأَقولُ: الحَمدُ للهِ على الرَّاحةِ.

فإن قيل: هَل شَيخُ الإسلامِ يُغَلِّطُ مثلَ هذا؟

فالجَوابُ: لا، لا يَغلَّطُ بمثل هذا، شَيخُ الإسلام يُغلِّطُ فيما إذا أَمكَنَ تَضمِينُ الفِعلِ مَعنًى يُناسبُ حَرفَ الجَرِّ مثل: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ} [الإنسان: ٦] منهم مَن يَقولُ {بِهَا} (الباءُ) بمَعنَى (مِن) أي: يَشرَبُ مِنها عِبادُ اللهِ. نحنُ نَقولُ: لا، الأَوْلَى أن تُضَمِّنَ الفِعلَ مَعنًى يُناسِبُ الحَرفَ، أمَّا الآيَةُ الَّتي مَعَنا {يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ} [فصلت: ٣٨] فلا تَستَقيمُ.

وقَولُه: {بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} يَعني: إذن كُلُّ الوَقتِ يُسبِّحونَ اللهَ.

وَيقولُ ﷻ: {وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} هُم مَعَ كَونِهم مُستغرِقينَ اللَّيلَ والنَّهارَ في تَسبيحِ اللهِ {لَا يَسْأَمُونَ}. يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [لا يَمَلُّون] وكذلك لا يَتعَبونَ؛ لأنَّ المَلَلَ يَكونُ مِنَ الضَّجَرِ والتَّعَبِ وذُلِّ النَّفسِ أَمامَ ما يَتحمَّلُه الإنسانُ، هؤلاء المَلائِكةُ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- {لَا يَسْأَمُونَ}.

(١) قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً}، أي:"ومن علامات وحدانية الله وقدرته: أنك ترى الأرض يابسة لا نبات فيها".

قال الطبري: يقول:"ومن حجج الله أيضا وأدلته على قدرته على نشر الموتى من بعد بلاها، وإعادتها لهيئتها كما كانت من بعد فنائها أنك يا محمد ترى الأرض

=

=

دارسة غبراء، لا نبات بها ولا زرع".

قال ابن كثير:"{وَمِنْ آيَاتِهِ} أي: على قدرته على إعادة الموتى {أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً} أي: هامدة لا نبات فيها، بل هي ميتة".

عن قتادة، قوله: "{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً}، أي: غبراء متهشمة".

قال السدي:"يابسة متهمشة".

قال الزجاج:"أي: مُتَهَشِمَةً متغيرة، وهو مثل هامدة".

قال الأزهري: "إذا يبست الأرض ولم تمطر قيل: قد خشعت".

قوله تعالى: {فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ}، أي:"فإذا أنزلنا عليها المطر دبَّت فيها الحياة، وتحركت بالنبات، وانتفخت وعلت".

قال الطبري: يقول:"فإذا أنزلنا من السماء غيثا على هذه الأرض الخاشعة اهتزت بالنبات. يقول: تحرّكت به".

قال ابن كثير:"أي: أخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار".

عن مجاهد، قوله: "{اهْتَزَّتْ}، قال: بالنبات، {وَرَبَتْ}، يقول: انتفخت".

عن مجاهد: "{وَرَبَتْ}: للنبات، قال: ارتفعت قبل أن تنبت".

عن السديّ: "{وَرَبَتْ}: انتفخت".

عن قتادة: "{فَإِذَا أَنزلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ}، يعرف الغيث في سحتها وربوها".

وقال في رواية:"حسنت وعرف العشب في ربوها".

قال الفراء: {اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ}،" زاد ريعها، وربت، أي: أنها تنتفخ، ثم تصدع عن النبات".

قال يحيى:"فيها تقديم: ربت للنبات انفتحت واهتزت بالنبات إذا أنبتت".

ويقرأ: «وَرَبأَتْ»، بالهمز.

=

=

قال الزجاج:"معنى ربت عظمت، ومعنى: «ربأت»: ارْتَفَعَتْ، لأن النبت إذا همَّ أن يظهر ارتفعت له الأرض".

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى} [فصلت: ٣٩]، أي:"إن الذي أحيا هذه الأرض بعد همودها، قادر على إحياء الخلق بعد موتهم".

قال الطبري: يقول:"إن الذي أحيا هذه الأرض الدارسة فأخرج منها النبات، وجعلها تهتزّ بالزرع من بعد يبسها ودثورها بالمطر الذي أنزل عليها لقادر أن يحيي أموات بني آدم من بعد مماتهم بالماء الذي ينزل من السماء لإحيائهم".

قال السدي:"كما يحيي الأرض بالمطر، كذلك يحيي الموتى بالماء يوم القيامة بين النفختين".

قال ابن ابي زمنين:"هذا مثل للبعث".

قوله تعالى: {إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، أي:"إنه على كل شيء قدير، فكما لا تعجز قدرته عن إحياء الأرض بعد موتها، فكذلك لا تعجز عن إحياء الموتى".

قال الطبري: يقول:"إن ربك يا محمد على إحياء خلقه بعد مماتهم وعلى كل ما يشاء ذو قدرة لا يعجزه شيء أراده، ولا يتعذّر عليه فعل شيء شاءه".

قال ابن إسحاق:"أي: لا يقدر على هذا غيرك بسلطانك وقدرتك".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً} (مِن) للتَّبعيضِ و (آياتٌ) جَمعُ آيَةٍ وهي العَلامَةُ المُعيَّنَةُ لمَعلومِها، فكُلُّ عَلامَةٍ تُعيِّنُ مَعلومَها وتُحدِّدُه فهي آيَةٌ.

قَولُه: {أَنَّكَ} الخِطابُ هُنا لكُلِّ مَن يَتأتَّى خِطابُه وليس خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ واعلمْ أنَّ الخِطابَ المُوجَّهَ إلى واحدٍ يَنقَسِمُ إلى ثَلاثةِ أقسام:

الأَوَّلُ: ما دَلَّ الدَّليلُ بأنَّه خاصٌّ برَسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- فهو خاصٌّ به.

=

=

والثَّاني: ما دَلَّ الدَّليلُ على العُمومِ فهو للعُمومِ.

والثَّالثُ: ما لا دَليلَ فيه على هذا ولا على هذا، فيَصِحُّ أن يَكونَ خاصًّا بالرَّسولِ وأن يَكونَ مُوجَّهًا لكُلِّ مَن يتأتَّى خِطابُه.

ففي قَولِه تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ} [الشَّرح: ١ - ٢]، الخِطابُ خاصٌّ بالرَّسولِ عليه الصلاة والسلام إذ إنَّ هذا لا يتأتَّى لغَيرِه، وفي قَولِه تعالى: {يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} [المائدة: ٦٧]، هذا أيضًا خاصٌّ به، وفي قَولِه تَعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ} [الطلاق: ١] هذا عامٌّ دَلَّ الدَّليلُ عليه؛ لأنَّه قال: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ} ثُمَّ قال: {إِذَا طَلَّقْتُمُ}.

وغالِب ما يَأتي ألَّا يَكونَ فيه دَليلٌ لهذا ولا لهذا، فنَقولُ: إمَّا أنَّه مُوجَّهٌ للرَّسولِ عليه الصلاة والسلام وأُمَّتُه تكونُ مُتأسِّيةً به في ذلك، وإمَّا أن نَقولَ: إنَّه خِطابٌ لكُلِّ مَن يَتأتَّى خِطابُه.

في هذه الآية: {أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ} الخِطابُ عامٌّ للرَّسولِ ولغَيرِه، إمَّا أنَّ غيرَه داخلٌ في ذلك في أصلِ المُخاطبَةِ وإمَّا بالتَّبعِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً}: يابِسةً] هامِدَةً ليس فيها نَباتٌ إطلاقًا، {فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ} يعني المَطَرَ [{اهْتَزَّتْ} تَحرَّكت {وَرَبَتْ} انتَفَخَت وعَلَت].

قال اللهُ تَعالى: {فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ} أي: ماءَ المَطَرِ {اهْتَزَّتْ} أي: اهتزَّ نَباتُها من فَوقِها، وليس المُرادُ أنَّ الأرضَ نَفسَها تَهتزُّ؛ لأنَّنا لا نَشعُرُ بذلك، وإن كنَّا نَجوزُ أن يَكونَ اهتِزازُها اهتِزازًا يَسيرًا، لكنَّ الَّذي يَظهرُ أنَّها اهتَزَّت بالنَّباتِ، {وَرَبَتْ} أي: عَلَت.

وهلِ المُرادُ ما أشارَ إليه المفسِّر انتِفاخُ الأرضِ عِندما تُريدُ الحَبَّةُ أن تَخرُجَ، فإنَّ

=

الحَبَّةَ تَنتفِخُ في باطنِ الأرضِ، ثُمَّ إذا أَراد غُصنُها أن يَخرُجَ رَفَعَ الأرضَ، فهل هذا هو مَعنى رَبَتْ، أو المُرادُ عَلَت بالنَّباتِ؟

الجواب: يَحتمِلُ هذا وهذا، أنَّها عَلَت بالنَّباتِ وأنَّه لمَّا ذَكَرَ اهتِزازَها أوَّلًا اهتِزازُ النَّباتِ الخَفيفِ ذَكَر عُلوَّ النَّباتِ والأشجارِ الكَبير الَّتي تَعلو، كُلُّ هذا مُمكِنٌ.

ثُمَّ قال ﷻ: {إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

{إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا} أي: أحيا الأرضَ الخاشعَةَ {لَمُحْيِ الْمَوْتَى} الجُملَةُ مُؤَكَّدَةٌ بمُؤكِّدينِ إنَّ واللَّامَ، و {الْمَوْتَى} جَمعُ مَيِّتٍ، والمُرادُ به كُلُّ مَن مات مِن بَني آدمَ وغَيرِهم، فهو قادرٌ على إِحيائِهم.

{إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} أيضًا جُملَةٌ مُؤكَّدةٌ بإنَّ، و {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} كُلُّ شيءٍ، فاللهُ قادرٌ عليه قادرٌ على إِيجادِ المَعدومِ، وعلى إِعدامِ المَوجودِ وعلى تَغييرِ الثَّابتِ وعلى تَثبيتِ المُتغيِّرِ كُلُّ شيءٍ قادِرٌ عليه.

(منبهة): بعض الملحدين يسأل سؤال فيه مغالطة كبيرة، ويحاول كثير منهم أن يستعمله في حواراته مع المسلمين، وهم يريدون الإلزام للمجيب فإن قال: لا يستطيع. قالوا: كيف يكون إلها وهو عاجز عن الخلق ؟! وإن قال: يستطيع. قالوا: كيف يكون إلها وهو عاجز عن الحمل والرفع لهذه الصخرة ؟!

وهذا السؤال غير صحيح في الأصل، فقدرة الله تعالى لا تتعلق بالمستحيلات ؛ فكيف يكون إلها وهو عاجز عن رفع " صخرتهم " ومن صفات الله تعالى القدرة ؟! وهل سيوجد في صفات المخلوقات ما هو أعظم من صفات خالقها ؟!

فقدرة الله- التي هي بلا شك مطلقة وغير محدودة- إنما تتعلق بالممكنات العقلية لا بالمستحيلات العقلية، فالقدرة مهما كانت مطلقة ولا حدود لها تبقى في دائرة ممكنات الوجود، ولا تتعلق بالمستحيلات، وليس هذا بتحديد لها، ولتوضيح هذه النقطة نضرب بعض الأمثلة:

=

نسأل جميع هؤلاء الأساقفة واللاهوتيين: هل يستطيع الله تعالى أن يخلق إلها آخر مثله ؟ إن قالوا: نعم. قلنا لهم: هذا المخلوق كيف يكون إلها وهو مخلوق ؟ وكيف يكون مثل الله مع أنه حادث في حين أن الله أزلي قديم ؟ في الحقيقة إن عبارة " خلق إله " سفسطة وتناقض عقلي لأن الشيء بمجرد أن يخلق فهو ليس بإله، فسؤالنا هذا بمثابة سؤالنا هل يستطيع الله تعالى أن يخلق " إلها غير إله " ؟! وبديهي أن الجواب لا بد أن يكون: إن قدرة الله لا تتعلق بذلك ؛ لأن كون الشيء إلها وغير إله تناقض عقلي مستحيل الوجود، وقدرة الله لا تتعلق بالمستحيلات.

مثال آخر: نسألهم أيضا: هل يستطيع الله تعالى أن يخرج أحدا حقيقة من تحت سلطانه ؟

إن أجابوا بالإيجاب حددوا نفوذ الله تعالى وسلطانه، وإن أجابوا بالنفي- وهو الصحيح- وافقونا بأن قدرة الله المطلقة لا تتعلق بالمستحيلات ؛ لأنه مستحيل عقلا أن يخرج أي مخلوق من سلطان ونفوذ خالقه وموجده.

مثال ثالث: سألني مرة أحد الملحدين فقال: "هل يستطيع ربكم أن يخلق صخرة هائلة تكون من الضخامة بحيث يعجز هو نفسه عن تحريكها " ؟ وأضاف متهكما: "إن قلت لي نعم يستطيع: فقد أثبت لربك العجز عن تحريك صخرة، وهذا دليل على أنه ليس بإله، وإن قلت لي: كلا، لا يستطيع، اعترفت بأنه لا يقدر على كل شيء، و بالتالي فهو ليس بإله " !.

فأجبت هذا الملحد بكل بساطة: نعم، لا يدخل ضمن قدرة الله أن يخلق صخرة يعجز عن تحريكها ؛ لأن كل ما يخلقه الله يقدر على تحريكه، ولكن عدم إمكان تعلق قدرة الله تعالى بخلق مثل هذه الصخرة المفترضة ليس دليلا على عجزه بل- على العكس تماما- هو دليل على كمال قدرته ! لأن سؤالك هذا بمثابة من يسأل: هل يستطيع الله تعالى أن يكون عاجزا عن شيء ممكن عقلا ؟ وبديهي أن

=

=

الإجابة بالنفي لا تفيد تحديد قدرة الله بل تفيد تأكيد كمال قدرته تعالى وتمامها ؛ لأن عدم العجز عين القدرة وليس عجزا، تماما كما أنه لو قلنا إن الله لا يمكن أن يجهل أو ينسى شيئا، لا يكون في قولنا هذا إثبات لعجز فيه تعالى أو نقص، بل يكون تأكيدا على كماله تعالى وكلية قدرته وعلمه.

ونحن نحاول تقريب الجواب بأمثلة أخرى.

كأن يقال للسائل: لأجل أن تعرف أن العجز لا يوصف به شيء إلا إذا لم تتعلق قدرته بما هو ممكن.

فأما إذا لم تتعلق قدرته فيما هو مستحيل أو فيما هو واجب، فلا يسمى عجزا.

انظر إلى المثال التالي:

ما الاحتمالات في ترتيب الأرقام ١، ٢، ٣؟

الجواب: إنها ستة احتمالات، وهي:

١، ٢، ٣

١، ٣، ٢.

٢، ١، ٣

٢، ٣، ١.

٣، ٢، ١

٣، ١، ٢.

فلو ذكرنا هذا السؤال لشخص وقلنا له: اذكر لنا احتمالات ترتيب الأرقام ١، ٢، ٣، فأعطانا أربعة احتمالات، ولم يستطع أن يعطينا الاحتمالين الخامس والسادس، فهل يقال في حقه أنه عاجز عن الجواب؟ الجواب: نعم، يقال ذلك، لأنه بقي ثمة احتمالين، ولم يعرفهما.

فلو ذكرنا هذا السؤال لآينشتاين في زماناته، وقلنا له: اذكر لنا احتمالات الأرقام

=

=

السابقة، فأعطانا الاحتمالات الستة كلها، فقلنا له: لن يثبت لنا كونك عالما بحق حتى تعطينا احتمالا سابعا لترتيب هذه الأرقام الثلاثة؟ فماذا تتوقع أن يقول لك آينشتين؟ سوف يقول بكل بساطة: بلا هبل، أو سوف يقول لك بكل غضب: يا جاهل، يستحيل وجود احتمال سابع، لأن القسمة العقلية لا توجب إلا هذه الاحتمالات الستة، ويستحيل عقلا وجود احتمال سابع.

هل نستطيع أن نصف آينشتين أنه عاجز أو أن معرفته بالرياضيات ناقصة لأنه لم يستطيع أن يعطينا الاحتمال السابع؟؟

الجواب: لا.

ومن هنا ننطلق معه إلى تعريف العجز، فنسأله:

ما هو العجز؟

فإذا لم يعرف الجواب..

نقول له: العجز هو أن لا تتعلق قدرتك بما هو ممكن، أما إذا لم تتعلق قدرتك بما هو مستحيل أو واجب، فلا يسمى ذلك عجزا، ونضرب له المثال السابق ونحوه من الأمثلة، لا سيما من علوم الرياضيات.

فإن قال: إن ذلك في حق البشر فقط، أما في حق الله تعالى، فلا بد أن تتعلق القدرة بالواجبات أيضا، وبالمستحيلات أيضا.

فنقول له: من أين لك هذا؟

فيقول: هذا من مقتضى كماله.

فنقول له: بل من مقتضى كماله أن لا تتعلق قدرته بالواجبات مثلا، لأن وجود الله تعالى واجب، فلو تعلقت القدرة بإفناء نفسه، لكان هذا دليلا على أن وجوده ممكن وليس بواجب، ولكان هذا دليلا على أنه ليس الإله الخالق، لأن الخالق للموجودات من العدم يستحيل عقلا أن يكون له بداية، لأنه لو كان له بداية لكان

=

=

مخلوقا، والمخلوق يستحيل عقلا أن يخلق شيئا من العدم، فإذا كان الله تعالى هو خالق الموجودات من العدم، دل ذلك على أنه ليس له بداية، وهذا معنى واجب الوجود.

ولنضرب مثالا فرضيا على ذلك

لو أن شخصا استخرج بيد نفسه قلبه من صدره، وقطعه عن وريده بالسكين، واستمر ذلك يومين، ولم يمت.

وشخصا آخر استخرج قلبه بيد نفسه من صدره فمات.

أيهما الكامل، وأيهما الناقص؟

سيجيب العاقل: أن الأول هو الكامل، لأنه بالرغم من تقطيع قلبه بقي حيا، بينما الآخر عندما قطع قلبه مات.

وسيجيب المجنون: أن الثاني هو الكامل، لأنه استطاع أن يميت نفسه.

وهل عاقل كمجنون، إننا نقر أن البشر كلهم ناقصون لأنهم يموتون، فيستطيع الواحد أن يقتل نفسه، ويستطيع الآخرون أن يقتلوه، والله قادر على إماتته بكلمة كن.

فكذلك الأمر، إن الكامل هو الذي لا تتعلق قدرته بإفناء نفسه، لأنه لو تعلقت قدرته بإفناء نفسه دل ذلك على أنه ممكن الوجود، وعلى أنه ناقص الوجود، بينما لو لم تتعلق قدرته ولا قدرة غيره بإفنائه، دل ذلك على كماله في ذاته.

فنعود للسؤال القائل:

هل يستطيع الله خلق صخرة يعجز عن حملها؟

فإذا قلنا: لا، تصبح القدرة غير مطلقة.

وإذا قلنا: نعم، تكون أيضا القدرة محدودة وغير مطلقة.

أقول: الذي أراه أن الجواب على هذا السؤال لا يكون بأن يقال: لا، أو نعم، بل

=

=

بأن يقال: إن الله قادر على خلق صخرة بالغا ما بلغت وقادر على حملها، وذلك: لأن خلق الصخرة بالغا ما بلغت من الممكنات، والقدرة على حملها، أيضا من الممكنات، فيكون الجواب كما ذكرت.

فإن قال: ليس ذلك مرادي، بل مرادي: أن يخلق الله تعالى صخرة عظيمة جدا يعجز عن حملها، فنقول له: مهما تصورت صخرة عظيمة فإن الله تعالى قادرا على خلقها بالغا ما بلغت، وقادر على حملها.

فسيقول: لا بل أريد أن يخلق الله تعالى صخرة أعظم من ذلك مما لا يستطيع على حملها.

فنقول: إن ما تسأله من الممكنات، والله تعالى قادر على الممكنات كلها، ولكنك تريد أن تسأل: هل الله قادر على أن يصيب نفسه بالعجز عن الممكنات؟؟؟

فنقول لك: إن صفة القدرة صفة واجبة لله تعالى، وقدرة الله تعالى لا تتعلق بالواجبات، وبكلمات أخرى: قدرة الله تعالى لا تتعلق بإضعاف أو بإفناء صفة من صفاته، وليس ذلك نقصا فيه، بل هو كمال فيه، فكما أن الذي تعلقت قدرته بإفناء نفسه هو العاجز، والذي لم تتعلق قدرته بإفناء نفسه هو الكامل، فكذلك الذي تتعلق قدرته بإفناء أو إضعاف صفة من صفاته هو العاجز، والذي لا تتعلق قدرته بإفناء أو إضعاف صفة من صفاته فهو الكامل.

هذا، ولا بد أن نذكر السائل بأننا لو سألنا علماء الرياضيات والطبيعيات كلهم عن آخرهم: هل يمكن للمستحيل عقلا أن يحدث؟ كأن يوجد شيء واحد في مكانين في الوقت نفسه، أو يوجد شيئين في الحيز نفسه في الوقت نفسه، أو أن يكون الصغير أكبر من الكبير، أو نحو ذلك، فسيجيب كل العلماء: أن لا.

مثال آخر

=

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠).

{إن الذين يلحدون} من ألحد ولحد {في آياتنا} القرآن بالتكذيب {لا يخفون علينا} فنجازيهم {أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير} تهديد لهم[1].

=

لو طلبنا من آينشتين أن يذكر لنا آخر رقم في الأرقام الموجبة، فسيخبرنا أنه لا يوجد لها نهاية، ولن يستطيع أن يذكر لنا رقما، فهل ذلك بسبب عجزه، أم هو بسبب عدم وجود رقم أخير، بل الأرقام لا نهاية لها؟؟

فالعاقل سيقول: بل بسبب أن الأرقام لا نهاية لها، وعدم تعلق قدرة آينشتين بذكر آخر رقم ليس عجزا منه، بل لأنه مستحيل عقلا أن يوجد رقم أخير للأرقام.

وسيقول المجنون: بل آينشتين عاجز، وهو جاهل بالرياضيات، ولا قدرة له عليها.

أيهما العالم وأيهما الجاهل: الذي يقول إن الأرقام لا نهاية لها، أم الذي يقول إن الأرقام لها نهاية.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا}، أي:"إن الذين يميلون عن الحق، فيكفرون بالقرآن ويحرفونه، لا يَخْفَون علينا، بل نحن مُطَّلعون عليهم".

قال الطبري: يقول:"إن الذين يميلون عن الحق في حججنا وأدلتنا، ويعدلون عنها تكذيبا بها وجحودا لها، نحن بهم عالمون لا يخفون علينا، ونحن لهم بالمرصاد إذا وردوا علينا، وذلك تهديد من الله جلّ ثناؤه لهم بقوله: سيعلمون عند ورودهم علينا ماذا يلقون من أليم عذابنا".

=

=

قال ابن كثير:"قوله: {لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا}، أي: فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد، أي: إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال".

قال الزمخشري:"قوله: {لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا}، وعيد لهم على التحريف".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ} وجوه من التفسير:

أحدها: يكذبون بآياتنا، قاله قتادة.

الثاني: يميلون عن آياتنا، قاله أبو مالك.

الثالث: يكفرون بنا، والإلحاد الكفر والشرك. قاله ابن زيد.

وروي عن قتادة:"{يلحدون}، قال: يشركون".

الرابع: يعاندون رسلنا، قاله السدي.

الخامس: هو المكاء والتصفيق عند تلاوة القرآن، قاله مجاهد.

السادس: معناه: يميلون عن الإيمان بالقرآن- بالأشعار والباطل. يعني: أبا جهل. قاله مقاتل.

السابع: معناه: تبديلهم معاني كتاب الله، والإلحاد: أن يوضع الكلام على غير موضعه. وهذا قول ابن عباس.

قال مبشر بن عبيد القرشي: "قال الأعمش: {يلحدون}، بنصب الياء والحاء من اللحد قال: وسألته عن تفسيرها فقال: يدخلون فيها ما ليس منها".

وقال عطاء:"الإلحاد المضاهاة".

قال الزجاج: أي: "يجعلون الكلام على غير جِهَتِه، ومن هذا اللَّحْدُ، لأنه الحفرُ في جانب القَبْر".

قال الزمخشري:"يقال: ألحد الحافر ولحد، إذا مال عن الاستقامة، فحفر في شق، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة".

=

=

قال الطبري:"وكل هذه الأقوال التي ذكرناها في تأويل ذلك في قريبات المعاني، وذلك أن اللحد والإلحاد: هو الميل، وقد يكون ميلا عن آيات الله، وعدولا عنها بالتكذيب بها، ويكون بالاستهزاء مكاء وتصدية، ويكون مفارقة لها وعنادا، ويكون تحريفا لها وتغييرا لمعانيها.

ولا قول أولى بالصحة في ذلك مما قلنا، وأن يعم الخبر عنهم بأنهم ألحدوا في آيات الله، كما عمّ ذلك ربنا تبارك وتعالى".

قوله تعالى: {أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، أي:"أفهذا الملحد في آيات الله الذي يُلقى في النار خير، أم الذي يأتي يوم القيامة آمنًا من عذاب الله، مستحقًا لثوابه؛ لإيمانه به وتصديقه بآياته؟ ".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين يلحدون في آياتنا اليوم في الدنيا يوم القيامة عذاب النار، ثم قال الله: أفهذا الذي يلقى في النار خير، أم الذي يأتي يوم القيامة آمنا من عذاب الله لإيمانه بالله جلّ جلاله؟ هذا

الكافر، إنه إن آمن بآيات الله، واتبع امر الله ونهيه، أمنه يوم القيامة مما حذره منه من عقابه إن ورد عليه يومئذ به كافرا".

قال ابن كثير:"أي: أيستوي هذا وهذا؟ لا يستويان".

عن مجاهد، في قوله: {أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة} [الزمر: ٢٤] قال: «يجر على وجهه في النار». وهو كقوله {أفمن يلقى في النار خير أمن يأتي آمنا يوم القيامة} ".

عَن بشير بن تَمِيم، قَالَ: "نزلت هَذِه الْآيَة فِي أبي جهل وعمار بن يَاسر {أَفَمَن يلقى فِي النَّار} أَبُو جهل {أم من يَأْتِي آمنا يَوْم الْقِيَامَة} عمار".

وعَن عِكْرِمَة:"فِي قَوْله {أَفَمَن يلقى فِي النَّار خير أم من يَأْتِي آمنا يَوْم الْقِيَامَة}، نزلت فِي عمار بن يَاسر وَفِي أبي جهل".

=

=

قولـه تعـالى: {اعْمَلُـوا مَـا شِـئْتُمْ إِنَّـهُ بِمَـا تَعْمَلُـونَ بَـصِيرٌ}، أي:"اعملـوا-أيهـا الملحدون- ما شئتم، فإن الله تعالى بأعمالكم بصير، لا يخفى عليه شيء منها، وسيجازيكم على ذلك".

قال الطبري:"{اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ}، وعيد لهم من الله خرج مخرج الأمر، {إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، يقول جلّ ثناؤه: إن الله أيها الناس بأعمالكم التي تعملونها ذو خبرة وعلم لا يخفي عليه منها، ولا من غيرها شيء ".

قال مقاتل:"قال لكفار مكة: {اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ هذا وعيد إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} من الشرك وغيره".

عن مجاهد:"{اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ}، قال: هذا وعيد".

قال ابن كثير:"تهديد للكفرة".

قال الزجاج:"لفظ هذا الكلام لفظ أَمْرٍ، ومعناه: الوعيد والتهدد، وقد بيَّن لهم المجازاة على الخير والشر".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا} يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِن أَلْحَدَ ولَحَدَ] مِن أَلحَدَ تكونُ يُلحِدون، ولَحَدَ يَلحَدون، وأصلُ اللَّحدِ أو الإلحادِ هو المَيلُ ومنه سُمِّيَ اللَّحدُ لحدًا؛ لمَيلِه إلى جانبِ القبر. إذن فهذه المادَّةُ (لامٌ حاءٌ دالٌ) مأخوذَةٌ مِنَ المَيلِ، فمَعنى: {يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا} أي: يَميلون فيها، وآياتُنا جَمعُ آيةٍ، وآياتُ اللهِ تَعالى تَنقَسِمُ إلى قِسمَينِ: آياتٍ شرعيَّةٍ وهي الوَحيُ المُنزَّلُ على الأنبياءِ والرُّسلِ، وآياتٍ قَدرِّيةٍ وهي المَخلوقاتُ، كُلُّ المَخلوقاتِ آياتٌ قَدريَّةٌ تَدُلُّ على خالِقِها وبارِئِها، وفي ذلك يَقولُ الشَّاعرُ الصَّادِقُ في قَولِه:

فواعَجبًا كيف يُعصى الإلَهُ ... أم كيف يَجحَدُه الجاحِدُ
وفي كُلِّ شيءٍ له آيَةٌ ... تَدُلُّ على أنَّه واحدُ

=

=

كُلُّ المَخلوقاتِ آيةٌ من آياتِ اللهِ، والإلحادُ في الآياتِ الكَونيَّةِ يَكونُ بواحدٍ مِن أُمورٍ ثلاثَةٍ؛ إمَّا بإضافتِها إلى غَيرِ اللهِ، وإمَّا باعتِقادِ مُشارِكٍ للهِ فيها، وإمَّا باعتِقادِ مُعينٍ للهِ فيها.

أمَّا الأَوَّلُ: فنِسبَتُها إلى غَيرِ اللهِ فتقولُ مثلًا الَّذي خَلَقَ السَّماءَ القُوَّةُ الطَّبيعيَّةُ هذا إلحادٌ بالآياتِ الكَونيَّةِ.

والثَّاني: اعتِقادُ مُشارِكٍ للهِ فيها مِثل أن يَقولَ الَّذي يُدَبِّرُ الكَونَ هو اللهُ والإمامُ الفُلانيُّ كما تَقولُه بعضُ الرَّافضَةُ.

والثَّالثُ: اعتِقادُ مُعينٍ للهِ فيها يَعني: كأنَّ اللهَ عَجَزَ عن إقامَةِ السَّمواتِ والأرضِ فأَعانَه آخرُ، يَعني: أن يَكونَ ﷻ مُنفَرِدًا بالخَلقِ لكنَّ هناك مَن يُساعِدُه، ولكنَّ هذا المُساعِدَ ليس له شَرِكَةٌ في الخَلقِ، وبهذا نَعرفُ الفَرقَ بَينَ المُعينِ والمُشارِكِ.

هذا هو الإلحادُ في آياتِ اللهِ الكَونيَّةِ، وإلى هذا يُشيرُ قَولُه تَعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} [سبأ: ٢٢] كُلُّ الثَّلاثَةِ نَفاهُنَّ، {لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} على سبيلِ الاستِقلالِ {وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ} على سَبيلِ المُشارَكَةِ، {وَمَا لَهُ} أي: ما للهِ منهم من ظَهيرٍ أي مُعينٍ.

والآياتُ الشَّرعِيَّةُ قُلنا: إنَّها ما نَزَلَ مِنَ الوَحيِ على رُسلِ اللهِ، الإلحادُ فيها يَكونُ أيضًا في ثَلاثةِ أُمورٍ: تَكذيبُها أو تَحريفُها أو مخُالفَتُها، هذا الإلحادُ في الآياتِ الشَّرعيَّةِ، فمَن كَذَّب وقال: إنَّ محُمدًا مثلًا لم يَنزِلْ عليه الوَحيُ وإنَّما يُعلِّمُه بَشَرٌ فهو مُلحِدٌ، ومَن حَرَّفَها وغَيَّرَ مَعناها أو غَيَّرَ لَفظَها فهو مُلحِدٌ؛ لأنَّ التَّحريفَ يَكونُ لفظًا وَيكونُ مَعنًى، والثَّالثُ مَن خَالفَها فهو مُلحِدٌ، فمَن عصا اللهِ فهو مُلحِدٌ لكنَّه ليس الإلحادُ الَّذي نَفهَمُه وهو الخُروجُ مِنَ الدِّينِ، بل هو مُلحِدٌ

=

=

إلحادًا بقَدْرِ ما فَعَلَ مِنَ المَعصيَةِ والمُخالَفَةِ، دَليلُ ذلك قَولُه تَعالى: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الحج: ٢٥] هذا سَمعيٌّ، والدَّليلُ العَقليُّ: أنَّنا قُلنا الإلحادُ في اللُّغةِ هو المَيلُ، والعاصي المُخالفُ للأوامِرِ مائلٌ بلا شَكٍّ.

هَؤلاءِ الَّذين يُلحِدون في هذا أو في هذا، يَقولُ اللهُ ﷻ: {لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا} هذه صِفَةُ نَفيٍ {لَا يَخْفَوْنَ} نَفَى اللهُ ﷻ أن يَخفى عليه هَؤلاءِ؛ لِكمالِ عِلمِه.

واعلمْ أنَّه لا يُمكنُ أن يوجَدُ في صِفاتِ اللهِ نَفيٌ محَضٌ، بل كُلُّ ما نَفى اللهُ عن نَفسِه فهو مُتَضَمِّنٌ للكَمالِ والإثباتِ، وهذه ضَعْها قاعدة عندَك لا تُفرِّطُ بها: لا يوجَدُ في صِفاتِ اللهِ نَفي محضٌ، بل كُلُّ ما نَفى اللهُ عن نَفسِه فإنَّه مُتضَمِّنٌ لكَمالٍ، فمثلًا {لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا} لماذا؟ لكَمالِ عِلمِه؛ لأنَّ اللهَ تَعالى كامِلُ العِلمِ محُيطٌ بكُلِّ شيءٍ: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: ٨٠].

إذن {لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا} أي: لا تَخفى عَلينا حالُهم ولا أعيانُهم لكَمالِ عِلمِه، والمُرادُ بهذه الجُملَةِ التَّهديدُ، كما تَقولُ لابنِك: يا بُنيَّ اذهبْ لما شِئتَ فإنَّه لا يَخفى عَلَيَّ فِعلُك. فالمُرادُ بها التَّهديدُ وهي في غايَةِ التَّهديدِ؛ لأنَّه إذا قال اللهُ ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا} فسوف تَرتَعِدُ الفَرائصُ من هذا الوعيدِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{فِي آيَاتِنَا} القُرآنِ بالتَّكذيبِ {لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا} فنُجازيهم].

في تَفسيرِ المفسِّرِ قُصورٌ:

أَوَّلًا: أنَّه جَعلَ الآياتِ هُنا الآياتِ الشَّرعيَّةَ وهذا غَلطٌ، فالآياتُ أعمُّ.

ثانيًا: أنَّه لم يَجعلِ الإلحادَ في الآياتِ الشَّرعيَّةِ إلَّا بنَوعٍ واحدٍ منَ الإلحادِ وهو

=

=

التكذيبُ، وقد قُلنا: إنَّ الإلحادَ فيها يَكونُ بواحدٍ من ثَلاثةِ أُمورٍ؛ إمَّا التَّكذيبُ أو التَّحريفُ أو المُخالفةُ.

ولم نَتكلَّمْ على الإلحادِ في الأسماءِ؛ لأنَّه ليس في الآيَةِ، لكن إتمامًا للفائدَةِ نَقولُ: الإلحادُ يَكونُ في أسماءِ اللهِ، وهو المَيلُ بها عمَّا يَجبُ؛ وذلك أوَّلًا أن يُسمِّيَ اللهَ تَعالى بما لم يُسَمِّ به نَفسَه كتَسمِيَةِ الفَلاسِفَةِ له: عِلَّةٌ فاعلَةٌ. يَقولون: إنَّ اللهَ هو العِلَّةُ الفاعِلَةُ لهذا الكَونِ، وتَسميَةُ النَّصارى إيَّاه أبًا يُسمُّونَه الأبَ والابنَ والرُّوحَ القُدُسَ.

الثَّاني: أن يُنكِرَ شَيئًا منَ الأسماءِ، أو مِمَّا دَلَّت عليه وهذا عَكسُ الأَوَّلِ، الأَوَّلُ سَمَّى اللهُ بما لم يُسَمِّ به نفسَه، والثَّاني أنكَرَ ما سَمَّى اللهُ به نَفسَه إمَّا إنكارًا كُلِّيًّا وإمَّا إنكارًا جُزئيًّا، أو يُنكِرُ ما تَضمَّنَته الأسماءُ مِنَ المَعاني والصِّفاتِ، فيُنكِرُ الأسماءَ أو بَعضَها أو ما دَلَّت عليه مِنَ المَعاني والصِّفاتِ، فمثلًا الَّذين يَقولون: إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى ليس لَه أسماءٌ ولا صِفاتٌ كغُلاةِ المُعتزلَةِ والجَهميَّةِ، هؤلاءِ مُلحِدونَ، والَّذين يَقولونَ له أسماءٌ لكن ليس لها مَعانٍ هَؤلاءِ أيضًا مُلحِدون كما هو المَشهورُ مِن مَذهَبِ المُعتزلَةِ، والَّذين يُنكِرون بَعضَ الصِّفاتِ كالأشاعِرَةِ هم أيضًا مُلحِدونَ فيَقولون مَثلًا: إنَّ اللهَ لا يَثبُتُ له مِنَ الصِّفاتِ إلَّا سَبعُ صِفاتٍ، زَعَموا أنَّ العَقلَ دَلَّ عليها وأنَّ البَاقيَ لا يَدُلُّ عليه العَقلُ، وقد تَكلَّمنا على هذا كثيرًا ولا حاجَةَ لإعادتِهِ.

الثَّالثُ: أن يُشتَقَّ من أسمائِه أسمائِه للأصنامِ، ومنه اشتِقاقُ اللَّاتِ مِنَ الإلَهِ والعُزَّى مِنَ العَزيزِ ومَناةَ من المَنَّانِ، هذا أيضًا مِن الإلحادِ في أسماءِ اللهِ.

كُلُّ الإلحادِ هذا وغَيرُه في أسماءِ اللهِ قد تَوعَّدَ اللهُ مَن سَلَكَه في قَولِه: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

=

=

قال اللهُ تعالى: {أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ} استفهامٌ مِنَ اللهِ ﷻ والجَوابُ لا شكَّ أنَّه الثَّاني.

وفي قَولِه: {أَفَمَنْ يُلْقَى} هذا نَتيجَةُ قَولِه: {لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا} إذن فالمَعنَى لا يَخفَونَ علينا وسنُلقيهم في النَّارِ، يَعني: هذه هي النَّتيجَةُ، وأخبِروني: {أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ} والجَوابُ أنَّ النَّاسَ بصَوتٍ واحدٍ سيَقولونَ مَن يَأتي آمِنًا يومَ القيامَةِ هو الخَيرُ.

وقَولُه: {أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ} {يُلْقَى} يُفيدُ هذا أنَّ أهلَ النَّارِ والعِياذُ باللهِ إذا وَردوها لا يَدخُلوها طائِعينَ ولا مختارينَ، ولكنَّهم يُلْقَون إلقاءً كما يُلقى الحجَرُ مِن على الجَبَلِ، قال اللهُ تعالى: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا} [الملك: ٨]، وقال تَعالى: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا} [الطور: ١٣]؛ لأنَّهم لا يُريدون أن يَذهَبوا، ولكن قد ثَبَتَ أنَّ النَّارَ تمُثَّلُ لهم كالسَّرابِ فيَأتونَ إليها سِراعًا، نَقولُ: لا مُنافاةَ هي تُمَثَّلُ لهم كالسَّرابِ وهم يُريدون الشُّربَ فيَأتونَ إليها سِراعًا، فإذا وَصَلوا إليها وعَرَفوا أنَّها النَّارُ فهُم حينَئِذٍ يَقِفونَ ثُمَّ يُدَعُّون إلى نارِ جَهنَّمَ دعًّا- أعاذَنا اللهُ وإيَّاكم منها-، ثُمَّ يُلقَون فيها إلقاءً.

وقَولُه: {خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ} وهم المُؤمِنونَ الَّذين لا يُلحِدون في آياتِ اللهِ هَؤلاءِ يَأتونَ يَومَ القيامَةِ آمِنين، قال اللهُ تَعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ} [الأنعام: ٨٢] في الدُّنيا والآخِرَةِ.

{أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا} إعرابُ {آمِنًا} حالٌ، والفاعِلُ مُستتِرٌ التَّقديرُ: أَمَّن يَأتي هو آمِنًا يَومَ القِيامَةِ.

{يَوْمَ الْقِيَامَةِ} يَعني: به يَومَ البَعثِ والنُّشورِ وسُمِّيَ يَومَ القِيامَةِ لوُجوهٍ ثَلاثَةٍ:

الأَوَّلُ: أنَّ النَّاسَ يَقومون فيه مِن قُبورِهم لرَبِّ العالَمينَ، كما قالَ تَعالى: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: ٦].

=

=

الثَّاني: أنَّه يُقامُ فيه العَدلُ كما قالَ تَعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأنبياء: ٤٧].

والثَّالثُ: أنَّه يُقامُ فيه الأشهادُ، {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ} [غافر: ٥١]، فلهذا سُمِّيَ يومَ القيامَةِ.

قال اللهُ تَعالى: {أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} يَعني بَعدَ هذا الإنذارِ والتَّهديدِ والوَعيدِ: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} وهذه الجُملَةُ أيضًا تُفيدُ التَّهديدَ بِلا شَكٍّ، يَعني: اعمَلوا ما شِئتم مِنَ الخَيرِ أو مِنَ الشَّرِّ، {إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.

إذن {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} ليست إباحةً أنَّ الإنسانَ يَعملُ ما شاءَ كما يَدَّعي هَؤلاءِ أنَّ الحُرِّيَّةَ أن تَعمَلَ ما شِئتَ، عندَ هؤلاءِ الكُفَّارِ أنَّ الإنسانَ حُرٌّ في دينِه، يَدينُ بما شاءَ، حُرٌّ في أخلاقِه، يَتَخَلَّقُ بما شاءَ، حُرٌّ بأعمالِه يَعمَلُ ما شاءَ، هكذا عِندَهم، ونحن نَقولُ: لا، الحُرِّيَّةُ المُطلَقَةُ هي الرِّقُّ المُطلَقُ؛ لأنَّك إذا تَحَرَّرت من قُيودِ الشَّرع تَقَيَّدت بقُيودِ الشَّرِّ، ولهذا يَقولُ ابنُ القَيِّمِ في النُّونيَّةِ:

هَرَبوا مِنَ الرِّقِّ الَّذي خُلِقوا له ... وبُلوا بِرِقِّ النَّفسِ والشَّيطانِ

الرِّقُّ الَّذي خُلِقنا له هو عِبادَةُ اللهِ عَجَّلَ؛ وقوله: "وبُلوا" يَعني: ابتُلوا.

فصاروا عَبيدًا لأنفُسِهم والشَّياطينَ. فَرُّوا من رِقِّهم للهِ إلى رِقِّهم للهَوى والشَّيطانِ.

فنَقولُ: إنَّ قَولَه: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} ليس إطلاقًا بمَعنى ليس إباحَةً، ولكنَّه تَهديدٌ، وهو أُسلوبٌ عَربيٌّ مُبينٌ منذُ نَزَلَ القُرآنُ وإلى يَومِنا هذا، ولهذا أَكَّدَه بقَولِه: {إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [تَهديدٌ لهم].

قَولُه: {إِنَّهُ} الضَّميرُ يَعودُ على اللهِ عَجَّلَ.

وقَولُه: {بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} أي: عَليمٌ، وقُدِّمَ على عامِلِه لسَببينِ: أحدُهما لَفظِيٌّ، والثَّاني مَعنَويٌّ.

=

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١).

{إن الذين كفروا بالذكر} القرآن {لما جاءهم} نجازيهم {وإنه لكتاب عزيز} منيع.

لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢).

{لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه} أي ليس قبله كتاب يكذبه ولا بعده {تنزيل من حكيم حميد} أي الله المحمود في أمره[1].

=

أمَّا اللَّفظيُّ: فهو لتناسُبِ رُؤوسِ الآياتِ، والقُرآنُ الكريمُ نَزلَ بلِسانٍ عَربيٍّ، يُراعي التَّناسُبَ اللَّفظيَّ والمَعنويَّ.

والفائدَةُ الثَّانيةُ: أنَّه أَشَدُّ تَهديدًا مِمَّا إذا جاءَ مُتأخِّرًا عن عامِلِه كأنَّه يَقولُ: لو لم يَكُنْ عالمًا بأيِّ شَيءٍ لكانَ عالمًا بأعمالِكم. فهُنا الحَصرُ لِبيانِ التَّهديدِ لهَؤلاءِ كأنَّه يَقولُ: لو خَفِيَ عليه كُلُّ شيءٍ لم يَخفَ عليه أَعمالُكم.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ}، أي:"إن الذين جحدوا بهذا القرآن وكذَّبوا به حين جاءهم هالكون ومعذَّبون".

قال الطبري:"إن الذين جحدوا هذا القرآن وكذّبوا به لما جاءهم".

قال قتادة:"كفروا بالقرآن".

قال الزمخشري:"الذكر: القرآن، لأنهم لكفرهم به طعنوا فيه وحرّفوا تأويله".

قال مقاتل:"هو أبو جهل وكفار مكة ".

قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ}، أي:"وإن هذا القرآن لكتاب عزيز بإعزاز الله إياه وحفظه له من كل تغيير أو تبديل".

قال الطبري:"وإن هذا الذكر لكتاب عزيز بإعزاز الله إياه، وحفظه من كل من أراد له تبديلا أو تحريفا، أو تغييرا، من إنسي وجني وشيطان مارد".

=

=

قال الزمخشري:"أي:"منيع محمى بحماية الله تعالى".

قال ابن كثير:"أي: منيع الجناب، لا يرام أن يأتي أحد بمثله".

قال مقاتل:"يقول وإنه لقرآن منيع من الباطل، فلا يستذل، لأنه كلام الله".

قال قتادة:"أعزه الله لأنه كلامه، وحفظه من الباطل".

قال السدي:"عزيز من الشيطان".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ} هَذِه جُملةٌ مُؤكَّدةٌ بإِنَّ، يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بِالذِّكْرِ} القرَآنُ] الكَريمُ كَما قال اللهُ تبارك وتعالى: {وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ} [الأنبياء: ٥٠]، وقال تَعالَى: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [الزخرف: ٤٤]، وسُمِّيَ القرآنُ ذِكرًا؛ لأنَّه يُذكِّرُ صاحبَه بما للمُتَّقينَ مِن خَيرٍ وَما للطَّاغينَ مِن شرٍّ، ولأنَّه ذِكْرٌ لِصاحبِه أَيْ: يَرفعُ اللهُ به ذِكْرَ مَنْ تَمسَّكَ به، ولِهَذا قالَ: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ}، ولأنَّه يُذكِّرُ الإنسانَ بِرَبِّه، فَإِنَّ أَقربَ النَّاسِ أو مِن أَقربِ النَّاسِ إِلَى اللهِ مَنْ تَلا كِتابَه، ولهذا نَقولُ: إِنَّ تِلاوةَ الكتابِ أَفضلُ الذِّكرِ المُطلَقِ، وأمَّا الأذكارُ المُعيَّنةُ المُقيَّدةُ بشيءٍ مُعيَّنٍ، فهذه تَبَعٌ لِما قُيِّدَتْ بِهِ.

وقولُه: {لَمَّا جَاءَهُمْ} أي: حينَ جاءَهم.

واعْلَمْ أنَّ (لمَّا) تَأْتي في اللُّغةِ العربيَّةِ لعِدَّةِ أَوجُهٍ:

١- منها أَنْ تَكونَ ظَرفًا كَما في هَذهِ الآيَةِ، فَمعنى: {لَمَّا جَاءَهُمْ} أَيْ: حينَ جاءَهم.

٢- وَمِنها أَنْ تَأتيَ نافيةً جَازمةً، لِكنَّها لِتُوقعَ ما بَعدَها، كَقَولِهِ تبارك وتعالى: {بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} [ص: ٨] لَمَّا هُنا بِمعنى "لَمْ"، فَهي نافيةٌ لَكنَّها لا تَدخلُ إِلَّا على شيءٍ مُتَوقَّعٍ، فمعنى: {لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} أي: لَمْ يَذوقوه، ولَكنَّهم مُستحِقُّون لَه، وَالعذابُ مِنهم قَريبٌ.

=

=

٣- وَمنها أَنَّها تَأتي بِمعنى "إِلَّا" كَقولِه تَعالى: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} [الطارق: ٤] أي: إِلَّا عليها حَافِظٌ.

٤- وَمنها أَنَّها تَأتي شَرطيَّةً كَقولِه تَعالى: {فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ} [يوسف: ٩٦] تَقولُ: لمَّا زارَني أَكرمتُهُ.

فهذه أَربعةُ أَوجُهٍ لِـ (لَمَّا)، الوَجهُ الأَوَّلُ: ظَرفٌ، الثَّاني: نَافيةٌ جَازمةٌ، الثَّالثُ: بمعنى إِلَّا، الرَّابعُ: شَرطيَّةٌ.

لم يَذكُرِ اللهُ تَعالى خَبرَ "إِنَّ" بَلْ حَذَفَه من أَجْلِ أَنْ تَذهبَ النَّفسُ في تَقديرِه كُلَّ مَذهَبٍ، بِمعنَى أَنْ يُفكِّرَ الإِنسانُ فيما يَحصُلُ لهم، فتَجدُ الإِنسانَ يُؤَمِّلُ ويُفَكِّرُ كَذا أو كَذا، ولِهذا قَدَّرهُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ بِقَولِه: [نُجازيهم]، فـ (نُجازيهم) على تَفسيرِ المفسِّر هي خَبرُ إِنَّ، ويَجوزُ أَنْ تُقدَّرَ، لِهذا يُمكنُ أَنْ تَقولَ: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ} سوف يُعاقَبون أو لهم نارُ جهنَّمَ، أو ما أَشْبهَ ذلكَ.

المُهمُّ أَنَّ حَذْفَه من أَجْلِ أن يَذْهبَ الذِّهنُ كُلَّ مَذهبٍ في تَقْديرِ الخَبَرِ، لكنَّنا نَعلمُ عِلمَ اليقينِ أَنَّه لا يُمكنُ أَنْ يُقدِّرَ خَبرًا سارًّا، يَعني لا يُمكنُ أن نَقولَ: التَّقديمُ أَنَّ الَّذينَ كَفَروا بِذِكري لمَّا جاءهم لَهُم جنَّاتُ النَّعيم، هذا مُستحيلٌ، إِنَّما يُقدَّرُ في أيِّ شيءٍ تُقدِّرُه مِنَ العَذابِ، وهذا مِنْ بَلاغةِ القُرآنِ أَنْ يَجعلَ الأَمرَ مَفتوحًا لِيُقدِّرَه الإِنسانُ كُلَّ تَقديرٍ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} منيعٌ].

قال اللهُ تعالى: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} أَكَّدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هذا الكِتابَ أو عِزَّةَ هذا الكتابِ بمُؤكِّدَينِ: إِنَّ واللَّامِ. وموضعُ الفائدَةِ في الواقعِ ليس "كتابُ" فقطْ، بَلِ الفائدَةُ قَولُه: {عَزِيزٌ} هذا هو المُهمُّ، أَمَّا كتابُ كُلِّ شيءٍ كتابُ كُلِّ ما يُكْتبُ فهو كِتابٌ، لقد قالَت مَلِكةُ سَبَأٍ: {إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ} [النمل: ٢٩-٣٠]، لَكنَّ مَوضعَ الفائدَةِ قولُهُ: {عَزِيزٌ}.

=

=

{وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} الضَّميرُ في "إنَّه" يَعودُ إِلَى الذِّكرِ وَهو القُرآنُ، وكتابٌ هُنا بمعنى مَكتوبٍ، وهو مَكتوبٌ في المَصاحفِ في اللَّوحِ المَحفوظِ، في الصُّحُفِ الَّتي بِأَيْدي الملائِكةِ.

إِذَن هو كتابٌ في ثَلاثِ مَواضعَ: في اللَّوْحِ المَحفوظِ، والثَّاني: في الصُّحُفِ الَّتي بأَيْدي المَلائكةِ، والثَّالثُ: في الصحُفِ الَّتي بأَيْدينا.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{عَزِيزٌ} مَنيعٌ] ولا شكَّ أنَّ مَنيع من مَعاني عَزيزٍ، ولكنْ هيَ أَعمُّ ممَّا قال المفسِّر: "عَزيزٌ" بمعنى "مَنيعٍ"، أي: يَمتنعُ أَنْ يَنالَه أَحَدٌ بِسوءٍ إِلَّا فَضَحَه اللهُ.

الثَّاني: عَزيزٌ بمعنى غالِبٍ، فَالقرآنُ لا شكَّ أَنَّه غالبٌ على غَيرِه؛ لِقَولِه تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} [الفتح: ٢٨]، فهوَ غالبٌ لكُلِّ شَيءٍ.

إِذنْ هوَ مُمتنِعٌ أَنْ يَنالَه أَحَدٌ بِسوءٍ إِلَّا فَضَحَه اللهُ. والثَّاني: أَنَّه غالبٌ، ولهذا لمَّا كانتِ الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ مُتمسِّكةً به كانت غالبةً، هَدَّتْ عروشَ كِسْرى وقَيْصَرَ وغَيرِهما مِنَ الجبابرةِ، وفَتَحتْ بِه مَشارقَ الأرضِ ومَغاربَها، فلمَّا تولَّت عنه الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ حُرِمَت مِن هذا الخَيرِ العَظيمِ الَّذي هو العِزَّةُ وَالغَلبَةُ والقَهرُ.

قوله تعالى: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ}، أي:"لا يأتيه الباطل من أي ناحية من نواحيه ولا يبطله شيء، فهو محفوظ من أن يُنقص منه، أو يزاد فيه".

قال الطبري:"وإن هذا الذكر لكتاب عزيز بإعزاز الله إياه، وحفظه من كل من أراد له تبديلا أو تحريفا، أو تغييرا، من إنسي وجني وشيطان مارد".

قال ابن كثير:"أي: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين ".

وفي قوله تعالى: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} [فصلت: ٤٢]،

=

=

وجوه من التفسير:

أحدها: لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله، ولا يجيء من بعده كتاب فيبطله. قاله سعيد بن جبير، ومقاتل، والكلبي.

قال سعيد:"لا يأتيه النكير من بين يديه ولا من خلفه".

قال مقاتل:"يقول: لا يأتي القرآن بالتكذيب بل يصدق هذا القرآن الكتب التي كانت قبله: التوراة والإنجيل والزبور، ولا يجيئه من بعده كتاب يبطله فيكذبه".

الثاني: معناه: أنه محفوظ من أن يَنقُصَ منه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه، قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩]. قاله الزجاج، وهو معنى قول قتادة، والسدي.

قال الشوكاني:"ومعنى الباطل على هذا: الزيادة والنقصان".

قال قتادة:"الباطل: إبليس لا يستطيع أن ينقص منه حقا، ولا يزيد فيه باطلا".

وقال السدي:"«الباطل»: هو الشيطان لا يستطيع أن يزيد فيه حرفا ولا ينقص".

الثالث: لا يأتيه الباطل في إخباره عما تقدم ولا في إخباره عما تأخر، قاله ابن جريج.

الرابع: لا يزاد فيه، ولا ينقص منه، لا من جبريل، ولا من محمد ﷺ. حكاه الشوكاني.

الخامس: معناه: لا يأتيه الباطل من أول التنزيل ولا من آخره. حكاه الماوردي.

السادس: ما بين يديه: لفظه، وما خلفه: تأويله، فلا يأتيه الباطل في لفظ ولا تأويل. أفاده الماوردي.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: معناه: لا يستطيع ذو باطل بكيده تغييره بكيده، وتبديل شيء من معانيه عما هو به، وذلك هو الإتيان من بين يديه، ولا إلحاق ما ليس منه فيه، وذلك إتيانه من خلفه".

=

=

قال الزمخشري:"مثل كأن الباطل لا يتطرّق إليه ولا يجد إليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلق به.

فإن قلت: أما طعن فيه الطاعنون، وتأوّله المبطلون؟

قلت: بلى، ولكن الله قد تقدّم في حمايته عن تعلق الباطل به: بأن قيض قوما عارضوهم بإبطال تأويلهم وإفساد أقاويلهم، فلم يخلوا طعن طاعن إلا ممحوقا، ولا قول مبطل إلا مضمحلا. ونحوه قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ} ".

قوله تعالى: {تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}، أي:"تنزيل من حكيم بتدبير أمور عباده، محمود على ما له من صفات الكمال".

قال الطبري:"هو تنزيل من عند ذي حكمة بتدبير عباده، وصرفهم فيما فيه مصالحهم، (حَمِيدٌ) يقول: محمود على نعمه عليهم بأياديه عندهم".

قال ابن كثير:"أي: حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أي: في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته".

عن أبي العالية في قوله: "{حكيم}، قال: حكيم في أمره".

وقال العثيمين: يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} أي: لَيس قَبْلَه كتابٌ يُكذِّبه ولا بَعده] {الْبَاطِلُ} ضِدُّ الصَّحيحِ وضِدُّ الحقِّ، فَعِند الفُقَهاءِ يَقولونَ: "الصَّلاةُ باطلَةٌ الصَّلاةُ صَحيحةٌ"، فيَجعلون البُطلانَ في مُقابل الصَّحيحِ، وَفي القُرآنِ الكريمِ: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} [الحج: ٦٢]، فجَعَلَ الباطلَ في مُقابلةِ الحَقِّ، إذن لا يَأتيهِ الباطلُ الَّذي هو ضِدُّ الحقِّ.

وقولُه: {مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} فَسَّرها المفسِّر بتَفسيرٍ غَريبٍ قالَ: [أَيْ لَيس قَبْلَه كتابٌ يُكذِّبه وَلا بَعده]، وفي هَذا نَظَرٌ ظاهرٌ، والصَّوابُ أنَّه لا يَأتيه الباطلُ

=

{مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ} أي: فيما يُخبِرُ به، {وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} فيما أَخبرَ عنه، فَكُلُّ ما أَخبرَ به فَهو حقٌّ، وكُلُّ ما أَخبرَ عنه بأَنَّه سيكونُ فَهو حقٌّ.

أَيضًا لا يَأتيهِ الباطلُ مِن حَيثُ الأَحكامُ، فَكُلُّ ما حَكَمَ به فَهو حقٌّ وغايتُهُ حقٌّ، فيكونُ المعنَى أنَّ هذا القُرآنَ الكَريمَ ليس فيه شيءٌ مِنَ الكَذِبِ، لا في الإِخبارِ عن ما مَضَى وما هو بَيْن يَدَيه، ولا في الإِخبارِ عمَّا يُستقبَلُ وَهو قَولُه: {وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} وإنْ شِئتَ اعْكِسْ، فقُلْ: ما بَين يَدَيه هو المُستَقبَلُ وما خَلفَه هو الماضي.

كَذلكَ أَيضًا لا يَأتيه الباطلُ مِن حيثُ الأحكامُ، أَحكامُهُ كُلُّها عَدلٌ ما فيها جَوْرٌ؛ ولهذا تَجِدُ القُرآنَ الكَريمَ كَما يُعطي الرَّبَّ حَقَّه مِن العِبادةِ يُعطي المَخلوقَ حَقَّه أَيضًا: {وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [النساء: ٣٦] هَذا حَقُّ اللهِ، بَعدَه: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [النساء: ٣٦]. فَهو حقٌّ في أحكامِه، حقٌّ في أَخبارِه: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} [فصلت: ٤٢]، وَاقرَؤوا إِنْ شِئتُم قولَه تَعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام: ١١٥] صِدقًا باعتبارِ الإِخبارِ، وعَدلًا بِاعتِبارِ الأحكامِ.

قَولُه تَعالى: {تَنْزِيلٌ} خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: هوَ {تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}، ولَعلَّ هذا التَّقديرَ أَوْلى؛ لِأنَّه يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الجُملةَ استِئنافيَّة لِبَيانِ عَظمةِ هَذا القُرآنِ، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ خَبرًا ثانيًا أو ثالثًا لقَولِه: {وَإِنَّهُ}، فقَولُه: {عَزِيزٌ} صِفةٌ لكتابٍ، وقَولُه تَعالى: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} يَجوزُ أَنْ تَكونَ صِفةً لكتابٍ أيضا، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ خبرًا ثانيًا لـ"إنَّ"، وعلى هَذا فتَكونُ {تَنْزِيلٌ} خبرًا ثالثًا.

قَولُه تَعالى: {تَنْزِيلٌ} أي: مُنزَّلٌ من حَكيمٍ حَميدٍ، فإِذا فَسَّرنا {تَنْزِيلٌ} بأنَّه مُنزَّلٌ صارَ المصدرُ بِمَعْنى اسمِ المَفعولِ، والمَصدرُ يَأتي بمَعْنى اسمِ المَفعولِ، وبمَعْنى اسمِ الفاعلِ، والَّذي يُعيِّنُ ذلكَ هُو السِّياقُ.

قَولُه تَعالى: {تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} حَكيم أي: ذي حِكمةٍ وذي حُكمٍ، فالحُكمُ لله، والحِكمةُ في أَحْكامِه ﷻ فالرَّبُّ ﷻ مُتَّصِفٌ بالحُكمِ الَّذي لا مُعقِّبَ لَه، وبالحُكمِ النَّافذِ الَّذي لا مانعَ لَه، وفي الدُّعاءِ المَأثورِ: "لا مانِعَ لِما أَعْطَيتَ ولا مُعطيَ لِما مَنعْتَ"، وأيضًا هو مُتَّصِفٌ بالحِكمةِ، فكُلُّ أَحكامِه حِكمةٌ، فإنْ نَظرتَ إلى الأحكامِ القَدَرَيَّةِ، وجدْتَها في غايةِ الحِكمةِ، وإنْ نَظرتَ في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ وَجدتَها كَذلكَ في غايَةِ الحِكمةِ.

فهو ﷻ حاكِمٌ وذُو حكمَةٍ، وكَمْ مِن حاكمٍ لا حِكمةَ لَه، وكَمْ من حَكيمٍ لا حُكْمَ لَه، فكثيرٌ منَ الرِّجالِ حُكماءُ عُقلاءُ، ولكن ليس عِندَهم حُكمٌ فلا يَستطيعُ أن يَحكُمَ ولا على امرَأتِه.

وكَمْ مِن إنسانٍ حاكمٍ ذي سُلطةٍ قَويًّ، ولكنْ لَيس عِندَه حِكمةٌ.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ ليسَ بحاكمٍ ولا بِحكيمٍ.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ هو حاكمٌ حكيمٌ.

فا لأقسامُ إِذَنْ أَربعةٌ.

لَكنَّ بَعضَ النَاسِ يَكونُ عِندَه عِلمٌ ولَيس عِنْدَه حِكْمةٌ، وهَذا خَللٌ في تَوازنِ العبدِ، وسَيرُ العبدِ أَنْ يَكونَ عِندَه عِلمٌ ولكن مع الحِكْمة.

أَمَّا الرَّبُّ ﷻ فَهو حاكمٌ حَكيمٌ.

فإنْ قال قائلٌ: هَلِ الإحكامُ صِفةٌ ثالثةٌ في قَولِه: حَكيمٍ؟

فالجَوابُ: لا، لأنَّ الإحكامَ هو الحِكمَةُ.

وبَدَأَ بذِكرِ الحَكيمِ قَبْلَ الحَميدِ؛ وذلك لأنَّ الحَمدَ مُفرَّعٌ على الحِكمةِ، فإنَّ الحَكيمَ يَكونُ مَحمودًا.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [أي: اللهُ المَحمودُ]، يَعني: كأنَّه يُريدُ أنْ يَقولَ: المُرادُ بالحَكيمِ الحَميدِ هو اللهُ، وقَولُه: [المَحمودُ في أَمْرِه] أشارَ إِلَى أنَّ فَعيلًا هُنا بمَعْنى

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣).

{ما يقال لك} من التكذيب {إلا} مثل {ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة} للمؤمنين {وذو عقاب أليم} للكافرين[1].

=

مَفعولٍ، وفي اللُّغةِ العربيَّةِ تَأتي فَعيلٌ بمَعْنى فاعلٍ وَمَفعولٍ، فَإِذا قُلتَ: فُلانٌ جَريحٌ بمَعْنَى مَجروحٍ، وإذا قُلتَ: فُلانٌ سَميعٌ بمَعْنى سامِعٍ، فهِيَ تَأتي في اللُّغةِ العربيَّةِ بمَعْنى فاعلٍ وبمَعْنى مَفعولٍ، وهُنا فَسَّرها المفسِّر بمَعْنى مَحمودٍ.

لكنَّ هذا التَّفسيرَ فيه قُصورٌ؛ لِأنَّ حَميدًا هُنا بمَعْنى فاعلٍ وبمَعْنى مَفعولٍ، فهو مَحمودٌ وهو أَيضًا حامِدٌ، أَليس اللهُ تَعالى يُثني كَثيرًا عَلَى المُؤمنينَ، وعَلَى الرُّسلِ، وعَلَى مَنْ شاءَ مِنْ عِبادِه؟ فهذا حَمْدٌ، فَوَصْفُ هَؤلاءِ المَخلوقينَ الَّذين أثنى اللهُ عليهم هو حَمدُهم في الواقِع.

وفي هذه الآيةِ الكَريمةِ تَهديدٌ لِلمُكذِّبين بِالقُرآنِ في قَولِه تَعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ} وحُذِفَ الخبرُ لِيَذهبَ الذِّهْنُ في تَقديرِه كُلَّ مَذهبٍ.

(١) قوله تعالى: {مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ}، أي: "ما يقول لك هؤلاء المشركون-أيها الرسول- إلا ما قد قاله مَن قبلهم مِنَ الأمم لرسلهم، فاصبر على ما ينالك في سبيل الدعوة إلى الله".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: ما يقول لك هؤلاء المشركون المكذّبون ما جئتهم به من عند ربك إلا ما قد قاله من قبلهم من الأمم الذين كانوا من قبلك، يقول له: فاصبر على ما نالك من أذى منهم، كما صبر أولو العزم من الرسل، {وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ} ".

قال ابن قتيبة: "تعزيةٌ له-ﷺ- وتسليةٌ، أي: قد قيل للرسل قبلك: ساحر وكذاب؛ كما قيل لك".

=

قال الزمخشري: أي:"ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة".

قال الزمخشري:"ويجوز أن يكون: ما يقول لك الله إلا مثل ما قال للرسل من قبلك، والمقول: هو قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ}، فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته، والغرض: تخويف العصاة".

عن السدي، قوله:"{مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ}، قال: ما يقولون إلا ما قد قال المشركون للرسل من قبلك".

أخرج الثوري بسنده عن سهيل بن أبي صالح، قوله: "{مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ}: من الأذى".

قال قتادة:"يعزيه، يقول: قد قيل للأنبياء: ساحر، وشبه ذلك".

وقال قتادة:-في رواية-" يعزي نبيّه ﷺ كما تسمعون، يقول: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ}، أي:"إن ربك لذو مغفرة لذنوب التائبين، وذو عقاب لمن أصرَّ على كفره وتكذيبه".

قال الطبري:"يقول: إن ربك لذو مغفرة لذنوب التائبين إليه من ذنوبهم بالصفح عنهم، وهو ذو عقاب مؤلم لمن أصرّ على كفره وذنوبه، فمات على الإصرار على ذلك قبل التوبة منه".

قال الزمخشري:"{لَذُو مَغْفِرَةٍ} ورحمة لأنبيائه، {وَذُو عِقَابٍ}، لأعدائهم".

قال ابن كثير:"{لَذُو مَغْفِرَةٍ}،أي: لمن تاب إليه، {وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ}، أي: لمن استمر على كفره، وطغيانه، وعناده، وشقاقه ومخالفته".

قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:"أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".

=

عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: {إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ} قال رسول الله ﷺ: "لولا غَفْر الله وتجاوزه ما هَنَأَ أحدا العيشُ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد".

وقال العثيمين: قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مَا يُقَالُ لَكَ} مِن التَّكذيبِ] يَعني: وَالاستهزاءُ والسُّخريةُ وغَيرُ ذلك: {إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ} ومِنه قَولهُم: إنَّه ساحرٌ ومَجنونٌ، كَما قال تَعالَى: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} [الذاريات: ٥٢]، هَذهِ الكَلمةُ يَقولهُا كُلُّ أحدٍ لِلرَّسولِ، ويَحتملُ أَنْ يَكونَ المعْنَى: مَا يُقالُ لَك مِنَ الوَحيِ إلَّا ما قد قيلَ للرُّسُلِ مِنْ قَبْلكَ، أي مِثلَه، والآيةُ تَحتَملُهما ولا مانعَ من إرادتِهما.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا} مثل: {مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ}] زاد المفسِّر [مثل]، ومَعلومٌ أنَّ قولَه: {إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ} لا يُساويه قَولُه: إلَّا مثلَ، وإنَّما لجَأَ المفسِّر إلى ذلك؛ لأنَّ الَّذي قيلَ للرَّسولِ ﷺ لَيس هو بحُروفِه مَا قيلَ لمَنْ قَبلَه، ولكنَّ الأَوْلى أنْ يُقالَ: الآيةُ على ظاهِرها أنَّ مَا قيلَ للرَّسولِ قَد قيلَ لِمَنْ قَبلَه، وكَما ذَكَرْتُ لكم آنِفًا: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} [الذاريات: ٥٢]، فيُقالُ: إِنَّهم قَالوا نَفسَ الكلامِ لَكن بلُغَتِهم ليس بلُغَةِ العربِ.

قَولُه تَعالَى: {إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ} فيه عَرْضٌ لِلمُكَذِّبين أَنْ يُؤمِنوا فَإِنْ لَمْ يُؤمِنوا فَقَدْ تَعرَّضوا لِلعِقابِ، عَرَضَ أَنْ يُؤمِنوا بِقَولِه: {إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ} يعني: كأَنَّه يَقولُ: فَآمِنوا يَغفرْ لَكم، وهوَ قَولُه تَعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} [الأنفال: ٣٨]، {وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ} يَعْني: إنْ لم يُؤمِنوا، ففيهِ تَرغيبٌ وتَرهيبٌ، التَّرغيبُ في قَولِه: {لَذُو مَغْفِرَةٍ} والتَّرهيبُ فِي قَولِه: {وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ}، والعِقابُ هو الانتِقامُ،

=

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤).

{ولو جعلناه} أي الذكر {قرآنا أعجميا لقالوا لولا} هلا {فصلت} بينت {آياته} حتى نفهمها {أ} قرآن {أعجمي و} نبي {عربي} استفهام إنكار منهم بتحقيق الهمزة الثانية وقلبها ألف بإشباع ودونه {قل هو للذين آمنوا هدى} من الضلالة {وشفاء} من الجهل {والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر} ثقل فلا يسمعونه {وهو عليهم عمى} فلا يفهمونه {أولئك ينادون من مكان بعيد} أي هم كالمنادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يفهم ما ينادى به[1].

=

والأَليمُ بمَعْنى المُؤلِمِ، ففَعيلٌ تَأتي بمَعْنى مُفْعِلٍ كثيرًا في اللُّغَةِ العربيَّةِ كَما قَال الشَّاعرُ:

أَمِنْ رَيْحانةِ الدَّاعي السَّميعُ ... يُؤرقُني وأَصْحابي هُجوعُ

السَّميعُ يَعني: المُسْمِعُ.

(١) ذكر سبب النزول.

عن سعيد بن جبير؛ قال: قالت قريش: لولا أنزل هذا القرآن أعجمياً وعربياً؛ فأنزل الله: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤/ ٨٠): ثنا ابن حميد قال: ثنا يعقوب عن جعفر عن سعيد به. وهذا سند ضعيف جداً؛ فيه ثلاث علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: رواية جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد على وجه الخصوص فيها ضعف.

=

=

الثالثة: ابن حميد ضعيف اتهم بالكذب.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٣٣) وزاد نسبته لعبد بن حميد.

* قوله تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}، أي:"ولو جعلنا هذا القرآن الذي أنزلناه عليك-أيها الرسول- أعجميًا، لقال المشركون: هلا بُيِّنَتْ آياته، فنفقهه ونعلمه".

قال الطبري: يقول: "ولو جعلنا هذا القرآن الذي أنزلناه يا محمد أعجميا لقال قومك من قريش: هلا بينت أدلته وما فيه من آية، فنفقهه ونعلم ما هو وما فيه".

قال ابن قتيبة:"أي: هَلا {فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}، أي: أنزلتْ عربيةً مفصلة بالآي! كأن التفصيل للسان العرب! ".

قال الزجاج:"أي: هلَّا بينت آياتِه".

قال قتادة:"يقول: لو لا بينت آياته".

عن السدي:"{لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}، يقول: بُينت آياته".

قال الزمخشري:"كانوا لتعنتهم يقولون: هلا نزل القرآن بلغة العجم «فقيل: لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا: {لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ}، أى: بينت ولخصت بلسان نفقهه".

قال ابن كثير:"لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه في لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال: {وَلَوْ نزلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ١٩٨، ١٩٩]. وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم، لقالوا على وجه التعنت والعناد: {لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ} أي: لقالوا: هلا أنزل مفصلا بلغة العرب، ولأنكروا ذلك".

=

=

وقيل: "معنى {لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ} بعضها عربيّ، وبعضها عجميّ. وهذا التأويل على تأويل من قرأ «أَعْجَمِيّ» بترك الاستفهام فيه، وحمله خبرا من الله تعالى عن قيل المشركين ذلك، يعني: هلا فصلت آياته، منها عجميّ تعرفه العجم، ومنها عربيّ تفقهه العرب".

قوله تعالى: {أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ} [فصلت: ٤٤]، أي:"أقران أعجميٌ ونبيٌ عربي؟ ".

قال الطبري:"يعني أنهم كانوا يقولون إنكارا له: أأعجميّ هذا القرآن ولسان الذي أنزل عليه عربي؟ ".

قال ابن كثير:"وقالوا: أعجمي وعربي؟ أي: كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه".

قال الزمخشري:"الهمزة همزة الإنكار، يعنى: لأنكروا وقالوا: أقرآن أعجمى ورسول عربى، أو مرسل إليه عربى".

قال ابن قتيبة:"حكايةً عنهم. كأنهم يَعجبون فيقولون: أكتابٌ أعجميّ ونبيٌّ عربي؟ كيف يكون هذا".

عن مجاهد، قوله: "{لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}، فجعل عربيا، أعجميّ الكلام وعربيّ الرجل".

قال سعيد بن جبير:"لو كان هذا القران أعجميا لقالوا: القرآن أعجميّ، ومحمد عربيّ". وفي رواية:"قال: الرسول عربيّ، واللسان أعجميّ".

قال قتادة:"لقالوا: "هذا القرآن أعجمي وهذا النبي عربي ، فيقول: لكان ذلك أشد لتكذيبهم".

عن السدي:"{أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ}، نحن قوم عرب ما لنا وللعجمة".

قال الزجاج:"تقول: هذا رَجُل أعجمي. إذا كان لا يُفْصِحُ إن كَانَ مِنَ العَجَمِ أو

=

=

من العَرَبِ، وتقول: هذا رجل عَجَمِي. إذا كان من الأعاجم، فصيحـًا كان أَمْ غَيرَ فصيح، ومثل ذَلِكَ: هذا رَجُلٌ أعرابي. إذا كان من
أهل البادية، وكان جنسه من العَرَب أو من غير العَرَبِ، والأجودُ في القرآن: «أَعْجَمِي» بهمزة وأَلِفٍ على جهة النسبة إلى «الأعْجَم» ".

قال الزمخشري:"الأعجمى: الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه من أى جنس كان، والعجمي: منسوب إلى أمّة العجم".

وقرأ الحسن: «أَعْجَمى»، بهمزة وَسَكُونِ العين.

قال ابن كثير: المعنى-على هذه القراءة-: "هلا أنزل بعضها بالأعجمي، وبعضها بالعربي.. وهو في التعنت والعناد أبلغ".

قوله تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ}، أي:"قل لهم-أيها الرسول-: هذا القرآن للذين آمنوا بالله ورسوله هدى من الضلالة، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والأمراض".

قال الطبري:"قل يا محمد لهم: هو، القرآن {لِلَّذِينَ آمَنُوا} بالله ورسوله، وصدقوا بما جاءهم به من عند ربهم بيان للحق، وشفاء من الجهل".

قال ابن كثير: "أي: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب".

قال الزمخشري:"أى: القرآن، إرشاد إلى الحق وشفاء لِما فِي الصُّدُورِ من الظن والشك".

عن السديّ: "{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ}، قال: القرآن".

قال قتادة:"جعله الله نورا وبركة وشفاء للمؤمنين".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ} [فصلت: ٤٤]، أي:"والذين لا يؤمنون بالقرآن في آذانهم صمم من سماعه وتدبره".

=

=

قال الطبري: يقول:"والذين لا يؤمنون بالله ورسوله، وما جاءهم به من عند الله في آذانهم ثقل عن استماع هذا القرآن، وصمم لا يستمعونه ولكنهم يعرضون عنه".

قال ابن كثير: "أي: لا يفهمون ما فيه".

عن السديّ: "{وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ}، قال: صمم".

قال القشيري:"لا يزدادون على مر الأيام إلا ضلالا".

قوله تعالى: {وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى}، أي:"وهذا القرآن على قلوب هؤلاء المكذّبين به عمى فلا يهتدون به".

قال الطبري:"يقول: وهذا القرآن على قلوب هؤلاء المكذّبين به عمى عنه، فلا يبصرون حججه عليهم، وما فيه من مواعظه".

قال ابن كثير: "أي: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان كما قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا} [الإسراء: ٨٢]".

عن السديّ: "{وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى}، قال: عميت قلوبهم عنه".

قال ابن زيد:"العمى: الكفر".

قال قتادة:"عموا وصموا عن القرآن، فلا ينتفعون به، ولا يرغبون فيه".

عن سليمان بن قتّة عن ابن عباس، وابن الزبير، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، انهم قرءوا: «وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمٍ»،-بكسر الميم- على وجه النعت للقرآن.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}، أي:"أولئك المشركون كمن يُنادى، وهو في مكان بعيد لا يسمع داعيًا، ولا يجيب مناديًا".

قال البغوي:"أي: أنهم لا يسمعون ولا يفهمون كما أن من دعي من مكان بعيد

=

=

لم يسمع ولم يفهم، وهذا مثل لقلة انتفاعهم بما يوعظون به كأنهم ينادون من حيث لا يسمعون".

قال الزمخشري:"يعنى: أنهم لا يقبلونه ولا يرعونه أسماعهم، فمثلهم في ذلك مثل من يصيح به من مسافة شاطة لا يسمع من مثلها الصوت فلا يسمع النداء".

قال الراغب:"النداء: رفع الصوت وظهوره، فاستعمال النداء فيهم تنبيها على بعدهم عن الحق".

وفي قوله تعالى: {أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}، وجوه من التفسير:

أحدها: من مكان بعيد من قلوبهم، قاله علي-كرم الله وجهه-، ومجاهد.

قال الفراء:"تقول للرجل الذي لا يفهم قولك: أنت تنادى من بعيد، تقول للفهم: إنك لتأخذ الشيء من قريب".

قال ابن قتيبة:"لقلّة أفهامهم".

قال البطري:"تشبيه من الله جلّ ثناؤه، لعمى قلوبهم عن فهم ما أنزل في القرآن من حججه ومواعظه ببعيد.

قال النحاس:"أي: لا يتفهّمون ما يقال لهم والعرب تقول لمن يتّفهم: هو يخاطب من قريب".

قال الواحدي:"أي: أنهم لا يسمعون ولا يفهمون، كما أن من دعي من مكان بعيد لم يسمع، ولم يفهم".

قال ابن زيد:"ضيعوا أن يقبلوا الأمر من قريب، يتوبون ويؤمنون، فيقبل منهم، فأبوا".

الثاني: كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون، حكاه الفراء، والنقاش.

الثالث: ينادون يوم القيامة من مكان بعيد بأبشع أسمائهم، ليكون ذلك اشد عليهم في الفضيحة والتوبيخ. قاله الضحاك.

=

=

الرابع: من مكان بعيد من الإجابة. افاده الماوردي.

قال الثعلبي:"مثل لقلة استماعهم وانتفاعهم بما يوعظون به، كأنهم ينادون إلى الإيمان وبالقرآن من حيث لا يسمعون لبعد المسافة".

قال السدي: "كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالسا عند رجل من المسلمين يقضي، إذ قال: يا لبَّيكاه. فقال عمر: لِمَ تلبي؟ هل رأيت أحدا، أو دعاك أحد؟ قال: دعاني داع من وراء البحر. فقال عمر: أولئك ينادون من مكان بعيد".

حكي النحاس أن قوله:"{يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}، جواب لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ} [فصلت: ٤١]، قال السمعاني: "الاولى ان الجواب محذوف، تقديره: سيجازون على ذَلِك ".

وقال العثيمين: قوله تعالى: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ) {جَعَلْنَاهُ} الضَّميرُ يَعودُ عَلى القُرآنِ، يَقولُ المفسِّرُ رحمه الله: [أي الذِّكرُ] وإنَّما قَالَ الذِّكْرُ؛ لأَنَّه سَبقَ ذِكرُه قَريبًا في قَولِه: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ}. والمَعْنى مُتَّفَقٌ عَليه: أنَّ الضَّميرَ في الهاءِ في {جَعَلْنَاهُ} يَعودُ إِلَى القُرآنِ.

{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا} أي: بِلُغةِ العَجَمِ وهو قَدْ نَزلَ عَلى العَربِ: {لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ} {لَقَالُوا} أَي: المُكذِّبونَ لِلرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

يَقولُ المفسِّرُ رحمه الله: [{لَوْلَا} هَلَّا {فُصِّلَتْ} بَيِّنَتَ {آيَاتُهُ} حتَّى نَفهمَها]، ولكنَّ الله تَعالَى قَد قَطَعَ عَليهِمُ الحُجَّةَ، فقالَ: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الزخرف: ٣]، وقالَ: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف: ٢].

وقَولُه: {لَوْلَا} بمَعْنى هَلَّا أَفادَنا المفسِّر رحمه الله أنَّ لَولا تَأتي لِلتَّحضيرِ وتَأْتي شَرطيَّةً، ويُقالُ في إِعرابِها حَرفُ امتِناعٍ لِوُجودٍ.

وهُنَا تَتقاسَمُ هَذِه الحُروفُ لِلوُجودِ والعدَمِ، فَلَو حَرفُ امتِناعٍ لِامتِناعٍ، ولمَّا حَرفُ وُجودٍ لِوُجودٍ، ولَولا حَرْفُ امتِناعٍ لِوُجودٍ، تَقولُ: لمَّا جاءَني أكرَمتُه، هُنا

=

=

الإكْرامُ وُجِدَ لِوُجودِ المَجيءِ، وتَقولُ: لَو جاءَ زَيدٌ لَأَكْرمْتُه، هُنا امتنَعَ الإكرامُ لامتِناعِ الوُجودِ، وتَقولُ: لَولا زَيدٌ لَهَلكتُ أو لَفَعلتُ كَذا وكَذا، فَلَولا هُنا امتِناعُ لِوُجودِ، أمَّا في الآيةِ الكريمَةِ فَلَولا لَيست مِن هَذا ولا مِنْ هَذا، لَولا هُنا انتَقلَت عَن مَعْنى الشَّرطيَّةِ إلَى مَعْنى التَّحضيرِ.

فإنْ قَالَ قائلٌ: لَولا في قَولِه تَعالَى في سورَةِ يوسفَ: {لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ} [يوسف: ٢٤] هَلْ هي شَرطيَّةٌ؟

فالجَوابُ: نَعَمْ، شَرطيَّةٌ لَكِن مَحذوفةُ الجَوابِ، يَقولُ تَعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ} يَعْني: لِفِعْلِ.

فإنْ قيل: هَلِ الهَمُّ حَصَلَ مِنه؟

فَالجَوابُ: لَا، فَلَولا بُرهانُ رَبِّه لَفَعَلَ، يَعْني: لَأَجابَها إلَى ما دَعت، ولَيس المراد بـ {لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ}: لمَّا هَمَّ؛ لأنَّه لَو كانَ كَذلكَ لَتَناقَضَ الكلامُ، بَلْ هو هَمَّ بِها لَكن لَولا أنَّه رَأى بُرهانَ رَبِّه لأَجابَها إلى مَا دَعت.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أ} قُرآنٌ {أَعْجَمِيٌّ وَ} نَبيٌّ {عَرَبِيٌّ}] استِفهامُ إنكارٍ مِنهم، يَعني: لَوْ كانَ القُرآنُ بِلُغةِ العَجمِ لَقالوا: لَولا فُصِّلتْ آيَاتُه، وبُيِّنتْ باللُّغةِ العربيَّةِ، ثُمَّ لَقالوا: أَيضًا أَأَعْجميٌّ وعَربيٌّ، يَعني: لا يُمكنُ أَنْ يَكونَ القُرآنُ بِلُغةِ العَجمِ ونَزلَ عَلى نَبيٍّ عَربيٍّ، وهَذا الَّذي قَالوه استِفهامٌ حَقيقيٌّ، بمَعْنى أَنَّ قَولَهم حَقٌّ لا يُمكنُ أَنْ يَنزلَ قُرآنٌ أَعجميٌّ عَلَى نَبيٍّ عَربيٍّ، وقَد نَصَّ اللهُ عَلى ذَلكَ في قَولِه: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} [إبراهيم: ٤]، فكَلامُهم هَذا حقٌّ ونَحنُ نَقبلُهُ.

أمَّا قَولهُم: {لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}، فنَقولُ: هي مُفصَّلةٌ، لَكنَّها حُجَّةٌ لو كانَ القرآنُ أَعجميًّا، وعَلى هَذا يَكونُ قَولهُم صَحيحًا لَوْ كانَ القرآنُ باللُّغةِ الأعجميَّةِ، حُجَّةً في قَولهِم: {لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}، وحقًّا في قَولهِم: {أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ}.

=

=

يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِتَحقيقِ الهمزةِ الثَّانيةِ] أَنْ تَقولَ: {أَأَعْجَمِيٌّ} كَما هي القِراءةُ المَشهورةُ [وقَلْبُها أَلِفًا] {آعْجَمِيٌّ قَلَبْنا الثَّانيةَ أَلِفًا [بإشباع ودونِه] يَعني: أَنَّك تَمُدُّ الأَلِفَ مَدًّا طَبيعيًّا أو تَمُدُّها مَدًّا زائدًا عَلى ذَلكَ، والمَدُّ الطَّبيعيُّ قَولُه: ودونه، والمدُّ الزَّائدُ قَولُه: بإشباعٍ، وعَلَى هَذا فَيَكونُ فيها ثَلاثُ قِراءاتٍ: "آعْجَمِيٌّ" "آاعْجَمِيٌّ" {ءَاعْجَمِيٌّ} ثَلاثُ قِراءاتٍ.

والقِراءاتُ كَما هو مَعلومٌ كُلُّها سُنَّةٌ؛ لِأَنَّها ثَبتتْ عَنِ النَّبيِّ ﷺ ويَنبَغي لِلإنسانِ الَّذي أَتقنَها وحَفِظَها أَنْ يَقرأَ بِهذا مَرَّةً، وبِهذا مَرَّةً كَما نَقولُ في العِباداتِ الَّتي وَرَدت عَلى وُجوهٍ مُتنوِّعةٍ: إِنَّه يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلَ هَذَا مَرةً وهَذا مَرَّةً.

ولَكنْ لا نَقرأُ بِما يُخالِفُ القُرآنَ الَّذي بَينَ أَيْدي العَوامِّ بِقِراءةٍ أُخرى، فَنَرى أَنَّ مِن عَدَمِ الحِكمةِ ما يَفعلُهُ بَعضُ الطَّلَبةِ إِذَا كَانَ يَعرفُ القِراءاتِ أَنْ يَقرأَ بِالقِراءةِ الَّتي لَيست بَينَ أَيْدي العَوامِّ، فإنَّ هَذا خَطأٌ عَظيمٌ؛ لأَنَّ العامِّيَّ لا يُدركُ هَذِهِ الأشياءَ، وسَوفَ يَهبِطُ قَدْرُ القُرآنِ في نَفسِهِ وتَقِلُّ عَظمتُه عِندَه، ثُمَّ رُبَّما يَتَّهِمُ هَذا القارِئَ بِأَنَّه أَخطأَ وغَلِطَ، فَإذا كانَ الصَّحابةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تَنازَعوا وهُم مَنْ هُمْ في اخْتلافِ القِراءاتِ فكيفَ بِعَوامِّ هَذا الزَّمانِ.

قَالَ اللهُ تَعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} أي: قُل يا مُحمَّدُ في جَوابِهم.

يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى} مِنَ الضَّلالةِ {وَشِفَاءٌ} مِنَ الجهل]، {هُوَ} الضَّميرُ يَعودُ على القُرآنِ الذِّكرِ {لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى} أي: عِلمٌ ونورٌ، {وَشِفَاءٌ}. يَقولُ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ الجَهلِ] وهَذا فيه نَظرٌ؛ لأَنَّ مِنَ الجَهلِ داخلٌ في قَولِه: {هُدًى}، إِذْ إِنَّ الهُدى هو العَلمُ وَضِدُّه الجَهلُ، لَكن {شِفَاءٌ} يَعني: مِن المَرَض مَرَضِ القُلوبِ، كَما قَالَ تَعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ} [يونس: ٥٧]، فالصَّوابُ أَنَّ قَولَه: {هُدًى} مِن الضَّلالةِ وهي الجهلُ، فَهو هُدًى مِن الجَهلِ، وَالضَّلالةُ شِفاءٌ

=

=

مِنَ المَرضِ مَرَضِ القُلوبِ، بَلْ هو أيضًا شِفاءٌ مِن مَرَضِ الأبدانِ، فَإِنَّ القُرآنَ يُستَشفَى بِهِ في أَمراضِ القُلوبِ، ويُستَشفَى بِهِ كَذلكَ في أَمراضِ الأَبدانِ، وكَمْ مِن إنسانٍ مَريضٍ مَرضًا بَدَنيًّا شَفاه اللهُ تَعالى بالقُرآنِ.

وقِصَّةُ اللَّديغِ- المَشهورةُ- الَّذي كَانَ سَيِّدَ قَومِهِ، ونَزَلَ به سَرِيَّةٌ مِنَ الصَّحابةِ ولَمْ يُضيِّفوهُم، فَسَخَّر اللهُ تَعالى عَقربًا كَبيرةً شَديدةً فلَدَغتْ سَيِّدَهمْ فطَلَبوا راقيًا مِنَ الصَّحابةِ، فَقالوا: لا نَرْقي لَكُمْ إلَّا بكَذا وكَذا مِنَ الغَنَمِ فَأَعْطَوهم، فذَهَبَ أَحَدُهم يَقرأُ عَليهِ سورةَ الفاتحةِ حَتَّى قَام كَأنَّما نُشِطَ مِنْ عِقالٍ، لَكنَّهمْ تَربَّصُوا فِي الغنمِ الَّتي أَخَذوها خافوا أَلَّا تَكونَ حِلًّا لَهمْ حَتَّى أَتَوُا النَّبيَّ-صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- فَسألوهُ فَقالَ: "خُذوا وَاضْرِبوا لِي مَعكُمْ بِسَهمٍ"، قَالَ ذَلكَ لا حاجةَ إِلَى اللَّحمِ ولَكن تَطييبًا لِقُلوبِهم وَاطْمِئنانًا لِنُفوسِهم؛ لِيَتبيَّنوا أَنَّه حَلالٌ حَلالٌ لا إشكالَ فيهِ.

الشَّاهدُ: أَنَّهم أَخبَروا النَّبيَّ-صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- أَنَّهم قَرَؤوا عَلى هَذا اللَّديغِ الفاتِحةَ فَقالَ: "وَما يُدْريكَ أَنَّها رُقْيَةٌ"، فَتَبيَّنَ بِهَذا أَنَّ القُرآنَ شفاءٌ مِن أَمراضِ القلُوبِ وَأَسقامِ الأَبدانِ لَكنْ، {لِلَّذِينَ آمَنُوا} آمَنوا بِالقُرآنِ وبأَنَّه مِن عِند اللهِ وبأَنَّهُ شِفاءٌ، أَمَّا رَجُلٌ لَمْ يُؤمِنْ به ولَمْ يَرفعْ به رَأسًا ولَمْ يَرَ بِمُخالفتِه بَأْسًا، فَإنَّ هَذا لا يَنتفعُ بِه.

فإنْ قال قائلٌ: كَيفَ يُشترَطُ للرُّقيةِ أنْ يَكونَ المَرقيُّ- الَّذي يُتلى عليه القُرآنُ- مُؤمنًا بِه وزَعيمُ القَومِ هَذا لَمْ يَكُنْ مُسلمًا؟

فالجَوابُ: هو مُؤمنٌ بأَنَّ قِراءتَهم سَوف تُفيدُه، وهَذا لا بُدَّ مِنه؛ لِأَنَّه إذا لَم يُؤمنْ لَمْ تَنْفعلِ النَّفسُ وتَكُونُ قَابلةً لَه، فَلا يُمكنُ أَنْ تَنفعلَ النَّفسُ لِقَبولِ هَذا العِلاجِ إلَّا إِذا آمَنَ بأَنَّه مُفيدٌ.

فَإِنْ قيلَ: هَل يُعالَجُ الكافِرُ بِالقُرآنِ؟

=

فَالجوابُ: نَعَمْ، يُعالَجُ بِالقُرآنِ، ورُبَّما يَكونُ عِلاجُه بِالقُرآنِ أَوْلى مِن عِلاجِ المُؤمنِ بِه؛ لِأَنَّه إذا عَرَفَ أَنَّهُ مُؤَثِّرٌ يَكونُ ذَلكَ سَببًا لِإسلامِه.

وإِنْ قَالَ قائلٌ: بَعضُ النَّاسِ يَتوسَّعُ فِي الرُّقيةِ الشَّرعيَّةِ ويُضيفُ فيها كَيفيَّاتٍ مِن عِندِه، فَهَلِ الرُّقيةُ مُتوقِّفَةٌ عَلى ما جاءَ عَنِ السَّلفِ أَمْ لَهم أَنْ يَتوسَّعوا؟

فَالجَوابُ: الأَوْلى بِالقارئِ أَنْ يَقتَصِرَ عَلى ما جاءَ بِهِ السَّلَفُ، أَمَّا غَيرُ ما جاءَ عَنِ السَّلفِ فَهَذا رُبَّما نَقولُ: إِنَّه خاضعٌ لِلتَّجربةِ إذا جُرِّبَ ونَفَعَ، فَالمَقصودُ النَّفعُ، وَإذا لَمْ يُجَرَّبْ ولكنَّ الإِنسانَ يَتخرَّصُ فَالظَّنُّ بَعضُهُ إِثمٌ.

وإِنْ سَأَلَ سائلٌ عَنِ اسْتِنطاقِ الجِنِّ بِالقُرآنِ، فَبَعضُ مَن يَرْقي يَقولُ أَنَّه اسْتَنطَقَ الجِنَّ، فَقالوا لَهُ كَذا وقَالوا لَهُ كَذا؟

فَالجَوابُ: أَنَّنا لا نَدري عَن هَذا شَيئًا، فَدائمًا يَقولونَ: إِنَّهم يَسْتَنطِقونَ ودائمًا يُعالِجونَ بِالتَّخييلِ يَضعُ القَارئُ يَدَه عَلَى رَأسِ الإِنسانِ ويَقولُ: غَمِّضْ عَينَيك، مَاذا تَرى؟ يَقولُ: أَرى كَذا وكَذا. يَقولُ: مَنْ تَتَّهِمُ؟ فَيَقولُ: أَتَّهِمُ فُلانًا.

هَذهِ طُرُقٌ غَريبةٌ تَحتاجُ إِلَى دِراسةِ أَحوالِ هَؤلاءِ القارِئينَ ومَعرفةِ كَيْف يَتوصَّلونَ إِلى هَذا، وَمِنْ أَين جَاءَهم؟ !.

ثمَّ قال اللهُ تَعالى: {وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} نَسأَلُ اللهَ العَافيةَ!.

قَولُه تَعالَى: {وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} مُبتدأٌ {فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ} مُبتدأٌ وخَبرٌ، والجُملةُ خَبرُ المُبتدأِ الأَوَّلِ الَّذي هو: {وَالَّذِينَ} يعني: كأَنَّه قال: هو لِلَّذينَ آمَنوا هُدًى وشِفاءٌ، وأَمَّا الَّذين لا يُؤمنونَ فَفي آذَانِهم وَقْرٌ لا يُؤمنونَ بِاللهِ ولا بِالرُّسلِ وَلا بِالكُتبِ هَؤلاءِ: {فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ} يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [ثِقْلٌ]؛ لأَنَّ الوَقْرَ بِمَعْنى الحِمْلِ الثَّقيلِ، قَالَ اللهُ تَعالى: {فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا} [الذاريات: ٢]، يَعْني: السَّحابَ تَحْمِلُ الماءَ الكثيرَ، فَعَلى هَذا يَكونُ {فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ} أي: ثِقْلٌ وصَمَمٌ

=

فَلا يَسمعونَ وَالعياذُ بِاللهِ.

{وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} فَلا يُبصِرونَ، فَصارتْ مَنافذُ الفَهْمِ عِندَ غَيرِ المُؤمِنينَ مَسدودةً لا يَسمَعونَ ولا يُبصِرونَ، فَلا يَصِلُ هُدَى القُرآنِ إِلَى قُلوبِهم: {أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}.

فَإِذا قَالَ قائلٌ: كيفَ يَكونُ الكَلامُ الواحدُ لِقَومٍ هُدًى وشِفاءً ولِآخرينَ عَمًى وضَلالًا، قُلنا: هَذا بِحَسَبِ ما في القَلبِ؛ لأنَّ اللهَ قَالَ: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥]، ونَحنُ نَرى الغِذاءَ الحِسِّيَّ يَكونُ لِقَومٍ غِذاءً وَشِفاءً، ويَكونُ لِآخَرينَ مَرَضًا وعِلَّةً، مَثَلًا: بَعضُ النَّاسِ يُحْجَبُ عَنِ التَّمرِ أَوِ العِنبِ أَوْ عَن كلِّ ما فيه حَلالٌ فَيَضُرُّه، وآخَرونَ يَنفعُهم الحَلالُ، مَعَ أَنَّ الطَّعامَ واحدٌ لكنَّ المَحلَّ مُختلِفٌ، يَكونُ مَحلَّ هَؤلاءِ قابلًا له، ومَحَلُّ آخَرينَ غَيرُ قابلٍ.

قال اللهُ تَعالى: {وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [فصلت: ٤٤]، {أُولَئِكَ} المُشارُ إِلَيهمُ الَّذينَ لا يُؤمنونَ وَأَشارَ إِلَيهِمْ بِصيغَةِ البَعيدِ لَيس رِفْعةً لِشأنِهم وَلَكِنْ إِظْهارًا لِلتَّبرُّؤِ مِنهم وإِبْعادهم: {أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} يَعْني: كالَّذي يُنادَى مِن مَكانٍ بَعيدٍ، والَّذي يُنادَى مِن مَكانٍ بَعيدٍ يَعوقُه عَن الحُضورِ وَالِاستجابةِ أَمرانِ:

الأمرُ الأوَّلُ: أَنَّه لِبُعدِهِ قَد لا يَسمعُ النِّداءَ.

الأمْرُ الثَّاني: أَنَّه لِبُعدِهِ قَد يَرى أَنَّ الِاستجابةَ شاقَّةٌ عَليه فَلا يُجيبُ، وعَلَى هَذا فَكَونُهم يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ يَتعلَّقُ بِندائهم آفَتانِ:

الأُولَى: يَرَوْنَ المَسافةَ بَعيدةً فَيَكسِلونَ ويَرَوْنها مِن المَشقَّةِ فَيَدَعون إِجابَةَ المُنادي.

والثَّاني: أَنَّهم لَا يُدركُون المُنادِيَ لِبُعْدهم عَنه فَلا يُجيبونَ عَلَى الوَجْهِ المَطلوبِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} أَيْ: هُمْ كَالمُنادَى مِن

=

=

مكانٍ بَعيدٍ لَا يَسمَعُ].

مسألة: حكم الاستشفاء بالقرآن الكريم.

المبحث الأول: الأدلة من الكتاب والسنة على مشروعية الاستشفاء بالقرآن الكريم

وتحته مطلبان:

المطلب الأول: نصوص القرآن الدالة على الاستشفاء بالقرآن وتفسيرها.

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

تفسير الآية: ينادي الله ﷻ عباده بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فعم جميع الخلق؛ لأن هذا القرآن مخاطب به الجميع ومأمور بالعمل بما فيه، فهو موعظة للجميع، ولا يختص به أهل الإيمان دون غيرهم.

ثم أخبر أنه ﴿موعظة﴾ أي: عظة وتذكرة من الله لعباده، يتذكر بها الموفقون، وأنه ﴿شفاء﴾ والشفاء: ما يبرئ السقم.

﴿لما في الصدور﴾: وهي القلوب، فهو شفاء لها من الجهل، والغي، والشبهات، والشهوات.

﴿وهدى﴾: يهتدى به من الضلالة.

﴿ورحمة للمؤمنين﴾: وخص المؤمنين بالذكر؛ لأنهم هم المنتفعون به دون من سواهم.

يقول الطبري مبينا معنى الآية: «يقول تعالى ذكره لخلقه: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم﴾ يعني: ذكرى تذكِّركم عقابَ الله، وتخوِّفكم وعيده، ﴿من ربكم﴾ يقول: من عند ربكم، لم يختلقها محمد ﷺ، ولم يفتعلها أحدٌ، فتقولوا: لا نأمن أن تكون لا صحةَ لها، وإنما يعني بذلك- جلّ ثناؤه- القرآنَ،

=

=

وهو الموعظة من الله.

وقوله: ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ يقول: ودواءٌ لما في الصدور من الجهل يشفي به الله جهل الجهال، فيبرئ به داءهم، ويهدي به من خلقِه من أراد هدايته به، ﴿وَهُدى﴾ يقول: وهو بيانٌ لحلال الله وحرامه، ودليلٌ على طاعته ومعصيته، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ يرحم بها من شاء من خلقه، فينقذه به من الضلالة إلى الهدى، وينجيه به من الهلاك والردى، وجعله- تبارك وتعالى- رحمة للمؤمنين به دون الكافرين به؛ لأن من كفر به فهو عليه عمى، وفي الآخرة جزاؤه على الكفر به الخلود في لظى».

ويقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالى ممتنا على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: زاجر عن الفواحش، ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: من الشبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس، ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةٌ﴾ أي: يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ [الإسراء:٨٢]، وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

ويزيد السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ معنى الآية إيضاحـًا وبيانـًا، فيقول:

«﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ «وهو هذا القرآن شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني؛ فإن ما فيه من المواعظ، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة، وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، ونمتا على تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه، وكذلك ما فيه

=

=

من البراهين والأدلة التي صرَّفها الله غاية التصريف، وبينها أحسن بيان، مما يزيل الشبه القادحة في الحق، ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين، وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية تبعته الجوارح كلها؛ فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده.

﴿وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالهدى: هو العلم بالحق والعمل به، والرحمة: هي ما يحصل من الخير، والإحسان، والثواب العاجل والآجل، لمن اهتدى به، فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين، وإذا حصل الهدى وحلت الرحمة الناشئة عنه حصلت السعادة، والفلاح، والربح، والنجاح، والفرح، والسرور».

فائدة في وجه اختصاص المؤمنين بما في القرآن من الهدى والرحمة والشفاء:

لقد اختص الله المؤمنين بكون القرآن لهم هدى، وشفاء، ورحمة؛ لأنهم هم الذين يؤمنون به، ويعملون بما فيه، ويهتدون بهديه، ويتعظون بمواعظه، وأما الكفار فإنهم لما أعرضوا عنه، وكفروا به، حرموا هدايته وما فيه من الخير، كما بين ذلك أهل التفسير.

قال قتادة: «جعل الله هذا القرآن هدى وبشرى للمؤمنين؛ لأن المؤمن إذا سمع القرآن حفظه، ووعاه، وانتفع به، واطمأن إليه، وصدق بموعود الله الذي وعده فيه، وكان على يقين من ذلك».

وقال الطبري: «فإن قال لنا قائل: أو ما كتاب الله نوراً إلا للمتقين، ولا رشاداً إلا للمؤمنين؟

قيل: ذلك كما وصفه ربنا ﷻ، ولو كان نوراً لغير المتقين، ورشاداً لغير المؤمنين لم يخصص الله ﷻ المتقين بأنه لهم هدى، بل كان يعم به جميع المنذرين، ولكنه هدى للمتقين، وشفاء لما في صدور المؤمنين، ووقر في آذان المكذبين،

=

=

وعمي لأبصار الجاحدين، وحجة لله بالغة على الكافرين، فالمؤمن به مهتد، والكافر به محجوج».

ويقول الفخر الرازي: "فإن قيل: ولم خص كونه هدى وبشرى بالمؤمنين مع أنه كذلك بالنسبة إلى الكل؟

الجواب من وجهين: الأول: أنه تعالى إنما خصهم بذلك؛ لأنهم هم الذين اهتدوا بالكتاب، فهو كقوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾[البقرة:٢]

والثاني: أنه لا يكون بشرى إلا للمؤمنين؛ وذلك لأن البشرى عبارة عن الخبر الدال على حصول الخير العظيم، وهذا لا يحصل إلا في حق المؤمنين؛ فلهذا خصهم الله به».

وقد بين الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ الآيات الدالة على اختصاصه بالمؤمنين، فقال: «صرح في هذه الآية بأن هذا القرآن {هُدىً لِلْمُتَّقِينَ}، ويفهم من مفهوم الآية أعني: مفهوم المخالفة، المعروف بدليل الخطاب: أن غير المتقين ليس هذا القرآن هدى لهم، وصرح بهذا المفهوم في آيات أخر، كقوله: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً} [فصلت: ٤٤]، وقوله {وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً} [الإسراء:٨٢]، وقوله {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ١٢٤ – ١٢٥]، وقوله تعالى: {وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً} [المائدة: ٦٤] الآيتين»

وبهذا يتبين وجه اختصاص أهل الإيمان بالقرآن اهتداء به، واستشفاء به، وعملا بما فيه، ولله الحمد والمنة على ذلك.

=

=

دلالة الآية على الاستشفاء بالقرآن: لقد أخبر الله في هذه الآية أن القرآن شفاء لما في الصدور، وهي القلوب، وهي محل الشبهات، والشهوات، والجهل، والهموم، والغموم من الإنسان، والإنسان مركب على قلبه صلاحًا وفساداً، وفي إخبار الله بذلك عن القرآن دليل على شرعية الاستشفاء به، من كل ما يعرض للقلب، فعلى من رام شفاء قلبه أن يقبل على هذا القرآن تلاوةً وعملاً واستشفاءً، فهو شفاء محض لا تشوبه شائبة.

ومن النكت اللطيفة في الآية: أن الله وصف القرآن بأنه شفاء، ولم يصفه بأنه دواء، وهذا يدل على تحقق حصول النتيجة عند الاستشفاء به، وهي زوال الداء بخلاف الدواء؛ فإنه قد يحصل به الشفاء وزوال الداء، وقد لا يحصل، فالحمد لله على منه، وكرمه، وجعله كلامه بين أيدينا، نقرأه ونستشفي به متى شئنا، لا يحول بيننا وبينه أحد.

قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ - في تقرير شفاء القرآن:

«فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به بصدق وإيمان وقبول تام، واعتقاد جازم واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبدا.

وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء؟ الذي لو نزل على الجبال لصدعها وعلى الأرض لقطعها، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه، وسببه، والحمية منه، لمن رزقه الله فهما في كتابه، وأما الأدوية القلبية، فإنه يذكرها مفصلة، ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها، قال تعالى: {أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ}[العنكبوت: ٥١]، فمَن لم يَشْفِه القرآن، فلا شفاه الله، ومَن لم يَكفِه، فلا كفاه الله»

=

=

الآية الثانية: قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً} [الإسراء:٨٢].

تفسير الآية:

يبين الله عظيم منته على عباده، حيث أنزل عليهم قرآنا جعله شفاء لأهل الإيمان منهم، من الأهواء، والشبهات، والضلال، وسائر الأدواء، وجعله رحمة لهم وموصلا لهم إلى رحمة الله، بخلاف الكفرة الظالمين؛ فإنه لا يزيدهم إلا خساراً وضلالاً وهلاكـًا.

يقول الطبري شارحا للآية ومبينا لها: «يقول تعالى ذكره: وننزل عليك يا محمد من القرآن ما هو شفاء، يستشفى به من الجهل من الضلالة، ويبصر به من العمى للمؤمنين، ورحمة لهم دون الكافرين به؛ لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله، ويحلون حلاله، ويحرمون حرامه، فيدخلهم بذلك الجنة، وينجيهم من عذابه، فهو لهم رحمة ونعمة من الله أنعم بها عليهم، {وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً} يقول: ولا يزيد هذا الذي ننزل عليك من القرآن الكافرين به، ﴿إلا خسارا﴾ يقول: إهلاكا؛ لأنهم كلما نزل فيه أمر من الله بشيء، أو نهى عن شيء كفروا به، فلم يأتمروا لأمره، ولم ينتهوا عما نهاهم عنه، فزادهم ذلك خسارا إلى ما كانوا فيه قبل ذلك من الخسار، ورجسا إلى رجسهم قبل»

ويقول ابن كثير شارحا للآية أيضا: «يقول تعالى مخبرا عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين، أي: يذهب ما في القلوب من أمراض من شك، ونفاق، وشرك، وزيغ، وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله، وهو أيضـًا رحمة يحصل فيها الإيمان، والحكمة، وطلب الخير، والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به، وصدقه، واتبعه؛ فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة، وأما

=

=

الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعدا وكفرا، والآفة من الكافر لا من القرآن»

فائدة: في بيان أن القرآن كله شفاء لا بعضه، وأن ﴿من﴾ في قوله تعالى: ﴿من القرآن﴾ بيانية، لا تبعيضية:

لقد اختلف المفسرون في نوع ﴿من﴾ في قوله تعالى في هذه الآية: ﴿من القرآن﴾ على ثلاثة أقوال، هي:

القول الأول: إنها لبيان الجنس، قاله الزمخشري، وابن عطية، وأبو البقاء

والقول الثاني: إنها للتبعيض، قاله الحوفي

والقول الثالث: إنها لابتداء الغاية، وبه جزم أبو حيان، والشوكاني.

والراجح: هو القول الأول: إنها لبيان الجنس، وإن جميع القرآن شفاء، كما جزم بذلك ابن القيم، والشوكاني، والشنقيطي وغيرهم، ويدل له ما يلي:

١- قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}[يونس:٥٧] حيث أخبر أن القرآن جميعه شفاء لما في الصدور، ولم يقتصر على شيء منه دون شيء.

٢- قوله تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ}[فصلت: ٤٤].

ووجه الاستدلال: أن الله أمر نبيه ﷺ أن يخبر أن هذا القرآن كله هدى وشفاء للمؤمنين، وتخصيص عموم الآيتين السابقتين يحتاج إلى دليل، ولا دليل، بل هاتان الآيتان مبينتان لآية الإسراء وموضحتان لها.

دلالة الآية على الاستشفاء بالقرآن:

لقد دلت هذه الآية الكريمة أن القرآن الكريم كله شفاء ورحمة للمؤمنين، والشفاء: حقيقته زوال الداء، فدل على مشروعية الاستشفاء بما جعله الله شفاء

=

=

مزيلا للأدواء، وإن من مقتضى الإيمان بالقرآن وتصديقه: العمل بما فيه، ومن ذلك: الاستشفاء به من سائر الأدواء تصديقا وعملا بالآيات التي جاء فيها الإخبار بأنه شفاء.

قال ابن القيم: «ومن المعلوم أنَّ بعض الكلام له خواصٌّ ومنافعُ مُجرَّبة، فما الظنُّ بكلام ربّ العالمين!، الذي فَضْلُهُ على كل كلامٍ كفضلِ اللهِ على خلقه، الذي هو الشفاءُ التام، والعِصْمةُ النافعة، والنورُ الهادي، والرحمة العامة، الذي لو أُنزِلَ على جبل لتَصَدَّعَ من عظمته وجلالته، قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [الإسراء: ٨٢]، و﴿مِن﴾ ههنا لبيان الجنس، لا للتبعيض، هذا أَصَحُّ القولين»

الآية الثالثة: قال تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [فصلت: ٤٤].

تفسير الآية:

يبين الله في هذه الآية الكريمة شدة تعنت الكفار وأعراضهم عن القرآن وعدم إيمانهم به، فلو جعل أعجميا لقالوا هلّا فصلت آياته، فهم كما لم يؤمنوا به مع كونه عربيا فلن يؤمنوا به لو جعله الله أعجميا.

يقول ابن كثير: «لما ذكر تعالى القرآن، وفصاحته، وبلاغته، وإحكامه في لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال ﷻ: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِين فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ١٩٨ _ ١٩٩]، وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد: {لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي} أي: لقالوا: هلا أنزل مفصلا بلغة العرب، ولأنكروا ذلك، فقالوا: أعجمي وعربي؟! أي: كيف ينزل

=

=

كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه؟!، هكذا روي هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهد،وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي وغيرهم».

ثم قال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}.

يبين الله جل وعلا أن القرآن للمؤمنين هدى يهتدون به من الضلالة إلى الحق، وشفاء لأبدانهم من الإمراض الحسية، ولقلوبهم من الشبهات والشهوات والجهل.

يقول ابن كثير:"قال ﷻ: {قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء} أي: قل يا محمد، هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب،{والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر} أي: لا يفهمون ما فيه،{وهو عليهم عمى} أي: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، كما قال سبحانه وتعالى:{وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا}.

{أولئك ينادون من مكان بعيد} قال مجاهد: يعني بعيد من قلوبهم، قال ابن جرير: معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد، لا يفهمون ما يقول، قلت: وهذا كقوله تعالى:{ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون} [البقرة:٢٣] وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم».

ويقول السعدي: «قوله:{قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء} أي: يهديهم لطريق الرشد والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية التامة، وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية؛ لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفي القلب، {والذين لا يؤمنون} بالقرآن {في آذانهم وقر} أي: صمم عن

=

=

استماعه وإعراض، {وهو عليهم عمى} أي: لا يبصرون به رشدا، ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلا ضلالا؛ فإنهم إذا ردوا الحق ازدادوا عمى إلى عماهم وغيا إلى غيهم، {أولئك ينادون من مكان بعيد} أي: ينادون إلى الإيمان ويدعون إليه فلا يستجيبون، بمنزلة الذي ينادي وهو في مكان بعيد، لا يسمع داعيا ولا يجيب مناديا، والمقصود: أن الذين لا يؤمنون بالقرآن لا ينتفعون بهداه، ولا يبصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيرا؛ لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى بإعراضهم وكفرهم».

فائدة: في بيان أن شفاء القرآن ليس خاصا بالقلوب، بل عام لها وللأبدان.

اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين:

القول الأول: قال الحسن: إنه شفاء للقلوب فقط.

والقول الثاني: ذهب الجمهور إلى أن القرآن يتضمن شفاء الأبدان، كما يتضمن شفاء القلوب، وهو الراجح؛ لأن الأصل في دلالة الألفاظ أن تحمل على العموم، وقصرها على بعض إفرادها يحتاج إلى دليل يدل على المدعى، وإن حمل الآيات الدالة على أن القرآن شفاء على عمومها هو المتعين، فالقرآن كله شفاء، وشفاء أيضا لكل داء، سواء أدواء القلوب أو أدواء الأبدان، ويؤكد رجحان هذا القول ما جاء في السنة من قول النبي ﷺ وفعله، وتقريره لأصحابه في الاستشفاء بالقرآن من الأمراض البدنية، كما سيأتي مفصلا في المطلب التالي، وهو: «ذكر نصوص السنة الدالة على الاستشفاء بالقرآن وبيانها».

دلالة الآية على الاستشفاء بالقرآن:

دلت هذه الآية الكريمة على أن القرآن الكريم للمؤمنين هدى، يهتدون به من الضلالة، وشفاء يستشفون به من كل داء، بخلاف الكافرين فإن في آذانهم وقرا ولا يزدادون به إلا عمى وبعدا عن الحق، وهذا دليل واضح على أنه لابد من

=

=

الإيمان بالله لمن أراد الانتفاع بهذا القرآن العظيم اهتداء أو استشفاء.

المطلب الثاني: ذكر نصوص السنة الدالة على الاستشفاء بالقرآن وبيانها.

لقد جاءت سنة النبي ﷺ دالة على مشروعية الاستشفاء بالقرآن الكريم من قوله وفعله وتقريره، وفيما يلي ذكر جملة من الأحاديث الدالة على ذلك:

الحديث الأول: ما اتفق عليه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلدغسيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم، والله إني لأرقي، ولكن- والله- لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم، حتى تجعلوا لنا جعلا، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه، ويقرأ: {الحمد لله رب العالمين} فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قلبة، قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له، فقال: (وما يدريك أنها رقية؟)، ثم قال: (قد أصبتم، اقسموا، واضربوا لي معكم سهما) فضحك رسول الله ﷺ.

الحديث الثاني: ما رواه البخاري، والدارقطني، وابن حبان، والبيهقي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَرُّوا بِحَي مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ وَفِيهِمْ لَدِيغٌ أَوْ سَلِيمٌ، فَقَالُوا: هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ؟ فَإِنَّ فِي الْمَاءِ لَدِيغًا أَوْ سَلِيمًا، فَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَرَقَاهُ عَلَى شَاءٍ، فَبَرَأَ، فَلَمَّا أَتَى أَصْحَابَهُ كَرِهُوا ذَلِكَ، وَقَالُوا: أَخَذْتَ عَلَى كِتَابِ اللهِ ﷻ أَجْرًا، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ

=

=

بِذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

(إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ).

بيان دلالة الحديث على الاستشفاء بالقرآن:

لقد دل هذا الحديث العظيم بطريقيه على مشروعية الاستشفاء بالقرآن الكريم من عدة وجوه:

الأول: قراءة أبي سعيد رضي الله عنه سورة الفاتحة على اللديغ، وشفاؤه من أثر اللدغ، حتى إنه قام وكأنما نشط من عقال، وهذا يدل على سرعة تأثير هذه السورة العظيمة على المريض، وأن القرآن شفاء.

الثاني: إقرار النبي ﷺ لأبي سعيد على ذلك بقوله: (وما يدريك أنها رقية).

الثالث: تصويب النبي ﷺ وتحسينه لفعل الصحابة ذلك بقوله: (أصبتم)، وفي لفظ: (أحسنتم).

الرابع: طلب النبي ﷺ من الصحابة أن يقسموا له من الجعل يدل على تمام حله، ومشروعية السبب الذي حصل به الجعل، وهو الرقية بكتاب الله.

الخامس: فهم أبي سعيد جواز الرقية بكتاب الله، مع أنه لم يكن لديه علم بجوازها حين قام بها، بدليل جوابه للنبي ﷺ لما سأله بقوله: (وما يدريك أنها رقية؟)، فقال: « شيء نفث في روعي»، وعند ابن حبان: «قلت: يا رسول الله ما دريت أنها رقية، شيء ألقاه الله في نفسي».

السادس: قول النبي ﷺ: (إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ) عند إخبار الصحابة له بأخذ الجعل على القراءة دليل بين وواضح في مشروعية الاستشفاء بالقرآن الكريم، وهذا إقرار من النبي ﷺ لهم على ذلك، بل قد فهم جمهور أهل العلم من هذا الحديث جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، واستدلوا به على ذلك، فكيف بالأمر الذي كان سببا لقول النبي ﷺ هذا، وهو أخذ الأجرة على

=

=

الرقية بكتاب الله.

السابع: قول النبي ﷺ للصحابة -كما في حديث ابن عباس ﵄ لما أخبروه بأخذ الجعل-: (خذوا منهم)، فأمره دليل على مشروعية أخذ الجعل، ومشروعية فعل ما كان سببا له، وهي الرقية بالفاتحة.

قال ابن حبان: «قوله ﷺ: (خذها) أراد به جواز ذلك الشيء المأخوذ مع جواز استعماله في المستقبل؛ لأن الشاء أخذها الراقي قبل أن يأتي النبي ﷺ، ثم سأل بعد ذلك، فقال له النبي ﷺ: (خذها)، أراد به جواز فعل الماضي والمستقبل معا».

الثامن: ضحك النبي ﷺ لما أخبروه بأخذ الجعل، وقوله عند ذلك: (وما يدريك أنها رقية) إقرار منه لذلك، والإقرار على أخذ الجعل دليل على مشروعية ما حصل أخذ الجعل بسببه، وهو الاستشفاء بالقرآن.

التاسع: قول الصحابة: «فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مِنَّا، مَا كُنَّا نَظُنُّهُ يُحْسِنُ رُقْيَةً» ظاهر أنهم يظنون به عدم معرفة الرقية، ومع ذلك لم ينكروا عليه اجتهاده بقراءة سورة الفاتحة على المريض، فدل على أن الاستشفاء بكتاب الله متقرر عندهم كما هو ظاهر القرآن.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض تقريره للاستشفاء بفاتحة الكتاب بعد أن ذكر هذا الحديث:

«فما الظنُّ بفاتحة الكتاب التي لم يُنزل في القرآن، ولا في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزَّبور مِثلُها، المتضمنة لجميع معاني كتب الله، المشتملة على ذكر أُصول أسماء الرب تعالى ومجامعها، وهى: الله، والرَّب، والرحمن، وإثبات المعاد، وذكرِ التوحيدين: توحيدِ الربوبية، وتوحيدِ الإلهية، وذكر الافتقار إلى الربِّ سُبحانه في طلبِ الإعانة وطلب الهداية، وتخصيصه سبحانه بذلك، وذكر أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعِهِ وأفرَضِه، وما العبادُ أحوج شيء إليه، وهو

=

=

الهدايةُ إلى صِراطه المستقيم، المتضمن كمالَ معرفته وتوحيده وعبادته بفعل ما أمرَ به، واجتنابِ ما نَهَى عنه، والاستقامة عليه إلى الممات، ويتضمن ذِكْر أصنافِ الخلائق وانقسامهم إلى مُنْعمٍ عليه بمعرفة الحق، والعمل به، ومحبته، وإيثاره، ومغضوب عليه بعدُوله عن الحق بعد معرفته له، وضال بعدم معرفته له، وهؤلاء أقسامُ الخليقة مع تضمنها لإثبات القَدَر، والشرع، والأسماء، والصفات، والمعاد، والنبوات، وتزكيةِ النفوس، وإصلاح القلوب، وذكر عدل الله وإحسانه، والرَّدِّ على جميع أهل البدع والباطل... وبالجملة: فما تضمنته الفاتحةُ مِن إخلاص العبودية والثناء على اللهِ، وتفويضِ الأمر كُلِّه إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النِّعَم كُلِّها، وهى الهداية التي تجلبُ النِّعَم، وتدفَعُ النِّقَم، من أعظم الأدوية الشافية الكافية».

الحديث الثالث: ما رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي بسند صحيح، عن خارجة بن الصلت، عن عمه، قال: أقبلنا من عند النبي ﷺ، فأتينا على حي من العرب، فقالوا: أنبئنا أنكم جئتم من عند هذا الرجل بخير، فهل عندكم دواء أو رقية؟ فإن عندنا معتوها في القيود، قال: فقلنا: نعم، قال: فجاءوا بالمعتوه في القيود، قال: فقرأت بفاتحة الكتاب ثلاثة أيام غدوة وعشية أجمع بزاقي، ثم أتفل، قال: فكأنما نشط من عقال، قال: فأعطوني جعلا، فقلت: لا حتى أسأل النبي ﷺ، فسألته، فقال:

(كل لعمري من أكل برقية باطل لقد أكلت برقية حق).

بيان دلالة الحديث على الاستشفاء بالقرآن:

دل هذا الحديث على مشروعية الاستشفاء بالقرآن من عدة وجوه:

١- قراءة الصحابي لسورة الفاتحة على المعتوه، وشفاؤه بسبب ذلك.

=

=

٢- إقرار النبي ﷺ له على ذلك بقوله: (كل).

٣- قول النبي ﷺ: (لقد أكلت برقية حق)، حيث وصف هذه الرقية بأنها حق، وهذا واضح في مشروعية الاستشفاء بالفاتحة، ومثلها بقية القرآن.

الحديث الرابع: ما رواه البخاري، ومسلم عن عائشة: «أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات، ومسح عنه بيده، فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه طفقت أنفث على نفسه بالمعوذات التي كان ينفث، وأمسح بيد النبي ﷺ عنه».

بيان دلالة الحديث على الاستشفاء بالقرآن:

دل هذا الحديث العظيم أن الأسوة ﷺ كان إذا اشتكى ومرض يستشفي بالمعوذات، ويعالج بها نفسه من كل شكوى، وهذا- والله أعلم- منه كالبيان والتفسير لقوله: ﴿قل هو للذين امنوا هدى وشفاء﴾، وكالدعوة إلى ذلك، فعلينا أن نتأسى به؛ فإن ربنا جل وعلا يقول: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

الحديث الخامس: ما رواه ابن حبان عن عائشة: أن رسول الله ﷺ دخل عليها وامرأة تعالجها أو ترقيها فقال: (عالجيها بكتاب الله).

بيان دلالة الحديث على الاستشفاء بالقرآن:

دل هذا الحديث على مشروعية الاستشفاء بالقرآن جميعه؛ لأنه ﷺ أمر المرأة المعالجة أن تعالج أم المؤمنين عائشة بكتاب الله، والكتاب يشمل جميع القرآن، لا يختص ببعضه دون بعض.

الحديث السادس: ما رواه البخاري ومسلم واللفظ له عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا مَرِضَ مَرَضَهُ الَّذِى مَاتَ فِيهِ جَعَلْتُ أَنْفُثُ عَلَيْهِ، وَأَمْسَحُهُ بِيَدِ نَفْسِهِ؛ لأَنَّهَا كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْ

=

=

يَدِى».

بيان دلالة الحديث على الاستشفاء بالقرآن: دل هذا الحديث الكريم على أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى أحد من أهله عالجه بالقراءة عليه والنفث بالمعوذات، وفي هذا دليل على مشروعية الاستشفاء بالقرآن الكريم؛ لأنه تعليم منه ﷺ لأمته، وهذا شامل لجميع كتاب الله؛ لأنه لا دليل على تخصيص ذلك بالمعوذات، بل هذا الذي يدل عليه وصف الله له بالشفاء، كما مر بيانه في مطلب: نصوص القرآن الدالة على الاستشفاء بالقرآن.

الحديث السابع: ما رواه مسلم، وأبو داود، وابن حبان، والطبراني، والحاكم، والبيهقي عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ، قَالَ: كُنَّا نَرْقِي فِى الْجَاهِلِيَّةِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: (اعْرِضُوا عَلَىَّ رُقَاكُمْ، لاَ بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ).

بيان دلالة الحديث على الاستشفاء بالقرآن: لما سأل الصحابة النبي ﷺ عما يراه في الرقى التي كانوا يرقون بها في الجاهلية أجابهم بالجواز ما لم يكن فيها شرك، فإخباره ﷺ بجواز الرقى مطلقا- ما دامت خالية من الشرك- دليل على مشروعية الرقية بالقرآن مطلقا، بل هي أعظم الرقى وأنفعها على الإطلاق؛ لأنها بكلام الله.

وقد نص العلماء على أن الرقية إذا اجتمعت فيها ثلاثة شروط، وهي: أن تكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بذات الله تعالى فهي جائزة بالاتفاق، لا يختلفون في ذلك، وهذه الشروط متحققة في كتاب الله، فهو أولى وأحسن ما يستشفي به المسلم.

الحديث الثامن: ما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال:

=

=

أرْخَص رسول الله ﷺ في رُقْيَةِ الحَيَّةِ لبني عمرو بن حزم، قال أبو الزبير: فسمعتُ جابر بن عبد الله، يقول: لَدَغَتْ رجلا منا عَقْرَب، ونحنُ جُلوس مع رسول الله ﷺ، فقال رجل: يا رسول الله، أرْقي؟ قال: (مَن استطاع منكم أن ينفعَ أخاه فَلْيَفْعَلْ).

وفي رواية: قال جابر: كان لي خال يَرْقي من العقرب، فنهى رسول الله ﷺ عن الرُّقَى، قال: فأتاه، فقال: يا رسول الله، إنَّك نَهيْتَ عن الرُّقى، وإني أرْقِي من العقرب؟ فقال: (مَن استطاع منكم أن ينفعَ أخاه فليفعل).

وفي أخرى: قال: نهى رسول الله ﷺ عن الرُّقى، فجاء آلُ عمرو بن حزم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنه كانت عندنا رُقْية نرقي بها من العقرب، وإنك نهيت عن الرُّقى، قال: فعرضوها عليه، فقال: (ما أرى بأسا، من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل).

بيان دلالة الحديث على الاستشفاء بالقرآن: دل الحديث برواياته الثلاث على إذن النبي ﷺ لكل من سأله عن الرقى بقوله: (لا باس)، بل حث المسلم على نفع أخيه، بقوله: (من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل)، ولا شك أن الرقية بالقرآن للمريض نفع له، فيكون ذلك داخلاً في جملة ما أمر به النبي ﷺ بهذا الحديث، وهذا يدل على مشروعية الاستشفاء بالقرآن.

المبحث الثاني: كيفية الاستشفاء بالقرآن، وصفات الراقي، والمرقي، ومحاذير يجب تجنبها

وتحته أربعة مطالب:

المطلب الأول: ذكر الصفات الواردة عن النبي ﷺ في كيفية التداوي بالقرآن والسنة.

إن الناظر فيما ورد من نصوص السنة في الرقية يتبين له أنها وردت بعدة صفات،

=

=

وبيانها كالتالي:

الصفة الأولى: الرقية بالقراءة وحدها:

لقد كان النبي ﷺ في بعض الأحيان يكتفي في الرقية بمجرد القراءة، كما دل على ذلك جملة من الأحاديث، منها:

الحديث الأول: ما اتفق عليه البخاري ومسلم عن عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَتَى مَرِيضًا، أَوْ أُتِيَ بِهِ قَالَ: (أَذْهِبِ البأس، رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا).

الحديث الثاني: ما رواه مسلم وأحمد عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النبي ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ إِذَا اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ رَقَاهُ جِبْرِيلُ، قَالَ: «بِاسْمِ اللهِ يُبْرِيكَ، وَمِنْ كُلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، وَشَرِّ كُلِّ ذي عَيْنٍ».

الحديث الثالث: ما رواه مسلم، وأحمد، والترمذي عَنْ أَبِى سَعِيدٍ: أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النبي ﷺ، فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، اشْتَكَيْتَ؟»، فَقَالَ: (نَعَمْ)، قَالَ: «بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شيء يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ».

الصفة الثانية: الرقية بالقراءة والنفث: لقد دلت جملة من الأحاديث أن النبي ﷺ كان ينفث أحيانا مع رقيته للمريض، وكذلك أقر بعض أصحابه على ذلك، وسواء كان النفث بعد القراءة أو معها، وإليك ذكر هذه الأحاديث:

الحديث الأول: ما رواه النسائي، وابن ماجة، وابن أبي شيبة عن عائشة «أن النبي ﷺ كان ينفث في الرقية».

الحديث الثاني: ما اتفق عليه البخاري ومسلم عن عَائِشَةَ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمَعَوِّذَاتِ، وَيَنْفُثُ».

وفي رواية لمسلم قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ

=

=

بِالْمُعَوِّذَاتِ»

الصفة الثالثة: الرقية بالقراءة والتفل:

لقد أقر النبي ﷺ رجلين من أصحابه-كل منهما تفل مع قراءة الرقية- على ما فعلاه، فدل ذلك على مشروعية هذه الصفة، وإليك ذكر الحديثين الواردين في ذلك:

الحديث الأول: حديث أبي سعيد ﷺ في رقية سيد الحي، وقد مر، وفيه: «فجعل يقرأ بأم القرآن، ويجمع بزاقه، ويتفل فبرأ»

الحديث الثاني: ما رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، عن خارجة بن الصلت، عن عمه، قال:

«أقبلنا من عند النبي ﷺ، فأتينا على حي من العرب، فقالوا: أنبئنا أنكم جئتم من عند هذا الرجل بخير، فهل عندكم دواء أو رقية؟ فإن عندنا معتوها في القيود، قال: فقلنا: نعم، قال: فجاءوا بالمعتوه في القيود، قال: فقرأت بفاتحة الكتاب ثلاثة أيام غدوة وعشية أجمع بزاقي، ثم أتفل، قال: فكأنما نشط من عقال...» الحديث، وقد سبق.

الحديث الثالث: ما رواه أحمد، والنسائي، وابن أبي شيبة، والطبراني عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حَاطِبٍ قَالَ: وَقَعَتْ الْقِدْرُ عَلَى يَدِي، فَاحْتَرَقَتْ يَدِي، فَانْطَلَقَ بِي أَبِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ يَتْفُلُ فِيهَا، وَيَقُولُ: (أَذْهِبْ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ) وَأَحْسِبُهُ قَالَ: (وَاشْفِهِ إِنَّكَ أَنْتَ الشَّافِي)

الصفة الرابعة:الرقية بالقراءة والمسح:

لقد كان من هدي النبي ﷺ أنه يمسح بيده اليمنى على المريض، عند ما يقرأ عليه الرقية، يدل لذلك ما يلي:

الحديث الأول: ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: «أن رسول الله ﷺ

=

كان يُعَوِّذُ بعض أهلِه، يَمْسحُ بيده اليمنى، ويقول:
(اللهم ربَّ الناس، أذهب الباسَ، اشفِ أنتَ الشافي، لا شفاءَ إلا شفاؤكَ، شفاءا لا يُغَادِرُ سَقَما).
الحديث الثاني: ما رواه أحمد، والطبراني، وابن حبان، والطحاوي، والحاكم عن طلق بن علي قال:
«لدغتني عقرب عند نبي الله ﷺ فرقاني، ومسحها بيده».
الصفة الخامسة: الرقية بالقراءة، ووضع اليد على مكان الألم، ثم المسح:
لقد كان من هدي النبي ﷺ أنه يضع يده على الألم، أو يأمر المريض بذلك، ثم يمسح بها.
والفرق بين هذه الصفة والتي قبلها: أنه هنا كان يضع يده ثم يمسح، وهناك كان يمسح فقط، ويدل على هذه الصفة ما يلي من الأحاديث:
الحديث الأول: ما رواه البخاري وأبو داود عن عَائِشَةَ بِنْتِ سَعْدٍ أَنَّ أَبَاهَا قَالَ: «اشْتَكَيْتُ بِمَكَّةَ فجاءني النبي ﷺ يعودني، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى جبهتي، ثُمَّ مَسَحَ صدري وبطني، ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا، وَأَتْمِمْ لَهُ هِجْرَتَهُ).
الحديث الثاني: ما رواه مسلم، ومالك، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثقفي أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:
(ضَعْ يَدَكَ عَلَى الذي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ بِاسْمِ اللهِ ثَلاَثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ).
وفي رواية للنسائي: (ضع يمينك على المكان الذي تشتكي، فامسح به سبع مرات، وقل: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد في كل مسحة).
الصفة السادسة:الرقية بالقراءة والنفث مع المسح:

=

لقد أقر النبي ﷺ الرقية بالقراءة مع النفث والمسح، وهذا يدل على مشروعية هذه الصفة، ويدل لذلك ما جاء في بعض طرق حديث أبي سعيد ﷺ في رقية سيد الحي، كما عند عبد بن حميد، والنسائي، ولفظه: «فجعلت أقرأ فاتحة الكتاب، وأمسح المكان الذي لدغ حتى برأ، فأعطونا الغنم».

وفي رواية أخرى: «فجعل يقرأ بأم القرآن، ويجمع بزاقه، وينفث، فبرأ الرجل فأتوا بالشاء».

فدل مجموع الروايتين على أن أبا سعيد ﷺ جمع بين القراءة والنفث مع المسح، والنبي أقره ولم ينكر عليه.

الصفة السابعة: الرقية بالقراءة، مع وضع الريق على الإصبع، ثم وضعها على الأرض، ثم على المريض.

يدل لهذه الصفة ما رواه البخاري ومسلم، واللفظ له، عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى الإِنْسَانُ الشَّيء مِنْهُ، أَوْ كَانَتْ بِهِ قَرْحَةٌ أَوْ جَرْحٌ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِصْبَعِهِ هَكَذَا- وَوَضَعَ سُفْيَانُ سَبَّابَتَهُ بِالأَرْضِ، ثُمَّ رَفَعَهَا-: (بِاسْمِ اللهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، لِيُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا).

قال النووي مبينا هذه الصفة:

«معنى الحديث: أنه أخذ من ريق نفسه على إصبعه السبابة، ثم يضعها على التراب، فيعلق بها منه شيء، فيمسح به على الموضع الجريح أو العليل، ويقول هذا الكلام حالة المسح».

مسألة: اختلف العلماء بالمراد بقوله: (أرضنا)، هل هو خاص بالمدينة أم عام في جميع الأرض؟، على قولين:

قال النووي، وابن القيم: «قال جمهور العلماء: المراد بأرضنا هنا جملة الأرض، وقيل: المدينة خاصة لبركتها)، وذكر ملا علي قاري القولين، وزاد: قلت:

=

=

ويحتمل أن يراد بأرضنا: أرض الإسلام».

قلت: الأظهر قول الجمهور، لعدم الدليل على خصوصية ذلك بالمدينة، قال شيخنا عبد المحسن العباد حفظه الله: «وتعميمه أظهر؛ لأنه لم يأت شيء يبين أن هذا خاص بالمدينة، وأنه لا يستعمل إلا في المدينة».

الصفة الثامنة: الرقية بوضع الملح في الماء، ثم المسح به على مكان الألم، مع القراءة للديغ:

يدل لهذه الصفة ما رواه ابن أبي شيبة، واللفظ له، والطبراني، وأبو نعيم، والبيهقي عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ:

«بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ يُصَلِّي، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى الأَرْضِ فَلَدَغَتْهُ عَقْرَبٌ، فَتَنَاوَلَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِنَعْلِهِ فَقَتَلَهَا، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ: (لَعَنَ اللهُ الْعَقْرَبَ، لاَ تَدَعُ مُصَلِّيًا، وَلاَ غَيْرَهُ) أَوْ (نَبِيًّا، وَلاَ غَيْرَهُ) ثُمَّ دَعَا بِمِلْحٍ وَمَاءٍ، فَجَعَلَهُ فِي إِنَاءٍ، ثُمَّ جَعَلَ يَصُبُّهُ عَلَى إِصْبَعِهِ حَيْثُ لَدَغَتْهُ، وَيَمْسَحُهَا وَيُعَوِّذُهَا بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ».

وفي رواية: «ويقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾».

وفي رواية: «وجعل يمسح عليها، ويقرأ: ﴿ قل هو الله أحد﴾ و﴿ قل أعوذ برب الفلق﴾ و {قل أعوذ برب الناس} ».

الصفة التاسعة: الرقية بالقراءة، مع خلط التراب بالماء والنفث فيه، ثم صبه على المريض:

يدل له ما رواه أبو داود، والنسائي، والبخاري في التاريخ الكبير، والطبراني عن ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ: أن رَسُولِ اللهِ ﷺ دَخَلَ عليه، وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقَالَ: (اكْشِفِ الْبَأْسَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ بن شماس، ثُمَّ أَخَذَ تُرَابًا مِنْ بَطْحَانَ، فَجَعَلَهُ فِي قَدَحٍ، ثُمَّ نَفَثَ عَلَيْهِ بِمَاءٍ، وَصَبَّهُ عَلَيْهِ»

=

=

الصفة العاشرة: الرقية بكتابة شيء من القرآن، ثم صب الماء عليه، وشربه أو غسل البدن به:

هذه الصفة لم يرد عن النبي ﷺ ما يدل على جوازها صراحة، ولهذا اختلف العلماء في جوازها على قولين:

الأول: ذهب إبراهيم النخعي، وابن سيرين، وابن العربي إلى منعها.

الثاني: ذهب الجمهور إلى جوازها.

واستدل الجمهور على جوازها بما يلي:

أ-ما رواه ابن أبي شيبة، وابن السني عن ابن عباس، قَالَ: إِذَا عَسِرَ عَلَى الْمَرْأَةِ وَلَدُهَا، فَيَكْتُبُ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ وَالْكَلِمَاتِ فِي صَحْفَةٍ، ثُمَّ تُغْسَلُ، فَتُسْقَى مِنْهَا: «بِسْمِ اللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً، أَوْ ضُحَاهَا}[سورة النازعات:٤٦]{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}»[الأحقاف:٣٥].

قلت: وهذا الأثر ضعيف؛ لأن فيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهو صدوق سيء الحفظ جداً، كما قال ابن حجر في التقريب.

ب- وروى ابن أبي شيبة عن ليث ومجاهد: أنهما لم يريا باسًا أن يكتب آية من القرآن، ثم يسقاه صاحب الفزع.

وهذا القول هو: الراجح، ويستدل له بما يلي:

١-أن الله وصف القرآن بأنه شفاء، فكيفما استعمل في غير صفة محرمة فهو جائز، وكتابته ومحوه من ذلك الجائز.

٢- أن الأصل في التداوي: الحل والإباحة، كما قال النبي ﷺ:

=

(...عباد الله تداووا، فإن الله ﷻ لم يضع داء إلا وضع لـه شفاء، غير داء واحد)، قالوا: ما هو؟ قال: (الهرم).

٣- أنه فعله جمع من السلف كمجاهد، والليث، وسعيد بن جبير، والإمام أحمد، والقاضي عياض وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم وغيرهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « ويجوز أن يكتب للمصاب وغيره من المرضى شيئ من كتاب الله وذكره بالمداد المباح، ويغسل، ويسقى، كما نص على ذلك أحمد وغيره».

وقال ابن القيم: «ورخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعل الله فيه».

وقالت اللجنة الدائمة بالمملكة العربية السعودية برئاسة الشيخ عبد العزيز بن باز في جوابها على هذه المسألة بقولها:

«أما كتابة الآيات بماء الورد والزعفران ونحو ذلك، ثم غمرها في الماء وشربها، أو القراءة على العسل واللبن ونحوها ودهن الجسم بالمسك وماء الورد المقروء عليه آيات قرآنية فلا بأس به، وعليه عمل السلف الصالح».

قلت: وهذه الصفة وإن كانت جائزة فتركها أولى؛ لأن فيما ثبت عن النبي ﷺ غنية وكفاية عما لم يثبت عنه.

قال الشيخ صالح الفوزان: "أما كتابة الآيات في ورقة، ثم تمحى هذه الورقة في ماء ويشربها المريض فهذا رخص فيه كثير من العلماء قياسًا على ما ورد، وأخذًا لعموم الاستشفاء بالقرآن الكريم؛ لأن الله أخبر أنه شفاء فلا بأس به- إن شاء الله- ولكن الأولى: هو ما ذكرناه، وهو الوارد عن الرسول ﷺ، وهو القراءة على المريض مباشرة أو القراءة في ماء ويشربه».

المطلب الثاني: الصفات الواجب توافرها في الراقي:

أولاً: صحة المعتقد، وهو أن يكون على منهج السلف الصالح، وهو ما كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه، والتابعون لهم بإحسان، ويكون متبعا لهم، ويحذر من مخالفتهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١].

وقال تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١].

وقال تعالى:﴿ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر:٧].

وقال تعالى:﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

وقال ﷺ: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ)، متفق عليه.

وأعظم المخالفة: ارتكاب الشرك بنوعيه: الأكبر والأصغر، ثم البدع، ثم كبائر الذنوب، قال تعالى محذرا من الشرك ومبينا خطره: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ) قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: (الرِّيَاءُ يَقُولُ اللهُ ﷻ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا

=

فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً).

ثانياً: أن يكون مخلصاً لله سبحانه وتعالى، مبتغيا برقيته وجه الله والثواب العظيم، ومحتسباً أجرها على الله، مع نفع إخوانه، والإحسان إليهم، وتفريج كرباتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥].

وقال النبي ﷺ: (إنَّ اللهَ ﷻ لا يقْبَلُ منَ العْمَلِ إلاَّ ما كان له خالصاً، وَابتُغِيَ به وجْهُهُ).

وقال ﷺ أيضاً: (مَن استطاع منكم أن ينفعَ أخاه فَلْيَفْعَلْ).

ثالثا: الاستقامة على طاعة الله، والمحافظة على الإتيان بالفرائض، كالتوحيد والصلاة وسائر ما أوجب الله، وكذلك الإكثار من النوافل،فإنها سبب لحفظ الله للعبد وتوفيقه وتسديده ، ومحاربة الله لمن عاداه؛ قال النبي ﷺ: (قال الله تعالى: من عادى لي وَلِيّا، فقد آذَنتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مِنْ أداءِ ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّهُ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته).

رابعاً: البعد عن معصية الله وما نهى الله عنه؛ فإنها سبب كل شر، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

خامساً: أن يكون قوي الإيمان وقوي الصلة بالله سبحانه وتعالى، ويتجلى ذلك في النقاط التالية:

أ- أن يكون معتمداً على الله، متوكلا عليه، مفوضا أموره إليه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣] ويقول النبي ﷺ: (يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا

=

=

عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ..) الحديث.

ب- أن يكون مكثراً من ذكر الله، ملازما له، وخاصة قراءة القرآن الذي جعله الله هدى، ونوراً، ورحمةً، وشفاء لما في الصدور، وشفاء من كل داء، وهو أعظم الذكر، وبه تطمئن القلوب، قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

ج-أن يكون محافظـًا على الأدعية والأذكار في وقتها.

د-أن يكثر من سؤال الله الحفظ والكلاءة.

سادسـًا: الاعتقاد الجازم بأن القرآن شفاء محض لكل مرض، فمتى ما وجدت الأسباب وانتفت الموانع حصل الشفاء بإذن الله، وقد يتأخر الشفاء أو لا يحصل؛ لعدم وجود السبب أو لوجود المانع.

سابعـًا: أن يكون على قدر من العلم الشرعي، خاصة في باب الرقية، فيفعل الرقية المشروعة مراعيـًا آدابها وضوابطها وما ثبت منها، ويحذر من الرقى الشركية أو مجهولة الحال، قال ابن تيمية: «نهى علماء المسلمين عن الرقى التي لا يفقه معناها؛ لأنها مظنة الشرك، وإن لم يعرف الراقي أنها شرك»

وكذلك يكون على علم بما يتعلق بالجن من حيث معرفة ضعفهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

ولا يخاف منهم أو من تهديداتهم؛ لأن المتلبس منهم بالإنسي ظالم متعد يجب ردعه عن ظلمه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « فصل: إذا عرف الأصل في هذا الباب فنقول: يجوز، بل يستحب، وقد يجب أن يذب عن المظلوم، وأن ينصر؛ فإن نصر المظلوم مأمور به بحسب الإمكان... وأيضـًا: ففيه تفريج كربة هذا المظلوم...لكن ينصر بالعدل كما أمر الله ورسوله، مثل الأدعية والأذكار

=

=

الشرعية، ومثل أمر الجني ونهيه، كما يؤمر الإنسي وينهى، ويجوز من ذلك ما يجوز مثله في حق الإنسي، مثل أن يحتاج إلى انتهار الجني وتهديده، ولعنه، وسبه».

ويجب عليه أن يعرف أنهم كذبة لا يصدقون، والكذب عليهم غالب، كما قال النبي ﷺ: (صدقك وهو كذوب) في قصة الجني الذي خاطب أبا هريرة ثلاث ليال، ثم أمره بقراءة آية الكرسي عند النوم.

ولا يبني على كلامهم شيء من التصديق، بل يجب على الراقي أن ينبه أولياء المريض إلى عدم تصديق الجن فيما يسمعون من أقوالهم أثناء الرقية، وأنهم يكذبون، ولا يجوز تصديقهم؛ لأنهم ربما يريدون بكلامهم المكر، والكيد، وإيقاع الشحناء بين المريض وبعض أقاربه، أو بينه وبين بعض أصدقائه.

كما ينبغي أن لا يفتح لهم باب الحديث والكلام إلا بحدود الضرورة؛ لأنهم بذلك يتنفسون الصعداء، حينما يكف القاري عن تلاوة كلام الله عليهم، ويكلمهم، فيجدون ذلك فرصه تخف بها وطأة القراءة وتأثيرها عليهم، فينبغي التنبه لهذا الأمر.

ثامناً: الدعوة إلى الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سواء كان مع المرقي أو مع الجني، فإذا رأى على المريض بعض آثار المعاصي يأمره بالمعروف، وينهاه عن المنكر، ويرشده إلى الاستقامة على دين الله، ويبين أن ما أصابه إنما هو بسبب ذنوبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠] ؛ فإن المريض في هذه الحال الغالب عليه أنه أذن صاغية ومهيأ لقبول النصح والتوجيه.

وكذلك يأمر الجن بالإسلام إن كان كافرا، ويأمره بالخروج من المريض، وعدم أذيته له، وينصحه بما يناسب المقام، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإذا كان

=

=

الجن أحياء، عقلاء، مأمورين، منهيين، لهم ثواب وعقاب، وقد أرسل إليهم النبي ﷺ، فالواجب على المسلم أن يستعمل فيهم ما يستعمله في الإنس، من الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والدعوة إلى الله، كما شرع الله ورسوله، وكما دعاهم النبي ﷺ، ويعاملهم إذا اعتدوا بما يعامل به المعتدون، فيدفع صولهم بما يدفع صول الإنس...» إلى أن قال: «...والمقصود أن الجن إذا اعتدوا على الإنس أخبروا بحكم الله ورسوله، وأقيمت عليهم الحجة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، كما يفعل بالإنس لأن الله يقول: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}[الإسراء:١٥]، وقال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا}[الأنعام:١٣٠]».

تاسعًا: أن تكون الرقية بكتاب الله، أو بما ثبت من الأدعية النبوية، وأن يقتصر على ذلك، وفيهما الكفاية والغنية عما سواهما.

عاشراً: يستر على المرضى، ولا يفشي أسرارهم، ولا يذكر أحوالهم وما حصل منهم، إلا بقدر الحاجة لمن يعنيه أمرهم، إذا اقتضت المصلحة ذلك.

حادي عشر: أن يرفع معنوية المريض، ويطيب نفسه، ويفاءله بالشفاء، وكذلك يفعل مع أهله؛ لأن شعور الإنسان بالشفاء له أثر على المرض، كما أشار إلى ذلك العلماء عند زيارة المريض.

قال ابن القيم: « فصل: في هَدْيه ﷺ في علاج المرضى بتطييب نفوسهم، وتقوية قلوبهم، روى ابن ماجه في سننه من حديث أبى سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ:

(إذا دَخَلْتُم على المَرِيضِ، فَنَفِّسوا لَهُ في الأجَلِ؛ فإنَّ ذَلِكَ لا يَرُدُّ شيئًا، وَهُوَ يُطَيِّبُ نَفْسَ المريضِ).

=

=

وفى هذا الحديث نوعٌ شريفٌ جداً من أشرف أنواع العلاج، وهو الإرشاد إلى ما يُطيِّبُ نفسَ العليل من الكلام الذي تقوى به الطبيعة، وتنتعشُ به القُوَّة، وينبعِثُ به الحارُّ الغريزي، فيتساعدُ على دفع العِلَّة أو تخفيفها الذي هو غايةُ تأثير الطبيب.

وتفريح نفس المريض، وتطييبُ قلبه، وإدخالُ ما يسُرُّه عليه، له تأثيرٌ عجيب في شفاء عِلَّته وخِفَّتها؛ فإنَّ الأرواح والقُوَى تقوى بذلك، فتُسَاعِدُ الطبيعة على دفع المؤذي، وقد شاهد الناس كثيراً من المرضى تنتعِشُ قواه بعيادة مَن يُحبونه، ويُعظِّمونه، ورؤيتهم لهم، ولُطفهم بهم، ومكالمتهم إياهم، وهذا أحدُ فوائد عيادة المرضى التي تتعلق بهم؛ فإنَّ فيها أربعة أنواع من الفوائد: نوعٌ يرجع إلى المريض، ونوعٌ يعود على العائد، ونوعٌ يعود على أهل المريض، ونوعٌ يعود على العامة».

المطلب الثالث: الصفات الواجب توافرها في المرقي.

سبق أن ذكرنا جملة من الصفات الواجب توافرها في الراقي، وهي كذلك متعينة في حق المرقي، وهي:

أولاً: صحة المعتقد.

ثانيـًا: الإخلاص لله.

ثالثـًا: الاستقامة على طاعة الله.

رابعـًا: البعد عن معصية الله.

خامسـًا: قوة الإيمان.

سادسـًا: الاعتقاد بأن القرآن شفاء.

سابعـًا: الاعتقاد الجازم بأن النفع والضر من الله وحده لا شريك له، وأن الشفاء بكلام الله لا بالراقي، نعم لاشك أن الرقاة يتفاوتون في درجة الصلاح والتقى،

=

=

وتتفاوت درجة تأثير قراءتهم تبعاً لذلك، لكن النفع من الله وبكتابه، والقرآن شفاء لكل أحد، ومن كل أحد من المسلمين.

ثامناً: عدم العجلة في حصول النتيجة، وعدم اليأس عند تأخرها، فقد سبق معنا أن الصحابي رقى مريضاً ثلاثة أيام صباحاً ومساءً.

ومما ينبغي مواصلة القراءة والاستمرار؛ ولهذا ينبغي لكل شاك أن يقرأ على نفسه بنفسه، أو يقرأ أحد أقاربه عليه؛ لأن الراقي قد لا يطيل القراءة، لكن المريض أو قريبه المبتلى به سيبذل ما يستطيع في سبيل سلامته وعافيته.

كما ينبغي عدم التوقف عن القراءة عند الشعور بالتعب، أو الخوف، أو النوم؛ لأن هذا كله من الشيطان؛ ليصد القاري عن كتاب الله، الذي هو السلاح الذي من قاتل به لا ينثني ولا يهزم.

تاسعاً: الصبر والاحتساب لما أصابه، والرضا بقضاء الله وقدره.

عاشراً: حسن الظن بالله بأنه سيشفيه، وانتظار الفرج منه.

حادي عشر: قوة العزيمة، وقوة الإرادة، ورفع معنويات نفسه، لدفع ما فيه، وعدم الاستسلام؛ فإن لذلك أثرا كبيرا على النفس، كما سبق ذكر كلام ابن القيم عنه.

ثاني عشر: عدم الذهاب إلى أحد من الرقاة والمعالجين، إلا بعد معرفة ثقته وسلامته من مخالفة الشرع، فلا يجوز الذهاب إلى الساحر، أو الكاهن، أو العراف.

المطلب الرابع: محاذير يجب تجنبها.

أخي الراقي، إليك جملة من المحاذير التي يجب عليك تجنبها، حتى لا تقع في الإثم والمخالفة، فإنك اليوم تعمل، وغدا بعملك تجزى، ولا ينجيك بين يدي الله إلا ما كان لله خالصا، وكنت فيه لرسول الله ﷺ متابعا.

=

=

ومن هذه المحاذير:

المحذور الأول: فتنة جمع المال ، فإياك أن يكون همك جمع المال؛ فإن من طبيعة النفس البشرية حب المال، والسعي في تحصيله، والبخل في إنفاقه، إلاّ من رحم الله، قال تعالى مخبراً عن جنس الإنسان: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨] و﴿الخير﴾: المال، كما قال أهل التفسير، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:١٤].

وقد حذر النبي ﷺ أمته من الدنيا، فقال: (إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ).

وكثير من الرقاة قد وقعوا في هذا المرتع الوخيم، وصار هم أحدهم: كسب المال، فينبغي الحذر من ذلك، نعم لا بأس أن يأخذ أجراً معقولاً على الرقية؛ لإذن النبي ﷺ بذلك، كما سبق بذلك الحديث، لكن بقدر معقول، ولا يكون الهدف من الرقية هي جمع المال، وقد توسع الناس في هذا الباب كثيراً، والله المستعان.

المحذور الثاني: فتنة النساء، احذر أخي المسلم، وأنت أيها الراقي خصوصا الافتتان بالمرأة؛ فإن الناصح الأمين ﷺ يقول: (مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هي أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ)، ومر قريبا قوله ﷺ: (فاتقوا الدنيا واتقوا النساء)، ومما يجب على الراقي أن يحذره: مس المرأة الأجنبية عند الرقية؛ لأن النبي ﷺ يقول: (لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له).

=

=

ويجب عليه أيضـًا: أن يحذر من الخلوة بها؛ لأن النبي ﷺ يقول: (ألا، لا يخلون رجل بامرأة لا تحل له؛ فإن ثالثهما الشيطان إلا محرم)، ولا بد أن يكون محرمها معها.

كما يجب عليه: أن يغض البصر عن النظر إلى محاسنها؛ لأن الله يقول: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠].

المحذور الثالث: الحذر من الاستعانة بالجن أو الشياطين، فلم يرد في كلام الله، ورسوله، وأقوال أصحابه ما يدل على جوازه، وفتح هذا الباب فتح باب شر، لا يعلم ضرره إلا الله، فكيف يعرف صدقهم من كذبهم؟ وكيف يحاسبهم إن كذبوا؟ وكيف يصدقهم فيما يقولون؟ وكيف يحكم على المريض ويتعامل معه بناء على أقوالهم عنه التي لا يدري أحق أم باطل؟ مع أنه لا يمكن أن تحكم على أحد بكلام الإنس، إذا لم تتأكد من صدقه، فكيف بكلام الجن الذين هم أهل الكذب؟ كما قال النبي ﷺ: (صدقك وهو كذوب).

علمـًا بأن من أجازه، كشيخ الإسلام ابن تيمية، وشيخنا: الشيخ ابن عثيمين أجازوه بشروط، وإن كنا لا نسلم جواز ذلك، لا بشروط ولا بدونها، كما هو رأي سواد الأمة وجمهورها قديمـًا وحديثـًا.

قلت: ويدخل بالاستعانة بالجن ما يسمى بالتنويم المغناطيسي، فهو حرام لا يجوز، قالت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في المملكة العربية السعودية: «التنويم المغناطيسي ضرب من ضروب الكهانة باستخدام جني حتى يسلطه المنوِّم على المنوَّم، فيتكلم بلسانه، ويكسبه قوة على بعض الأعمال بالسيطرة عليه، إن صدق الجني مع المنوِّم- وكان طوعـًا له- مقابل ما يتقرب به المنوَّم إليه، ويجعل ذلك الجني المنوَّم طوع إرادة المنوِّم، بما يطلبه من

=

=

الأعمال، أو الأخبار بمساعدة الجني له، إن صدق ذلك الجني مع المنوِّم، وعلى ذلك يكون استغلال التنويم المغناطيسي واتخاذه طريقًا للدلالة على مكان سرقة، أو ضالة، أو علاج مريض، أو القيام بأي عمل آخر بواسطة المنوِّم غير جائز، بل هو شرك لما تقدم، ولأنه التجاء إلى غير الله فيما هو من وراء الأسباب العادية التي جعلها سبحانه إلى المخلوقات وأباحها لهم».

المحذور الرابع: الحذر من التوسع في باب القراءة على الماء والزيت ونحوهما، فهناك من يقرأ على خزان ماء كبير، وهناك من يقرأ في برميل من الماء، وهناك من يجعل الماء المقروء فيه نوعين: نوع مركز، ونوع دون ذلك ،وما شابه ذلك، فيجب الحذر من هذه الأمور، ولزوم ما ثبت عن النبي ﷺ، وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان، وعدم المخالفة، وسيأتي في آخر المطلب فتوى اللجنة الدائمة بذلك.

المحذور الخامس: الحذر من الاغترار بكثرة الناس عندك أيها الراقي وازدحامهم حولك، فلعلها مصيدة من الشيطان؛ ليمكر بك، ويغرك، ويعلق الناس بك من دون الله، وأنت لا تشعر.

المحذور السادس: الحذر من القول بغير علم، كالحكم على المريض بأنه مسحور أو فيه كذا وكذا، دون أن تكون متيقنًا بصحة ما تقول بالطرق المشروعة.

المحذور السابع: الحذر من تعذيب المريض بالضرب المفرط، أو الصعق الكهربائي، أو الخنق وما شابه ذلك، مما يفعله كثير من الرقاة؛ فإن شفاء المريض أو إخراج الجن منه إنما هو بسبب قراءة كلام الله، لا بسبب هذه الأفعال.

المحذور الثامن: الحذر من إيقاع اليأس في نفس المريض، أو إشعاره أن مرضه

=

=

لا يمكن الشفاء منه، بل ولا يجوز له كل فعل أو قول يعلق المريض به أو يلزمه بالتردد على بابه مرة بعد مرة.

المحذور التاسع: تجنب القراءة الجماعية؛ لما يترتب على ذلك من المفاسد، فكم من مريض زاد مرضه، أو تضاعف، أو أصيب بأمراض أخرى، بسبب ما يراه من الحالات التي تقع بين عينيه، وقد أفتت اللجنة بالمنع من ذلك، كما سيأتي في آخر هذا المطلب.

المحذور العاشر: الحذر من بعض الخرافات والدجل التي يزعم بعضهم أنها تساعد في إخراج الجن، كالإتيان بذئب للمريض، أو جعلهم يمرون بجواره، أو أن يلزم كل واحد منهم أن يشم جلد الذئب أو نحو ذلك، فإن هذا من الأمور المحرمة كما أفتت اللجنة الدائمة بتحريمه، كما سيأتي في آخر هذا المطلب.

المحذور الحادي عشر: القراءة أثناء الرقية بمكبر الصوت أو عبر الهاتف مع بعد المسافة، وقد أفتت اللجنة كما سيأتي قريبا بالمنع من ذلك.

المحذور الثاني عشر: جعل بعضهم الأختام الكبيرة الحجم مكتوب عليها آيات، أو أذكار، أو أدعية، ومنها: ما هو مخصص للسحر، ومنها: ما هو مخصص للعين، ومنها: ما هو مخصص للجن، وقد أجابت اللجنة الدائمة بتحريم ذلك، كما سيأتي في آخر المطلب.

المحذور الثالث عشر: تعذيب الجن بالنار أو حرقه بها لا يجوز؛ لأنه لا يعذب بالنار إلا رب النار، كما صح الحديث عن النبي ﷺ بذلك.

المحذور الرابع عشر: كتابة أوراق فيها القرآن والأذكار، ووضعها على جسد المريض لا يجوز؛ لأنها من التمائم.

وإليك أخي المسلم فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في المملكة العربية السعودية برئاسة شيخنا الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عشر مخالفات ومحاذير

=

=

في الرقية، قد مر- فيما سبق- ذكر أكثرها:
قالت اللجنة: «الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده...، وبعد: فقد اطلعت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء على ما ورد إلى سماحة المفتي العام من معالي وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، والمرفق به المحضر المعدّ من قبل مندوب فرع وزارة الشئون الإسلامية، ومندوب هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقصيم، والمحال إلى اللجنة من الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء برقم: (١٣٩/ س) وتاريخ:١٤١٨/ ١/ ٨هـ، وقد تضمن المحضر عدة فقرات أجابت اللجنة عنها بما يلي:
الفقرة الأولى: القراءة على ماء فيه زعفران، ثم غمس الأوراق فيه، ثم تجفيفها، ثم حلها بعد ذلك بماء، ثم شربها.
الجواب: القراءة في ماء فيه زعفران، ثم تغمس الأوراق في هذا الماء وتباع على الناس؛ لأجل الاستشفاء بها، هذا العمل لا يجوز، ويجب منعه؛ لأنه احتيال على أكل أموال الناس بالباطل، وليس هو من الرقية الشرعية التي نصّ بعض أهل العلم على جوازها؛ وهي كتابة الآيات في ورقة أو في شيء طاهر كتابة واضحة، ثم غسل تلك الكتابة وشرب غسيلها.
الفقرة الثانية: مدى صحة تخيّل المريض للعائن من جراء القراءة، أو طلب الراقي من القرين أن يخيّل للمريض من أصابه بالعين.
الجواب: تخيل المريض للعائن أثناء القراءة عليه وأمر القارئ له بذلك هو عمل شيطاني لا يجوز؛ لأنه استعانة بالشياطين، فهي التي تتخيل له في صورة الإنسي الذي أصابه، وهذا عمل محرم؛ لأنه استعانة بالشياطين؛ ولأنه يسبب العداوة بين الناس، ويسبب نشر الخوف والرعب بين الناس، فيدخل في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ

=

كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن:٦]

الفقرة الثالثة: مس جسد المرأة: يدها، أو جبهتها، أو رقبتها مباشرة من غير حائل، بحجة الضغط والتضييق على ما فيها من الجان، خاصة أن مثل هذا اللمس يحصل من الأطباء في المستشفيات، وما هي الضوابط في ذلك؟

الجواب: لا يجوز للراقي مسّ شيء من بدن المرأة التي يرقيها؛ لما في ذلك من الفتنة، وإنما يقرأ عليها بدون مس، وهناك فرق بين عمل الراقي وعمل الطبيب؛ لأن الطبيب قد لا يمكنه العلاج إلا بمس الموضع الذي يريد أن يعالجه، بخلاف الراقي؛ فإن عمله- وهو القراءة والنفث- لا يتوقف على اللمس.

الفقرة الرابعة: وضع أختام كبيرة الحجم مكتوب فيها آيات أو أذكار أو أدعية، منها شيء مخصص للسحر، ومنها ما هو للعين، ومنها ما هو للجان، ثم يغمس بالختم على ماء فيه زعفران، ثم يختم على أوراق تحل بعد ذلك وتشرب.

الجواب: لا يجوز للراقي كتابة الآيات والأدعية الشرعية في أختام تغمس بماء فيه زعفران، ثم توضع تلك الأختام على أوراق؛ ليقوم ذلك مقام الكتابة، ثم تغسل تلك الأوراق وتشرب؛ لأن من شرط الرقية الشرعية: نية الراقي والمرقي الاستشفاء بكتاب الله حال الكتابة.

الفقرة الخامسة: شم جلد الذئب من قبل المريض، بدعوى أنه يُفصح عن وجود جان أو عدمه، إذ أن الجان- بزعمهم- يخاف من الذئب، وينفر منه ويضطرب عند الإحساس بوجوده.

الجواب: استعمال الراقي لجلد الذئب؛ ليشمه المصاب، حتى يعرف أنه مصاب بالجنون عمل لا يجوز؛ لأنه نوع من الشعوذة والاعتقاد الفاسد، فيجب منعه بتاتًا، وقولهم: إن الجني يخاف من الذئب خرافة لا أصل لها.

=

الفقرة السادسة: قراءة القرآن أثناء الرقية بمكبر الصوت، أو عبر الهاتف مع بعد المسافة، والقراءة على جمع كبير في آن واحد.

الجواب: الرقية لا بد أن تكون على المريض مباشرة، ولا تكون بواسطة مكبر الصوت ولا بواسطة الهاتف؛ لأن هذا يخالف ما فعله رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وأتباعهم بإحسان في الرقية، وقد قال: (من أحدث من أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد).

الفقرة السابعة: الاستعانة بالجان في معرفة العين أو السحر، وكذلك تصديق الجني المتلبّس بالمريض بدعوى السحر والعين والبناء على دعواه.

الجواب: لا تجوز الاستعانة بالجن في معرفة نوع الإصابة ونوع علاجها؛ لأن الاستعانة بالجن شرك، قال الله تعالى: ﴿وأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦]

وقال تعالى: ﴿ويَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ﴾[الأنعام:١٢٨].

ومعنى استمتاع بعضهم ببعض: أن الإنس عظّموا الجن، وخضعوا لهم، واستعاذوا بهم، والجن خدموهم بما يريدون، وأحضروا لهم ما يطلبون، ومن ذلك إخبارهم بنوع المرض وأسبابه، مما يطّلع عليه الجن دون الإنس؛ وقد يكذبون؛ فإنهم لا يؤمنون، ولا يجوز تصديقهم.

الفقرة الثامنة: تشغيل جهاز التسجيل على آيات من القرآن لعدة ساعات عند المريض، وانتزاع آيات معينة تخص السحر، وأخرى للعين، وأخرى للجان.

الجواب: تشغيل جهاز التسجيل بالقراءة والأدعية لا يغني عن الرقية؛ لأن الرقية

=

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥).

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} التَّوْرَاة {فَاخْتُلِفَ فِيهِ} بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيب

=

عمل يحتاج إلى اعتقاد ونية حال أدائها، ومباشرة للنفث على المريض، والجهاز لا يتأتى منه ذلك.

الفقرة التاسعة: كتابة أوراق فيها القرآن والذكر، وإلصاقها على شيء من الجسد كالصدر ونحوه؛ أو طيّها ووضعها على الضرس، أو كتابة بعض الحروز من الأدعية الشرعية وشدها بجلد، وتوضع تحت الفراش أو في أماكن أخرى، وتعليق التمائم إذا كانت من القرآن، والذكر، والدعاء.

الجواب: إلصاق الأوراق المكتوب فيها شيء من القرآن أو الأدعية على الجسم أو على موضع منه، أو وضعها تحت الفراش ونحو ذلك لا يجوز؛ لأنه من تعليق التمائم المنهي عنها بقوله: (من تعلق تميمة فلا أتمّ الله له)

وقوله: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك)

الفقرة العاشرة: بعض الأدعية لم ترد، مثل: «حجر يابس، شهاب قابس، ردّت عين الحاسد عليه، وعلى أحب الناس إليه».

الجواب: هذا الدعاء لا أصل له، وفيه عدوان على غير المعتدي، فلا يجوز استعماله لقول النبي ﷺ: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد).

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء:

الرئيس: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، نائب الرئيس: عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ، عضو: بكر بن عبد الله أبو زيد، عضو: صالح بن فوزان الفوزان) انتهى من كتاب الاستشفاء بالقرآن الكريم.

كَالْقُرْآنِ {وَلَوْلَا كَلِمَة سَبَقَتْ مِنْ رَبّك} بِتَأْخِيرِ الْحِسَاب وَالْجَزَاء لِلْخَلَائِقِ إلَى يَوْم الْقِيَامَة {لَقُضِيَ بَيْنهمْ} فِي الدُّنْيَا فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ {وَإِنَّهُمْ} أَيْ الْمُكَذِّبِينَ بِهِ {لَفِي شَكّ منه مريب} موقع في الريبة(١).

---

(١) قال الطبري: يقول:"{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} يا محمد، يعني التوراة، كما آتيناك الفرقان، فاختلف في العمل بما فيه الذين أوتوه من اليهود".

قال البغوي: أي:"فصدق ومكذب كما اختلف قومك في كتابك".

قال السمعاني:"الكتاب: هو التوراة، والاختلاف فيه أنه آمن به بعضهم وكفر بعضهم".

قوله تعالى: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ}، أي:"ولولا كلمة سبقت من ربك بتأجيل العذاب عن قومك لفُصِل بينهم بإهلاك الكافرين في الحال".

قال الطبري: "يقول: ولولا ما سبق من قضاء الله وحكمه فيهم أنه أخر عذابهم إلى يوم القيامة".

قال السمعاني: الكلمة:"تأخير القيامة إلى أجل معلوم عنده، {لقضي بينهم} أي: لعجل لهم العذاب".

قال البغوي: أي:"{ولولا كلمة سبقت من ربك} في تأخير العذاب عن المكذبين بالقرآن، لفرغ من عذابهم وعجل إهلاكهم".

قال الزجاج:"الكلمة: وَعْدَهُمُ الساعة، قال ﷻ: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُم} [القمر: ٤٦]، ويدل على أن الكلمة ههنا الساعة قوله: {إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ} [فصلت: ٤٧]".

عن قتادة:"{ولَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ}، قال: سبق لهم مِن الله حينٌ وأجلٌ هم بالِغوه".

=

=

قال السدي:"أخروا إلى يوم القيامة".

قال الزمخشري:"الكلمة السابقة: هي العدة بالقيامة، وأنّ الخصومات تفصل في ذلك اليوم، ولولا ذلك لقضى بينهم في الدنيا. قال الله تعالى: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُم} [القمر: ٤٦]، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى".

وعن عطاء قال: "الكلمة التي سبقت من ربه هي أن آدم صلوات الله عليه لما عطس ألهمه الله تعالى حتى قال: الحمد لله، فقال الله تعالى: يرحمك ربك. فهي الكلمة التي سبقت من الله".

قوله تعالى: {وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ}، أي:"وإن المشركين لفي شك من القرآن شديد الريبة".

قال الطبري:"يقول: وإن الفريق المبطل منهم لفي شكّ مما قالوا فيه، يريبهم قولهم فيه ما قالوا، لأنهم قالوا بغير ثبت، وإنما قالوه ظنًّا".

قال ابن كثير:"أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوا، غير محققين لشيء كانوا فيه. هكذا وجهه ابن جرير، وهو محتمل، والله أعلم".

قال البغوي:"{وإنهم لفي شك منه} من صدقك، {مريب} موقع لهم الريبة".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {آتَيْنَا} أَعْطَيْنَا، والإيتاءُ هُنا إيتاءٌ شَرعيٌّ قَدَريٌّ، إيتاءٌ شَرعيٌّ؛ لِأَنَّه أُضيفَ إِلَى الوَحْيِ، وقَدَرِيٌّ؛ لِأَنَّه وَقَعَ فِعلًا.

وَموسى عليه الصلاة والسلام هو أَفضلُ أَنْبياءِ بَني إِسرائيلَ، وهو بالنِّسبةِ لِأُولي العَزم بِالمَرتبةِ الثَّالثةِ؛ لِأَنَّ أُولي العَزمِ خَمسةٌ، أَفضلُهم مُحمَّدٌ ﷺ ثُمَّ إِبراهيمُ ثُمَّ موسى، وَهو- أَيْ مُوسَى- أَكثرُ الأنبياءِ أَتْباعًا بَعْدَ الرَّسولِ ﷺ لِحَديثِ: "أَنَّه عليه الصلاة والسلام رَأى سَوادًا عَظيمًا قَدْ سَدَّ الأُفقَ فَقيلَ: هَذا موسى وقَومُه".

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{الْكِتَابَ} التَّوراةِ] وسُمِّيتْ كتابًا لأنَّها مَكتوبَةٌ، قَالَ اللهُ

=

=

تَعالى: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٤٥] فَهي نَزَلت مَكتوبةً.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فَاخْتُلِفَ فِيهِ} بِالتَّصديقِ والتَّكذيبِ كَالقُرآنِ]، اخْتَلفَ فيه أَقوامُه، قَومُ موسى اخْتَلفوا، فَمِنهم مَنْ صَدَّقَ، ومِنهم مَن كَذَّبَ، لكنَّ قَومَ موسَى مَشهورونَ بِالعُتُوِّ والطُّغيانِ والِاستِكبارِ العَظيمِ وَالجهلِ العَميقِ، لَمَّا مَرُّوا بأَقوامٍ يَعبدونَ غَيرَ الله: {قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} [الأعراف: ١٣٨]، وَلمَّا صَنَعوا مِنَ الحُليِّ عِجلًا قَالوا: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى} [طه: ٨٨]، فَجعلوا العِجلَ الَّذي صَنَعوه بِأَيديهِمْ إِلَهًا، نَسأَلُ اللهَ العافيةَ.

قَالَ اللهُ تَعالَى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ} [فصلت: ٤٥]، لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعالَى هَذا الكِتابَ العَزيزَ، وَأَنَّه لِلَّذينَ آمَنوا هُدًى وشِفاءٌ ولِلَّذين في قُلوبِهم مَرضٌ: {وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} بَيَّنَ ما كانَ مِنَ الأُممِ السَّابقةِ نَحوَ كُتُبِهم فَقالَ: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [فصلت: ٤٥] {آتَيْنَا} بمَعْنى أَعْطَيْنا، الجُملةُ هَذِه مُؤَكَّدةٌ بِثَلاثةِ مُؤكِّداتٍ وَهي:

القَسَمُ وَاللَّامُ وَ (قَدْ) وَتَقديرُ الكلامِ: وَاللهِ لَقدْ آتَيْنا، وَهو يَقعُ كَثيرًا في الكِتابِ العَزيزِ، أَيْ: مِثْلُ هَذِه الصِّيغَةِ تَقَعُ كَثيرًا في القُرآنِ، وقَولُه: {آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} هَذا الإِتيانُ إِتيانٌ كَونيٌّ وشَرعيٌّ، فاللهُ تَعالى قَد أَنزلَ عليه التَّوراةَ فِعلًا، وقَدْ آتاهُ الحُكمَ بِها.

و{مُوسَى} هو ابْنُ عِمرانَ عليه الصلاة والسلام أَفضلُ أَنبياءِ بَني إِسرائِيلَ، وَهو في المَرتبةِ الثَّالثةِ بِالنِّسبةِ لِأُولي العَزمِ؛ لِأَنَّ أُولي العزمِ هُم خَمسةٌ أَفْضلُهم مُحمَّدٌ ﷺ، ثُمَّ إِبْراهِيمُ ثُمَّ موسى عليهم الصلاة والسلام.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الْكِتَابَ} التَّوراةُ] وسَمَّاها اللهُ تَعالى كِتابًا؛ لأَنَّ اللهَ كَتبها بِيدِه تَباركَ كَما قَالَ تَعالى: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا

=

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦).

{من عمل صالحا فلنفسه} عمل {ومن أساء فعليها} أي فضرر إساءته على نفسه {وما ربك بظلام للعبيد} أي بذي ظلم لقوله تعالى {إن الله لا يظلم مثقال

=

لِكُلِّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٤٥]. يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فَاخْتُلِفَ فِيهِ} بِالتَّصديقِ وَالتَّكذيبِ كَالقُرآنِ] أَي: اخْتَلَفَ النَّاسُ فيه فَمِنهم المُصدِّقُ ومِنهم المُكذِّبُ كَما كان النَّاسُ أيضًا بالنِّسبةِ لِلقُرآنِ، وهَكذا جَميعُ الأُممِ بِالنِّسبةِ لِما جاءت بِه الرُّسلُ مِنهمُ المُصدِّقُ وَمِنهمُ المُكذِّبُ، كَذلِكَ أيضًا جَميعُ ما جاءَتْ بِه الرُّسُلُ يَختلِفُ النَّاسُ فيه بَين مُؤمنٍ وكافرٍ، وهَذا تَسليةٌ لِلرَّسولِ- صلَّى اللهُ عليه وَعَلى آله وَسلَّم-.

قال اللهُ تَعالى: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} [فصلت: ٤٥]، {وَلَوْلَا} هَذه حَرْفُ شَرطٍ، وَهي كَما قال النُّحاةُ: حَرفُ وُجودٍ لِعَدمٍ، {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ} هَذا مَوجودٌ {لَقُضِيَ} هَذا مَعدومٌ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ} بتَأخيرِ الحِسابِ وَالجَزاءِ لِلْخلائِقِ إِلَى يَومِ القِيامةِ]، فَإنَّ الجَزاءَ الكامِلَ إِنَّما يَكونُ يَومَ القِيامةِ، أَمَّا في الدُّنيا فَهو جزاءٌ لَا شكَّ يُعاقَبُ فيه المُجرمونَ ويُفلحُ فيه المؤمنونَ، لَكنَّه لَيس الجَزاءَ الكاملَ مِن كلِّ وَجهٍ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} في الدُّنيا فيما اختَلفوا فيه]، وَالمُرادُ بِذلك القَضاءُ التَّامُّ فَلا يُنافي هَذا ما وَقعَ لِآلِ فِرعونَ مِنَ الغرقِ وَالهَلاكِ لمَّا كَذَّبوا موسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَإِنَّهُمْ} أَي: المُكذِّبينَ بِه {لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} مُوقعٌ في الرِّيبةِ].

ذرة[(١)].

(١) قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ}، أي:"من عمل صالحًا فأطاع الله ورسوله فلنفسه ثواب عمله".

قال الطبري:"من عمل بطاعة الله في هذه الدنيا، فائتمر لأمره، وانتهى عما نهاه عنه فلنفسه عمل ذلك الصالح من العمل، لأنه يجازى عليه جزاءه، فيستوجب في المعاد من الله الجنة، والنجاة من النار".

قال السمعاني:"أي: نفع ذلك عائد إلى نفسه".

قوله تعالى: {وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا}، أي:"ومن أساء فعصى الله ورسوله فعلى نفسه وزر عمله".

قال الزجاج:"أي: على نفسه".

قال ابن كثير:"أي: إنما يرجع وبال ذلك عليه ".

قال الطبري:"يقول: ومن عمل بمعاصي الله فيها، فعلى نفسه جنى، لأنه أكسبها بذلك سخط الله، والعقاب الأليم".

قوله تعالى: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}، أي:"وما ربك بظلام للعبيد، بنقص حسنة أو زيادة سيِّئة".

قال الطبري: يقول: "وما ربك يا محمد بحامل عقوبة ذنب مذنب على غير مكتسبه، بل لا يعاقب أحدا إلا على جرمه الذي اكتسبه في الدنيا، أو على سبب استحقه به منه".

قال السمعاني:"لأن ما يفعله يكون عدلا، ولا يكون ظلما. وقيل: لا يعاقب أحدا من غير جرم".

قال ابن كثير:"أي: لا يعاقب أحدا إلا بذنب، ولا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه ".

=

=

عن ابن عباس:" {وأن الله ليس بظلام للعبيد}، قال: ما أنا بمعذب من لم يجرم عندي أن أعذبه".

عن السدى، قال: "الكافر يخرج له يوم القيامة كتاب فيقول: رب إنك قضيت أنك لست بظلام للعبيد، فاجعلني أحاسب نفسي. فيقال له: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٤]".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ} هَذه جُملةٌ شَرطيَّةٌ أَداةُ الشَّرطِ فيها {مَنْ} وفِعلُ الشَّرطِ {عَمِلَ} وجوابُ الشَّرطِ {فَلِنَفْسِهِ} تَمامُ هَذه الجُملةِ شرطيَّةٌ، واقْتُرِنَتْ بِالفاءِ لِأَنَّها جُملةٌ اسميَّةٌ إِذِ التَّقديرُ: فَعَمَلُه لِنفْسِه، وقَدَّرَها المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ بِقولِه: [{فَلِنَفْسِهِ} عمل]، ولَكِنْ إذا قَدَّرناها جُملةً اسميَّةً فَلا حَرَجَ.

{صَالِحًا} صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: عَملًا صالحًا، والعَملُ الصَّالحُ مَا اجْتَمعَ فيه أَمرانِ:

الأَوَّلُ: الإِخلاصُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

والثَّاني: المُتابَعةُ لِشَريعةِ اللهِ، وَلا نَقولُ هنا: المُتابَعةُ لِمُحمَّدٍ ﷺ لأَنَّنا نَتكلَّمُ عَن العَمَلِ الصَّالحِ فِي هَذه الأُمَّةِ وَفِي غَيرِ هَذه الأُمَّةِ، فَنقولُ: الإِخلاصُ للهِ والمُتابَعةُ لِشريعةِ اللهِ؛ لِيَشملَ ما كانَ في أُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ وما كان في أُمَمٍ سابقةٍ.

إِذا فَقَدَ الإِخلاصَ فَليس بِصالحٍ؛ لأَنَّه شِركٌ مَردودٌ على صَاحبِه، قال اللهُ تَعالى في الحَديثِ القُدسيِّ: "أَنا أَغنى الشُّركاءِ عَنِ الشِّركِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْركَ فيه مَعي غَيري تَرَكْتُه وشِرْكَه"، ومَنْ أَخلصَ لكن عَلَى غَيرِ شَريعةِ اللهِ فَعَمَلُه بدعةٌ مَردودٌ؛ لِقولِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم-: "مَنْ عَمِلَ عملًا لَيس عَليه أَمرُنا فَهو رَدٌّ". وَفِي رِوايةٍ: "مَنْ أَحدثَ في أَمرِنا هَذا ما لَيس مِنه فَهو رَدٌّ".

قَولُه: {فَلِنَفْسِهِ} يَعْني: فَالمَصلحةُ لِنفسِه، فَإِنَّ ذَلك لا يَنفعُ اللهَ شيئًا، ولِهَذا قال

=

=

اللهُ تَعالى فِي الحَديثِ القُدسيِّ الَّذي رَواه أَبو ذَرٍّ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ أنَّ اللهَ قال: "يا عِبادي لَو أَنَّ أَوَّلَكم وآخِرَكم وإِنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أَتْقى قَلبِ رَجلٍ واحدٍ مِنكم ما زاد ذَلِكَ فِي مُلْكي شيئًا". لماذا؛ لِأنَّ اللهَ تَعالى لا يَنتفعُ بِطاعةِ الطَّائعينَ، وَلا يَتضرَّرُ بِمعصيةِ العاصينَ، فَالعملُ لِنفسِك.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُٱللَّهُ: [{وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} أي: فَضرَرُ إِساءتِه عَلى نَفسِه]، وَلَوْ قُلنا: التَّقديرُ فَإِساءَتُه عليها لَكفى، مَنْ أَساءَ، أي: عَمِلَ عَملًا غيرَ صالحٍ، وَالَّذي يَدُلُّنَا عَلى أَنَّ المُرادَ بالإساءَةِ هُنا العَملُ غَيرُ الصَّالحِ أَنَّهُ قُوبِلَ بِما سَبَقَ بِمَن عَمِلَ عَملًا صالحًا، وهَذا أَحدُ الطُّرقِ الَّتي يُعرفُ بِها تَفسيرُ القُرآنِ الكَريمِ بَلْ وغَيرُهُ مِن الكَلامِ، إِذا ذُكِرَ الشَّيءُ ثُمَّ ذُكِرَ ما بَعدَه عَلى وَجهِ المُقابَلةِ فيُفَسَّرُ ما بَعدَه عَلى ضِدِّ ما قَبله، وَمِن ذَلكَ قَولُه تَعالى: {فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا} [النساء: ٧١] لَو أَنَّك تأمَّلتَ ما مَعنى {ثُبَاتٍ} هل مَعناها انفِروا ثَابتينَ على الجِهادِ؟ لا، بَلْ يُفسِّرُها ما بَعْدَها: {أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا} فَيكونُ مَعْنى ثُباتٍ أي: فُرادَى: {أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا}.

قال اللهُ تَعالَى: {وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا}، إذن الإساءَةُ تَكونُ إِمَّا بِالإشراكِ بِاللهِ كالرِّياءِ مثلًا، وإِمَّا بِالبدعةِ كَبِدَعِ الصُّوفيَّةِ وغَيْرِهم مِن أَصْحابِ الطُّرُقِ الَّذين هم مُخلصونَ إِلى اللهِ ويَودُّونَ التَّقرُّبَ إِلَى اللهِ لكن بغيرِ ما شَرَعَ اللهُ، فَكانوا ضالِّين كالنَّصارى تمامًا.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُٱللَّهُ: [{وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} أَيْ: بذي ظُلمٍ] {وَمَا رَبُّكَ} هذه كقَولِه فيما سَبَق: {سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ} [فصلت: ٤٥].

و{وَمَا} هُنا حِجازيَّةٌ، فَكُلُّ ما في القُرآنِ حِجازِيٌّ؛ لِأَنَّهُ بِلُغةِ قُريشٍ، وعلى هَذا فمتى أَتتَكَ {مَا} فَهي حِجازيَّةٌ، قال الله تَعالَى: {مَا هَذَا بَشَرًا} [يوسف: ٣١] وَلَو كانتْ تَميميَّةً لقالَ: ما هَذا بَشَرٌ، لكن قال: {مَا هَذَا بَشَرًا}.

=

=

إذن: كُلَّما أَتَتْكَ {مَا} الَّتي تَكونُ دائرَةً بَينَ الحِجازيَّةِ والتَّميميَّةِ فَاجعَلْها حِجازيَّةً، فهُنا نَقولُ: {مَا} حِجازيَّةٌ و (رَبُّ) اسْمُها وَ {بِظَلَّامٍ} خَبَرُها لكنَّه جُرَّ بِحَرفِ الجَرِّ الزَّائِدِ.

وقَولُه: {وَمَا رَبُّكَ} هَلِ الخطابُ لِلرَّسولِ عليه الصلاة والسلام وَليس عَامًّا، فسياقُ الآيةِ يَدُلُّ على أَنَّه خاصٌّ بِالرَّسولِ عليه الصلاة والسلام، ولكن لِيعلمَ أَنَّ ما وُجِّهَ الخِطابُ فيه إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، فَإِنَّهُ لَا يَعْني: أَنَّ الحُكمَ خَاصٌّ بِه، بَلْ هو لَه ولِلْأُمَّةِ؛ ولِهذا نَقولُ: الخطابُ المُوجَّهُ إِلَى الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام يَنقسمُ إِلَى ثلاثةِ أَقسامٍ:

الأَوَّلُ: مَا دَلَّ الدَّليلُ على أَنَّه خَاصٌّ بِهِ كَقَولِه: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: ١] هَذا خاصٌّ بِالرَّسولِ.

الثَّاني: ما دَلَّ الدَّليلُ على أَنَّه عامٌّ كَقَولِه تَعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ} وهَذا خطابٌ للرَّسولِ: {إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ} [الطلاق: ١] هَذا عامٌّ؛ لأَنَّه قال: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ} وَمِنه قَولُ اللهِ تَعالَى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} [التحريم: ١ - ٢] فأَوَّلُ الآيةِ خاصٌّ والثَّاني عامٌّ.

الثَّالثُ: ما لا دَليلَ فيه عَلى هَذا ولا عَلى هَذا، فَهو خَاصٌّ بالرَّسولِ، لَكن لَنا فيه أُسوَةٌ، وقيلَ: إنَّه للأُمَّةِ لكن خوطِبَ بِها الرَّسولُ؛ لأَنَّه قائدُها عليه الصلاة والسلام.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} أي: بذي ظلم] إشارَةٌ مِنه رَحِمَهُ اللهُ إِلى أنَّ "ظَلَّامَ" صيغةُ نِسبةٍ وليست صيغةَ مُبالغةٍ؛ لأنَّ فعَّالًا تأتي للنِّسبةِ كنَجَّار وحدَّاد وخشَّاب، وما أَشبهَ ذَلكَ، وتأتي للمُبالَغةِ، فَهُنا (ظَلَّامٌ) يَتعيَّنُ أَنْ تكونَ للنِّسبةِ؛ لأنَّك لو جَعلتَها لِلمبالغةِ لكان المَنفيُّ هو المُبالغةُ في الظُّلمِ دونَ أَصلٍ

الظُّلم؛ وَالمعلومُ أَنَّ اللهَ تَعالَى مَنفيٌّ عَنه الظُّلمُ أَصلُه والمُبالغةُ فيه، إِذن يَتعيَّنُ أَنْ نَقولَ: إِنَّ (ظَلَّام) صيغةُ نِسبةٍ ولَيست صيغةَ مُبالغةٍ؛ ولهذا فَسَّرها بِقولِه: [أي: بذي ظُلمٍ] واستَدلَّ لِذلكَ بِقَولِه تَعالى: [{إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} [النساء: ٤٠]. وَمَنِ انتَفى عَنه الظُّلمُ في مِثقالِ ذرَّةٍ لا يُمكنُ أَنْ يَكونَ لَديه ظُلمٌ بأَكثرَ، وَلا بِمثقالِ ذرَّةٍ أيضًا، وَلا بِدونِ مِثقالِ ذرَّةٍ.

فَإِن قَالَ قائلٌ: {إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} مَفهومُه أَنَّ ما دونها يُمكنُ؟

قُلنا: لا؛ لأنَّ مِثقالَ ذَرَّةٍ جِيءَ به على سَبيلِ المُبالغةِ لا التَّمثيلِ، وَما كانَ قَيدًا لِلمبالغةِ، فإنَّه لا مَفهومَ لَه، أَرَأَيتُم قَولَ الرَّسولِ ﷺ: "مَنِ اقتطعَ شِبرًا مِنَ الأَرضِ ظُلمًا طُوِّقَه يومَ القيامَةِ مِنْ سَبعِ أَرَضينَ"، فهَل نَقولُ: مَنِ اقْتطعَ نِصفَ شِبرٍ لا يُعاقَبُ عليه؟ لا، لَكن ذَكَرَه على سَبيلِ المُبالغةِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} أي: بِذي ظُلمٍ]. وقولُه: {لِلْعَبِيدِ} أي: العبيدِ كونًا لا شَرعًا، يَعني: لَنْ يَظلمَ أَحدًا حتَّى الكافرَ لا يَظلمُه اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

فإنْ قال قائلٌ: إِنَّ اللهَ تَعالى- وحاشاه- يَظلمُ الكافرَ، فَالكافرُ مُتِّعَ في الدُّنيا ولنَقُلْ: أَلْفَ سَنَةٍ على كُفرِه وسيَخْلدُ في النَّارِ إِلى الأَبَدِ آلافَ ومَلايينَ السِّنينَ مع أَنَّه لَمْ يَكفُرْ إِلَّا أَلفَ سَنَةٍ، فَالعُقوبةُ زائدةٌ عَلى العملِ، وَهَذا ظُلمٌ!

قُلنا: كَلَّا وَاللهِ إِنَّ اللهَ تَعالى أَعذَرَ إِلى هَذا الرَّجلِ ببَعثِ الرُّسلِ وَإِنزالِ الكُتبِ وأَعطاهُ عَقلًا وَقالَ: إِنْ فعلتَ كَذا عذَّبتُك أَبدَ الآبدينَ فَأقدمَ باختيارِه، فَإِذا فَعَلَ ما يُوجبُ هَذه العُقوبةَ باختيارِه ثُمَّ عوقبَ بِهَا لا يُقالُ: إِنَّه مَظلومٌ، إِلَّا إِذا كان جاهلًا بِالعُقوبةِ لَقُلنا: نَعَم، الواجبُ أَلَّا يُعاقبَ إِلَّا بِمِقدارِ ذَنبِه كَمًّا وكَيفًا، لكنَّا نَقولُ: إِنَّ هذا الرجُلَ قَد عَلِمَ وأُعذِرَ إِليه بِإِرسالِ الرُّسلِ وبَيانِ ما يُعذَّبُ به، ومَع ذَلك أصرَّ كأنَّه يَقولُ: أَنا لا أُبالي إِذا عُذِّبتُ أَبَدَ الآبِدينَ، وحِينَئذٍ يَكونُ هو الَّذي جَنَى عَلى

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧).

{إليه يرد علم الساعة} متى تكون لا يعلمها غيره {وما تخرج من ثمرة} وفي قراءة ثمرات {من أكمامها} أوعيتها جمع كم بكسر الكاف إلا بعلمه {وَمَا تَحْمِل مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَع إِلَّا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك} أعلمناك الآن {ما منا من شهيد} أي شاهد بأن لك شريكا[1].

=

نَفسِه وفَعَلَ ما يوجبُ هذا العذابَ المؤبَّدَ: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}.

(١) قوله تعالى: {إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ} [فصلت:، أي:"إلى الله تعالى وحده لا شريك له يُرْجَع علم الساعة، فإنه لا يعلم أحد متى قيامها غيره".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إلى الله يرد العالمون به علم الساعة، فإنه لا يعلم ما قيامها غيره".

قال ابن كثير:"أي: لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال ﷺ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة- حين سأله عن الساعة، فقال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»، وكما قال تعالى: {إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا} [النازعات: ٤٤]، وقال {لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ} [الأعراف: ١٨٧] ".

قال مقاتل:"وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ أخبرنا عن الساعة، فإن كنت رسولا كما زعمت علمتها وإلا علمنا أنك لست برسول، ولا نصدقك، قال النبي ﷺ:لا يعلمها إلا الله»، أرد علمها إلى الله، فقال الله- ﷻ- للنبي ﷺ فإن كنت رددت علمها،-يعني: علم الساعة إلى الله- فإن الملائكة والخلق كلهم ردوا علم الساعة،-يعني: القيامة- إلى الله- ﷻ-".

قال الماتريدي:"أجمع من آمن بالله تعالى، وصدق رسله- عليهم السلام- من

=

=

أهل السماء وأهل الأرض أن ليس عندهم علم بوقت الساعة؛ فإن ذلك خفي عليهم لا يعلمونه، وأن علم ذلك عند الله تعالى، وهو ما قال- ﷻ-: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا...} الآية؛ غير الباطنية والروافض؛ فإن علم ذلك عندهم على مذهبهم وفي زعمهم:

- أما الروافض: فإنهم يعدون الأئمة ويقولون: إن الساعة على إمام كذا، وفي زمان كذا

- وأما الباطنية يقولون: إن اسم الساعة والقيامة ونحو ذلك إنما هو اسم قائم الزمان وإنه فلان، فعلى قولهم يظهر وقت قيامها، فهو خلاف ما ذكر في الكتاب، وما أجمع عليه أهل السماء والأرض، والله أعلم".

قوله تعالى: {وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ}، أي:"وما تخرج من ثمرات من أوعيتها، وما تحمل مِن أنثى ولا تضع حَمْلها إلا بعلم من الله، لا يخفى عليه شيء من ذلك".

قال الطبري:"يقول: وما تظهر من ثمرة شجرة من أكمامها التي هي متغيبة فيها، فتخرج منها بارزة، وما تحمل من أنثى من حمل حين تحمله، ولا تضع ولدها إلا بعلم من الله، لا يخفى عليه شيء من ذلك".

قال ابن كثير:"أي: الجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقد قال تعالى: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا} [الأنعام: ٥٩]، وقال جلت عظمته: {يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: ٨]، وقال {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ} [فاطر: ١١] ".

وفي قوله تعالى: {وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا}، وجهان من التفسير:

أحدهما: حين تطلع. قاله مجاهد، والسدي.

=

=

قال السدي:"من طلعها".

قال الحسن: "{إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السّاعَةِ وما تَخْرُجُ مِن ثَمَراتٍ مِن أَكْمامِها} هذا في النخل خاصَّة حين يطلع، لا يعلم أحدٌ كيف يُخرجه الله".

الثاني: أنها الطلعة تخرج من قشرها. قاله الزجاج.

قال الزجاج:"نحو خروج الطلع من قشره".

قال النحاس:"القول الأول أعم، أي: وما تخرج من ثمرة من غلافها الذي كانت فيه وذلك أول ما تطلع وغلاف كل شيء كمه".

قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي}، أي:"ويوم ينادي الله تعالى المشركين يوم القيامة توبيخًا لهم وإظهارًا لكذبهم: أين شركائي الذين كنتم تشركونهم في عبادتي؟ ".

قال الطبري:"ويوم ينادي الله هؤلاء المشركين به في الدنيا الأوثان والأصنام: أين شركائي الذين كنتم تشركونهم في عبادتكم إياي؟ ".

قال الزجاج:"المعنى: أين قولكم أن لي شركاء، والله- جل وعلا- واحدٌ لا شريك له".

قال النحاس:"{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي}، أي: على زعمكم ".

قال ابن كثير:"أي: يوم القيامة ينادي الله المشركين على رءوس الخلائق: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ ".

قوله تعالى: {قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ}، أي:"قالوا: أعلمناك الآن ما منا من أحد يشهد اليوم أن معك شريكًا".

قال الطبري:"قال هؤلاء المشركون لربهم يومئذ: أعلمناك، ما منا من شهيد يشهد أن لك شريكا".

قال الزجاج:"أَعْلَمْنَاكَ مَا مِنا من شهِيدٍ لَهُم".

=

=

قال ابن كثير:"أي: أعلمناك، ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكا".
عن ابن عباس، قوله: "{آذَنَّاكَ}، يقول: أعلمناك".
وقال السدي:"قالوا: أطعناك ما منا من شهيد على أن لك شريكا".
قال النحاس:"هذا من قول الالهة، أي: أعلمناك، أي: ما منا من شهد أن لك شريكا".
قال ابن قتيبة:"الأصل: أن «الأذن»: هي السامعة، فقيل لكل من صدّق بكلّ خبر يسمعه: أذن، ومنه يقال: آذنتك بالأمر فأذنت، كما تقول: أعلمتك فعلمت، إنما هو أوقعته في أذنك. يقول الله ﷻ: {فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ} [البقرة: ٢٧٩] أي: اعلموا، ومن قرأها «فآذنوا»، أراد: فأعلموا. ومنه ما قالت الشعراء:
آذنتنا ببينها أسماء
ومنه: الأذان، إنما هو إعلام الناس وقت الصلاة، وقوله: وَأَذانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ [التوبة: ٣] أي: إعلام".
وقال العثيمين: قوله تعالى: {إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ} {إِلَيْهِ} أي: إِلَى اللهِ وَحدَهُ، وإِنَّما قُلنا: وَحْدَهُ لِتقديمِ المَعمولِ، وتَقديمُ المَعمولِ يُفيدُ الحَصرَ، وذَلكَ أَنَّ المعمولَ مكانُه أَنْ يَكونَ بَعدَ العامِلِ، فَإِذا تَقدَّمَ فَإِنَّه يَكونُ مِن بابِ تَقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وَالقاعدةُ اللُّغويَّةُ البلاغيَّةُ: أَنَّ تَقديمَ ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحَصرَ، وعلى هَذا فقَولُه: {إِلَيْهِ يُرَدُّ} المعنَى: إِليه لا إِلى غَيره، وأَخَذنا النَّفيَ- لا إِلى غَيره- مِن تَقديمِ المعمولِ؛ لِأَنَّ المعمولَ حَقُّه أَنْ يَكونَ بَعدَ العامل، فَإِذا قُدِّم كان هَذا مِن بابِ تَقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وتَقديمُ ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحصرَ، هَذه قاعدةٌ لُغويَّةٌ بَلاغيَّةٌ.
{يُرَدُّ} أَيْ: يَرجِعُ {عِلْمُ السَّاعَةِ}.
يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [مَتَى تَكونُ لا يَعلمُها غَيرُه]، أَخَذَ هَذا الحصرَ لا يَعلَمُها

=

غَيرُه مِن تَقديمِ المَعمولِ وهو {إِلَيْهِ}.
وهَذا لا شَكَّ فيه أَنَّه لا يَعلَمُ مَتَى تَقومُ السَّاعةُ إِلَّا اللهُ سبحانه وتعالى، ولِهذا قال اللهُ تَعالَى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي} [الأعراف: ١٨٧] يَعني: ما عِلْمُها إِلَّا عِندَ رَبِّي: {لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ} [الأعراف: ١٨٧].
وقال النَّبيُّ ﷺ: "وقَدْ سَأَلَه جِبريلُ: أَخْبِرني مَتَى السَّاعةُ؟ قال: ما المَسؤولُ عَنها بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ".
يعني: أَنَّه لا عِلمَ عِندي كما أَنَّك أنت ليس عِنْدكَ عِلمٌ، وعَلَى هَذا فَمَنِ ادَّعى عِلْمَ السَّاعةِ فهو كاذبٌ لا شَكَّ فيه ثُمَّ هو كافرٌ أيضًا؛ لأنَّه مُكذِّبٌ للقُرآنِ وَالسُّنَّة.
قال اللهُ تَعالى: {إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا} قَوْلُه: {وَمَا تَخْرُجُ} قَدْ يَتراءى لِلإنسانِ أَنَّ (ما) اسمٌ مَوصولٌ يَعني: ويُرَدُّ إِليهِ عِلْمُ: {وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا} ولكنَّ هذا وَهْمٌ، وعَلَى هَذا فنَقُولُ: (ما) نافيةٌ.
يَقُولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ["وَما تَخرُجُ مِن ثَمَرَةٍ" وَفي قِراءةٍ {ثَمَرَاتٍ}. المفسِّر فَسَّر على قِراءةِ "ثَمَرةٍ" مُفردةٍ، والقراءَةُ الَّتي بَين أَيْدينا في المصحفِ {مِنْ ثَمَرَاتٍ}، وَاعْلَمْ أنَّ للمُؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ اصطلاحًا وهو أَنَّه إذا قال: [وفي قراءةٍ] فَهي سَبْعيَّةٌ، وَإذا قال: [وقُرِئَ] فهي قراءةٌ شاذَّةٌ ليست مِنَ السَّبْعِ هَذا اصطلاحُ الجَلالَينِ- رَحِمَهُمَا اللهُ-.
إِذنْ: في قِراءةِ {ثَمَرَاتٍ} القراءةُ هَذه سَبْعيَّةٌ يَعني: أَنَّها ثابتةٌ تَجوزُ القراءَةُ بِها في الصَّلاةِ، وَتَكونُ حُجَّةً في الأحكام الشَّرعيَّةِ وَفي الأَخبارِ العلميَّة.
فَأَمَّا عَلَى صيغةِ الجمعِ فَواضحٌ {مِنْ ثَمَرَاتٍ} كُلُّ الثَّمراتِ، وأَمَّا على صيغَةِ الإفرادِ فَهي أيضًا تُفيدُ العمومَ؛ لِأَنَّ "ثمرة" نكِرَةٌ في سياقِ النَّفيِ مُؤكَّدةٌ بِمِن

=

الزَّائدةِ فتَشملُ جَميعَ الثَّمراتِ، وعَلَى هَذا فَلا اختلافَ في المَعنَى بين {ثَمَرَاتٍ} وَ"ثمرة".

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثمرة}، وفي قِراءةٍ {ثَمَرَاتٍ} {مِنْ أَكْمَامِهَا} أَوعيتُها] الأكمامُ الأَوعيةُ يَقولُ: [جَمْعُ كِمٍّ بِكسرِ الكافِ].

{إِلَّا بِعِلْمِهِ} الأكمامُ هي أَوعيةُ الطَّلِّ هَذا مَعروفٌ في النَّخلِ، وكَذلكَ مَعروفٌ في الأزهارِ تَجِدُ الزَّهرةَ عَليها غِلافٌ يُسمَّى كِمًّا، فما تَخرجُ مِن ثَمَرَةٍ مِنْ كِمِّها إِلَّا بِعِلمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَيُّ ثَمَرةٍ تكونُ صَغيرةً أَوْ كَبيرةً مَأكولةً أَوْ غَيرَ مَأكولةٍ، فَهي بِعِلمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ووَجْهُ كَونِها بِعِلمهِ أَنَّ هَذه الثَّمراتِ مَخلوقةٌ للهِ، وكُلُّ مَخلوقٍ للهِ فَهو مَعلومٌ لَه لِقولِه تَعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: ١٤].

فأَنت مَتَى أَقْرَرْتَ أَنَّ اللهَ خالقُ هَذه لَزِمَ مِن إِقْرارِك أَنْ يَكونَ اللهُ عالمًا بِها؛ لِأَنَّه لا يُمكنُ أَنْ يَخْلُقَها وهو لا يَعلمُ، ولِهَذا استدَلَّ اللهُ لِذلك بِدَليلٍ عَقليٍّ: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}.

قال اللهُ تَعالى: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} [فصلت: ٤٧]، {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى} أَيْ: أُنْثى مِن بَني آدَمَ أو مِن الحَيوانِ ما تَحملُ ولا تَضَعُ إِلَّا بعِلمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فابتداءُ الحملِ مَعلومٌ عِندَ اللهِ، ووَضْعُه كَذَلكَ مَعلومٌ عِندَ اللهِ تبارك وتعالى.

نَرجِعُ إِلى قَولِهِ: {مِنْ أُنْثَى} وإِلَى قَولِه: {مِنْ ثَمَرَاتٍ} الإِعرابُ {مِنْ} حَرفُ جَرٍّ زائدٌ مِن حَيثُ الإِعرابُ وليس زائدًا مِن حَيثُ المعنَى؛ لِأَنَّه يُفيدُ مَعنًى وَهو التَّوكيدُ، وعَلَى هَذا فنَقولُ: {مِنْ ثَمَرَاتٍ} {مِنْ} حَرفُ جَرٍّ زائدٌ وَ {ثَمَرَاتٍ} فاعلٌ مَرفوعٌ بِضمَّةٍ مُقدَّرةٍ عَلَى آخِرِه مَنَعَ مِن ظُهورِها اشتغالُ حَركَةِ المَحلِّ بِحرفِ الجرِّ الزَّائدِ، وكَذلِك يُقالُ: {مِنْ أُنْثَى} {مِنْ} حَرفُ جَرٍّ زائدٌ وَ {أُنْثَى} فاعلٌ مَرفوعٌ بضَمَّةٍ مُقدَّرةٍ عَلَى آخِرِه، مَنَعَ مِن ظُهورِها التَّعذُّر، وهو في مَحلِّ جَرٍّ

=

=

لَفظًا لِدخولِ {مِنْ} عَليهِ.

وقَولُه: {إِلَّا بِعِلْمِهِ} بعِلْمهِ السَّابقِ؛ لِأنَّ عِلمَ اللهِ تَعالى مُحيطٌ بِكلِّ شَيءٍ أَزلًا وأَبَدًا، فَهو يَعلمُ ما تَخرجُ مِن ثَمَراتٍ مِن أَكمامِها إِلى يَومِ القِيامةِ، وَكَذلكَ ما تَحملُ مِن أُنثَى وَما تَضعُ.

ثُمَّ قال ﷻ: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي} {وَيَوْمَ} ظَرفٌ والظَّرفُ يَحتاجُ إِلَى ما يَتعلَّقُ به؛ لِأنَّه مَفعولٌ فيه، وَإِذا كانَ مَفعولًا فيه فَلا بُدَّ مِن فِعلٍ يَكونُ عامِلًا فيه، وَالعامِلُ في هَذا مُقدَّرٌ، وَالتَّقديرُ: "وَاذْكُرْ يَومَ يُناديهم أَينَ شُركَائِي.." إلى آخرِه، ومِثْلُ هَذا التَّعبيرِ مَوجودٌ في القُرآنِ كَثيرًا.

وإِنَّما أَمَرَ اللهُ تَعالَى نَبيَّهُ بِذِكرِهِ تخويفًا لِهؤلاءِ المُكذِّبينَ، وتَسليةً لِرَسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم-.

وقَولُه: {يُنَادِيهِمْ} أَيْ: يَدعوهمْ بِصوتٍ رَفيعٍ؛ لِأنَّ النِّداءَ يَكونُ بِصَوتٍ رَفيعٍ والمُناجاةُ تَكونُ بِصوتٍ أَدنَى، وفاعِلُ {يُنَادِيهِمْ} هو اللهُ بِدَليلِ قَولِهِ: {أَيْنَ شُرَكَائِي} يَعني: أَنَّ اللهَ تَعالى يُنادي هَؤلاءِ المُشرِكينَ يَقولُ: {أَيْنَ شُرَكَائِي}، وَهذا الِاستِفهامُ لِلتَّعجِيزِ وَالتَّوبيخِ أيضًا، فَهو جامِعٌ بَينَ مَعنيَينِ: التَّعْجيزِ، وَالثَّاني التَّوبيخُ. يَعني: أَينَ الَّذينَ أَشركتُم مَعي؟

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{قَالُوا آذَنَّاكَ} أَعلَمناكَ الآنَ: {مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ}] آذَنَ بِمعنَى أَعلَمَ، ومنهُ قَولُه تَعالى: {وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة: ٣] أَيْ: إِعلَامٌ مِنَ اللهِ ورَسولِه (فَآذَنَ) بِمعنَى أَعْلَمَ، ومِنه في الحَديثِ: أَنَّ الرَّسولَ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- قَالَ لِلنِّساءِ اللَّاتي يَغسِلْنَ ابْنتَه: "إِذا فَرَغْتُنَّ فَآذِنَّني". أي: أَعْلِمْنَني.

قَالَ اللهُ تَعالى: {آذَنَّاكَ}، يَقولُ المفسِّر: [أَعْلمناكَ الآنَ] فَأفادَ المفسِّر بِقولِه: الآنَ أَنَّ الفعلَ الماضيَ {آذَنَّاكَ} بمَعنَى المُضارعِ، فَهوَ إِذن جُملَةٌ خَبريَّةٌ حاليَّةٌ بِمعنَى

=

=

الآنَ نُعلِمُكَ، {مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ} . وقيلَ: {آذَنَّاكَ} إِنَّها فِعلٌ ماضٍ عَلى بابِها، فَهي بِمعنَى الخبرِ عن شَيءٍ ماضٍ.

فعِندَنا قَولانِ هَلِ الإِعلامُ هُنا يَومَ القيامةِ كَما قال المفسِّر: أَعْلمناكَ الآنَ، أَمْ هو إعلامٌ سابقٌ في الدُّنيا؟

إِنْ نَظرْنا إِلَى ظاهرِ اللَّفظِ نُرجِّحُ أَنَّه إِعلامٌ في الدُّنيا يَعني: أَعلمْناكَ في الدُّنيا فَيكونُ عَلى ظاهرِه، لَكنْ يَشكُلُ عَلى هَذا التَّفسيرِ أَنَّ واقعَ حالِهم لا يَدُلُّ عَلَى هَذا؛ لِأَنَّهم مُشركونَ فِعلًا فَكَيْفَ يُؤذِنونَه أَنَّه ما منهم مِن شَهيدٍ بذلكَ، أَجابَ القائِلونَ بهذا أنَّ المَعْنَى {آذَنَّاكَ} بِحَسَبِ الفِطرةِ وَما في قُلوبِنا؛ لِأَنَّه ما مِن مَوْلودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الفِطرةِ.

{آذَنَّاكَ} صيغَتُها فِعلٌ ماضٍ يَقتضي أَنْ يَكُونَ هَذا الإِعلامُ سابقًا عَن وَقْتِ الخِطابِ، هَذهِ واحدَةٌ. وَالثَّانيةُ: {آذَنَّاكَ} فِعْلٌ ماضٍ لَكنْ يُرادُ به الخَبرُ عَنِ الحالِ الحاضرَةِ، فَهو بِمعنى نَحنُ نُؤذِنُك الآنَ، وهَذا التَّفسيرُ مُخالفٌ لِظاهِرِ اللَّفظِ لَكنَّه مُوافقٌ لِواقِعِ حالِهِمْ.

التَّفسيرُ الأَوَّلُ مُوافقٌ لِلَّفظِ لكنَّه مُخالفٌ لِظاهِرِ حالِهِمْ؛ لِأَنَّهم لا يُعْلِمونه بِذلِكَ، إذ إِنَّهم مُشركون فِعلًا، وأَجابَ هَؤلاءِ الَّذين يَقولون: إِنَّه آذَنَكَ في الدُّنيا أَنَّهمْ أَعْلَموه بِحسَبِ الفِطرةِ الَّتي فُطِرُوا عَليها؛ لِأَنَّه ما من مَولودٍ يُولَدُ إِلَّا على الفِطرةِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ} أَيْ: شاهدٌ بِأنَّ لَكَ شَريكًا].

{مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ} {مَا} نافيةٌ و {مِنَّا} جارٌّ ومَجرورٌ خَبرٌ مُقدَّمٌ و {مِنْ} حَرْفُ جَرٍّ زائدٌ إِعْرابًا، وَ {شَهِيدٍ} مُبتدأٌ مَرفوعٌ بِضمَّةٍ مُقدَّرةٍ عَلى آخِرِه مَنعَ مِن ظُهورِها اشْتغالُ المحلِّ بِحركَةِ حَرفِ الجرِّ الزَّائِدِ.

يَعني: أَنَّنا قَد أَقْرَرنا بِأَنَّه لا أَحَدَ مِنَّا يَشهدُ بِأَنَّ لَكَ شريكًا، وهم يَقولون هَذا الآنَ لَكنَّه لا يَنْفعُهم؛ لِأَنَّه إِقرارٌ بَعدَ مُعاينةِ العَذابِ، وَالإِقْرارُ بَعدَ مُعاينةِ العَذابِ لَيس

=

وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨).

{وضل} غاب {عنهم ما كانوا يدعون} يعبدون {من قبل} في الدنيا من الأصنام {وظنوا} أيقنوا {ما لهم من محيص} مهرب من العذاب والنفي في الموضعين معلق عن العمل وجملة النفي سدت مسد المفعولين(١).

=

بِنافِعٍ؛ ولهذا أَقَرَّ فِرعَونُ حينَ أُغْرِقَ بِأنَّه: {لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ}، ولكنَّه لَمْ يَنفَعْه فَقيلَ: {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس: ٩١].

(١) قوله تعالى: {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ}، أي:"وذهب عن هؤلاء المشركين شركاؤهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله، فلم ينفعوهم".

قال الطبري: يقول:"وضلّ عن هؤلاء المشركين يوم القيامة آلهتهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا، فأخذ بها طريق غير طريقهم، فلم تنفعهم، ولم تدفع عنهم شيئا من عذاب الله الذي حلّ بهم".

قال ابن كثير:"أي: ذهبوا فلم ينفعوهم".

قوله تعالى: {وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ}، أي:"وأيقنوا أن لا ملجأ لهم من عذاب الله، ولا محيد عنه".

قال الطبري: "يقول: وأيقنوا حينئذ ما لهم من ملجأ: أي ليس لهم ملجأ يلجئون إليه من عذاب الله".

قال ابن كثير:"أي: وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين، {مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} أي: لا محيد لهم عن عذاب الله، كقوله تعالى: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} [الكهف: ٥٣] ".

قال الزجاج: {ظَنُّوا} " أَي: أيقنوا".

قال السدي:"استيقنوا أنه ليس لهم ملجأ".

=

=

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا} {مَا} اسْمٌ مَوصولٌ فاعلٌ بِمعنَى الَّذي.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مَا كَانُوا يَدْعُونَ} يَعبُدونَ {مِنْ قَبْلُ} في الدُّنيا مِن الأصنام] أَصْنامَهُم الَّتي كانوا يَتعلَّقونَ بِها وَيَعْبُدونها لِتُقرِّبَهم إِلَى اللهِ زُلفى، في ذَلكَ اليَومِ الَّذي هُمْ أَشدُّ ما يَكونون حاجَةً لَها تَغيبُ عَنهم ولا تَنْفعُهم؛ وَلِهَذا قال: {وَضَلَّ عَنْهُمْ} أَيْ: ضاعَ وغابَ ما كانوا يَدعون، أَيْ: يَعْبُدونَ مِنْ قَبلُ، ويُريدُ بِذلكَ الأَصنامَ الَّتي كانوا يَعبُدونها في الدُّنيا.

مَثلًا النَّصارى يَعْبُدونَ عيسى ابنَ مَرْيمَ، وقُريشٌ تَعبُدُ اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ وهُبَلَ، ومِنهم مَنْ يَعبُدُ النَّارَ كَالمَجوسِ، ومَنْ يَعبُدُ الشَّمسَ، ومَنْ يَعبُدُ القمرَ.. إِلَخْ، هَذه الأصنامُ الَّتي تُعبَدُ مِن دونِ اللهِ لا تَنفعُهم يَومَ القيامةِ؛ ولهذا قَالَ: {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ} [فصلت: ٤٨]، ورُبَّما نَفْهَمُ مِن قولِه: {وَضَلَّ عَنْهُمْ} أَنَّهم ذَهبوا يَطلُبونها يَبحثونَ عَنْها، ولَكنَّها ضَلَّت وضاعَت، ويَكونُ هَذا أَشدَّ حَسرةً في نُفُوسِهم أَنَّهم طَلبوها في وَقتِ الحاجةِ وَلكنْ لَمْ يَجِدوها.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَظَنُّوا} أيقنوا {مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} ظَنَّ هُنا بمَعنَى أَيقنَ، والظَّنُّ يَأتي كَثيرًا بمَعنَى اليَقينِ، قال اللهُ تَعالى: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} [الكهف: ٥٣] إذن ظَنُّوا بمَعنَى أَيْقَنوا، وقالَ اللهُ تبارك وتعالى: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ} [البقرة: ٤٦] معنى يَظُنُّونَ: أي: يُوقِنون أَنَّهمْ مُلاقو رَبِّهم، ولو كانَ الظَّنُّ بمعنى الشَّيءِ الرَّاجحِ لَمْ يكونوا مُؤمِنينَ، لَكنْ يَظُنُّونَ بمَعْنى يُوقِنون، إذن الظَّنُّ في اللُّغةِ العربيَّةِ يَأتي بِمعنى اليَقينِ، {وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} أَيقَنوا.

وقَولُه: {مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} فِيها تَقديمٌ وتَأخيرٌ وتَوكيدٌ، التَّقديمُ والتَّأخيرُ أَنَّه قَدَّم فيها الخَبرَ وَأخَّر فيها المُبتدَأَ، وَالخَبرُ {لَهُمْ} وَالمُبتدأُ {مَحِيصٍ}، فيها أيضًا

=

لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩).

{لا يسأم الإنسان من دعاء الخير} أي لا يزال يسأل ربه المال والصحة

=

تَوكيدٌ وهو {مِنْ} الزَّائدةُ؛ لِأنَّ مَحيصَ مُبتدأٌ مُؤَخَّرٌ ودَخلَتْ عَليه {مِنْ} الزَّائدةُ للتَّوكيدِ، وإِعْرابُه أَنَّه مُبتدأٌ مَرفوعٌ بِالِابْتِداءِ، وعَلامَةُ رَفعِه ضَمَّةٌ مُقدَّرةٌ عَلى آخِره مَنَعَ مِن ظُهورِها اشتغالُ المَحلِّ بِحَركَةِ المُناسبةِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مَحِيصٍ} مَهْربٌ مِنَ العَذابِ] يَعني: أَيقَنوا أَنَّه لا مَهْربَ لهم مِنَ العذابِ ولا مَفرَّ لَهمْ مِنه، وأَنَّه واقعٌ بِهمْ لا مَحالةَ.

ثُمَّ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [والنَّفيُ في المَوضعينِ مُعلَّقٌ عَنِ العَمَلِ، وجُملةُ النَّفيِ سَدَّت مَسدَّ المَفعولَينِ].

النَّفيُ في المَوضِعينِ:

المَوضِعُ الأوَّلُ: {قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ} هَذهِ {مَا} نافِيةٌ مُعلَّقةٌ عَنِ العَمل؛ لِأنَّ {آذَنَّاكَ} أَعْلمناكَ وَهي تَنْصبُ ثلاثةَ مفاعيلَ، تَقولُ مَثلًا: أَعْلمتُ زيدًا عَمرًا قائمًا، نَصَبتْ ثلاثةَ مَفاعيلَ زيدًا وعَمرًا وقائمًا، وهُنا {آذَنَّاكَ} المفعولُ الأوَّلُ مَوجودٌ وهو الكافُ، والمفعولُ الثَّاني وَالثَّالثُ مُعلَّقٌ أَغنت عَنهما جُملةُ الِاستفهامِ: {مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ}، وَعَلَى هَذا فَتكونُ جُملةُ: {مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ} كُلُّها تَكونُ في مَوضعِ نَصْبٍ سَدَّت مَسدَّ مَفْعولَيْ آذَنَ.

المَوضعُ الثَّاني: {وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} (ظَنَّ) هَذه تَنْصِبُ مَفعولينِ، وهُنا عُلِّقتْ عَنِ العَملِ بِجُملةِ النَّفيِ وَهي قَولُه: {مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ}، وعَلَى هَذا فَيكونُ: {مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} جُملةً في مَحلِّ نَصبٍ سَدَّت مَسدَّ مَفعولَي (ظَنَّ)، وهَذا الإِعرابُ في الحَقيقَةِ لا يُدْركُه إِلَّا مَنْ كان عِنده عِلمٌ بِالمفاعيلِ لكنَّا نَحنُ الآنَ شَرحْناه، فَمَنْ فَهِمَه فَهذا المَطلوبُ، وَمَنْ لم يَفهَمْه فَإِنَّه لا يَضُرُّه؛ لأنَّه ليست لَهُ عِلاقةٌ بِالمَعْنى عِلاقَتُه إِنَّما هو بِالإِعرابِ فَقط.

وغيرهما {وإن مسه الشر} الفقر والشدة {فيؤس قنوط} من رحمة الله وهذا وما بعده في الكافرين(١).

(١) قوله تعالى: {لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ}، أي:"لا يملُّ الإنسان من دعاء ربه طالبًا الخير الدنيوي".

قال الطبري: يقول: "لا يمل الكافر بالله من دعائه بالخير، ومسألته إياه ربه. و «الخير» في هذا الموضع: المال وصحة الجسم، يقول: لا يملّ من طلب ذلك".

قال الزجاج:"لا يَمَل الخير الذي يُصيبه".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: لا يَمَلّ الإنسان من دعائه ربّه بالخير- وهو: المال، وصحة الجسم، وغير ذلك".

قال البيضاوي: أي:"لا يمل من دعاء الخير من طلب السعة في النعمة".

وقال سهل:"لا يمل من ذكر ربه وشكره وحمده والثناء عليه".

عن السديّ:"{لا يَسْأَمُ الإنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ}، يقول: الكافر".

عن ابن زيد، قوله:"{لا يَسْأَمُ الإنْسَانُ}، قال: لا يمل".

وفي قراءة عبد الله: «لا يَسْأَمُ الإنْسَانُ مِنْ دَعَاءٍ بالخَيْر».

قوله تعالى: {وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ}، أي:"وإن أصابه فقر وشدة فهو يؤوس من رحمة الله، قنوط بسوء الظن بربه".

قال الطبري: يقول: "يقول: وإن ناله ضرّ في نفسه من سُقم أو جهد في معيشته، أو احتباس من رزقه، فإنه ذو يأس من روح الله وفرجه، قنوط من رحمته، ومن أن يكشف ذلك الشرّ النازل به عنه".

قال الزجاج:"وإذا اختبر بشيء من الشر يئس وقنط".

قال ابن كثير:"وإن مسه الشر- وهو البلاء أو الفقر- {فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ}، أي: يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير".

=

=

قال البيضاوي: أي:"قنوط من فضل الله ورحمته وهذا صفة الكافر لقوله: إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون وقد بولغ في يأسه من جهة البنية والتكرير وما في القنوط من ظهور أثر اليأس".

عن السديّ:"{وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ}، قانط من الخير".

قال ابن عطية:"«الْخَيْرِ» في هذه الآية: المال والصحة، وبذلك تليق الآية بالكافر، وإن قدرناه خير الآخرة فهي للمؤمن، وأما اليأس والقنط على الإطلاق فمن صفة الكافر وحده".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {لَا يَسْأَمُ} يَعني: لا يَمَلُّ فَهو دائمًا يَسألُ الخيرَ مِنَ المالِ والغِنى وَالجاهِ وغَيْرِ ذَلكَ.

و{الْإِنْسَانُ} هُنا يَحتَمِلُ أنْ يَكُونَ المُرادُ بِهِ الكافرَ ويَحتمِلُ أَنْ يُرادَ بِه الجِنسُ أَيْ: جِنسُ الإِنسانِ سَواءً كان مُؤمنًا أم كافرًا، ثُمَّ تَنْزِلُ الأحوالُ على ما يَليقُ بِها.

{دُعَاءِ} مُضافٌ وَ {الْخَيْرِ} مُضافٌ إِليهِ مِن بابِ إِضافةِ المَصدرِ إِلَى مَفعولِهِ، وهو أيضًا -أَعنِي الخَيرَ- مَفعولٌ لِدُعاء، وَالمَدعوُّ هو اللهُ ﷻ فعِندنا داعٍ ومَدعوٌّ ومَدعوٌّ به أي: مَطْلوبٌ، فالدَّاعي الإِنسانُ، والمدعوُّ اللهُ، والمَدعوُّ به الخيرُ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [أَيْ: لَا يَزالُ يَسأَلُ رَبَّه المالَ وَالصِّحَّةَ وغَيرَهما] مِنَ البَنينَ وَالزَّوجاتِ وَالجاهِ وَالشَّرَفِ، وغَيرِ ذَلكَ مِمَّا يَدعوه الإِنسانُ رَغبةً به.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: {وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ} الفقرُ وَالشِّدَّةُ]، وتَخصيصُ الشَّرِّ بِالفَقرِ وَالشِّدَّة ليس على سَبيلِ الحَصْرِ، بَلْ هو على سبيلِ المِثالِ؛ لِأَنَّه يَشمَلُ الفَقْرَ والشِّدَّةَ وفَقْدَ الأولادِ، وَفَقْدَ الجاهِ، وَالإيذاءَ مِنَ الخَلْقِ وأَشياءَ كَثيرَةً، فتَخصيصُ المفسِّر ذَلكَ بِالفَقْرِ وَالشِّدَّةِ مِن بابِ التَّمثيلِ.

قال اللهُ تَعالى: {وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ} الفاءُ رابطةٌ لجِوابٍ وَهو (إن) و {فَيَئُوسٌ} خَبرٌ لِمُبتدإٍ مَحذوفٍ، أي: فَهو يَؤوسٌ قَنوطٌ.

=

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠).

{ولئن} لام قسم {أذقناه} آتيناه {رحمة} غنى وصحة {منا من بعد ضراء}

=

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِنْ رَحمةِ اللهِ وهَذا وما بَعدَه في الكافرينَ].

{فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ} هُناكَ فَرقٌ بين اليَأسِ والقُنوطِ، اليَأْسُ هو زَوالُ الرَّجاءِ بِحَيْثُ يَنقطعُ رجاءُ الإنسانِ، وَالقُنوطُ أَشَدُّ اليأسِ، وعَلَى هَذا فَيكونُ قَولُه: {فَيَئُوسٌ} هَذا ابْتداءُ القُنوطِ، وَ {قَنُوطٌ} هَذا نِهايتُه.

وَقولُه: {فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ} أَعْرَبْنا {فَيَئُوسٌ} خَبرُ مبتدأٍ محَذوفٍ، وأَمَّا {قَنُوطٌ} فَنُعربُه عَلى أَنَّه خَبرٌ ثانٍ، وتَعدُّد الأخبارِ جائزٌ، واقعٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ وَواقعٌ في القُرآنِ، قالَ اللهُ تَعالَى: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦)} [البروج: ١٤- ١٦] كُلُّ هذه أَخبارٌ مُتعدِّدةٌ وَلا يَصِحُّ أَنْ يَكونَ الثَّاني وَصفًا لِلْأوَّل لأنَّها كُلَّها تَعودُ عَلى مَوصوفٍ واحدٍ. وَعليه فَنَقولُ: {قَنُوطٌ} خَبرٌ ثانٍ لِلمُبتدإِ المحذوفِ، وَلا يَصحُّ أَن يَكونَ نَعتًا لِيَؤوسٍ؛ لأنَّ يَؤوسًا نَفْسَها نَعتٌ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَهذا وَما بَعده في الكافرينَ] هَذا المُشارُ إِليه اليأسُ وَالقُنوطُ، وما بَعدَه سَيُذكَرُ في الكافرينَ، وإنَّما قالَ المفسِّر ذَلكَ؛ لأنَّ المُؤمنَ لا يَيأَسُ ولا يَقنَطُ، قالَ اللهُ تَعالى: {إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: ٨٧]، وَقال تَعالى: {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)} [الحجر: ٥٦]، فَلا يُمكنُ لِلمُؤمنِ أَنْ يَيأَسَ، وعَلى هَذا فَيكونُ هَذا الوصفُ لِلكافرينَ.

شدة وبلاء {مسته ليقولن هذا لي} أي بعملي {وما أظن الساعة قائمة ولئن} لام قسم {رَجَعْت إلَى رَبِّي إنَّ لِي عِنْده لَلْحُسْنَى} أي الجنة {فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ} شديد واللام في الفعلين لام قسم[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي}، أي:"ولئن أذقنا الإنسان نعمة منا من بعد شدة وبلاء لم يشكر الله تعالى، بل يطغى ويقول: أتاني هذا؛ لأني مستحق له".

قال الطبري: يقول:"ولئن نحن كشفنا عن هذا الكافر ما أصابه من سقم في نفسه وضرّ، وشدّة في معيشته وجهد، رحمة منا، فوهبنا له العافية في نفسه بعد السقم، ورزقناه مالا فوسعنا عليه في معيشته من بعد الجهد والضرّ، {لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي} عند الله، لأن الله راض عني برضاه عملي، وما أنا عليه مقيم".

قال ابن كثير:"أي: إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان في شدة ليقولن: هذا لي، إني كنت أستحقه عند ربي".

قال الزجاج:"أي: هذا واجب لي، بعملي استحققته، وهذا يعني به الكَافِرُونَ، ودليل ذلك قوله: {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى} ".

عن مجاهد:" {لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي}، أي: بعملي، وأنا محقوق بهذا".

قال ابن عطية:"أي: بعلمي وبما سعيت، ولا يرى أن النعم إنما هي بتفضل من الله تعالى".

قوله تعالى: {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً}، أي: ويقول:"وما أعتقد أن الساعة آتية".

قال مجاهد:"يقول: وما أحسب القيامة قائمة يوم تقوم".

قال الزجاج:"يقول: إني لست أُوقِنُ بالبعث وقيام الساعة".

=

=

قال ابن عطية:"قول بيّن فيه الجحد والكفر".

قال ابن كثير:"أي: يكفر بقيام الساعة، أي: لأجل أنه خُوِّل نعمة يفخر، ويبطر، ويكفر، كما قال تعالى: {كَلا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} [العلق: ٦، ٧] ".

قوله تعالى: {وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى}، أي:"وعلى فرض أن القيامة حاصلة، فليحسننَّ إليَّ ربي كما أحسن إليَّ في هذه الدنيا".

قال الطبري:"يقول: وإن قامت أيضا القيامة، ورددت إلى الله حيا بعد مماتي، إن لي عنده غنى ومال".

قال ابن عطية:"يقول هذا الكافر، ولئن كان ثم رجوع كما تقولون، لتكونن لي حال ترضيني من غنى ومال وبنين".

قال ابن كثير:"أي: ولئن كان ثَمّ معاد فليُحسنَنّ إلي ربي، كما أحسن إلي في هذه الدار، يتمنى على الله، ﷻ، مع إساءته العمل وعدم اليقين".

قال الزجاج: يقول:"فإن كان الأمر على ذلك إن لي عنده للحسنى".

قال البيضاوي:"أي: ولئن قامت على التوهم كان لي عند الله الحالة الحسنى من الكرامة، وذلك لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا فلاستحقاق لا ينفك عنه".

قال مجاهد:"يقول: وإن قامت أيضا القيامة، ورددت إلى الله حيا بعد مماتي. يقول: إن لي عنده غنى ومالا".

عن السديّ، قوله: "{إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى}، يقول: غنى".

قال الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "للكافر أمنيتان، أما في دنياه فهذه: {إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى}. وأما في آخرته: ف {يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا} [النبأ: ٤٠]".

قال ابن عطية:"الأماني على الله تعالى وترك الجد في الطاعة مذموم لكل أحد،

=

=

فقد قال عليه السلام: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله» ".

قال الترمذي: "ومعنى قوله ﷺ: «دان نفسه»، يقول: حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة".

قوله تعالى: {فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا}، أي:"فلنخبرن الذين كفروا يوم القيامة بما عملوا من سيئات".

قال الطبري: يقول: "فلنخبرن هؤلاء الكفار بالله، المتمنين عليه الأباطيل يوم يرجعون إليه بما عملوا في الدنيا من المعاصي، واجترحوا من السيئات، ثم لنجازينّ جميعهم على ذلك جزاءهم".

قال البيضاوي: أي: فلنخبرنهم بحقيقة أعمالهم، ولنبصرنهم عكس ما اعتقدوا فيها".

قوله تعالى: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}، أي:"ولنذيقنهم من العذاب الشديد".

قال الطبري:"وذلك العذاب الغليظ تخليدهم في نار جهنم، لا يموتون فيها ولا يحيون".

قال ابن كثير:"يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال".

قال مقاتل:"يعني: شديد لا يفتر عنهم، وهم فيه مبلسون".

قال البيضاوي: أي: "لا يمكنهم التقصي عنه".

قال ابن عطية:"غلظ العذاب: شدته وصعوبته".

عن أبي مالك، قوله: "{غليظا}، يعني: شديدا".

وقال العثيمين: قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَلَئِنْ} لَامُ قَسَمٍ] و (إِنْ) شَرْطِيَّةٌ [{أَذَقْنَاهُ} آتَيناه {رَحْمَةً} غِنًى وصِحَّةً]، {مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ} {مِنَّا} أي: مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَقولُ

=

المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ) شِدَّةً وبَلاءً] {مَسَّتْهُ} يَعني: أَصابَته {لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي}، أي: بِعملي] انْظُرْ إِلَى حالِ هَذا.

نَبدأُ أَوَّلًا بالإِعرابِ؛ لأنَّ فيه شيءٌ مِنَ الإِشكالِ، قَولُه: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ} إلى قولِه: {لَيَقُولَنَّ}، ففي الجُملةِ الأُولَى {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ} حَرْفُ شَرطٍ، والشَّرطُ يَحتاجُ إِلَى جَوابٍ، وَفي سياقِ الآيةِ لَمْ نَجِدْ جوابًا لِلشَّرطِ، فَجوابُ الشَّرطِ في هَذه الآيةِ مَحذوفٌ؛ لأَنَّه اجْتَمَعَ قَسَمٌ وشَرْطٌ، وَإِذا اجْتَمَعَ القَسَمُ والشَّرطُ حُذِفَ جوابُ المتأَخِّر مِنهما. والقَسَمُ في اللَّامِ والشَّرطُ (إِنْ) والمتأَخِّرُ هو الشَّرطُ، فَيُحذَفُ جَوابُ الشَّرطِ؛ ولهذا جاءَ جوابُ القَسَم في قولِه: {لَيَقُولَنَّ}.

قال ابْنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأَلْفيَّةِ:

واحْذِفْ لَدي اجْتماعِ شَرْطٍ وقَسَمٍ ... جَوابَ ما أَخَّرتَ فَهو مُلتزَمْ

فَهو: أَيْ هَذا الحذفُ.

قَولُه تَعَالَى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ}، آتَيناه لَكِنْ عَبَّر بِالإِذاقةِ عَنِ الإِيتاءِ؛ لأنَّ مَنْ ذاقَ شيئًا فَقدِ انتفعَ به، وَالإِيتاءُ قَد يَنتفعُ بِه الإِنسانُ وَقَدْ لا يَنتفعُ، فَإِذا أَعطيتُكَ خُبْزةً مَثلًا قَد تَنتفعُ مِنهَا وقَد لا تَنتَفعُ، يَعني: قد تَأكلُها وقَد لا تَأكلُها لَكنْ إِذا ذُقتَها فَقد أَكلْتَها وَانتفعتَ بِها؛ فَلِهذا عَبَّر عَنِ الإِتيانِ بِالإِذاقةِ؛ لأَنَّه أَبْلغُ فِي المَماسَّةِ وَفِي الِانتفاعِ.

وقَولُه: {رَحْمَةً مِنَّا} فَسَّر المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرَّحْمةَ بِأَنَّه الغنَى وَالصِّحَّةُ، وهذا مثالٌ ولَيس هو الحصرَ، بَل تَشمَلُ الرَّحمةُ كُلَّ ما هو مَطلوبٌ لِلْإِنسانِ مِن غِنًى وَصِحَّةٍ وَجاهٍ وأَمْوالٍ وبَنينَ وغَيرِ ذَلِكَ.

وقَولُه: {مِنَّا} إِشارةٌ واضحةٌ إِلَى أَنَّ هَذه الرَّحمةَ لَيْست بكَسبِه ولكنَّها فَضْلٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى، فَالغِنَي أَتاه مِن حيث لا يَحتسِبُ، والصِّحَّةُ أَتتْهُ مِن حيثُ لا يَحتسِبُ، والبَنونَ وغَيرُهم، هي مِن عندِ اللهِ، وَواضحٌ أَنَّها مِن اللهِ ولَيستْ بِكَسبِه.

=

وقَولُه: {مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ} رَحمَةٌ مِنْ بَعدِ ضَرَّاءَ يَعني: مَعناه أَنَّه تَيَقَّنَ الضَّررَ ثُمَّ جاءتِ الرَّحمَةُ مِن عِندِ اللهِ، وهَذا أَبلغُ في النِّعمَةِ أَنْ تَأتيَ بَعدَ الضَّررِ؛ لأنَّ النِّعمةَ الدَّائمةَ لا يَحسُّ بِها، لَكنَّ النِّعمةَ الطَّارئةَ بَعدَ الضَّررِ هي الَّتي يَحسُّ بِها؛ ولهذا مَنْ لَمْ يَذُقْ مَرارةَ المَرضِ، فَإِنَّه لا يَتذوَّقُ حَلاوةَ الصِّحَّةِ حتَّى في الأُمورِ الشَّرعيَّةِ، قالَ عُمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا يَنقُدُ الإسلامَ إِلَّا مَن لَمْ يَعرِفِ الجاهليَّةَ أو كَلِمةً نَحوَها.

يَعْني: الَّذي لا يَعرفُ الكُفْرَ لا يَعرفُ قَدرَ الإيمانِ، كَذلكَ أيضًا الرَّحمَةُ إذا كانت مُستديمةً مُستمِرَّةً لا يَحسُّ بِها الإنسانُ، لَكنْ إذا جاءَت مِن بَعدِ الضَّررِ أَحسَّ بها وذاق لَها طَعمًا، وأَضْرِبُ لَكُمْ مثلًا الآنَ في النَّفَس، النَّفَس نِعمةٌ كَبيرةٌ مِن أَكْبرِ النِّعَمِ، الإنسانُ لا يَحسُّ بِه، ما دامتِ النِّعمةُ مُستَمِرَّةً لكن لو أُصيبَ بِكَتمِ النَّفَس وحَجْبِهِ ثُمَّ فُرِجَ عَنْهُ لَوَجَدَ لهذا النَّفَسِ نِعْمةً عَظيمةً وأثرًا عَظيمًا، كَذلكَ المَرضُ فَالإنسانُ الصَّحيحُ المُستمرُّ في صِحَّتِه لا يَعرِفُ قَدْرَها لكن لو مَرِضَ ثُمَّ شُفِيَ تَبَيَّنَ له قَدْرُ النِّعمَةِ.

وَالرَّحمةُ الَّتي ذَكرها اللهُ هنا رَحمةٌ مِنْ بَعدِ الضَّرَّاءِ، فَيكونُ لها أثرٌ بالغٌ أَعظمُ مِمَّا لو كانتِ الرَّحمةُ مُستمرَّةً.

إذا أَذاقَه اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَحمةً من عندِه مِنْ بَعدِ الضَّرَّاءِ {لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي}، {هَٰذَا} جوابُ القَسَمِ، يَعني: يَقولُ هَذا لِي.

قَولُه تَعالى: {هَٰذَا لِي} أَيْ: هَذا بِعَمَلي فَتَكونُ اللَّامُ بمعنى مِنْ؛ أي: هذا مِنِّي وليس مِن اللهِ، وقيل: اللَّامُ للاستِحقاقِ، يَعني: أَنِّي مُستحِقٌّ له فَلا مِنَّةَ للهِ عَلَيَّ به لأَنِّي له أَهلٌ، فأنا حَقيقٌ به، المفسِّر مَشَي على القولِ الأوَّلِ وهو أنَّ اللَّامَ بمعنى مِن؛ أي: لَيَقُولَنَّ هذا مِنِّي وأَنا الَّذي اكْتَسبتُه أَنا الَّذي اتَّجرْتُ، وما أَشبهَ ذلك. القولُ الثَّاني: يَقولُ: هَذا مِنَ اللهِ. لكن لا مِنَّةَ له عَلَيَّ به؛ لأَنِّي مُستحِقٌّ له، والآيةُ

=

=

تَحتَملُ هذا وهذا.

والقاعدةُ في التَّفسيرِ: أَنَّه إِذا كانت الآيةُ تَحتَملُ مَعنيينِ لا يُنافي أَحدُهما الآخرَ، فإِنَّها تُحملُ عَليهما جَميعًا إِذا لَمْ يُوجَدْ مُرَجِّحٌ لِأحدِهما.

قال اللهُ تَعالَى: {لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً} نَسأَلُ اللهَ العافيةَ، يَعني: ظَنَّ أَنَّه مخُلَّدٌ لمَّا جاءَته هَذه الرَّحمةُ قال: إذن لا بَعْثَ ولا جَزاءَ، {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً} ثُمَّ قال: {وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى} يَعني: عَلى فَرضِ أَنْ تَقومَ السَّاعةُ وأُرَدُّ إِلَي اللهِ، فإِنَّ الَّذي نَعَّمَني في الدُّنيا سَيُنعِّمُني في الآخرةِ؛ ولهذا قال: {وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى}، يَقُولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَي: الجنَّةَ].

نَقولُ في إِعرابِ: {وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي} ما قُلناه في: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ}؛ لأنَّه اجْتمعَ قَسَم وشَرْطٌ، وتَأخَّر الشَّرطُ فَحُذِفَ جَوابُه وبَقِيَ جَوابُ القَسَمِ في قَولِه: {إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى} فتَجِدُ هذا الرَّجلَ مِن غرورِه-وَالعِياذُ بِاللهِ- أَنَّه أَكَّدَ بِالقَسَمِ و {إِنَّ} و (اللَّامُ) القَسَمُ في قولِه: {وَلَئِنْ} و {إِنَّ} في قولِه: {إِنَّ لِي} واللَّامُ في قولِه: {لَلْحُسْنَى} فهو أَكَّدَ أَنَّه علي فَرْضِ أَنْ يَرجِعَ إِلَي اللهِ فَسيجِدُ الحُسنى وهي الجنَّةُ كما قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، وأَخَذَ المفسِّر هذا التَّفسيرَ مِنْ تَفسيرِ النَّبيِّ ﷺ في قَولِه تَعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦] حَيثُ قَالَ: "إِنَّ الحُسنى الجنَّةُ والزِّيادةُ النَّظَرُ إِلي وَجهِ اللهِ".

إذن هذا الرَّجلُ مَغرورٌ في غايةِ الغُرورِ:

أَوَّلًا: أَنَّه أَضاف النِّعمةَ الَّتي حَصلَتْ له في الدُّنيا أَضافَها إِلَي نَفْسِه، إِمَّا مُباشرَةً هو الَّذي حصَّلَها من دونِ اللهِ، وإِمَّا لأَنَّه مُستحِقٌّ لها فلا فَضْلَ للهِ عليه بها.

الغُرورُ الثَّاني: أَنَّه أَنكرَ البَعثَ لِقولِه: {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً}.

الغُرورُ الثَّالثُ: أَنَّه علي فَرْضِ أَنَّ السَّاعةَ قائمةٌ فَسيَجدُ عندَ اللهِ ما هو أَحسنُ:

=

=

{إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى}.

فإن قال قائلٌ: هَل للإنسانِ أَنْ يَنْسِبَ الخيرَ إلِي نَفسِهِ وهو يَعترِفُ بِفضلِ اللهِ عليه؟

فالجَوابُ: إضافةُ العملِ إلَي النَّفْس جائزةٌ حتَّى إنَّ الرَّسولَ عليه الصلاة والسلام قال في عَمِّه أَبي طالبٍ: "لَولا أَنا لكانَ في الدَّركِ الأسفلِ مِن النَّارِ"، لكنَّ الإنسانَ يُضيفُه إلِي نَفسِهِ، كما قال هذا الكافرُ: {هَذَا لِي} هَذا بِعَملي أَوْ أَتاني مِنَ اللهِ لأنِّي مُستحِقٌّ له، هَذا لا يَصلُحُ.

قال اللهُ تعالى: {فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} {فَلَنُنَبِّئَنَّ} أي: نُخبرنَّ، والفاءُ عاطفةٌ واللَّامُ مُوطِّئةٌ للقَسَمِ المَحذوفِ، والتَّقديرُ: فَواللهِ لَنُنبِّئنَّ.

إذن الجُملةُ مُؤكَّدةٌ بثَلاثةِ مُؤكِّداتٍ {فَلَنُنَبِّئَنَّ} المؤكِّدُ الأوَّلُ القَسَمُ، والثَّاني: (اللَّامُ)، والثَّالثُ: نونُ التَّوكيدِ في قَولِه: {فَلَنُنَبِّئَنَّ} وَالضَّميرُ في قَولِه: {فَلَنُنَبِّئَنَّ} يَعودُ عَلى اللهِ ﷻ وعادَ إليه بصيغَةِ الجَمعِ مِن بابِ التَّعظيمِ وَإلَّا فاللهُ إلهٌ واحدٌ.

{فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا} أَيْ: بالَّذي عَمِلوه نُخبرُهم بِذلكَ يَومَ القيامةِ، وكَيفيَّةُ هذا أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يُحصي أَعمالَهم يَومَ القيامةِ، فَيُنادِي عَليهم على رُؤوسِ الأَشهادِ بِأنَّه قَد أَخزاهُم الله: {أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: ١٨].

ثم يَقولُ: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} يَعني: بَعدَ أَنْ نُنبِّئَهم ويُقِرُّوا بِذلكَ نُذيقُهم {مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}، يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [شَديدٍ واللَّامُ في الفِعلَينِ لَامُ القَسَمِ] وَالفِعلانِ هما: {فَلَنُنَبِّئَنَّ} {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ}.

في هَذه الآيَةِ وَالَّتي قَبلَها بَيانُ حالِ الإنسانِ الكافرِ وَهو كُفرُه بِنِعمةِ اللهِ ﷻ واعْتزازُه بِنَفسِه؛ لِقَولِه: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا

=

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١).

{وإذا أنعمنا على الإنسان} الجنس {أعرض} عن الشكر {وناء بجانبه} ثنى عطفه متبخترا وفي قراءة بتقديم الهمزة {وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض} كثير(١).

=

لِي}؛ فَإِنَ هَذا يَدُلُّ علي كُفرِه الشَّديدِ، وَاعتزازِه بِنفسِه وَإِعجابِه بِها.

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ}، أي:"وإذا أنعمنا على الإنسان بصحة أو رزق أو غيرهما أعرض وترفَّع عن الانقياد إلى الحق".

قال الطبري: يقول" وإذا نحن أنعمنا على الكافر، فكشفنا ما به من ضرّ، ورزقناه غنى وسعة، ووهبنا له صحة جسم وعافية، أعرض عما دعوناه إليه من طاعته، وصدّ عنه، وبعد من إجابتنا إلى ما دعوناه إليه، ويعني: بـ«جانبه»: بناحيته".

قال ابن كثير:"أي: أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله، ﷻ، كقوله تعالى: {فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ} [الذاريات: ٣٩] ".

قال سهل: {أَعْرَضَ وَنَأَى بِجانِبِهِ}،" يعني: عن الدعاء والشكر على ما أنعم به عليه، واشتغل بالنعمة، وافتخر بغير مفتخر به".

عن السديّ، قوله: "{أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ}، يقول: أعرض: صدّ بوجهه، و {نأى بجانبه}، يقول: تباعد".

قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ}، أي:"وإن أصابه ضر فهو ذو دعاء كثير بأن يكشف الله ضرَّه".

قال الصابوني:"أي: وإذا أصابه المكروه فهو ذو دعاء كثير، يديم التضرع ويكثر من الابتهال، وهكذا طبيعة الإنسان الجحود والنكران، يعرف ربه في البلاء

=

وينساه في الرخاء".

قال ابن كثير:"{وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ}، أي: الشدة، {فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ}، أي: يطيل المسألة في الشيء الواحد، فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز: عكسه، وهو: ما قل ودل. وقد قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ} [يونس: ١٢] ".

قال الفراء:"يقول: ذو دعاء كثير، إن وصفته بالطول والعرض فصواب".

قال الطبري:"يعني بـ «العريض»: الكثير".

قال الزجاج:"«عريضٌ»-ههنا-: كبير، وكذلك لو كان ذو دعاء طويل كانَ معناه: كبيرٌ".

عن السديّ: "{فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ}، يقول: كثير، وذلك قول الناس: أطال فلان الدعاء: إذا أكثر، وكذلك أعرض دعاءه".

قال الرازي:"استعير «العرض» لكثرة الدماء ودوامه، وهو من صفات الأجرام، ويستعار له الطول أيضا كما استعير «الغلظ» لشدة العذاب".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ} يَعني: أَعْطيناهُ نِعمةً والنِّعمةُ تَدورُ على شَيئينِ: علي حُصولِ المَرغوبِ، وعلي النَّجاةِ مِنَ المَرهوبِ. فَمَنْ سَقطَ في بَحرٍ ثُمَّ هيَّأَ اللهُ له مَن يُنقذُه مِنَ الغَرَقِ فَتلكَ نِعمةٌ. وكَذلك أيضًا مَنْ رَزَقَه اللهُ مالًا وولدًا هَذه نِعمةٌ، فَالنِّعمَةُ إِمَّا انْدفاعُ نِقمةٍ، وإِمَّا حُصولُ محَبوبٍ لِلإنسانِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{عَلَى الإِنْسَانِ}] المُرادُ [الجنس] يَعني: ليس المُؤمنُ ولا الكافرُ، بَل هذا الوصفُ يكونُ مِنَ المُؤمنِ ويكونُ أيضًا مِنَ الكافرِ. يَعني: أَنَّ جِنسَ الإِنسانِ بالنَّظَرِ إِلي كَونِه إِنسانًا فقط هَذه حالُه، إِذا أَنعمنا علي إِنسانٍ
=

أَعرضَ عَنِ الشُّكرِ، والشُّكرُ حَقيقةً هو طاعةُ اللهِ ﷻ، وَيكونُ بِالقَلبِ وبِاللِّسانِ وبِالجَوارحِ، ويَدُلُّ علي أنَّ الشُّكرَ هو طاعةُ اللهِ قَولُ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-: "إنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤمنينَ بِما أَمَرَ به المُرسَلينَ، فَقال اللهُ تَعالى: {يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا} [المؤمنون: ٥١] وَقالَ لِلْمُؤمنينَ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ} [البقرة: ١٧٢] ".

فَجَعَلَ النَّبيُّ ﷺ الشُّكرَ لله هُوَ العَمَلُ الصَّالحُ يَعني: القيامَ بطاعَةِ اللهِ وَيكونُ بِالقلبِ وَيكونُ بِاللِّسانِ وَيكونُ بِالجَوارحِ، أَمَّا بِالقلبِ فَهو شُعورُ الإِنسانِ بِأنَّ هَذه النِّعمةَ مِنَ اللهِ سبحانه وتعالى، وأَنَّه لَولا فَضلُ اللهِ ما حَصَلَت له فيُقِرُّ بقلبِه، وَيعترفُ أنَّ ذلك من عندِ اللهِ وليس بِحولِه وقُوَّته، وأَمَّا الشُّكرُ بِاللِّسانِ فالتَّحدُّثُ بِنعمةِ اللهِ ﷻ اعترافًا بِفضلِه لا افتخارًا على خَلقِه بأنْ يَقولَ: الحمدُ لله قدْ رَزقَني اللهُ أَولادًا وَمالًا وعِلمًا وجاهًا وما أَشبهَ ذَلِكَ.

وَمِنَ الشُّكرِ بِاللِّسانِ جَميعُ الطَّاعاتِ القَولِيَّةِ، فَإِنَّها مِنَ الشُّكرِ بِاللِّسانِ فَقِراءَةُ القُرآنِ مِنَ الشُّكرِ؛ لأنَّ كُلَّ طاعةٍ بِاللِّسانِ فهي مِنْ شُكرِ اللهِ ﷻ.

والشُّكرُ بِالجوارحِ العملُ؛ كَالرُّكوعِ والسُّجودِ والقِيامِ والقُعودِ والصَّدقةِ وَما إِلى ذلك، وفي هذا يَقولُ الشَّاعرُ:

أفادتْكُم النَّعماءُ مِنِّي ثَلاثةً ... يَدي ولِساني والضَّميرَ المُحَجَّبَا

يَقولُ اللهُ ﷻ: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ} [فصلت: ٥١].

يَقُولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{وَنَأَى بِجَانِبِهِ} أي: ثَنَي عِطفَهُ مُتبخْتِرًا] يَعني: أَعْرضَ بِبَدَنه وبقَلْبِه مُفْتخِرًا مُتعاظِمًا هَذا بِالنِّسبةِ لحالِه، وبِالنِّسبةِ لما يُطلبُ مِنه مِنَ الشُّكرِ يُعرضُ ولا يَشكُرُ اللهَ ﷻ، وهذه حالُ كَثيرٍ مِن بَني آدَمَ؛ ولهذا عَمَّمها اللهُ قالَ: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ} لِأنَّ أَكثَرَ بَني آدَمَ عَلى هذه الحالِ.

وقَولُه: {وَنَأَى} في التَّفسيرِ: [(ناء)] يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [وَفي قِراءةٍ بِتَقديمٍ

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢).

{قل أرأيتم إن كان} أي القرآن {من عند الله} كما قال النبي {ثم كفرتم به من} أي لا أحد {أضل ممن هو في شقاق} خلاف {بعيد} عن الحق أوقع هذا موقع منكم بيانا لحالهم[1].

=

الهمزةِ] في قِراءةٍ سَبْعيَّةٍ، واعلمْ أنَّ اصطلاحَ المفسِّر رَحِمَهُ اللهُ أنَّه إذا قال: "وفي قِراءةٍ" فَهي سَبعيَّةٌ أي: مِنَ القِراءاتِ السَّبعِ، وإذا قال: "وقُرِئَ" فَهي مِن القِراءاتِ الشّاذَّةِ.

إذن: (ناء) و (نأي) مَعناهُما واحدٌ كَأَيِسَ ويَئِسَ بِتَقديمِ الهَمزةِ وتَأخيرِها ومَعناهُما واحدٌ، أَيِسَ من كذا وَيئِسَ من كذا، وناءَ بِكذا أو نَأَيَ بكذا مَعناهُما واحدٌ، والمقصودُ أَنَّه كما قال المفسِّر: ثَنَي عِطفَه وانصرفَ مُتبختِرًا ومُتعاظِمًا.

قالَ الله تَعالَى: {وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ} أَقبَلَ: {فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ}، يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [كثير]. أي: إذا مَسَّه الشَّرُّ لجَأَ إلي اللهِ وأَطالَ الدُّعاءَ وأَكثرَ مِنهُ، وانظُروا ما حَكَي اللهُ تَعالَي عَنِ المُشركينَ إذا كانوا في البَحرِ وهاجَ البحرُ: {دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [يونس: ٢٢]، ولكنَّهم يَعِدونَ وَيكذِبونَ إذا أَنجاهم اللهُ عادوا إلي كُفرِهم والعياذُ بِاللهِ.

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ}، أي:"قل-أيها الرسول- لهؤلاء المكذبين: أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله ثم جحدتم وكذَّبتم به".

قل الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ {قُلْ} يا محمد للمكذّبين بما جئتهم به من عند ربك من هذا القرآن {أَرَأَيْتُمْ} أيها القوم {إِنْ كَانَ} هذا الذي

=

=

تكذبون به {مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ}، ألستم في فراق وبعد من الصواب".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: {أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ} هذا القرآن {مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ}، أي: كيف تُرَون حالكم عند الذي أنزله على رسوله؟ ".

قال النحاس:"في الكلام حذف، أي: إن كان من عند الله ثم كفرتم به، أمصيبون أنتم في ذلك؟ ".

قال مقاتل:"وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ ما هذا القرآن إلا شيء ابتدعته من تلقاء نفسك أما وجد الله رسولا غيرك وأنت أحقرنا وأنت أضعفنا ركنا وأقلنا جندا، أو يرسل ملكا، إن هذا الذي جئت به لأمر عظيم".

قوله تعالى: {مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}، أي:"لا أحد أضل منكم؛ لأنكم في خلاف بعيد عن الحق بكفركم بالقرآن وتكذيبكم به".

قل الطبري:"يقول: قل لهم من أشد ذهابا عن قصد السبيل، وأسلك لغير طريق الصواب، ممن هو في فراق لأمر الله وخوف له، بعيد من الرشاد".

قال مقاتل:"{فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ}، يعني: في ضلال طويل".

قال ابن كثير:"أي: في كفر وعناد ومشاقة للحق، ومَسْلَك بعيد من الهدى".

قال الماتريدي:"أي: في خلاف وبعد؛ فيكون جوابه كأنه قال: لا أحد أضل ممن عرف أنه من عند الله ثم خالفه وتباعد عنه".

عن السدي: "{لفي شقاق بعيد}، يقول: في عداوة بعيدة".

عن قتادة: "{وإنما هُم في شقاق}، أي: في فراق".

عن الربيع:"{فإنما هُمْ في شقاق}، يعني: فراق".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ} يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [كَما قالَ النَّبيُّ- صلَّى الله عَليه وعلى آله وسلَّم-]: {ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ

=

=

هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [فصلت: ٥٢].

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ}، {أَرَأَيْتُمْ} بمَعنَى أَخبِروني، وقَولُه: {إِنْ كَانَ} يَعني: القُرآنَ: {مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ} وأَنكرتُم أن يَكونَ من عند اللهِ: {مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} أَصلُ الجُملةِ مَن أَضَلُّ مِنكُم أَرأيتُم إن كانَ مِن عندِ اللهِ وتَبَيَّن لَكُم أَنَّه مِن عندِ اللهِ: {ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} الأَصلُ لا أَحَدَ أَضَلُّ مِنكُم ولَكنَّه أُظهِرُ في مَوضعِ الإضمارِ، وذَكَرنا أَنَّ لِلإظهارِ في موضِعِ الإضمارِ فَوائدَ مِنها:

أولًا: تَنبيهُ المُخاطَبِ.

ثانيًا: بَيانُ الصِّفةِ الَّتي استحقَّ بِها صاحبُ الضَّميرِ هذا الوَصفَ.

ثالثًا: بَيانُ العُمومِ.

رابعًا: مُراعاةُ فَواصلِ الآياتِ.

وقَولُه: {إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ} يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [أَي: القرآن] وتَبَيَّن لَكم ذَلكَ واتَّضحَ، {ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ} أَتَي بـ "ثُمَّ" الدَّالَّةِ علَي التَّرتيبِ والتَّراخي إِشارةً إلي أَنَّ هَؤلاءِ أَنكروا وكَفَروا بَعدَ التَّروِّي وبَعدَ المُدَّة الَّتي يُؤمنُ بِها مَن أَرادَ الإيمانَ.

وقَولُه: {بِهِ} الضَّميرُ يَعودُ عَلى القُرآنِ ويَجوزُ أَن يَكونَ عائدًا إلي الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-؛ لِأَنَّه هو الَّذي نَزَلَ عليه القُرآنُ.

{مَنْ أَضَلُّ} يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [أَي: لا أحد {أَضَلُّ}]، إِشارةٌ إلي أَنَّ الِاستفهامَ هُنا بمَعنَي النَّفي، واعلَم أَنَّ الِاستفهامَ يَأتي بِمعنَي النَّفي كَثيرًا وَإِتيانُه في مَوضعِ النَّفي أَعظمُ مِنَ النَّفي؛ لِأَنَّه إذا أَتَي الِاستفهامُ في مَوضعِ النَّفي صارَ مُشربًا مَعنَي التَّحدِّي كَأَنَّه قالَ: أَروني أحدًا أَضَلَّ، وهذا لا شكَّ أَنَّه مُشتَمِلٌ علي النَّفي وعلى التَّحدِّي.

وقال: {مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} {مَنْ} مُبتدأٌ اسمُ استِفهامٌ وَ {أَضَلُّ}

=

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣).

{سنريهم آياتنا في الآفاق} أقطار السماوات والأرض من النيرات والنبات والأشجار {وفي أنفسهم} من لطيف الصنعة وبديع الحكمة {حتى يتبين لهم أنه} أي القرآن {الحق} المنزل من الله بالبعث والحساب والعقاب فيعاقبون على كفرهم به وبالجائي به {أو لم يكف بربك} فاعل يكف {أنه على كل شيء شهيد} بدل منه أي أو لم يكفهم في صدقك أن ربك لا يغيب عنه شيء ما.

أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (٥٤).

سورة الشورى(١)

=

خَبرُهُ، {مِمَّنْ هُوَ} أي: مَنِ الَّذي هو في {شِقَاقٍ}، يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [خلافٍ {بَعِيدٍ}] بَل شِقاقٍ أَخَصُّ مِنَ الخِلافِ؛ لِأَنَّه قَد يُخالِفُك ولا يُشاقُّك ولَكِنَّ هَؤلاءِ خالَفوا وشاقُّوا.

وقولُه: {بَعِيدٍ} يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{بَعِيدٍ} عَنِ الحقِّ أَوقعَ هَذا مَوقِعَ منكم بَيانًا لِحالِهِم]، يُريدُ أَوقعَ: {مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} مَوقِعَ مِنكُم؛ أي: مَوقِعَ الضَّميرِ، فَهو إِظهارٌ في مَوضِعِ الإِضمارِ لِبيانِ حالِهِم؛ أَي: بَيانُ أَنَّهم هُم أَضلُّ من كُلِّ أَحدٍ وأنَّ حالَهم الشِّقاقُ البَعيدُ فَفيهِ إِظهارٌ في مَوضِعِ الإِضمارِ.

(١) السورة مكية. قاله ابن عباس، وابن الزبير، الحسن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة. وهذه هو القول الأول.

الثاني: أنها مكية إلا قوله: {وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ} [الشورى: ٢٧]. نزلت في أهل الصفة، كما قال عمرو بن حريث، وخباب بن الأرت، وحكاه ابن الفرس

=

=

عن مقاتل، فتكون الآية مدنية.

الثالث: أنها مكية إلّا أربع آيات نزلن بالمدينة، أولاها: قوله: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} [الشورى: ٢٣]، إلى آخر الأربع الآيات. وهذا قول ابن عباس-أيضا، وقتادة.

الرابع: أنها مكية إلا خمس آيات، من قوله: {ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا} [الشورى: ٢٣]، إلى قوله: {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور} [الشورى: ٢٤]، ومن قوله: تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} [الشورى: ٣٩]، إلى قوله: {مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ} [الشورى: ٤١]. قاله مقاتل.

قال ابن قتيبة: السورة: "مكية كلها".

قال الفيروزآبادي:"السورة مكية إجماعا".

قال ابن عاشور:"هي مكية كلها عند الجمهور".

* عدد آياتها ثلاث وخمسون فى الكوفى، وخمسون فى الباقين. كلماتها ثمانمائة وستّ وستّون. وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وثمان وثمانون. المختلف فيها من الآى ثلاث: حم عسق، كالأعلام مجموع فواصل آياتها (زرلصب قدم).

* أسماء السورة.

• الاسم الأول: «سورة الشورى»:

تسمى «سورة الشورى» بالألف واللام، وربما قالوا: «سورة شورى» بدون ألف ولام، حكاية للفظ القرآن: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم} [الشورى: ٣٨].

قال المهايمي:"سميت بالشورى، لإشعار آياتها بذلة الدنيا وعزة الآخرة، وصفات طالبيها، مع اجتماع قلوبهم بكل حال. وهذا من أعظم مقاصد القرآن".

• الاسم الثاني والثالث: سورة «حم عسق»، و «عسق»:

اشتهرت تسميتها عند السلف «حم عسق»، وكذلك ترجمها البخاري في كتاب

=

=

التفسير من "جامعه"، والترمذي في "جامعه"، وكذلك سميت في عدة من كتب التفسير، وكثير من المصاحف.

وتسمى «سورة عسق» بدون لفظ «حم»، لقصد الاختصار.

قال ابن عاشور:"ولم يثبت عن النبي ﷺ شيء في تسميتها".

• الاسم الرابع: «حم سق»:

ذكر عن ابن عباس أنه كان يقول: «حم سق»، ولا يجعل فيها عينا، ويقول: السين كل فرقة تكون، والقاف كل جماعة تكون.

قال الفراء: "ورأيتها في بعض مصاحف عبد الله: «حم سق» كما قال ابن عباس".

روى محبوب عن إسماعيل عن الأعمش عن ابن مسعود: «حم سق».

قال ابن جني:"هذا مما يؤكد أن الغرض في هذه الفواتح إنما هو لكونها فواصل بين السور، ولو كانت أسماء الله سبحانه لما جاز تحريف شيء منهان وذلك لأنها لو كانت أسماء له لكانت أعلاما، كزيد وعمرو، فالأعلام لا طريق إلى تحريف شيء منها، بل هي مؤداة بأعيانها".

* معظم مقصود السّورة: بيان حُجّة التوحيد، وتقرير نبوّة الرّسول، وتأْكيد شريعة الإِسلام، والتَّهديد بظهور آثار القيامة، وبيان ثواب العاملين دنيا وأُخرى، وذلّ الظَّالمين فى عَرَصات القيامة، واستدعاء الرّسول- ﷺ- من الأُمّة محبّة أَهل البيت العِترة الطَّاهرة، ووعد التَّائبين بالقبول، وبيان الحكمة فى تقدير الأَرزاق وقسمتها، والإِخبار عن شؤم الآثام والذنوب، والمدح والثناءِ على العافين من النَّاس ذنوبَ المجرمين، وذلّ الكفَّار فى مَقَام الحساب، والمِنَّة على الخَلْق بما مُنحوا: من الأَولاد وبيان كيفيّة نزول الوحى على الأَنبياءِ، والمنَّة على الرّسول بعطيّة الإِيمان، والقرآن، وبيان أَن مرجع الأُمور إِلى الله الدّيان فى قوله: {إِلَى الله تَصِيرُ الأمور}.

=

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

حم (١) .

{حم} .

عسق (٢).

{عسق} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِهِ[٢].

=

* المتشابهات: قوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور} وفى لقمان: {مِنْ عَزْمِ الأمور} ؛ لأَنَّ الصّبر على وجهين: صبر على مكروه ينال الإنسان ظلمًا؛ كمن قُتل بعضُ أَعِزّته، وصبر على مكروه ليس بظلم؛ كمن مات بعضُ أَعِزَّته. فالصّبر على الأَوّل أَشدّ، والعزم عليه أَوكد. وكان ما فى هذه السّورة من الجنس الأَوّل؛ لقوله: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ} فأَكَّد الخبر باللاَّم. وما فى لقمان من الجنس الثانى فلم يؤكده.

قوله: {وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ} وبعده: {وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ} ليس بتكرار؛ لأَنَّ المعنى: ليس له من هاد ولا مَلْجَأ.

قوله: {عَلِيٌّ حَكِيمٌ} ليس له نظير. والمعنى: تعالى عن أَن يُكَلِّم شِفَاهًا، حكيم فى تقسيم وجوه التكليم.

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

(فائدة): قال البغوي:"سئل الحسين بن الفضل: لم يقطع «حم عسق» ولم يقطع «كهيعص»؟

فقال: لأنها سورة أوائلها حم، فجرت مجرى نظائرها، فكان "حم" مبتدأ و"عسق" خبره، ولأنهما عدا آيتين، وأخواتها مثل: "كهيعص" و"المص"

=

كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣).

{كَذَلِكَ} أَيْ مثل ذلك الإيحاء {يوحي إليك و} أوحى {إلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلك الله} فَاعِل الْإِيحَاء {الْعَزِيز} فِي مُلْكه {الْحَكِيم} فِي صُنْعه[1].

=

و"المر" عدت آية واحدة، وقيل: لأن أهل التأويل لم يختلفوا في "كهيعص" وأخواتها أنها حروف التهجي لا غير، واختلفوا في "حم" فأخرجها بعضهم من حيز الحروف وجعلها فعلا وقال: معناها حم أي: قضى ما هو كائن".

(١) قوله تعالى: {كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ}، أي:"كما أنزل الله إليك-أيها النبي- هذا القرآن أنزل الكتب والصحف على الأنبياء من قبلك".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هكذا يوحي إليك يا محمد والى الذين من قبلك من أنبيائه".

قال السمعاني:"أي: كما أوحى الله تعالى إلى الأنبياء هذه الكلمات، كذلك يوحيها إليك. ويقال: المراد منه الوحي على الجملة".

قال ابن كثير:"أي: كما أنزل إليك هذا القرآن، كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك".

قال الزجاج:"جاء في التفسير أن «حم عسق»، قد أوحِيَتُ إِلى كل نَبِي قبلَ محمد- صلى الله عليه- وعليهم أجمعين".

قال الزمخشري:"يعني: أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور، وأوحاه من قبلك إلى رسله، على معنى: أن الله تعالى كرر هذه المعاني في القرآن في جميع الكتب السماوية، لما فيها من التنبيه البليغ واللطف العظيم لعباده من الأوّلين والآخرين، ولم يقل: أوحى إليك، ولكن على لفظ المضارع، ليدل على أن إيحاء مثله عادته".

قال ابن عطية:"قوله: {إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ}، يريد من الأنبياء الذين نزلت

=

=

عليهم الكتب".

عن عائشة:"أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: "أحيانًا يأتيني مثل صَلْصَلَةِ الجَرَس، وهو أشده عَلَيّ فيفصم عني قد وَعَيت ما قال. وأحيانا يأتيني الملك رجُلا فيكلمني، فأعي ما يقول" قالت عائشة فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقا".

وقرئت: «يُوحَى»، و «نُوحِي»، بِالنون.

قوله تعالى: {اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، أي:"وهو العزيز في انتقامه، الحكيم في أقواله وأفعاله".

قال الطبري: أي:"{الْعَزِيزُ} في انتقامه من أعدائه، {الحَكِيمُ}، في تدبيره خلقه".

قال ابن كثير:"{اللهُ الْعَزِيزُ} أي: في انتقامه، {الْحَكِيمُ} في أقواله وأفعاله".

قال السمعاني:"معناه: عزيز في نصرته، حكيم في فعله".

قال محمد بن إسحاق: "العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء"، الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده".

قال أبو العالية:"{عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن أبي العالية:"{حكيم}، قال: حكيم في أمره".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {كَذَلِكَ} أي: مثلَ ذلك الإيحاءِ {يُوحِي إِلَيْكَ} وأوحى إلى الذين من قبلِك، اللهُ فاعلُ الإيحاءِ] {كَذَلِكَ} تأتي في القرآنِ كثيرًا، وإعرابُها في جميعِ المواطنِ إلا يسيرًا أن تقول: الكافُ بمعنى (مثل) منصوبةٌ على أنها مفعولٌ مطلقٌ عاملُها ما يأتي بَعْدَهَا. حوّل الكافَ إلى مثلِ تقولُ: مِثْلَ ذلك، والعاملُ فيها {يُوحِي} أي: يوحي إليك مثلَ ذلك الإيحاءِ اللهُ العزيزُ الحكيمُ.

=

=

وقولُهُ: {كَذَلِكَ} (ذلك) المشارُ إليه الوحيُ النازلُ على الرَّسُولِ ﷺ يوحي إليك: الوحيُ في اللغةِ الإعلامُ بسرعةٍ وخفاءٍ، ويُطْلَقُ على الرمزِ {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مريم: ١١]، ويُطْلَقُ على الإلهامِ؛ كما في قولِهِ: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ} [النحل: ٦٨]، {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ} [القصص: ٧].

أمَّا في الإصطلاحِ: فالوحيُ إعلامُ اللهِ تعالى بالشرعِ لأنبيائِهِ ورسُلِه.

وقولُهُ: {وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِك} الواوُ حرفُ عطْفٍ {وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ} معطوفةٌ على {إِلَيْكَ} وإذا كانتْ معطوفةً على {إِلَيْكَ} كان تقديرُ الفعلِ: ويوحي إلى الذين من قَبْلِك. لكنْ لاحظوا أنَّ المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ صَرَفَهَا فقال: [وأوحى إلى الذين من قَبْلِك]، فَقَدَّرَ فعلًا ماضيًا، مع أنها معطوفةٌ على معمولِ فعلٍ مضارعٍ؛ لأنَّ إيحاءَ اللهِ إلى رسولِهِ محمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- مستمرٌّ، وإيحاؤه إلى من سَبَقَه ماضٍ منتهٍ؛ فلهذا قَدَّرَ المُفسِّر فعلًا ماضيًا.

ولكننا نقولُ: الأصلُ عدمُ التقديرِ؛ لأنَّ القرآنَ كاملٌ لا يحتاجُ إلى تقديرٍ إلا ما دعتِ الضَّرُورةُ إليه، ولا ضرورةَ هنا، ونقولُ: كذلك يوحي إليك ويوحي إلى الذين من قَبْلِك، ويكونُ ذِكْرُ الإيحاءِ لمن سَبَقَنَا من بابِ ذِكْرِ صورةِ الحالِ، فإنه سبحانه وتعالى حين وحْيِهِ إلى من سبق، و {يُوحِي} فعلٌ مضارعٌ، فيكونُ هذا على حكايةِ الحالِ.

وقولِهِ: {وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ} المرادُ بهم الأنبياءُ والرسلُ، قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{اللهُ} فاعلُ الإيحاءِ] لو قال: فَاعِلُ {يُوحِي} كان أَحْسَنَ من حيث البيانُ الإعرابيُّ، فعلى هذا نقولُ: {يُوحِي} فعلٌ مضارعٌ، و {اللهُ} فاعلٌ: يوحي اللهُ.

فـ {اللهُ} هو عَلَمٌ على ربِّنا عَزَّ وَجَلَّ قيل: وأصلُهُ (الإلهُ) فحُذفت الهمزةُ؛ لكثرةِ الإستعمالِ كما حُذفت الهمزةُ من خيرٍ وشرٍّ في قولهم: فلانٌ خيرٌ من فلانٍ، أو

=

=

فلانٌ شرٌّ من فلانٍ، والتقديرُ: أَخْيَرُ وَأَشَرُّ.

{اللهُ} معنى هذه الكلمةِ العظيمةِ قيلَ: إنه اسمٌ جامدٌ ليس له معنًى فهو غيرُ مشتقٍّ، لكن هذا القولَ غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الأعراف: ١٨٠]، والإسمُ المجرَّدُ عن معنًى لا يَدْخُلُ في الحسنى، بل ولا في الحَسَنِ، فكلُّ اسمٍ من أسماءِ اللهِ، فإنه متضمنٌ لصفةٍ من صفاتِ اللهِ أو أكثرَ، وليس في أسماءِ اللهِ اسمٌ جامدٌ لا يحملُ معنًى أبدًا، وعلى هذا فنقول: اللهُ مشتقٌّ من الألوهيَّةِ، والألوهيَّةُ هي: التذلُّلُ للمألوهِ مع المحبَّةِ والتعظيمِ؛ إذنْ فاللهُ بمعنى المتألَّهِ إليه حبًّا وتعظيمًا.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{اللهُ الْعَزِيزُ} قال: في مُلْكِه، {الْحَكِيمُ} الحكيمُ في صُنْعِه].

أولًا: قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الْعَزِيزُ} في مُلْكِه] لكنْ لم يفسرْ معنى العزَّةِ، العزيزُ في الأصلِ: الغالبُ، العزيزُ يعني: الغالبَ القاهرَ لمن سِوَاه عَزَّ وَجَلَّ، واستمعْ إلى قولِ اللهِ تعالى عن المنافقين: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون: ٨]، يريدون بالأعزِّ أَنْفُسَهُمْ، ويريدون بالأذلِّ الرسولَ- صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم - وأصحابِه.

قال اللهُ ردًّا عليهم: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: ٨]؛ أي: للهِ الغلبةُ ولرسولِهِ وللمؤمنين، وتَأَمَّلْ قولَهُ: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ} ولم يَقُلْ: واللهُ الأعزُّ، مع أنهم هم يقولون: الأعزُّ والأذلُّ، لم يَقُلْ: واللهُ أعزُّ قال: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ}؛ لأنَّه لو قال: واللهُ هو الأعزُّ لأثبت للمنافقين عزةً مفضولةً، لكنَّ الحقيقةَ أنه لا عِزَّةَ للمنافقِ، بل هو مغلوبٌ دائمًا، بل حالُهُ تَدُلُّ على أنه مغلوبٌ؛ لأنَّه مختفٍ جبانٌ يُظْهِرُ أنه مُسْلِمٌ وليس بمُسْلِمٍ.

ولهذا نقولُ: إن الكافرين الْخُلَّصَ الصرحاءَ أشجعُ من المنافقين؛ لأنَّهم يُصَرِّحُون ويُعْلِنون، أمَّا المنافقُ فذليلٌ يُظْهِرُ الإسلامَ خوفًا من المسلمين ويُبْطِنُ

=

=

الكفرَ؛ لأنَّه كافرٌ، والعياذُ باللهِ.

مسألة: قوله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [النِّساء: ١٤٥] لا تدلُّ على أنَّ غيْرَهم لا يكونُ فيها، كما لو قلتَ مثلًا: فلانٌ في بيتِ فلانٍ، لا ينافي أن يَكُونَ أحدٌ في هذا البيتِ.

الخلاصةُ: {الْعَزِيزُ} المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ لم يُبَيِّنْ معناها، فنقولُ: العزَّةُ يعني: الْغَلَبَةَ.

{الْحَكِيمُ} يقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فِي صُنْعِهِ]، وهذا ناقصٌ جدًّا؛ لأنَّ حِكْمَةَ اللهِ تعالى في صُنْعِهِ وفي شَرْعِهِ، فهو حكيمٌ في صُنْعِهِ؛ أي: في خَلْقِهِ، وهو حكيمٌ في شَرْعِهِ.

واقرأْ قولَ اللهِ تعالى في سورةِ المُمْتَحَنَةِ: {فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا} [الممتحنة: ١٠] كُلُّ هذه أحكامٌ شرعيَّةٌ، ثم قال: {ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

فهو جَلَّ وَعَلَا حكيمٌ في شَرْعِه وحكيمٌ في صُنْعِهِ؛ يعني: في خَلْقِه، كُلُّ ما خَلَقَه اللهُ تعالى فالحكمةُ تقتضي وجودَه، وكلُّ ما أَعْدَمَهُ اللهُ تعالى فالحكمةُ تقتضي عَدَمَهُ، هذا أمرٌ مُسَلَّمٌ به، كلُّ ما شَرَعَه اللهُ إيجابًا، أو تحريمًا، أو تحليلًا، فالحكمةُ تقتضي شَرْعَه، كذلك الواجبُ تقتضي الحكمةُ إيجابَهُ، والمُحَرَّمُ تقتضي الحكمةُ تحريمَه، والمباحُ تقتضي الحكمةُ إباحَتَهُ، لكنْ لا يَلْزَمُ من وُجُودِ الحكمةِ في ذلك أن تكونَ معلومةً لنا، هناك حكمةٌ لكنْ قد نَعْلَمُها وقد لا نَعْلَمُها. وإذا حُجِبَ عنا عِلْمُهَا لا يعني العَدَمَ؛ لأننا قاصرون، إننا قاصرون بكلِّ شيءٍ، {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨]، في كلِّ شيءٍ ضعيفٌ؛ في قوتِهِ، في إدراكِهِ، في عِلْمِهِ، في كلِّ شيءٍ.

=

=

ولهذا لما قالوا: ما هي الرُّوحُ يا محمَّدُ؟ قال اللهُ تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٨٥]، خَتَمَ الآيةَ بقولِهِ: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} كأنه يقول: لم يَبْقَ عليكم من العلم إلا الروحُ حتى تسألوا عنها، بل الذي فاتَكُم من العِلْمِ أكثرُ من الذي أدركتُمُوه؛ ولهذا قال: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}، ولذلك واجبُ المسْلمِ تجاه خَلْقِ اللهِ وتجاه شَرْعِ اللهِ أن يستسلمَ تمامًا، وأن يقول: هذا هو الحكمةُ.

أَضْرِبُ مثلًا في الشرائع: لماذا يأتي الناسُ بحصى حجراتٍ صغيرةٍ يضربون بها مكانًا معينًا؟ قد يقولُ قائلٌ: ما الحكمةُ من هذا؟

فنقول: مجرَّدُ كوْنِ اللهِ شَرَعَ ذلك دليلٌ على الحكمةِ، ونكتفي بهذا. مع أن من أعظمِ الحِكَمِ فيه كمالُ التعبُّدِ أن يأتيَ الإنسانُ بحجرٍ يَضْرِبُ بها مكانًا لمجرد امتثالِ أمْرِ اللهِ، ففيه كمالُ التعبُّدِ؛ لأنَّ انقيادَ النفسِ لما تَعْلَمُ فائدتَهُ أسهلُ من انقيادِها لما لا تَعْلَمُ فائدتَهُ، وانقيادُها لما لا تَعْلَمُ فائدتَه أَبْلَغُ في التذلُّلِ والتعبُّدِ للهِ ﷻ مع أن هذا العملَ مقرونٌ بِذِكْرِ كلِّ حَصاةٍ ترميها تقولُ: اللهُ أكبرُ. مقرونٌ أيضًا باتباعٍ، كلِّ حصاةٍ ترميها وأنت تَشْعُرُ أنك متبِّعٌ لرسولِ اللهِ- صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

ونقولُ: إنَّ قَصْرَ المُفسِّر (الحكيمَ) على حِكمةِ الصنعةِ قاصرٌ بلا شكَّ، فهو حكيمٌ في صُنْعِه، وحكيمٌ في شَرْعِه تبارك وتعالى.

ولا بُدَّ أن نَعْرِفَ ما هي الحكمةُ؛ يقولُ العلماءُ: إن الحكمةَ هي وَضْعُ الأشياءِ في مواضِعِها؛ بمعنى: أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى إذا خَلَقَ شيئًا، أو شَرَعَ شيئًا، فإنه في مكانِهِ اللائقِ به؛ ولهذا قال بعضُ السَّلَفِ: إنَّ اللهَ تعالى لم يأمُرْ بشيءٍ فيقولُ العقلُ: ليته لم يَأْمُرْ به، ولم يَنْهَ عن شيءٍ فيقولُ العقلُ: ليْتَه لم يَنْهَ عنه، فكلُّ ما ثَبَتَ بالشرعِ فإنه لا ينافي العقلَ، بل إن العقلَ يؤيِّدُ ويَشْهَدُ بصِحَّتِه.

=

=

فالحكيمُ إذن هو واضعُ الأشياءِ مواضِعَها، سواءٌ الشرعيَّةُ أو الكونيَّةُ، فما أمرَ اللهُ بشيءٍ فقال العقلُ: ليْتَه لم يَأْمُرْ به، وما نهى عن شيءٍ فقال العقلُ: ليته لم يَنْهَ عنه.

أمَّا في الأمورِ الكونيَّةِ؛ فإن اللهَ سبحانه وتعالى ربَّما يُقَدِّرُ أشياءَ تظنُّها فسادًا فإذا بها تكونُ صلاحًا وخيرًا، قال اللهُ تبارك وتعالى: {فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء: ١٩]، فاللهُ سبحانه وتعالى قد يُقَدِّرُ أشياءَ إذا نَظَر إليها الإنسانُ أوَّلَ وَهْلَةٍ قال: هذه لا فائدةَ فيها. أو قال: هذه مُضِرَّةٌ، لكنْ إذا تأمل وجد أن الحكمةَ تقتضي ذلك.

وأنت أيها العبدُ إذا آمنْتَ أن اللهَ حكيمٌ في شرْعِه وحكيمٌ في خَلْقِه، فإنه لا يبقى لك شَكٌّ في أن ما شَرَعَه خيرٌ، ومما قَدَّرَه خيرٌ.

وللحكيمِ معنًى آخرُ غيرُ الحكمةِ، وهو الحاكمُ؛ لأنَّ هذه المادةَ (حاء) (كاف) (ميم) تدلُّ على المَعْنَيَيْن: على الحكمةِ وعلى الحُكْمِ، فهو سبحانه وتعالى الحاكمُ، يَحْكُمُ في الناسِ ويَحْكُمُ بين الناسِ، يَحْكُمُ في الناسِ بما يُلْزِمُهُم به من الأحكامِ الشرعيَّةِ، ويَحْكُمُ بَيْنَ الناسِ فيما يختصمون فيه، فهو الحاكمُ وحُكْمُهُ مبنيٌّ على العدلِ التَّامِّ لا ظُلْمَ ولا جَوْرَ، لا بالنسبةِ لما يَحْكُمُ فيه بين النَّاسِ، ولا بالنسبةِ لما يُحْكَمُ به في الناسِ، كُلُّه عدلٌ، كلُّهُ خيرٌ. إذن الحكيمُ له معنًى آخرُ: الْحُكْمُ.

والحُكْمُ ينقسمُ إلى: حُكْمٍ قَدَرِيٍّ، وحُكْمٍ شَرْعِيٍّ، ولهذا إذا أُصيبَ الإنسانُ بمصيبةٍ قال: هذا حُكْمُ اللهِ. هذه اللغةُ تعبيرٌ عامِّيٌّ، هذا حُكْمُ اللهِ، يعني القَدَرِيَّ، لكنْ إذا قيل له: يجبُ عليك كذا وكذا قال: لماذا يَجِبُ؟ قال: هذا حُكْمُ اللهِ الشرعيُّ، وكلاهما في القرآنِ.

فمن الأولِ- أعني الحُكْمَ الْقَدَرِيَّ- قولُ اللهِ تبارك وتعالى عن أخي يوسفَ: {فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي} [يوسف: ٨٠]؛ أي:

=

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤).

{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْض} مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا {وَهُوَ الْعَلِيّ} عَلَى خَلْقه {العظيم} الكبير[1].

=

يُقَدِّرُ لي، لم يَقُلْ: يَحْكُمُ فِيَّ، قال: {أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي}، فالحُكْمُ هنا قَدَرِيٌّ.

ومثالُ الثاني- الحُكْمِ الشرعِيِّ- قولُ اللهِ تبارك وتعالى حينما ذَكَرَ أحكامَ الكافرات اللاتي يأتين من الكفارِ إلى المؤمنين قال: {ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ} [الممتحنة: ١٠]، أي: حُكْمَ اللهِ الشرعيَّ.

والفَرْقُ بين الحُكْمِ القَدَريِّ والشرعيِّ أن الحُكْمَ القدريَّ يكونُ فيما يرضاه اللهُ وفيما لا يرضاه اللهُ، الحكمُ الكونيُّ يكون فيما يرضاه الله وما لا يرضاه الله، يسرقُ الرجلُ، يزني، يشربُ الخمرَ، هذا حُكْمُ اللهِ القدريُّ، وهذا لا يرضاه اللهُ، يصلي الإنسانُ، يتصدقُ، يصومُ، يَحُجُّ، هذا حكمُ اللهِ الْكَوْنِيُّ، يرضاه الله، إذن الحكمُ الكونيُّ أو القدريُّ إن شئتَ يكون فيما يرضاه الله وما لا يرضاه.

(١) قوله تعالى: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، أي:"لله وحده ما في السماوات وما في الأرض".

قال الطبري:"{لِلَّهِ} ملك {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ} من الأشياء كلها".

قال ابن كثير:"أي: الجميع عبيد له وملك له، تحت قهره وتصريفه".

قال ابن عطية: أي:"الملك والخلق والاختراع".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}، أي:"وهو العليُّ بذاته وقدره وقهره، العظيم الذي له العظمة والكبرياء".

قال الطبري:"يقول: وهو ذو علوّ وارتفاع على كل شيء، والأشياء كلها دونه، لأنهم في سلطانه، جارية عليهم قدرته، ماضية فيهم مشيئته، {العَظِيمُ} الذي له

=

=

العظمة والكبرياء والجبرية".

قال ابن كثير: "{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} كقوله تعالى: {الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [الرعد: ٩] {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سبأ: ٢٣] والآيات في هذا كثيرة".

عن ابن عباس: "{وهو العلي العظيم} يريد: لا أعلى منه، ولا أعظم، ولا أعزَّ، ولا أجلَّ، ولا أكْرَم".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} {لَهُ} الضميرُ يَعُودُ على اللهِ، ومعلومٌ أن {لَهُ} خبرٌ مقدَّمٌ، والمبتدأُ {وَمَا} لقولِهِ: {مَا فِي السَّمَاوَاتِ}؛ لأنَّ {وَمَا} هنا اسمٌ موصولٌ والتقديرُ: له الذي في السَّمواتِ. والقاعدةُ عند البُلَغَاءِ: أن تقديمَ ما حقُّهُ التأخيرُ يقتضي الحصرَ والإختصاصَ، فقولُهُ: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ} يعني: لا لغيرِه كلُّ ما في السمواتِ والأرضِ فهو للهِ ربِّ العالمَين.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُلْكًا وخَلْقا وعَبِيدًا] لو بدأ بالخلقِ قبل المُلكِ لكان أحسنَ؛ لأنَّ الخَلقَ سابقٌ، والمسألةُ ليست ذاتَ أهمِّيَّةٍ كبيرةٍ، المهمُّ أنَّ له ما في السموات مُلكًا؛ يعني: أنه مالكُ أعيانِها، وخَلقًا؛ يعني: أنه خالقُها، وعَبيدًا بالمعنى القَدَريِّ يعني: أنَّ ما في السَّمواتِ والأرضِ متذلِّلٌ للهِ تعالى، كما قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم: ٩٣].

وقولُهُ: {مَا فِي السَّمَاوَاتِ} جَمَعَها {وَمَا فِي الْأَرْضِ} أَفْرَدَها؛ لأنَّ السَّمواتِ أعظمُ من الأرضِ؛ ولهذا تجيءُ كثيرًا بلفظِ الجمعِ وتجيءُ بلفظِ الإفرادِ؛ كما في قولِهِ تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} [آل عمران: ٥]، فإذا جاءتْ بالإفرادِ فالمرادُ الجنسُ، وإذا جاءتْ بالجمْعِ فالمرادُ العددُ، والسَّمواتُ عددُها سبعٌ، كما قال تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [المؤمنون: ٨٦].

=

=

والأَرَضُونَ لم تأتِ في القرآنِ إلا مفردةً باعتبارِ الجنسِ، ولكنَّ القرآنَ أشار إلى أنها سبعٌ في قولِهِ تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [الطلاق: ١٢]، والمثليَّةُ لو نَزَّلْتَهَا على الكيفيةِ لا تصحُّ؛ لأنَّ السَّماءَ أعظمُ وأوسعُ. إذن لم يبق إلا أن نُنْزِلَها على الكمِّيَّةِ، فيكونُ المعنى {مِثْلَهُنَّ} يعني في العددِ سبعُ أَرَضِينَ، وقد جاءتِ السُّنَّةُ بلفظِ السَّبْعِ فقال النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم-: "مَنِ اقتطعَ شِبْرًا مِنَ الأرضِ ظُلْمًا طَوَّقَه اللهُ به يومَ القيامةِ من سبْعِ أَرَضِينَ"، وهذا نصٌّ صريحٌ.

وكذلك أيضًا يُرْوَى عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يقولُ إذا أقبل على البلدِ: "اللهُمَّ ربَّ السَّمواتِ السَّبعِ وما أَظْلَلْنَ وَرَبَّ الأرَضينَ السَّبْعِ وما أَقْلَلْنَ". فهي سبعُ أرَضينَ، ولكن كيف هي سبعُ أرَضينَ؟ هل المعنى أنها سبعةُ أقاليمَ أو سبعُ قارَّاتٍ أو ماذا؟

نقولُ: هي سَبْعُ أرَضين طباقًا، كما أن السَّمواتِ سبعٌ طباقٌ، كذلك الأرَضون سبعٌ طباقٌ، ويدلُّ لهذا أن النبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- قال: "طُوِّقَهُ يومَ القيامةِ من سَبْعِ أَرَضِين"؛ لأنَّها لو كانتِ الأقاليمَ أو القارَّاتِ لكان الذي يَمْلِكُ قطعةً من الأرض هنا لا يَمْلِكُها في المكانِ الآخرِ، لكن الذي يَمْلِكُ قطعةً هنا له ما يَمْلِكُه على سطحِ الأرضِ، وله ما تحته إلى الأرضِ السابعةِ.

ولهذا قال العلماءُ: الهواءُ تابعٌ للقرارِ، والأسفلُ تابعٌ للأعلى.

مثلًا: أنا لي بيتٌ مساحتُهُ عَشَرَةُ أمتارٍ في عَشَرَةِ أمتارٍ، لي في الجوِّ- في السماءِ- عشرةُ أمتارٍ في عشرةِ أمتارٍ، فلا أَحَدَ يَقْدِرُ يَطْلُعُ شيئًا على ما يقابلُ أرضي ولو كان بعيدًا جدًّا، وليس للطائرةِ أن تمرَّ على أرضي، لو شِئْنا لمنعناها، هذه أرضي تَلُفُّ يمينًا أو يسارًا؛ لأنَّ الهواءَ تابعٌ للقرارِ.

لكن مسألةَ الطائرةِ قد يقولُ قائلٌ: إنَّ العُرْفَ جرى بأنها لا تُمْنَعُ؛ ولهذا تمرُّ من

=

=

عندِ البلدِ من فوقِ البيوتِ وربما تُزْعِجُ الناسَ بأصواتِها ولا أحدَ يَمْنَعُهَا، ولو أنَّ أحدًا قال: أمنعُها من أن تمرَّ من فوق بيتي لَعُدَّ سَفَهًا، فالعُرْفُ له أحكامٌ.

وقلنا: من مَلَكَ الأعلى مَلَكَ الأسفلَ، فمثلًا قعرُ الأرضِ لي؛ ولهذا لو أراد الإنسانُ أن يفتح نفقًا تحت أرضي فلي أن أمنعَه؛ لأنَّ الهواءَ الأسفل تابعٌ للأرضِ.

فإن قال قائلٌ: إذا قلنا: الهواءُ تابعٌ للقرارِ والأسفلُ تابعٌ للأعلى يُوجدُ مساجدُ الآن أعلاها مسجدٌ وأسفلها دكاكينُ؟

فالجوابُ: هذا إشكالٌ جيِّدٌ، وهذا في أَصْلِ وضعِ الإنسانِ لها أنه وَضَعَ هذه دكاكينَ وهذا مسجدًا، كما أنه يُوجَدُ الآن بعضُ العمارات يكون أسفَلَها مملوكٌ لزيدٍ، والذي فَوْقَه لعمرٍو، والذي فَوْقَه لخالدٍ، هذه موجودةٌ، لكن إذا كانتِ الأرضُ التي تحته لا يَمْلِكُها أحدٌ فهي له؛ لأنَّ العماراتِ هذه على حَسَبِ ما صَرفَهَا مالكُها، إذا جعل هذه الجهة مسجدًا صارت مسجدًا، وإذا جعل هذه مساكن صارتْ مساكن.

أما لو كان هذا مسجدًا مثلَ المسجدِ الذي نحن فيه الآنَ، لو أرادَ أحدٌ أن يُعَمِّرَ فيه شيئًا قلنا: لا يَجُوزُ.

المهمُّ: السَّمواتُ سبعٌ، والأَرَضون سبعٌ.

فائدة: الظاهرُ- واللهُ أَعْلَمُ- أنَّ الأرضَ التي يَنْتَفِعُ بها الخَلْقُ فيكونُ لهم فيها مصلحةٌ- والمرادُ الأنس- هي أرضٌ واحدةٌ، هذا الظاهرُ، واللهُ أعلمُ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ} على خَلْقِه {الْعَظِيمُ} الكبير]، {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} قَرَنَ اللهُ بينهما في هذه وفي آيةِ الكرسيِّ.

{الْعَلِيُّ} وزنُها الصرفيُّ: فَعِيلٌ، صفةٌ مُشبَّهةٌ، والصفةُ المُشَبَّهَةُ تقتضي وصفَ الموصوفِ بها دائمًا، إذن {الْعَلِيُّ} وصفٌ لازمٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ أزلًا وأبدًا، لا يُمْكِنُ أن

=

=

يكونَ خلافَ العلوِّ أبدًا، فالعلوُّ إذن صفةٌ ذاتيَّةٌ.

فهل العُلُوُّ هو علوُّ الصفةِ الذي اتفقتْ عليه الأمَّةُ الإسلاميَّةُ، أو هو عُلُوُّ الذاتِ الذي أَنْكَرَهُ مَنْ أَنْكَرَهُ؟

فالجوابُ: كلاهما، عُلُوُّ الذَّاتِ وعُلُوُّ الصِّفَةِ، أمَّا علوُّ الصفةِ فإن المسلمين كلَّهُم أجمعوا على ذلك حتى الجهميَّةُ والمعتزلةُ والأشعريَّةُ والماتريديَّةُ وغيرُهُم كُلُّهُم أجمعوا على ثبوتِ صفةِ العُلُوِّ للهِ ﷻ؛ ولهذا أقولُ لكم: المُعَطِّلَةُ الذين يُنكرون الصِّفاتِ قالوا: لأننا نُنَزِّهُ اللهَ؛ لأنَّ ثبوتَ هذه الصفاتِ يستلزمُ على زعمِهِم النقصُ فَيَنْفُونَهَا تنزيهًا للهِ ﷻ، إذن العُلُوُّ الذي هو عُلُوُّ الصِّفَةِ ثابتٌ للهِ بإجماعِ الأمَّةِ، ولا يُنكرُه أحدٌ.

أما عُلُوُّ الذَّاتِ هذا هو الذي اختلف فيه الناسُ، فانقسموا إلى ثلاثةِ أقسامٍ رئيسيَّةٍ:

القِسْمُ الأوَّلُ: مَنْ أَنْكَرَهُ، لكنَّهُ جعل اللهَ تعالى في كلِّ مكانٍ، يقولُ: اللهُ ليس فِي مكانٍ خاصٍّ في العلوِّ بل هو في كلِّ مكانٍ، وهذا رَأْيُ الجهميَّةِ الحُلوليَّةِ يُصَرِّحُون بهذا، يقولون: لا يُمْكِنُ أن يكونَ اللهُ تعالى عاليًا على كلِّ شيءٍ، بل هو في كلِّ شيءٍ، إن كنتَ في المسجدِ فهو في المسجدِ، في المرحاضِ فهو في المرحاضِ - قَاتَلَهُمُ اللهُ وحَاشَاهُ من قولهم -، ولهم شُبْهَةٌ.

القِسْم الثاني: عَكْسُ هذا تمامًا قال: لا يَجُوزُ أن نقولَ: إنَّ اللهَ في مكانٍ لا عالٍ ولا نازلٍ، بل هو سبحانه وتعالى ليس فوق العالَمِ ولا تَحْتَه، ولا يمينَ ولا شِمالَ، ولا متصلٌ ولا منفصلٌ، ولا مباينٌ ولا محايثٌ، وهلمَّ جرًّا من الأمورِ السلبيَّةِ، هذا عكسُ الأوَّلَيْنِ تمامًا، وإني أسألُكُم باللهِ أين يكونُ الإلهُ إذا كان يُنْفَى عن كُلِّ هذا؟ ! يكونُ عَدَمًا؛ ولهذا قال محمودُ بنُ سبكتكين رَحِمَهُ اللهُ أحدُ القُوَّادِ المشهورين وهو يُناظرُ محمَّدَ بنَ فورك أحدَ المتكلِّمين، لمَّا قال محمدُ بنُ

=

فورك: "لا دَاخِلَ العالَمِ ولا خارجَهُ ... إلخ". قال له: "بَيِّنْ لي ما الفَرْقُ بَيْنَ العدمِ وبين رَبِّكَ الذي تَصِفُهُ بهذه الصفاتِ؟ "، والجوابُ: لا فَرْقَ.

القِسْم الثالثُ: يقولون: إنَّ اللهَ تعالى عالِمٌ بذاتِهِ فوق كلِّ شيءٍ ولا يحيطُ به شيءٌ من مخلوقاتِهِ وعُلُوُّهُ لازمٌ لذاتِهِ، وهو سبحانه وتعالى بائنٌ من خَلْقِهِ بمعنى أنه ليس حالًّا فيهم، ولا هم حَالّون فيه.

وهذا مَذْهَبُ أهلِ الحقِّ الذي دلَّ عليه القرآنُ والسُّنَّةُ والعقلُ والفطرةُ والإجماعُ، خمسةُ أدلةٍ كُلُّهَا تَدُلُّ على العُلُوِ الذاتيِّ، وهي أيضًا متنوعةٌ، يعني دلالةُ القرآنِ ليست آيةً واحدةً، ولا على وجهٍ واحدٍ متنوعةٌ، وكذلك في السُّنَّةِ، فالقرآنُ مملوءٌ من إثباتِ العلوِّ الذاتيِّ للهِ، مثلَ قولِهِ {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ} {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ}.

وأدلةٌ لا تُحْصَى، من السُّنَّةِ؛ أدلةٌ قوليَّةٌ، وفعليَّةٌ، وإقراريَّةٌ. يعني: كلُّ أنواعِ السُّنَّةِ دلَّتْ على علوِّ اللهِ الذاتِيِّ.

أما السُّنَّةُ القوليَّةُ فها هو النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- يقولُ في سجودِهِ: "سبحانَ ربِّيَ الأعلى" فيثبتُ عُلُوَّهُ.

وأمَّا الإقراريَّةُ: فإنه ﷺ سألَ الجاريَةَ: "أين اللهُ؟ " قالت: في السماءِ، فَأَقَرَّهَا.

وأمَّا الفعليَّةُ: فكان ﷺ يَخْطُبُ الناسَ يومَ عَرَفَةَ ويقولُ: "أَلَا هل بَلَّغْتُ؟ " فيقولون: نعم، فيرفعُ إصبَعُه إلى السماءِ ويقولُ: "اللهُمَّ اشْهَدْ" يعني: على هؤلاء الناسِ، يشيرُ إلى السماءِ. وهذه دلالةٌ فعليَّةٌ بالإشارةِ.

وأمَّا الإجماعُ: فالسَّلَفُ الذي على رأسِهِم الصحابةُ مُجْمِعُون على أن اللهَ تعالى فوقَ كلِّ شيءٍ، مُجْمِعون على هذا إجماعًا قطعيًّا؛ لأنَّهم كُلَّهُم يقولون في سجودِهِم: سبحانَ رَبِّيَ الأعلى، ولم يُنْقَلْ عن واحدٍ منهم أنه قال: إنَّ اللهَ ليس في

=

السماءِ أبدًا.

وعدمُ نقلِ المخالفةِ لِمَا في الكتابِ والسُّنَّةِ يَدُلُّ على الإجماعِ، وهذا طريقٌ واضحٌ بأنه إذا لم يَرِدْ عن السلفِ ما يخالفُ دلالةَ القرآنِ، فهم مُجْمِعُون على ما دلَّ عليه القرآنُ.

أما دلالةُ العقلِ: فَسَلْ نَفْسَك: أَيُّما أَوْلى رَبٌّ يُوصَفُ بما يَدُلُّ على العدَمِ، أو ربٌّ لا يُنَزَّهُ عن الأماكِنِ القذرةِ، أو ربٌّ عالٍ فوقَ كلِّ شيءٍ؟ الجوابُ: الثالثُ، لا شكَّ.

ثم إن العُلُوَّ من حيث هو عُلُوٌّ صفةُ كمالٍ، وإذا كان صفةَ كمالٍ فقد أثبتَ اللهُ لنفسِهِ كلَّ صفةِ كمالٍ، كما قال اللهُ تعالى {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} [النحل: ٦٠]، هذه الدلالةُ عقليَّةٌ.

أما الدلالةُ الفطريَّةُ: فالفطرةُ دَلَّتْ على عُلُوِّ اللهِ، الإنسانُ بفطرتِهِ قَبْلَ أن يَتَعَلَّمَ أين يتصورُ اللهَ ﷻ؟ في العُلُوِّ؛ ولهذا تَجِدُ الإنسانَ العامِّيَّ الذي لم يقرأْ هذا البحثَ إذا أراد أن يَدْعُوَ اللهَ يتوجَّهُ إلى السماءِ؛ ولهذا قال أبو جعفر الهمَذانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ لإمامِ الحَرَمْين الجُوَيْنِيِّ، وهو يُقَرِّرُ الجوينيَّ - عفا اللهُ عنه، ولعلَّهُ تاب فتاب اللهُ عليه - يُقَرِّرُ إنكارَ العُلُوِّ - يعني: إنكارَ الإستواءِ على العرشِ مع العلوِّ - ويقولُ: إن اللهَ تعالى كان ولم يكن شيءٌ قَبْلَه وهو الآن على ما كان عليه، يريدُ أن نُنْكِرَ الإستواءَ على العرشِ والعُلُوَّ أيضًا.

قال له أبو جعفرٍ الهمَذانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يا أستاذُ، دعنا من ذِكْرِ العرشِ والإستواءِ على العرشِ، أَخْبِرْنَا عن هذه الفطرةِ، ما قال عارفٌ قطُّ: يا اللهُ، إلا وَجَدَ من قلبِهِ ضرورةً بطلبِ العُلُوِّ، سبحانَ اللهِ! ما قال عارفٌ، والعارفُ يُطْلَقُ على الصوفيِّ عندهم، لكنَّ المرادَ هنا ما هو أعمُّ، ما قال عارفٌ قط: يا اللهُ إلا وَجَدَ من قلبه ضرورةً بطلبِ العلوِّ، جعل يلطِمُ على رأسِهِ ويقولُ: حَيَّرَنِي حَيَّرَني.

=

=

لأنه عاجزٌ عن الإجابةِ.

هذه دلالةٌ فطريةٌ لا يمكنُ لأحدٍ أن يُنْكِرَها، فالحمدُ للهِ الذي هدانا لهذا.

إذن علوُّ اللهِ ﷻ ينقسمُ إلى قِسْمَيْن:

علوٍّ ذاتيٍّ، وعلوٍّ وصفيٍّ، الثاني لم تختلفِ الأمةُ الإسلاميَّةُ فيه، أما الأولُ العلوُّ الذاتيُّ فانقسموا فيه إلى ثلاثِ فِرَقٍ والفرقةُ الناجيةُ- جعلني اللهُ وإياكم منهم- هم الذين أثبتوا عُلُوَّهُ بذاتِهِ جَلَّ وَعَلَا فوق كلِّ شيءٍ، لا شيءَ يحاذي اللهَ ﷻ كلُّ الخَلْقِ في قبضتِهِ، كلُّ الخَلْقِ ليس عنده بشيءٍ إذا كانت السَّمواتُ السبعُ والأرَضون السبعُ بالنسبةِ للكرسيِّ كحَلْقةٍ أُلْقِيَتْ في فَلاةٍ من الأرضِ، السَّمواتُ السبعُ على عظمِها وسعتِها، والأرَضون السبعُ بالنسبةِ للكرسيِّ كحلْقَةٍ أُلْقِيَتْ في فلاةٍ من الأرضِ، الحلْقَةُ حلْقَةُ المِغْفَرِ ضيقةٌ أُلقيتْ في فلاةٍ من الأرضِ، لا تشغلْ هذه الحلقةُ من هذه الفلاةِ شيئًا.

قال النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم-: "وإنَّ فضلَ العرشِ على الكرسيِّ كفضلِ الفلاةِ على هذه الحلْقَةِ" إذنْ ماذا يكونُ الكرسيُّ بالنسبة للعرشِ؟ لا شيءَ، والربُّ ﷻ فوق ذلك فهو سبحانه وتعالى فوق كلِّ شيءٍ، لا شيءَ يحاذيه، كلُّ المخلوقاتِ تحته سبحانه وتعالى وهو فوق كلِّ شيءٍ.

إذنْ أثبتْنا هذا العلوَّ وأَطَلْنَا فيه؛ لأَنَّه مُهِمٌّ؛ ولأنه يُوجَدُ الآن من يُنْكِرُهُ- نسألُ اللهَ العافيَةَ- ولا شكَّ أن هؤلاء قد أزاغ اللهُ قلوبَهُم، وإلا فلو رَجَعُوا إلى فِطْرَتِهم- الفطرةِ فقط- لَعَلِمُوا أنَّ اللهَ تعالى فوق كلِّ شيءٍ، وأن ذلك من كَمَالِهِ.

وقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الْعَلِيُّ} على خَلْقِهِ] لا نستطيعُ أن نقولَ: إن المُفسِّر أنكر العلوَّ الذاتِيَّ، ولا نستطيعُ أن نقولَ: إنه أَثْبَتَهُ قطعًا؛ لأنَّ [{الْعَلِيُّ} على خَلْقِهِ] يحتملُ العليَّ عليهم بالسلطانِ والسيطرةِ، فيكون علوًّا وصفيًّا، ويحتملُ أنه علا عليهم بذاتِهِ.

=

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥).

{تكاد} بالتاء والياء {السماوات ينفطرون} بِالنُّونِ وَفِي قِرَاءَة بِالتَّاءِ وَالتَّشْدِيد {مِنْ فَوْقهنَّ} أَيْ تَنْشَقّ كُلّ وَاحِدَة فَوْق الَّتِي تَلِيهَا مِنْ عَظَمَة الله تَعَالَى {وَالْمَلَائِكَة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبّهمْ} أَيْ مُلَابِسِينَ لِلْحَمْدِ {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْض} مِنْ الْمُؤْمِنِينَ {أَلَا إِنَّ الله هُوَ الْغَفُور} لِأَوْلِيَائِهِ {الرَّحِيم} بِهِمْ[1].

=

فلا يَجُوزُ لنا أن نرميَ المُفسِّر بأنه أَنْكَرَ الْعُلُوَّ، ولا أن نَشْهَدَ بأنه أَثْبَتَهُ؛ لأنَّ المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ من الأشاعرةِ، فلا ندري، لكننا يَجِبُ علينا إذا سَمِعْنَا كلامًا من إخوانِنا المسلمين يُمْكِنُ أن يَكُونَ له محملٌ صحيحٌ أن نَحْمِلَهُ على المحملِ الصحيحِ ما لم تُوجَدُ قرينةٌ تَمْنَعُ ذلك، وإلا فالأصلُ إذا سَمِعْتَ من أخيك كلمةً فاحْمِلْها على المعنى الصَّحيحِ، حتى لو أنك سَمِعْتَ كلمةً وقلتَ: هذا الرجلُ يَسْخَرُ بي مثلًا أو يستهزئُ لا تَحْمِلْهَا على هذا، احْمِلْها على المعنى الحقِّ.

وأمَّا {الْعَظِيمُ} فيقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [الكبيرُ] وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ الكبيرَ غيرُ العظيمِ، العظيمُ يعني: ذُو العَظَمَةِ، وعَظَمَةُ الشيءِ أو عَظَمةُ العظيمِ يعني: قُوَّةَ السلطانِ، قُوَّةَ العِلْمِ، قوةَ أيِّ شيءٍ يحتمل من المعاني فهو داخلٌ في كلمةِ العظيمِ.

(١) قوله تعالى: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ}، أي:"تكاد السماوات يتشقَّقْنَ، كل واحدة فوق التي تليها؛ من عظمة الرحمن وجلاله تبارك وتعالى".

قال الطبري: يقول:"تكاد السموات يتشققن من فوق الأرضين، من عظمة الرحمن وجلاله".

قال الزجاج:"أي: تكاد السَّمَاوَاتُ ينفطرن من فوقهن لعظمة الله".

عن السديّ: "{تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ}، قال: يتشقَّقن، [و] في قوله: {مُنْفَطِرٌ

=

=

بِهِ}، قال: منشقّ به".

قال ابن عباس:"يعني: من ثقل الرحمن وعظمته تبارك وتعالى".

قال ابن عطية: أي:"يتصدعن ويتشققن من سرعة جريهن خضوعا وخشية من سلطان الله تعالى وتعظيما له وطاعة، وما وقع للمفسرين هنا من ذكر الثقل ونحوه مردود، لأن الله تعالى لا يوصف به".

وفي قوله تعالى: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ}، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: يتشققن من عظمة الله وجلاله من فوقهن. قاله الضحاك، وقتادة، وبه قال النحاس.

قال الضحاك:"يقول: يتصدعن من عظمة الله".

قال ابن عطية:"{مِنْ فَوْقِهِنَّ}، أي: من أعلاهن".

قال أبو حيان:"الظاهر عود الضمير في «فوقهن» على «السماوات» ".

قال أبو حيان:"فإن قلت: لم قال: {من فوقهن}؟

قلت: لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة فوق السموات، وهي العرش والكرسي وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش، وما لا يعلم كنهه إلا الله من آثار ملكوته العظمى، فلذلك قال: «يتفطرن من فوقهن»، أي: يبتدئ الانفطار من جهتهن الفوقانية".

الثاني: معناه: تكاد كل واحدة منها تتفطر فوق التي تليها من قول الكفار: {اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً}. قاله الأخفش.

قال ابن عطية:"والمعنى: من فوق الفرق والجماعات الملحدة التي من أجل أقوالها تكاد السماوات يتفطرن".

الثالث: أن معنى: «من فوقهن»، أي: من فوق الأرضين. حكاه أبو حيان.

قال الشوكاني: القول" الأول أولى. و «من» في «من فوقهن» لابتداء الغاية: أي:

=

=

يبتدئ التفطر من جهة الفوق".

قال النحاس:"أصحّ ما قيل فيه أن المعنى: من أعلاهن.. ولا نعلم أحدا من النحويين أجاز في بني أدم: «رأيتهنّ»، إلّا أن يكون للمؤنث خاصة. فهذا يدلّ على فساد هذا القول، وأيضا فلم يتقدّم للكفار ذكر يكنى عنهم".

قوله تعالى: {وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}، أي:"والملائكة يسبحون بحمد ربهم، وينزهونه عما لا يليق به".

قال الطبري: يقول:"والملائكة يصلون بطاعة ربهم وشكرهم له من هيبة جلاله وعظمته".

قال ابن عباس:"والملائكة يسبحون له من عظمته".

قال الزجاج:"معنى: {يُسَبِّحُونَ}: يعظمون الله وينزهونه عن السوء".

قوله تعالى: {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ} [الشورى:٥]، أي:"ويسألون ربهم المغفرة لذنوب مَن في الأرض مِن أهل الإيمان به".

قال الطبري:"يقول: ويسألون ربهم المغفرة لذنوب من في الأرض من أهل الإيمان به".

عن السديّ، قوله: "{وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأرْضِ}، قال: للمؤمنين".

قال الزجاج:"ولا يجوز أن يكون يَسْتَغْفِرُونَ لكل من في الأرض، لأن الله تعالى قال فِي الكفار: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [البقرة: ١٦١]، ففي هذا دليل على أن الملائكة إنما يستغفرون للمؤمنين، ويدل على ذلك قوله في سورة المُؤمِن: {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً} [غافر: ٧] ".

قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}، أي:"ألا إن الله هو الغفور لذنوب مؤمني عباده، الرحيم بهم".

=

=

قال الطبري:"يقول الله ﷻ: ألا إن الله هو الغفور لذنوب مؤمني عباده، الرحيم بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم منها".

قال ابن كثير:"قوله: {أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} إعلام بذلك وتنويه به".

قال ابن إسحاق: "أي: يغفر الذنوب، ويرحم العباد، على ما فيهم".

قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:"أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ} {تَكَادُ} يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [بالتاءِ والياءِ] {تَكَادُ} و (يكادُ) أَمَّا {تَكَادُ} فَمُطَابَقَتُهَا لمرفوعِها ظاهرٌ؛ لأنَّ السَّمواتِ جمعٌ، وكما قال الزمخشريُّ:

.... كُلُّ جَمْعٍ مُؤَنَّثٌ

إذنْ {تَكَادُ} مطابقَتُها لمرفوعِها ظاهرٌ، (يكادُ) مُذَكَّرٌ للمذَكِّر والسَّمواتُ مؤنثٌ، فما هو الجوابُ؟

الجوابُ: الجمعُ المؤنَّثُ إذا كان مجازيًّا جازَ تذكيرُهُ وتأنيثُهُ؛ أي: تذكيرُ فعلِهِ وتأنيثُهُ، تقولُ: طلعَ الشمسُ وطلعتِ الشمسُ، يَجوزُ هذا وهذا؛ لأَنَّه مجازٌ، أَمَّا إذا كان حقيقيًّا- وهو الذي له فَرْجٌ من بني آدمَ أو غيرِهِم- فإنه يَجِبُ تأنيثُ عاملِهِ فتقول: قامتِ امرأةٌ ولا ريبَ، {السَّمَاوَاتُ} من المؤنثِ المجازيِّ؛ ولهذا جاء فيها قراءتان {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ} ومعنى {تَكَادُ} : تَقْرُبُ، فهي من أفعالِ المقاربةِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{تَكَادُ السَّمَاوَاتُ} يعني: السبعَ (يَنْفَطِرْنَ) بالنونِ، وفي قراءةٍ بالتاءِ والتشديدِ] وهي قراءةٌ سَبْعِيَّةٌ؛ لأنَّ قاعدةَ المفسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ أنه إذا قال: في قراءةٍ، أو قال: بالتاءِ والياءِ، أو قال: بالمدِّ والقَصْر. أن القراءةَ سَبْعِيَّةٌ، إذن لك أن تقرأ (يَنْفَطِرْنَ) و {يَتَفَطَّرْنَ}.

=

=

وَالإِنْفِطَارُ بمعنى الإنشقاقِ، قال اللهُ تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ} [الإنفطار: ١].

وقولُهُ: {مِنْ فَوْقِهِنَّ} لم يقلْ: من أسفلَ؛ لأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى فوقَ والسَّمواتُ تكاد يَتَفَطَّرْنَ من فوقِهن من عَظَمَتِهِ.

قال المفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [أيْ: تنشقُّ كلُّ واحدةٍ فوق التي تليها من عظمةِ اللهِ عَجَلَ] ولو لا أن اللهَ أَمْسَكَهَا لَتَفَطَّرَتْ، كما أنه جَلَّ وَعَلَا لمَّا تجلَّى للجبلِ جعله دكًّا، فالسَّمواتُ على عِظَمِها وقُوَّتِهَا وشِدَّتِها تكادُ تَنْفَطِرْنَ من عظمةِ اللهِ جلَّ وعلا سبحانَه وبحمْدِهِ.

وقوله تعالى: {وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} انظرِ العظمةَ، عظمةٌ تكادُ السَّمواتُ تتفطرُ منها، عظمةٌ أخرى بجنودِهِ جَلَّ وَعَلَا، الملائكةُ يُسَبِّحُون بحمْدِ ربِّهم.

والملائكةُ عالمٌ غيبيٌّ لا يُشاهَدُون، خَلَقَهُم اللهُ تعالى من نورٍ، وسَخَّرَهم لعبادتِهِ؛ يُسَبِّحُون الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرُونَ، قال النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم-: "أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لَهَا أن تَئِطَّ، ما من موضعِ أربعِ أصابعَ منها إلا وفيه مَلَكٌ قَائِمٌ للهِ، أو راكعٌ، أو ساجدٌ".

"أَطَّتْ" يعني: صار لها صريرٌ كصريرِ الرَّحْلِ المحملِ، الرَّحْلُ على البعير إذا ثَقُلَ الحِمْلُ صار له صريرٌ مع حركةِ السيرِ، فالسماءُ لها هذا من كثرةِ من عليها من الملائكةِ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: "حُقَّ لَهَا أن تَئِطَّ".

إذن الملائكةُ تفسيرُهُم: عالمٌ غيبيٌّ، خَلَقَهُم اللهُ تعالى من نورٍ، كما ثَبَتَ عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وهو سَخَّرَهُم لعبادتِهِ، يُسَبِّحُون الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرُونَ إذا أَمَرَهُم اللهُ بشيءٍ، لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُم، ويَفْعَلُون ما يُؤْمَرون، ضِدَّهُم الشياطينُ، فالشياطينُ: عالمٌ غيبيٌّ، خُلِقُوا من نارٍ، عُصَاةٌ للهِ، مستكبرون عن

=

=

عبادتِهِ، وأبوهم الشيطانُ الأكبرُ إبليسُ.

فإذا قال قائلٌ: أنتم قلتم: إنهم عالمٌ غيبيٌّ، أليس جبريلُ قد شاهَدَهُ النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- على خِلْقَتِهِ وله ستُّ مئةِ جناحٍ قد سدَّ الأفقَ؟

فالجوابُ: بلى، لكنَّ هذا لا ينافي أن يكون عالمًا غيبيًّا في الأصلِ، يعني: قد يُظْهِرُهُم اللهُ سبحانه وتعالى فيراهم الناسُ وقد يتشكَّلون أيضًا، يكونُ المَلَكُ بصورةِ الآدميِّ، كما جاء جبريلُ مرةً بصورةِ رجلٍ غريبٍ، لكنه لا يُرَى عليه أثرُ السفرِ، وجاء مرةً بصورةِ دِحْيَةَ الكلبيِّ، فهم قد يتشكَّلون بصُوَرِ الآدميِّ.

فإن قال قائلٌ: هذا التشكُّلُ هل هو بإرادتِهِم، أو من اللهِ ﷻ؟

فالجواب: السؤالُ عن هذا بدعةٌ، يعني: هل لنا مصلحةٌ أن نَعْرِفَ أن جبريلَ يُحَوِّلُ نَفْسَهُ إلى صورةِ آدميٍّ، أو أن اللهَ يَقْلِبُهُ إلى صورةِ آدميٍّ؟ ليس لنا مصلحةٌ، لكن نَعْلَمُ أنه لم يَقَعْ ذلك إلا بإرادةِ اللهِ، سواءٌ كان بفعلٍ اختياريٍّ من جبريلَ، أو بفعلٍ خِلْقِيٍّ من اللهِ ﷻ.

نحنُ ليس لنا حقٌّ أن نسألَ عن ذلك، كلُّ أمورِ الغيبِ لا تَسْأَلْ عنها، أَجْرِهَا على ما جاءتْ؛ لأنَّه سَبَقَك من هو أَحْرَصُ منك على العِلْمِ وأقوى منك إيمانًا، وباشر من يستطيعُ الجوابَ والرَّدَّ، وهم الصحابةُ، ومع ذلك ما سألوا، إذا لم يَسَعْكَ ما وَسِعَ الصحابةَ فلا وسَّعَ اللهُ عليك.

ولهذا يجبُ أن نقولَ لبعضِ الشبابِ الآن الذين يبحثون في أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ ويتعمقون يجبُ أن ننهاهم، ونقولَ: اتَّقُوا اللهَ، آمِنُوا بالقرآنِ والسُّنَّةِ على ما جاءَ بالكتابِ والسُّنَّةِ ولا تبحثوا، سَبَقَكم من هو خيرٌ منكم وأَحْرَصُ على العلمِ ولم يسألوا.

ثم هُمْ إذا سألوا يسألون الرسولَ الذي قد يَنْزِلُ عليه الوحيُ ويُخْبِرُهُ اللهُ ﷻ بما سألوا عنه، أمَّا أن تسألَ إنسانًا يخطئُ ويصيبُ وأنت وهو سواءٌ في عِلْمِ الغيبِ،

=

فهذا من الغلطِ والسفهِ، ومن مخالفةِ جَادَّةِ السلفِ، وما أحسنَ ما قاله مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ للذي سأله عن كيفيةِ الإستواءِ قال: "السؤالُ عنه بدعةٌ، وما أراك إلا مبتدعًا".

فنصيحتي لكم إذا أردتُمُ السلامةَ أن تَدَعُوا السؤالَ عن الأمورِ الغيبيَّةِ، اتركوها، وإلا هذا يَرِدُ عن الإنسانِ. يعني أنه هل المَلَكُ يستطيعُ أن ينقلبَ إلى صورةِ آدميٍّ، أو أن هذا بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟ بمعنى أنه لا يستطيعُ لكن اللهَ يَقْلِبُهُ.

ونقولُ: الطريقَ السليمَ في الجوابِ عليه أن نقولَ: السؤالُ عن هذا بدعةٌ، بدعةٌ في دينِ اللهِ، ما سأل عنه من هو خيرٌ منا، دعوه.

فإذا قال قائلٌ: الملائكةُ هل هم أجسامٌ؟

الجوابُ: نعمْ لا شكَّ، قال اللهُ تعالى: {جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ} [فاطر: ١]، وأما من قال: إن الملائكةَ كنايةٌ عن قوى الخيرِ، والشياطينَ كنايةٌ عن قوى الشرِّ، فهذا يعني إنكارَ الملائكةِ والشياطين، بل نقولُ: الملائكةُ أجسامٌ ذوو أجنحةٍ، الشياطينُ أجسامٌ تأكلُ وتشربُ، قال اللهُ تعالى: {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} [الإسراء: ٦٤]، أعاذني اللهُ وإياكم من الشيطانِ.

المهمُّ: أننا نؤمنُ بأن الملائكةَ أجسامٌ، وأن الشياطينَ أجسامٌ، لكنْ لا نَعْرِفُ كَيْفِيَّتَهم إلا ما عَلَّمَنا اللهُ، فما عَلَّمَنا اللهُ نَعْرِفُه وما لا فلا نَعْرِفُهُ؛ لأنَّهم عالمُ الغيبِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} أيْ: مُلابِسين للحمدِ] أفادنا المُفسِّر بقولِهِ: [أي ملابسين للحمدِ] أن الباءَ هنا للملابَسةِ والمصاحَبَةِ، ومعنى (يُسَبِّحُ): أي: يُنَزِّهُ، ومعنى بِحَمْدِ: أي: تسبيحًا مَصْبُوغًا بالحمد؛ لِأَنَّ التسبيحَ تَنْزِيهٌ وتخليةٌ، والحمدُ بالعكسِ إثباتٌ؛ فقولك: "سبحانَ اللهِ وبحمْدِه" يجتمعُ فيه تنزيهُ اللهِ عن كُلِّ نقصٍ، وإثباتُ كلِّ كمالٍ له؛ أخذْنا إثباتَ الكمالِ من

=

الحمدِ، والتنزيهَ من التسبيح {يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}.
و(رَبٌّ) هنا بمعنى: خَالِقٌ، مَالِكٌ، مُدَبِّرٌ.
وقوله: {وَيَسْتَغْفِرُونَ} المفعولُ محذوفٌ للعِلْمِ به، فمَن هو المُسْتَغْفَرُ؟ اللهُ، ويستغفرون اللهَ، والإستغفارُ طلبُ المغفرةِ؛ لأنَّ استفعل تأتي دائمًا وغالبًا بمعنى الطلبِ، تقولُ: استسقى بمعنى: طَلَبَ السُّقيا، استغفرَ بمعنى: طَلَبَ المغفرةَ، استرحمَ بمعنى: طلبَ الرحمةَ، وما أشبهَ ذلك، وقد تأتي بغيرِ ذلك كما في قولِك: استكبرَ ليس فيها طلبُ استكبارٍ، لكنه بلغَ في الكبر غايتَهُ.
وقوله: {وَيَسْتَغْفِرُونَ} أي: يطلبون المغفرةَ من اللهِ، والمغفرةُ قالوا: إنها مشتقةٌ من المِغفرِ، المغفرُ: شيءٌ يجعَلُه المقاتلُ على رأسِهِ يغطي الرأسَ ويقيه السهامَ، ففيه سترٌ ووقايةٌ، فإذا قلتَ: أستغفرُ اللهَ، أو ربِّ اغفرْ لي، فأنت تَطْلُبُ شيئْين: الشيءُ الأولُ: السترُ، سترُ عيوبِك عن الناسِ، لو عَلِمَ الناسُ ما عندك من الذنوبِ ما رَدُّوا عليكَ السلامَ، كما قال القحطانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:
واللهِ لو علموا خَبِيءَ سَرِيرتي ... لأبى السلامَ عليَّ مَنْ يلقاني
فأنت تسألُ اللهَ أن يسترَ عليك.
الثاني: تسألُ اللهَ وقايةً من الذنبِ، وقايةَ العذابِ، كُلُّ مُذْنِبٍ مستحقٌّ للعقابِ.
لو قال الإنسانُ: المغفرةُ عدمُ المؤاخذةِ على الذنبِ، نقولُ: هذا بعضُ معناها، فمعناها: سَتْرُ الذنبِ وعدمُ المؤاخذةِ عليه.
وقولُهُ: {لِمَنْ فِي الْأَرْضِ} (من) هُنَا اسمٌ موصولٌ يفيدُ العمومَ، وهو ليس عامًّا، إنما هذا عامٌّ يُرادُ به الخاصُّ؛ بدليلِ قولِهِ تعالى: {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ} [غافر: ٧].
إذنْ {لِمَنْ} هنا عامٌّ يُرادُ به الخصوصُ.
لو قال قائلٌ: إنه عامٌّ خُصِّصَ. قلنا: لا؛ لأنَّه لم يُرِدِ العمومُ من الأصلِ، إنما أُريدَ

=

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦).

{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونه} أَيْ الْأَصْنَام {أَوْلِيَاء الله حَفِيظ} مُحْصٍ {عَلَيْهِمْ} لِيُجَازِيَهُمْ {وَمَا أَنْتَ عليهم بوكيل} تحصل المطلوب منهم وما عَلَيْك إلَّا

=

الخصوصُ {لِلَّذِينَ آمَنُوا}.

فإن قال قائلٌ: ما الفَرْقُ بين العامِّ الذي أُريدَ به الخصوصُ وبيْنَ العامِّ المخصوصِ؟

فالجواب: أي العامُّ المخصوصُ هو الذي أُريدَ عمومُهُ أولًا، ثم أُخْرِجَ بعضُ أفرادِه، مثلَ أن تقولَ: قام القومُ إلا زيدٌ والعامَّ المخصوصُ الذي أُرِيدَ به الخصوصُ لم يُرَدْ عمومُهُ أصلًا، ودلالتُهُ عقليَّةٌ دلالةُ العامِّ المخصوصِ عقليَّةٌ فمثلًا {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ} {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ} هل هم كُلُّ الناسِ؟ هل يَفهمُ أحدٌ من هذه الكلمةِ أن جميعَ الناسِ قالوا أصلًا؟

الجواب: لا يَفْهَمُ: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ}.

ولهذا قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [من المؤمنين].

وقوله: {أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (ألا) أداةُ استفتاحٍ تبتدِئُ بها الجملةُ، وتفيدُ شيئَيْن: الأولُ: التنبيهَ، والثاني: التوكيدُ.

فقوله: {إِنَّ اللهَ} (إنَّ) حرفُ توكيدٍ، هو ضميرُ فصلٍ، وضميرُ الفصلِ يفيدُ التوكيدَ، وحينئذٍ يحقُّ لنا أن نقول: إن هذه الجملة أُكِّدَتْ بثلاثةِ مؤكِّداتٍ: (ألا)، و (إن)، و (هو) الذي هو ضميرُ الفصلِ: {أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}؛ ولذلك طَلَبَتِ الملائكةُ منه المغفرةَ؛ لأنَّه سبحانه وتعالى أهلٌ لذلك، كما قال تعالى: {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} [المدَّثر: ٥٦]، {أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} فبمغفرتِهِ تزولُ المكروهاتُ وبرحمتِهِ تحصلُ المحبوباتُ، غفر اللهُ لنا ولكم.

الْبَلَاغ(١).

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ}، أي:"والذين اتخذوا غير الله آلهة مِن دونه يتولَّونها، ويعبدونها، الله تعالى يحفظ عليهم أفعالهم؛ ليجازيهم بها يوم القيامة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا} يا محمد من مشركي قومك {مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} آلهة يتولونها ويعبدونها {اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ} يحصي عليهم أفعالهم، ويحفظ أعمالهم، ليجازيهم بها يوم القيامة جزاءهم".

قال ابن كثير:"{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} يعني: المشركين، {اللهُ}: شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدها عدًّا، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء".

قال الزمخشري: أي:"[والذين] جعلوا له شركاء وأندادا، [الله] رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء، وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم، لا رقيب عليهم إلا هو وحده".

قال القشيري:"المشركون اتخذوا الشياطين أولياء من دونه، وذلك بموافقتهم لها فيما توسوس به إليهم، وليس يخفى على الله أمرهم، وسيعذبهم بما يستوجبونه".

قال ابن الجوزي:"يعني: كفار مكة {اتَّخَذُوا} آلهة فعبدوها من دونه، {اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ} أي: حافِظٌ لأعمالهم ليجازيَهم بها".

قال السعدي:"وفي وصفه تعالى بهذه الأوصاف، بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل كلهم عموما، وإلى محمد- صلى الله عليهم أجمعين- خصوصا، إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم، فيه من الأدلة والبراهين، والآيات الدالة على كمال الباري تعالى، ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من معرفته ومحبته وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة =

=

والباطنة له تعالى، وأن من أكبر الظلم وأفحش القول، اتخاذ أنداد لله من دونه، ليس بيدهم نفع ولا ضرر، بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم، ولهذا عقبه بقوله: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ}، يتولونهم بالعبادة والطاعة، كما يعبدون الله ويطيعونه، فإنما اتخذوا الباطل، وليسوا بأولياء على الحقيقة، {اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ} يحفظ عليهم أعمالهم، فيجازيهم بخيرها وشرها".

قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} [الشورى:٦]، أي:"وما أنت-أيها الرسول- بالوكيل عليهم بحفظ أعمالهم، إنما أنت منذر، فعليك البلاغ وعلينا الحساب".

قال الطبري:"يقول: ولست أنت يا محمد بالوكيل عليهم بحفظ أعمالهم، إنما أنت منذر، فبلغهم ما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب".

قال الزمخشري: أي:"{وَما أَنْتَ} يا محمد بموكل بهم ولا مفوض إليك أمرهم ولا قسرهم على الإيمان، إنما أنت منذر فحسب".

قال ابن كثير:"أي: إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ".

قال البغوي:"لم يوكلك الله بهم حتى تؤخذ بهم".

قال السدي:"أما «الوكيل»، فالحفيظ".

عن الحسن، {وكيلا}، " أي: حفيظا لأعمالهم".

قال السمعاني:"أي: بمسلط، وهذا قبل نزول آية السيف".

قال ابن الجوزي:"وهذه الآية عند جمهور المفسرين منسوخة بآية السيف، ولا يصح".

وقال العثيمين: أولًا: في الإعراب {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا} مبتدأٌ و {أَوْلِيَاءَ} مفعولٌ ثان لِـ {اتَّخَذُوا} لأنَّ التقديرَ اتخذوا الأَصنامَ أولياءَ، {اللهُ} مبتدأٌ {اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ} و {حَفِيظٌ} خبرُهُ، والجملةُ من المبتدأِ والخبرِ في محلِّ رفعٍ خبرُ المبتدأِ الأوَّلِ

=

=

وهو {وَالَّذِينَ}.

فإن قال قائلٌ: المعروفُ عندَ النحْويِّين أنَّ الجملةَ الواقعةَ خبرًا لا بُدَّ أن تتضمَّنَ ضميرًا يعودُ على المبتدأِ حتى يُعْرَفَ اتصالُها به، قلنا: هنا حلَّ الظاهرُ محلَّ الضميرِ، وهو قولُهُ: {اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ} يعني: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} هو {حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ} يعني: اللهُ، ويجوزُ أن يكونَ الرابطُ هو قولَهُ: {عَلَيْهِمْ} أي: الضميرُ.

يقولُ اللهُ ﷻ: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} اتخذوا الأصنامَ، ولهذا قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أيِ: الأصنامَ]، وهذا التقديرُ لبيانِ المفعولِ الثاني، كأنه يقولُ: المفعولُ الثاني محذوفٌ، تقدير: الأصنامُ.

{أَوْلِيَاءَ} جَمْعُ وَلِيٍّ؛ أي: أنهم يَتَوَلَّوْن هذه الأصنامَ يعبُدُونها، يَذْبَحُون لها، يَنْذِرُون لها، وهم عن اللهِ غافلون.

ولا تَجِدُ في القرآنِ أن الأولياءَ هم الأصنامُ، لكن المفسِّرين يُفَسِّرُونهم بالأصنامِ على سبيلِ التمثيلِ، وإلا فقد قال الرسولُ عليه الصلاة والسلام: "تَعِسَ عبْدُ الدينارِ، تَعِسَ عبْدُ الدرهمِ، تَعِسَ عبْدُ الخَمِيصةِ، تعس عبد القَطِيفَة"، فجعلَ الذي يرْبِطُ قولَهُ ومَحَبَّتَه ومعاداتَه وكرَاهَتَه على هذا، جَعَلَهُ عبدًا لهم.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{اللهُ حَفِيظٌ} مُحْصٍ عليهم لِيُجَازِيَهُم] تفسيرُ الـ {حَفِيظٌ} بالمُحْصِي تفسيرٌ باللازمِ، ولكنَّ المرادَ بالحفيظِ؛ أي: حافظٌ لأعمالِهم رقيبٌ عليهم، لا يَفُوتُهُ شيءٌ من أعمالِهم {اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ}، وإذا كان حفيظًا عليهم حَافِظًا لهمْ مراقبًا لهم؛ فلا بَدَّ أن يُحْصِيَ عليهم أعمالَهُم ويجازيَهُم عليها.

{وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [تُحَصِّلُ المطلوبَ منهم، وما عليك إلَّا البلَاغُ] {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ} الخطابُ للرسولِ عليه الصلاة والسلام {بِوَكِيلٍ}؛ أي: بحفيظٍ، فالآيةُ واضحةٌ، كأنَّ اللهَ يقولُ: أنا الحفيظُ عليهم، أمَّا أنت فلستَ

=

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧).

{وَكَذَلِكَ} مِثْل ذَلِكَ الْإِيحَاء {أَوْحَيْنَا إِلَيْك قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِر} تُخَوِّف {أُمّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلهَا} أَيْ أَهْل مَكَّة وَسَائِر النَّاس {وَتُنْذِر} النَّاس {يَوْم الْجَمْع} يَوْم الْقِيَامَة تُجْمَع فِيهِ الْخَلَائِق {لا ريب} شك {فيه فَرِيق} مِنْهُمْ {فِي الْجَنَّة وَفَرِيق فِي السَّعِير} النار[1].

=

بحفيظٍ، ما الذي على الرسولِ؟ {إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} ليس عليه إلا أن يُبَلِّغَ، أمَّا أن يَهْدِيَ أحدًا، أو يُحْصِيَ أعمالَ أحدٍ، فهذا ليس إليه، إنما هو إلى اللهِ ﷻ حتى إن اللهَ قال له في آلِ عمرانَ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)} [آل عمران: ١٢٨].

(١) قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}، أي:"وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحَيْنا إليك قرآنا عربيًّا".

قال مجاهد:"نزل القرآن بلسان قريش، وهو كلامهم".

قال الطبري: يقول:"وهكذا {أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} يا محمد {قُرْآنًا عَرَبِيًّا} بلسان العرب، لأن الذين أرسلتك إليهم قوم عرب، فأوحينا إليك هذا القرآن بألسنتهم، ليفهموا ما فيه من حجج الله وذكره، لأنا لا نرسل رسولا إلا بلسان قومه، ليبين لهم".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك، {أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} أي: واضحا جليا بينا".

قال السعدي:"ذكر منته على رسوله وعلى الناس، حيث أنزل الله {قُرْآنًا عَرَبِيًّا} بين الألفاظ والمعاني".

=

=

قال الشافعي:"فأقام حجته بأن كتابه عربي، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه كل لسان غير لسان العرب".

قوله تعالى: {لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا}، أي:"لتنذر أهل «مكة» ومَن حولها مِن سائر الناس".

قال الطبري: يقول:"{لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى} وهي مكة، {وَمَنْ حَوْلَهَا}: ومن حول أم القرى من سائر الناس".

قال ابن كثير:"{لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى} وهي مكة، {وَمَنْ حَوْلَهَا} أي: من سائر البلاد شرقا وغربا".

قال السعدي:"{لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى} وهي مكة المكرمة {وَمَنْ حَوْلَهَا} من قرى العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر الخلق".

قال ابن عباس:"يعنى بـ {أم القرى}، مكة، {ومن حولها}، من القرى إلى المشرق والمغرب".

عن السديّ، قوله: "{لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى}، قال: مكة".

وفي سبب تسمية مكة بـ «أُمّ الْقُرَى» خمسة أقوال:

أحدها: لأنها مجتمع القرى، كما يجتمع الأولاد إلى الأم.

الثاني: لأن أول بيت وضع بها، فكأن القرى نشأت عنها، قاله السدي.

الثالث: سميت «أم القرى»، لأن الأرض دحيت من تحتها، فهي أصل الأرض كلها كالأم أصل النسل. وهذا قول قتادة، ومقاتل.

قال قتادة:"بلغني أن الأرض دُحِيَتْ من مكة".

الرابع: لأن الناس يؤمونها من كل جانب، أي: يقصدونها. قاله الزجاج ايضا.

الخامس: لأنها معظمة كتعظيم الأم، فكانت أعظم القرى شأنا. قاله الزجاج، قال الزمخشري:

=

فمن يلق في بعض القريات رحله... فأم القرى ملقى رحالي ومنتابى

قال ابن كثير:"سميت مكة «أم القرى»؛ لأنها أشرف من سائر البلاد".

روي عن عبد الله بن عَدِي بن الحمراء الزهري: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول- وهو واقف بالحَزْوَرَة في سوق مكة-: "والله، إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخْرِجْتُ منك ما خرجت".

قوله تعالى: {وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ}، أي:"وتنذر عذاب يوم الجمع، وهو يوم القيامة، لا شك في مجيئه".

قال الطبري: يقول:"وتنذر عقاب الله في يوم الجمع عباده لموقف الحساب والعرض".

قال ابن كثير:"هو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد.. لا شك في وقوعه، وأنه كائن لا محالة ".

عن السديّ: "{وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ}، قال: يوم القيامة".

قال السمعاني:"يوم الجمع} أي: يوم القيامة، وهو اليوم الذي يجتمع فيه أهل السموات وأهل الأرض، وقيل: يجتمع فيه الأولون والآخرون. ومعناه: لتنذر بيوم الجمع".

قوله تعالى: {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [الشورى:٧]، أي:"منهم فريق في الجنة ومنهم فريق في النار المستعرة".

قال الطبري: "يقول: منهم فريق في الجنة، وهم الذين آمنوا بالله واتبعوا ما جاءهم به رسوله، ومنهم فريق في الموقدة من نار الله المسعورة على أهلها، وهم الذين كفروا بالله، وخالفوا ما جاءهم به رسوله".

قال البيضاوي:"أي: بعد جمعهم في الموقف يجمعون أولا ثم يفرقون".

قال السمعاني:"في التفسير: أنهم يتفرقون في الجنة والسعير فلا يجتمعون أبدا".

=

قال سهل:"من غرس الشوك لا يجتني عنبًا، فاصنعوا ما شئتم، فإن الطريق اثنان، فأي طريق منهما سلكتموه وردتم على أهله".

عن أشهب، قال: "سئل مالك عن قول الله: {ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم}، قال: خلقهم ليكونوا فريقين: فريقٌ في الجنة، وفريقٌ في السعير".

عن شفي الأصبحي، عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، قال:"خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان، فقال:"هل تدرون ما هذا؟ " فقلنا: لا إلا أن تخبرنا يا رسول الله، قال:"هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وقبائلهم"، ثم أجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا، وهذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم"، ثم أجمل على آخرهم،"فلا يزاد ولا ينقص منهم أبدا"، قال أصحاب رسول الله ﷺ: ففيم إذن نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ:"بل سددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة وإن عمل أي عمل، وصاحب النار يختم له بعمل النار وإن عمل أي عمل، فرغ ربكم من العباد" ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما:"فرغ ربكم من الخلق، فريق في الجنة، وفريق في السعير" قالوا: سبحان الله، فلم نعمل وننصب؟ فقال رسول الله ﷺ:"العمل إلى خواتمه".

عن عبد الله بن عمرو، قال: "إن الله تعالى ذكره لما خلق آدم نفضه نفض المزود، فأخرج منه كل ذرية، فخرج أمثال النغف، فقبضهم قبضتين، ثم قال: شقي وسعيد، ثم ألقاهما، ثم قبضهما فقال: {فريق في الجنة وفريق في السعير} ".

عن أبي نضرة:"أن رجلا من أصحاب النبي ﷺ يقال له: أبو عبد الله- دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي، فقالوا له: ما يبكيك؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ: "خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني" قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ

=

=

يقول: "إن الله قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، قال: هـذه لهـذه، وهـذه لهذه ولا أبالي" فلا أدري في أي القبضتين أنا".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} {وَكَذَلِكَ} الكافُ هنا اسمٌ بمعنى (مثل)، وهي منصوبةٌ على المفعوليَّةِ المُطْلَقةِ؛ ولهذا قَدَّرَها المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقولِهِ: [مِثْلَ ذلك الإيحاءِ].

الأولُ قال: {كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ} [الشورى: ٣]، ولمْ يُبَيِّن المُوحى، وهنا قال: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا} فبيَّنَ الموحى، فكان الآن هنا تفصيلٌ بعد إجمالٍ؛ الإجمالُ {يُوحَى إِلَيْكَ}؛ لأنَّه لم يُبيِّن الموحى، وهنا {أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا} فهو تفصيلٌ بَعْدَ إجمالٍ، ولا يخفى علينا أن التفصيلَ بَعْدَ الإجمالِ من أساليبِ اللغةِ البلاغيةِ العظيمةِ؛ لأنَّ الشيءَ إذا أُجْمِلَ بَقِيَتِ النفْسُ متضلعةً متطلعةً متشوفةً متشوقةً إلى تفصيلِهِ، فإذا جاء مفصلًا وَرَدَ كالماءِ على أرضٍ يابسةٍ، فالماءُ على الأرضِ اليابسة تشربُهُ على الفورِ، فكذلك إذا وَرَدَ التفسيرُ بَعْدَ الإجمالِ فإنه يَرِدُ على قلبٍ متطلعٍ تمامًا إلى التفصيلِ.

{وَكَذَلِكَ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي مثلَ هذا الإيحاءِ] {أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} والخطابُ للرسولِ عليه الصلاة والسلام عن طريقِ جبريلَ، قال اللهُ تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: ١٩٣] على قلْبك {أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ} {قُرْآنًا} بمعنى مقروءٍ، أو بمعنى قارئٍ، أمَّا هنا فهو مَصْدرٌ، قرآنٌ مَصْدَرُ قَرَأَ، كغُفْرانٍ مَصْدَرُ غَفَرَ، وشُكْرَانٌ مَصْدَرُ شَكَرَ، إذن {قُرْآنًا} مصدرٌ، لكن هل هو بمعنى اسمِ الفاعلِ، أو بمعنى اسمِ المفعولِ، أو هو بمعناهما جميعًا؟

لنا قاعدةٌ سبقت أن الآيةَ، أو الحديثَ أيضًا إذا احْتَمَلَ معنييْن على السواءِ، ولا منافاةَ بينهما وَجَبَ أن يُحْمَلَ عليهما جميعًا، إذن قرآنٌ بمعنى قارئٍ، وقرآنٌ بمعنى مقروءٍ.

=

=

فكيف يكونُ قرآنٌ بمعنى قارئٍ؟

الجواب: (قارئ) بمعنى جامعٌ، ومنه سُمِّيَت القريةُ؛ لأنَّها تجمعُ الناسَ فيكونُ {قُرْآنًا} بمعنى قارئٍ، ولا شكَّ أن القرآنَ جامعٌ، جامعٌ لعلومِ الأوَّلِينَ والآخرين، ولكلِّ علمٍ نافعٍ، وعملٍ صالحٍ.

وهذه القاعدةُ مفيدةٌ جدًّا: إذا احتملَ النصُّ مَعْنَيَيْنِ على السواءِ ولا منافاةَ بينهما وجبَ أن يُحْمَلَ عليهما جميعًا؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا يَعْلَمُ ماذا يَحْتَمِلُه كلامُهُ، وكذلك الرسولُ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم-؛ وهذه قاعدةٌ نافعةٌ لطالبِ العلمِ.

أما إذا تنافيا فيُطْلَبُ المرجِّحُ من دليل آخَرَ.

وأما إذا كان أحدُهُما أرجحَ أُخِذَ به وتُرِكَ الآخَرُ.

فهنا ثلاثةُ أقسامٍ: أن يكونَ أحدُهُما أرجحَ فيؤْخَذُ به ويُتْرَكُ الآخرُ، أي: لا مُرَجِّحَ واللفظُ لا يَحْتَمِلُ إلا أحدَهُما، أو يَطْلُب الترجيحَ من دليلٍ آخَرَ؛ أو أن يكونَ اللفظُ يحتَمِلُهُما جميعًا فَيُحْمَلَ عليهما؛ لأنَّ ذلك أوسعُ وأشملُ.

وقولَهُ: {عَرَبِيًّا}؛ أيْ: بلسانِ العربِ، والعروبةُ هنا هل هي عروبةُ النَّسبِ أو عروبةُ اللسانِ؟

الجوابُ: الظاهرُ أنها عروبةُ اللسانِ، لكنَّ حقيقةَ الأمرِ أن عروبةَ اللسانِ أصلُها عروبةُ النسبِ، إذ إن اللغةَ العربيةَ وإن تَكَلَّمَ بها من ليس بعربيٍّ هي أصلُها من عروبةِ النسبِ؛ ولذلك أولئك القومُ الذين من فارسَ والرومِ نقولُ: هم عربٌ لسانًا وليسوا عربًا نسبًا، فهل يَلْحَقُهُم مدحُ العربِ؟

الجوابُ: لا يَلْحَقُهُم؛ لأنَّ المدحَ في العربِ إنما هو عربُ النَّسبِ، أما الوصفُ الذي هو عربُ اللسانِ فلا يستحقُّ هذا المدحَ؛ ولهذا أشرفُ الناسِ نسبًا عربُ النّسبِ، هنا يُشارُ إلى هذا.

=

=

وبَيَّنَّا فيما سَبَقَ أن اللهَ تعالى أَجْمَلَ ثم فَصَّلَ فقال في أولِهِ: {كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ} [الشورى: ٣] وهنا قال: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [الشورى: ٧]، وأضاف الإيحاءَ إليه ﷺ لأن الأمرَ مُهِمٌّ جدًّا، والموحى به هو أشرفُ الكلامِ {قُرْآنًا} قلنا: إن {قُرْآنًا} مَصْدرٌ كالغفرانِ والشكرانِ، وهل هو بمعنى اسمِ الفاعلِ أو بمعنى اسمِ المفعولِ؟ أيْ: هل المعنى أنه قارئٌ أو المعنى أنه مقروءٌ؟

ذَكَرْنا أنه يجوزُ فيه الوجهان، أما كونُهُ قارئًا؛ فلأنه جامعٌ لجميعِ الكمالاتِ في الكلامِ ومنه القريةُ؛ لأنَّها تَجْمَعُ الناسَ.

وأما كونُهُ بمعنى مفعولٍ؛ فلأنه يُقْرَأ ويُتْلَى، وكلاهما وصفٌ صالحٌ للقرآنِ، ولا يُنافي بعضُهُما بعضًا، وعلى هذا فَيُحْمَلُ على المعنييْن جميعًا، كما هي القاعدةُ بالتفسيرِ، وفي الحديثِ النبويِّ إذا كان يَحْتَمِلُ معنييْن لا مُرَجِّحَ لأحدِهِما على الآخَرِ وليس بينهما منافاةٌ، فالواجبُ أن يُحْمَلَ عليهما جميعًا.

{قُرْآنًا عَرَبِيًّا}؛ أي: بِلُغَةِ العربِ، والمرادُ بِلُغَةِ العربِ نُطقًا أو نَسَبًا؟ الأصلُ نَسَبًا؛ لأنَّ لغةَ العربِ انتشرتْ بعد الفتوحاتِ الإسلاميَّةِ وإلا كانت في الجزيرةِ فقط، ثم قال: {لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى} [الشورى: ٧]، اللامُ للتعليلِ، والمعلَّلُ هو قولُهُ: {أَوْحَيْنَا} وعلى هذا فاللامُ متعلقةٌ بقولِهِ: {أَوْحَيْنَا}. {لِتُنْذِرَ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [لِتَخَوُّف، {أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [الشورى: ٧]، أي: أهلَ مكَّةَ وسائرَ الناسِ].

قولُنا: {لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى} هي مكَّةُ، وسُمِّيَتْ بذلك؛ لأنَّها جامعةٌ للقرى إذ إنَّ جميعَ القُرى تأوي إليها، ولا شكَّ أن المسلمين كُلَّهُم يتجهون إلى أُمِّ القُرى؛ لأنَّ الكعبةَ فيها، وهي أيضًا تَجْمَعُ القرى من جهةِ أنه يَجِبُ على كلِّ المسلمين أن يَحُجُّوا هذا البيتَ من استطاع إليه سبيلًا؛ لقولِهِ تعالى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} - أو "حَجُّ البَيْتِ" قراءتانِ سَبْعِيَّتانِ {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} [آل عمران: ٩٧].

=

=

إذن سُمِّيَتْ أُمُّ القُرى؛ لأنَّها تَجْمَعُ جميعَ القرى، والقرى هنا المُدُنُ؛ لأنَّ القريةَ البلدُ الصغيرُ عُرفًا، أمَّا لغةً فإنَّ القريةَ تُطْلَقُ حتى على المدينةِ الكبيرةِ، كما قال اللهُ تبارك وتعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ} [محمد: ١٣].

وقولُهُ: {وَمَنْ حَوْلَهَا} يقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ المرادَ بمن حَوْلَها: [سائرُ الناسِ]، وهذا التفسيرُ وإن كان معناه صحيحًا؛ لأنَّ رسالةَ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- بَلَغَتْ جميعَ الناسِ، ومن لم تَبْلُغْهُ فَسَتَبْلُغُه، ولكنَّ ظاهرَ اللفظِ خلافُ ذلك؛ لأنَّ ما حَوْلَ الشيءِ فهو القريبُ منه، وحينئذٍ يبقى في الأمرِ إشكالٌ، فإنَّ النبيَّ ﷺ مبعوثٌ إلى جميعِ الناسِ. ولكنْ يقالُ: لا إشكالَ فهو كقولِهِ تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ} [الجمعة: ٢]، وهو مبعوثٌ لكلِّ الخَلقِ؛ ولهذا قال: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} [الجمعة: ٣].

وعلى هذا فنقولُ: المرادُ بالإنذارِ الإنذارُ المباشِرُ، والإنذارُ المباشِرُ من النبيِّ عليه الصلاة والسلام ما كانَ إلا لِأُمِّ القرى ومَنْ حَوْلَهَا؛ ولهذا ما فُتِحَتِ الشامُ ولا العراقُ ولا مصرُ في عهدِ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- وإنما كان الجزيرةَ فقط، وعليه فيكونُ المرادُ بقولِهِ: {لِتُنْذِرَ} الإنذارَ الذي تَمَّ في حياتِهِ عليه الصلاة والسلام فإنه لم يَشْمَلْ إلا أُمَّ القرى ومَنْ حَوْلَهَا.

وقولُهُ: {أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا}، هل المرادُ بهذا إنذارُ المدينةِ نفسِها أو المرادُ الأهلُ؟

الجوابُ: الأهلُ لا شكَّ، ولا يُشْكِلُ هذا على أحدٍ، وهذا هو الذي جَعَلَ شيخَ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ يقولُ: "إنه لا مجازَ في القرآنِ ولا في غيرِهِ من اللغةِ العربيَّةِ؛ لأنَّه إذا كان اللفظُ دالًّا على معناه الخاصِّ فإنه لا يُعْتَبرُ مجازًا".

ونحن نقولُ هنا: ليس المرادُ أن الرسولَ يُنْذِرُ بيوتَ مكةَ وأسواقَها، وإنما المرادُ

=

=
أن يُنْذِرَ أهلَها، بقيَ أن يقالَ: أين مفعولُ {لِتُنْذِرَ} الثاني؛ لأنَّ أَنْذَرَ تَنْصِبُ مفعولَيْن، كما قال اللهُ تعالى: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى} [الليل: ١٤]، الكافُ مفعولٌ أولُ و {نَارًا} مفعولٌ ثانٍ؟

نقولُ: المفعولُ الثاني محذوفٌ، ويُقَدَّرُ بما يُنَاسِبُ، ممكنٌ أن نُقَدِّرَهُ بقولِهِ: يومَ الجمعِ. أي: لِتُنْذِرَ أُمَّ القرى ومَنْ حَوْلَهَا يومَ الجمْعِ. بدليلِ قولِهِ: {وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ} فتجدُ الآنَ الآيةَ الكريمةَ الجملةَ الأولى حُذِفَ منها مفعولٌ، والثانيةُ حُذِفَ منها مفعولٌ، لكن الجملةَ الأولى حُذِفَ مفعولُها الثاني، والجملةُ الثانيةُ حُذِفَ مفعولُها الأولُ، وهذا من بلاغةِ القرآنِ.

إذن المفعولُ الثاني في قولِهِ: {لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى} محذوفٌ تقديرُهُ يومَ الجمْعِ، ولنا أن نُقَدِّرَهُ تقديرًا آخَرَ، لكن ما دام بيْنَ أيدينا ما يَدُلُّ عليه فهو أَوْلَى.

قال اللهُ تعالى: {وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ} [الشورى: ٧]، قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَتُنْذِرَ} الناسَ] الناسَ هذا المفعولُ الأولُ المحذوفُ، و {يَوْمَ الْجَمْعِ} المفعولُ الثاني، أي: تُنْذِرُهُمُ اليومَ الذي يُجْمَعُ فيه الناسُ، وذلك يومَ القيامةِ تُجْمَعُ فيه الخلائقُ، وهذا من أسماءِ يومِ القيامةِ يومُ الجمعُ، كما أنه يُسَمَّى يومَ القيامةِ؛ لأنَّه يشتملُ على المعنى هذا وهذا.

وقولُهُ: {يَوْمَ الْجَمْعِ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [تُجْمَعُ فيه الخلائقُ] لقولِ اللهِ تعالى: {يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} [هود: ١٠٣].

{لَا رَيْبَ فِيهِ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لَا رَيْبَ} شَكٌّ {فِيهِ}] إلخ.. قولُهُ: {لَا رَيْبَ} الرَّيْبُ هو الشَّكُّ، لكن قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن تفسيرَ الرَّيْبِ بالشكِّ تفسيرٌ مقاربٌ وليس مطابِقًا"؛ لأنَّ الرَّيْبَ يوحي بقلقٍ في النفْسِ، والمعنى: ليس فيه ريبٌ وقلقٌ.

قولُهُ: {لَا رَيْبَ فِيهِ} (لا) نافيةٌ، فهل المرادُ بالنفيِ النهيُ، فيكون المعنى لا
=

=

ترتابوا فيه، أو المرادُ بالنفي معناه الحقيقيُّ؟

نقولُ: المرادُ به معناه الحقيقيُّ؛ لأنَّه إذا كان معناه النفيَ صار صفةُ هذا اليومِ انتفاءَ الرَّيْبِ، وعلى هذا فمَنِ ارتاب فيه فقدِ ارتابَ في أمرٍ واقعٍ، لكن لو جعلْنَا النفيَ بمعنى النهيِ لَكُنَّا أَخْرَجْنَا الكلامَ عن ظاهِرِه، هذا من جهةٍ.

ومن جهةٍ أخرى: أن النهيَ قد يمتثِلُهُ الناسُ وقد لا يمتثِلُونه، لكنَّ النفيَّ هنا أَوْضَحُ؛ أولًا: لمطابقتِهِ لظاهرِ اللفظِ. يعني ظاهرُ اللفظِ النفيُ.

وثانيًا: أنه يعطي أن هذا اليومَ موصوفٌ بانتفاءِ الريبِ فيه، فيكونُ مَنِ ارتابَ مخالفًا للواقعِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{فَرِيقٌ} منهم {فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} النارُ] {فَرِيقٌ} مبتدأٌ و {فَرِيقٌ} الثاني مبتدأٌ، ومن كان عارفًا بالنحو فسيقول: في هذا إشكالٌ وهو الإبتداءُ بالنكرةِ، فالإبتداءُ بالنكرةِ غيْرُ جائزٍ؛ لأنَّ المبتدأَ محكومٌ عليه، فإذا قلتَ: زيدٌ قائِمٌ، فقد حكمْتَ على زيدٍ بالقيامِ، والمحكومُ عليه لا بُدَّ أن يكون معروفًا، فإذا كان نكرةً فأيُّ فائدةٍ في الحُكمِ عليه انتبهوا، فكلامُ النحْويين في أنه لا يَجوزُ الإبتداءُ بالنكرةِ هذا تعليلُهُ؛ لأنَّ المبتدأَ محكومٌ عليه، والمحكومُ عليه لا بدَّ أن يكونَ معرفةً معلومًا، فهنا ابتُدِئَ بالنكرةِ، يقولُ النحْويون: إن المسوِّغَ للإبتداءِ بالنكرةِ في هذه الآيةِ هو التقسيمُ، والتقسيمُ يفيدُ: فريقُ {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ} أي: نَوْعٌ من الناسِ في الجنةِ، ونوعٌ من الناسِ في السعيرِ، فالتقسيمُ يبيحُ الإبتداءَ بالنكرةِ، ومنه قولُ الشاعِرِ:

فيَوْمٌ عَلَيْنا ويَوْمٌ لنا ... ويَوْمٌ نُساءُ ويَومٌ نُسرُّ

هذا مبتدأٌ نكرةٌ، لكنه فيه التقسيمُ، فيكونُ المسوِّغُ للإبتداءِ بالنكرةِ هنا هو التقسيمُ.

فقوله: {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} وفريقُ السعيرِ أكثر، كما جاء في

=

وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨).

{وَلَوْ شَاءَ الله لَجَعَلَهُمْ أُمَّة وَاحِدَة} أَيْ عَلَى دِين وَاحِد وَهُوَ الْإِسْلَام {وَلَكِنْ يُدْخِل مَنْ يَشَاء فِي رَحْمَته وَالظَّالِمُونَ} الْكَافِرُونَ {مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيّ وَلَا نَصِير}

=

الحديثِ الصحيح "إنَّ اللهَ تعالى يومَ القيامةِ ينادي يقولُ: يا آدمُ فيقولُ: لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ فيقولُ: أَخْرِجْ من ذُرِّيَّتِكَ بَعْثَ النارِ- أو بعثًا إلى النارِ. أي: مبعوثًا إلى النارِ- قال: يا رَبِّ وما بَعْثُ النَّارِ؟ قال: من كلِّ ألفٍ تسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعون" واحدٌ في الجنةِ والباقي من الألفِ في النارِ.

إذَنْ: أهلُ النارِ أكثرُ من أهلِ الجنةِ بكثيرٍ- أجارنا اللهُ وإياكم من النارِ- ففزعَ الصحابةُ لهذا وقالوا: يا رسولَ اللهِ أينا ذلك الواحدُ؟ قال لهم: "أَبْشِرُوا إنكم في أُمَّتَيْنِ ما كانتا في شيءٍ إلا كَثَّرَتَاه، يأجوجَ ومأجوجَ" وهم من بني آدمَ يأجوجُ ومأجوجُ من بني آدمَ كما دلَّ على ذلك القرآنُ "فمنكم واحدٌ وألفٌ منهم" ففرحَ الصحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بذلك.

المهمُّ أن اللهَ تعالى قال: {فَرِيقٌ} {وَفَرِيقٌ} مع اختلافِ الفريقيْن اختلافًا عظيمًا، فدلَّ ذلك على أن الفريقَ في اللغةِ يُطْلَقُ على القليلِ والكثيرِ {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} والجنةُ هي الدارُ التي أَعَدَّهَا اللهُ تعالى للمؤمنين والمُتَّقِين، وهي دارٌ فيها ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ، وأصنافُ النعيمِ في هذه الجنةِ- جعلني اللهُ وإياكم منهم- موجودةٌ في القرآنِ والسُّنَّةِ، أمَّا السعيرُ- والعياذُ باللهِ- فهي النارُ تُسَعَّرُ بها الأجسادُ، وفيها من أنواعِ العذابِ والنَّكالِ ما يتمنى أهلُها أن يموتوا ولا يَحْصُلَ لهم، قال اللهُ تعالى: {وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} [الزخرف: ٧٧- ٧٨].

يَدْفَع عَنْهُمْ العذاب[١].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}، أي:"لو شاء الله لجعل الناس كله مهتدين، أهل دينٍ واحدٍ وملةٍ واحدة وهي الإسلام".

قال الطبري: يقول:"ولو أراد الله أن يجمع خلقه على هدى، ويجعلهم على ملة واحدة لفعل، و {لجعلهم} أهل ملة واحدة، وجماعة مجتمعة على دين واحد".

قال ابن كثير:"أي: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة".

عن ابن عباس:"{ولَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً} على دين واحد".

قال الضحاك:"أهل دين واحد أهل ضلالة أو أهل هدى".

قوله تعالى: {وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ}، أي:"ولكنه أراد أن يُدخل في رحمته مَن يشاء مِن خواص خلقه".

قال أنس بن مالك: "في الإسلام".

قال الطبري: **"**يعني: أنه يدخله في رحمته بتوفيقه إياه للدخول في دينه، الذي ابتعث به نبيه محمدا ﷺ".

قوله تعالى: {وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}، أي:"والظالمون أنفسهم بالشرك ما لهم من وليٍّ يتولى أمورهم يوم القيامة، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله تعالى".

قال الشوكاني:"أي: المشركون ما لهم من ولي يدفع عنهم العذاب، ولا نصير ينصرهم في ذلك المقام".

قال السعدي:"وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصالح، فإنهم محرومون من الرحمة، فـ {مَا لَهُمْ} من دون الله {مِنْ وَلِيٍّ} يتولاهم، فيحصل لهم المحبوب {وَلا نَصِيرٍ} يدفع عنهم المكروه".

=

=

قال البيضاوي:"أي: يدعهم بغير ولي ولا نصير في عذابه".

قال الطبري: "يقول: والكافرون بالله ما لهم من ولي يتولاهم يوم القيامة، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله حين يعاقبهم، فينقذهم من عذابه، ويقتص لهم ممن عاقبهم، وإنما قيل هذا لرسول الله ﷺ تسلية له عما كان يناله من الهم بتولية قومه عنه، وأمرا له بترك إدخال المكروه على نفسه من أجل إدبار من أدبر عنه منهم، فلم يستجب لما دعاه إليه من الحق، وإعلاما له أن أمور عباده بيده، وأنه الهادي إلى الحق من شاء، والمضل من أراد دونه، ودون كل أحد سواه".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}؛ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [أي: على دينٍ واحدٍ هو الإسلامُ]. لو شاءَ اللهُ أن يَجْعَلَ الناسَ أمةً واحدةً لجَعَلهم أمةً واحدةً على الضلالِ، أو على الهدى، يعني لو شاء هذا أو هذا؛ لأنَّ الأمرَ كُلَّهُ بيدِه ﷻ وقولُهُ: {لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} يعني: فرقةٌ واحدةٌ على دينٍ واحدٍ.

وقولُهُ رَحِمَهُ اللهُ: [وهو الإسلام]، قد يُنَازَعُ فيه؛ لأنَّ الآيةَ مطلقةٌ وليس فيها ما يَدُلُّ على أنه الإسلامُ أو غيْرُ الإسلام؛ لأنَّ قولَهُ: {وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [الشورى: ٨]، ذَكَرَ الأمْرَيْن، فنقولُ: إن الآيةَ تَحْتَمِلُ المعنييْن جميعًا {وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} يعني: على الإسلام، أو على الكفرِ، ولكنه ﷻ لحِكْمَتِه جعلهم متفرقين {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} [التغابن: ٢].

قال تعالى: {وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ} قولُهُ: {يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ} {مَنْ} اسمٌ موصولٌ عامَّةً، ولكن يجبُ أن نَعْلَمَ أن هذا العمومُ مقيَّدٌ بمَنْ عَلِمَ اللهُ فيه خيرًا، فهو الذي يُدْخِلُه في رحمتِهِ؛ لأنَّ كلَّ فعلٍ أضافه اللهُ إلى مشيئتِهِ فلا بدَّ أن يكونَ لحكمةٍ، كما قال اللهُ تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ

=

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩).

{أم اتخذوا من دونه} أي الأصنام {أولياء} أَمْ مُنْقَطِعَة بِمَعْنَى بَلْ الَّتِي

=

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ٢٨- ٢٩]، وقال تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان: ٣٠].

إذن؛ يُدْخِلُ من يشاءُ في رحمتِهِ ممن عَلِمَ فيه خيرًا؛ ليكونَ إدخالُهُ في الرحمةِ على وَفْقِ الحكمةِ، وقولُهُ: {فِي رَحْمَتِهِ} فهل المرادُ هنا بالرحمةِ التي هي وَصْفُهُ، أو المرادِ بالرحمةِ التي هي خَلْقُه؟ الثاني؛ لأنَّ الرحمةَ التي هي وَصْفُهُ لا يَدْخُلُهَا الناسُ، وإنما يدخلون في الرَّحْمَة التي هي خَلْقُهُ وهي الجنَّةُ، ويدُلُّ لهذا قولُهُ تبارك وتعالى في الحديثِ القدسيِّ للجنَّةِ: "أنتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بكِ مَن أشاءُ" فقال لها: "أنتِ رحمتي".

وقوله: {وَالظَّالِمُونَ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الكافرون] {وَالظَّالِمُونَ} مبتدأٌ وليس معطوفةً على {مَنْ} لفسادِ المعنى واللفظِ، وَفَسَّرَ المُفسِّر هنا (الظالمون) بالكافرين؛ لأنَّ اللهَ تبارك وتعالى وَصَفَ الكافرين بالظُّلْم فقال: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: ٢٥٤]، وقال اللهُ تبارك وتعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام: ٨٢]، فَسَّرَهَا النبيُّ ﷺ بالشِّرْكِ، وقال: "ألَمْ تسمعوا قولَ الرجلِ الصالح إن الشركَ لظُلْمٌ عظيمٌ".

{مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} {مَا} نافيةٌ، و {لَهُمْ} خبرٌ مُقَدَّمٌ، و {وَلِيٍّ} مبتدأٌ مُؤَخَّرٌ دَخَلَ عليه حرفُ الجرِّ الزائدُ للتوكيدِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} يَدْفَعُ عنهم العذابَ] أي: {مِنْ وَلِيٍّ} يَتَوَلَّاهم ويَتَحَمَّلُ عنهم، {وَلَا نَصِيرٍ} يَدْفَعُ عنهم، فليس لهم من يُسَلِّيهم في حالِ المصيبةِ، ولا من يَدْفَعُ عنهم إذا وَقَعَتْ.

لِلِانْتِقَالِ وَالْهَمْزَة لِلْإِنْكَارِ أَيْ لَيْسَ الْمُتَّخِذُونَ أَوْلِيَاء {فَاَللَّه هُوَ الْوَلِيّ} أَيْ النَّاصِر لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْفَاء لِمُجَرَّدِ الْعَطْف {وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير}[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ}، أي:"بل اتخذ هؤلاء المشركون أولياء من دون الله يتولونهم".
قال الطبري: يقول:"أم اتخذ هؤلاء المشركون بالله أولياء من دون الله يتولونهم".
قال مقاتل: يعني:"من الملائكة آلهة، وهم خزاعة وغيرهم يعبدونها".
قال القرطبي:"أي: بل اتخذوا {من دونه} أصناما".
قال السعدي:"يتولونهم بعبادتهم إياهم، فقد غلطوا أقبح غلط".
قال الزمخشري:"معنى الهمزة في «أَمِ»: الإنكار".
قال الشوكاني:"«أم»: هذه هي المنقطعة المقدرة بـ «بل» المفيدة للانتقال وبالهمزة المفيدة للإنكار، أي: بل أتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام يعبدونها؟ ".
قوله تعالى: {فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ}، أي:"فالله وحده هو الوليُّ يتولاه عَبْدُه بالعبادة والطاعة، ويتولَّى عباده المؤمنين بإخراجهم من الظلمات إلى النور وإعانتهم في جميع أمورهم".
قال الطبري: يقول: "فالله هو ولي أوليائه، وإياه فليتخذوا وليا لا الآلهة والأوثان، ولا ما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا".
قال الشوكاني:"أي: هو الحقيق بأن يتخذوه وليا، فإنه الخالق الرازق الضار النافع".
قال الزمخشري: أي:"هو الذي يجب أن يتولى وحده ويعتقد أنه المولى والسيد، فالفاء في قوله: {فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ}، جواب شرط مقدّر، كأنه قيل بعد إنكار كل =

=

ولى سواه: إن أرادوا وليا بحق، فالله هو الولي بالحق، لا وليّ سواه".

قال السعدي:"فالله هو الولي الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته، والتقرب إليه بما أمكن من أنواع التقربات، ويتولى عباده عموما بتدبيره، ونفوذ القدر فيهم، ويتولى عباده المؤمنين خصوصا، بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتربيتهم بلطفه، وإعانتهم في جميع أمورهم".

قال ابن عباس:"{فالله هو الولي} وليّك-يا محمد-، وولي مَن اتبعك".

عن السدي، قوله: "{من أولياء}، قال: أما الولي: فالذي يتولاه الله ويقر له بالربوبية".

قوله تعالى: {وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى}، أي:"وهو يحيي الموتى عند البعث".

قال الطبري:"يقول: والله يحيي الموتى من بعد مماتهم، فيحشرهم يوم القيامة".

قال الزمخشري:"أى: ومن شأن هذا الولي أنه يحيى الْمَوْتى".

قال السعدي:"أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة".

قوله تعالى: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الشورى:٩]، أي:"وهو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء".

قال مقاتل: أي:"من البعث وغير".

قال الطبري:"يقول: والله القادر على إحياء خلقه من بعد مماتهم وعلى غير ذلك، إنه ذو قدرة على كل شيء".

قال الزمخشري:"فهو الحقيق بأن يتخذ وليا دون من لا يقدر على شيء".

قال الشوكاني:"أي: يقدر على كل مقدور، فهو الحقيق بتخصيصه بالألوهية وإفراده بالعبادة".

قال ابن إسحاق:"أي: إن الله على كل شيء ما أراد بعباده من نقمة أو عفو فهو قدير".

=

=

وقال العثيمين: قوله تعالى: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} (أَمْ) هذه منقطعةٌ و (أم) المنقطعةُ تكونُ بمعنى (بل) وهمزةِ الإستفهام، هناك (أَمْ) متصلةٌ، وهي التي تقعُ بيْنَ شيئيْن متقابِليْن، وتكونُ بمعنى (أو)، مثالُ ذلك: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ} [المنافقون: ٦]، هذه (أَمْ) يُسَمُّونها متصلةً؛ لأنَّها بيْن شيئيْن متقابليْن؛ ولأنَّها بمعنى (أو) سواءٌ عليهم أَسْتَغْفَرْتَ لهم أم لم تستغفرْ لهم، في غير القرآنِ لو وُضِعَ بَدَلَ (أم) (أو) لاستقامَ الكلامُ.

فإذن نقولُ: إن (أَمْ) تكونُ منقطعةً وتكون متصلةً، والفَرْقُ بينهما:

أولًا: أن (أَمِ) المتصلةَ بمعنى (أَوْ)، و (أم) المنقطعةُ بمعنى (بل) وهمزةِ الإستفهام.

ثانيًا: (أَمِ) المتصلةُ تَكُونُ بيْنَ شيئيْن متقابِلَيْن، و (أَمِ) المنقطعةُ بخلافِ ذلك.

هنا يقولُ ﷻ: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} ليس فيه شيئان متقابلان، إذن؛ فهي منقطعةٌ بمعنى: بل والهمزةِ، {أَمِ اتَّخَذُوا} الضميرُ يَعُودُ على المُشْركين {مِنْ دُونِهِ} الضميرُ يَعُودُ على الرَّبِّ ﷻ {أَوْلِيَاءَ} يقولُ الشارحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: الأصنامَ] إشارةٌ منه إلى أن المفعولَ الأولَ لـ {اتَّخَذُوا} محذوفٌ والتقديرُ: أَمِ اتخذوا من دونه الأصنامَ أولياءَ؛ لأنَّ {اتَّخَذُوا} تَنْصِبُ مَفْعُولَيْن، فقولُهُ تعالى: {وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} [النساء: ١٢٥].

ففي هذه الآيةُ ليس أمام أعيننا إلا مفعولٌ واحدٌ: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} نقولُ: المفعولُ الأولُ محذوفٌ، والتقديرُ: أَمِ اتخذوا الأصنامَ أولياءَ.

وقوله: {أَوْلِيَاءَ} يعني: أنصارًا يستغيثون بهم ويستنصرون بهم ويوالونهم ويتقربون إليهم كأنهم رَبٌّ.

قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أَمِ} منقطعةٌ بمعنى (بل) التي للإنتقالِ والهمزةُ للإنكارِ؛ أي: ليس المتخذونَ أولياء] يعني: هؤلاء اتخذوا أولياءَ الأصنامَ، والأصنامُ

=

=

بعضُها شجَرٌ، وبعضها حَجَرٌ، وبعضها مخلوقاتٌ كونيَّةٌ، كالشمسِ والقمرِ، وبعضُها مخلوقاتٌ بشريَّةٌ، كلُّ هذه لا تنفعُ صاحبَها؛ ولذلك تجدُ المشركين إذا وقعوا في الضرورةِ من يَدْعُونَ اللهَ ﷻ {وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [لقمان: ٣٢]، فهي لا تنفعُ، وهم أيضًا مقرونٌ بهذا يقولون: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} [الزمر: ٣].

وقوله: {فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ} قال المُفسِّر ﵀: [أي: الناصرُ للمؤمنين، والفاءُ لمجردِ العطفِ] (الفاءُ) في قولِهِ: {فَاللهُ} يعني: أنها ليست جوابًا لشرطٍ، ولكنها لمجردِ العطفِ، {فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ} انتبهْ في إعرابِ الجملةِ هذه (الله) مبتدأٌ، و {وهُوَ} ضميرُ فَصْلٍ، و {الْوَلِيُّ} خبرُ المبتدأِ.

واعلمْ أنَّ ضميرَ الفصلِ حرفٌ وليس اسمًا، هذه واحدةٌ، وله ثلاثُ فوائدَ:

الفائدةُ الأولى: الحصرُ.

الفائدةُ الثانيةُ: التوكيدُ.

والفائدةُ الثالثةُ: الفصلُ بين الخبرِ والصفةِ.

يعني: مثلًا إذا قلتَ: فلانٌ الكريمُ، فـ (فلانٌ) مبتدأٌ، و (الكريمُ) خبرٌ، ويحتملُ أن تكونَ (فلانٌ) مبتدأً، و (الكريمُ) صِفَتَهُ والخبرُ محذوفٌ، فلانٌ الكريمُ حاضرٌ، فإذا قلتَ: فلانٌ هو الكريمُ. تَعَيَّنَ أن تكونَ (الكريمُ) خبرًا وليست صفةً؛ ولهذا يُسَمُّونه ضميرَ الفصْلِ؛ لأنَّه يَفْصِلُ؛ أي: يُمَيِّزُ بين الخبرِ وبَيْنَ الصفةِ.

إذن: هو يفيدُ الحصرَ، والتوكيدَ، والتمييزُ بينَ الخبرِ والصفةِ، نَزيدُ ذلك بالمثالِ: محمدٌ الرسولُ. يَحْتَمِلُ أن تكونَ (الرسولُ) صفة لـ (محمدٌ)، وأن التقديرَ: محمدٌ الرسولُ صادقٌ.

فإذا أتيتَ بـ (هو) وقلتَ: محمدٌ هو الرسولُ. يتعيَّنُ أن (الرسولُ) خبرٌ هذه واحدةٌ، أيضًا هو الرسولُ يفيدُ الحصرَ يعني: لا غيرُهُ، ولا شكَّ أن محمَّدَ بنَ عبدِ

=

=

اللهِ عليه الصلاة والسلام هو الرسولُ لهذه الأمةِ، ولا رسولَ غيرُهُ.

فـ (هو) ليس له محلٌّ من الإعرابِ؛ لأنَّه حَرْفٌ؛ ولهذا نقولُ: (اللهُ) مبتدأٌ، و {الْوَلِيُّ} خبرُهُ، و {هُوَ} ضميرُ فصلٍ لا محلَّ له من الإعرابِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{هُوَ الْوَلِيُّ} أي: الناصرُ للمؤمنين]. وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ المُفسِّر الآنَ قَصَرَ الولايةَ على الولايةِ الخاصَّةِ، والصوابُ أنها عامَّةٌ، هو الوليُّ لكلِّ أحدٍ بالوَلايةِ العامَّةِ والوَلايةِ الخاصَّةِ، الوَلايةُ العامَّةُ لكلِّ أحدٍ، فإنه لا يتولى شؤونَ الخَلْقِ إلا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ والوَلايةُ الخاصَّةُ هي وَلايةُ النُّصْرةِ والتأييدِ، وعلى هذا فاقتصارُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ على الوَلايةِ الخاصَّةِ فيه نَظَرٌ.

إذن {هُوَ الْوَلِيُّ} على كلِّ أَحَدٍ بالوَلايةِ العامةِ والوَلايةِ الخاصَّةِ.

والفَرْقُ بين الوَلايةِ العامَّةِ أنَّ الوَلايةَ العامَّةَ تَشْمَلُ كلَّ أحدٍ، فكُلُّ أحدٍ فاللهُ وليُّهُ يتولى أَمْرَهُ، حتى الكافرون اللهُ وَلِيُّهُم، أمَّا الوَلايةُ الخاصةُ فتقتضي النصرَ والتأييدَ، ومنه قولُهُ تعالى: {اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} [البقرة: ٢٥٧]، {فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ} الجملةُ هذه فيها حصرٌ وطريقةُ ضميرُ الفصلِ: اللهُ هو الوليُّ.

وقوله: {وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى} وغيرُهُ لا يُمْكِنُ أن يُحْيِيَ الموتى؛ لأنَّ الإحياءَ هو جَعْلُ الشيءِ حيًّا بعد أن كان ميتًا، وهذا لا يَقْدِرُ عليه إلا اللهُ، بل إن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إذا أراد أن يُمِيتَ أحدًا لا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يمنعَ الموتَ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا}، يعني: هلَّا {تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الواقعة: ٨٣- ٨٧] الجوابُ: لا يُمْكِنُ. إذن اللهُ يُحْيِي الموتى ويُميتُ الأحياءَ عَزَّ وَجَلَّ.

=

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠).

{وَمَا اخْتَلَفْتُمْ} مَعَ الْكُفَّار {فِيهِ مِنْ شَيْء} مِنْ الدِّين وَغَيْره {فَحُكْمه} مَرْدُود {إِلَى الله} يَوْم الْقِيَامَة يَفْصِل بَيْنكُمْ قُلْ لَهُمْ {ذَلِكُمُ الله رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْت وَإِلَيْهِ أُنِيب} أَرْجِع[1].

=

وقوله: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ} أَيُّ شيءٍ معدومٍ فاللهُ قادرٌ على إيجادِهِ، أَيُّ شَيْءٍ موجودٍ فاللهُ قادرٌ على إعدامِهِ، كلُّ شيءٍ فاللهُ تعالى قديرٌ عليه، وضدَّ القدرةِ العَجْزُ؛ ولهذا قال ﷻ: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [فاطر: ٤٤].

(١) قوله تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ}، أي:"وما اختلفتم فيه أيها المؤمنون من شيء من أمر الدنيا أو الدين، فالحكم فيه إلا الله جل وعلا، هو الحاكم فيه بكتابه أو بسنة نبيه عليه السلام".

قال الطبري: يقول:"وما اختلفتم أيها الناس فيه من شيء فتنازعتم بينكم، فحكمه إلى الله. يقول: فإن الله هو الذي يقضي بينكم ويفصل فيه الحكم".

قال مجاهد: "يقول: يحكم فيه".

قال البيضاوي:"{وما اختلفتم} أنتم والكفار، {فيه من شيء} من أمر من أمور الدنيا أو الدين، {فحكمه إلى الله} مفوض إليه يميز المحق من المبطل بالنصر أو بالإثابة والمعاقبة. وقيل: {وما اختلفتم فيه} من تأويل متشابه فارجعوا فيه إلى المحكم من كتاب الله".

قال الكلبي:"{وما اختلفتم فيه من شيء}، أي: "من أمر الدين، {فحكمه إلى الله} يقضي فيه".

=

=

وقال مقاتل:"وذلك أن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن، وآمن بعضهم فقال الله-تعالى-: إن الذي اختلفتم فيه فإني أرد قضاءه إلي وأنا أحكم فيه".

قال القرطبي:"قوله: {وما اختلفتم فيه من شيء}، حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين، أي وما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين من أمر الدين، فقولوا لهم حكمه إلى الله لا إليكم، وقد حكم أن الدين هو الإسلام لا غيره. وأمور الشرائع إنما تتلقى من بيان الله".

قال الشوكاني:"هذا عام في كل ما اختلف فيه العباد من أمر الدين، فإن حكمه ومرجعه إلى الله يحكم فيه يوم القيامة بحكمه ويفصل خصومة المختصمين فيه، وعند ذلك يظهر المحق من المبطل، ويتميز فريق الجنة وفريق النار.. والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب".

قال السمعاني:"استدل من منع القياس في الحوادث بهذه الآية، قال: الحكم إلى الله لا إلى رأى الرجال، وكذلك كان الخوارج يقولون: لا حكم إلا لله، وأنكروا الحكمين، وهذا الاستدلال فاسد؛ لأن عندنا من قال بالقياس والاجتهاد فهو رجوع إلى الله في حكمه، فإن أصول المقايسات هي: الكتاب، والسنة".

قوله تعالى: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي}، أي:"الموصوف بهذه الصفات هو ربي وحده".

قال الطبري:"يقول لنبيه ﷺ: قل لهؤلاء المشركين بالله هذا الذي هذه الصفات صفاته ربي، لا آلهتكم التي تدعون من دونه، التي لا تقدر على شيء".

قال القرطبي:"أي: الموصوف بهذه الصفات هو ربي وحده، وفيه إضمار: أي: قل لهم يا محمد ذلكم الله الذي يحيي الموتى ويحكم بين المختلفين هو ربي".

قال مقاتل:"ثم دلّ على نفسه بصنعه، فقال: {ذلكم الله} الذي يحيي الموتى ويميت الأحياء هو أحياكم وهو الله {ربي} ".

قوله تعالى: {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ}، أي:"عليه وحده اعتمدت في جميع أموري".

=

=

قال الطبري:"{عليه توكلت} في أموري، وإليه فوضت أسبابي، وبه وثقت".
قال مقاتل:"يعني: به أثق".
قال السمعاني:"أي: به وثقت".
قال البيضاوي: أي:"في مجامع الأمور".
قال الشوكاني: أي:"اعتمدت عليه في جميع أموري، لا على غيره وفوضته في كل شؤوني".
قال محمد بن إسحاق: "وعلى الله لا على الناس فليتوكل المؤمنون".
عن محمد بن إسحاق: قوله: "{وتوكل على الله}، أي: ارْضَ به مِن العباد".
قوله تعالى: {وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}، أي:"وإليه وحده أرجع في جميع شؤوني".
قال البيضاوي:"إليه أرجع في المعضلات".
قال السمعاني: أي:"وإليه أرجع في أموري".
قال الشوكاني:"أي: أرجع في كل شيء يعرض لي لا إلى غيره".
قال الطبري:"يقول: وإليه أرجع في أموري وأتوب من ذنوبي".
عن مجاهد: {وإليه أنيب}، يعني: «إليه أرجع» ".
عن عبيد بن يعلى، قال: "الإنابة: الدعاء".
وقال العثيمين: قوله تعالى: (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ) {مَا} شَرْطِيَّةٌ، و {اخْتَلَفْتُمْ} فعلُ الشَّرْطِ، {فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ} الجملةُ جوابُ الشَّرْطِ، قولُهُ: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ} أيُّ شيءٍ يَقَعُ بيْنَ الناسِ من الخلافِ فَمَرَدُّهُ إلى اللهِ ﷻ، سواءٌ كان في الأمورِ الدينيَّةِ، أو في الأمورِ الدنيويَّةِ، وسواءٌ كان مع المسلمين مع المؤمنين أو كان مع الكفَّارِ، أيُّ شيءٍ فَحُكْمُهُ إلى اللهِ ﷻ لا أحدَ يُرَدُّ إلى حُكْمِهِ إلا اللهَ.
قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَمَا اخْتَلَفْتُمْ} مع الكفَّارِ {فِيهِ مِنْ شَيْءٍ}]، والصوابُ: أنه أعمُّ، المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ خَصَّه بالكفارِ؛ لاختلافِنا مع الكفارِ، وفي هذا التخصيصِ نظرٌ
=

=

أيضًا، والصوابُ أنه عامٌّ ما اختلفتم أيُّهَا الناسُ مع الكفارِ، أو فيما بينكم أيُّها المسلمون فَحُكْمُهُ إلى اللهِ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مِنْ شَيْءٍ} من الدِّينِ وغيرِهِ] الدِّينُ: كلُّ ما يَتَعَبَّدُ به الإنسانُ إلى اللهِ، وغيرُهُ ما ليس كذلك، فحُكْمُهُ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، أي: مَرَدُّ حُكْمِه إلى اللهِ، ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فَحُكْمُهُ} مَرْدُودٌ {إِلَى اللهِ} يَوْمَ القيامةِ يَفْصِلُ بَيْنكم] والصوابُ: أنه مردودٌ إلى اللهِ في الدنيا والآخرةِ؛ ويدلُّ لهذا قولُهُ تعالى: {أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ} [النساء: ٥٩].

وفَهِمْنَا أن المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قصَّرَ في تفسيرِ الآيةِ في قولِهِ: {فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ} حيث خَصَّهَا بالمؤمنين بالوَلايةِ الخاصَّةِ، وقَصَّرَ أيضًا في قولِهِ: [{فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ} يومَ القيامةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ] هذا أيضًا قُصُورٌ، والصوابُ: أن حُكْمَه إلى اللهِ في الدنيا والآخرةِ.

{ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} {ذَلِكُمْ} ويمرُّ بنا كثيرًا (ذلك) فلماذا تختلفُ الكافُ من موضعٍ إلى موضعٍ؟

فالجوابُ: أن الكافَ بحسبِ المخاطَبِ، واسمُ الإشارةِ بحَسَبِ المشارِ إليه، فإذا أَشَرْتَ إلى مفردٍ مذكَّرٍ مخاطبًا مفردًا مذكرًا تقولُ: ذلك.

وإذا أشَرْتَ إلى اثنين مخاطبًا اثنين تقولُ: ذانكما.

وإذا أشَرْتَ إلى أُنْثَى مخاطِبًا ذَكَرًا تقولُ: تلك؛ لأنَّ الإشارةَ إلى الأنثى بالتاءِ.

وإذا أشرتَ إلى أنثى مخاطبًا أُنْثَيَيْنِ تقولُ: تلكما.

إذن اسمُ الإشارةِ بحسَبِ المشارِ إليه، والكافُ بحسَبِ المخاطَبِ.

هنا قوله: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي} اسمُ الإشارةِ بحسَب المشارِ إليه؛ لأنَّه يُشيرُ إلى لفظِ الجلالةِ {ذَلِكُمُ اللهُ} واحدٌ ويخاطبُ جماعةً {ذَلِكُمْ}، {ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي}،

=

=

{ذَلِكُمُ} مبتدأٌ، و {اللهُ} عطفُ بيانٍ {رَبِّي} خبرُ المبتدإ.

يعني: أن الرسولَ ﷺ يجبُ أن يُعْلِنَ لهؤلاء أن اللهَ تعالى رَبُّهُ، وأنه لا رَبَّ له سواه، وإنما قلنا: إنه لا ربَّ له سواه؛ لأنَّ كلًّا من طرفَي الجملةِ مَعْرِفةٌ، وإذا كانت الجملةُ قد عُرِّف طرفاها دَلَّت على الحَصْرِ، لو سألَنَا سائلٌ: بِمَ تَعَلَّقَتِ الكلمةُ {عَلَيْهِ}؟ قلنا: تَعَلَّقَتْ بـ {تَوَكَّلْتُ}، وبم تَعَلَّقَتْ (إليه)؟ قُلْنا: بـ {أُنِيبُ}، إذَنِ: العاملُ متأخِّرٌ عن المعمولِ في {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} وفي {وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}.

والقاعدةُ عند البلاغِيِّين: أنه إذا تَقَدَّمَ ما حَقُّهُ التأخيرُ كان ذلك دليلًا على الحَصْرِ، فـ {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} بمنزلةِ: ما تَوَكَّلْتُ إلا عليه، {وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} بمنزلةِ: ما أُنِيبُ إلا إليه.

فقوله: {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ}؛ أي: فَوَّضْتُ أمري إلى اللهِ تفويضًا كاملًا.

والتوكُّلُ على اللهِ ليس كالتوكُّلِ على البشرِ، التوكُّلُ على البشرِ بمعنى أنك تَعْمِدُهُ أن يشتريَ لك شيئًا، وهذا تفويضٌ خاصٌّ، وأيضًا تفويضٌ تعتقدُ أنك أنت صاحبُ الشأنِ فيه؛ بمعنى: لو شئتَ لعزلْتَه، وفسخْتَ الوكالةَ، لكنَّ تَوَكُّلَكَ على اللهِ تفويضٌ إلى اللهِ في كلِّ شيءٍ ولا يُمْكِنُكَ أن تَفْسَخَ الوكالةَ، حتى لو فسخْتَها فاللهُ ﷻ وكيلٌ عليك.

وبهذا نَعْرِفُ الفَرْقَ بين أن يقولَ القائلُ: توكَّلْتُ على فلانٍ؛ يعني: معناه أني وَكَّلْتُهُ، وتَوَكَّلْتُ على اللهِ، هل: تَوَكَّلْتُ على اللهِ مثل: وَكَّلْتُ فلانًا؟

الجواب: لا أبدًا وإن اتَّفق اللفظان، ولكن يختلفُ المَعْنَيَانِ اختلافًا عظيمًا، لاحظوا، تَوَكَّلْتُ على فلانٍ؛ أي: فَوَّضْتُهُ بأمري والأمرُ إليه إن شئتُ عَزَلْتُه، لكنْ تَوَكَّلْتُ على اللهِ فَوَّضْتُ أمري إليه مستندًا إليه جَلَّ وَعَلَا في تيسيرِ أمري وتسهيلِهِ.

وحينئذٍ لا نقولُ: إن مَنْ تَوَكَّلَ على شخصٍ في شراءِ شيءٍ يكونُ مشركًا باللهِ، لا نقولُ هذا؛ لأنَّه يَظْهَرُ الفرقُ العظيمُ بين توكُّلِي على الشخصِ الذي وَكَّلْتُه أن

=

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١).

{فَاطِر السَّمَاوَات وَالْأَرْض} مُبْدِعهمَا {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسكُمْ أَزْوَاجًا} حَيْثُ خَلَقَ حَوَّاء مِنْ ضِلْع آدَم {وَمِنْ الْأَنْعَام أَزْوَاجًا} ذُكُورًا وَإِنَاثًا {يَذْرَؤُكُمْ}

=

يشتريَ حاجةً وبيْنَ توكُّلِي على اللهِ، توكُّلِي على اللهِ ﷻ تفويضٌ واستعانةٌ، لكنْ توكُّلِي على الشخصِ هو الإستخدامُ في الواقعِ، فتوكيلي إياه أو تَوَكُّلِي عليه في الوكالةِ عبارةٌ عن استخدامٍ؛ ولهذا متى شئتَ قلتَ: لا أَتوَكَّلُ عليه وأعْزِلُهُ، لكن بالنسبةِ للتوكُّلِ على اللهِ ليس كذلك.

فالتوكُّلُ على اللهِ هو تفويضُ الأمرِ للهِ ﷻ تفويضًا تامًّا، وبعضُهُم يقولُ: صِدْقُ الإعتمادِ على اللهِ؛ يعني: التوكُّلُ صدقُ الإعتمادِ على اللهِ في جَلْبِ المنافعِ ودفْعِ المضارِّ مع الثقةِ باللهِ ﷻ.

والتوكُّلُ على اللهِ ﷻ لا يعني: إلغاءَ الأسبابِ؛ ولهذا لو قيل لرجلٍ: تَزَوَّجْ حتى يأتِيَك أولادٌ قال: أنا متوكِّلٌ على اللهِ. لا يَصْلُحُ؛ لأنَّ الأولادَ لا يَنْبُتُون في الصخرِ، افعل الأسبابَ وتوكَّلْ، وفي المَثَلِ اعْقِلْها. يعني: اعقِلِ الناقة وَتَوَكَّلْ، لا تُطْلِقِ الناقةَ وتقولَ: إني متوكِّلٌ على اللهِ، الناقةُ إذا أَطْلَقْتَها ذَهَبَتْ حيث شاءت، حتى لو قلتَ: متوكِلٌ على اللهِ، افعلِ الأسبابَ. لو أن إنسانًا قيل له: يا فلانُ، ابتغِ الرزقَ، فبعْ واشترِ، واعملِ الأسبابَ التي تُحَصِّلُ بها المالَ، قال: واللهِ أبدًا أنا متوكِّلٌ على اللهِ، فهذا ليس صادقًا، هذا تَوَكُّلُ المتهاوِنين، إذا كنتَ صادقًا في التوكُّلِ على اللهِ فاعملِ السببَ، ولكن لا تعتمدْ على السببِ، اجعلِ السببَ سببًا والمدبِّرُ هو اللهُ ﷻ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} أَرْجِعُ] إلى اللهِ تعالى في عباداتي وفي جميعِ أحوالِي.

بِالْمُعْجَمَةِ يَخْلُقكُمْ {فِيهِ} فِي الْجَعْل الْمَذْكُور أَيْ يُكَثِّركُمْ بِسَبَبِهِ بِالتَّوَالُدِ وَالضَّمِير لِلْأَنَاسِيِّ وَالْأَنْعَام بِالتَّغْلِيبِ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء} الْكَاف زَائِدَة لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا مِثْل لَهُ {وَهُوَ السَّمِيع} لِمَا يُقَال {الْبَصِير} لِمَا يُفْعَل[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، أي:"الله سبحانه وتعالى هو خالق السماوات والأرض ومبدعهما بقدرته ومشيئته وحكمته".

قال الطبري:"خالق السموات السبع والأرض".

عن السدي، قوله: "{فاطر السماوات والأرض}، قال: خالق".

قوله تعالى: {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا}، أي:"أوجد لكم بقدرته من جنسكم نساءً من الآدميات".

قال قتادة:"خلق آدم ثم خلق زوجته منه".

قال الطبري: يقول:"زوجكم ربكم من أنفسكم أزواجا، لأنه خلق حواء من ضلع آدم، فهو من الرجال".

قال مقاتل:"يعني: الحلائل لتسكنوا إليهن".

قال ابن قتيبة يريد: الإناث".

قال السعدي: "لتسكنوا إليها، وتنتشر منكم الذرية، ويحصل لكم من النفع ما يحصل".

قوله تعالى: {وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا}، أي:"وخلق لكم كذلك من الإبل والبقر والضأن والمعز أصنافًا، ذكوراً وإناثا".

قال الطبري: يقول:"وجعل لكم من الأنعام أزواجا من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ذكورا وإناثا، ومن كل جنس من ذلك".

قال ابن قتيبة:"يريد: جعَلَ للأنعام منها أزواجًا، أي: إناثًا".

قال الفراء:"يقول: جعل لكل شيء من الأنعام زوجا ليكثروا ولتكثروا".

=

قال السعدي: "أي: ومن جميع أصنافها نوعين، ذكرا وأنثى، لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة، ولهذا عداها باللام الدالة على التعليل، أي: جعل ذلك لأجلكم، ولأجل النعمة عليكم".

قوله تعالى: {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ}، أي:"يكثّركم بسببه بالتوالد".

قال الطبري:"يقول: يخلقكم فيما جعل لكم من أزواجكم، ويعيشكم فيما جعل لكم من الأنعام".

قال السعدي: "أي: يبثكم ويكثركم ويكثر مواشيكم، بسبب أن جعل لكم من أنفسكم، وجعل لكم من الأنعام أزواجا".

وفي قوله تعالى: {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ}، وجوه من التفسير:

أحدها: يخلقكم فيه، قاله السدي، وأبو عبيدة، ورواه شعبة عن منصور.

وقال ابن قتيبة:"أي: يخلقكم في الرحم أو في الزوج".

قال ابن كثير:"أي: يخلقكم فيه، أي: في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم فيه ذكورا وإناثا، خلقا من بعد خلق، وجيلا بعد جيل، ونسلا بعد نسل، من الناس والأنعام".

قال البغوي:"{يذرؤكم} يخلقكم، {فيه} أي: في الرحم. وقيل: في البطن. وقيل: على هذا الوجه من الخلقة".

الثاني: يُكَثركم بِجَعْلِهِ منكم وَمنَ الأَنْعَامِ أزواجاً. قاله الزجاج.

الثالث: يعيشكم فيه، قاله ابن عباس، وقتادة.

قال ابن عباس:"يجعل لكم فيه معيشة تعيشون بها".

الرابع: يرزقكم فيه، قاله ابن زيد.

الخامس: يبسطكم فيه، قاله قطرب.

السادس: نسلاً من بعد نسل من الناس والأنعام، قاله مجاهد.

=

=

قال ابن عطية:"أي: يخلقكم نسلا بعد نسل وقرنا بعد قرن،.. فلفظة «ذرأ»: تزيد على لفظة: «خلق» معنى آخر ليس في خلق، وهو توالي الطبقات على مر الزمان".

السابع: ينبتكم من حال إلى حال أي ينبتكم في الجعل. قاله علي بن سليمان.

قال النحاس:"وأولى هذه الأقوال بالصواب الذي رواه شعبة عن منصور، لأن أهل اللغة المتقدمين منهم أبو زيد وغيره رووا عن العرب: ذرأ الله ﷻ الخلق يذرؤهم، أي: خلقهم".

قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، أي:"ليس له تعالى مثيلٌ ولا نظير، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهوالواحد الأحد، الفردُ الصمد".

قال ابن كثير:"أي: ليس كخالق الأزواج كلها شيء؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له".

قال مقاتل:"ثم عظم نفسه، فقال: {ليس كمثله شيء} في القدرة".

قال السعدي:"أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفة كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء، لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه".

وروي عن الضحاك، في قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، قال:"ليس كمثل الرجل والمرأة شيء".

وفي قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى:١١]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أن «المثل»-في لغة العرب- كناية عن «الذات»، ومنه قولهم: مثلى لا يقال له كذا، ومثلك لا يليق به كذا، فمعناه: «ليس كهو شيء». وأبو بكر الرازي.

قال ابن قتيبة:"والعرب تُقيم «المِثل» مُقام النفْس، فتقول: مثلي لا يقال له هذا؛

=

=

أي: أنا لا يقال لي".

قال الشوكاني:"المراد بذكر «المثل»-هنا-: المبالغة في النفي بطريق الكناية، فإنه إذا نفي عمن يماثله كان نفيه عنه أولى. كقولهم: مثلك لا يبخل، وغيرك لا يجود".

الثاني:-وهو المشهور-: أن «الكاف» زائدة للتوكيد، وأن «مثل» خبر «ليس»، والمعنى: «ليس مثله شيء»، لأن حمله على الظاهر يوجب إثبات المثل. وهذا قول ابن جني، والسيرافي، والأخفش، والنحاس، وانشد سيبويه:

وَصَالِياتٍ كَكَما يُؤْثَفَيْن

فأدخل على «الكاف» كافا، توكيدا للتشبيه.

قال الزركشي:"ولا خفاء أن القول بزيادة الحرف أسهل من القول بزيادة الاسم".

الثالث: أن يراد بالـ «مثل»: الصفة، وذلك أن المثل بمعنى المثل والمثل الصفة، كقوله تعالى: {مثل الجنة} [الرعد: ٣٥]، فيكون المعنى: ليس مثل صفته تعالى شيء من الصفات التي لغيره، وهو محمل سهل. حكاه السمين الحلبي.

الرابع أن «مثل» زائدة للتوكيد- كما مر في الوجه الأول- والتقدير: «ليس كهو شيء». قاله ثعلب، وابن قتيبة، ومنه قوله تعالى: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِه} [البقرة: ١٣٧]،أي: بما آمنتم به، ومنه قول أوس بن حجر:

وَقَتْلَى كمِثْلِ جذُوعِ النَّخيلْ... تَغَشَّاهُمُ مُسْبِلٌ مُنْهَمِرْ

أي: كجذوع.

والفرق بين الوجهين: الأول والرابع، أن «المثل» في الوجه الأول كناية عن «الذات»، وفى الوجه الرابع «زائد» مطرح كأنه لم يذكر.

قال الشوكاني:"والأول أولى، فإن الكناية باب مسلوك للعرب، ومهيع مألوف

=

=

لهم، ومنه قول الشاعر:

لَيْسَ كَمِثْلِ الفَتَى زُهَيْر... خَلْقٌ يُوَازِيهِ فِي الفَضَائِلِ

وقال آخر:

عَلَى مِثْلِ لَيْلَى يَقْتُلُ المَرْءُ نَفْسَهُ... وَإِنْ بَاتَ مِنْ لَيْلَى عَلَى النَّاسِ طَاوِيَا

وقال آخر:

سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ إِذَا أَبْصَرْتَ فَضْلَهُمُ... فَمَا كَمِثْلِهِم فِي النَّاس مِنْ أَحَدِ".

قال أبو الحسن علي بن فَضَّال-مرجحا لزيادة «الكاف»-: "ولا يجوز أن تكون «الكاف» غير زائدة، لأنه يصير شركًا، وذلك أنك كنت تثبت لله مثلاً، ثم تنفي الشبه عن ذلك المثل، ويصير التقدير: ليس مثل مثله شيء".

وقال أبو البقاء: «إنها لو لم تكن زائدة لأفضى ذلك إلى المحال، إذ يكون المعنى: أن له مثلا وليس لمثله مثل، وفي ذلك تناقض، لأنه إذا كان له مثل فلمثله مثل، وهو هو مع أن إثبات المثل لله سبحانه محال».

قال الشوكاني:"وهذا تقرير حسن، ولكنه يندفع ما أورده بما ذكرنا من كون الكلام خارجا مخرج الكناية، ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها، وتدبرها حق تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله: وهو السميع البصير فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للماثل قد اشتمل على برد اليقين، وشفاء الصدور، وانثلاج القلوب، فاقدر يا طالب الحق قدر هذه الحجة النيرة، والبرهان القوي، فإنك تحطم بها كثيرا من البدع، وتهشم بها رؤوسا من الضلالة، وترغم بها آناف طوائف من المتكلفين، ولا سيما إذا ضممت إليه قول الله سبحانه: ولا يحيطون به علما، فإنك حينئذ قد أخذت بطرفي حبل ما يسمونه علم الكلام، وعلم أصول الدين:

=

=

ودَعْ عَنْكَ نَهْبًا صِيحَ فِي حُجُراتِه... ولكِنْ حدِيث ما حديثُ الرَّواحِل ".

قال ابن القيم:"قوله تعالى: {ليس كمثله شيء} وهذا من أعظم الأدلة على كثرة صفات كماله ونعوت جلاله، وأنها لكثرتها وعظمتها وسعتها لم يكن له مثل فيها، وإلا فلو أريد بها نفي الصفات لكان العدم المحض أولى بهذا المدح منه. مع أن جميع العقلاء إنما يفهمون من قول القائل: فلان لا مثيل له، وليس له نظير ولا شبيه ولا مثل إنه قد تميز عن الناس بأوصاف ونعوت لا يشاركونه فيها وكلما كثرت أوصافه ونعوته فاق أمثاله وبعد عن مشابهة أضرابه".

قوله تعالى: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى:١١]، أي:"وهو تعالى السميع لأقوال العباد، البصير بأفعالهم".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه واصفا نفسه بما هو به، وهو يعني نفسه: السميع لما تنطق به خلقه من قول، البصير لأعمالهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا يعزب عنه علم شيء منه، وهو محيط بجميعه، محص صغيره وكبيره {لتجزى كل نفس بما كسبت} من خير أو شر".

قال مقاتل:"{وهو السميع} لقول كفار مكة، {البصير} بما خلق".

قال السعدي: أي: "{وَهُوَ السَّمِيعُ} لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. {الْبَصِيرُ} يرى دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جدا، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة.

قال السعدي: "وهذه الآية ونحوها، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات. وفيها رد على المشبهة في قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وعلى المعطلة في قوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ".

عن محمد بن إسحاق: {السَّمِيعُ}:"أي: سميع لما يقولون".

=

=

وقال العثيمين: قوله تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} {فَاطِرُ} خبرُ المبتدأِ المحذوفِ، والتقديرُ: هو فاطرُ، وإنما قلنا هذا؛ لأنَّ اللغةَ العربيَّةَ لا يُمْكِنُ أن يَترَكَّبَ بها الكلامُ إلا من مبتدأٍ وخبرٍ، أو فعلٍ وفاعلٍ، أو ما ينوبُ منابَ الفعلِ.

{فَاطِرُ}؛ أي: هو فاطرُ، والفاطرُ بمعنى: الخالقُ على غير مثالٍ سَبَقَ فهو بمعنى: بديعُ السَّمواتِ، والسَّمواتُ والأرضُ معروفان، السَّمواتُ: هي هذه السَّمواتُ السبعُ التي أَخْبَرَنَا اللهُ عنها، وبيَّنَ أنها سبعٌ شدادٌ، وبَيَّنَ أنه سبحانه وتعالى بناها بأيدٍ، فقال تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ} [الذاريات: ٤٧]؛ أي: بقوَّةٍ، وليس المرادُ بالأيْدِ في هذه الآية يَد اللهِ ﷻ؛ لأنَّ اللهَ لم يُضِفْهَا إلى نفْسِه لم يَقُلْ: بأيدينا، قال {بِأَيْدٍ} وَ {أَيْدٍ} مَصْدَرُ آدَ يَئِيدُ، إذا قَوِيَ، فهو كقولِهِ: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا} [النبأ: ١٢]، هذه السَّبْعُ الشدادُ إذا كان يومُ القيامةِ فقد قال اللهُ عنها: إنها تكونُ واهيةً {فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ}؛ أي: ضعيفةً.

أما الأرضُ فهي أرْضُنا المعروفةُ، والسَّمواتُ مجموعةٌ؛ لأنَّها سبعٌ، والأرضُ مفردةٌ يراد بها الجنسُ، وقد بَيَّنَ اللهُ ﷻ في سورةِ الطلاقِ أنها سبعٌ، فقال اللهُ تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} [الطلاق: ١٢]، فقال: {وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} ومن المعلومِ أن المماثلةَ هنا ليست مماثلةً في الذاتِ، إذ إنَّ بَيْنَ السَّمواتِ والأرضِ بَوْنًا شاسعًا، لكن المرادَ مِثْلُهُنَّ في العددِ، ويُؤَيِّدَ ذلك ما جاءت به السُّنَّةُ، فقد قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ: "من اقْتَطَعَ شبرًا من الأرضِ ظلمًا طَوَّقَهُ اللهُ به يومَ القيامةِ من سَبْعِ أرَضين".

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} مُبْدِعُهُمَا] يريدُ أن يُفَسِّرَ {فَاطِرُ} بمعنى مبدع، ولكنا فَسَّرْناها بمعنى بديع، وتفسيرُنَا لا ينافي تفسيرَهُ المعنى واحدٌ، لكن مُطَابَقَةَ اللفظِ لما جاء به القرآنُ أَوْلَى والذي جاء في القرآنَ

=

=

{بَدِيعُ}.

{جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا}؛ أي: صَيَّرَ لكم من أَنْفُسِكم أزواجًا، قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [حيث خَلَقَ حواءَ من ضِلعِ آدَمَ] فكأنه يَميلُ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن المرادَ بالأزواجِ هنا حواءُ، ولكن هذا غيرُ صحيحٍ، بل جَعَلَ من أَنْفُسِنا أزواجًا يعني: نساءً مُشَاكِلَاتٍ لنا لم تَكُنِ الأنثى بعيدةً عن شَكْلِ الرجلِ؛ لأنَّها لو كانت بعيدةً عن شَكْلِ الرجلِ ما أَلِفَهَا، ولا جَعَلَ اللهُ بينهم مودةً ورحمةً.

وقولُهُ: {مِنْ أَنْفُسِكُمْ}؛ أَيْ: من جِنْسِكم، وليس المرادُ من نفْسِ الإنسانِ جَعَلَ له زوجةً، لا لو كانت من نفْسِهِ لم تكن زوجةً؛ لأنَّها تكون بِنْتَه، ولكن المرادَ {مِنْ أَنْفُسِكُمْ} أي: من جِنْسِكُم، كما قال اللهُ تعالى: {آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا} [الروم: ٢١]، وَجَعَلَ لكم أيضًا {وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا} الأنعامَ جَمْعُ نَعَمٍ كبهيمةِ الأنعامِ.

{أَزْوَاجًا} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: ذكورًا وإناثًا] من أَجْلِ الإنتاجِ والتنميةِ وغيرِ ذلك من المصالحِ.

{يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالمعجمةِ يَخْلُقُكم] ما معنى المعجمةِ؟ هل في القرآنِ شيءٌ عجميٌّ؟ لا، لكن يُعَبِّرُونَ عن المنقوطِ بأنه مُعْجَمٌ من بابِ تسميةِ الشيءِ بِضِدِّهِ، وإلا فهو مُعْرِبٌ في الواقعِ؛ لأنَّه لولا هذه النقطُ مثلًا لأَشْكَلَ ولم يُفْهَمِ المعنى، إذن؛ المُعْجمُ: المُنَقَّطُ، وسُمِّيَ بذلك من باب تسميةِ الشيءِ بضِدِّهِ، كما يُسَمُّونَ التعبُّدَ بالتحنُّثِ، كما في حديثِ بدءِ الوحيِ "يَتَحَنَّثُ فيه"؛ أي: يَتَعَبَّدُ. المُعْجَمَةُ ضِدُّهَا المُهْمَلَةُ، فالشِّينُ ضدُّ السِّينُ، والذالُ معجمةٌ ضدَّ الدالِ، أمَّا الحركاتُ فيُسَمُّونَها مُثَلَّثَةً، أو بالوجْهَيْن، أو ما أَشْبَهَ ذلك، وأحيانًا يقولون: إذا كانت الكلمتان المشتبهتان كلتاهما معجمةٌ قالوا: بالمثلثةِ مثلَ: (التاءِ) و (الثاءِ) لو قالوا: معجمةٌ لم يَزَلِ الإشكالُ، ولكن يقولون: بالمثلثةِ، (الطاءُ) و (الظاءُ)

=

=

يقولون: بالظاءِ المُشالةِ؛ يعني: الذي فيها ألفٌ، احترازًا من (الضادِ)؛ لأنَّها غيرُ مشالةٍ. المهمُّ أنها اصطلاحاتٌ معروفةٌ عندَ العلماءِ.

وقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{يَذْرَؤُكُمْ} يَخْلُقُكُمْ] فَسَّرَ (يَذْرَأُ) بـ (يَخْلُقُ)، وهو تفسيرٌ ناقصٌ؛ لأنَّ يَذْرَأُ لها معنًى زائدٌ على الخَلْقِ، وهو البثُّ والإنتشارُ، كما قال اللهُ تعالى في آيةٍ أخرى: {وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ} [البقرة: ١٦٤]، فالذَّرْءُ أخصُّ من الخَلْقِ، فمعنى {يَذْرَؤُكُمْ} إذن: يَبُثُّكُم وَينْشُرُكُم.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{فِيهِ}؛ أي: الجعلُ المذكورُ، أي يُكَثِّرُكُم بسبَبِهِ] انظرْ فَسَّرَ الأوَّلَ {يَذْرَؤُكُمْ} بـ (يَخْلُقُكُم) ثم قال [أي: يُكَثِّرُكُم] والتفسيرُ الثاني هو الأصحُّ، التكثيرُ والبثُّ والنَّشْرُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالتوالُدِ والضميرُ للأناسيِّ والأنعامِ بالتغليبِ] {يَذْرَؤُكُمْ} يقولُ: إن الضميرَ - وهو الكافُ والميمُ - للأناسيِّ والأنعامِ، الأناسيُّ يعني: البشرَ، والأنعامَ: البهائمَ، للتغليبِ؛ لأنَّ الضميرَ هنا جاء ضميرَ العاقلِ، والأنعامُ لا يأتي لها ضميرُ العاقلِ؛ لأنَّها غيرُ عاقلةٍ، لكن جاء ذلك للتغليبِ لمَّا كان الذَّرْءُ للإنسانِ والبهائمِ قال: {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} ولم يَقُلْ: يَذْرَؤُكُنَّ.

إذَن: التغليبَ قد يكونُ بتغييرِ الإسمِ، وقد يكونُ بالضميرِ، وما أَشْبَهَ ذلك، القمران للشمسِ والقمرِ تغليبٌ بتغييرِ الإسمِ؛ لأنَّ القمران لو فُكَّتْ عن التثنيةِ لكانت قمرٌ وقمرٌ، وليس كذلك المرادُ قمرٌ وشمسٌ، فهنا بتغييرِ الإسمِ.

الضميرُ هنا في قولِهِ: {يَذْرَؤُكُمْ} يعودُ على ما سَبَق ذِكْرُهُ من بهائِمَ وأناسيَّ على سبيلِ التغليبِ، لولا التغليبُ لوجب أن يكونَ الضميرُ ضميرًا مؤنثًا للبهائمِ وضميرًا مذكَّرًا للأناسيِّ.

قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{السَّمِيعُ} لما يقالُ {الْبَصِيرُ} لما يَفْعَلُ] جلَّ وعلا.

=

=

اختلف العلماء في معنى الكاف في قوله تعالى: {ليس كمثله شيء} [الشورى:١١] على قولين:

القول الأول: أن الكاف صلة للتأكيد، فالمراد: ليس مثله شيء، وهو قول ابن عقيل، وبه قال الزجاج، والنحاس، وغيرهم.

القول الثاني: أن الكاف غير زائدة، ثم اختلفوا على أقوال منها:

الأول: أن [مثل] هي الزائدة للتوكيد، وبه قال الطبري، والبغوي، أي: ليس هو كشيء، قالوا: وإنما زيدت [مثل] هنا لتفصل الكاف عن الضمير؛ فإدخال الكاف على الضمير غير جائز.

الثاني: أن [مثل] بمعنى الذات: أي: ليس كذاته شيء، من باب قولهم: مثلك لا يفعل كذا، أي: أنت لا تفعله.

الثالث: أن [مثل] بمعنى الصفة: أي: ليس كصفته شيء. وعلى هذين القولين الأخيرين لا يكون في الكلام زيادة، والإتيان بـ[مثل] للمبالغة في تأكيد النفي.

قال الراغب: (وأما الجمع بين الكاف والمثل، فقد قيل ذلك لتأكيد النفي، تنبيها على أنه لا يصح استعمال المثل ولا الكاف، فنفى بليس الأمرين جميعا).

وقال العثيمين: وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لَيْسَ كَمِثْلِهِ} الكافُ زائدةٌ؛ لأنَّه تعالى لا مِثْلَ له] الكافُ زائدةٌ، وزيادةُ الكافِ ليست غريبةً تأتي دائمًا زائدةً؛ ولهذا قال ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في الألفيَّةِ- التي ينبغي لطالبِ النحْوِ ألَّا يتركَ حِفْظَهَا- يقولُ:

شبِّه بكافٍ وبها التعليلُ قد ... يُعنى وزائدًا لتوكيدِ وَرَدَ

(شبِّه بكافٍ): تشبيهٌ، (وبها التعليلُ قد يُعنى) أي: قد يُرادُ بها التعليلُ، (وزائدًا) لتوكيدِ (وَرَدَ): يعني: وقد تأتي زائدةً.

في هذه الآيةِ الكافُ زائدةٌ بمعنى أنها لو حُذِفَتِ لاستقام الكلامُ، لو قيل: ليس مِثْلَهُ شيءٌ. يستقيمُ الكلامُ لا شكَّ، لكن جاءت الكافُ للتوكيدِ؛ كأنه نفى المِثْلَ

=

=

مَرَّتَيْنِ: ليس كهو ليس مثلَهُ، فالزيادةُ هنا فيها زيادةُ المعنى، وهو أن كأنه نفى المثليَّةَ مَرَّتَيْن: مرَّةً عن طريقِ الكافِ، ومرَّةً عن طريقِ مثل، وبعضُهُم يقولُ: إن الزائدَ (مثل) وإن التقديرَ: ليس كهو شيءٌ، لكن هذا قولٌ ضعيفٌ؛ لأنَّه إذا دارَ الأمرُ بين أن تكونَ الزيادةُ حرفًا أو اسمًا فالواجبُ أن تكونَ الزيادةُ حرفًا؛ لأنَّه لم يأتِ في اللغةِ العربيةِ زيادةُ الأسماءِ؛ ولأنَّ الحرْفَ معناه في غيرِهِ فمجيئُهُ زائدًا ليس بغريبٍ، والإسمُ يدُلُّ على معنًى في نفْسِه، فإتيانُهُ زائدًا بعيدٌ.

إذن عندنا قولان:

الأَوَّلُ: أن الكافَ زائدةٌ، وهذا سهلٌ، وجرى في اللغةِ العربيَّةِ مِثْلُه، وتكونُ الزيادةُ هنا للتوكيدِ، وبعضُهُم قال: الزائدُ (مِثْل) وهو قولٌ ضعيفٌ، بعضُهُم يقولُ: إن المِثْلَ هنا بمعنى الصفةِ. يعني: ليس كصِفَتِهِ شيءٌ، والمِثْلُ ذاتيٌّ بمعنى الصفةِ مِثْلَ قولِهِ تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} [الرعد: ٣٥]؛ أي: صِفَتُها، وهذا أيضًا ضعيفٌ؛ لأننا نقولُ: إن اللهَ ليس مِثْلَهُ شيءٌ، لا في ذاتِهِ، ولا في صفاتِهِ، بعضُهُم يقولُ:

إن هذا على سبيلِ المبالغةِ؛ يعني: إذا لم يَكُنْ لمِثْلِهِ مِثْلٌ، لو فُرِضَ أن له مثلًا، فمن بابِ أَوْلَى ألَا يكونَ له هو مِثْلٌ، وأن هذا مما جرى على لسانِ العربِ في المبالغةِ في الوصفِ. وأنشدوا على ذلك:

ليس كمِثْلِ الفتى زُهَيْرٍ ....

من المبالغةِ؛ يعني هذا لا نظيرَ له إطلاقًا، وهذا الأخيرُ والأوَّلُ هما أقربُ الأقوالِ في إعرابِ هذه الجملةِ.

لكن من حيثُ المعنى والإعتقادُ نؤمنُ بأنَّ اللهَ تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} لا في ذاتِهِ، ولا في صفاتِهِ، ولا في أفعالِهِ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} في كلِّ شيءٍ، يجبُ علينا أن نُؤْمِنَ بهذا، فذاتُهُ مخالِفَةٌ لجميعِ الذواتِ، نحن نرى الذواتِ مختلفةً، الإنسانُ

=

=

مُرَكَّبٌ من عَظْمٍ ولحمٍ وعَصَبٍ ودمٍ، هناك أشياءُ مُرَكَّبَةٌ من جواهرَ أخرى.
الرَّبُّ ﷻ مُبَايِنٌ لكلِّ شيءٍ موجودٍ في الكَوْنِ في ذاتِهِ، لا تَقُلْ مثلًا: إنه مثلُ الذَّهَبِ، مثلُ الفِضَّةِ، وما أَشْبَهَ ذلك؛ ولهذا لمَّا قال المشركون للرسولِ: يا مُحَمَّدُ، هل رَبُّكَ من ذَهَبٌ، أو من فضَّةٍ، أو من كذا، أو من كذا؛ أنزل اللهُ قولَهُ تعالى: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}.
فلا تَتَصَوَّرْ ذات الرب جلَّ وعَزَّ أبدًا؛ لأنك مهما تَصَوَّرْتَ على أيِّ شيءٍ تَتَصَوَّرُهَا لا مثيلَ له، ولا نظيرَ له، كذلك في صفاتِهِ ليس له مثيلٌ، ليس له نظيرٌ في أيَّةِ صفةٍ من صفاتِهِ، ولْنَأْخُذِ العِلْمَ من صفاتِ اللهِ ﷻ هل له نظيرٌ في هذه الصفةِ؟ لا نظيرَ له في هذه الصفةِ أبدًا، عَلِمَ كُلِّ ذي عِلْمٍ محدودٍ، أعلمُ الناسِ عِلْمُه محدودٌ.
قال اللهُ ﷻ: {إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا} [لقمان: ٣٤] فأنت بنفْسِكَ لا تدري ماذا تَكْسِبُ غدًا، قد تُقَدِّرُ أنك سوف تعملُ كذا وكذا، ولكن لا تعملُ إما لصرفِ الهمَّةِ، وإما لمانعٍ خارجيٍّ، كلُّنا نُقَدِّرُ أننا غدًا سوف نَفْعَلُ كذا وكذا، لكن لا نَفْعَلُ ولا ندري ما يكونُ، قد يُصَرِّفُ الله هِمَّتَنا عن هذا الفعلِ، أو تُوجدُ موانعُ خارجيَّةٌ من مرضٍ أو سفرٍ أو حيلولةٍ بيننا وبين مرادِنا، لا ندري عنها.
أيضًا عِلْمُكَ محدودٌ بالمشاهدةِ، الغائبُ لا تُفَكِّرْ أن عندك علمًا منه، حتى في المشاهدِ علمُك ناقصٌ، الإنسانُ لا يَعْلَمُ ماذا يَفْعَلُ ولَدُهُ في بيتِهِ، ولا أَهْلُه في بيتِهِ، بل أشدُّ من هذا وأضعفُ في العِلْمِ أنك لا تَعْلَمُ عن نفْسِك؛ سبحانَ اللهِ! روحُك التي بها حياتُك وهي في جِسْمِك لا تدري عنها، لمَّا سألوا النبيَّ ﷺ عن الرُّوحِ أنْزَلَ اللهُ تعالى {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} [الإسراء: ٨٥]-

=

ثم وَبَّخَهُم على هذا السؤالِ فقال: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٨٥] كأنه يقولُ سبحانه وتعالى: تسألون عن الرُّوحِ وأنتم ما أَحَطْتُمْ بالأشياءِ، ما عَلِمْتُمْ عن الأشياءِ إلا قليلًا، ما بقي عليكم إلا علمُ الروحِ حتى تسألوا عنها، فإذا كان الإنسانُ لا يَعْلَمُ رُوحَه التي بَيْنَ جنبيه وبها حياتُه؛ فهو دليلٌ على نقصانِ العِلْمِ.

وفي عِلْمِ اللهِ ﷻ يقولُ: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ} [ق: ١٦]، كلُّ إنسانٍ، كلُّ حيوانٍ فاللهُ ﷻ يَعْلَمُ ما في نفْسِه، هل عَلِمَ المخلوقُ مثلَ هذا في القدرةِ؟ ليس أحدٌ، بل لو اجتمعَ الخَلْقُ كُلُّهُم بقدرهم ما ساووا شيئًا من قُدْرَةِ اللهِ؛ فإن اللهَ ﷻ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، قال اللهُ ﷻ: {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً} [يس: ٥٣] يعني: البعثُ صَيْحَةٌ واحدةٌ يصرفُهُ اللهُ بهم- {فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} [يس: ٥٣].

كُلُّهُم في أقطارِ الدنيا، ولو في الغاباتِ والكهوفِ وأعماقِ البحارِ، كُلُّهُم يأتون في آنٍ واحدٍ، {فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} هذه القدرةُ لا يُمْكِنُ أبدًا أن يشابِهَها أو يماثِلَها قدرةٌ؛ لذلك نقولُ: إن اللهَ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} واعلمْ أن هذه الآيةَ استدَلَّ بها المُعَطِّلَةُ والمُمَثِّلَةُ وأهلُ السُّنَّةِ، كلُّ الثلاثةِ.

المُمَثِّلَةُ قالوا: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} إثباتٌ يدُلُّ على المماثلةِ؛ لأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى هذه شُبْهَتُهُم- خاطَبَنَا بالقرآنِ، والقرآنُ جَعَلَهُ اللهُ بلسانٍ عربيٍّ؛ من أجلِ أن نَعْقِلَ ونَفْهَمَ، قال اللهُ تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} لماذا؟ {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الزخرف: ٣]، قالوا: فإذا خاطَبَنَا اللهُ بشيءٍ مما وَصَفَ به نفسَهُ وَجَبَ أن نَحْمِلَه على ما نَفْهَمُ، ونحن لا نَفْهَمُ إلا ما نُحِسُّ به، فيجبُ أن تَحْمِلَ كُلَّ صِفَةٍ للهِ على ما كان معلومًا؛ ولذلك قالوا: إن اللهَ تعالى مِثْلَ خَلْقِهِ، نسألُ اللهَ العافيَةَ.

واللهِ لو كان مِثْلَنَا ما عَبَدْنَاه ولا يُمْكِنُ أن يَعْبُدُ الإنسانُ مِثْلَه، لكن هُمْ بعقولِهِم

=

الضالَّةِ قالوا: يَلْزَمُ مما أَخْبَرَ اللهُ به عن نفْسِه من الصفاتِ أن تكونَ مِثْلَ صفاتِنا، وشُبْهَتُهُم أنَّ اللهَ خاطَبَنا بما نَفْهَمُ وَنَعْقِلُ، ونحن لا نَفْهَمُ إلا ما نُشاهدُ فإذا خاطَبَنا عن شيءٍ غائبٍ وَجَبَ أن نَحْمِلَه على المعلومِ عندنا.

والمُعَطِّلَةُ استدلُّوا بقولِهِ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وقالوا: كلُّ صفةٍ أثبتها اللهُ لنفْسِه فإنها تدُلُّ على التمثيلِ فَيَجِبُ أن تكونَ مَنْفِيَّةً، والذي فتح لهم البابَ هم المُمَثِّلَةُ يقولون: كلُّ صفةٍ أَثْبَتَهَا اللهُ لنفْسِه فإنها تَسْتَلْزِمُ التمثيلَ والتمثيلُ ممتنِعٌ، إذن يجبُ أن تمتنعَ كلُّ صفةٍ، مثالُ ذلك يقولون: إن اللهَ ﷻ لم يستوِ على العرشِ الإستواءَ الحقيقيَّ؛ لأنَّه لو استوى على العرشِ لكان جسمًا، فيكونُ مماثلًا للمخلوقِ.

والرَّدُّ عليهم سهلٌ، ففي نفي المثلية لغيره مطلقا ثم إثبات صفة السمع والبصر له سبحانه في نفس الآية دلالة واضحة على أن هذه الصفات ثابتة لله تعالى على ما يليق بعظمته وجلاله، فالله سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال، وليس له فيها شبيه، فالمخلوق وإن كان يوصف بأنه سميع بصير، فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره، ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيه، إذ صفات المخلوق كما يليق به، وصفات الخالق كما يليق به، ولا يمكن أن تصل عقول الخلق إلى كيفيتها، ثم إن في هذه الآية أيضا الرد على الممثلة والمعطلة، كما قال ابن تيمية: (ومذهب السلف بين مذهبين، وهدى بين ضلالتين، إثبات الصفات ونفي مماثلة المخلوقات، فقوله تعالى: {ليس كمثله شيء} [الشورى:١١] رد على أهل التشبيه والتمثيل، وقوله: {وهو السميع البصير} [الشورى:١١] رد على أهل النفي والتعطيل، فالممثل أعشى، والمعطل أعمى، الممثل يعبد صنما، والمعطل يعبد عدما).

ونقولُ: هل أَثْبَتَ اللهُ لنفْسِه يدًا أو لا؟ فسيقولون: نعم. لماذا لا تُثْبِتُهَا أنت؟ قال: أخشى أن تكونَ مُمَاثِلَةً ليدِ الإنسانِ. نقولُ: لا تخش هذا، كيف تخشى هذا واللهُ

=

=

يقولُ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}؟ ثم نقولُ له: ألستَ تُثْبِتُ لشاتِكَ يدًا؟ يقولُ: نعم. هل يَدُ شاتِك مثلُ يَدِكَ؟ لا، إذا انتفتِ المشابهةُ بين المخلوقاتِ فيما تَتَّفِقُ فيه بالأسماءِ فانتفاءُ المُشابَهَةِ في حقِّ الخالقِ من بابِ أَوْلَى، بل انتفاءُ المُشابهةِ في حقِّ اللهِ واجبٌ، وفي حقِّ المخلوقِ غيرُ واجبٍ.

الآن القِطُّ، عندنا الآن اثنان واحدٌ يقول: البَسُّ- والبَس بالفتح وإذا قلت: البِسُّ فأنت لاحنٌ، الصواب البَسُّ-، والآخرُ قال: الهِرُّ، وثالثٌ يقول: القطُّ والسِّنَّوْرُ، فما أكثرَ أسماءَ الهِرِّ والأسدِ، وسبحانَ اللهِ أيدي الهرِّ وأيدي الأسدِ متشابهتان تمامًا.

فهُمْ تَصَوَّروا أن استواءَ اللهِ على عرشِهِ كاستواءِ الإنسانِ على الأنعامِ، فلما فهموا هذا الفهْمَ أنكروا الإستواءَ، الإنسانُ يستوي على البعير كما قال تعالى: {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} [الزخرف: ١٢- ١٣] هم فَهِمُوا أن استواءَ اللهِ على العرشِ كاستواءِ الإنسانِ على البعيرِ، وقالوا: هذا تمثيلٌ، والتمثيلُ مستحيلٌ على اللهِ فيجبُ إنكارُهُ، وهذا قولُ المعتزلةِ والجهميَّةِ، ومَن ظَاهَرَهُم، نَفَوْا كلَّ صفةٍ للهِ وقالوا: لا يمكن أن نَصِفَ اللهَ بشيءٍ. الحُجَّةُ أن الإثباتَ يستلزمُ التمثيلَ، واللهُ ﷻ قد نفى أن يكونَ له مِثْلٌ، وأيضًا المماثلةُ مستحيلةٌ عقلًا، فيكونُ دلَّ العقلُ على زَعْمِهِم، دلَّ العقلُ والشرعُ على أن اللهَ ليس له مثيلٌ، فيجبُ أن ننفيَ جميعَ الصفاتِ.

هؤلاء حقيقةُ أَمْرِهِم أنهم مَثَّلوا أولًا، ثم عَطَّلوا ثانيًا، مَثَّلوا أولًا حيث اعتقدوا أن الأدلةَ تَدُلُّ على التمثيلِ، وهذا اعتقادٌ فاسدٌ، ثم بعد ذلك عَطَّلوا وأَنْكَرُوا، ولكنَّ هذه الشُّبهةَ دَفْعُها يسيرٌ، نقولُ لهم: هل تُثْبِتُون للهِ وُجُودًا؟ إما أن يقولوا: لا، وإما أن يقولوا: نعم. لا يُمْكِنُ أن يَخْرُصُوا، إما أن يقولوا: نعم، أو يقولوا: لا، فإذا أثبتوا للهِ وُجُودًا نقولُ: هل هو وجودٌ حقيقيٌّ أو وهميٌّ؟ إن قالوا: وهميٌّ، كَفَرُوا

=

=

بلا إشكالٍ، وإن قالوا: حقيقيٌّ، قلنا: هل تُثْبِتُون لأنفُسِكم وُجُودًا؟ إما أن يقولـوا: نعم أو يقولوا: لا إن قالوا: لا، قلنا: ما نخاطبُ أشباحًا بلا شيءٍ، لكن لن يقولـوا: لا، يقولون: نعم نثبتُ لأنفُسِنا وجودًا، نقـولُ: إذن يَلْـزَمُكُم التمثيـلُ؛ لأنكـم أَثْبَتُّمْ للهِ تعـالى صـفةً هـي ثابتـةٌ للمخلـوقِ، فيلـزَمُكُم التمثيـلُ، انظـر الباطـلَ لا بُـدَّ أن يندحرَ، لكنِ انْفَكَّ قومٌ عن هذا الإلزامِ من الغلاةِ قالوا: لا نقـولُ: إن اللهَ موجـودٌ. أعوذُ باللهِ تعبدون مَن؟ قالوا ما نقـولُ: إنـه موجـودٌ. قلنـا: معـدومٌ؟ إذا قلتُـم: غيـرُ موجودٍ لزمَ أن تقولوا: إنه معدومٌ، وإنْ قلتُم: إنه معدومٌ مَثَّلْتُم؛ لأنَّ الموجـودَ مـن الخَلْقِ يكونُ معدومًا قبلَ وجودِهِ وبعـد وجـودِهِ، قـال اللهُ تعـالى: {هَـلْ أَتَـى عَلَـى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} [الإنسانِ: ١].

وهذا حقيقةٌ، الواحدُ منا قبل ولادتِه بسنتين ليس بشيءٍ، معدومٌ، فإن قلتُم: إن اللهَ معدومٌ شَبَّهْتُم ومَثَّلْتُم على قاعدَتِكُم، قـالوا: إذن نقـولُ: لا موجـودٌ، ولا معـدومٌ. أعوذُ باللهِ لا موجودٌ ولا معدومٌ، نقـولُ: اللهُ أكـبرُ، هـل يُمْكِـنُ أن يكـونَ الـشيءُ لا موجودًا ولا معدومًا؟ كـلُّ شـيءٍ فهـو إمـا موجـودٌ أو معـدومٌ؛ لأنَّ تقابُـلَ الوجـودِ والعـدمِ تقابُـلُ تنـاقُضٍ، والمتناقـضان لا بـدَّ مـن وجـودِ أحـدِهما، لا يُمْكِـنُ أن يجتمعَا، ولا أن يمتنعَا، فإذا قـالوا: لا موجـودٌ ولا معـدومٌ. نقـولُ: شَـبَّهْتُمُوه الآنَ بالمستحيلاتِ والممتنِعاتِ.

فأهلُ الباطلِ لا مَفَرَّ لهم من لوازِمِهِم الباطلةِ.

تَكَايَسَ قومٌ وقالوا: نحن لا نقولُ: إنه لا يتصفُ بصفةٍ، لكننا نَصِفُهُ بمـا نَحْكُـمُ بـه عليه، ولا يَحْكُمُ به على نفْسِهِ. انتبهْ قالوا: لا نُنْكِرُ الصفاتِ لكن نَصِفُهُ بما نَحْكُـمُ به عليه لا بما يَحْكُمُ به على نفْسِه، وهؤلاء المتكايسون هم الأشعريَّةُ أثبتوا بعضَ الصفاتِ، وأنكروا أكثرَ الصفاتِ، أثبتوا من الصفاتِ سبعًا وأنكروا البـاقيَ، أثبتـوا الحياةَ، والعِلْم، والقُدْرَةَ، والسَّمْعَ، والبصرَ، والإرادةَ، والكـلامَ، وأنكـروا البـاقيَ

=

=

قالوا: لا نُثْبِتُ من الصفاتِ على وجهِ الحقيقةِ إلا هذه الصفاتِ السبعَ: الحياةَ، والعِلْمَ، والإرادةَ، والقدرةَ، والسمعَ، والبصرَ، والكلامَ. هذه ثابتةٌ حقيقةً على اختلافٍ بَيْنَهُم وَبَيْنَ أهلِ السُّنَّةِ في بعضِها، الكلامُ عندهم غيرُ الكلامِ عندَ أهْلِ السُّنَّةِ، والباقي لا نُثْبِتُهُ. فماذا تَعْمَلُون فيه؟ قالوا: لنا فيه طريقان: إما التفويضُ بأن نقولَ: لا ندري ما معناه، وإما التأويلُ الذي يُسَمُّونه تأويلًا وهو في الحقيقةِ تحريفٌ.

والأشاعرةُ هم أكثرُ الناسِ انتشارًا في البلادِ الإسلاميَّةِ؛ ولهذا يجبُ أن نَعْرِفَ مَذْهَبَهُم تمامًا ونَعْرِفُ الرَّدَّ عليهم حتى يتقلَّصَ هذا المَدُّ، أو يزولَ بالكُلِّيَّةِ- ونسألُ اللهَ تعالى أن يُزِيلَهُ إلى الحقِّ- يقولون: نُثْبِتُ هذه الصفاتِ السَّبْعَ وغيْرُها لا؛ ولذلك يقولون في استعمالِهِم للنصوصِ ما سوى هذا إما أن نُفَوِّضَه ونقولَ: لا ندري معناه، وإما أن نُؤَوِّلَهُ، ونحن نُسَمِّي تأويلَهُم تحريفًا؛ لأنَّ التأويل الذي لا دليلَ عليه تحريفٌ، وفي ذلك يقول ناظمُ عقيدتِهِم:

وكلُّ نصٍّ أَوْهَمَ التشبيهَا ... أَوِّلْهُ أو فَوِّضْ تَرُمْ تنزيهًا

واللهُ عليمٌ إن فَوَّضْنَاه، أو أَوَّلْنَاه بمعنى التحريفِ فإننا لم نَرُمِ التنزيهَ، بل وَقَعْنَا في العيبِ، وَجْهُهُ أننا إذا قلنا: لا نَعْلَمُ هذا المعنى، فهذا يعني أن اللهَ أَنْزَلَ علينا كتابًا مجهولًا لا يُدرى معناه، وَلَيْتَه لا يُدْرى معناه في الأمورِ التي تتعلَّقُ بفعلِ العبدِ كالصلاةِ والطهارةِ في العقيدةِ، وإن حَرَّفْنَاه وَقَعْنا أيضًا في بلاءٍ في اتهامِ اللهِ ﷻ أنه لم يُبَيِّنْ لعبادِهِ إلا ما كان خلافَ الحقِّ، وكلاهما شيءٌ كبيرٌ.

حتى إن شيخَ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ يقولُ: إن قَوْلَ أهلِ التفويضِ من شرِّ أقوالِ أهلِ البدعِ والإلحادِ، وأنه هو الذي فَتَحَ للفلاسفةِ القَدْحَ في الدِّينِ وقالوا: إذا كنتم لا تعرفون المعنى وأنتم عَجَمٌ بالنسبةِ للقرآنِ العربيِّ نحن نَعْرِفُ، وصاروا يَخْبِطُونَ خَبْطَ عَشْوَاءَ.

=

فالأشاعرةُ يُثْبِتُونَ للهِ سبعَ صفاتٍ: الحياة، والعِلْمَ، والإرادةَ، والقدرةَ، والسمعَ، والبصرَ والكلامَ، ومع ذلك إثباتُهُم لها ليس كإثباتِ أهلِ السُّنَّةِ، نَضْرِبُ مثلًا بالكلامِ، الكلامُ يقولون: إن اللهَ ﷻ لا يتكلَّمُ بصوتٍ مسموعٍ أبدًا، وإنما كلامُهُ هو المعنى القائمُ بنفْسِه، وما يَسْمَعُهُ العِبادُ فإنما هو عبارةٌ عن الكلامِ المخلوقِ؛ فلما قال اللهُ لنبيِّه ﷺ: "إني فرضتُ عليك خمسين صلاةً" بهذا اللفظِ أو معناه، اللهُ لَمْ يَقُلْها؛ لأنَّ الكلامَ هو المعنى القائمُ بنفسه، لكن خلق أصواتًا سَمِعَها النبيُّ ﷺ تُعَبِّرُ عما في نَفْسِهِ! ! سبحانَ اللهِ!.

الآن لو تَفَكَّرْنَا لَوَجَدْنَا قولَهم هذا أَخْبَثُ من قولِ الجهميَّةِ، الجهميَّةُ عندهم صراحةٌ قالوا: كلامُ اللهِ مخلوقٌ ومسموعٌ، لكنه مخلوقٌ، هؤلاء قالوا: كلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ لكنه غير مسموعٍ هو المعنى القائمُ بنفْسِه ويَخْلُقُ أصواتًا تُسْمَعُ تُعَبِّرُ عما في نفْسِه.

فَأَصْرَحُهُمَا الجهميَّةُ، فالقرآنُ الذي بين أيدينا، الجهميَّةُ يقولون: هذا كلامُ اللهِ حقيقةً لكنه مخلوقٌ، أما الأشاعرةُ فيقولون: لا هذا ليس كلامَ اللهِ حقيقةً، هذا عبارةٌ عن كلامِ اللهِ، وكلامُ اللهِ هو المعنى القائمُ بالنفْسِ. إذن أَحْسَنُهُما الأوَّلُ، وكلاهما غيرُ حَسَنٍ، ولكننا نقولُ: الأوَّلُ أَحْسَنُ، كما قال اللهُ ﷻ: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا} [الفرقان: ٢٤]، مع أنه لا خيرَ في مستقرِّ أهلِ النارِ.

فالأشعريةُ أثبتوا سبعَ صفاتٍ، ولمَّا قيلَ لهم: ما هو الدليلُ على إثباتِ الصفاتِ السبعِ ونفيِ ما سواها؟ قالوا: الدليلُ العقلُ، فالعقلُ دلَّ على إثباتِ هذه الصفاتِ، ولم يَدُلَّ على إثباتِ غيرها، إذن حكَّموا العقلَ فيما يُثْبِتُونَ للهِ ولم يُحَكِّمُوا اللهَ فيما يُثْبِتُ لنفْسِه، وهذا عدوانٌ في حقِّ اللهِ ﷻ.

من الذي يَحْكُمُ بنفْسِهِ على نَفْسِه؟ اللهُ ﷻ أنتم تَتَحَكَّمُونَ على اللهِ؟ ! قالوا: اللهُ خاطَبَنَا ولنا عقولٌ، ولا بُدَّ لنا من أن نُعملَ العقولَ. قلنا: أعطونا دليلًا عقليًّا على

=

هذه الصفاتِ السَّبْعِ، قالوا: نعم نعطيكم أدلةً عقليَّةً، الإيجادُ يَدُلُّ على القدرةِ؛ لأنَّ العاجزَ لا يُوجِدُ شيئًا، ومعلومٌ أننا نرى المخلوقاتِ تتواجدُ شيئًا فشيئًا، قالوا: إيجادُها يدلُّ على القدرةِ، المخلوقاتُ الكائنةُ بعضُها إنسانٌ، وبعضُها حصانٌ، وبعضُها جَمَلٌ، وبعضُها شمسٌ، وبعضُها قمرٌ، وبعضُها سماءٌ، وبعضُها أرضٌ، وهذا التخصيصُ يدلُّ على الإرادةِ، لولا الإرادةُ ما صار هذا كذا وهذا كذا. إذن أثبتنا الإرادةَ والقدرةَ، وهذه المخلوقاتُ مُحْكَمةٌ متقنةٌ ما فيها تناقضٌ ولا تصادمٌ، لم نر الشمسَ في يومٍ من الأيامِ اصطدمت بالأرضِ أو بالقمرِ أو بالنجومِ، مُحْكَمٌ متقنٌ يدلُّ على العِلْمِ.

إذن ثَبَتَتْ ثلاثُ صفاتٍ عن طريقِ العقلِ وهي: العِلْمُ والإرادةُ والقدرةُ، قالوا: وهذه الصفاتُ لا يُمْكِنُ أنْ تقومَ إلا بحيٍّ، فثبتتْ بذلك صفةُ الحياةِ، قالوا: والحيُّ إما أن يكونَ سميعًا بصيرًا متكلمًا، أو أصمَّ أعمَى أخرسَ، والأولُ كمالٌ والثاني نقصٌ، واللهُ تعالى منزَّهٌ عن النقصِ، فوجب أن يكونَ سميعًا بصيرًا متكلمًا.

فنحن قد نوافِقُهم على هذا ونقولُ: العقلُ دلَّ على ذلك، لكنْ ما سوى هذه دلَّ عليها الشَّرْعُ، ونحن نتنزَّلُ معهم إلى آخرِ شيءٍ، نقولُ: ما سوى ذلك دلَّ عليه الشرعُ.

ومن المعلومِ أن انتفاءَ الدليلِ المُعَيَّنِ لا يستلزمُ انتفاءَ المدلولِ؛ لأنَّ الأدلةَ قد تتعدَّدُ على مدلولٍ واحدٍ، فإذا قَدَّرْنَا أن العقلَ لم يَدُلَّ على الصفاتِ التي أَثْبَتَهَا اللهُ لنفسِه سوى السبعِ، فقد دلَّ عليها الشرْعُ، والشرْعُ يَثْبُتُ بدليلٍ واحدٍ، وبدليلين، وبثلاثةٍ، المهمُّ أن يكونَ له دليلٌ، هذا جوابٌ.

جوابٌ آخرُ: أن نَمْنَعَ من كَوْنِ العقلِ لم يدلَّ على بقيَّةِ الصفاتِ، ونقولُ: بقيَّةُ الصفاتِ منها ما دلَّ عليه العقلُ، ومنها ما دلَّ عليه السَّمْعُ فقط، فمثلًا: إنزالُ

=

المطرِ، إنباتُ النباتِ، رَفْعُ الوباءِ، بَسْطُ الرزقِ، هذا من اللهِ ﷻ ويَدُلُّ على الرحمةِ دلالةً واضحةً أقوى من دلالةِ التخصيصِ على الإرادةِ؛ لأنَّ دلالةَ التخصيصِ على الإرادةِ لا يَفْهَمُ ذاك عن بيانٍ إلا طالبُ العلمِ المختصُّ، حتى طلبةُ العلمِ أحيانًا يقولون: كيف دلَّ التخصيصُ على الإرادةِ؟ ! لكن كَوْنَ هذه الأمورِ النافعةِ- حصولِ النِّعَمِ، واندفاعِ النِّقَمِ- تدلُّ على الرحمةِ هو واضحٌ حتى للعامِّيِّ، فالعامِّيُّ يَخْرُجُ من بيتِه في الصباح وقد جاء المطرُ في الليلِ، فيقولُ: مُطِرْنَا بفضلِ اللهِ ورحمَتِه وهو عامِّيٌّ!.

فنقولُ لهم: الآن ما نَفَيْتُمُوهُ زاعمين أن العقلَ لا يَدُلُّ عليه فَلَنَا عنه جوابان:

الجوابُ الأوَّلُ: أننا لا نُسَلِّمُ أن العقلَ لا يدلُّ عليه، بل نقولُ: إن العقلَ يدُلُّ عليه، وإن كان لا يدلُّ على كلِّ الصفاتِ لكن في الجملةِ.

ثانيًا: أن نقولَ: هبْ أن العقلَ لا يدلُّ عليه، لكن دلَّ عليه السمعُ- القرآنُ والسُّنَّةُ- ولا يلزمُ من انتفاءِ دلالةِ العقلِ ألا يَثْبُتَ الشيءُ بدليل آخَرَ؛ لأنَّ انتفاءَ الدليلِ المُعَيَّنِ لا يستلزمُ انتفاءَ المدلولِ، وهذه قاعدةٌ مفيدةٌ، وأَضْرِبُ لكم مثلًا بشيءٍ محسوسٍ، مَكَّةُ كم لها من طريقٍ؟ طرقٌ متعددةٌ، فإذا قُدِّرَ أن هذا الطريق يمتنعُ السيرُ معه؛ لوجودِ قُطَّاعِ طريقٍ، أو وجودِ أمطارٍ أَفْسَدَتْهُ، أو ما أَشْبَهَ ذلك، ألا يُمْكِنُ أن نَصِلَ إلى مَكَّةَ من طريقٍ آخَرَ؟ بلى، هكذا المعاني، إذا انتفى دليلٌ من الأدلَّةِ لكن وَجَدْنَا دليلًا آخرَ، هل ننكرُ هذا المدلولَ؛ لأنَّ أحدَ الأدلةِ غيرُ قائم؟ لا، نقولُ: ما دام هذا الدليلُ غَيْرَ قائمٍ فهناك دليلٌ آخَرُ؛ ولذلك هَدَى اللهُ أَهْلَ السُّنَّةِ والجماعةِ إلى القولِ الوسطِ: لا تمثيلَ ولا تعطيلَ.

قالوا: نُثْبِتُ للهِ ﷻ جميعَ ما وَصَفَ به نَفْسَهُ في القرآنِ، أو فيما صَحَّتْ به السُّنَّةُ، لاحظْ لا بُدَّ من القيدِ بالنسبةِ للسُّنَّةِ: فيما صَحَّتْ به السُّنَّةُ؛ لأنَّ من الأحاديثِ ما هو ضعيفٌ أو موضوعٌ، أمَّا القرآنُ فلا تَقُلْ: ما صحَّ في القرآنِ، فكُلُّهُ صحيحٌ، إنما

=

السُّنَّةُ لا بُدَّ أن تُقَيَّدَ: ما صَحَّتْ به السُّنَّةُ.

نُثْبِتُ كُلَّ صفةٍ، ولا نتحاشى، ولا نَتَهَيَّبْ إذا كان اللهُ ﷻ أثبَتَ لنفْسِه يدًا، وقال: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: ٦٤]، هل علينا أن نَتَهَيَّبَ من إثباتِ اليدِ؟ بل هل لنا أن نَتَهَيَّبَ؟ لا يَجُوزُ أبدًا، بل الهيبةُ أن نخالفَ، أَثْبِتِ اليدَ ولا تُبَالِ.

أَثْبَتَ رَبُّكَ لنفْسِه وَجْهَه، فلا تَتَهَيَّبْ من إثباتِ الوجْهِ، فالتهيُّبُ حقيقةٌ من نفيِ الوجْهِ، أما ما أَثْبَتَه اللهُ فيجبُ أن نُثْبِتَه لكن على هذه القاعدةِ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، فنقولُ: للهِ وجهٌ وليس كوجهِ المخلوقِ يقينًا.

فإن قال قائلٌ: ما دليلُك؟ ولماذا لا تَحْمِلُ الوجهَ على وجهٍ معروفٍ؟

فالجوابُ: دليلي: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}.

أَثْبَتَ اللهُ سبحانه وتعالى أنه يأتي يومَ القيامةِ {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر: ٢٢] أَتَتَهَيَّبُ أن تَصِفَ اللهُ بالمجيءِ؟ لا نَتَهَيَّبُ، نقولُ: نَصِفُ اللهَ بالمجيءِ لكن هل هو كمجيءِ المَلِكِ على فَرَسٍ، أو سَيَّارةٍ، أو ما أَشْبَهَ ذلك؟

الجواب: لا، يقينًا ليس كذلك، لكنه مجيءٌ يليقُ بجلالِهِ.

أَثْبَتَ اللهُ لنفْسِه أنه استوى على العرشِ في عِدَّةِ مواضعَ من القرآنِ تَبْلُغُ سبعًا بهذا اللفظِ {اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} هل تَتَهَيَّبُ أن تُثْبِتَ ذلك للهِ؟ لا، بل هو مستوٍ حقيقةً، أَتهيَّبُ أن أقولَ: {اسْتَوَى} بمعنى استولى؛ لأنَّ {اسْتَوَى} بمعنى استولى تحريفٌ للكَلِمِ عن مواضِعِه، لكنني أؤمنُ إيمانًا لا شكَّ فيه أن هذا الإستواءَ لا يُمَاثِلُ استواءَ المخلوقين في أيِّ حالٍ من الأحوالِ، استوائي على الفلك، أو على البعير لو أُزيلَ ما استويتُ عليه لسقطْتُ لا شكَّ، لكن استواءَ اللهِ على العرشِ ليس كذلك، ليس استواءَ احتياجٍ. أعني استواءُ اللهِ على العرشِ ليس استواءَ احتياجٍ إلى العرشِ؛ لأنَّ اللهَ غنيٌّ عن العرشِ وعن غيرِهِ، لكنه استواءُ عظمةٍ وسلطانٍ.

=

حَقِّقُوا العقيدةَ، لا تَغُرَّكُم الأوهامُ، وما ذنبُ الإنسانِ إذا قال: أنا أؤمنُ بكلِّ ما أَثْبَتَه لنفْسِه؟ ليس ذَنْبًا، بل هذا حقيقةُ الإنقيادِ والإستسلامِ للهِ ﷻ، لكن يجبُ شيءٌ واحدٌ، وهو أن تُؤْمِنَ بأنه لا مثيلَ له؛ لأنَّ اللهَ قال: {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} [النحل: ٧٤]، وقال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا} [البقرة: ٢٢]، وأشباهُ ذلك، وأنت يا أخي لا تَعْلَمُ الغيبَ، اللهُ ﷻ هو الذي يَعْلَمُ، وهو أَخْبَرَكَ عن نفْسِه بكذا، فقل: آمَنَّا وَصَدَّقْنَا.

وقد ذَكَرَ شيخُ الإسلامِ ﷫ أن المُعَطِّلَةَ أقسامٌ: قِسْمٌ عَطَّلوا البعضَ، وقِسْمٌ عَطَّلُوا الصفةَ دون الإسمِ، وقسْم عطَّلُوا الإسمَ والصفة، نفيًا لا إثباتًا؛ يعني بمعنى قالوا: لا نَصِفُ اللهَ بشيءٍ ثابتٍ، لكن نَصِفُه بالنَّفْي.

وقسمٌ قالوا: لا نَصِفُهُ لا بالنفي ولا بالإثباتِ، إن وصفناه بثابتٍ شَبَّهْنَاه بالموجوداتِ، وإن وَصَفْنَاه بمنفيٍّ شَبَّهْنَاه بالمعدوماتِ.

فائدةٌ: يجبُ أن نعرفَ أن التأويلَ يُرادُ به التفسيرُ، فيدخلُ فيه التضمينُ، وهذا هو الذي قال فيه الرسولُ ﷺ لابنِ عباسٍ: "اللهمَّ فَقِّهْهُ في الدينِ وعَلِّمْه التأويلَ" يعني: التفسيرَ.

أما التأويلُ المنهيُّ عنه في الصفاتِ، فهذا لا يسمى تأويلًا، هذا يسمى تحريفًا ولا يجوزُ أن نُسَمِّيَه تأويلًا، وإن سَمَّوْه هم تأويلًا، لكن هم يقولون: تأويلٌ كيلا ينفرَ الناسُ من صنيعِهم، لو قالوا: أهلُ التحريفِ والسلفِ لا يَقْبَلُهُم أحدٌ، فجاؤوا بالتأويلِ تلطيفًا.

ولهذا نظائرُ النصارى سموا في الأخير أنفسَهم مسيحيين؛ ليضْفُوا على مِلَّتِهم المنسوخةِ أنها شرعيةٌ، وأنهم أتباعُ المسيحِ والمسيحُ عليه الصلاة والسلام أبرأُ الناسِ منهم، ولو خرج لقاتَلَهم، وهم كاذبون على المسيحِ فيما يدَّعون، لكن سَمُّوا أنفسَهم بالمسيحيين يُضْفُون على أنفسِهم الشرعيَّةِ.

=

ونظيرُ ذلك أيضًا: الرافضةُ يرفضون اسمَ الرافضةِ ويغضبون عليك فسمُّوا أنفسَهم شيعةً، وأحقُّ أن يكونَ شيعيًّا أهلُ السنَّةِ؛ لأنَّهم هم الذين يحبون آلَ البيتِ محبَّةً سُنِّيَّةً شرعيَّةً، أما هؤلاء الرافضةُ فإنهم يحبون آلَ البيتِ محبَّةً شِرْكِيَّةً، أهلُ البيتِ يتبرؤون منهم بلا شكٍّ؛ ولهذا لما قال عبدُ اللهِ بنُ سبأٍ وجماعتُهُ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ: "أنت اللهُ حقًّا"، تبرأ منه، وأمرَ بالأخاديدِ فخُدَّت ومُلِئَتْ حطبًا وألقاهم في النارِ حرَقَهم من شدةِ ما أصابه منهم، إذن هل يُقالُ لهؤلاء الذين غالوا في آلِ البيتِ حتى أنزلوهم فوق منزلتِهم، هل يُقالُ: إنهم شيعةٌ لآلِ البيتِ؟ أبدًا واللهِ، هم أعدى عدوٍّ لآلِ البيتِ؛ لأنَّهم أنزلوهم فوق منزلتِهم، وقد قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: "ما أحبُّ أن تُنْزِلُوني فوق منزلتي التي أَنْزَلَني اللهُ"، وآلُ البيتِ مثلُ النبيِّ عليه الصلاة والسلام لا يحبون أن يُنْزَلُوا فوق منزلتهم التي أنزلهم اللهُ أبدًا.

فالضابط: أن دلَّ عَلَيْهِ الدليلُ فهو تأويلٌ، وإن لم يدلَّ عَلَيْهِ الدليلُ فهو تحريفٌ.

فإذا لَبِسْتَ ثوبَك، فقلتَ: أكلتُ خبزةً، تعني لَبِسْتَ ثوبك! هل له وجهٌ؟ فإذا كان التأويلُ ليس له وجهٌ، لا لغةً ولا شرعًا؛ فهو كُفرٌ؛ لأنَّه تكذيبٌ، ولهذا نقولُ: جَحْدُ الصفاتِ نوعان: إما تأويلًا، وإما تكذيبًا. إن كان تكذيبًا، فلا شكَّ أنه كُفْرٌ، لو قال قائلٌ: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]: إنه لم يستوِ على العرْشِ. فكَذبٌ، فنقولُ: كُفْرٌ؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ لو قال نعم: استوى على العرش لكن معناه استولى، قلنا: هذا تأويلٌ، ينظرُ إن كان للتأويلِ مساغٌ، إن دلَّ عَلَيْهِ دليلٌ أخذْنَا به، وإن لم يدلَّ عَلَيْهِ دليلٌ رَدَدْناه، لكن إن كان له مساغٌ لم يَكْفُرْ، وإن لم يَكُنْ له مساغٌ فإنه يَكْفُرُ.

فمثلًا: الَّذي أوحاه اللهُ إلى الرَّسولِ هو القرآنُ، إذن لم نُؤَوِّلْ، فهذا هو الَّذي أُوحِيَ إلى الرَّسولِ وسمَّاه اللهُ رُوحًا؛ لأنَّه تحيا به القلوبُ، واعلمْ أنَّنا نحن لا

=

نُنْكِرُ التَّأويلَ فقد نُؤَوِّلُ، لكن إذ دلَّ الدَّليلُ على التَّأويلِ فلا بَأْسَ، فنقولُ في قولِهِ تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ} [النَّحل: ٩٨] نقولُ: إذا أَرَدْتَ أن تَقْرَأَ. وظاهِرُ الآية: إذا فَرَغْتَ من القراءةِ فاسْتَعِذْ، والسُّنَّةُ بَيَّنَتْ هذا، فنحن لا نُنْكِرُ التَّأويلَ؛ لأنَّ التَّأويلَ الَّذي دلَّ عَلَيْهِ اللفظُ تفسيرٌ، إنَّما نُنْكِرُ التَّأويلَ الَّذي هو التَّحْريفُ، وهو التَّأويلُ بدونِ دليلٍ.

وقولُهُ تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} نرى في بعضِ الكتبِ: إن اللهَ لا شبيهَ له. فهل هذا التعبيرُ يماثِلُ قولَنا: إن اللهَ لا مثيلَ له؟ لا؛ ولهذا التعبيرُ بقولِنا: نؤمنُ بإثباتِ ذلك بلا تمثيلٍ خيرٌ من التعبيرِ بقولِنا: نُثْبِتُ ذلك بلا تشبيهٍ، مع أننا نرى أكثرَ الكُتُبِ التي بأيدينا أنهم يقولون: بلا تشبيهٍ، لكن هذا نَقْصٌ، التعبيرُ بلا تمثيلٍ أَوْلَى:

أولًا: لأنه تعبيرُ القرآنِ، وكلما أَمْكَنَك أن تُعَبِّرَ بالقرآنِ أو السُّنَّةِ عن المعاني التي تريدُ فهو أَوْلَى.

ثانيًا: أن التشبيهَ عند قومٍ يَعْنُون به إثباتَ الصفاتِ، ويقولون: كلُّ من أَثْبَتَ للهِ صفةً فهو مُشَبِّهٌ، فإذا قلتَ: بلا تشبيهٍ، وكان هذا المخاطَبُ لا يَفْهَمُ من التشبيهِ إلا الإثباتَ، فَهِمَ منك أنك لا تُثْبِتُ شيئًا، ثم إن التشبيهَ أيضًا له احتمالاتٌ، إن نَفَيْتَ التشبيهَ من كلِّ وجهٍ فهذا لا يُمْكِنُ؛ لأنَّه لا بُدَّ أن يشتركَ الخالقُ والمخلوقُ في أصلِ الصفةِ، فالحياةُ مثلًا عندنا حياةٌ، واللهُ تعالى حيٌّ، أصلُ الحياةِ موجودٌ، لكن المنفيَّ هو أن تكونَ حياتُنا مماثلةً لحياةِ اللهِ، السمعُ موجودٌ فينا وموجودٌ عند اللهِ ﷻ فإن اللهَ تعالى سميعٌ، فلا بدَّ من اشتراكٍ في الأصلِ، وُجُودُنا: نحن موجودون والرَّبُّ ﷻ كذلك واجبُ الوُجُودِ، وهلمَّ جرًّا، فصار التعبيرُ بنفيِ التمثيلِ أَوْلى من التعبيرِ بنفيِ التَّشْبيهِ.

ونقُولَ لهؤلاء القوم قُولوا: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا} [آل عمرانَ: ٨]

فالقلبُ إذا زاغ- والعياذُ باللهِ- انقلب الحقُّ عنده باطلًا، وانقلب الباطلُ حقًّا، وإلا فكيف نقولُ: يقصدُ التمثيلَ؟ فأنت لو أَخْبَرْتَنِي أنك رأيتَ الفيلَ، هل أَتَصَوَّرُ أن الفيلَ مثلُ الإنسانِ؟ لا أَتَصَوَّرُ هذا، إن كنتُ قد رأيتُ الفيلَ عَرَفْتُ الفَرْقَ، وإن لم أَكُنْ رأيْتُه، فأنا أَعْلَمُ بأن بينهما فَرْقًا؛ لأنَّه لو لم يَكُنْ فَرْقٌ لكان الفيلُ آدميًّا، ولا تَسْتَغْرِبُ الإنسانُ- والعياذُ باللهِ- إذا طَمَسَ اللهُ على قَلْبِهِ رأى الباطلَ حقًّا، والحقَّ باطلًا.

والآنَ ما أَعْظَمَ كلامَ الرَّبِّ ﷻ وقد قال اللهُ تعالى: {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [المطفِّفين: ١٣] حِكاياتٌ لا يُتَصَوَّرُ لها معنًى يُوجِبُ الإيمانَ، قال اللهُ ﷻ: {كَلَّا} يعني ليست أساطيرَ الأوَّلِينِ {بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطفِّفين: ١٤].

مسألة: خطباءُ الأشاعرةِ يُحَدِّثُون بمذهبِهم، وَيذْكُرُون أنَّ عُلماءَهم ابْنَ حجرٍ والنَّوَوِيَّ والعزَّ بْنَ عبدِ السلامِ!.

فالجوابُ: إذا قالوا: ابْنُ حجرٍ والنوويُّ، أما ابْنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فأنا رأيي فيه أنه ليس على طريقةِ الأشعريَّةِ، فالرجلُ متذبذبٌ أحيانًا يتكلَّمُ بكلامٍ هو كلامُ أهلِ السُّنَّةِ مئةً بالمئةِ، وأحيانًا يَنْقُلُ كلامَ الأشاعرةِ وهو أحيانًا يَنْقُلُ عن شيخِ الإسلامِ مقرِّرًا قولَهُ.

وأما النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فصحيحٌ على مذهبِ الأشاعرةِ في جميع ما قرأْتُ له من كتبٍ، لكن إذا قابلونا بفلانٍ وفلانٍ نقولُ: هل أنتم تعرفون الحقَّ بالرجالِ أم الرجالَ بالحقِّ؟

إن قالوا: نعرفُ الحقَّ بالرجالِ كان عندنا شيخُ الإسلامِ ابن تيميَّةَ، وابنْ القَيِّمِ، والإمامُ أحمدُ، وغيرُهُم من العلماءِ الفحولِ، فهؤلاء مقابلَ هؤلاء، ثم لدينا شيءٌ فوق الجميعِ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ائتونا بدليلٍ واحدٍ يؤيِّدُ مذهبَ الأشاعرةِ، يقولُ:

استوى بمعنى استولى، لا أحدَ منهم قال: استوى بمعنى استولى، كُلُّهُم يقول: استوى بمعنى علا. عَلِمْنا هذا بأنهم يقرؤون القرآنَ، ويعرفون معناه ولم يأتِ عن أحدٍ منهم قولٌ بصرْفِ اللفظِ عن ظاهِرِه، الحمدُ للهِ الحقُّ واضحٌ، فلو قال لنا قائلٌ: إن الصحابةَ أجمعوا على أن معنى قولِهِ تعالى: {اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} علا عَلَيْهِ، فلا يُمْكِنُ لأحدٍ أن ينازعَ ويقولَ: لم يُجْمِعوا؛ لأننا نَعْلَمُ أن الصحابةَ يقرؤون القرآنَ ويُنْزِلُون معناه على اللغةِ العربيَّةِ، واللغةُ العربيةُ في جميعِ مواردِها أنه إذا تَعَدَّتْ (استوى) بـ (علا) فالمرادُ العُلُوُّ.

أمَّا مَن قالَ عَن كُتب النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ: يَجب أن تُحرق، فهذا غلَط منه؛ فكيف نَدَعُ الإستفادةَ من هذه الكُتُبِ العظيمةِ والخطأُ فيها لا يُمَثِّلُ ولا عُشْرَ عُشْرِ المِعشارِ، قال ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابِهِ (القواعدُ الفقهيَّةُ): "ويأبى اللهُ العِصْمةَ لكتابٍ غير كتابِهِ، والمُنْصِفُ من اغتفر قليلَ خطأِ المرءِ في كثيرِ صوابِه". صحيحٌ هذا الإنصافُ، ولا تكادُ تَجِدُ مؤلفًا إلَّا وفيه الخطأُ إمَّا متعمَّدًا أو غيرَ مُتَعَمَّدٍ {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النِّساءِ: ٨٢].

ثم قال تعالى: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} هذا ردٌّ على المُعَطِّلَةِ، والجملةُ الأولى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} على المُمَثِّلَةِ، السميعُ أي: ذو السمعِ، وسَمْعُ الله عَزَّوَجَلَّ له معنيان:

المعنى الأوَّلُ: الإستجابةُ؛ كقولِهِ تعالى: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيمَ: ٣٩]، معنى سميعٌ: أي: مستجيبٌ، وليس المرادُ أنه يَسْمَعَه فقط؛ لأنَّ مُجَرَّدَ كَوْنِهِ يَسْمَعُه ولا يستجيبُ قليلُ الفائدةِ، لكنَّ {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} أي: مستجيبُهُ واستجابتُهُ إياه تستلزمُ سَمَاعَه لا شَكَّ.

ومن ذلك أيضًا - أي: من كونِ السماعِ بمعنى الإستجابةِ - قولُ المصلِّي: سَمِعَ اللهُ لمن حَمِدَه، ومعنى سَمِعَ أنه استجابَ له؛ لأنَّهُ كما قُلْتُ لكم: مجرَّدُ سماعٍ

=

الصوتِ لا يفيدُ شيئًا بالنسبةِ للداعي؛ ولهذا لو قال لك إنسانٌ: يا فلانُ أرجو أن تساعدَني تقولُ: أسمعُ يعني أسمعُ بأذني، فلا يستفيدُ من هذا؛ لأَنَّه سيقولُ لك: إذا كنتَ تَسْمَعُ فأعطِني، فصار كلُّ ما أضيفَ للدعاءِ من السمعِ معناه الإستجابةُ.

النوعُ الثاني من السمعِ: إدراكُ المسموعاتِ: بمعنى أنه لا يخفى على اللهِ أيُّ صوتٍ، قَرُبَ أم بَعُدَ خَفِيَ أم بانَ، فإن اللهَ يسمعُ كلَّ شيءٍ، أرأيتُم قولَهُ تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا} [المجادَلة: ١]؟ اللهُ في السماءِ على العرشِ، والمكانُ الذي كانت هذه تشتكي فيه في الأرضِ، تقولُ عائشةُ ﵂: الحمدُ للهِ الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتَ لقد كانت تجادلُ الرسولَ عليه الصلاة والسلام وإني لفي الحُجْرَةِ يخفى عليَّ بعضُ حديثِها، وهي في الحجرةِ واللهُ ﷻ لم يَخْفَ عَلَيْهِ شيءٌ، سَمِعَ المجادِلَةَ، وسمعَ التحاوُرَ، وأَنْزَلَ حلَّ المُشْكِلةِ.

إذن السمعُ بمعنى: سَمْعُ الإدراكِ شاملٌ لكلِّ صوتٍ، ثم هذا السمعُ إما أن يكونَ للتأييدِ، أو للتهديدِ، أو للإحاطةِ، ثلاثةُ أقسامٍ:

الأول: التأييدُ: مِثْلُ قولِهِ تبارك وتعالى لموسى وهارون: {لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦] لماذا قال اللهُ ﷻ: {أَسْمَعُ وَأَرَى} تأييدًا لهما. يعني أَسْمَعُ ما تقولان وما يقالُ لكما، والأمرُ أَمْرُهُ ﷻ. هذا سماعٌ يُرادُ به التأييدُ.

الثاني: ما يُرادُ به التهديدُ: مِثْلَ قولِ اللهِ تبارك وتعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزُّخرُفِ: ٨٠] ليس المرادُ بهذه الآيةِ مُجَرَّدَ أن اللهَ يُخْبِرُ أنه يَسْمَعُ سِرَّهم ونجواهم، المرادُ بذلك التهديدُ، ونظيرُ هذا قولُهُ تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آلِ عمرانَ: ١٨١]، فهذا تهديدٌ، بدليل قولِهِ: {سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا} [آلِ عمرانَ: ١٨١].

الثالثُ: الإحاطةُ: أن يُخْبِرَ مِثْلَ: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} هذا إخبارٌ بأنه تعالى

=

=

محيطٌ بكلِّ شيءٍ سمعًا، وكما في قصةِ المجادِلَةِ فإن اللهَ تعالى أَخْبَرَ بذلك؛ لِيُعْلِمَنَا أنه محيطٌ بها.

وقولُهُ تعالى: {الْبَصِيرُ} له معنيان: المعنى الأوَّلُ: إدراكُ الشيءِ بالبصرِ، والثاني: العِلْمُ.

فهنا البصيرُ تَشْمَلُ المعنَيَيْن، فَبَصَرُ اللهِ تعالى محيطٌ بكلِّ شيءٍ لا يخفى عَلَيْهِ، والدليلُ على أنَّ البصيرَ تَتَضَمَّنُ البصرَ قولُهُ في الحديثِ الصحيح: "حِجَابُهُ النورُ لو كَشَفَه لأحرقتْ سُبُحَاتُ وَجْهِه ما انتهى إليه بَصَرُهُ من خَلْقِهِ". يعني لأَحْرَقَتْ كلَّ شيءٍ؛ لأنَّ بَصَرَ اللهِ ينتهي إلى كلِّ شيءٍ، فالمعنى لأحرقتْ هذه السُّبُحَاتُ- والسُّبُحَاتُ هي البهاءُ والعظمةُ- كلَّ شيءٍ، لا إلهَ إلا اللهُ، بصيرٌ بمعنى عليمٌ، مِثْلَ قولِهِ تعالى: {بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحُجُراتِ: ١٨]، ومعلومٌ أننا نَعْمَلُ أشياءَ لا تُرى، في قلوبِنَا أشياءُ لا تُرى واللهُ يَعْلَمُها.

فإذن البصيرُ من أسماءِ اللهِ ﷻ أي: ذو البصرِ، وله معنيان:

الأول: بصيرٌ بمعنى إدراكُ المَرْئِيَّاتِ لِبَصَرِه.

والثاني: بمعنى العليمِ.

فإذا سَمِعْت أسماءَ اللهِ وصفاتِهِ فليس المقصودُ أن نَعْلَمَ المعنى فقط، بل أن نَتَعَبَّدَ للهِ بها، فإذا عَلِمْنَا أنه سميعٌ أَوْجَبَ لنا أن نخافَ من قولٍ يُغضبُ اللهَ؛ لأنَّ اللهَ يسمعُ، إذا عَلِمْنَا أنه بصيرٌ أَوْجَبَ لنا أن نَحْذَرَ من كلِّ فعلٍ يُغْضِبُ اللهَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يُبْصِرُهُ ويَرَاه.

ففي هذه الأسماءِ- التي يُخْبِرُنَا اللهُ بها- تربيةٌ للإنسانِ أن يَحْذَرَ اللهَ ﷻ من أن يخالفَه بقولٍ أو فِعْلٍ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، ولَعَلَّنا أَشْبَعْنَا إن شاءَ اللهُ الكلامَ في هذا، وأهمُّ شيءٍ أن تَبْنِيَ عقيدَتَك على أَمْرَيْنِ: إثباتِ ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفْسِه في القرآنِ أو السُّنَّةِ، والثاني: نَفْيُ المماثَلَةِ، أنه لا مثيلَ له.

=

=

بَقِيَ شيءٌ آخرُ هل علينا أن نُكَيِّفَ الصفةَ بدونِ أن نَذْكُرَ مماثلًا؟

الجوابُ: لا يَجُوزُ أن نُكَيِّفَ الصفةَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [الإسراء: ٣٦]، وقال ﷻ: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣]، هل أنت عَلِمْتَ كيفيَّةَ صفاتِ اللهِ ﷻ؟

الجواب: لا، أنا أؤمنُ بأنه يَنْزِلُ، لكن لا أدري كيف يَنْزِلُ، أؤمنُ بأنه استوى على العرشِ، ولكن لا أدري كيف استوى، فالكيفيَّةُ لا يجوزُ للإنسانِ أن يتخيَّلَها، ولا يجوزُ أن ينطقَ بها؛ لأنَّ اللهَ تعالى أعظمُ من كلِّ تَخَيُّلٍ تتخيَّلُه؛ ولأنك لو تَخَيَّلْتَ فإنك سوف تعبُدُ صنمًا؛ لأنَّ هذا المتخيَّلُ لا بُدَّ أن يكونَ عندك تَصَوُّرٌ أنك تَعْبُدُ هذا الذي تَخَيَّلْتَهُ، فتكونُ من جنسِ المُمَثِّلِين. وفي مُقَدِّمَةِ النونيَّةِ لابْنِ القَيِّمِ قال: "المُعَطِّلُ يَعْبُدُ عدمًا، والمُمَثِّلُ يَعْبُدُ صنمًا".

إذن: لا تَتَخَيَّلِ الْكَيفيَّةَ؛ ولهذا جاء في الأثرِ: "تَفَكَّرُوا في آياتِ اللهِ، ولا تُفَكِّرُوا في ذاتِ اللهِ"، الآياتُ تُفَكِّرُ فيها؛ السماءُ، الأرضُ، النجومُ، البَشَرُ، المخلوقاتُ الأخرى، تُفَكِّرُ فيها بِقَدْرِ ما تستطيعُ؛ لِتَسْتَدِلَّ بها على الخالِقِ ﷻ، لكن في ذاتِ اللهِ لا تَتَفَكَّرْ.

فإن قال قائلٌ: هل لنا أن نَتَفَكَّرَ في معاني أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ؟

فالجوابُ: نعمْ، بل يجبُ أن نَتَفَكَّرَ في المعنى، والمعنى غيرُ الكيفيَّةِ، سُئِلَ الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ اللهُ قيلَ له وهو يُدَرِّسُ في الحلْقَةِ: يا أبا عبدِ اللهِ {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} كيف استوى؟ فقام الإمامُ مالكٌ يتصبَّبُ عرقًا، وأَطْرَقَ رأسَهُ حياءً وخجلًا، ومن كان باللهِ أَعْرَفَ كان منه أَخْوَفَ، نحن تَمُرُّ علينا هذه الكلمةُ مرَّ الرياحِ لا تُؤَثِّرُ في القلوبِ شيئًا، لكنَّ أهلَ المعرفةِ باللهِ الذين هم أهلُهُ، لا بدَّ أن

=

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢).

{لَهُ مَقَالِيد السَّمَاوَات وَالْأَرْض} أَيْ مَفَاتِيح خَزَائِنهمَا مِنْ الْمَطَر وَالنَّبَات وَغَيْرهمَا {يَبْسُط الرِّزْق} يُوَسِّعهُ {لِمَنْ يَشَاء} امْتِحَانًا {وَيَقْدِر} يُضَيِّقهُ لِمَنْ

=

يتأثروا، أَطْرَقَ برأسِهِ وقام يتصبَّبُ عرقًا، ثم رَفَعَ رَأْسَه وقال: يا هذا الإستواءُ غير مجهولٍ، والكيفُ غير معقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ، وما أُراك- يعني ما أَظُنُّكَ- إلا مُبْتَدِعًا، ثم أمرَ به فأُخْرِجَ، فلا مقامَ له عنده.

هؤلاء هم الرجالُ، فالمعاني معلومةٌ ولا يُمْكِنُ أن يخاطِبَنا اللهُ ﷻ بما لا نَعْلَمُ أبدًا، لكن الكيفيَّاتِ مجهولةٌ.

فإن قال قائلٌ: كيف أَتَصَوَّرُ المعنى ولا أَتَصَوَّرُ الكيفيَّةَ؟

قلنا: هذا سهلٌ، الآن لو أقولُ لك: فلانٌ صَعِدَ على السَّطْحِ. تَعْرِفُ معنى صَعِدَ، لكن لا تَعْرِفُ كيف صَعِدَ، مع أنه مِثْلُكَ، لا تَعْرِفُ كيف صَعِدَ فمن الممكنِ أنه صَعِدَ على يديه ورِجْلَيْهِ، أو صَعِدَ بسيَّارَةٍ، أو صَعِدَ محمولًا.

فإذن عقلُ المعنى دون الكيفيَّةِ أمرٌ واقعٌ، فنحن نؤمنُ بأن اللهَ ﷻ استوى على العَرْشِ، لكن لا نُكَيِّفُ ذلك، ولا ندري كيفيَّتَهُ، وما لا ندري كيفِيَّتَه لا يجوزُ أن نتكلَّمَ فيه، كما قال ﷻ: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٦].

أرجو اللهَ تعالى أن يَنْفَعَ بهذا الكلام؛ لأنَّه كلامٌ مهمٌ جدًّا، فهُو كلامٌ في العقيدةِ، ولا يُمْكِنُ أن يستريحَ الإنسانُ راحةً نفسيَّةً، ولا أن يتخلَّى عن الشُّبُهاتِ إلا إذا لَزِمَ مَذْهَبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، نُثْبِتُ للهِ ما أَثْبَتَه لنفْسِه، وننفي ما نفاه عن نَفْسِه، وإثباتُنا إثباتُ تنزيهٍ لا إثباتُ تمثيلٍ، ونَفْيُنا نفيُ تنزيهٍ أيضًا لا نَفْيُ تعطيلٍ، واللهُ المُوَفِّقُ.

يَشَاء ابتلاء {إنه بكل شيء عليم[١]}.

---

(١) قوله تعالى: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الشورى:١٢]، أي:"له سبحانه وتعالى ملك السماوات والأرض، وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق".

قال الطبري: يعني:"له مفاتيح خزائن السموات والأرض وبيده مغاليق الخير والشر ومفاتيحها، فما يفتح من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده".

قال السعدي: "أي: له ملك السماوات والأرض، وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق، والنعم الظاهرة والباطنة. فكل الخلق مفتقرون إلى الله، في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، في كل الأحوال، ليس بيد أحد من الأمر شيء".

وفي قوله تعالى: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الشورى:١٢]، وجهان من التفسير:

أحدهما: خزائن السموات والأرض، قاله السدي.

قال ابن عطية:"هذه عبارة غير جيدة".

الثاني: مفاتيح السموات والأرض، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك.

ثم فيهما قولان:

أحدهما: أنه «المفاتيح» بالفارسية، قاله مجاهد.

قال ابن الجوزي:"قرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي: الإقليد: المفتاح، فارسي معرَّب، قال الراجز:

لَمْ يُؤْذِها الدِّيكُ بصوتِ تَغْرِيدْ... ولَمْ تُعالِجْ غَلَقًا باقْليدْ".

وقال مقاتل:"يعنى: مفاتيح بلغة النبط".

وقال ابن زيد:"مفاتيح خزائن السماوات والأرض".

الثاني: أنه عربي جمع واحده: «إقليد»، قاله ابن عيسى، وابن قتيبة.

=

=

وقال أبو عبيدة:"واحدها: مقليد، وواحد الأقاليد: إقليد".

قال النحاس:"واحدها: مقليد، وأكثر ما يستعمل فيه: إقليد".

وفيما هو مفاتيح السموات والأرض خمسة أقوال:

أحدها: أن مفاتيح السماء: المطر، ومفاتيح الأرض: النبات. قاله مقاتل.

قال الكلبي:"خزائن المطر، وخزائن النبات".

الثاني: أنها مفاتيح الخير والشر.

الثالث: أن مقاليد السماء: الغيوب، ومقاليد الأرض: الآفات.

الرابع: أن مقاليد السماء: حدوث المشيئة، ومقاليد الأرض: ظهور القدرة.

الخامس: أنها قول: «لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، بيده الخير يحيي ويميت وهوعلى كل شيء قدير». رواه ابن عمر عن النبي -ﷺ- أنه قاله وعلمه لعثمان بن عفان وقد سأله عن مقاليد السماء والأرض.

روي عن عثمان بن عفان ﵁: "أنه سأل رسول الله ﷺ، عن تفسير له مقاليد السماوات والأرض فقال: «ما سألني، عنها أحد قبلك يا عثمان» قال: «تفسيرها: لا إله إلا الله، والله أكبر وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله ولا قوة إلا بالله، الأول والآخر والظاهر والباطن، بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير من قالها يا عثمان إذا أصبح عشر مرات أعطي خصلا ستا أما أولاهن: فيحرس من إبليس وجنوده، وأما الثانية فيعطى قنطارا من الأجر، وأما الثالثة: فترفع له درجة في الجنة، وأما الرابعة: فيتزوج من الحور العين، وأما الخامسة: فيحضره اثنا عشر ملكا، وأما السادسة: فيعطى من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور. وله مع هذا يا عثمان من الأجر كمن حج وتقبلت حجته، واعتمر فتقبلت عمرته، فإن مات من يومه طبع بطابع الشهداء".

=

=

قال الزجاج:"أي: مفاتيح السماوات، المعنى: ما كان من شيء من السماوات والأرض فالله خالقه وفاتح بابه".

وقال الراغب:"أي: ما يحيط بها،، وقيل: خزائنها، وقيل: مفاتحها، والإشارة بكلها إلى معنى واحد، وهو قدرته تعالى عليها وحفظه لها".

قال الزمخشري:"أي: هو مالك أمرها وحافظها، وهو من باب الكناية، لأنّ حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي يملك مقاليدها، ومنه قولهم: فلان ألقيت إليه مقاليد الملك".

قال ابن عطية:"وهذه استعارة كما تقول: بيدك يا فلان مفتاح هذا الأمر، إذا كان قديرا على السعي فيه".

قوله تعالى: {يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} [الشورى:١٢]، أي:"يوسِّع رزقه على مَن يشاء مِن عباده ويضيِّقه على مَن يشاء".

قال الطبري:"يقول: يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه، ويبسط له، ويكثر ماله ويغنيه. ويقدر: يقول: ويقتر على من يشاء منهم فيضيقه ويفقره".

قال الفراء:"أي: يوسع ويقدر، أي: يقدر ويقتر".

قال أبو عبيدة:"{يبسط}: يوسّع ويكثّر، {وَيَقْدِرُ}: من قول الله: {قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ} ".

قال السعدي: **"**أي: يوسعه ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء، {وَيَقْدِرُ} أي: يضيق على من يشاء، حتى يكون بقدر حاجته، لا يزيد عنها، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته".

قال الحسن:"يبسط لهذا مكرا به ويقدر لهذا نظرا له".

عن الحسن:"{إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ}، قال: ينظر له، فإن كان الغنى خيرا له أغناه وان كان الفقر خير له أفقره".

=

=

قوله تعالى: {إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الشورى:١٢]، أي:"إنه تبارك وتعالى بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء من أمور خلقه".

قال الطبري:"يقول: إن الله تبارك وتعالى بكل ما يفعل من توسيعه على من يوسع، وتقتيره على من يقتر، ومن الذي يصلحه البسط عليه في الرزق، ويفسده من خلقه، والذي يصلحه التقتير عليه ويفسده، وغير ذلك من الأمور، ذو علم لا يخفى عليه موضع البسط والتقتير وغيره، من صلاح تدبير خلقه".

قال السعدي: "فيعلم أحوال عباده، فيعطي كلا ما يليق بحكمته وتقتضيه مشيئته".

عن محمد بن إسحاق، قوله: "{عليم}، أي: عليم بما تخفون".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} {لَهُ} أي: للهِ وَحْدَهُ، وإنما قلنا: وَحْدَهُ؛ لأنَّ تقديمَ الخبرِ يدلُّ على الحصْرِ، بل القاعدةُ أوسعُ من هذا: تقديمُ ما حقُّهُ التأخيرُ يُفيدُ الحصرَ، حتى لو قلتَ: زيدًا أَكْرَمْتُ. يعني: أنك لم تُكْرِمْ غَيْرَهُ؛ لأنك قَدَّمْتَ المعمولَ فنقولُ له: أيْ لا لغيرِه.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أيْ: مفاتيحَ خَزَائِنِهِما]. فَجَعَلَ المقاليدَ بمعنى مفاتيحَ.

ولكن من حيث اللغةُ العربيَّةُ لا تتناسبُ مع الإشتقاقِ؛ لأنَّ (مقاليدَ) مأخوذٌ من القلادةِ؛ يعني: أزمَّةُ الأمورِ في السَّمواتِ والأرضِ كُلُّهَا بيدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، كما تقولُ: قلادةُ البعيرِ؛ لأنك تَجُرُّها بها، فالظاهرُ- واللهُ أَعْلَمُ- أن المفسِّرَ رَحِمَهُ اللهُ فَسَّرَها بما يخالفُ الظاهرَ.

لكنَّ بعضَ الناسِ يقولُ: إن (مقاليدَ) اسمٌ أعجميٌّ مُعَرَّبٌ والمقلادُ بمعنى المفتاحِ، لكن هذا قولٌ ضعيفٌ بلا شكٍّ؛ لأنَّه يجبُ ألا نَلْجَأَ إلى التعريبِ إلا للضرورةِ، يعني: لا يُمْكِنُ أن نقولَ: هذه كلمةٌ أصْلُها فارسيَّةٌ، أصْلُها روميَّةٌ،

=

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣).

{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّين مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا} هُوَ أَوَّل أَنْبِيَاء الشَّرِيعَة {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْك وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيم وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّين وَلَا تَتَفَرَّقُوا

=

أَصْلُها كذا، وعُرِّبَتْ، لا يَجوزُ أن نَعْدِلَ إلى هذا إلا عند الضرورةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ القرآنَ عربيًّا، فإذا قلنا: فيه كلمةٌ عربيَّةٌ أَصْلُها غيرُ عربيٍّ، فهذا خلافُ ظاهرِ القرآنِ، لكن إذا اضْطُرِرْنَا إلى هذا بأنْ لم نجدْ لهذه الكلمةِ أصْلًا في اللغةِ؛ حينئذٍ نقولُ: مُعَرَّبَةٌ.

فـ(مقاليدُ) لها أَصْلٌ مأخوذةٌ من القلادةِ التي تُقادُ بها البعيرُ، فمعنى مقاليدَ؛ أي: أَزِمَّةُ الأمورِ في السَّمواتِ والأرضِ له وَحْدَهُ، أما المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: [مفاتيحُ خزائِنِهما من المطرِ والنباتِ وغيرِهما].

وقوله: {يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ} {يَبْسُطُ} يعني: يُوَسِّعُ {وَيَقْدِرُ} يعني: يُضَيِّقُ، الْبَسْطُ وَالْقَدر امتحانٌ وابتلاءٌ؛ لأنَّ من الناسِ من لا يُصْلِحُهُ إلا الفقرُ، ومن الناسِ من لا يُصْلِحُه إلا البسطُ، وفي الحديثِ القدسيِّ: "إنَّ مِن عبادِي لو أَغْنَيْتُه لأَفْسَدَه الغِنى، وإنَّ مِن عِبادِي لو أَفْقَرْتُه لأفْسَدَه الفقرُ".

يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{يَبْسُطُ الرِّزْقَ}- والمرادُ بالرِّزْقِ العطاءُ- يُوَسِّعُهُ {لِمَنْ يَشَاءُ} امتحانًا {وَيَقْدِرُ} يُضَيِّقُهُ لمن يشاءُ ابتلاءً] امتحانًا هل يَشْكُرُ أو لا يَشْكُرُ، ابتلاءً هل يَصْبِرُ أو لا يَصْبِرُ.

وقوله: {إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} إنه عليمٌ بكلِّ شيءٍ، فهو يَعْلَمُ أن البَسْطَ لهذا أَفْضَلُ، وأن التضييقَ لهذا أَفْضلُ.

فِيهِ} هَذَا هُوَ الْمَشْرُوع الْمُوصَى بِهِ وَالْمُوحَى إلَى مُحَمَّد ﷺ وَهُوَ التَّوْحِيد {كَبُرَ} عَظُمَ {عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إلَيْهِ} مِنْ التَّوْحِيد {الله يَجْتَبِي إلَيْهِ} إلَى التَّوْحِيد {مَنْ يَشَاء وَيَهْدِي إلَيْهِ مَنْ يُنِيب} يُقْبِل إلَى طاعته[1].

---

(١) قوله تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى} [الشورى:١٣]، أي:"شرع الله لكم-أيها الناس- من الدِّين الذي أوحيناه إليك-أيها الرسول، وهو الإسلام- ما وصَّى به نوحًا أن يعمله ويبلغه، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {شَرَعَ لَكُمْ} ربكم أيها الناس {مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا} أن يعمله، وشرع لكم من الدين الذي أوحينا إليك يا محمد، فأمرناك به، {وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى} ".

قال ابن كثير:"فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح، عليه السلام وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، عليهم السلام. وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية "الأحزاب" عليهم في قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} الآية [الأحزاب: ٧]. والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة

الله وحده لا شريك له، كما قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥]. وفي الحديث: «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد»، أي: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨] ".

قال مقاتل:"يقول: بين لكم، ويقال: سن لكم آثار الإسلام، والـ «من»-ها هنا- =

=

صلة كـ «ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك»، فيه تقديم، «وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى» ".

قال مجاهد:"يقول: أوصاك به يا محمد وأنبياءه كلهم بالإسلام دينا واحدا".

وقال مجاهد في رواية أخرى:"ما أوصاك به وأنبيائه، كلهم دين واحد".

عن السديّ، قوله: "{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا}، قال: هو الدين كله".

عن قتادة:"{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا}، قال: الحلال والحرام".

قال قتادة:"بعث نوح حين بعث بالشريعة بتحليل الحلال، وتحريم الحرام".

قال سهل:"فأول من حرم البنات والأمهات والأخوات نوح عليه السلام، فشرع الله لنا محاسن شرائع الأنبياء، {وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى} من إقامة الطاعة لله وإقامة الإخلاص فيها، وإظهار الأخلاق والأحوال".

عن ابن عباس، قوله: "{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا}.... إلى آخر الآية، قال: حسبك ما قيل لك".

قال السعدي:"هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها، وأزكاها وأطهرها، دين الإسلام، الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده، بل شرعه الله لخيار الخيار، وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون في هذه الآية، أعلى الخلق درجة، وأكملهم من كل وجه،

فالدين الذي شرعه الله لهم، لا بد أن يكون مناسبا لأحوالهم، موافقا لكمالهم، بل إنما كملهم الله واصطفاهم، بسبب قيامهم به، فلولا الدين الإسلامي، ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة، وقطب رحى الكمال، وهو ما تضمنه

=

=

هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب".
قوله تعالى: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى:١٣]، أي:"وصيناهم بأن أقيموا الدين بالتوحيد وطاعة الله وعبادته دون مَن سواه، ولا تختلفوا في الدين الذي أمرتكم به".
قال الطبري:"الذي أوصى به جميع هؤلاء الأنبياء وصية واحدة، وهي إقامة الدين الحق-أي: أن اعملوا به على ما شرع لكم وفرض-، ولا تختلفوا في الدين الذي أمرتم بالقيام به، كما اختلف الأحزاب من قبلكم".
قال ابن كثير:"أي: وصى الله سبحانه وتعالى جميع الأنبياء، عليهم السلام، بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف".
قال السعدي:"أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى ولا تعاونون على الإثم والعدوان. {وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}، أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزابا، وتكونون شيعا يعادي بعضكم بعضا مع اتفاقكم على أصل دينكم. ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه، ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج والأعياد، والجمع والصلوات الخمس والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق".
عن السديّ، قوله: "{أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ}، قال: اعملوا به".
عن قتادة، قوله: "{وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}، تعلموا أن الفرقة هلكة، وأن الجماعة ثقة".
قال الزمخشري:"ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}، والمراد: إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله وكتبه، وبيوم الجزاء، وسائر ما يكون الرجل

=

=

بإقامته مسلما، ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها، فإنها مختلفة متفاوتة. قال الله تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨] ".

قوله تعالى: {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} [الشورى:١٣]، أي:"عَظُمَ على المشركين ما تدعوهم إليه من توحيد الله وإخلاص العبادة له".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: كبر على المشركين بالله من قومك يا محمد ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لله، وإفراده بالألوهية والبراءة مما سواه من الآلهة والأنداد".

قال مقاتل:"يقول: عظم على مشركي مكة ما تدعوهم إليه يا محمد لقولهم: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: ٥]، يعني: التوحيد".

قال ابن كثير:"أي: شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد".

قال السعدي:"أي: شق عليهم غاية المشقة، حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده، كما قال عنهم: {وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} وقولهم: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} ".

عن قتادة: "{كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ}، قال: أنكرها المشركون، وكبر عليهم شهادة أن لا إله إلا الله، فصادمها إبليس وجنوده، فأبى الله تبارك وتعالى إلا أن يمضيها وينصرها ويفلجها ويظهرها على من ناوأها".

قوله تعالى: {اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} [الشورى:١٣]، أي:"الله يصطفي للتوحيد مَن يشاء مِن خلقه، ويوفِّق للعمل بطاعته مَن يرجع إليه".

قال الطبري:"يقول: الله يصطفي إليه من يشاء من خلقه، ويختار لنفسه، وولايته

=

=

من أحبّ".

قال ابن كثير:"أي: هو الذي يُقدّر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد".

قال مجاهد:"يقول: ويوفق للعمل بطاعته، واتباع ما بعث به نبيه عليه الصلاة والسلام من الحق من أقبل إلى طاعته، وراجع التوبة من معاصيه".

عن السديّ: "{وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ}: من يقبل إلى طاعة الله".

قال السعدي:"{اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ} أي: يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته ومنه أن اجتبى هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها، {وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه،

وكونه قاصدا وجهه، فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: {يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ}.

قال السعدي: "وفي هذه الآية، أن الله {يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} مع قوله: {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ} مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم، وشدة إنابتهم، دليل على أن قولهم حجة، خصوصا الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم أجمعين".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ} الخطابُ لهذه الأُمَّةِ- ولله الحمدُ- ومعنى {شَرَعَ لَكُمْ}؛ أي: سَنَّ لكم، وجَعَلَ لكم شريعةً هي {مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا}، قال الشارحُ رحمه الله: [هو أَوَّلُ أنبياءِ الشريعةِ]، وتَسَاهَلَ رحمه الله في هذا، والصوابُ أن يقولَ: هو أَوَّلُ رُسُلِ الشريعةِ؛ لأَنَّه جاء في الحديثِ الصحيحِ: "أنَّ الخَلْقَ يومَ القيامةِ يأتون إلى نوحٍ لِيَشْفَعَ لهم، فيقولون له: أنت أَوَّلُ رسولٍ أرسله اللهُ" ولأنَّ الرسولَ أخصُّ من النَّبيِّ، ولا ينبغي أن نَعْدِلَ عن الأخصِّ إلى الأعمِّ.

=

=

إذن: الصوابُ أن نقولَ: هو أوَّلُ رُسُلِ الشريعةِ، أما أوَّلُ أنبياءِ الشريعةِ فهو آدمُ عليه الصلاة والسلام نبيٌّ مُكَلَّمٌ، لكنه ليس برسولٍ، والحكمةُ من كونِهِ غيرَ رسولٍ: أنَّ الناسَ لم يختلفوا بَعْدُ، واللهُ تعالى أرسل الرُّسلَ لِيَحْكُمُوا بَيْنَ الناسِ فيما اختلفوا فيه، كما قال جَلَّ وَعَلَا: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} [البقرة: ٢١٣].

لكن في عَهْدِ آدَمَ لا اختلافَ، فالعددُ قليلٌ، وليس هناك مُغْرِيَاتٌ، ولا أشياءَ تُوجِبُ أن يختلفَ الناسُ، فلذلك كان آدمُ يَتَعَبَّدُ للهِ تعالى بشريعَتِه التي شَرَعَهَا اللهُ لهم، أبناؤُهُ يَتَّبِعُونه، لمَّا كَثُروا وانتشروا واختلفوا، حينئذٍ جاءتِ الحاجةُ، بل الضرورةُ إلى الرُّسُلِ. إذن الأولى أن نقولَ هو أوَّلُ رُسلِ الشريعةِ؛ لأنَّ أَوَّلَ أنبياءِ الشريعةِ من آدمَ.

وقوله: {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} يعني: وشَرَعَ لكم الذي أوحينا إليك، {مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} معطوفةٌ على ما في قولِهِ {مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا}.

والوصيَّةُ: هي العهدُ بالشيءِ الذي يُهْتَمُّ به {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} وهو: القرآنُ، {وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى} اللهُ أَكْبَرُ، ذَكَرَ اللهُ تعالى أوَّلَ الأنبياءِ الذين هم الرُّسُلُ وآخِرَهم، ثم ذَكَرَ ما بَيْنَ ذلك؛ لِيَجْمَعَ سبحانه وتعالى بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ والوسَطِ، أَوَّلُ هؤلاء الرسلِ الكرامِ نوحٌ، وآخِرُهُم مُحَمَّدٌ- صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعليهم وسلَّمَ- هؤلاء الخمسةُ هم أولو العَزْمِ من الرسلِ، قال اللهُ تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: ٣٥] وذُكِرُوا في القرآنِ في مَوْضِعَيْنِ؛ هذا واحدٌ، والثاني قولُهُ تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى} [الأحزاب: ٧]، وهذه الآياتُ في سورةِ الأحزابِ.

=

فإن قال قائلٌ: هل من فائدةٍ أو حكمةٍ في تخصيصِ النَّبيِّ ﷺ بالوحْيِ وباقي الأنبياءِ بالوصيَّةِ؟

فالجوابُ: نعم، الحكمةُ هي إثباتُ أنَّ هذا القرآنَ موحًى به.

مسألةٌ: إذا مرَّ الإنسانُ بآيةٍ فيها ذِكْرُ الأنبياءِ سواءٌ في الصلاةِ أو خارجَ الصلاةِ، فهل يُشْرَعُ له أن يُصلِّيَ عليهم؟

فالجوابُ: لا، إلا الرسولَ ﷺ ولو خارجَ الصلاةِ؛ لأنَّه لا نعلمُ أن الرَّسولَ إذا مرَّ برسلٍ سَلَّمَ عليهم؛ أما نبيُّنا ﷺ فإذا مرَّ عليك فصلِّ عَلَيْهِ في أيِّ حالٍ أنت؛ إلا إذا كنتَ على الخلاءِ فلا.

وقولُه: {وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ} (أنْ) هذه تفسيريَّةٌ، بمعنى (أي)؛ ولذلك لا تَعْمَلُ شيئًا؛ لأنَّها لمجرَّدِ التفسيرِ والتبيينِ.

وقولُه: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} {أَقِيمُوا الدِّينَ} يعني: ائتوا به مُستقيمًا، غَيْرَ مُنْحَرِفٍ.

والدِّينُ القَيِّمُ هو الدِّينُ الذي شَرَعَهُ اللهُ ﷻ فيجبُ علينا أن نُقِيمَ الدِّينَ كما أقامه اللهُ ﷻ لا نغلو فيه، ولا نُقَصِّرُ عنه، ولذلك كان الناسُ في دينِ اللهِ على ثلاثةِ أقسامٍ: قِسْمٍ غَلَوْا، وقِسْمٍ قَصَّرُوا، وقِسْمٍ اعْتَدَلُوا. فما الذي أُمِرْنَا فيه؟ الإعتدالُ، {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ} غَيْرَ مُتَجَاوِزِينَ ولا قَاصِرِينَ عنه.

ولذلك هَلَكَ أقوامٌ ممن قَصَّروا أو تجاوزوا، والأخطرُ التجاوُزُ وهو الغُلُوُّ، قال النبيُّ ﷺ: "إنما أَهْلَكَ من كان قَبْلَكُم الْغُلُوُّ" ولأن الغاليَ، يعتقدُ أنَّ هذا دينٌ فلا يكادُ يُقْلِعُ عنه، والمُقَصِّرُ يَعْتَرِفُ أنه مُقَصِّرٌ، فرُبَّما حاسَبَ نفْسَه يومًا من الأيامِ وأتَمَّ، فالغُلُوُّ أخطرُ، ولذلك تَجِدُ بِدَعَ المبتدعةِ، أشدُّها الغلوُّ؛ فالرَّافضةُ مثلًا غَلَوْا في آلِ البيتِ، وتجاوَزُوا الحدَّ، والمُؤَلِّهَةُ للرَّسولِ عليه الصلاة والسلام الذين يعتقدون أنه أشدُّ من الإلهِ ﷻ غَلَوْا في الرسولِ، وهَلَكوا. والغاليةُ في الدِّينِ

=

الذين يُريدونَ من الناسِ أن يستقيموا على الدِّينِ، وألا يَفْعَلوا كبيرةً أيضًا غَلَوْا؛ كالخوارجِ.

المُهمُّ أنكَ إذا تأمَّلْتَ البدعَ وجدْتَ أنَّ الغُلُوَّ فيها أشدُّ خطرًا على الإنسانِ؛ لأنَّ الغاليَ يعتقدُ أن ما عَلَيْهِ دِينٌ، والمقصِّرُ يَعْرِفُ أنه مقصِّرٌ، وربما استقام بعد ذلك.

قال اللهُ تبارك وتعالى: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} الدِّينُ يُطْلَقُ على مَعْنَيَيْنِ، المعنى الأوَّلُ: الجزاءُ. والمعنى الثاني: العملُ. يعني: يُطْلَقُ على العملِ وعلى الجزاءِ، فمن إطلاقِهِ على العملِ؛ قولُ اللهِ تبارك وتعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: ٦]، يعني: لكم عَمَلُكم ولي عملي؛ كقولِهِ تعالى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ} [يونُسَ: ٤١]، ومن إطلاقِهِ على الجزاءِ قولُهُ تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ} [الإنفطارِ: ١٧-١٨]، وما نقرأه نحن في كلِّ صلاةٍ {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} المرادُ به الجزاءُ.

وقولُهُ: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ} هنا المرادُ به العملُ {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} يعني: لا تَتَفَرَّقوا في دينِكم؛ فتكونوا أحزابًا، فنهى اللهُ ﷻ عن التفرُّقِ في الدِّينِ، وهذا يَسْتَلْزِمُ وجوبَ الإجتماعِ عليه؛ لأنَّ النَّهْيَ عن الشَّيْءِ أمرٌ بضدِّه إذا لم يَكُنْ له إلا هذا الضِّدُّ، وحينئذٍ يَجِبُ على المسلمين أن يجتمعوا في دِينِ اللهِ، وألا يتفرَّقُوا فيه.

وما اختلف العلماءُ فيه من الآراءِ، فإنَّ الهدفَ منه واحدٌ، لمن صَلَحَتْ نِيَّتُه؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من المُختلفين إنما يُريدُ الوصولَ إلى الحَقِّ، لكن اختلفوا في الطريقِ، وإذا كان الهدفُ واحدًا، وهو الوصولُ إلى الحقِّ؛ فإنه لا يَجوزُ أن يُجْعَلَ هذا الإختلافُ سببًا للتفرُّقِ في الإتجاهِ، لا يَجُوزُ هذا إطلاقًا، بل تَجِبُ الوحدةَ والإجتماعَ، حتى مع اختلافِ الآراءِ.

=

=

ولهذا كان السادةُ الغُرَرُ الصحابةُ رضي الله عنهم يختلفون في أشياءَ كثيرةٍ مُهِمَّةٍ، ومع ذلك فالقلوبُ واحدةٌ، ولمَّا وَصَلَ الإختلافُ بهم إلى تَفَرُّقِ القلوبِ، حَصَلَ ما حَصَلَ من الفِتَنِ بين معاويةَ وعليٍّ، وعائشةَ والزُّبيرِ، وما أَشْبَهَ ذلك، في وقتِنا الحاضرِ لا شكَّ أنَّ الناسَ مختلفون، فمنهم من يتجهُ اتجاهًا سياسيًّا، ومنهم من يتجهُ اتجاهًا صوفيًّا، ومنهم من هو مُعتدلٌ. اختلافاتٌ كثيرةٌ فالواجبُ علينا أن نَنْزِعَ فتيلَ هذا الإختلافِ، وأن نَكُونَ أمَّةً واحدةً؛ حتى لا نتفرَّقَ فنفشَلَ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: {وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} يعني: ولا يَكُنْ لكمْ قيمةٌ. {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦].

ولهذا نَجِدُ الآنَ - مع الأسفِ الشديدِ - أن ما يُسَمَّى بـ (الصحوةِ الإسلاميَّةِ) أُصيبَت بهذا البلاءِ، وصار نَفْسُ المُتَدَيِّنِينَ يَلْمِزُ بعضُهُم بعضًا، ويُضَلِّلُ بعضُهُم بعضًا، ويُبَدِّعُ بعضُهُم بعضًا، وربما يُكَفِّرُ بعضُهُم بعضًا، فضاعت تلك الصحوةُ، وصار الذين يُرادُ منهم أن يكونوا حزبًا على أعداءِ اللهِ، وحربًا على أعداءِ اللهِ، صاروا حربًا على أنْفُسِهم، وأحزابًا بأنفُسِهم، وهذا ما يَبْذُلُ فيه العدوُّ أغلى ما يكونُ ليَحْصُلَ، وقد حَصَلَ له مجَّانًا؛ فالواجبُ علينا أن نُزيلَ هذه الإختلافاتِ، وأن نَدَعَهَا، وأن نَتْرُكَ ما يُعَمِّرُ به كثيرٌ من الناسِ مجالسَهُم في سبِّ فلانٍ وفلانٍ، أو ذمِّ فلانٍ وفلانٍ، أو الغلوِّ في فلانٍ وفلانٍ؛ لأنَّ هذا يُضَيِّعُ الأوقاتَ، ويولِّدُ الأحقادَ، ولا يُفيدُ شيئًا، بل يَضُرُّ، ما لنا ولفلانٍ، إن كان ميتًا فقد واجه الحسابَ، وإن كان حيًّا فنرجو له الإستقامةَ، وأمَّا أن نَجْعَلَ أَكْبَرَ هَمِّنا هو هذا الكلامُ الذي لا يَعُودُ إلى الأمَّةِ إلا بالشَّرِّ فلا!.

ولهذا يَنْهَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عن التفرُّقِ في عدَّةِ آياتٍ، كما في هذه الآيةِ: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}.

فإذا اختلفْتَ أنت وصاحبُكَ في رأيٍ من الآراءِ، وهو محَلٌّ للإجتهادِ؛ فالواجبُ

=

=

أن تعتقدَ أنَّ صاحِبَك لم يخالفْك؛ لأنَّه سَلَكَ السبيلَ الذي تسلُكُه أنت، هو اجتهد فقال هذا هو الصوابُ، وأنت اجتهدْتَ فقلْتَ: هذا هو الصوابُ، إذن: مرادُ كلِّ واحدٍ منكما الوصولُ إلى الحقِّ، ولا يُمْكِنُ أن يكونَ اجتهادُكَ حُجَّةً عليه، ولا اجتهادُهُ حُجَّةً عليكَ، وحينئذٍ نكُونُ في الواقعِ مُتَّفِقين، حتى لو خالفني فأنا أعتقدُ أنه يوافقني؛ لأننا كلنا نقصدُ الحقَّ، ولا نريدُ مخُالفةَ الحقِّ.

لكن مع الأسَفِ الآنَ بعضُ الناسِ يَتَّخِذُ من هذا الخلافِ، الذي هو محلُّ الإجتهادِ، يَتَّخِذُ منه سُلَّمًا للتفرَّقِ والطَّعْنِ، قبل سنواتٍ في منًى حَضَرَتْ طائفتانِ إفريقيَّتَانِ، كلُّ واحدةٍ تَلْعَنُ الأخرى وتُكَفِّرُها، فأتوا إلى مدير التَّوعِية التي أنا من ضِمْنِ أعضائِها، أتوْا إليه مُتشاكِسِينَ جدًّا جدًّا في منًى، في أيامِ الحَجِّ في شهرٍ حرامٍ في بلدٍ حرامٍ؛ فهو- جزاه اللهُ خيرًا- حَضَرَ إليَّ معهم، وسألته فقال: هؤلاء كفارٌ، هؤلاء رَغِبوا عن سُنَّةِ الرسولِ ﷺ وقد قال النبيُّ ﷺ: "مَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فليس مني" ونحن نَبْرَأُ منهم كلامٌ طويلٌ عريضٌ.

والخلافُ أن إحدى الطائفتين تقولُ: إذا قام يصلي فإنه يضعُ اليدَ اليمنى على اليسرى، والطائفةُ الأخرى تقولُ: إذا قام يُصلي يُرسلُ يديه. والمسألةُ ليست خلافًا في العقيدةِ، وإنما المسألةُ خلافٌ في سُنَّةٍ من سننِ الصلاةِ، وهي محلُّ اجتهادٍ، كلُّ واحدٍ يقولُ للآخرِ إنه كافرٌ؛ لأنَّه رَغِبَ عن سُنَّةِ النبيِّ ﷺ وقد قال ﷺ: "مَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فليس مني". انْظُرِ البلاءَ.

الآن الشبابُ صار خلافُهُم في أمرٍ آخَرَ في الأشخاصِ، يجعلون الشخصَ هدفًا، ما تقولُ في فلانٍ؟ إن قال: واللهِ فلانٌ من خيرِ عبادِ اللهِ، انشرح صدرُه، وكأنما أُعْطِيَ الجنَّةَ، وإذا قال: واللهِ هذا الرجلُ عنده انحرافٌ في المَسْلَكِ، إنسانٌ فيه كذا وفيه كذا انقبض، وضاق صَدْرُه، وتَرَك صاحبَه.

وهذا غَلَط يا إخوانُ! فالرجالُ إن أخطؤوا فاسألِ اللهَ أن يَعْفُوَ عنهم خَطَأَهم؛

=

=

لأنَّهم مسلمون مَهْمَا كانوا لا يخرجون من الإسلامِ، وإن أصابوا فخُذْ بصوابِهِم واحمَدْهم، وخَطَؤُهم لا تَأْخُذْ به، أما أن تَجْعَلَهُم مَحَكًّا للولاءِ والبَرَاءِ، فهذا غَلَطٌ عظيمٌ.

فإن قال قائلٌ: في بعضِ الأحيانِ قد يُسألُ الإنسانُ من بعضِ العوامِّ، أو من المستقيمين الذين ليس عندهم عِلْمٌ: ما رأيُكَ في فلانٍ وفلانٍ ممن هم معيَّنون، فما هو موقفُ طالِبِ العِلْمِ؟

فالجوابُ: إذا قال: ما رأيُكَ في فلانٍ وفلانٍ؟ فنحن نَعْرِفُ الآن أنَّ هناك رؤوسًا هي الناقوسُ للناسِ، هذه إذا سألني أقولُ: "ما لك ولفلانٍ؟ دَعْه إن كان ميتًا فقد واجه رَبَّه، وإن كان حيًّا فنسألُ اللهَ له الإستقامةَ"، فقط؛ أمَّا إذا حَدَّدَ فقال: ما تقولُ في رأيِ فلانٍ، هنا يجبُ أن أتكلَّمَ، أقولُ: هذا صوابٌ أو خطأٌ، حسبما يكون عندي.

فلذلك أنا أدعو إخوانَنَا من السُّعُودِيِّين وغَيْرِهم، إلى نَبْذِ هذه الطريقِ، والبُعْدِ عنها، وأن نعتقدَ أننا إخوانٌ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منا مَجْزِيٌّ بعملِه، وألا نجعلَ هذا سببًا للتفرُّقِ، لأنَّ اللهَ نهانا، ونحن نعلمُ علمَ اليقينِ أنَّ اللهَ لا ينهانا إلا عن شيءٍ فيه ضَرَرُنَا.

فائدةٌ: الشِّيعَةُ خلافُهُم متباينٌ مع أهْلِ السُّنَّةِ، ليس خلافُ الشيعةِ مع أهلِ السُّنَّةِ كخلافِ الشافعيَّةِ مع المالكيَّةِ مثلًا، لا أبدًا، اختلافٌ عظيمٌ، اختلافٌ في أصْلِ العقيدةِ؛ فمثلًا من أصولِ عقيدةِ الشِّيعَةِ أنَّ عندهم رؤوسًا يُسَمُّونهم الأئمَّةَ، يدَّعون أن من هؤلاءِ الأئمةِ من يَعْلَمُ الغيْبَ، ويُدَبِّرُ الكوْنَ، وأن من أئمَّتِهِم من يَبْلُغُ منزلةً لا يبلُغُها مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ، يعني: معناها منزلةُ الربوبيَّةِ، هذا لا يُمْكِنُ أن نَتَّفِقَ معهم بأيِّ حالٍ من الأحوالِ، ومنهم من يَسُبُّ الصحابةَ عمومًا إلا نفرًا قليلًا، ومنهم من يَلْعَنُ أبا بكرٍ وعمرَ، ويقول: إنهما ماتا على

=

=

النفاقِ.

والعجيبُ أني رأيتُ في كتابِ ابْنِ حزمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ (المِلَل والنِّحَل) رأيتُ شِيعَةً تُكَفِّرُ عليًّا وتُكَفِّرُ أبا بكرٍ، كلا الإثنين، أمَّا أبو بكرٍ فتقول: لأنه ظَلَمَ بأَخْذِ الخلافةِ، وأمَّا عليٌّ فإنه تراخى عن الواجبِ عليه، لماذا لم يَمْنَعْ أبا بكرٍ، فهذا معتدٍ وهذا مُفَرِّطٌ، وكلاهما كافرٌ؛ لم يبق إلا أن يقولوا الرسولُ عليه الصلاة والسلام لماذا لم يُعَيِّنْه من البدايةِ ويقطعُ النِّزاعَ، شيءٌ عجيبٌ.

وأقولُ: هذا لا يُمْكِنُ الإتفاقُ معه، لكنَّ الإتفاقَ مع المالكيَّةِ والشافعيَّةِ والحنابلةِ، هذا ممكنٌ، فالخلافَ بيْنَ المالكيَّةِ والشافعيَّةِ والحنابلةِ والأحنافِ، وما أَشْبَهَهم هذا ليس خلافًا في الواقعِ، إلا إنسانًا مُتعصبًا نقولُ: هذا الحقَّ، ويقولُ: لا.

وهنا يقولُ الله تعالى: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ} يعني: غَيْرُ مُغالين فيه، ولا مُقَصِّرِينَ. {وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} اجتمعوا عليه.

وقوله: {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{كَبُرَ} بمعنى: عَظُمَ]، واشتدَّ عليهم، {عَلَى الْمُشْرِكِينَ} يعني: باللهِ، ما تدعوهم إليه من التوحيدِ؛ لأنَّ المُشركَ ما يَكْبُرُ عَلَيْهِ هو التوحيدُ، أَكْبَرُ شيءٍ عنده هو التوحيدُ، يعني: أكبرُ شيءٍ يشقُّ عَلَيْهِ هو التوحيدُ، ولهذا قالوا في الرسولِ ﷺ: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} [ص: ٦] انظرْ صَبَّرُوا أنْفَسَهم على الشِّرْكِ- والعياذَ باللهِ- وقالوا في التوحيدِ: {إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}؛ أيْ: عجيبٌ جدًّا، والشيءُ العُجابُ حقيقةً هو إشراكُهُم باللهِ عَزَّ وَجَلَّ الذي يُقِرُّونَ هم أنه خالِقُهُم، ولا خالقَ سواه.

من هنا نَأْخُذُ أن المشركين يَعْظُمُ عليهم التوحيدُ، وأقولُ لكم: إذا كان يَعْظُمُ

=

=

عليهم التوحيدُ فلا بدَّ أن يفعلوا كلَّ سببٍ يَحُولُ بَيْنَ هذا التوحيدِ وقيامِهِ وانتشارِهِ، فكلُّ شيءٍ عظيمٌ عليك لا بدَّ أن تدافعَ عنه، فهم الآن حربٌ على التوحيدِ وأهْلِه.

ولهذا تَسْمَعُ الآن مُخططاتِ النصارى- على ما في ديانتِهم التي هم عليها من الضلالِ والمخالفةِ للمعقولِ والمحسوسِ-، تَجِدُهُم يَبُثُّون الإذاعاتِ القويَّةَ التي ليس فيها تشويشٌ، والتي تأتي في أوقاتٍ مناسبةٍ للدعوةِ إلى الدِّينِ الذي هم عليه، ما أقولُ إلى دينِ المسيحِ، فالمسيحُ بريءٌ منه، لكن إلى الدِّينِ الذي هم عليه، تَجِدُ بعضَ أهلِ البدعِ يَكْبُرُ عليهم جدًّا من يدعو إلى السُّنَّةِ، ويُحاربون من يدعو إلى السُّنَّةِ، ويُشَوِّهُونَ السُّمْعَةَ؛ لأنَّه عظيمٌ عليهم، فهنا يقول: {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ}.

يقولُ: {اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ} {يَجْتَبِي} بمعنى: يختارُ ويصطفي، وقولُهُ: {إِلَيْهِ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [إلى التوحيد]. أعاد رَحِمَهُ اللَّهُ الضميرَ إلى التوحيدِ، ولكنْ فيه احتمالٌ أقوى مما قال، وهو أنَّ الضميرَ يعودُ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أي: اللهُ يجتبي إلى نَفْسِهِ عَزَّ وَجَلَّ من يشاءُ، ويهدي إلى نفْسِه من يُنيبُ، وهذا أحسنُ مما سلك المُفسِّر؛ فاللهُ تعالى يختارُ إليه من يشاءُ- نسألُ اللهَ تعالى أنْ يَجْعَلَنا وإياكم ممن اختارهم إليه، وَيكْرَهُ آخرين- فالأوَّلُون يَهْدِيهم صِراطَهُ المستقيمَ، والآخرون يُضِلُّهُم؛ لأنَّهم هم الذين فعلوا السَّبَبَ.

وقوله: {اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ} تقدَّم آنفًا قريبًا جدًّا أنَّ كلَّ شيءٍ عَلَّقَه اللهُ بالمشيئةِ فإنه مقرونٌ بالحكمةِ، لا يشاءُ شيئًا إيجادًا أو إعدامًا، أو تغييرًا إلا لحكمةٍ.

وقوله: {وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: من يُقْبِلُ إلى طاعته] يقولُ الشارحُ: من يُقْبِلُ إلى طاعتِه فهو يَهْدِيه اللهُ إليه. وقد ثَبَتَ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما

=

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤).

{وَمَا تَفَرَّقُوا} أَيْ أَهْل الْأَدْيَان فِي الدِّين بِأَنْ وَحَّدَ بَعْض وَكَفَرَ بَعْض {إلَّا مِنْ بَعْد مَا جَاءَهُمْ الْعِلْم} بِالتَّوْحِيدِ {بَغْيًا} مِنْ الْكَافِرِينَ {بَيْنهمْ وَلَوْلَا كَلِمَة سَبَقَتْ مِنْ رَبّك} بِتَأْخِيرِ الْجَزَاء {إلَى أَجَل مُسَمًّى} يَوْم الْقِيَامَة {لَقُضِيَ بَيْنهمْ} بِتَعْذِيبِ الْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَاب مِنْ بَعْدهمْ} وَهُمْ الْيَهُود وَالنَّصَارَى {لَفِي شَكّ مِنْهُ} مِنْ مُحَمَّد ﷺ {مُرِيب} مُوقِع فِي الرِّيبَة[1].

=

رواه عن ربِّهِ؛ أن اللهَ تبارك وتعالى يقولُ: "ما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضْتُهُ عليه". يعني: الفرائضَ أحبُّ إلى اللهِ من النوافلِ "ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتى أحبَّه، فإذا أَحْبَبْتُه كُنْتُ سَمْعَه الذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ التي يمشي بها" وكذلك قال تبارك وتعالى في الحديثِ القدسيِّ: "من تَقَرَّبَ إليَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إليه ذراعًا، ومن تَقَرَّبَ إليَّ ذراعًا تَقَرَّبْتُ إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً" فمن أناب إلى اللهِ، فإن اللهَ يَهديه إليه؛ ويُعِينُه ويُسَدِّدُه.

(١) قوله تعالى: {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [الشورى:١٤]، أي: "وما تفرّق المشركون بالله في أديانهم فصاروا شيعًا وأحزابًا إلا مِن بعد ما جاءهم العلم وقامت الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد".

قال الطبري: "وما تفرّق المشركون بالله في أديانهم فصاروا أحزابا، إلا من بعد ما جاءهم العلم، بأن الذي أمرهم الله به، وبعث به نوحا، هو إقامة الدين الحقّ، وأن

=

=

لا تتفرّقوا فيه، بغيا من بعضكم على بعض وحسدا وعداوة على طلب الدنيا".

قال ابن كثير:"أي: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغيُ والعنادُ والمشاقة".

قال الزمخشري:"{وَما تَفَرَّقُوا}، يعنى: أهل الكتاب بعد أنبيائهم، {إِلَّا مِنْ بَعْدِ} أن علموا أنّ الفرقة ضلال وفساد".

عن قتادة: "{وَمَا تَفَرَّقُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ}، فقال: إياكم والفرقة فإنها هلكة".

قال السعدي:"لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق، أخبرهم أنكم لا تغتروا بما أنزل الله عليكم من الكتاب، فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغيا وعدوانا منهم، فإنهم تباغضوا وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم".

قوله تعالى: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} [الشورى:١٤]، أي:"ولولا كلمة سبقت من ربك-أيها الرسول- بتأخير العذاب عنهم إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة، لقضي بينهم بتعجيل عذاب الكافرين منهم".

قال الطبري: يقول:"ولولا قول سبق يا محمد من ربك لا يعاجلهم بالعذاب، ولكنه أخر ذلك إلى يوم القيامة، لفرغ ربك من الحكم بين هؤلاء المختلفين في الحق الذي بعث به نبيه نوحا من بعد علمهم به، بإهلاكه أهل الباطل منهم، وإظهاره أهل الحقّ عليهم".

قال ابن كثير:"أي: لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى

=

=

يوم المعاد، لعجل لهم العقوبة في الدنيا سريعًا".

عن السديّ:" {وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}، قال: يوم القيامة".

قوله تعالى: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} [الشورى:١٤]، أي:"وإن الذين أورثوا التوراة والإنجيل من بعد هؤلاء المختلفين في الحق لفي شك من الدين والإيمان موقعٍ في الريبة والاختلاف المذموم".

قال الطبري: "يقول: وإن الذين أتاهم الله من بعد هؤلاء المختلفين في الحقّ كتابه التوراة والإنجيل لفي شكّ من الدين الذين وصّى الله به نوحا، وأوحاه إليك يا محمد، وأمركما بإقامته مريب".

قال ابن كثير:"قوله: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ} يعني: الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذّب للحق {لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} أي: ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا بُرهان، وهم في حيرة من أمرهم، وشك مريب، وشقاق بعيد".

قال الزمخشري:" {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ}، وهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، {لَفِي شَكٍّ} من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان".

عن السديّ، قوله: " {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ}، قال: اليهود والنصارى".

قال السعدي:"حيث اختلف سلفهم بغيا وعنادا، فإن خلفهم اختلفوا شكا وارتيابا، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم".

وقال العثيمين: قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَمَا تَفَرَّقُوا} أي: أهلُ الأديانِ في الدينِ بأن

=

=

وَحَّدَ بعضٌ، وكَفَرَ بعضٌ، {إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ} بالتوحيدِ {بَغْيًا} من الكافرين، {بَيْنَهُمْ}].

{وَمَا تَفَرَّقُوا} يقولُ المُفسِّر: [أي: أهلُ الأديانِ] وهذا تفسيرٌ جيدٌ، وقد ذَكَرَ اللهُ تبارك وتعالى في سورةِ البَيِّنَةِ قولَهُ: {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البَيِّنَةِ: ٤]، فهل نقولُ: إن هذه الآيةَ العامَّةَ، {وَمَا تَفَرَّقُوا} تُخَصَّصُ بآيةِ البيِّنةِ ويكونُ المرادُ: وما تَفَرَّقَ الذين أوتوا الكتابَ؟ أو نقولُ: هي عامَّةٌ {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} بعضٌ من الأفرادِ، وإذا ذُكِرَ بعضُ الأفرادِ بحكمٍ يطابقُ حكمَ العامِّ، فإنه لا يُعَدُّ مُخَصِّصًا؟ الجوابُ: الثاني. وهذه قاعدةٌ أصوليَّةٌ أنه إذا ذُكِرَ بعضُ أفرادِ العامِّ بحكمٍ يطابقُ العامَّ، فهذا ليس بتخصيصٍ.

مثالُهُ: قلتُ: أَكْرِمِ الطلبةَ، ثم قلتُ: أَكْرِمْ محمَّدًا وهو منهم، هل هذا يقتضي ألا تُكْرِمَ سواه؟ لا، إذن: ذِكْرُهُ بحكمٍ يوافقُ حُكْمَ العام، لا يقتضي تخصيصَه به، أمَّا لو كان يُخَالفُ فهذا تخصيصٌ، لو قلتَ: أكرمِ الطلبةَ، ثم قلتَ: لا تُكْرِمْ محمدًا، فحينئذٍ يَخرُجُ حُكْمُهُ عن حكمِ العامِّ.

قال تعالى: {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} قولُ المُفسِّر: [بأن وَحَّدَ بعضُهُم وكَفَرَ بَعْضٌ] هذا مناسبٌ؛ لقولِهِ {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} وإلا فالإختلافُ أوسعُ من أن يكونَ اختلافًا في التوحيدِ والكفرِ.

وقوله: {إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} فيكونُ تَفَرُّقُهم عن علمٍ، قد قامت عليهم الحُجَّةُ. وقولُهُ: {بَغْيًا بَيْنَهُمْ} مفعولٌ لأجْلِه، أي: أنَّ تَفَرُّقَهم للبغْيِ والعُدوانِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ} لتأخيرِ الجزاءِ {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} ... إلخ].

قولُهُ: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ} الكلمةُ التي سَبَقَتْ من اللهِ هي تأخيرُ

=

الجزاءِ، حتى يُوافوا اللهَ ﷻ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} أي: مُعَيَّنٌ، وهو يومُ القيامةِ {لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} بتعذيبِ الكافرين في الدنيا]. {لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} أي: فُصِلَ وحُكِمَ بينهم، وأُهْلِكَ الكُفَّارُ وأُبْقِيَ المُوَحِّدون.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ} وهم اليهودُ والنصارى {لَفِي شَكٍّ مِنْهُ} من محمدٍ ﷺ {مُرِيبٍ} مُوقِعٌ في الرِّيبَةِ].

قولُهُ ﷻ: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ} الكلمةُ هي أنه قضى ﷻ بتأخيرِ العذابِ عنهم، فتنةً واختبارًا، وقد أشار اللهُ تعالى إلى هذه الفتنةِ والإختبارِ، بقولِهِ تعالى: {وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} [محمدٍ: ٤]، لو انتصرَ اللهُ منهم وأَهْلَكَهُم ما بَقِيَ للجهادِ محلٌّ، ولا بَقِيَ للمؤمنين محنةٌ واختبارٌ؛ ولهذا قال: {لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ}.

وقولُهُ: {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}؛ أي: مُعَيَّنٌ مُحَدَّدٌ؛ وذلك يومُ القيامةِ، يومُ القيامةِ محدَّدٌ في عِلْمِ اللهِ، لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ، كما أنَّ موتَ الإنسانِ مُحَدَّدٌ من قِبَلِ اللهِ لا يَتَقَدَّمُ ولا يَتَأَخَّرُ.

وقوله {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ}؛ أي: أَعْطُوهُ، مجانًا. يعني: بدون تعبٍ، كما أن الوارِثَ يَرِثُ مالَ مُوَرِّثِه بدونِ تعبٍ مجانًا.

وهل المرادُ بالكتابِ هنا التوراةُ والإنجيلُ، أم المرادُ بالكتابِ القرآنُ؟ ويكونُ المعنى: وإن الذين أُورِثُوا الكتابَ وهو القرآنُ من بَعْدِهِم؛ أي: من بَعْدِ الذين تَفَرَّقُوا من أهلِ الكتابِ وغيرِهم {لَفِي شَكٍّ مِنْهُ}؛ أي: من هذا الكتابِ {مُرِيبٍ}، هذا الذي قُلْته أَحْسَنُ مما ذَهَبَ إليه المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

أَمَّا المُفسِّر فيُفيدُ قولُهُ: أنَّ المرادَ بالكتاب: التوراةُ والإنجيلُ؛ لأنَّه قال: [هم

فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥).

{فَلِذَلِكَ} التَّوْحِيد {فَادْعُ} يَا مُحَمَّد النَّاس {وَاسْتَقِمْ} عَلَيْهِ {كَمَا أُمِرْت وَلَا تَتَّبِع أَهْوَاءَهُمْ} فِي تَرْكه {وَقُلْ آمَنْت بِمَا أَنْزَلَ الله مِنْ كِتَاب وَأُمِرْت لِأَعْدِل} أَيْ بِأَنْ أَعْدِل {بَيْنكُمْ} فِي الْحُكْم {الله رَبّنَا وَرَبّكُمْ لَنَا أَعْمَالنَا وَلَكُمْ أَعْمَالكُمْ} فَكُلّ يُجَازَى بِعَمَلِهِ {لَا حُجَّة} خُصُومَة {بَيْننَا وَبَيْنكُمْ} هَذَا قَبْل أَنْ يُؤْمَر بِالْجِهَادِ {الله يَجْمَع بَيْننَا} فِي الْمُعَاد لِفَصْلِ الْقَضَاء {وَإِلَيْهِ الْمَصِير} الْمَرْجِع[1].

=

اليهودُ والنصارى] فاليهودُ لهم التوراةُ، والنصارى لهم الإنجيلُ، ولكن الظاهرَ أنَّ المرادَ بالكتابِ هو هذا القرآنُ.

وقوله: {لَفِي شَكٍّ مِنْهُ}؛ أي: من هذا الكتابِ، {مُرِيبٍ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [موقعٌ في الرِّيبَةِ]، والريبةُ أشدُّ من الشكِّ؛ لأنَّها ارتيابٌ وقلقٌ، الشاكُّ قد يكونُ باردَ الضميرِ، ليس عنده قلقٌ، لكن المرتابَ أَشَدُّ، والغالبُ أن الإرتيابَ يكُونُ مع تَعَارُضِ الأدلَّةِ، التي كلُّ واحدٍ منها يقتضي أن يكونَ المصيرُ إليه، فيرتابُ الإنسانُ ويتردَّدُ ويَقْلَقُ، لكنَّ الشكَّ المجرَّدَ هو شكٌّ، لا شكَّ في هذا، لكن لا يُؤَدِّيَ إلى الرِّيبَةِ، إلا إذا عَظُمَ وقَوِيَ، وتعارضتِ الأدلَّةُ؛ حينئذٍ يبقى الإنسانُ في ارتيابٍ شديدٍ.

(١) قوله تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} [الشورى:١٥]، أي:"فإلى ذلك الدين القيِّم الذي شرعه الله للأنبياء ووصَّاهم به، فادع-أيها الرسول- عباد الله، واستقم كما أمرك الله".

قال الطبري: يقول:"فإلى ذلك الدين الذي شَرَع لكم، ووصّى به نوحا، وأوحاه

=

=

إليك يا محمد، فادع عباد الله، واستقم على العمل به، ولا تزغ عنه، واثبت عليه كما أمرك ربك بالاستقامة".

قال الزجاج: "معناه: فإلى ذلك فادع واستقم، أي: إلى إقامة الدين".

قال ابن كثير: "{فَلِذَلِكَ فَادْعُ} أي: فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم، فادعُ الناس إليه. وقوله: {وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} أي: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله، كما أمركم الله ﷻ".

قال الزمخشري: أي: "فلأجل التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعبا {فَادْعُ} إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية القديمة، {وَاسْتَقِمْ} عليها وعلى الدعوة إليها كما أمرك الله".

قال الشوكاني: "أي: فلأجل ما ذكر من التفرق والشك، أو فلأجل أنه شرع من الدين ما شرع فادع واستقم أي: فادع إلى الله وإلى توحيده واستقم على ما دعوت إليه".

عن قتادة: {وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ}، قال: "واستقم على أمر الله".

وقال الضحاك: "فاستقم على تبليغ الرسالة".

قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ} [الشورى:١٥]، أي: "ولا تتبع أهواء الذين شكُّوا في الحق وانحرفوا عن الدين".

قال الطبري: يقول: "ولا تتبع يا محمد أهواء الذين شكُّوا في الحقّ الذي شرعه الله لكم من الذين أورثوا الكتاب من بعد القرون الماضية قبلهم، فتشك فيه، كالذي شكوا فيه".

قال الزمخشري: أي: "{وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ} المختلفة الباطلة".

قال ابن كثير: "يعني: المشركين فيما اختلقوه، وكذبوه وافتروه من عبادة

=

=

الأوثان".

قوله تعالى: {وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ} [الشورى:١٥]، أي:"، وقل: صدَّقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء".

قال الطبري: يقول:"وقل لهم يا محمد: صدّقت بما أنزل الله من كتاب كائنا ما كان ذلك الكتاب، توراة كان أو إنجيلا أو زبورا أو صحف إبراهيم، لا أكذب بشيء من ذلك تكذيبكم ببعضه معشر الأحزاب، وتصديقكم ببعض".

قال الزجاج:"أي: آمنت بكتب الله كلها، لأن الذين تفرقوا آمنوا ببعض الكتب وكفروا ببعض".

قال ابن كثير:"أي: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحد منهم".

قال الزمخشري:"{بما أنزل الله من كتاب}: أيّ كتاب صحّ أنّ الله أنزله، يعني: الإيمان بجميع الكتب المنزلة، لأنّ المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، كقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ}، إلى قوله: {أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا} ".

قوله تعالى: {وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ} [الشورى:١٥]، أي:"وأمرني ربي أن أعدل بينكم في الحكم".

قال الطبري: يقول:"وقل لهم يا محمد: وأمرني ربي أن أعدل بينكم معشر الأحزاب، فأسير فيكم جميعا بالحق الذي أمرني به وبعثني بالدعاء إليه".

قال الزمخشري:"{لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ} في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليّ ".

قال ابن كثير:"أي: في الحكم كما أمرني الله".

قال الواحدي:"معنى العدل بينهم في الأحكام: هو أنهم إذا ترافعوا إليه، لم يلزمهم شيئا، لا يلزمهم الله".

=

=

عن أبي العالية: {وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ}، قال: "لأسوي بينكم في الدّين، فأؤمن بكلّ كتاب وكلّ رسول".

عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: "ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأما المنجيات: فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر، وأما المهلكات: فهوى متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه، وهي أشدهن".

قوله تعالى: {اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ} [الشورى:١٥]، أي:"الله خالقنا جميعـًا ومتولي أمورنا فيجب أن نفرده بالعبادة".

قال الطبري:"يقول: الله مالكنا ومالككم معشر الأحزاب ما أهل الكتابين التوراة والإنجيل".

قال ابن كثير:"أي: هو المعبود، لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختيارا، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارا، فله يسجد من في العالمين طوعا وإختيارا".

قوله تعالى: {لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ} [الشورى:١٥]، أي:"لنا ثواب أعمالنا الصالحة، ولكم جزاء أعمالكم السيئة".

قال الطبري:"يقول: لنا ثواب ما اكتسبناه من الأعمال، ولكم ثواب ما اكتسبتم منها".

قال ابن كثير:"أي: نحن برآء منكم، كما قال تعالى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [يونس: ٤١] ".

قوله تعالى: {لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ} [الشورى:١٥]، أي:"لا خصومة ولا جدال بيننا وبينكم بعدما تبين الحق".

قال الطبري:"يقول: لا خصومة بيننا وبينكم".

قال الزمخشري:"أي: لا خصومة لأنّ الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به فلا

=

=

حاجة إلى المحاجة. ومعناه: لا إيراد حجة بيننا، لأنّ المتحاجين: يورد هذا حجته وهذا حجته".

عن مجاهد، قوله: "{لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم}، قال: لا خصومة".

وقال ابن عباس:"لا خطوبة".

قال ابن زيد:"لا خصومة بيننا وبينكم، وقرأ: {وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}.... إلى آخر الآية".

وللمفسرين في هذه الآية قولان:

القول الأول: أنها اقتضت الاقتصار على الإنذار، وذلك قبل الأمر بالقتال ثم نزلت آية السيف فنسختها، حكاه ابن الجوزي عن الأكثرين.

وروي الضحاك عن ابن عباس، قال: "وقوله ﷻ: {لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ}، " مخاطبة لليهود أي: لنا ديننا ولكم دينكم قال: ثم نسخت بقوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبة: ٢٩] الآية ". وهكذا قال مجاهد.

وعن السدي: "{لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ}، قال: هذه قبل السيف، وقبل أن يؤمر بالجزية".

قال ابن كثير:"وهذا مُتَّجَهٌ لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة".

القول الثاني: أن معناها: أن الكلام بعد ظهور الحجج والبراهين قد سقط بيننا فلم يبق إلا السيف، فعلى هذا هي محكمة؛ قاله جماعة من المفسرين، قال ابن الجوزي: "وهو الصحيح".

قوله تعالى: {اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [الشورى:١٥]، أي:"الله يجمع بيننا وبينكم يوم القيامة، فيقضي بيننا بالحق فيما اختلفنا فيه، وإليه المرجع والمآب، فيجازي كلا بما يستحق".

=

=

قال الطبري:"يقول: الله يجمع بيننا يوم القيامة، فيقضي بيننا بالحقّ فيما اختلفنا فيه، وإليه المعاد والمرجع بعد مماتنا".

قال ابن كثير:"{اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا}، أي: يوم القيامة، كقوله: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} [سبأ: ٢٦]، وقوله: {وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} أي: المرجع والمآب يوم الحساب".

قال الزمخشري:"{اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا} فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم، وهذه محاجزة ومتاركة بعد ظهور الحق وقيام الحجة والإلزام. فإن قلت: كيف حوجزوا وقد فعل بهم بعد ذلك ما فعل من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء؟ قلت: المراد: محاجزتهم في مواقف المقاولة لا المقاتلة".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {فَلِذَلِكَ} المشارُ إليه إقامةُ الدِّينِ وعدمُ التفرُّقِ فيه.

وقولُهُ: {فَادْعُ} الفاءُ زائدةٌ لتحسينِ اللفظِ، والأصلُ فلذلك ادْعُ، ولهذا نقولُ: إنَّ هذه الجملةَ فيها حصرٌ، تقديمُ ما حقُّهُ التأخيرُ، والمقدَّمُ هو الجارُّ والمجرورُ، ولهذا قلتُ لكم: إنَّ الفاءَ في قولِهِ: {فَادْعُ} زائدةٌ لتحسينِ اللفظِ، ولولا أنَّها من كلامِ اللهِ، لقُلنا: فلذلك ادْعُو، وهذا هو السرُّ في أنَّنا قلنا: إنَّ هذه الجملةَ تفيدُ الحَصْرَ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{فَلِذَلِكَ} التوحيدُ] ولو قال: {فَلِذَلِكَ} أي: لإقامةِ الدِّينِ وعدمِ التفرُّقِ فيه لكان أَجْوَدَ {فَلِذَلِكَ فَادْعُ} والخطابُ للرسولِ ﷺ ولهذا قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [يا محمدُ الناسَ] الناسَ: أشار به إلى أن مفعولَ (ادْعُ) محذوفٌ، والتقديرُ: الناس.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{وَاسْتَقِمْ} عَلَيْهِ {كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ} في تَرْكِه]، {وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} هذا ليس خاصًّا بالرسولِ عليه الصلاة والسلام؛ لقولِهِ تعالى في سورةِ هودٍ: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ} [هودٍ: ١٢١].

=

=

وقولُهُ: {وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ}؛ أي: على الوجْهِ الذي أُمِرْتَ من غيرِ زيادةٍ ولا نَقْصٍ {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ} وأهواؤُهُم التي نُهِيَ عن اتِّباعِهَا ما يُخالفُ ما أُمِرَ به. ولهذا قال الشارحُ رَحِمَهُ اللهُ: [فِي تَرْكِهِ].

قولُهُ: {وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ} قل: مُعلنًا لهم ولغيْرِهم، {آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ} آمنتُ بمعنى: أقررتُ، والإيمانُ هو الإقرارُ المستلزِمُ للقَبولِ والإذعانِ. وليس مجرَّدَ الإقرارِ، ولهذا نقولُ: إنَّ أبا طالبٍ ليس بمؤمنٍ، مع أنَّه مُقِرٌّ بِرِسَالةِ النبيِّ ﷺ فإنَّه كان يقولُ في لاميَّتِه المشهورةِ:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

ويقولُ:

ولقد علمتُ بأنَّ دينَ محمَّدٍ ... من خيرِ أديانِ البريَّة دِينَا

لولا الملامةُ أو حذارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بذاك مُبينَا

ولكنه- والعياذُ باللهِ- قد سَبَقَتْ له من اللهِ الشقاوةُ، فكان آخِرَ ما قال: أنه على ملةِ عبدِ المُطَّلِبِ، وصَرَّحَ في تلك الحالِ أنه لولا أن قَوْمَه يلومونه ويقولون: عندما أَيِسَ من الحياةِ آمَنَ لآمَنْتُ، هكذا يقولُ- والعياذُ باللهِ- وهو في سياقِ الموتِ.

فقولُهُ: {آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ} نقولُ: الإيمانُ هو: الإقرارُ المستلزِمُ للقبولِ والإذعانِ، أبو طالبٍ مُقِرٌّ لكنه لم يَقْبَلْ، ولم يُذْعِنْ فصار كافرًا، {آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ}؛ بالذي أَنْزَلَ اللهُ من الكُتُبِ كلها، وهكذا يجبُ علينا نحن أيضًا أن نُؤمنَ بما أَنْزَلَ اللهُ من كتابٍ، ولكن لا يجبُ علينا أن نَتَّبِعَ ما أنزل اللهُ من كتاب، نَتَّبِعُ ما جاء في شريعتِنا، وإن خَالفَ ما في الشرائعِ الأولى، لكن نؤمنُ بأنَّ الكُتبَ النَّازلةَ على موسى وعيسى وداودَ وغيْرِهم من الأنبياءِ، نؤمنُ بأنها حقٌّ. أمَّا الإتِّباعُ فهو لشريعةِ محمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-.

=

=

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ} أي: بأن أَعْدِلَ]. أفادنا المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ اللامَ في قولِهِ: {لِأَعْدِلَ} بمعنى الباءِ، أي: أُمِرْتُ بأنْ أَعْدِلَ بينكم، هذا ما قَدَّرَهُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولا شَكَّ أنَّ هذا تقديرٌ سهلٌ، فسهلٌ أن يقولَ: اللامُ بمعنى الباءِ؛ لكنَّ إتيانَ اللامِ بمعنى الباءِ قد لا يكونُ سائغًا في اللغةِ العربيَّةِ، وأن اللهَ تعالى أَمَرَ رسولَهُ ﷺ بأمرٍ فوق ذلك؛ أي: وأُمِرْتُ بالشَّرعِ أو بالعدل {لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ} فيكونُ المأمورُ به محذوفًا، ويكونُ الموجودُ هو العِلَّةَ، أُمِرْتُ بكذا لأَعْدِلَ بينكم، وهذا أَبْلَغُ من أن نقولَ اللامُ بمعنى الباءِ، ويكون أُمِرْتُ بالعدلِ بينكم، لا أُمِرْتُ بالشرعِ والإيمانِ بكلِّ كتابٍ؛ لأَعْدِلَ بينكم. قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ} في الحُكْمِ].

وقولُهُ: {اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ} هذه الجُملةُ حقٌّ لا شَكَّ فيه، ولكن قد يقولُ قائلٌ: ما الفائدةُ منها؟ أليس هذا كقولِ القائلِ: السماءُ فوقنا والأرضُ تحتنا، لأنَّ هؤلاء يُقِرُّون بأن اللهَ ربُّهُم، فما الفائدةُ؟

فالجوابُ: الفائدةُ من ذلك هو إلزامُهُم أن يكونوا مِثْلَ ما كُنا عليه من الدِّينِ؛ لأنَّ الرَّبَّ واحدٌ {اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ} بإقرارِكم، فإذا كان كذلك، فالواجبُ عليكُم أن تخضعوا لأوامرِ ربِّكم عَزَّ وَجَلَّ.

قولُهُ: {لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ} يعني: أنه لا يَضُرُّنا عملُكُم، ولا يَضُرُّكُم عملُنا، فإذنْ: لا تتعلقوا بنا، ولا نتعلَّقُ بكم؛ كلٌّ له عَمَلُه. قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فكلٌّ يُجَازى بعمَلِه].

وقوله: {لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ}، كيف لا حُجَّةَ بَيْنَنا وبَيْنكم ولدينا الحجَّةُ عليهم؟

الجواب: قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لَا حُجَّةَ} خصومةٌ] بأن أَعْدِلَ {بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ} ...] إلخ، والصوابُ عدمُ تقديرِ: بأن أَعْدِلَ؛ لأنَّه لا داعيَ له، بل المعنى لا حُجَّةَ قائمةٌ على وجهِ الخصومةِ بيننا وبينكم؛ لأننا قد أَيِسْنا منكم، ولن تنفعَ فيكم

=

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦).

{وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي} دِين {اللهِ} نَبِيّه {مِنْ بَعْد مَا اُسْتُجِيبَ لَهُ} بِالْإِيمَانِ لِظُهُورِ مُعْجِزَته وهم اليهود {حجتهم داحضة} باطلة {عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد}[1].

=

المُحاجَّةُ.

وقوله: {اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [هذا قبلَ أن يُؤْمَرَ بالجهادِ] وبعد أن أُمِرَ بالجهادِ، صار لهم أعمالُنا ولنا أعمالُهُم، وحين شُرِعَ الجهادُ لا تَبْطُلُ المحاجَّةُ.

ولهذا نقولُ للمؤلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: عفا اللهُ عنك! أولًا: أَثْبِتْ لنا أنَّ هذه الآيةَ قبل الأمرِ بالجِهادِ، فإذا قال هذه الآيةُ مَكِّيَّةٌ والجِهادُ إنما أُمِرَ به في المدينةِ، نقولُ: أَثْبَتَّ لنا أنه لمَّا أُمِرَ بالجِهادِ بَطَلَتْ هذه البراءةُ، لا يستطيعُ أن يُثْبِتِ ذلك.

واللهُ سبحانه وتعالى إنما يتحدَّث في هذا عن حالِ المشركين، والنبيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِم في مكَّةَ، وهذا أصلًا لا جهادَ فيه، حتى نقولَ: إن هذا من بابِ النَّسْخِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا} في المعادِ، لفصلِ القضاءِ، {وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} المَرْجِعُ]، والجملةُ {وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} فيها حصرٌ طريقُهُ تقديمُ ما حقُّهُ التأخيرُ.

(١) ذكر سبب النزول.

عن قتادة في قوله -تعالى-: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)}، قال: هم اليهود والنصارى حاجوا أصحاب نبي الله ﷺ؛ فقالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن أولى بالله منكم.

=

=

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ١٩٠- ١٩١)، والطبري في "جامع البيان" (٢٥/ ١٣) من طرق عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٤٢) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله-تعالى-: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)}؛ قال: هم أهل الكتاب، كانوا يجادلون المسلمين، ويصدونهم عن الهدى من بعد ما استجابوا لله، وقال: هم أهل الضلالة، كان استجيب لهم على ضلالتهم، وهم يتربصون بأن تأتيهم الجاهلية.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٥/ ١٢، ١٣)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٣٤١).

وسنده ضعيف جداً؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن عكرمة؛ قال: لما نزلت: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: ١]؛ قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخل الناس في دين الله أفواجاً؛ فأخرجوا من بين أظهرنا، فعلام تقيمون بين أظهرنا؟ فنزلت: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٤٢)، و"لباب النقول" (ص ١٨٧، ١٨٨) ونسبه لابن المنذر. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن الحسن في قوله: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ}؛ قال: قال أهل الكتاب لأصحاب محمد ﷺ: نحن أولى بالله منكم؛ فأنزل الله: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ}؛ يعني: أهل الكتاب.

=

=

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٤٢) ونسبه لعبد بن حميد. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أتاه رجل فسأله المعنى عن قوله عَزَّ وَجَلَّ: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}؛ فقال سعيد بن جبير: قرابة محمد ﷺ، قال ابن عباس: عجلت؛ إن رسول الله ﷺ لم يكن بطن من بطون قريش إلا ولرسول الله ﷺ فيهم قرابة؛ قال: فنزلت: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} إلا أن تصلوا قرابة ما بيني وبينكم.

أخرجه أحمد في "المسند" (١/ ٢٢٩)، والطبري في "جامع البيان" (٢٥/ ١٥) من طريق شعبة ثني عبد الملك بن ميسرة عن طاووس قال: سأل رجل ابن عباس (وذكره).

قلنا: وهذا سند صحيح على شرط الشيخين.

وقد أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٣٤٩٧، ٤٨١٨)، والترمذي (رقم ٣٢٥١) وغيرهما وليس فيه التصريح بسبب النزول.

وقد عزاه السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٤٥) -أيضًا- لمسلم، وما نراه إلا وهمًا؛ فقد ذكر الحديث المزي في "تحفة الأشراف" (رقم ٥٧٣١) ولم يعزه لمسلم -والله أعلم-.

وأخرجه أحمد بن منيع في "مسنده"؛ كما في "المطالب العالية" (٩/ ٢٩ رقم ٤٩٠١ - المسندة)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٥٣ رقم ٧٨١٢)، والحاكم (٣/ ٢٣٥ رقم ٣٧١٢ - ط دار المعرفة) عن هشيم ثنا داود أبي هند عن الشعبي؛ قال: أكثر الناس علينا في هذه الآية: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}؛ فكتبت إلى ابن عباس، فكتب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ كان واسط النسب في قريش، ولم يكن بطنًا من بطونهم إلا وقد ولدوه؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ:

=

=

{لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ} ما أدعوكم إليه إلا أن تودوني لقرابتي منكم وتحفظوني لها. وسنده صحيح.

قال الحافظ ابن حجر: "صحيح".

ثم أخرجه أحمد بن منيع في "مسنده"؛ كما في "إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٥٤ رقم ٧٨١٣- المسندة)، والحاكم (رقم ٣٧١٢) عن هشيم أنبأ حصين عن عكرمة بنحوه.

قلنا: وهذا سند صحيح -أيضًا-.

قال البوصيري عقبه: "هذا إسناد رواته ثقات".

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: نزلت هذه الآية بمكة، وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله -تعالى-: {قُلْ} لهم يا محمد، {لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ}؛ يعني: على ما أدعوكم إليه: {أَجْرًا} عوضًا من الدنيا {إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} إلا الحفظ في قرابتي فيكم، قال: المودة: إنما هي لرسول الله ﷺ في قرابته، فلما هاجر إلى المدينة أحب أن يلحقه بإخوته من الأنبياء عليهم السلام فقال: {لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا}؛ فهو لكم {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي} [هود: ٥١]؛ يعني: ثوابه وكرامته في الآخرة؛ كما قال: نوح عليه السلام: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)} [الشعراء: ١٠٩]، وكما قال هود وصالح وشعيب لم يستثنوا أجراً، كما استثنى النبي ﷺ فرده عليهم، وهي منسوخة.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٤٦، ٣٤٧)، وقال: وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس به.

وسنده ضعيف؛ لانقطاعه؛ فإن الضحاك لم يلق ابن عباس لم يدركه، هذا: إن صح السند إليه.

=

=

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا، فكأنهم فخروا، فقال ابن عباس أو العباس -شك عبد السلام-: لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ؛ فأتاهم في مجالسهم، فقال: "يا معشر الأنصار! ألم تكونوا أذلة؛ فأعزكم الله بي"، قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ! قال: "ألم تكونوا ضلّالاً؛ فهداكم الله بي"، قالوا: بلى يا رسول الله! قال: "أفلا تجيبوني؟ "، قالوا: ما نقول يا رسول الله؟! قال: "ألا أتقولون: ألم يخرجك قومك؛ فآويناك؟ أَوَلم يكذبوك؛ فصدقناك؟ أَوَلم يخذلوك؛ فنصرناك؟ "، قال: فما زال يقول؛ حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله، قال: فنزلت: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٥/ ١٦)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ١٢١)، والطبراني في "المعجم الأوسط" (٤/ ١٥٩ رقم ٣٨٦٤) من طريق عبد السلام بن حرب؛ قال: ثنا يزيد بن أبي زياد عن مقسم عن ابن عباس به.

وهذا إسناد ضعيف؛ فيه يزيد بن أبي زياد؛ ضعيف، كبر؛ فتغير وصار يتلقن؛ كما في "التقريب" (٢/ ٣٦٥).

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٠/ ٣٢): "رواه الطبراني في "الأوسط" عن شيخه علي بن سعيد بن بشير وفيه لين، وبقية رجاله وثقوا".

قد توبع عند الطبري وابن أبي حاتم؛ فصح السند إلى يزيد، ولم يتنبه لهذا المعلق على "مجمع البحرين" (٧/ ٩ رقم ٣٩٣٩) فوافق الهيثمي عليه.

وقال الحافظ ابن حجر في "الكاف الشاف" (٢٤٨/ ٩٩١): "وفيه يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف".

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٤٧) وزاد نسبته لابن

=

=

مردويه.

وضعفه الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ١٢١) بيزيد بن أبي زياد.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: قالت الأنصار فيما بينهم: لو جمعنا لرسول الله ﷺ، مالاً فبسط يده لا يحول بينه وبينه أحد، فأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله! إنا أردنا أن نجمع لك من أمولنا؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}؛ فخرجوا مختلفين، فقال بعضهم: ألم تروا إلى ما قال رسول الله ﷺ؟ وقال بعضهم: إنما قال هذا لنقاتل عن أهل بيته وننصرهم؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا} إلى قوله: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} فعرض لهم رسول الله ﷺ بالتوبة إلى قوله: {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} هم الذين قالوا هذا، أن تتوبوا إلى الله وتستغفرونه.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٢/ ٢٦، ٢٧ رقم ١٢٣٨٤)، و"الأوسط" (٦/ ٤٩ رقم ٥٧٥٨)-وعنه ابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٣/ ٢٣٩)- من طريق محمد بن مرزوق؛ قال: نا حسين الأشقر؛ قال: ثنا نصير بن زياد عن عثمان أبي اليقظان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وهذا إسناد ضعيف جداً؛ فيه علل:

الأولى: عثمان أبو اليقظان؛ قال عنه في "التقريب": "ضعيف، اختلط، وكان يدلس ويغلو في التشيع".

الثانيه: نصير بن زياد؛ قال عنه الأزدي: "منكر الحديث".

الثالثة: حسين الأشقر؛ فيه ضعف، وفي "التقريب": "صدوق يهم ويغلو في "التشيع".

=

=

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٠٣): "وفيه عثمان بن عمر أبو اليقظان وهو ضعيف".

وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٨٨): "بسند فيه ضعيف".

وقال في "الدر المنثور" (٦/ ٣٤٨): "بسند ضعيف".

* قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ} [الشورى:١٦]، أي:"والذين يجادلون في دين الله الذي أرسلتُ به محمدًا ﷺ، مِن بعد ما استجاب الناس له وأسلموا".

قال الطبري: يقول:"والذين يخاصمون في دين الله الذي ابتعث به نبيه محمدا ﷺ من بعد ما استجاب له الناس، فدخلوا فيه من الذين أورثوا الكتاب".

قال ابن كثير:"أي: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى".

قال البغوي: أي:"يخاصمون في دينه {مِنْ بَعْدِ} ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام، ليردّوهم إلى دين الجاهلية، كقوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً}، كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم وأولى بالحق. وقيل: من بعد ما استجاب الله لرسوله ونصره يوم بدر وأظهر دين الإسلام".

عن مجاهد، أنه قال في هذه الآية:"{وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ} قال: بعد ما دخل الناس في الإسلام".

وعن مجاهد: "{وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ}، قال: طمع رجال بأن تعود الجاهلية".

قال قتادة:"هم اليهود والنصارى، قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم".

=

=

وفي رواية، قال قتادة:"هم اليهود والنصارى حاجوا أصحاب نبي الله ﷺ، فقالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن أولى بالله منكم".

عن ابن زيد، قوله:"{وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ} .... إلى آخر الآية، قال: نهاه عن الخصومة".

قوله تعالى: {حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [الشورى:١٦]، أي:"حجتهم ومجادلتهم باطلة ذاهبة عند ربهم".

قال السدي:"هم أهل الكتاب للمسلمين: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم".

قال الطبري:"يقول: خصومتهم التي يخاصمون فيه باطلة ذاهبة عند ربهم".

قال ابن كثير:"أي: باطلة عند الله".

قال الراغب:"أي: باطلة زائلة، يقال: أدحضت فلانا في حجته فدحض، وأصله من دحض الرجل، وعلى نحوه في وصف المناظرة:

نظرا يزيل مواقع الأقدام...

و «دحضت الشمس» مستعار من ذلك ".

قال الماتريدي:"يحتمل: أي: {حجتهم داحضة} يوم القيامة؛ أي: باطلة غير مقبولة.

ويحتمل: أي: {حجتهم داحضة}، في الدنيا بما أقام الله- تعالى- من حجج التوحيد؛ فأبطل حججهم".

قوله تعالى: {وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} [الشورى:١٦]، أي:"وعليهم من الله غضب في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب شديد، وهو النار".

قال الطبري:"يقول: وعليهم من الله غضب، ولهم في الآخرة عذاب شديد، وهو عذاب النار".

قال ابن كثير:"{وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ} أي: منه، {وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} أي: يوم

=

القيامة".

عن ابن عباس، قوله: "{وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ}، قال: هم أهل الكتاب كانوا يجادلون المسلمين، ويصدّونهم عن الهدى من بعد ما استجابوا لله. وقال: هم أهل الضلالة كان استجيب لهم على ضلالتهم، وهم يتربصون بأن تأتيهم الجاهلية".

وقال العثيمين: الإعرابُ: (الذين يُحاجون) مُبتدأٌ، و {حُجَّتُهُمْ} مبتدأٌ ثانٍ، و {دَاحِضَةٌ} خبرُ المبتدأِ الثاني، والمبتدأُ الثاني وخبرُهُ في محلِّ رفعٍ خبرُ المبتدأِ الأوَّلِ.

{وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ} أي: يُجادلون فيه، قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [في دين الله]، يعني: يُحَاجُّونَ في دِينِ اللهِ، والصوابُ: العمومُ، فالمحاجَّةُ في اللهِ تَشْمَلُ المحاجَّةَ في دِينِهِ، والمحاجَّةَ في أسمائِهِ وصفاتِهِ، والمحاجَّةَ في ذاتِهِ؛ لأنَّ الآيةَ عامَّةٌ في اللهِ، والمُحاجَّةَ أيضًا في قَدَرِهِ؛ فكوْنُنَا نخُصُّها في دينِ اللهِ، فيه نظرٌ حتى لو قُدِّر أنَّ الذين يُحاجُّونَ إنما يحاجُّونَ في الدِّينِ، ويقولون: إنه ليس بصحيحٍ، فأَخْذُها بالعمومِ أَوْلَى؛ لأنَّ العِبْرَةَ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السَّبَبِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [نَبِيَّهُ] مفعولٌ {يُحَاجُّونَ}، يعني: كأنه قال: من يحاجُّونَ؟ فيقالُ: نَبِيَّهُ. وهذا أيضًا فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ تقييدَ المحاجَّةِ في اللهِ عَزَّوَجَلَّ مع النبيِّ ﷺ غيرُ صحيحةٍ؛ لأنَّهم يُحاجُّونَ نبيَّ اللهِ، ويحاجُّونَ غيرَهُ أيضًا، فإطلاقُ الآيةِ أَوْلى.

ويقولون: إنَّ حَذْفَ المفعولِ يفيدُ العمومَ، فإبقاءُ الآيةِ على ما هي عليه هو الأَوْلى.

إذن: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ}؛ أي: يحاجُّون كلَّ من يجادلُهُم في اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأيضًا ليس بدِينِ اللهِ فقط، بل في دينِ اللهِ، وذاتِ اللهِ، وكلِّ ما يتعلَّقُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

=

وقولُهُ: {مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ} يعني: من بَعْدِ ما استجاب له مَنْ مَنَّ اللهُ عليهم بالإستجابةِ. وهذه الجملةُ كإقامةِ البرهانِ على هؤلاء.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ} بالإيمانِ، لظهورِ معجزتِهِ، وهم اليهودُ]. هذا قولُهُ: [{مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ} بالإيمانِ] صحيحٌ، وقولُهُ: [لظهورِ معجزتِه] بناءً على أنهم يحاجُّونَ النبيَّ ﷺ وإذا قُلْنَا بالعمومِ؛ فلا حاجةَ إلى هذا القيدِ.

وقولُهُ: [وهم اليهودُ] أيضًا فيه نظرٌ، بل نقولُ: كلُّ من يحاجُّ في اللهِ، حتى المشركون من قريشٍ وغيرُهُم حاجَّهُمُ النبيُّ ﷺ أليسوا يخاصمونه دائمًا، ويستهزئون به، ويَسْخَرون منه؟ فتقييدُ هذا أيضًا باليهودِ فيه نظرٌ.

فصار عندنا الآن أشياء في هذه الآيةِ؛ خَصَّصَها المُفسِّر بشيء: الأوَّلُ قَوْلُهُم: {فِي دِينِ اللهِ} وهو أعمُّ، والثاني: نَبِيُّهُ، وهو كذلك أعمُّ.

قولُهُ: {حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ} نقولُ: داحضةٌ باطلةٌ، لكنَّ الدحوضَ أشدُّ البطلانِ. يعني: باطلةٌ بطلانًا لا فوقه، {دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ} فلا تنفعُهم، وسيأتي- إن شاء اللهُ- بيانُ هذا في فائدةِ قولِهِ: {عِنْدَ رَبِّهِمْ}.

قولُهُ: {وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} عليهم غضبٌ من اللهِ ومن أولياءِ اللهِ، ولهذا لم يقيِّدِ الغضبَ بكونِهِ من اللهِ؛ لإفادةِ العمومِ. وتأمَّلْ سورةَ الفاتحةِ حيث قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} [الفاتحة: ٧] لأنَّ النعمةَ من اللهِ، وإضافتَها إلى الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ ثناءٌ ومَدْحٌ للهِ، {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} ولم يَقُلْ غيْرَ الذين غَضِبْتَ عليهم، بل قال: {الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ}؛ ليَشْمَلَ غضبَ اللهِ، وغضبَ أوليائِهِ من الأنبياءِ والصِّدِّيقِينَ والشهداءِ والصالحين، ولئلا يُسْنِدُ اللهُ الغضبَ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في هذا المقامِ؛ وإلا فإنَّ الغضبَ قد أُسْنِدَ إلى اللهِ تعالى في قولِهِ: {مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ}

=

اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧).

{الله الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَاب} الْقُرْآن {بِالْحَقِّ} مُتَعَلِّق بِأَنْزَلَ {وَالْمِيزَان} الْعَدْل {وَمَا يُدْرِيك} يَعْلَمك {لَعَلَّ الساعة} أي إتيانها {قريب} وَلَعَلَّ مُعَلَّق لِلْفِعْلِ عَنْ الْعَمَل وَمَا بَعْده سَدَّ مَسَدّ الْمَفْعُولَيْنِ(١).

=

[المائدة: ٦٠].

وقوله: {وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} أي: قويٌّ، قد يكونُ في الدنيا، وقد يكونُ في الآخرةِ، وقد يكونُ فيهما.

(١) قوله تعالى: {اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ} [الشورى:١٧]، أي:"الله الذي أنزل القرآن وسائر الكتب المنزلة بالصدق، وأنزل الميزان وهو العدل؛ ليحكم بين الناس بالإنصاف".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {اللهُ الَّذِي أَنزلَ} هذا القرآن {بِالْحَقِّ} وأنزل الميزان وهو العدل، ليقضي بين الناس بالإنصاف، ويحكم فيهم بحكم الله الذي أمر به في كتابه".

قال الزمخشري:"{الْكِتَابَ}، أي: جنس الكتاب، {وَالْمِيزَانَ}: والعدل والتسوية. ومعنى إنزال العدل، أنه أنزله في كتبه المنزلة. وقيل: الذي يوزن به. بالحق: ملتبسا بالحق، مقترنا به، بعيدا من الباطل أو بالغرض الصحيح كما اقتضته الحكمة. أو بالواجب من التحليل والتحريم وغير ذلك".

قال ابن كثير:"{الْكِتَابَ}، يعني: الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه {والميزان}، وهو: العدل والإنصاف.. وهذه كقوله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: ٢٥] وقوله: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} [الرحمن: ٧- ٩]".

=

=

قال مقاتل:"يقول: لم ينزله باطلا لغير شيء، و «الميزان»، يعني: العدل".
قال مجاهد وقتادة:"«الميزان»: هو العدل".
قال السمعاني:"وسمي العدل ميزانا؛ لأن الميزان يكون مناصف الناس فيما بينهم، وقيل: هو الميزان نفسه، ومعنى الإنزال: أن الله تعالى أنزل الحديد من السماء، ومن الحديد لسان الميزان وصنجاته".
قوله تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ} [الشورى:١٧]، أي:"وأي شيء يدريك ويُعْلمك لعل الساعة التي تقوم فيها القيامة قريب؟ ".
قال عون بن عبد الله بن غنية:"{لعلّ} من الله واجب".
قال الطبري: يقول:"وأيّ شيء يدريك ويعلمك، لعل الساعة التي تقوم فيها القيامة قريب".
قال مقاتل:"وذلك أن النبي ﷺ ذكر الساعة وعنده أبو فاطمة ابن البختري، وفرقد بن ثمامة، وصفوان بن أمية، فقالوا للنبي ﷺ: متى تكون الساعة؟ تكذيبها بها. فقال الله- تعالى-: {وما يدريك لعل الساعة}، يعني: القيامة {قريب} ".
قال ابن كثير:"قوله: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ} فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وتزهيد في الدنيا ".
قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف يوفق ذكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟
قلت: لأنّ الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط، فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم، ويوفى لمن أوفى ويطفف لمن طفف".
وقال العثيمين: قوله تعالى: {اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{الْكِتَابَ} القرآنُ {بِالْحَقِّ} متعلق بِـ {أَنْزَلَ}].

=

=

أولًا: قولُ المُفسِّر: [{الْكِتَابَ}؛ أي: القرآنُ] فيه نظرٌ؛ وهو أن الكتابَ أعمُّ من القرآنِ؛ بدليلِ قولِهِ تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ} [الحديد: ٢٥]، التي سُقْنَاها تطابقُ هذه الآيةَ التي معنا، والمُفسِّر خصَّ الكتابَ بالقرآنِ، وفيه نظرٌ، بل الصوابُ أن المرادَ بالكتابِ كلُّ كتابٍ أَنْزَلَه اللهُ فـ (أل) هنا للجنسِ، وقولُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بِالْحَقِّ} يقولُ المُفسِّر: متعلِّقٌ بـ {أَنْزَلَ}] وعلى هذا يكونُ المعنى: أن نزولَ هذه الكتبِ من عندِ اللهِ حقٌّ.

ولكنا نقولُ: الآيةُ أعمُّ مما قال المُفسِّر، فهي نازلةٌ بالحقِّ، يعني أنَّهَا نزلتْ حقًّا من عندِ اللهِ، وهي أيضًا متصفةٌ بالحقِّ؛ بمعنى أنها جاءت بالحقِّ، والفَرْقُ بَيْنَ المعنَيَيْن ظاهرٌ؛ لأنَّها على ما فَسَّرْنا تتضمَّنُ أن هذه الكتبَ حقٌّ من عندِ اللهِ، وأن ما جاءت به هذه الكتبُ فهو حقٌّ، فتكونُ الباءُ هنا على كلامِ المُفسِّر تكونُ للتَّعْدِيَةِ، وعلى ما قلنا: تكونُ للتعديةِ والمصاحبةِ أو للملابَسَةِ.

وقوله: {بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [العدْلُ] وعَبَّرَ عن العدلِ بالميزانِ؛ لأنَّه يُعْرَفُ به العدلُ {وَمَا يُدْرِيكَ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أيْ ما يعلمك] أَيُّهَا المخاطَبُ {لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ} أي: إتيانُها قريبٌ، وعَبَّرَ المُفسِّر بقولِهِ: [أي إتيانَها] ليطابِقَ قولَهُ: {قَرِيبٌ}؛ لأنَّ قريبٌ مُذَكَّرٌ والساعةَ مؤنثٌ وكان مقتضى ذلك أن يقولَ: "وما يدريك لعل الساعة قريبة"، لكنه قال: {قَرِيبٌ} احتاج المُفسِّر أن يُؤَوِّلَ هذا إلى قولِهِ: "إتيانها" حتى يكون مُذَكَّرًا ويكونَ قريبًا مطابقًا له. إذن فالآيةُ على تقديرِ المضافِ ألجأُ إلى تقديرِهِ أن الخبرَ مُذَكَّرٌ والساعةَ مُؤَنَّثٌ.

وقال بعضُ العلماءِ: إن {قَرِيبٌ} صفةٌ يستوي فيها المذكَّرُ والمؤنَّثُ؛ كقتيلٍ وجريحٍ، وقال: إن هذا له نظائرُ في القرآنِ منها قولُهُ تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} [الأحزاب: ٦٣]، ومنها قولُهُ تعالى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ

=

يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا

=

مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٦]. قال: فلما اطَّرد تذكيرُها في مواضعَ عدَّةٍ وَجَبَ أن يقال: إن قريبٌ- يعني هذا اللفظَ- يستوي فيه المُذَكَّرُ والمؤنَّثُ؛ وبناءً على هذا لا نحتاجُ إلى تقديمٍ؛ لأنَّ الأصلَ في الكلامِ عدمُ التقديمِ.

وقوله: {قَرِيبٌ} وَصَدَقَ اللهُ ﷻ الساعةُ مهما طال الزمنُ فهي قريبةٌ، لا من حيث الساعةُ العموميةُ ولا من حيثُ الساعةُ الخصوصيَّةُ. الساعةُ الخصوصيَّةُ ساعةُ كلِّ إنسانٍ بحَسَبِه، ساعةُ كلِّ واحدٍ منا قريبةٌ، لو نَبْلُغُ آلافَ السنين؛ لأنَّ ما مضى من سنين كأن لا شيءَ، الآن مضى أمسِ القريبُ كأنه لم يَكُنْ، ويومُ ولادتِك كأنه أمسِ.

إذن الساعةُ قريبٌ باعتبارِ كلِّ إنسانٍ بنفْسِه، وكذلك الساعةُ الكبرى هي قريبةٌ أيضًا {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [النازعات: ٤٦]، {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ} ولذلك من عباراتِ الناسِ: "كلُّ آتٍ قريبٌ، وكلُّ ماضٍ بعيدٌ".

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [و {لَعَلَّ} معلقٌ للفعلِ عن العملِ، وما بعده سدَّ مسدَّ مفعولين]. {وَمَا يُدْرِيكَ} تَنْصِبُ ثلاثةَ مفاعيلَ:

المفعولُ الأولُ موجودٌ، وهو قولُهُ: {وَمَا يُدْرِيكَ}.

والمفعولُ الثاني والثالث تَنْصِبُه، ولكنه عُلِّقَ عن العملِ بالإتيانِ بـ {لَعَلَّ}؛ لأنَّ (لعل) موجِبةٌ لتعليقِ أفعالِ القلوبِ عن العملِ، فتسدُّ مسدَّ المفعولَيْنِ. فـ {لَعَلَّ} معلِّقٌ للفعلِ عن العملِ، والفعلُ المعلَّقُ هو {يُدْرِيكَ} وما بَعْدَه، أي ما بَعْدَ {لَعَلَّ} سدَّ مسدَّ المفعولَيْنِ، والذي بَعْدَ {لَعَلَّ} هو {السَّاعَةَ قَرِيبٌ} فيكونُ هنا {لَعَلَّ} عَلَّقَتْهَا عن العملِ؛ أي أَبْطَلَتْ عَمَلَها لفظًا دونَ المحلِّ، والمعلِّقاتُ كثيرةٌ، ذَكَرَها ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في الألفيَّةِ فَلْيُرْجَعْ إليها.

الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨).

{يَسْتَعْجِل بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا} يَقُولُونَ مَتَى تَأْتِي ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهَا غَيْر آتِيَة {وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ} خَائِفُونَ {مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ} يُجَادِلُونَ {فِي السَّاعَة لَفِي ضَلَال بَعِيد}(١).

---

(١) قوله تعالى: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا} [الشورى:١٨]، أي:"يستعجل بمجيء الساعة الذين لا يؤمنون بها؛ تهكمًا واستهزاءً".

قال الطبري:"يقول: يستعجلك يا محمد بمجيئها الذين لا يوقنون بمجيئها، ظنا منهم أنها غير جائية".

قال مقاتل:"يعني: لا يصدقون بها، هؤلاء الثلاثة نفر، أنها كائنة لأنهم لا يخافون ما فيها".

قال ابن كثير:"{يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا}، أي: يقولون: {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [سبأ: ٢٩]، وإنما يقولون ذلك تكذيبا واستبعادا، وكفرا وعنادا ".

قال ابن مسعود:"لا تقوم الساعة حتى يتمناها المتمنون. فقيل له: يقول الله: {يَسْتَعْجِلُ بِها الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها والَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنها}؟ قال: إنما يتمنّونها خشية على إيمانهم".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ} [الشورى:١٨]، أي:"يستعجل بمجيء الساعة الذين لا يؤمنون بها؛ تهكمًا واستهزاءً، والذين آمنوا بها خائفون من قيامها، ويعلمون أنها الحق الذي لا شك فيه".

قال الطبري:"يقول: وَجِلون من مجيئها، خائفون من قيامها، لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم فيها، ويوقنون أن مجيئها الحقّ اليقين، لا يمترون في مجيئها".

قال ابن كثير:"{وَالَّذِينَ آمَنُوا} خائفون وجلون من وقوعها {وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا}
=

=

كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها ".
قال مقاتل:"يعني: بلال وأصحابه صدقوا النبي ﷺ بالساعة، لأنهم لا يدرون على ما يهجمون منها {ويعلمون أنها الحق} : الساعة أنها كائنة".
قال السمعاني:"أي: خائفون وجلون منها، وخوفهم من المحاسبة الموعودة والجزاء الواقع على الأعمال، {ويعلمون} أنها قائمة لا محالة".
قال ابن قتيبة:" {مُشْفِقُونَ مِنْهَا} ، أي: خائفون".
قال النحاس:"أي: خائفون لأنهم قد أيقنوا بكونها".
عن أبى سريحة قال: "سأل رجل رسول الله- ﷺ- عن الساعة؟ قال: «ما أعددت لها؟» قال: حب الله ورسوله، قال: «فأنت مع من أحببت» ".
وفي رواية عن أنس: أن رجلا من أهل البادية أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، متى الساعة قائمة؟ قال: «ويلك، وما أعددت لها» قال: ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله، قال: «إنك مع من أحببت» فقلنا: ونحن كذلك؟ قال: «نعم» ففرحنا يومئذ فرحا شديدا، فمر غلام للمغيرة وكان من أقراني، فقال: «إن أخر هذا، فلن يدركه الهرم حتى تقوم الساعة».
قال ابن كثير:"فقوله في الحديث: «المرء مع من أحب»، هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها".
قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} [الشورى:١٨]، أي:"ألا إن الذين يخاصمون في قيام الساعة لفي ضلال بعيد عن الحق".
قال الطبري: يقول:"ألا إن الذين يخاصمون في قيام الساعة ويجادلون فيه لفي جَور عن طريق الهدى، وزيغ عن سبيل الحقّ والرشاد، بعيد من الصواب".
قال ابن كثير: أي: "الذين يحاجّون في وجودها ويدفعون وقوعها، {لَفِي} في جهل بيّن؛ لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق

=

=

الأولى والأحرى، كما قال: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧] ".

قال النحاس: أي:"[الذين] يجادلون فيها ليشككوا المؤمنين {لفي ضلال بعيد}، لأنهم لو أفكروا عنه لعلموا أن الذي أنشأهم وخلقهم أول مرة قادر على أن يبعثهم".

عن عطاء: {لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}، "يريد في خسران كبير".

وقال الكلبي: يعني في خطأ بعيد عن الحق".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يقولون: متى تأتي؟ ظنًّا منهم أنَّها غيرُ آتيةٍ] {يَسْتَعْجِلُ بِهَا}؛ أي: يستعجلونها أين هي؟ متى تَكُونُ؟ ليس ذلك حرصًا عليها، ولا رَغبةً فيما يكونُ فيها من الخيرِ، ولكنه استبطاءٌ لها، وإنكارٌ لها، أين الساعةُ التي تقولون؟ كما قال ﷻ: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الجاثية: ٢٥] وهم بهذا مُلَبِّسون مُشَبِّهُون؛ لأنَّهم لم يُقَلْ لهم إنهم يأتون في الدنيا، بل يأتون يومَ القيامةِ.

فالرسُلُ لم تَقُلْ: إن آباءكم سيأتون وأنتم أحياءٌ، لأنَّ من مات لا يُبْعَثُ إلى يومِ القيامةِ {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ} [المؤمنون: ١٥ – ١٦] اللهمَّ إلا أن تكونَ آيةً من آياتِ الرسُلِ، كما جرى لعيسى {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا} أما الذين آمنوا فيقولُ اللهُ عنهم: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [خائفون] {مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ}.

وقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ} والإشفاقُ أشدُّ الخوفِ، وتفسيرُ المُفسِّر له بالخوفِ تقريبٌ، وليس على وجهِ التحديدِ، والإشفاقِ خوفًا وزيادةً، مُشفِقون منها خائفون منها؛ لأنَّهم يَعْلَمُون أنَّها الحقُّ، وأنها ستقومُ، وستكونُ الأهوالُ

=

اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩).

{الله لَطِيف بِعِبَادِهِ} بَرّهمْ وَفَاجِرهمْ حَيْثُ لَمْ يُهْلِكهُمْ جُوعًا بِمَعَاصِيهِمْ {يَرْزُق مَنْ يَشَاء} مِنْ كُلّ مِنْهُمْ مَا يَشَاء {وَهُوَ الْقَوِيّ} عَلَى مُرَاده {الْعَزِيز} الْغَالِب عَلَى أَمْره[1].

=

العظامُ، ستكونُ {الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ} [القارعة: ٥] وسَتُدَكُّ الأرضُ، وكُلما ذُكِرَ في الكتابِ والسُّنَّةِ مما يكُونُ في الآخرةِ، فإنَّ الذين آمنوا مؤمنون به، مشفِقون منه.

قال تعالى: {أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [يُجَادِلُونَ] {فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}.

قوله: {أَلَا} أداةُ استفتاحِ الفائدةُ منها التنبيهُ والتحقيقُ والعنايةُ، ولهذا تأتي بعدها غالبًا (إنَّ)، و {إِنَّ} للتوكيدِ، مثل قولِهِ تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: ٦٢]، {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ} [البقرة: ١٢]، فإذنْ: (أَلا) أداةُ استفتاحٍ تفيدُ التوكيدَ والتنبيهَ والتحقيقَ والعنايةَ.

وقوله: {أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} (إنَّ) للتوكيدِ، واللامُ في قولِهِ: {لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} لامُ التوكيدِ داخلةٌ على الخبرِ {لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}؛ أي: لفي ضلالٍ بعيدٍ عن الهدى؛ لأنَّ الضلالَ قد يكونُ قريبًا، ويهتدي الإنسانُ عن قُرْبٍ، وقد يكونُ بعيدًا فلا يهتدي - والعياذُ باللهِ - إلا بعدَ التي واللُّتَيَّا.

(١) قوله تعالى: {اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ} [الشورى:١٩]، أي:"الله تعالى بارٌّ رحيم بالخلق كثير الإحسان بهم، يفيض عليهم من الخيرات والبركات مع عصيانهم".

قال ابن عباس: "حفي بهم".

قال عكرمة: "بارّ بهم".

قال السدي: "رفيق بهم".

=

=

قال القرظي: "لطيف بهم في العرض والمحاسبة".

قال الطبري: يقول:"الله ذو لطف بعباده".

قال مقاتل:" {الله لطيف بعباده} البر منهم والفاجر، لا يهلكهم جوعا حين قال: {إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا} [الدخان: ١٥] ".

قال السمعاني:"أي: بار حفي رحيم بهم، ويقال: معنى اللطيف هاهنا الرزاق أي: لا يهلكهم جوعا بل يرزقهم. وقد قال بعض أهل العلم: إن المعني بعباده في كل موضع ذكره هو المؤمنون خاصة، والهاء للإضافة، وباء التخصيص توجب هذا وتقتضيه".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرا عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحدا منهم، سواء في رزقه البرّ والفاجر، كقوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٦] ولها نظائر كثيرة".

قال الزمخشري: أي:"برّ بليغ البرّ بهم، قد توصل برّه إلى جميعهم، وتوصل من كل واحد منهم إلى حيث لا يبلغه، وهم أحد من كلياته وجزئياته ".

قوله تعالى: {يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ} [الشورى:١٩]، أي:"يوسِّع الرزق على مَن يشاء".

قال الطبري: يقول:"يرزق من يشاء فيوسع عليه ويقتر على من يشاء منهم".

قال ابن كثير:"أي: يوسع على من يشاء".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} [الشورى:١٩]، أي:"وهو القوي الذي له القوة كلها، العزيز في انتقامه من أهل معاصيه".

قال الطبري: " {وَهُوَ الْقَوِيُّ} الذي لا يغلبه ذو أيد لشدته، ولا يمتنع عليه إذا أراد عقابه بقدرته، {العَزِيزُ} في انتقامه إذا انتقم من أهل معاصيه".

=

=

قال مقاتل:"{وهو القوي} في هلاكهم ببدر، {العزيز} في نقمته منهم".

قال السمعاني:"أي: القوي في نصرة المؤمنين، وقيل: في القدرة على إيصال الرزق إليهم، وقوله: {العزيز} أي: الغالب الذي لا يغالب".

قال ابن كثير:"أي: لا يعجزه شيء".

عن قتادة: {الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}، قال: "قويا في أمره، عزيزا في نقمته".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ} الجملةُ استئنافيَّةٌ، وهي مبتدأٌ آية {اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ} لا يخفى أنَّها مبتدأٌ وخبرٌ، ومعنى اللطيفِ هو الذي يَلْطُفُ بالعبدِ، فيُقَدِّرُ له من التيسيرِ ما لا يَخْطِرُ له على بالٍ، قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في النونيَّةِ:

وهو اللطيفُ بعبْدِه ولعَبْدِه ....

لطيفٌ به، يَرْفُقُ به ويُيَسِّرُ له الأمرَ، لطيفٌ لعبْدِه يُقَدِّرُ له من الأمورِ الخارجيَّةِ ما يكونُ فيه اللطفُ. كما قال ﷻ: {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ} إذن: اللطافةُ تعتبرُ كنايةً عن تيسيرِ الأمرِ وتسهيلِ الأمرِ لمن شاء من عبادِه. لكن هنا يقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{بِعِبَادِهِ} بَرُّهُمْ وَفَاجِرُهُمْ]. حتى الفاجرُ اللهُ لطيفٌ به، لطيفٌ به بالمعنى العامِّ. ولهذا يُنَزِّلُ عليهم المطرَ، ويُنبتُ لهم النباتَ، ويدفعُ عنهم الشرورُ ... إلخ.

فاللهُ ﷻ لطيفٌ بالعبادِ كُلِّهم؛ البَرِّ والفاجِرِ، لكنَّ لُطْفَه بالبَرِّ لطفٌ خاصٌّ، مُستمرٌّ في الدنيا وفي الآخرةِ، ولُطْفَه بالفاجرِ لُطْفٌ عامٌّ، يكونُ ابتلاءً وامتحانًا، وربما يزدادُ به الفاجرُ فجورًا بما لطف اللهُ به، كما قال النبيُّ ﷺ: "إنَّ اللهَ ليُملي للظالِمِ حتى إذا أَخَذَه لم يُفْلِتْهُ".

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [حيث لم يُهْلِكْهُم جوعًا بمعاصيهم]، وإنما فَسَّرها بقولِهِ: [حيث لم يُهْلِكْهُم جوعًا بمعاصيهم] توطئةً لقولِهِ تعالى: {يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ

=

=

{يَـرْزُقُ} أي: يعطـي، فـالرِّزقُ بمعنـى العطـاءِ، ومنـه قولُـهُ تعـالى: {وَإِذَا حَـضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ} أي: أَعْطُوهُمْ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مَنْ يَشَاءُ} من كلٍّ منهم ما يشاءُ]؛ لأنَّ المسألةَ فيها مرزوقٌ وفيها رزقٌ، والمرزوقُ عَبَّرَ عنه بقولِهِ: {مَنْ يَشَاءُ} وأتى بـ (من) التي للعقلاءِ، والمرزوقُ قَدَّرَها الشارحُ بقولِهِ: [ما يشاءُ].

إذن: لـدينا رزقٌ ومـرزوقٌ، المـرزوقُ عَبَّـرَ اللهُ عنـه بقولِـهِ: {مَـنْ يَـشَاءُ} والـرزقُ حُذِفَ لِلْعِلْمِ به، وقَدَّرَهُ المفَسِّرُ بقولِهِ: [ما يشاءُ].

ونظيرُ هذا قولُهُ تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ}.

وقولُهُ: {مَنْ يَشَاءُ} تَرِدُ كثيرًا في القرآنِ أشياءُ معَلَّقَـةٌ بالمشيئةِ؛ فهـل هـذه الأشـياءُ المعَلَّقَـةُ بالمـشيئةِ هـي لمـشيئةٍ مُجَـرَّدَةٍ أو لمـشيئةٍ مقرونـةٍ بالحكمـةِ؟ الجـوابُ: الثاني، يتعيَّنُ هـذا؛ لأنَّ اللهَ سبحانه وتعـالى في أفعالِـهِ لا يفعـلُ إلا الحكمـةَ؛ كلَّمـا وجدْتَ مُضافًا إلى اللهِ معلَّقًا بالمشيئةِ، فاعلمْ أنه مقرونٌ بالحكمةِ.

ودليلُ ذلك: قولُهُ تبارك وتعالى: {وَمَا تَـشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَـشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَـانَ عَلِيمًـا حَكِيمًا} [الإنسان: ٣٠]، ففي هذا إشارةٌ إلـى أنَّ مـشيئةَ اللهِ عَجَّلَّ صـادرةٌ عـن عِلْـمٍ وحكمةٍ، فَخُذْها بقلبِكَ، كلما وجدْتَ شيئًا من أفعـالِ اللهِ، أو أحكـامِ اللهِ الـشرعيَّةِ مُعلقًا بالمشيئةِ فاعلمْ أنه مقرونٌ بالحكمةِ؛ خلافًا لمن قال من الجهميَّةِ وغيرِهِم: إنَّ أفعالَ اللهِ تعالى لمجرَّدِ المشيئةِ، وليست مقرونةً بحكمةٍ.

قولُهُ: {وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} القويُّ ضدُّ الضعيفِ؛ يعني ذا القوَّةِ الكاملـةِ، التـي لا يَلْحَقُهَا ضعفٌ، ولنسأَلْ أَنْفُسَنا: هل لدينا قوةٌ كاملةٌ؟ الجـوابُ: لا، ثـم لا، ثـم لا، وهل قُوَّتُنا النَّاقصةُ تستمرُّ؟ لا، وهل قُوَّتُنا الناقـصةُ ثابتـةٌ لنـا مـن حين وُلِـدْنا؟ لا، واستمعْ إلى قولِ اللهِ عَجَّلَّ: {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ} هـذا واحـدٌ، مـرةً ثانيـةً {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُـمَّ جَعَـلَ مِـنْ بَعْـدِ قُـوَّةٍ ضَـعْفًا وَشَـيْبَةً} هكـذا حـالُ

=

=

الإنسانِ، ولا مفرَّ منها، الرَّبُّ ﷻ هو القويُّ ذو القوَّةِ التامَّةِ التي لم تَزَلْ ولا تزالُ.
واستمعْ إلى قولِ عادٍ حين فخروا بقُوَّتهم؛ وقالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} فقال اللهُ ﷻ: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً} اللهُ أكبرُ، لو قالت أمريكا الآن: من أشدُّ مِنَّا قوةً، ماذا نقولُ؟ اللهُ الذى خَلَقَكَم، أنتم الآن مخلوقون ضعفاءُ، ولو شاء اللهُ لَسَلَبَكم القوةَ والقدرةَ والعقولَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى الذي خَلَقَكُم هو أشدُّ منكم قُوَّةً، وكذلك غيرُها من الدولِ الذين يعتزُّون بقُوَّتِهم المادِّيَّةِ، نقول: إن فوقكم رَبَّ العبادِ ﷻ الذي خَلَقَكُم ولم تكونوا شيئًا فهو أشدُّ منكم قُوَّةً.
وقد يكونُ تفتيتُ القوةِ من نفسِ القوةِ؛ فالإتحادَ السوفيتيَّ كان يُهَدِّدُ العالَمَ من قَبْلُ والآن الإتحادُ السوفيتيُّ فَتَّتَه اللهُ من داخِلِهِ.
فالمهمُّ أن اللهَ هو القويُّ الكاملُ القُوَّةِ، ولا يُمْكِنُ أن يَلْحَقه ضَعْفٌ.
هنا فائدةٌ: هناك قدرةٌ وقوةٌ، وهناك ضعفٌ وعجزٌ، الذي يُقابِلُ القوَّةَ الضَّعْفُ، والدليلُ: {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا} [الروم: ٥٤] والذي يقابِلُ القدرةَ العجْزُ، والدليلُ: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [فاطر: ٤٤] لم يَقُلْ: عليمًا قويًّا، أَيُّهُما أشدُّ وأكْمَلُ؟ نقولُ: كُلُّ شيءٍ بحسَبِ، القدرةِ لا يُوصَفُ بها إلا ذَوُو الإرادةِ؛ فالجدارُ مثلًا لا تقُل: إنه قديرٌ، والقوةُ يوصَفُ بها ذوو الإرادةِ وغيرُهُم، تقولُ: الجدارُ قويٌّ، والحجارةُ قويَّةٌ. لكن لا تقولُ: قديرةٌ.
والقوةُ أَكْمَلُ من جهةٍ أخرى؛ لأنَّه ليس كُلُّ قادرٍ قويًّا، فلو امتحنَّا واحدًا منكم، وقلنا: احملْ هذا الحَجَرَ، فأراد أن يَحْمِلَهُ عَجَزَ أن يُقِلَّه عن الأرضِ، فهل نقولُ هذا غيرُ قويٍّ أم غير قادرٍ؟ الجوابُ: غير قادرٍ؛ لأنَّه عجَز لم يُزَحْزِحْه.
ولو قلنا لآخَرَ: احمِلْ هذا الحَجَرَ؛ فكشف عن ذراعيه ثم حَمَلَه، لكنه تَعَثَّرَ، نقولُ: غير قويٍّ، فهو قادرٌ، الآن حَمَلَه، لكنه غَيْرُ قويٍّ. فصارت القوةُ من هذه

=

=

الناحيةِ أَكْمَلُ؛ لأنَّها هي القدرةُ على الشيءِ بلا ضعفٍ.

هنا يقولُ ﷻ: {وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الْعَزِيزُ} يعني: الغالبُ على أَمْرِه]؛ قَسَّمَ العُلَماءُ رحمهم الله العزَّةَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: عِزَّةَ القَدْرِ، وعزَّةَ القَهْرِ، وعزَّةَ الإمتناعِ.

الأولُ: عزَّةُ القَدْرِ: يعني: أن قَدْرَه عظيمٌ؛ لا نظيرَ له، ومنه قولُ العربِ: هذا عزيزٌ. يعني: نادرُ الوجودِ، هذه عزَّةُ القَدْرِ.

الثاني: عزَّةُ القَهْرِ: يعني: الغلبةَ، وهذا أكثرُ ما تَرِدُ بهذا المعنى؛ فالعزيزُ بمعنى الغالِبِ، ومنه قولُهُ تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} ردًّا على قولِ المنافقين؛ {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}.

الثالثُ: عزَّةُ الإمتناعِ، يعني: أنه يمتنعُ عَلَيْهِ السوءُ ﷻ ويمتنعُ عَلَيْهِ النقصُ؛ يُحاولُ المجرمون أن يصفوه بالنقصِ، ولكنه يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ، ومنه قولُهُم: هذه أرضٌ عزازٌ. يعني: شديدةٌ صلْبَةٌ، الشديدةُ الصُّلْبَةُ التي لا تُؤَثِّرُ فيها المَعاولُ، يقولون: إنها عزازٌ، وفي لغتنا نحن العامَّةَ يقولون: عَزا فيحذفون الزاي الثانيَةَ أرضًا عزا؛ يعني: صُلْبَةً.

قال ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهُو العزيزُ فلن يُرامَ جَنَابُه ... أنى يُرامُ جنابُ ذي السلطانِ
وهُو العزيزُ القاهرُ الغلَّابُ لم ... يَغْلِبْه شيءٌ هذه صفتانِ
وهُو العزيزُ بقوةٍ هي وصفُهُ ... فالعزُّ حينئذ ثلاثُ معانِ
وهُو الذِي كمَلت له سبحانَه ... مِن كُلِّ وجهٍ عادِمِ النُّقصانِ

فالعزُّ له ثلاثةُ معانٍ: اللهُ ﷻ هو القويُّ، وهو الغالبُ، وإذا جُمِعَ بيْنَ القُوَّةِ والغَلَبَةِ كَمُلَ السلطانُ؛ لأنَّ من النَّاسِ من يكونُ قويًّا ولكن لا يَغْلِبُ؛ أرأيْتُمْ لو كان هناك رجلٌ قويًّا جدًّا قُوَّةَ الحِصانِ، لكنه جبانٌ؛ فإنه لا يَغْلِبُ، لأنَّه جبانٌ؛ إذا اجتمعتِ

=

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠).

{مَنْ كَانَ يُرِيد} بِعَمَلِهِ {حَرْث الْآخِرَة} أَيْ كَسْبهَا وَهُوَ الثَّوَاب {نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثه} بالتضعيف فيه بالحسنة إلَى الْعَشْرَة وَأَكْثَر {وَمَنْ كَانَ يُرِيد حَرْث الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا} بِلَا تَضْعِيف مَا قُسِمَ له {وما له في الآخرة من نصيب}[1].

=

القوةُ والعزةُ كَمُلَ السلطانُ {وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} ... إلخ.

(١) قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ} [الشورى:٢٠]، أي:"من كان يريد بعمله ثواب الآخرة فأدى حقوق الله وأنفق في الدعوة إلى الدين، نزد له في عمله الحسن، فنضاعف له ثواب الحسنة إلى عشر أمثالها إلى ما شاء الله من الزيادة".

قال ابن زيد:"من كان يريد الآخرة وعملها نزد له في عمله".

قال السدي:"من كان يريد عمل الآخرة نزد له في عمله".

قال الطبري: يقول:"من كان يريد بعمله الآخرة، نزد له في عمله الحسن، فنجعل له بالواحدة عشرا، إلى ما شاء ربنا من الزيادة".

قال مقاتل:"يقول: من كان من الأبرار يريد بعمله الحسن الثواب الآخرة {نزد له في حرثه}، يعني: بلالا وأصحابه حتى يضاعف له {في حرثه}، يقول: في عمله".

قال ابن قتيبة:"{مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ}، أي: عمل الآخرة. يقال: فلان يحرُث للدنيا؛ أي: يعمل لها ويجمع المال، ومنه قول عبد الله بن عمرو: «احرُثْ لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمَلْ لآخرتك كأنك تموت غدًا». ومن هذا سمّي الرجل: «حارثًا»، وإنما أراد: من كان يريد بحرثه الآخرةَ، أي: بعمله، {نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ} أي: نضاعفْ له الحسناتِ".

=

=

قال ابن كثير:"{مَنْ كَانَ يُرِيدُ} عمل الآخرة، نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونكثر نماءه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله".

قال الزمخشري:"سمى ما يعمله العامل مما يبغى به الفائدة والزكاء: حرثا على المجاز".

قوله تعالى: {وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} [الشورى:٢٠]، أي:"ومن كان يريد بعمله الدنيا وحدها، نؤته منها ما قسمناه له، وليس له في الآخرة شيء من الثواب".

قال الطبري: "يقول: ومن كان يريد بعمله الدنيا ولها يسعى لا للآخرة، نؤته منها ما قسمنا له منها، {وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}، قال: للكافر عذاب أليم".

قال مقاتل:"{ومن كان} من الفجار {يريد} بعمله ثواب الدنيا، {نؤته منها وما له في الآخرة} يعنى: الجنة لهولاء الثلاثة من حظ، ثم نسختها: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ} [الإسراء: ١٨] ".

قال ابن عباس:"يقول: من كان إنما يعمل للدنيا نؤته منها".

قال قتادة:"يقول: من آثر دنياه على آخرته لم نجعل له نصيبا في الآخرة إلا النار، ولم نزده بذلك من الدنيا شيئا إلا رزقا قد فرغ منه وقسم له".

قال ابن زيد:"من أراد الدنيا وعملها آتيناه منها، ولم نجعل له في الآخرة من نصيب، الحرث: العمل، من عمل للآخرة أعطاه الله، ومن عمل للدنيا أعطاه الله".

وقال النحاس:"في معناه ثلاثة أقوال:

- منها أن المعنى: نؤته منها ما نريد، كما قال سبحانه: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ} [الإسراء: ١٨]

=

=

- ومنها أن يكون المعنى: ندفع عنه من آفات الدنيا.
- والقول الثالث أن المعنى: من كان يفعل الخير ليثنى عليه تركناه وذلك ولم يكن له في الآخرة نصيب".

قال ابن كثير: معناه": ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة همَّة البتة بالكلية، حَرَمه الله الآخرة والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل له لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة. والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التي في «سبحان»، وهي قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا} [الإسراء: ١٨- ٢١] ".

عن أبي بن كعب، قال: رسول الله ﷺ: "بشر هذه الأمة بالسَّناء والرفعة، والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب".

قال السمعاني:"قوله: {وما له في الآخرة من نصيب} هذا فيمن لم يعمل إلا للدنيا، فأما من عمل للدنيا والآخرة فيجوز أن يؤتيه الله الدنيا والآخرة".

قال الزمخشري:"وفرق بين عملى العاملين: بأن من عمل للآخرة وفق في عمله وضوعفت حسناته، ومن كان عمله للدنيا أعطى شيئا منها لا ما بريده ويبتغيه. وهو رزقه الذي قسم له وفرغ منه وماله نصيب قط في الآخرة، ولم يذكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب، على أن رزقه المقسوم له واصل إليه لا محالة، للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب".

=

وقال العثيمين: قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ} لا يخفى علينا جميعًا من حيث الإعرابُ أنَّ (مَنْ) هنا شرطيَّةٌ. والدليلُ قولُهُ: {نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ} حيثُ جاء الجوابُ مجذومًا، وهذا فيه: أنَّ فِعْلَ الشرطِ يكونُ ماضيًا، والجوابُ يَكُونُ مضارعًا؛ لقولِهِ: {مَنْ كَانَ} الجوابُ: {نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ} وكذلك بالعكس قد يكونُ فعلُ الشرطِ مضارعًا والجوابُ ماضيًا. مثلَ: مَنْ يَشْكُرِ اللهَ زادَهُ اللهُ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مَنْ كَانَ يُرِيدُ} بِعَمَلِه {حَرْثَ الْآخِرَةِ}؛ أي: كَسْبُها وهو الثوابُ {نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ}] بالتضعيفِ فيه، الحسنةُ إلى العشرةِ أو أكثرَ. {حَرْثَ الْآخِرَةِ} أصلُ الحرثِ ما يُحْرَثُ للنماءِ والزيادةِ، ومنه حَرَثَ الفلاحُ الأرضَ من أجلِ أن يَزْرَعَها؛ فيكسِبَ ويزدادَ مالَهُ، وقولُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{حَرْثَ الْآخِرَةِ} يقولُ: أي كَسْبُها وهو الثوابُ {نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ}] فَسَّرَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ زيادةَ الحَرْثِ بزيادةِ الثوابِ؛ الحسنةُ بعَشْر أمثالِها إلى سبعِ مِئةِ ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرة، ونَزيدُ أمرًا آخَرَ؛ أي: نُؤْتِه من الدنيا والآخرةِ؛ بدليلِ قولِهِ: {وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}.

إذن: {نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ} من وجهين: الوجهُ الأوَّلُ: أن اللهَ تعالى يعطيه ثوابَ الدنيا والآخرةِ.

والثاني: أنه يُضاعِفُ الثوابَ؛ الحسنةُ بعَشْر أمثالِها؛ إلى سبعِ مِئةِ ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ.

قال: {وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا} يعني: كَسْبَها والتَّنَعُّمَ فيها. هذا في الغالبِ يُعْرِضُ عن الآخرةِ؛ لأنَّه لا يُريدُ إلا الدنيا، ولهذا تَجِدُهُ مهتمًّا بأمورِ الدنيا غايةَ الإهتمامِ، حتى السيارةُ إذا أصابَتْها بقعةٌ من الطينِ بالمشي على الطينِ ذهب يُنَظِّفُهَا ويَمْسَحُها، لكن قَلْبَهُ مملوءٌ من البلاءِ، ولكنَّه لا يَحْرِصُ على تنظيفِهِ

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١).

{أَمْ} بَلْ {لَهُمْ} لِكُفَّارِ مَكَّة {شُرَكَاء} هُمْ شَيَاطِينهمْ {شَرَعُوا} أَيْ الشُّرَكَاء {لَهُمْ} لِلْكُفَّارِ {مِنْ الدِّين} الْفَاسِد {مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله} كَالشِّرْكِ وَإِنْكَار الْبَعْث

=

وتنقيتِهِ؛ لأنَّه لا يُريدُ إلا الدنيا. تجدُهُ مثلًا في قصورِهِ؛ لا يهتمُّ إلا بإصلاحِ الجُدُرِ وتنظيفِها، لكن بناءَ الدِّينِ لا يهتمُّ به، هذا يقولُ اللهُ ﷻ فيه: {وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا}، ولا نُؤْتِه كلَّ ما أراد.

وكلمةُ {نُؤْتِهِ مِنْهَا} هذه مُطْلَقةٌ، لكنها مُقيَّدةٌ بما في سورةِ الإسراءِ {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ} لا ما يَشاءُ هو، {لِمَنْ نُرِيدُ} يعني: حتى إنَّ اللهَ ﷻ بَيَّن أنَّ المُعَجَّلَ تابعٌ لمشيئَتِهِ، وأنَّ المُعَجَّلَ له- وهو الإنسانُ- تابعٌ لإرادتِهِ، فقال: {عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ} ولا تظنَّ أن الآيةَ فيها تكرارٌ، لا {مَا نَشَاءُ} هذا باعتبارِ المعجَّلِ {لِمَنْ نُرِيدُ} باعتبارِ المعَجَّلِ له. فلا كلُّ أحدٍ أراد شيئًا يُعَجَّلُ له، ولا كلُّ أحدٍ أراد شيئًا يَحْصُلُ له ما أراد؛ لأَنَّ الأمرَ بيدِ اللهِ سبحانه وتعالى ولهذا يقولُ هنا: {نُؤْتِهِ مِنْهَا}.

فإذا قال قائلٌ: كلمةُ {نُؤْتِهِ مِنْهَا} جوابُ الشَّرْطِ؛ وهي تقتضي أن اللهَ سيؤتيه منها؟

نقوُل: هذا المُطْلَقُ مُقَيَّدٌ بآيةِ سورةِ الإسراءِ {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ} وهي الدنيا {عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا} [الإسراء: ١٨].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{نُؤْتِهِ مِنْهَا} بلا تضعيفٍ لما قُسمَ له {وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}] نسألُ اللهَ العافيةَ.

{وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ} أَيْ الْقَضَاء السَّابِق بِأَنَّ الْجَزَاء فِي يَوْم الْقِيَامَة {لَقُضِيَ بَيْنهمْ} وَبَيْن الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّعْذِيبِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا {وَإِنَّ الظَّالِمِينَ} الْكَافِرِينَ {لَهُمْ عَذَاب أَلِيم} مؤلم[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ} [الشورى:٢١]، أي: "بل ألهؤلاء المشركين بالله شركاء في شركهم وضلالتهم، ابتدعوا لهم من الدين والشرك ما لم يأذن به الله؟ ".

قال ابن عباس: "شرعوا لهم دينًا غير دين الإسلام".

قال الطبري: يقول: "أم لهؤلاء المشركين بالله شركاء في شركهم وضلالتهم، ابتدعوا لهم من الدين ما لم يبح الله لهم ابتداعه".

قال السمعاني: أي: "بل لهم شركاء وضعوا {لهم من الدين ما لم} يأمر به الله".

قال ابن قتيبة: "{شَرَعُوا لَهُمْ}، أي: ابتدعوا لهم".

قال ابن كثير: "أي: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة، التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عمرو بن لُحَيّ بن قَمَعَة يَجُر قُصْبَه في النار»، لأنه أول من سيب السوائب. وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حَمَل قريشا على عبادة الأصنام، لعنه الله وقبحه".

قال الزمخشري: "معنى الهمزة في «أَمْ»: التقرير والتقريع. وشركاؤهم: شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا، لأنهم لا يعلمون غيرها =

=

وهو الدين الذي شرعت لهم الشياطين، وتعالى الله عن الإذن فيه والأمر به وقيل شركاؤهم: أوثانهم. وإنما أضيفت إليهم لأنهم متخذوها شركاء لله، فتارة تضاف إليهم لهذه الملابسة. وتارة إلى الله، ولما كانت سببا لضلالتهم وافتتانهم: جعلت شارعة لدين الكفر، كما قال إبراهيم صلوات الله عليه: {إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ} ".

قوله تعالى: {وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} [الشورى:٢١]، أي:"ولولا قضاء الله وقدره بإمهالهم، وأن لا يعجل لهم العذاب في الدنيا، لقضي بينهم بتعجيل العذاب لهم".

قال الطبري: يقول:"ولولا السابق من الله في أنه لا يعجل لهم العذاب في الدنيا، وأنه مضى من قيله إنهم مؤخرون بالعقوبة إلى قيام الساعة، لفرغ من الحكم بينكم وبينهم بتعجيله العذاب لهم في الدنيا، ولكن لهم في الآخرة العذاب الأليم".

قال ابن قتيبة:"{وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ}، أي: القضاء السابق الفصل: بأن الجزاء يوم القيامة، {لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} في الدنيا".

قال الزمخشري:"أى: ولولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة {لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ}، أى: بين الكافرين والمؤمنين. أو بين المشركين وشركائهم".

قال ابن كثير:"أي: لعوجلوا بالعقوبة، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد".

قال مجاهد:"{ولَوْلا كَلِمَةُ الفَصْلِ}، قال: يوم القيامة، أُخِّروا إليه".

قوله تعالى: {وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الشورى:٢١]، أي:"وإن الكافرين بالله لهم يوم القيامة عذاب مؤلم موجع".

قال الطبري:"يقول: وإن الكافرين بالله لهم يوم القيامة عذاب مؤلم مُوجع".

قال ابن كثير:"أي: [عَذَابٌ] شديد موجع في جهنم وبئس المصير ".

=

=

وقرأ مسلم بن جندب: «وأنّ الظالمين»، بالفتح عطفا له على {كلمة الفصل}، يعنى: ولولا كلمة الفصل وتقدير تعذيب الظالمين في الآخرة، لقضى بينهم في الدنيا.

قال أبو العالية:"الأليم: الموجع في القرآن كله"، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

وقال العثيمين: قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{أَمْ} بمعنى بل] أشار بهذا إلى أن {أَمْ} هنا منقطعةٌ، و (أمِ) المنقطعةُ هي التي تأتي بمعنى (بل) وهمزةِ الإستفهامِ. أي: بل ألَهُ شركاءُ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{لَهُمْ} لِكُفَّارِ مَكَّةَ] والصوابُ: أنها أعمُّ من ذلك، يعني: أن جميعَ المُشركين لهم شركاءُ جعلوهم مع اللهِ ﷻ يُشَرِّعُون لهم من الدِّينِ ما لم يَأْذَنْ به اللهُ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ} هم شياطينُهُم {شَرَعُوا} أي الشركاءُ {لَهُمْ} للكفَّارِ] وهنا قال: [للكفارِ] وفيما سبق قال: [كفارُ مَكَّةَ] فتكونُ (ال) في كلامِهِ للعهْدِ الذِّكْرِيِّ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{مِنَ الدِّينِ} الفاسدُ {مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ} كالشِّرْكِ وإنكارِ البَعْثِ]، وهذا الإستفهامُ هنا بمعنى الإنكارِ عليهم أن يتخذوا هؤلاء شركاءَ يُشَرِّعُون لهم من الدِّينِ ما لم يَأْذَنْ به اللهُ.

وقولُهُ: {مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ} المرادُ بالإذنِ هنا الإذنُ الشرعِيُّ؛ لأنَّ الإذنَ يكونُ قَدَرِيًّا ويكونُ شَرْعيًّا، فما تَعَلَّقَ بالأمرِ والنهيِ شرعيٌّ، وما تَعَلَّقَ بالخَلْقِ والتكوينِ قدريٌّ، فقولُهُ تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [البقرة: ٢٥٥]. يَحْتَمِلُ أن يُرادَ به الإذن الشرعيّ أو القدريّ، {إِلَّا بِإِذْنِهِ} أي: بأن يَأْذَنَ قَدَرًا بأن يَشْفَعَ، أو يأذنَ شَرْعًا. وقولُهُ تعالى: {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ} [البقرة:

=

١٠٢]. يحتملُ الإذنَ القدريَّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يأذنُ شَرْعًا بأن يَضُرَّ السحرةُ أحدًا.

وهنا {شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ}؛ أي: ما لم يأذن به شرعًا، أما قدرًا فقد أَذِنَ به؛ لأنَّه وَقَعَ، وكلُّ شيءٍ يقعُ فإنه مأذونٌ فيه قدرًا؛ لأنَّه لا يُمْكِنُ أن يقعَ في مُلْكِ اللهِ ﷻ ما لم يَأْذَنْ به قَدَرًا، ومن ذلك؛ أي: من شَرْعِ ما لم يأذنْ به اللهُ تحليلُ ما حَرَّمَ اللهُ، أو تحريمُ ما أحلَّ اللهُ، ولهذا جَعَلَ اللهُ سبحانه وتعالى هؤلاء الذين يُحِلِّلُون ما حَرَّمَ ويُحَرِّمُون ما أَحَلَّ جَعَلَهم أربابًا، كما في قولِهِ تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ} [التوبة: ٣١]. قال عديُّ بْنُ حاتمٍ للرسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ: "إنا لَسْنَا نَعْبُدُهم، قال: أليس يُحِلُّون ما حَرَّمَ اللهُ فتُحِلُّونه، ويُحَرِّمُونَ ما أحلَّ اللهُ فتحرِّمُونه؟ قال: بلى، قال: فتلك عبادتُهُم"، يعني: طاعَتَهم.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ}؛ أي: القضاءُ السابقُ بأن الجزاءَ في يومِ القيامةِ {لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} وبين المؤمنين بالتعذيبِ لهم في الدنيا {وَإِنَّ الظَّالِمِينَ} الكافرين {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} مُؤْلِمٌ].

{وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} (لولا) يقولُ النحويون: إنها حرفُ امتناعٍ لوجودٍ، والذي امْتَنَعَ في هذه الآيةِ القضاءُ بينهم، والموجودُ كلمةُ الفَصْلِ، واعلمْ أن (لولا) حرفُ امتناعٍ لوجودٍ، و (لما) حرفُ وجودٍ لوجودٍ، و (لو) حرف امتناعٍ لامتناعٍ. فاقتسمت هذه الأدواتُ الثلاثُ المعانيَ الثلاثةَ.

(لو) حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ؛ تقولُ: لو زُرْتَنِي لأكْرَمْتُكَ. هنا امتنعَ الإكرامُ لامتناعِ الزيارةِ. وتقولُ: (لَمَّا) رَأَيْتُكَ أَكْرَمْتُكَ. هنا وُجِدَ الإكرامُ لوجودِ الرؤيةِ. وتقولُ: (لولا) زيدٌ لفعلْتُ كذا وكذا. هذا حرفُ امتناعٍ لوجودٍ.

{وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ} وهي كلمةُ اللهِ ﷻ السابقةُ التي قضى ﷻ بها أن لكلِّ شيءٍ

تَـرَى الظَّـالِمِينَ مُـشْفِقِينَ مِمَّـا كَـسَبُوا وَهُـوَ وَاقِـعٌ بِهِـمْ وَالَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَـاتِ الْجَنَّاتِ لَهُـمْ مَـا يَـشَاءُونَ عِنْـدَ رَبِّهِـمْ ذَلِـكَ هُـوَ الْفَـضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢).

{تَرَى الظَّالِمِينَ} يَوْم الْقِيَامَة {مُشْفِقِينَ} خَائِفِينَ {مِمَّا كَسَبُوا} فِي الـدُّنْيَا مِـنْ السَّيِّئَات أَنْ يُجَازَوْا عَلَيْهَا {وَهُوَ} أَيْ الْجَزَاء عَلَيْهَـا {وَاقِع بِهِـمْ} يَـوْم الْقِيَامَـة لَا مَحَالَة {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات فِي رَوْضَات الْجَنَّات} أَنْزَههَـا بِالنِّـسْبَةِ إلَى من دونهم {لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير}.

ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَـوَدَّةَ فِي الْقُرْبَـى وَمَـنْ يَقْتَـرِفْ حَـسَنَةً نَـزِدْ لَـهُ فِيهَـا حُـسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُـورٌ شَكُورٌ (٢٣).

{ذَلِـكَ الَّـذِي يُبَـشِّر} مِـنْ الْبِـشَارَة مُخَفَّفًـا وَمُـثَقَّلًا بِـهِ {الله عِبَاده الَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات قُلْ لَا أَسْأَلكُمْ عَلَيْـهِ} عَلَـى تَبْلِيـغ الرِّسَـالَة {أَجـرًا إلَّا الْمَـوَدَّة فِي الْقُرْبَى} اسْتِثْنَاء مُنْقَطِع أَيْ لَكِنْ أَسْـأَلكُمْ أَنْ تَـوَدُّوا قَرَابَتِي الَّتِي هِـيَ قَـرَابَتكُمْ أَيْضًا فَإِنَّ لَهُ فِي كُلّ بَطْن مِنْ قُرَيْش قَرَابَة {وَمَنْ يَقْتَرِف} يَكْتَسِب {حَسَنَة} طَاعَـة {نَـزِدْ لَـهُ فِيهَـا حُـسْنًا} بِتَـضْعِيفِهَا {إنَّ الله غَفُـور} لِلـذُّنُوبِ {شَـكُور} لِلْقَلِيـلِ فَيُضَاعِفهُ[1].

=

أَجَلًا مُقَدَّرًا، هذه الكلمةُ التي جَعَلَهـا اللهُ ﷻ لكـلِّ شـيءٍ أَجَـلًا مقـدَّرًا، لـو لا هـذه لقضي اللهُ بينهم وبين المؤمنين بتعجيل العذابِ لهم.

(١) قوله تعالى: {تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّـا كَـسَبُوا} [الـشورى:٢٢]، أي:"تـرى- أيها الرسول- الكافرين يوم القيامة خائفين من عقاب الله على ما كسبوا في الـدنيا

=

=

من أعمال خبيثة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ترى يا محمد الكافرين بالله يوم القيامة وَجِلين خائفين من عقاب الله على ما كسبوا في الدنيا من أعمالهم الخبيثة".

قال الزجاج:"أي: تراهم مشفقين من ثواب ما كسبوا، وثواب ما كسبوا النار".

قال مقاتل:"{مما كسبوا} من الشرك".

قوله تعالى: {وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ} [الشورى:٢٢]، أي:"والعذاب نازل بهم، وهم ذائقوه لا محالة".

قال الطبري:"يقول: والذين هم مشفقون منه من عذاب الله نازل بهم، وهم ذائقوه لا محالة".

قال الزجاج:"أي: وثواب كسبهم واقع بهم".

قال السمعاني:"معناه: أن العذاب الذي يخافونه نازل بهم، وهذا يوم القيامة".

قال مكي:"أي: وعقابه واقع بهم وليس السيئات يوم القيامة تحل بالكفار وتقع بهم انما يحل بهم عقابها".

قال القشيري:"إذا حصل الإجرام فإلى وقت ما لا يعذّبهم الله في الغالب، ولكنه لا محالة يعذبهم وربما يثبت ذلك لبعض أصحاب القلوب فيتأسفون، ويعلمون أنّ ذلك من الله لهم معجّل قد أصابهم، أمّا الكفار.. فغدا يشفقون مما يقع بهم عند ما يقرءونه في كتابهم، لأنّ العذاب- لا محالة- واقع بهم".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ} [الشورى:٢٢]، أي:"والذين آمنوا بالله وأطاعوه في بساتين الجنات وقصورها ونعيم الآخرة".

قال الطبري: يقول: "والذين آمنوا بالله وأطاعوه فيما أمر ونهى في الدنيا في

=

=

روضات البساتين في الآخرة".

قال ابن عباس:"في رياض الجنة ونعيمها".

عن مجاهد، قوله:"{فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ}، قال: المكان الموفق".

عن أبي مالك قوله: {فِي رَوْضَةٍ} [الروم: ١٥]، يعني:"بساتين الجنة".

قال النحاس:"حكى بعض أهل اللغة أن «الروضة» لا تكون إلّا في موضع مرتفع، كان أحسن لها وأشدّ، وإذا كانت خشنة ولم تكن رخوة كان ثمرها أحسن وألذّ، كما قال جلّ وعزّ: {كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ} [البقرة: ٢٦٥] أي: مرتفعة. قال الأعشى:

ما روضة من رياض الحزن معشبة... خضراء جاد عليها مسبل هطل

فوصف أنها من رياض الحزن، والحزن: ما غلظ من الأرض".

قوله تعالى: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [الشورى:٢٢]، أي:"لهم ما تشتهيه أنفسهم عند ربهم".

قال الطبري:"يقول للذين آمنوا وعملوا الصالحات عند ربهم في الآخرة ما تشتهيه أنفسهم، وتلذّه أعينهم".

عن أبي ظبية السلفي، قال: "إن السرب من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول: ما أمطركم؟ قال: فما يدعو داع من القوم بشيء إلا أمطرتهم، حتى أن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أترابا".

قوله تعالى: {ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [الشورى:٢٢]، أي:"ذلك الذي أعطاه الله لهم من الفضل والكرامة هو الفضل الذي لا يوصف، ولا تهتدي إليه العقول".

قال الطبري: يقول:"هذا الذي أعطاهم الله من هذا النعيم، وهذه الكرامة في الآخرة: هو الفضل من الله عليهم، الكبير الذي يفضل كلّ نعيم وكرامة في الدنيا من بعض أهلها على بعض".

=

=

وقال العثيمين: قوله تعالى: (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا) أي: ترى الظالمين خائفين مما أشركوا، والمقام مقام ذكر التوحيد والشرك، فالمشركون بالله الذين ظلموا أنفسهم الظلم الأكبر تراهم مشفقين مما كسبوا، عبدوا الأصنام من دون الله وتوجهوا لها وتركوا دين الله، فهم يوم القيامة مشفقون من حساب رب العالمين سبحانه، وكذلك غيرهم من الظلمة والمجرمين تراهم مشفقين مما كسبوا، أي: من جزاء ما كسبوا.

قال تعالى: ((وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ))، أي: ترحموا على أنفسكم ما شئتم يوم القيامة، فإن يوم القيامة يوم جزاء وليس يوم تكليف، وليس في يوم القيامة تعويض لما سلف، فإن أمر العبادة كان في الدنيا.

فقوله تعالى: ((وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ))، أي: عذابه سبحانه، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضات الجنات، قال تعالى: ((وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ)) يقال: روضات ورياض، والروضة: البستان العظيم والنزهة التي يتنزه فيها الإنسان، نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من أهل جنته.

فقوله تعالى: ((وَالَّذِينَ آمَنُوا))، قيدت بقوله تعالى: ((وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ))، أي: في بساتين مزهرة، وفي قصور عامرة في جنات رب العالمين، ترى هؤلاء يلعبون وينعمون، ويفرحون، قال النبي ﷺ: (فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) فالروضة: موضع النزهة الذي يتنزه فيه الإنسان وهو كثير الخضرة.

وقوله تعالى: (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) (ما) من ألفاظ العموم، أي: كل ما يتمنونه ويشتهونه، فأنت في الجنة اطلب من الله ما شئت، فهي دار يشرفك الله ﷻ فيها، ويعطيك ما تشتهيه، قال النبي ﷺ: (ينادي عليهم المنادي: يا أهل الجنة إن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وأن لكم أن

=

=

تحيوا فلا تموتوا أبداً) كل ذلك في جنة الخلود، قال تعالى: }لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة:٦٢].

فلا يخافون من المستقبل أمامهم، فهم في رحمة الله ﷻ، وقد طمأنهم الله ﷻ بأن هذه الجنة دار الخلود، وقد رضي الله عنهم فلن يسخط عليهم بعد ذلك أبداً، نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من أهل جنته.

قال الله سبحانه وتعالى: (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) أخبر النبي ﷺ أصحابه أن رجلاً من أهل الجنة قال: (يا رب أريد أن أزرع؟ فقال الله ﷻ: أوما يكفيك هذا؟) أي: كل الذي أعطيتك هذا لا يكفيك؟ (قال: أشتهي ذلك، قال الله ﷻ: دونك، فرمى البذرة فزرعت وحصدت، قال الله: دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء) وكان رجل أعرابي جالساً مع النبي ﷺ، فقال: تراه رجلاً من هؤلاء، يعني: من الأنصار، أما نحن فنحن أصحاب إبل وهؤلاء أصحاب زروع، رضوان الله على الجميع، وإذا اشتهى العبد في الجنة الولد، فيكون حمله ووضعه وفصاله في مقدار ساعة، لا تعب كما كان في الدنيا، تسعة أشهر ووضع ورضاعة وتعب، فالجنة عظيمة وغالية، والذي يعرف الجنة لا يأبه لما يأتيه أو يضيع منه في هذه الدنيا إلا لأمر دين الله سبحانه وتعالى فقط، قال الله سبحانه: {ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الحديد:١٢] أي: النجاح الباهر العظيم أنك تصل إلى الجنة، فإذا دخلت الجنة فقد فزت هذا الفوز العظيم عند الله، وأفلحت ونجحت.

قوله تعالى: {ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)}.

عن ابن عباس، قال: "قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا، فكأنهم فخروا، قال ابن عباس، أو العباس، شكّ عبد السلام: لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول الله

=

=

ﷺ، فأتاهم في مجالسهم، فقال:"يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ تَكُونُوا أَذِلَّةً فأَعَزَّكُمُ الله بِي؟ " قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أَلَمْ تَكُونُوا ضُلالا فَهَدَاكُمْ الله بِي؟ " قالوا: بلى يا رسول الله، قال:"أفلا تُجِيبُونِي؟ " قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال:"ألا تقولون: أَلَمْ يُخْرِجْكَ قَوْمُكَ فآَوَيْناكَ، أَوَلَمْ يُكَذِّبُوكَ فَصَدَّقْنَاكَ، أَوَلَمْ يَخْذُلُوكَ فَنَصَرْنَاكَ؟ " قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله، قال: فنزلت: {قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} " أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٥/ ١٦)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ١٢١)، والطبراني في "المعجم الأوسط" (٤/ ١٥٩ رقم ٣٨٦٤) من طريق عبد السلام بن حرب؛ قال: ثنا يزيد بن أبي زياد عن مقسم عن ابن عباس به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه يزيد بن أبي زياد؛ ضعيف، كبر؛ فتغير وصار يتلقن؛ كما في "التقريب" (٢/ ٣٦٥). وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٠/ ٣٢): "رواه الطبراني في "الأوسط" عن شيخه علي بن سعيد بن بشير وفيه لين، وبقية رجاله وثقوا". وقد توبع عند الطبري وابن أبي حاتم؛ فصح السند إلى يزيد، ولم يتنبه لهذا المعلق على "مجمع البحرين" (٧/ ٩ رقم ٣٩٣٩) فوافق الهيثمي عليه. وقال الحافظ ابن حجر في الكاف الشاف (٢٤٨/ ٩٩١): "وفيه يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف"، وضعفه الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ١٢١) بيزيد بن أبي زياد.

قوله تعالى: {ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [الشورى:٢٣]، أي:"ذلك الذي أخبرتكم به-أيها الناس- من النعيم والكرامة في الآخرة هو البشرى التي يبشر الله بها عباده الذين آمنوا به في الدنيا وأطاعوه".

قال الطبري: يقول:"هذا الذي أخبرتكم أيها الناس أني أعددته للذين آمنوا

=

=

وعملوا الصالحات في الآخرة من النعيم والكرامة، البشرى التي يبشر الله عباده الذين آمنوا به في الدنيا، وعملوا بطاعته فيها".

قال القشيري:"{ذلك الذي يبشّر الله عباده} قد مضى ذكره في القرآن متفرقا من أوصاف الجنة وأطايبها، وما وعد الله من المثوبة.. ونحو ذلك".

يقرأ: «يُبَشِّرُ، و «يَبْشرُ»، و «يُبْشِرُ».

قوله تعالى: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} [الشورى:٢٣]، أي:"قل-أيها الرسول- للذين يشكون في الساعة من مشركي قومك: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من الحق الذي جئتكم به عوضًا من أموالكم، إلا أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم، وتَصِلوا الرحم التي بيني وبينكم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للذين يمارونك في الساعة من مشركي قومك: لا أسألكم أيها القوم على دعايتكم إلى ما أدعوكم إليه من الحق الذي جئتكم به، والنصيحة التي أنصحكم ثوابا وجزاء، وعوضا من موالكم تعطوننيه {إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} ".

وفي قوله تعالى: {إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} [الشورى:٢٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: إلا أن تودّوني في قرابتي منكم، وتصلوا رحمي بيني وبينكم. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وعكرمة، وقتادة-في رواية-، وأبو مالك، والسدي، وابن زيد، وعطاء بن دينار.

قال السمعاني:"أظهرها وأشهرها أن معناه: لا أسألكم إلا أن تودوني لقرابتي منكم".

قال ابن عباس:"لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله ﷺ وبينهم قرابة، فقال: «قل لا أسألكم عليه أجرا أن تودّوني في القرابة التي بيني وبينكم» ".

وقال ابن عباس:"كان لرسول الله ﷺ قرابة في جميع قريش، فلما كذبوه وأبوا أن

=

=

يبايعوه قال: «يا قوم إذا أبيتم أن تبايعوني فاحفظوا قرابتي فيكم لا يكن غيركم من العرب أولى بحفظي ونُصرتي منكم» ".

قال أبو مالك:"كان رسول الله ﷺ واسط النسب من قريش، ليس حيّ من أحياء قريش إلا وقد ولدوه؛ قال: فقال الله ﷻ: {قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} : «إلا أن تودّوني لقرابتي منكم وتحفظوني» ".

وقال أبو مالك:"كان رسول الله ﷺ من بني هاشم وأمه من بني زهرة وأم أبيه من بني مخزوم، فقال: «احفظوني في قرابتي» ".

قال قتادة:"وإن الله تبارك وتعالى أمر محمدا ﷺ أن لا يسأل الناس على هذا القرآن أجرا إلا أن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة، وكلّ بطون قريش قد ولدته وبينه وبينهم قرابة".

عن مجاهد، قوله: "{إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}، أن تتبعوني، وتصدقوني وتصلوا رحمي".

قال الضحاك:"يعني: قريشا. يقول: إنما أنا رجل منكم، فأعينوني على عدويّ، واحفظوا قرابتي، وإن الذي جئتكم به لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى، أن تودّوني لقرابتي، وتعينوني على عدويّ".

قال ابن زيد:"يقول: إلا أن تودّوني لقرابتي كما توادّون في قرابتكم وتواصلون بها، ليس هذا الذي جئت به يقطع ذلك عني، فلست أبتغي على الذي جئت به أجرا آخذه على ذلك منكم".

قال عكرمة:"تعرفون قرابتي، وتصدّقونني بما جئت به، وتمنعوني".

قال عطاء بن دينار:"يقول: لا أسألكم على ما جئتكم به أجرا، إلا أن تودّوني في قرابتي منكم، وتمنعوني من الناس".

الثاني: معناه: قل لمن تبعك من المؤمنين: لا أسألكم على ما جئتكم به أجرا إلا

=

=

أن تودّوا قرابتي. قاله علي بن الحسين-رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، وسعيد بن جبير، وعمرو بن شعيب.

قال سعيد بن جبير:"هي قُربى رسول الله ﷺ".

عن أبي الديلم قال: "لما جيء بعليّ بن الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أسيرا، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم، وقطع قربى الفتنة، فقال له عليّ بن الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم، قال: ما قرأت {قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} ؟ قال: وإنكم لأنتم هم؟ قال نعم".

الثالث: معناه: قل لا أسألكم أيها الناس على ما جئتكم به أجرا إلا أن تودّدوا إلى الله، وتتقربوا بالعمل الصالح والطاعة. قاله الحسن، وقتادة-في رواية أخرى-، ورواه ابن عباس مرفوعا الى النبي-ﷺ-.

قال الحسن:"قل لا أسألكم على ما جئتكم به، وعلى هذا الكتاب أجرا، إلا المودة في القربى، إلا أن تoddدوا إلى الله بما يقربكم إليه، وعمل بطاعته".

قال قتادة:"إلا أن تتوددوا إلى الله فيما يقربكم إليه".

الرابع: معناه: إلا أن تصلوا قرابتكم. قاله عبد الله بن القاسم.

قال الطبري:"وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب، وأشبهها بظاهر التنزيل قول من قال: معناه: قل لا أسألكم عليه أجرا يا معشر قريش، إلا أن تودوني في قرابتي منكم، وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم.

وإنما قلت: هذا التأويل أولى بتأويل الآية لدخول"في" في قوله: {إلا المودة في القربى} ، ولو كان معنى ذلك على ما قاله من قال: إلا أن تودوا قرابتي، أو تقربوا إلى الله، لم يكن لدخول"في" في الكلام في هذا الموضع وجه معروف، ولكان التنزيل: إلا مودة القربى إن عني به الأمر بمودة قرابة رسول الله ﷺ، أو إلا

=

=

المودة بالقربى، أو ذا القربى إن عني به التودد والتقرب. وفي دخول «في» في الكلام أوضح الدليل على أن معناه: إلا مودتي في قرابتي منكم، وأن الألف واللام فى المودة أدخلتا بدلا من الإضافة، كما قيل: {فإن الجنة هي المأوى} وقوله: «إلا» في هذا الموضع استثناء منقطع. ومعنى الكلام: قل لا أسألكم عليه أجرا، لكني أسألكم المودة في القربى، فالمودة منصوبة على المعنى الذي ذكرت".

وقال مقاتل:"{قل لا أسئلكم عليه أجرا}، يعني: على الإيمان جزاء {إلا المودة في القربى}، يقول: إلا أن تصلوا قرابتي وتتبعوني وتكفوا عني الأذى. ثم نسختها: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُم} [سبأ: ٤٧]".

قال السمعاني:"وحكى عن الضحاك أن الآية منسوخة بقوله: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُم إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ} [سبأ: ٤٧]، وهذا القول غير مرضي عند أهل المعاني؛ لأن قوله: {إلا المودة في القربى} ليس باستثناء صحيح حتى يكون مخالفا لقوله: {إن أجري إلا على الله} بل هو استثناء منقطع، ومعناه: قل لا أسالكم عليه أجرا أي: مالا، وتم الكلام. ومعنى قوله: {إلا المودة في القربى} لكن صلوا قرابتي بالاستجابة لي أو تكفوا أذاكم عني.. وحكى بعضهم: أن النبي سئل عن هذه، وعن معنى القربى فقال: «علي وفاطمة وولدهما»، وهذا أغرب الأقاويل وأضعفها".

قال الزجاج:"وَنَصْبُ {الْمَوَدَّةَ} أن يكون بمعنى استثناء ليس من الأول، لا على معنى: أسالكم عليه أجراً المودة في القُرْبَى، لأن الأنبياء صلوات الله عليهم لا يسألون أجراً على تبليغ الرسالة، والمعنى- والله أعلم- ولكنني أذكركم «الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» ".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا} [الشورى:٢٣]، أي:"ومن

=

=

يكتسب حسنة نضاعفها له بعشر فصاعدًا".

قال الطبري: يقول:"ومن يعمل حسنة، وذلك أن يعمل عملا يطيع الله فيه من المؤمنين نضاعف عمله ذلك الحسن، فنجعل له مكان الواحد عشرا إلى ما شئنا من الجزاء والثواب".

عن السدي، قوله:"{ومن يقترف حسن}، قال: يعمل حسنة".

قال ابن زيد:"من يعمل خيرا نزد له. الاقتراف: العمل".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ} [الشورى:٢٣]، أي:"إن الله غفور لذنوب عباده، شكور لحسناتهم وطاعتهم إياه".

قال الطبري:"يقول: إن الله غفور لذنوب عباده، شكور لحسناتهم وطاعتهم إياه".

قال الزجاج:"غفور للذنوب قبول للتوبة مثيب عليها".

عن قتادة: "{إن الله غفور} للذنوب، {شكور}، للحسنات يضاعفها".

قال ابن زيد:"غفر لهم الذنوب، وشكر لهم نعما هو أعطاهم إياها، وجعلها فيهم".

وقال العثيمين قوله: (ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أي: ذلك الفضل العظيم من الله الذي يبشر به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بشارة من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين، فالمؤمن الذي يتعب نفسه لله سبحانه، ويحسن العمل لله، ويخلص النية لله، يبشره الله بذلك.

وقد تكررت هذه الكلمة في القرآن، وفيها قراءتان: (يُبَشِّر)، و (وَيبْشُر)، أي: يظهر البشرة على وجه المؤمن بما حدث في قلبه من فرح، فالجمهور يقرءونها: ((يُبَشِّرُ)) ويقرؤها حمزة والكسائي وفي هذه الآية فقط يقرؤها ابن كثير وأبو عمرو مع حمزة والكسائي: (يَبْشُر)، (يُبَشِّر) للتكثير، تكثير البشارة، و (يبْشُر)

=

=

يظهر البشر على وجوه المؤمنين بما فرحت قلوبهم.

فقوله تعالى: (ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أي: يبشر المؤمنين الذين أتعبوا أنفسهم في الدنيا من أجل دينهم ومن أجل أن يفوزوا برضى ربهم، ومن أجل الجنة عملوا الصالحات.

(قل) لهؤلاء جميعًا: (لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى).

قال الشنقيطي: اعلم أولًا أن في قوله تعالى {إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} أربعة أقوال:

الأول: ورواه الشعبي وغيره عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وقتادة وعكرمة وأبو مالك والسدي والضحاك وابن زيد وغيرهم، كما نقله عنهم ابني جرير وغيره، أن معنى الآية {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ أَجْرًا إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} أي إلا أن تودوني في قرابتي التي بيني وبينكم، فتكفوا عني أذاكم وتمنعوني من أذى الناس، كما تمنعون كل من بينكم وبينه مثل قرابتي منكم، وكان- ﷺ- له في كل بطن من قريش رحم، فهذا الذي سألهم ليس بأجر على التبليغ؛ لأنه مبذول لكل أحد؛ لأن كل أحد يوده أهل قرابته وينتصرون له من أذى الناس.

وقد فعل له ذلك أبو طالب، ولم يكن أجرًا على التبليغ؛ لأنه لم يؤمن.

وإذا كان لا يسأل أجرًا إلا هذا الذي ليس بأجر، تحقق أنه لا يسأل أجرًا، كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

ومثل هذا يسميه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم.

وهذا القول هو الصحيح في الآية، واختاره ابن جرير، وعليه فلا إشكال.

الثاني: أن معنى الآية {إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} أي لا تؤذوا قرابتي وعترتي واحفظوني فيهم، ويروى هذا القول عن سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب وعلي بن الحسين، وعليه فلا إشكال أيضًا؛ لأن المودة بين المسلمين واجبة فيما

=

=

بينهم، وأحرى قرابة النبي -ﷺ-، قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}، وفي الحديث "مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كالجسد الواحد، إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"، وقال -ﷺ-: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، والأحاديث في مثل هذا كثيرة جدًّا.

وإذا كان نفس الدين يوجب هذا بين المسلمين، تبين أنه غير عوض عن التبليغ.

وقال بعض العلماء: الاستثناء منقطع على كلا القولين، وعليه فلا إشكال.

فمعناه على القول الأول: {لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ أَجْرًا} لكن أذكركم قرابتي فيكم.

وعلى الثاني: لكن أذكركم الله في قرابتي، فاحفظوني فيهم.

القول الثالث، وبه قال الحسن: (إلا المودة في القربى) أي إلا أن تتوددوا إلى الله وتتقربوا إليه بالطاعة والعمل الصالح. وعليه فلا إشكال؛ لأن التقرب إلى الله ليس أجرًا على التبليغ.

القول الرابع: (إلا المودة في القربى)، أي إلا أن تتوددوا إلى قراباتكم وتصلوا أرحامكم. ذكر ابن جرير هذا القول عن عبد الله بن القاسم، وعليه أيضًا فلا إشكال؛ لأن صلة الإنسان رحمه ليست أجرًا على التبليغ.

فقد علمت الصحيح في تفسير الآية، وظهر لك رفع الإشكال على جميع الأقوال.

وأما القول بأن قوله تعالى: {إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} منسوخ بقوله تعالى: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ}، فهو ضعيف، والعلم عند الله تعالى. انتهى منه.

وقد علمت مما ذكرنا فيه أن القول الأول هو الصحيح في معنى الآية، مع أن كثيرًا من الناس يظنون أن القول الثاني هو معنى الآية، فيحسبون أن معنى {إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} إلا أن تودوني في أهل قرابتي.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤).

{أَمْ} بَلْ {يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا} بِنِسْبَةِ الْقُرْآن إِلَى الله تَعَالَى {فَإِنْ يَشَأِ الله يَخْتِم} يَرْبِط {عَلَى قَلْبك} بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ بِهَذَا الْقَوْل وَغَيْره وَقَدْ فَعَلَ {وَيَمْحُ الله الْبَاطِل} الَّذِي قَالُوهُ {وَيُحِقّ الْحَقّ} يُثْبِتهُ {بِكَلِمَاتِهِ} الْمُنَزَّلَة عَلَى نَبِيّه {إِنَّهُ عَلِيم بِذَاتِ الصُّدُور} بِمَا فِي الْقُلُوب[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا} [الشورى:٢٤]، أي:"بل أيقول هؤلاء المشركون: اختلق محمد الكذب على الله، فجاء بالذي يتلوه علينا اختلاقًا من عند نفسه؟ ".

قال الطبري: يقول:"أم يقول هؤلاء المشركون بالله: {افترى} محمد {على الله كذبا} فجاء بهذا الذي يتلوه علينا اختلاقا من قبل نفسه".

قال مقاتل:"{أم يقولون} كفار مكة إن محمدا افترى على الله كذبا حين زعم أن القرآن من عند الله [فشق] على النبي ﷺ تكذيبهم إياه".

قوله تعالى: {فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ} [الشورى:٢٤]، أي:"فإن يشأ الله يطبع على قلبك-أيها الرسول- لو فعلت ذلك".

قال الطبري: يقول:"{فإن يشأ الله} يا محمد يطبع على قلبك، فتنس هذا القرآن الذي أنزل إليك".

قال الصابوني:"أي: لو افتريت على الله الكذب كما يزعم هؤلاء المجرمون لختم على قبلك فأنساك هذا القرآن، وسلبه من صدرك، ولكنك لم تفتر على الله كذبًا ولهذا أيَّدك وسدَّدك".

عن قتادة، قوله:"{فإن يشأ الله يختم على قلبك}، قال: إن يشأ الله أنساك ما قد أتاك".

=

=

قال قتادة: "فينسيك القرآن".

عن السدي، قوله:"{فإن يشأ الله يختم على قلبك}، قال: يطبع".

قال مقاتل:"يقول: يربط على قلبك، فلا يدخل في قلبك المشقة من قولهم: بأن محمدا كذاب مفتر".

قال الزجاج:"ويجوز [أن يكن المعنى]: يربط على قلبك بالصبر على أذاهم وعلى قولهم".

قال النحاس: "وهذا الذي قاله [الزجاج] لا يشبه ظاهر الآية.. واختلفوا في معنى: {يَخْتِمْ}، فقال بعضهم: أي يمنعك من التمييز. وقال بعضهم: معنى: «ختم الله على قلبه»: جعل عليه علامة من سواد أو غيره تعرف الملائكة بها أنه معاقب، كما قال جلّ وعزّ: {كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ} [المطففين: ١٤]، وفي التفسير: أنه إذا عمل العبد خطيئة رين على قلبه فغطي منه شيء فإن زاد زيد في الرّين حتّى يسود قلبه فلا ينتفع بموعظة".

قوله تعالى: {وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} [الشورى:٢٤]، أي:"ويُذْهِبُ الله الباطل فيمحقه، ويثبتُ اللهُ الحق ويوضّحه بكلامه المنزل، وقضائه المبرم".

قال الطبري:"يقول: ويذهب الله بالباطل فيمحقه، {ويحق الحق بكلماته} التي أنزلها إليك يا محمد فيثبته".

قال مقاتل:"{ويمح الله} إن شاء {الباطل} الذي يقولون بأنك كذاب مفتر، من قلبك، {ويحق الله الحق}: وهو الإسلام {بكلماته}، يعني: القرآن الذي أنزل عليه".

قال النحاس:"فأما معنى: {وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ}، ففيه احتجاج عليهم لنبوة محمد ﷺ لأن معناه أنّ الله جلّ وعزّ يزيل الباطل ولا يثبته، فلو كان ما جاء به محمد

=

=

ﷺ باطلا لمحاه الله جلّ وعزّ وأنزل كتابا على غيره، وهكذا جرت العادة في جميع المفترين أنّ الله سبحانه يمحو باطلهم بالحقّ والبراهين والحجج".

قوله تعالى: {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الشورى:٢٤]، أي:"إن الله عليم بما في قلوب العباد، لا يخفى عليه شيء منه".

قال الطبري:"إن الله ذو علم بما في صدور خلقه، وما تنطوي عليه ضمائرهم، لا يخفى عليه من أمورهم شيء، يقول لنبيه ﷺ: لو حدثت نفسك أن تفتري على الله كذبا، لطبعت على قلبك، وأذهبت

الذي أتيتك من وحيي، لأني أمحو الباطل فأذهبه، وأحق الحق، وإنما هذا إخبار من الله الكافرين به، الزاعمين أن محمدا افترى هذا القرآن من قبل نفسه، فأخبرهم أنه إن فعل لفعل به ما أخبر به في هذه الآية".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{أَمْ}: بل] يعني: أن {أَمْ} بمعنى (بل) ويُسَمُّونها منقطعةً؛ لأنَّ (أَمْ) تكون متصلةً وتكونُ منقطعةً، إذا صارتْ بمعنى (بل) فهي منقطعةٌ؛ لأنَّها تُشْبِهُ الإضرابَ عما سبق، وإذا كانت بمعنى (أو) فهي متصلةٌ، مثلَ أن أقولَ: أتريدُ كتابًا أم ساعةً. هذه متصلةٌ؛ لأنَّها بمعنى (أو)، ولا يستغني أحدُ الطرفين فيها عن الآخَرِ، وإذا قلتَ: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى} لا تجدُ لها مقابلًا، فهي منقطعةٌ بمعنى (بل).

{يَقُولُونَ} أي الكفارُ من مشركي قريشٍ وغيرُهُم {افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا} أي: اخْتَلَقَ على اللهِ كذبًا، وذلك بقولِهِ: إن القرآنَ كلامُ اللهِ، فقالوا: إن القرآنَ ليس كلامَ اللهِ، وإن محمدًا كاذبٌ، ولكنه ساحرٌ، كاهنٌ، مجنونٌ، وما أَشْبَهَ ذلك من الكلماتِ التي يَرْمُون بها رسولَ الله ﷺ.

قال اللهُ تعالى: {فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ}

=

{فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ} مفعولُ {يَشَإِ} محذوفٌ ويُقَدَّرُ بما يدلُّ عَلَيْهِ السياقُ؛ أي: فإن يشاءُ {اللهُ} أن تفتريَ عَلَيْهِ كذبًا- وهذا شيءٌ محالٌ- {يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [يَرْبِطُ] والصوابُ: أن الختمَ هنا بمعنى الطبعِ؛ يعني: إن افتريتَ على اللهِ كذبًا طَبَعَ اللهُ على قلبِكَ، ويمحو اللهُ الباطلَ الذي افترَيْتَه لو قَدَّرَ أنك افترَيْتَه. {وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} (يُحِقُّ) أي: يُثْبِتُه بكلماتِه المنزَّلةِ على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.

فزعم المفسِّر رَحِمَهُ اللهُ أن يختمَ- يعني يَرْبِطَ- على قلبِه والربطُ ثناءٌ لا يتناسبُ مع السياقِ، ولم تأتِ (يختمُ) بمعنى (يربِطُ) بل تأتي (يختمُ) بمعنى (يَطْبَعُ)، كما قال الله تعالى: {خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [البقرة: ٧]. وقال: {وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [التوبة: ٨٧].

معنى الآيةِ إجمالًا: أنه لو قَدَّرَ أنك افْتَرَيْتَ على اللهِ كذبًا فلم يتركْكَ اللهُ، لا بدَّ أن يُبَيِّنَ الحقَّ فيختمَ على قلبِك، ويطبعَ عليه ثم {وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} ويُشْبِهُ هذا قولَ اللهِ تبارك وتعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} يعني: إذا قرأ ألقى الشيطانُ في قراءته {فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحجِّ: ٥٢].

وقولُهُ: {فَإِنْ يَشَإِ} لا يلزمُ من الشرطِ الوقوعُ، يأتي الشرطُ أحيانًا في أعلى المستحيلاتِ، أرأيتَ قولَ اللهِ تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [الزخرف: ٨١]. ولا يُمْكِنُ أن يكونَ للهِ ولدٌ، ومع هذا جاءت الشرطيَّةُ. وقال اللهُ تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: ٦٥]. وهذا لا يستلزمُ إشراكَ النبيِّ ﷺ. وقال اللهُ تعالى: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ

وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥).

{وَهُوَ الَّذِي يَقْبَل التَّوْبَة عَنْ عِبَاده} مِنْهُمْ {وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَات} الْمُتَاب عَنْهَا {وَيَعْلَم مَا يَفْعَلُونَ} بِالْيَاءِ وَالتَّاء(١).

=

قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [يونس: ٩٤]. ولا يُمْكِنُ أن يكونَ في شكٍّ.

إذن {فَإِنْ يَشَإِ اللهُ} يعني: إن يشاء اللهُ أن تفتريَ عَلَيْهِ كذبًا لا يلزمُ من هذا الشرطِ جوازُ افتراءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عَليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ على اللهِ كذبًا، ومن المعلوم أن اللهَ قد شَهِدَ للنبيِّ ﷺ بالرسالةِ فقال: {لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ} [النساءِ: ١٦٦].

قال تعالى: {وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} أي: بصاحبةِ الصدورِ، وهي القلوبُ، كما قال اللهُ تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحجِّ: ٤٦].

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} [الشورى:٢٥]، أي:"والله سبحانه وتعالى هو الذي يقبل التوبة عن عباده إذا رجعوا إلى توحيد الله وطاعته".

قال الطبري: يقول:"والله الذي يقبل مراجعة العبد إذا رجع إلى توحيد الله وطاعته من بعد كفره".

قال ابن عباس:"يريد: أولياءه وأهل طاعته".

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة أحدكم، من أحدكم بضالته، إذا وجدها».

وقال السري بن المغلس السقطي: "التوبة صدق العزيمة على ترك الذنوب، والإنابة بالقلب إلى علام الغيوب، والندامة على ما فرط من العيوب،

=

=

والاستقصاء في المحاسبة مع النفس بالاستكانة والخضوع".

وقال عمرو بن عثمان: "ملاك التوبة إصلاح القوت".

عن يحيى بن معاذ، "وسئل: من التائب؟ فقال: من كسر شبابه على رأسه وكسر الدنيا على رأس الشيطان، ولزم الفطام حتى أتاه الحمام".

وقال سهل بن عبد الله: "التوبة، الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة".

وسئل ابن الحسن البوشيخي: "عن التوبة؟ فقال: إذا ذكرت الذنب فلا تجد حلاوته في قلبك".

وقال الراعي: "التوبة ترك المعاصي نية وفعلا، والإقبال على الطاعة نية وفعلا".

عن أبي عبد الله محمد بن عماد البغدادي: "سئل جنيد: من التائب؟ فقال: من تاب عما دون الله".

وقال شاه الكرماني: اترك الدنيا وقد تبت وخالف هواك وقد وصلت".

قوله تعالى: {وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ} [الشورى:٢٥]، أي:"ويصفح عن الذنوب صغيرها وكبيرها لمن يشاء".

قال الطبري: "يقول: ويعفو له أن يعاقبه على سيئاته من الأعمال، وهي معاصيه التي تاب منها".

عن إبراهيم، «أنه سأل علقمة عن رجل فجر بامرأة ثم تزوجها، فقرأ هذه الآية: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ} » ".

عن ابن سيرين قال: سئل ابن مسعود، عن الرجل يزني بالمرأة، ثم ينكحها قال: «هما زانيان ما اجتمعا» قال: فقيل لابن مسعود: أرأيت إن تابا؟ قال: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ} [الشورى: ٢٥]. قال: فلم يزل ابن مسعود يرددها حتى ظننا أنه لا يرى به بأسا".

=

عن بكير بن الأخنس، عن أبيه، قال: "قرأت من الليل حم عسق فمررت بهذه الآية: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [الشورى: ٢٥]، فغدوت إلى عبد الله أسأله عنها، فأتاه رجل فسأله عن الرجل يفجر بالمرأة، ثم يتزوجها؟ فقرأ عبد الله: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ} [الشورى: ٢٥]".

قال الإمام احمد:"ومن لقي الله بذنب يجب له النار تائبا غير مصر عليه فإن الله يتوب عليه و {يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ}، من لقيه وقد أقيم عليه حد ذلك الذنب في الدنيا فهو كفارته كما جاء في الخبر عن رسول الله ﷺ، ومن لقيه مصرا غير تائب من الذنوب التي استوجب بها العقوبة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له".

قوله تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [الشورى:٢٥]، أي:"ويعلم ما تصنعون من خير وشر، لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهو مجازيكم به".

قال مقاتل:"من خير أو شر".

قال الطبري:"ويعلم ربكم أيها الناس ما تفعلون من خير وشر، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو مجازيكم على كل ذلك جزاءه، فاتقوا الله في أنفسكم، واحذروا أن تركبوا ما تستحقون به منه العقوبة".

وقيل:"يعلم اعتقادهم فلا يقبل إلا التوبة النصوح".

وقرئ: «وَيَعْلَمُ مَا يفْعَلُونَ»، بالياء، بمعنى: ويعلم ما يفعل عباده.

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ} الله ﷻ يَقْبَلُ توبةَ التائبين، بل ويحبُّ توبةَ التائبين، كما قال الله ﷻ: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: ٢٢٢]، والتوبةُ: هي الرجوعُ من معصيةِ الله إلى طاعةِ الله، وتقعُ كليَّةً وجزئيَّةً، كليَّةً بأن يتوبَ الإنسانُ من كلِّ ذنبٍ، ومنها توبةُ الكافرِ فإنها

كليَّةٌ، يمحو الله تعالى بها كلَّ ما سَلَفَ من ذَنْبِه، كما قال جَلَّ وَعَلَا: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} [الأنفال: ٣٨].

ويقول المسلمُ: اللهمَّ إني أستغفرُكَ من جميعِ الذنوبِ، وأتوبُ إليك، هذه كليَّةٌ.

التوبةُ الخاصَّةُ: أن يتوبَ من ذنبٍ معيَّنٍ؛ كإنسانٍ تاب من أكْلِ الرِّبَا لكنه مصرٌّ على شربِ الخمرِ - والعياذُ بالله - فهذه توبةٌ خاصَّةٌ جزئيَّةٌ ليست شاملةً، وسيأتي إن شاء اللهُ الكلامُ عليها قريبًا.

وللتوبة شروطٌ خمسةٌ:

الأول: الإخلاصُ لله.

والثاني: الندمُ على ما فَعَلَ.

والثالث: الإقلاعُ عنه.

والرابع: العزمُ على ألا يعودَ.

والخامس: أن تكونَ التوبةُ قبل غلقِ الأبوابِ.

الإخلاصُ: بأن يكون الحاملُ على التوبةِ خَوْفَ اللهِ ﷻ ورجاءَ التقرُّبِ إليه بألا يَقْصِدَ بذلك دنيا ولا جاهًا ولا شيئًا من مخلوقاتِ اللهِ ﷻ، لا يريدُ إلا الوصولَ إلى رضا اللهِ ﷻ ودارِ كرامَتِهِ، والإخلاصُ شرطٌ في كلِّ عملٍ.

الثاني: الندمُ على ما مضى من الذنبِ؛ بحيث يشعرُ الإنسانُ بالحزنِ والتأثُّرِ كيف وَقَعَ منه هذا الذنبُ، والندمُ هو انفعالٌ في النفسِ يَحْصُلُ بفعلِ الإنسانِ وبغيرِ فعلِهِ، لكن كلامَنَا في الندمِ بالتوبةِ الذي يكونُ بفعلٍ، بمعنى أنه يتحَسَّرُ ويتأسفُ أن وقع منه الذنبُ، ولا يكونُ حالُه كحالِ من لم يُذْنِبْ.

الثالثُ: الإقلاعُ عن الذنبِ فإن كان معصيةً في مُحَرَّمٍ فليجتنبْه، وإن كان إفراطًا في واجبٍ فليفعلْه، وعلى هذا فمن زعم أنه تائبٌ من الغِيبةِ ولكنه لا يَدَعُ فرصةً تَحْصُلُ فيها الغِيبةُ إلا اغتاب، فلا نقولُ: إنه تائبٌ؛ لأنَّه لم يُقْلِعْ.

=

كذلك من جَحَدَ مالَ شخصٍ وأنكره وقال: إنه تائبٌ فلا بدَّ أن يَرُدَّ المالَ إلى صاحِبِه، وإلا فلا تُقْبَلُ توبَتُه، ومن اغتاب شخصًا؛ أي: ذَكَرَه بما يَكْرَهُ في غِيبَتِه فلا بدَّ أن يُقْلِعَ عن ذلك ويتحلَّلَ صاحبَ الغِيبةِ، يذهبُ إليه ويقولُ: سامحني، حَلِّلْني، فقد قلتُ فيك قولًا قد تُبْتُ منه، لا بدَّ من هذا، فإن قال: إن ذَهَبْتُ إليه أستحلُّه أخشى أن يظنَّ الأمرَ أكبرَ مما قلتُ، تقعُ العداوةُ.

فالجوابُ: وإن كان كذلك أنت أبرئْ ذِمَّتَك. وكونُهُ يترتبُ على ذلك عداوةٌ، أو ما أَشْبَهَ ذلك ليس إليك، نعم لو أن صاحبَك لم يَعْلَمْ بغِيبتِكَ إياه فهنا يكفي أن تندمَ وتُقْلِعَ عن غِيبتِه في المستقبلِ، وتذكُرُه في المجلس الذي اغْتَبْتَه فيه بما له من صفاتٍ حميدةٍ.

الرابعُ: العزمُ على ألا يعودَ، بأن يقعَ في قلبِهِ أنه لن يعودَ لهذه المعصيةِ، فإن كان تاب لكنه مترددٌ فيما لو تَيَسَّرَت له هذه المعصيةُ أيفعلُها أم لا. فالتوبةُ غير صحيحةٍ، لا بدَّ أن يعزمَ على ألا يعودَ، فإن عاد- يعني عزم ألا يعود ثم عاد بعد ذلك- هل تَبْطُلُ التوبَةُ؟

الجوابُ: لا تَبْطُلُ، التوبةُ الأولى صحيحةٌ، لكن عليه أن يجددَ التوبةَ للذنبِ الثاني، ولهذا كانت العبارةُ العزمُ على ألا يعودَ، وليست العبارةُ بشرطِ ألا يعودَ، وبينهما فَرْقٌ، إذا قلنا عزمَ على ألا يعودَ وعزمَ ألا يعودَ ثم عاد فالتوبةُ الأولى صحيحةٌ، لكن عليه أن يُجَدِّدَ التوبةَ للذنبِ الثاني، أما إذا قلنا بشرطِ ألا يعودَ فهذا يقتضي أنه لو عاد لبطلتِ التوبةُ وليس كذلك.

الشرطُ الخامسُ- وما أَعْظَمَه-: أن تكونَ التوبةُ في زمنِ الإمكانِ فإن فات الأوانُ لم تُقْبَلْ، وفواتُ الأوانِ عامٌّ وخاصٌّ: العامُّ طلوعُ الشمسِ من مَغْرِبِها، والخاصُّ حضورُ الموتِ، أما الأولُ فدليلُه قولُ اللهِ تبارك تعالى: {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا}

=

[الأنعام: ١٥٨]. فَسَّرَ النبيُّ ﷺ بعضَ الآياتِ بأنها الشمسُ تَطْلُعُ من مغرِبها. وقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ: "لا تنقطعُ الهجرةُ حتى تنقطعَ التوبةُ، ولا تنقطعُ التوبةُ حتى تخْرُجَ الشمسُ من مَغْرِبِها".

أما الخاصُّ فهو حضورُ الأجَلِ، فإنه إذا حضر الموتُ لم تُقْبَلِ التوبةُ؛ لقول اللهِ تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ} [النساء: ١٨].

الشاهدُ قولُهُ: {حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ} وهذا الشرطُ يستلزمُ أن تكونَ التوبةُ على الفورِ بدونِ تأخيرٍ، وجْهُ ذلك: أنه لا يَعْلَمُ متى يأتيه الموتُ، فقد يموتُ بَغْتَةً على فراشِهِ، أو على كرْسِيِّه أو وهو ساجدٌ أو راكعٌ، وحينئذٍ يتبيَّنُ أن التوبةَ واجبةٌ على الفورِ، فاستدركْ نَفْسَك أيها العبْدُ، إن كان في أمرٍ بينك وبين اللهِ، أو بينك وبين الخَلْقِ؛ لأنك لا تدري متى يأتي الموتُ.

الخلاصةُ: شروطُ قَبُولِ التوبةِ خمسةٌ: أولًا: الإخلاصُ للهِ ﷻ، ثانيًا: الندمُ على الذنبِ، ثالثًا: الإقلاعُ في الحالِ، رابعًا: العزمُ على ألا يعودَ، خامسًا: أن تكونَ التوبةُ في زمنِ الإمكانِ. نسألُ اللهَ لنا ولكم التوبَةَ.

وقولُهُ: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [منهم] فَصَرَفَ معنى (عن) إلى معنى (من)، وهذا مبنيٌّ على ما سبق من أن حروفَ المعاني تتناوبُ؛ أي: ينوبُ بعضُها عن بعضٍ، ولكن إبقاءَ اللفظِ على ظاهِرِه أَوْلى، ويكون {يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} مضمنًا معنى يعفو عنه، فيقبلُ التوبةَ عن عبادِهِ؛ أي: يَقْبَلُها ويعفو عنهم. ونجعل (عن) على بابِها، ويكونُ قولُهُ: {وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ} كالتوكيدِ لما سبق، يقبلُ التوبةَ عن عبادِهِ.

قولِهِ: {وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [المُتَابُ عنها].

والعفوُ مأخوذٌ من قولِهم: عفا الأثرُ إذا أَخْفَتْهُ الرياحُ، وهو التجاوزُ عن العقوبةِ

وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦).

{وَيَسْتَجِيب الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات} يُجِيبهُمْ إلَى ما يسألون

=

بالذنوبِ، و {السَّيِّئَاتِ} جمعُ سيئةٍ، وهي كلُّ ما يسوءُ الإنسانَ فِعْلُه أو وقوعُه، والمرادُ بالسيئاتِ هنا:- يعني تفسيري لها على حَسَبِ اللفظِ- مخالفةُ الشرعِ، فكلُّ ما خالف الشرعَ فهو سيئةٌ، سواءٌ كان بتركِ واجبٍ، أو فعلِ مُحَرَّمٍ.

قولُهُ: {وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} يقولُ: قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالياءِ والتاءِ] {مَا تَفْعَلُونَ} و"ما يفعلون"، أما على قراءةِ (ما يفعلون) فهي مطابقةٌ للضمائرِ السَّبْعِ، (ويَعلمُ ما يفعلون)؛ أي: ما يَفْعَلُه العِبَادُ.

وأما على قراءةِ التاءِ فهي من بابِ الإلتفاتِ عن الغيبةِ إلى الخطابِ. وأسلوبُ الإلتفاتِ أسلوبٌ بلاغيٌّ ويُقْصَدُ به تنبيهُ المخاطَبِ إلى ما سيلقى إليه، وذلك لأن الكلامَ إذا كان على وتيرةٍ واحدةٍ فإن الإنسانَ يَنْسَجِمُ معه وربما يغفُلُ عنه، وإذا اختلف وقَف الإنسان، لماذا صار الأمرُ كذلك؟ انتبه صار الإلتفاتُ على قراءةِ {وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} التفاتًا من الغَيْبةِ إلى الخطابِ، الإلتفاتُ فنٌّ معروفٌ في البلاغةِ من فوائده تنبيهُ المخاطَبِ.

انظر إلى قولِ الله تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا} [المائدة: ١٢]. مقتضى السياقِ أن يقولَ: وبَعَثَ منهم، لكن قال: وبعثْنا منهم، فانتقل من الغَيْبَةِ إلى التكلُّمِ؛ لأجلِ تنبيهِ المخاطَبِ.

قال: {وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} علمه بما نعمل يشملُ العلمَ بالأشياءِ الظاهرةِ والأشياءِ الباطنةِ، قد يُذْنِبُ الإنسانُ ذَنْبًا ظاهرًا يعلمُه الناسُ ويعلمُه ربُّ الناسِ عَزَّوَجَلَّ، وقد يكونُ خفيًّا لا يعلمُه الناسُ، ولكن يَعْلَمُه اللهُ تبارك وتعالى.

{ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد[(١)]}.

---

(١) قوله تعالى: {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [الشورى:٢٦]، أي: "ويستجيب الذين آمنوا بالله ورسوله لربهم لِمَا دعاهم إليه وينقادون له".

قال الطبري: يقول: "ويجيب الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمرهم الله به، وانتهوا عما نهاهم عنه لبعضهم دعاء بعض".

قال ابن أبي زمنين: "أي: يستجيبون لربهم يؤمنون به".

قال ابن قتيبة: "{وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا}، أي: يجيبهم؛ كما قال الشاعر:

وَدَاعٍ دَعَا: يَا مَنْ يُجِيبُ إلى النَّدَى... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ-عِنْدَ ذَاكَ- مُجِيبُ".

عن إبراهيم النخعي:، قوله: "{وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قال: يُشَفَّعُون في إخوانهم".

وقال الضحاك: "يُشَفِّعُهُمْ فِي إِخْوَانِهِم".

قوله تعالى: {وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} [الشورى:٢٦]، أي: "ويزيدهم من فضله توفيقًا ومضاعفة في الأجر والثواب".

قال الطبري: يقول: "ويزيد الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع إجابته إياهم دعاءهم، وإعطائه إياهم مسألتهم من فضله على مسألتهم إياه، بأن يعطيهم ما لم يسألوه. وقيل: إن ذلك الفضل الذي ضمن جلّ ثناؤه أن يزيدهموه، هو أن يشفعهم في إخوان إخوانهم إذا هم شفعوا في إخوانهم، فشفعوا فيهم".

قال ابن أبي زمنين: "يعني: تضعيف الحسنات".

قال الجصاص: وهذه المضاعفة إنما هي بفضل الله غير مستحق عليها".

عن إبراهيم النخعي: "{وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ}، قال: يشفعون في إخوان إخوانهم".

وقال الضحاك: "يُشَفِّعُهُمْ في إخوان إخوانهم".

=

=

عن شقيق عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله تبارك وتعالى: {فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله} قال: "أجورهم يدخلهم الجنة". {ويزيدهم من فضله} قال: "الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا".

قوله تعالى: {وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} [الشورى:٢٦]، أي:"والكافرون بالله ورسوله لهم يوم القيامة عذاب شديد موجع مؤلم".

قال الطبري: يقول:"والكافرون بالله لهم يوم القيامة عذاب شديد على كفرهم به".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يجيبُهُم إلى ما يسألون] {وَيَسْتَجِيبُ} بمعنى: يجيبُ، مع أنه قد يتبادرُ إلى ذهنِ الإنسانِ أن معنى {وَيَسْتَجِيبُ}؛ أي: يطيعُ، كما إذا قلت: دعوتُ فلانًا فاستجاب لي؛ أي: أطاعني، لكن هنا {وَيَسْتَجِيبُ} بمعنى يُجيبُ، ودليلُ هذا التفسيرِ قولُ اللهِ تبارك وتعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ} [آل عمران: ١٩٥]؛ إذن استجاب بمعنى: أجاب، ويستجيبُ بمعنى: يجيبُ.

وقوله: {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ} {الَّذِينَ} مفعولٌ به، وليست فاعلًا، الفاعلُ ضميرٌ مستترٌ يعودُ على الله.

وإننا إذا قلنا: {وَيَسْتَجِيبُ} أنها عائدةٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ صارت {الَّذِينَ} مَحَلُّهَا النصبُ فهم مجابون، و {الَّذِينَ} مفعولٌ به، وأيضًا يُضْعِفُ هذا القولَ- بأن قوله: {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا} [الشورى: ٢٦]، يعني: الذين آمنوا هم الذين استجابوا لربِّهم- قولُهُ: {وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} [الشورى: ٢٦]، فإن الأصلَ أن الضمائرَ تكونُ واحدةً، ومعلومٌ أن الزيادةَ {مِنْ فَضْلِهِ} من الفضلِ خاصَّةٌ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ فالقولُ

=

=

بأنها تحتملُ المعنى الثانيَ ضعيفٌ؛ لأنَّه مرجوحٌ.

وعندنا مُرَجِّحٌ على أن المجيبَ هو اللهُ وهو قولُهُ: {وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} ولو كان كذلك لقال: فيزيدُه ويَستجِيبُ الذِين آمَنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ فيزيدُهُم. إذا استجابوا، فلما جاء حرفُ العطفِ الذي يقتضي تساويَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه لم يصحَّ ما قلتَ، وإلا لقال: ويَستجِيبُ الذِين آمَنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ فيزيدُهُم؛ أي: بسببِ استجابتِهِم يزيدُهُم من فضْلِه.

وقوله: {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} آمنوا بقلوبِهِم {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} بجوارحِهم، والإيمانُ والعملُ الصالحُ يُقرنان دائمًا؛ لأنَّ أحدَهُما ملازمٌ للآخَرِ، فكلُّ من آمن حقًّا فسيعملُ الصالحاتِ قطعًا، دليلُ هذه القاعدةِ: قولُ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم-: "ألا وإن في الجسدِ مضغةً إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسدُ كلُّهُ، وإذا فسدتْ فسَدَ الجسدُ كلُّه".

إذن: آمنوا بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به، وأركانَ الإيمانِ قال عنها النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم-: "إنها الإيمانُ باللهِ، وملائكتِه، وكتُبِه، ورسُلِه، واليومِ الآخِرِ، والقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ".

وقوله: {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} الصالحاتُ: هذه صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، والتقديرُ: الأعمالُ الصالحاتُ. فما ضابطُ العملِ الصالحِ؟ ضابطُ العملِ الصالحِ: أن يكونَ خالصًا للهِ، موافقًا لشريعةِ الله؛ هذا يقعُ في أمةِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام لكن هل يقعُ في الأممِ السابقةِ؟ الجوابُ: نعم، حين كانت شرائعُهُم قائمةً يقعُ منهم الإيمانُ والعملُ الصالحُ، إذن العملُ الصالحُ ضابطُهُ أن يكونَ خالصًا للهِ موافقًا لشريعةِ الله.

فقولُنا: أن يكون خالصًا لله احترازٌ من العملِ الذي يقعُ فيه الشركُ فليس بصالحٍ، وإن قلَّ الشركُ؛ لقولِهِ تعالى في الحديث القدسيِّ: "أنا أغنى الشركاءِ عن الشركِ

=

من عَمِلَ عملًا أَشْرَكَ فيه معي غيري تركْتُه وشِرْكَه".

وعلى وَفْقِ الشريعةِ أن يكون خاليًا من البدعةِ، فإن كان فيه بدعةٌ لم يكن صالحًا، حتى لو كانت أجزاءُ هذه البدعةِ عملًا صالحًا، فإنها إذا كانت بدعةً لا تكونُ عملًا صالحًا؛ يعني: لو أن أحدًا أَحْدَثَ أذكارًا من القرآنِ أو من السُّنَّةِ، لكن على صفةٍ لم تأتِ بها الشريعةُ، فإنها ليست عملًا صالحًا، ولا يكونُ العملُ صالحًا إلا إذا وافقَ الشريعةَ في أمورٍ ستةٍ: السببِ، والقَدْرِ، والكيفيَّةِ، والنَّوْعِ، والزمانِ، والمكانِ. لا بدَّ أن يوافقَ الشريعةَ في هذه الأشياءِ الستَّةِ:

السببُ: بأن يكونَ هذا العملُ مشروعًا لسببٍ معيَّنٍ، فلو أن إنسانًا أحدثه لسببٍ آخَرَ لم يُقْبَلْ منه، ولم يَكُنْ صالحًا.

مثالُ ذلك: نرى بعضَ الناسِ إذا قُدِّمَ إليه الطِّيبُ، يقولُ: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ. هذا ليس عملًا صالحًا.

إذا قال قائلٌ: كيف تقولُ: ليس عملًا صالحًا وهو صلاةٌ على الرسولِ؟

قلنا: لأنه ليس من هديِ الرسولِ ﷺ أنه كلما تَطَيَّبَ صلى على النبيِّ، ولا أَمَرَ أُمَّتَهُ بذلك، إذن فأنت الآن أَثْبَتَّ سببًا غيرَ شَرْعِيٍّ.

ومن ذلك أن بعضَ الناسِ إذا تجشَّأ- وهو خروجُ الريحِ من فوقُ- قال: الحمدُ للهِ. نقولُ: من قال لك إنه يشرعُ عند التجشؤِ أن تَحْمَدَ اللهَ؟ إذن عملُك غيرُ صالحٍ؛ لأنَّه غيرُ مطابقٍ للشريعةِ، ونقولُ: يلزمُ على قولِك أنك إذا فَسَوْتَ أن تحمدَ اللهَ، ولا دليلَ على هذا.

والثاني: بأن يكونَ من جنسِ ما جاءتْ به الشريعةُ، فإن خرج عن ذلك لم يكن عملًا صالحًا، مثالُه: لو أن أحدًا ضحَّى بفرسٍ فالفرسُ أغلى من الشاةِ غالبًا، فإن الأضحيةَ لا تُقْبَلُ؛ لأنه ليس من جنسِ المشروعِ التضحيةُ به، إذ إن التضحيةَ لا تكونُ إلا من بهيمةِ الأنعامِ: الإبلِ والبقرِ والغنمِ، كما قال تعالى: {وَيَذْكُرُوا اسْمَ

=

اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} [الحجِّ: ٢٨].

الثالثُ: أن يكونَ مطابقًا للشريعةِ في قَدْرِه فلا يزيدُ على ما جاءت به الشريعةُ؛ ولهذا لو أن إنسانًا زاد في الصلاةِ ركعةً لم يكن عملًا صالحًا، حتى وإن كانت صلاتُهُ في الأصلِ مشروعةً، لكنها في هذا الحالِ ليست مشروعةً.

فإن قال قائلٌ: ماذا تقولون لو أن الإنسانَ زاد في صلاةِ الليلِ على إحدى عشرة ركعةً، هل تكونُ الزيادةُ عملًا صالحًا؟

إذا قلتُ: نعم، أَشْكَلَ علينا أننا قلنا: لا بدَّ أن تطابق الشريعةَ في قَدْرِها. أعني: العبادةَ، ومعلومٌ أن النبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- كان لا يزيدُ في رمضان ولا غيرِهِ على إحدى عشرة ركعةً، وربما صلى ثلاثَ عشرةَ ركعةً.

فالجوابُ: أن صلاةَ الليلِ لم يردْ فيها تحديدٌ عن- صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- بأن قال: لا تزيدوا على كذا، بل صلى هو إحدى عشرة ركعةً، وقال للذي سأله عن صلاةِ الليل: قال له: "مثنى مثنى فإذا خَشِيتَ الصبحَ فصلِّ ركعةً تُوتِرُ لك ما قد صَلَّيْتَ الليلَ"، فقولُهُ: "مثنى مثنى"، بدون تحديدٍ يدلُّ على أن صلاةَ الليلِ لا حدَّ لها، صلِّ ما شئتَ من الركعاتِ.

الأمرُ الرابعُ: أن تكونَ موافقةً للشريعةِ في الزمانِ، فإن خالفت الشريعةَ في الزمان فإنها لا تُقْبَلُ.

مثالُ ذلك: رجلٌ ضَحَّى وذبح أضحيتَهُ قبل صلاةِ العيدِ، فلا تصحُّ هذه الأضحيةُ؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ للذي أخبره أنه ذبح قبل أن يصلي قال له: "شاتُك شاةُ لحمٍ".

الخامسُ: في المكانِ: أن تكونَ موافقةً للشريعةِ في المكانِ. يعني: أنه إذا خص الشارعُ العبادةَ بمكانٍ معيَّنٍ فإن صلاتَهَا في غيرِ هذا المكانِ لا تُقْبَلُ، فالوقوفُ بعرفةَ لو أن إنسانًا وقف في مزدلفةَ بدَلَ الوقوفِ بعرفةَ، فإن ذلك لا يصحُّ؛ لأنَّه

=

=

وقف في غيرِ المكانِ الذي حُدِّدَ، ولو اعتكف الإنسانُ في بيتِهِ لم يصحَّ الإعتكافُ؛ لأنَّ الإعتكافَ مخصوصٌ بالمساجِدِ.

السادسُ: أن تكون مطابقةً للشريعةِ في هيئتها يعني: الكيفيَّةَ، فلو توضأ الإنسانُ وغسل يديه قبل وجْهِه فالوضوءُ لا يصحُّ؛ لأنَّه مخالفٌ للشريعةِ في الهيئةِ إذ إن الله يقولُ: {فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ} [المائدة: ٦] ولو صلى الإنسانُ فسجد قبل أن يركعَ، ثم قام وركع لم تصحَّ الصلاةُ؛ لعدمِ موافقةِ الشريعةِ في الهيئةِ.

هذه ستةُ أشياءَ لا يُمْكِنُ أن تكونَ العبادةُ مطابقةً للشريعةِ إلا إذا تحققت هذه الأشياءُ الستةُ.

قولُهُ: {وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ}؛ أي: يعطيهم من فضلِه زيادةً على ما عمِلوا، فالحسنةُ بعشْرِ أمثالِها إلى سَبْعِ مئةِ ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ.

قولُهُ: {وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} هذه جملةٌ مستأنفةٌ، لمَّا ذَكَرَ ما يحصلُ للذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ ذَكَرَ ما يَحْصُلُ لِضِدِّهم؛ لأن القرآن الكريمَ مثاني تثنى فيه المعاني، فتذكر فيه الجنة ثم يذكر النار، والثواب ثم العقاب، والمؤمن ثم الكافر، وهلمَّ جرًّا.

وقوله: {وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} الكافرُ: في الأصلِ الجاحدُ مأخوذٌ من الكُفراء، وهي من وعاءِ طلعِ النخلِ، ولكنه يُطْلَقُ على كلِّ من كَفَرَ باللهِ تعالى بجحدٍ أو غيرِه، سواءٌ كان بجحدٍ مثل: أن يجحد الرسالةَ أو القرآنَ، أو كان باستكبارٍ عن دينِ اللهِ مثل: أن يدعَ الصلاةَ التي تَرْكُهَا كُفْرٌ.

وقولُهُ: {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} مبتدأٌ وخبرٌ، خبرُ المبتدأِ الأوَّلِ الذي هو {وَالْكَافِرُونَ} وأتت العبارةُ بهذا الوجهِ للتأكيدِ على عذابِهِم- والعياذُ باللهِ-، وإلا لكان يكفي أن يقال: {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ} [البقرة: ٩٠] أو ما أَشْبَهَ ذلك، لكن اللهَ تعالى قال: {وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} الشديدُ: القويُّ، وإذا رأيتَ

=

وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧).

{وَلَوْ بَسَطَ الله الرِّزْق لِعِبَادِهِ} جَمِيعهمْ {لَبَغَوْا} جَمِيعهمْ أَيْ طَغَوْا {فِي الْأَرْض وَلَكِنْ يُنَزِّل} بِالتَّخْفِيفِ وَضِدّه مِنْ الْأَرْزَاق {بِقَدَرٍ مَا يَشَاء} فَيَبْسُطهَا لِبَعْضِ عِبَاده دُون بَعْض وَيَنْشَأ عَنْ البسط البغي {إنه بعباده خبير بصير}[1].

=

أن تعرف هذا فاقرأْ ما في القرآنِ والسُّنَّةِ من عذابِ أهلِ النارِ.

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي هانئ الخولاني؛ قال: سمعت عمرو بن حريث وغيره يقولون: إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب الصُّفّة: {وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ} وذلك بأنهم قالوا: لو أن لنا؛ فتمنوا الدنيا.

أخرجه عبد الله بن المبارك في "الزهد" (١/ ٤٥٦، ٤٥٧ رقم ٥٠٩)، والطبري في "جامع البيان" (٢٥/ ١٩)، والطبراني في "المعجم الكبير"؛ كما في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٠٤)، وأبو نعيم في "الحلية" (١/ ٣٣٨)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٥٢)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٧/ ٢٨٦، ٢٨٧ رقم ١٠٣٣٢) من طرق عن أبي هانئ الخولاني عن عمرو به.

وهذا سند صحيح إلى عمرو، وهو مختلف فيه؛ قال الحافظ ابن حجر في "التقريب": "مختلف في صحبته، أخرج حديثه أبو يعلى، وصححه ابن حبان، قال ابن معين وغيره: تابعي، وحديثه مرسل".

وقال الهيثمي: "رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٥٢) وزاد نسبته لابن المنذر وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن مردويه.

=

=

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: ما أصبح بالكوفة أحد إلا ناعم؛ إن أدناهم منزلة يشرب من ماء الفرات، ويجلس في الظل، ويأكل من البر، وإنما نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة: {وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ}؛ وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا، فتمنوا الدنيا.

أخرجه الحاكم (٢/ ٤٤٥)-وعنه البيهقي في "شعب الإيمان" (٧/ ٢٨٦ رقم ١٠٣٣١)- من طريق أبي كريب ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مجاهد عن عبد الله بن سخبرة عن علي.

وهذا إسناد ضعيف؛ فيه الأعمش وهو مدلس، وقد عنعن، وقد نقل الحافظ ابن حجر في "تهذيب التهذيب" (٤/ ٢٢٥) عن يعقوب بن شيبة أنه قال في "مسنده": "ليس يصح للأعمش عن مجاهد إلا أحاديث يسيرة، قلت لعلي بن المديني: كم سمع الأعمش من مجاهد؟ قال: لا يثبت منها إلا ما قال سمعت، هي نحو من عشرة وإنما أحاديث مجاهد عنده عن أبي يحيى القتات".

وأبو يحيى القتات؛ ضعيف.

وقال عبد الله بن أحمد، عن أبيه-في أحاديث الأعمش عن مجاهد-: "قال أبو بكر بن عياش عنه: حدثنيه ليث عن مجاهد". وليث هو ابن أبي سليم وهو ضعيف.

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه"، وقال الذهبي: "على شرط (خ) و (م) ".

وعن قتادة؛ قال: يقال: خير الرزق ما لا يطغيك ولا يلهيك، قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: "أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها"، فقال له قائل: يا نبي الله! هل يأتي الخير بالشر؟ فقال النبي ﷺ: هل يأتي الخير بالشر؟ فأنزل الله عليه عند ذلك: {وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ}، وكان

=

=

إذا نزل عليه؛ كرب لذلك وتربّد وجهه، حتى إذا سُرّي عن نبي الله ﷺ؛ قال: "هل يأتي الخير بالشر -يقولها ثلاثًا-؟ إن الخير لا يأتي إلا بالخير يقولها ثلاثًا وكان ﷺ وتر الكلام، ولكنه والله ما كان ربيع قط إلا أحبط أو ألمّ. فأما عبد أعطاه الله مالاً فوضعه في سبيل الله التي افترض وارتضى؛ فذلك عبد أريد به خير، وعزم له على الخير. وأما عبد أعطاه الله مالاً فوضعه في شهواته ولذاته، وعدل عن حق الله عليه؛ فذلك عبد أريد به شر، وعزم له على شر".

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٥/ ١٩، ٢٠): ثنا بشر العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

* قوله تعالى: {وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ} [الشورى:٢٧]، أي:"ولو بسط الله الرزق لعباده فوسَّعه عليهم، لبغوا في الأرض أَشَرًا وبطرًا، ولطغى بعضهم على بعض".

قال الطبري: ذكر أن هذه الآية نزلت من أجل قوم من أهل الفاقة من المسلمين تمنوا سعة الدنيا والغنى، فمال جلّ ثناؤه: ولو بسط الله الرزق لعباده، فوسعه وكثره عندهم لبغوا، فتجاوزوا الحدّ الذي حدّه الله لهم إلى غير الذي حدّه لهم في بلاده بركوبهم في الأرض ما حظره عليهم".

قال ابن كثير:"أي: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض، أشرا وبطرا".

قال قتادة:"كان يقال: خير الرزق ما لا يُطغيك ولا يُلهيك".

وفي الحديث: «إن أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر لهم المال فيتشاجوا ويقتتلوا».

عن أبي سعيد، قال: "جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: «إنما أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» فقال رجل: أو

=

يأتي الخير بالشر، فسكت، فقيل له: ما شأنك تكلم النبي ﷺ ولا يكلمك، ورئينا أنه ينزل عليه، فأفاق فمسح عنه الرحضاء، فقال: «أين السائل؟» وكأنه حمده، فقال: «إنه لا يأتي الخير بالشر، وإن مما ينبت الربيع يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر، فإنها أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها، ثم استقبلت عين الشمس، فبالت، وثلطت، ورتعت، وإن هذا المال خضر حلو، ونعم مال المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل» أو كالذي قال رسول الله ﷺ وإنه من يأخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة ".

قوله تعالى: {وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ} [الشورى:٢٧]، أي:"ولكن الله ينزل أرزاقهم بقدر ما يشاء لكفايتهم".

قال الطبري: أي:"ولكنه ينزل رزقهم بقدر لكفايتهم الذي يشاء منه".

قال ابن كثير:"أي: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم".

قوله تعالى: {إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} [الشورى:٢٧]، أي:"إنه بعباده خبير بما يصلحهم، بصير بتدبيرهم وتصريف أحوالهم".

عن قتادة، قوله: "{خَبِيرٌ}، قال: "خبير بخلقه".

قال الطبري: يقول:"إن الله بما يصلح عباده ويفسدهم من غنى وفقر وسعة وإقتار، وغير ذلك من مصالحهم ومضارهم، ذو خبرة، وعلم، بصير بتدبيرهم، وصرفهم فيما فيه صلاحهم".

قال ابن كثير:"فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر. كما جاء في الحديث المروي: «إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه» ".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ}

=

{بَسَطَ} بمعنى وَسَّعَ، كما قال تعالى: {وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ} [البقرة: ٢٤٥]، وقال ﷻ: {يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} [الزُّمَر: ٥٣]، فالبسطُ بمعنى التوسيعِ، يعني: لو وَسَّعَ اللهُ الرزْقَ للعبادِ لبغَوْا في الأرضِ.

وقولُهُ: {لِعِبَادِهِ} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [جميعُهُم] يعني: لو كان كلُّ الناسِ أغنياءَ بُسِطَ لهم في الرِّزْقِ لبغوْا في الأرضِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{لَبَغَوْا} جميعُهُم {فِي الْأَرْضِ} أي: طَغَوْا فيها] وتجاوزوا حدودَهم؛ وذلك لأن الجميعَ كانوا في رفاهيةٍ وفي رزقٍ واسعٍ ولا رادعَ ولا اعتبارَ ولا اتِّعَاظَ.

وأيضًا لو بَسَطَ اللهُ الرزقَ لجميعِ العبادِ لفسدت الدنيا؛ لأنَّه لولا هذا التفاضلُ بين العبادِ في الرِّزْقِ ما خدم أحدٌ أحدًا، ولا استقامت الأحوالُ، لو كان الناسُ كُلُّهُم على حدٍّ واحدٍ في الغنى، وطلبت من شخصٍ أن يعملَ لك فإنه لن يستجيبَ؛ لاستغنائِهِ بما عنده، ولكنَّ اللهَ تبارك وتعالى فَضَّلَ بعضَ الناسِ على بعضٍ، ورَفَعَ بعضَهُم فوق بعضٍ درجاتٍ؛ {لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا} [الزخرفِ: ٣٢].

هذا ما ذهب إليه المُفسِّر، ولكن قد يقالُ: إن قولَه تعالى: {وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ} شاملٌ للجميعِ أو للأفرادِ، فإن الإنسانَ لو بَسَطَ اللهُ له الرزقَ بغى واستغنى؛ ولذلك تجدون أكثَرَ من يُكَذِّبُ الأنبياءَ هم الملأُ الأغنياءُ الكبراءُ، وأمَّا الفقراءُ الضعفاءُ ففي الغالبِ هم الذين يَتَّبِعُون الأنبياءَ، فيكونُ المعنى المرادُ بقولِهِ: {وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ} المرادُ الجنسُ يعني: لواحدٍ من عبادِهِ لبغى في الأرضِ.

قولُهُ: {وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{يُنَزِّلُ} بالتخفيفِ وضِدِّه] ضِدُّهُ التشديدُ؛ يعني: يُنَزِّلُ ويُنزِلُ، ينزِّلُ من نزَّلَ ويُنزِلُ من أنزَلَ وقولُهُ: [بالتخفيفِ وضِدِّهِ] اصطلاحُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ أنه إذا أتى بِمِثْلِ هذا التعبيرِ فالقراءتان

=

=
سَبْعِيَّتَانِ، وكذلك إذا قال: وفي قراءةٍ، فالقراءتان سَبْعِيَّتان، أمَّا إذا قال: وقُرِئَ فالقراءةُ شاذَّةٌ؛ لأنَّه أتى بها بصيغةِ التمريضِ، هذا التعبيرُ الذي معنا [بالتخفيفِ وضِدِّهِ] على حدٍّ سواءٍ يعني: ساوى بين القراءتين، وعلى هذا فهما سبعيتان.
قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [من الأرزاقِ] بيانٌ للمنزَّلِ، فالمُضْمَرُ إذن من الأرزاقِ، ويدلُّ على أن المُضْمَرَ من الأرزاقِ قولُهُ: {وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ}؛ أي بتقديرٍ مكتوبٍ في الأزلِ لا يتغيَّرُ، ولا يتبدَّلُ {مَا يَشَاءُ} فيبسطُها لبعضِ عبادِه دون بعضٍ، وينشأُ عن البسْطِ البغيُ {إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}.
قولُهُ: {بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ} هذه المشيئةُ كما سبق مقرونةٌ بالحكمةِ، فمن اقتضتِ حكمةُ اللهِ أن يُغْنِيَهُ أغناه، ومن اقتضتْ حكمةُ اللهِ أن يُفْقِرَهُ أَفْقَرَهُ.
وفي الحديثِ القدسيِّ "إن من عبادي من لو أغنيْتُه لأفسده الغنى، وإن من عبادي من لو أفقرْتُه لأفسده الفقرُ"، فاللهُ تبارك وتعالى حكيمٌ. وكم من إنسانٍ رجع إلى اللهِ تعالى بسببِ المصائبِ من فقرٍ، أو موتِ قريبٍ، أو صديقٍ، أو ما أَشْبَهَ ذلك.
قولُهُ: {مَا يَشَاءُ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فيبسُطُها لبعضِ عبادِه دون بعضٍ، وينشأ عن البسطِ] يعني توزيعَ الرزقِ [البغيُ]، هذا كالتعليلِ؛ لكونِ الجواب: لو بسطَ اللهُ الرزقَ لعبادِهِ لَبَغَوْا؛ بأنه ينشأُ عن البسطِ البغيُ والطغيانُ والإستكبارُ عن العبادةِ والتكذيبُ بالحقِّ.
قولُهُ: {إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} الجملةُ استئنافيَّةٌ تُبيِّنُ أن بَسْطَه الرِّزْقَ وعدَمَه ناشئٌ عن عِلْمٍ وخبرةٍ، والخبرةُ أخصُّ من العِلْمِ؛ لأنَّها العلمُ ببواطنِ الأمورِ، ولكن نقولُ: إن العلمَ ببواطِنِ الأمورِ يدلُّ بالإلتزامِ على العِلْمِ بظواهرِ الأمورِ من بابِ أولى.
{بَصِيرٌ} مأخوذةٌ من الإبصارِ بالعيْنِ، ومن البصيرةِ وهي العِلْمُ، فيكونُ بصيرٌ لها
=

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨).

{وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّل الْغَيْث} الْمَطَر {مِنْ بَعْد مَا قَنَطُوا} يَئِسُوا مِنْ نُزُوله {وَيَنْشُر رَحْمَته} يَبْسُط مَطَره {وَهُوَ الْوَلِيّ} الْمُحْسِن لِلْمُؤْمِنِينَ {الْحَمِيد} المحمود عندهم[١].

=

معنيان: الأولُ: من الإبصارِ وهو الرؤيا بالعيْنِ، والثاني: من البصيرةِ وهي العلمُ {إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}، وهذا يعني أنه يُضَيِّقُ على من شاء ويوسِّعُ على من شاء.

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا} [الشورى:٢٨]، أي:"والله وحده هو الذي ينزل المطر من السماء، فيغيثهم به من بعد ما يئسوا من نزوله".

قال الطبري: يقول:"والله الذي ينزل المطر من السماء فيغيثكم به أيها الناس من بعد ما يئس من نزوله ومجيئه".

قال ابن كثير:"أي: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: {وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنزلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ} [الروم: ٤٩]".

عن مجاهد، قوله: "{مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا}، قال: يئسوا".

قال قتادة:"ذكر لنا أن رجلا أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين قحط المطر، وقنط الناس قال: مطرتم: {وَهُوَ الَّذِي يُنزلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ}".

عن قتادة: "أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: أجدبت الأرض، وقنط الناس، قال:

=

=

مطروا إذن".

قرأ نافع وابن عامر وعاصم: «وهو الذي ينزل الغيث»، بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف وهما لغتان.

قوله تعالى: {وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ} [الشورى:٢٨]، أي:"وينشر رحمته في خلقه، فيعمهم بالغيث".

قال يحيى بن سلام:"يعني: ويبسط رحمته، يعني: نعمه وهو المطر ".

قال السمعاني:"أي: بإنزال الغيث".

قال ابن كثير:"أي: يعم بها الوجود على أهل ذلك القُطْر وتلك الناحية".

قال أبو هلال العسكري:"وقيل: {وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ} يعني: رزقه".

قال السدي:"وأمّا {رحمته}، فهو المطر".

قال أبو عبد الله الحليمي:"فبان بهذه الآية أن حال نزول الغيث حال رحمته، والاسترحام في حال الرحمة إرجاء فيه حال لا يعرف حقبها".

قال قتادة:"ذُكر لنا أنّ رجلًا أتى عمر بن الخطاب- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فقال: يا أمير المؤمنين قحط المطر وقنط النّاس. قال: مطرتم، ثمّ قال: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ}".

عن ثابت، قال: "بلغنا: أنّه يُستجاب الدعاء عند المطر. ثم تلا هذه الآية: {وهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيثَ مِن بَعْدِ ما قَنَطُوا} ".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} [الشورى:٢٨]، أي:"وهو الوليُّ الذي يتولى عباده بإحسانه وفضله، الحميد في ولايته وتدبيره".

قال الطبري: "يقول: وهو الذي يليكم بإحسانه وفضله، الحميد بأياديه عندكم، ونعمه عليكم في خلقه".

قال ابن كثير:"أي: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو

=

=

المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله".

قال السمعاني:"أي: المالك لما يفعله، المستحق للحمد فيما ينزله من الغيث".

عن السدي، قوله: "أما {الولي}، فالذي يتولاه الله ويقر له بالربوبية".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا} [الشورى:٢٨]، أي:"والله وحده هو الذي ينزل المطر من السماء، فيغيثهم به من بعد ما يئسوا من نزوله".

قال الطبري: يقول:"والله الذي ينزل المطر من السماء فيغيثكم به أيها الناس من بعد ما يئس من نزوله ومجيئه".

قال ابن كثير:"أي: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: {وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنزلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ} [الروم: ٤٩] ".

عن مجاهد، قوله: "{مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا}، قال: يئسوا".

قرأ نافع وابن عامر وعاصم: «وهو الذي ينزل الغيث»، بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف وهما لغتان.

قوله تعالى: {وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ} [الشورى:٢٨]، أي:"وينشر رحمته في خلقه، فيعمهم بالغيث".

قال يحيى بن سلام:"يعني: ويبسط رحمته، يعني: نعمه وهو المطر ".

قال السمعاني:"أي: بإنزال الغيث".

قال ابن كثير:"أي: يعم بها الوجود على أهل ذلك القُطْر وتلك الناحية".

قال أبو هلال العسكري:"وقيل: {وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ} يعني: رزقه".

قال السدي:"وأمّا {رحمته}، فهو المطر".

قال أبو عبد الله الحليمي:"فبان بهذه الآية أن حال نزول الغيث حال رحمته،

=

=

والاسترحام في حال الرحمة إرجاء فيه حال لا يعرف حقبها".

عن ثابت، قال: "بلغنا: أنّه يُستجاب الدعاء عند المطر. ثم تلا هذه الآية: {وهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيثَ مِن بَعْدِ ما قَنَطُوا} ".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} [الشورى:٢٨]، أي:"وهو الوليُّ الذي يتولى عباده بإحسانه وفضله، الحميد في ولايته وتدبيره".

قال الطبري: "يقول: وهو الذي يليكم بإحسانه وفضله، الحميد بأياديه عندكم، ونعمه عليكم في خلقه".

قال ابن كثير:"أي: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله".

قال السمعاني:"أي: المالك لما يفعله، المستحق للحمد فيما ينزله من الغيث".

عن السدي، قوله: "أما {الولي}، فالذي يتولاه الله ويقر له بالربوبية".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ} يُنَزِّلُه من السماءِ، {الْغَيْثَ} أي: ما يَحْصُلُ به الإغاثةُ وهي الإنقاذُ من الشدَّةِ، أما المطرُ فقد يَنْزِلُ ولا تزولُ به الشدَّةُ، دليلُ ذلك قولِ النبيِّ ﷺ: "ليس السَّنَةُ أن لا تُمْطِرَ ولكن السَّنَةَ أن تُمْطِرَ فلا تُنْبِتُ الأرضُ شيئًا".

{مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا} أي: ما قَنَط العبادُ، قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الْغَيْثَ} المطرُ، {مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا}؛ أي: يَئِسُوا من نزولِهِ]؛ لتأخُّرِه عن وقتِه قالوا: إذن هذا العامُ لا مَطَرَ، فيُنْزِلُ اللهُ المطرَ، وإنزالُ المطرِ على حينِ شفقةٍ له وقنوطٍ من نزولِهِ يكونُ أشدَّ وقْعًا في النفوسِ، وأبْيَنَ لرحمةِ الله تبارك وتعالى وفَضْلِهِ.

وقولُهُ: {مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا} بيانٌ للواقِعِ وليس تقريرًا للقنوتِ؛ لأنَّ القنوطَ حُكْمُه الشرعيُّ لا يَجُوزُ، بل هو من كبائرِ الذنوبِ. الإخبارُ بالواقعِ أو عن الواقعِ لا يعني إقرارَهُ، ودليلُ هذا قولُهُ ﷺ: "ليكونَنَّ من أمتي أقوامٌ يستحلُّونَ الحِرَّ

=

=

والحريرَ والمعازفَ". وقولُهُ: "لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ من كان قَبْلَكم اليهودِ والنصارى"، وإخبارُهُ بأن الظعينةَ تخرُجُ من كذا إلى كذا لا تخشى إلا اللهَ. فهذا الإخبارُ عن الواقِعِ لا يقتضي حِلَّهُ وإِقرارَهُ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ} يَبْسُطُ مَطَرَه] هكذا قال المفَسِّرُ، ولو كان المرادُ كما قال لقال: يُنَزِّلُ الغيثَ من بَعْدِ ما قَنَطُوا ويَنْشُرُه، ولكن الصوابَ: ينشرُ رَحْمَتَه؛ أي: الرحمةَ التي تَحْصُلُ بهذا الغَيْثِ، من نباتِ الزرعِ، ودَرِّ الضَّرْعِ، وسَعَةِ الرزقِ، وغيرِ ذلك مما ينشأُ عن المطرِ.

وقال بعضُ العلماءِ: يَنْشُرُ رحمتَه؛ أي: يجعلُ السماءَ صحوًا حتى تَخْرُجَ الشمسُ، وفي هذا نظرٌ، اللهمَّ إلا إذا وصلتِ الأمطارُ إلى حدٍّ يُخْشَى من ضَرَرِها، فحينئذٍ يكونُ انجلاءُ الغَيْمِ، وخروجُ الشمسِ يكونُ رحمةً، أما مجرَّدُ خروجِ الشمسِ وانجلاءُ الغيْمِ فإنه ليس برحمةٍ، لكنه حِكْمَةٌ، نَعْلَمُ بأن الله تعالى يَفْعَلُ هذا لحكمةٍ وينْشُرُ رحْمَتَه، فالمسألةُ أعمُّ مما ذَكَرَ المُفسِّر.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَهُوَ الْوَلِيُّ} المُحْسِنُ للمؤمنين {الْحَمِيدُ} المحمودُ عندهم]. قولُهُ: [{وَهُوَ الْوَلِيُّ} المُحْسِنُ للمؤمنين] فَسَّرَ الوَلايةَ بالإحسانِ، والصوابُ أن الولايةَ أعمُّ، فقولُهُ: {وَهُوَ الْوَلِيُّ}؛ أي: الذي يتولَّى أمورَ عبادِهِ. وقولُهُ: {الْحَمِيدُ}؛ أي: المحمودُ على هذه الوَلايةِ؛ لأنَّها وَلايةُ رحمةٍ وحكمةٍ وعدلٍ، فيُحْمَدُ عليها، إذا كان اللهُ تعالى هو الوليّ فإلى من يلجأُ إذا ضاقت عليه الأمورُ؟ يلجأُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه وليّه، كما أن اليتيمَ يرجعُ إلى وَلِيِّه في تصريفِ مالِهِ، وقولُهُ: {الْحَمِيدُ}؛ أي: المحمودُ على وَلايَتِهِ، فكلُّ ما أجراه الله عَزَّوَجَلَّ في مُلْكِه فإنه محمودٌ عليه، ماذا كان يقولُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أصابه ما يسوؤه يقولُ: "الحمدُ للهِ على كلِّ حالٍ"، وإذا أصابه ما يَسُرُّهُ قال: "الحمدُ لله الذي بِنِعْمَتِه تتمُّ الصالحاتُ"، وأما ما يقولُهُ بعضُ الجهَّالِ: الحمدُ للهِ الذي لا يُحْمَدُ على مَكْرُوهٍ

=

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩).

{ومن آياته خلق السماوات والأرض و} خلق {ما بَثَّ} فَرَّقَ وَنَشَرَ {فِيهِمَا مِنْ دَابَّة} هِيَ مَا يَدِبّ عَلَى الْأَرْض مِنْ النَّاس وَغَيْرهمْ {وَهُوَ عَلَى جَمْعهمْ} لِلْحَشْرِ {إِذَا يَشَاء قَدِير} فِي الضَّمِير تَغْلِيب الْعَاقِل عَلَى غَيْره(١).

=

سواه، فهذه عبارةٌ بِدْعِيَّةٌ لا تجوزُ؛ لأنَّها تُنبئُ عن كراهةِ الإنسانِ لما يَفْعَلُه اللهُ ﷻ ثم هناك تناقضٌ بين مكروهٍ ومحمودٍ، ثم إن كلَّ ما يجيءُ به اللهُ ﷻ فإن الإنسانَ يجبُ عليه أن يرضى به؛ لأنَّ من الإيمانِ الإيمانَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّه، فالمهمُّ أن هذه عبارةٌ مُحْدَثَةٌ يُنْهَى عنها، ويقالُ لمن يقولُها: قل ما قاله الرسولُ-صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- وهو: "الحمدُ لله على كلِّ حالٍ".

ووَلايةُ الله تبارك وتعالى تنقسمُ إلى قسمين لا تَخْرُجُ عنهما: إما إحسانٌ وإما عدْلٌ والثالثُ: ممتنعٌ، وهو الظُّلْمُ، فولايةُ الله تعالى لا تَخْرُجُ عن هذين الأمْرَيْنِ أعني: الإحسانَ، والعدْلَ.

(١) قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ} [الشورى:٢٩]، أي:"ومن آياته الدالة على عظمته وقدرته وسلطانه، خَلْقُ السموات والأرض على غير مثال سابق، وما نشر فيهما من أصناف الدواب".

قال الطبري: يقول:"ومن حججه عليكم أيها الناس أنه القادر على إحيائكم بعد فنائكم، وبعثكم من قبوركم من بعد بلائكم: خلقه السموات والأرض وما فرّق في السموات والأرض من دابة".

قال ابن كثير:"{وَمِنْ آيَاتِهِ} الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر {خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا} أي: ذرأ فيهما، أي: في السموات

=

=

والأرض، {مِنْ دَابَّةٍ} وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم، وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار الأرض والسموات".

قال ابن قتيبة: {وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ} أي: نشر".

وفي قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ} [الشورى:٢٩]، قولان:

أحدهما: أن المراد به: وما بث في الأرض من دابة، فذكر السماء والأرض، والمراد أحدهما، وهو مثل قوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من الملح دون العذاب. قاله الفراء.

قال النحاس:"والذي قاله [الفراء] لا يعرف في تفسير ولا لغة ولا معقول أي يخبر عن اثنين بخبر واحد، وهذا بطلان البيان والتجاوز إلى ما يحظره الدّين. والعرب تقول: لكل ما تحرّك من شيء دبّ فهو دابّ ثم تدخل الهاء للمبالغة فتقول: دابّة. وسمعت علي بن سليمان يقول: في «دابّة» لتأنيث الصيغة".

الثاني: أن قوله: {وما بث فيهما من دابة} وهو على حقيقته، والدابة كل ما يدب، والملائكة مما يدب، قاله مجاهد، ومقاتل.

عن مجاهد، قوله: "{وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ}، قال: الناس والملائكة".

قال مقاتل:"يعني: الملائكة في السموات والخلائق في الأرض".

قوله تعالى: {وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} [الشورى:٢٩]، أي:"وهو على جَمْع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة إذا يشاء قدير، لا يتعذر عليه شيء".

قال الطبري: "يقول: وهو على جمع ما بث فيهما من دابة إذا شاء جمعه، ذو قدرة لا يتعذر عليه، كما لم يتعذر عليه خلقه وتفريقه، يقول تعالى ذكره: فكذلك هو القادر على جمع خلقه بحشر يوم القيامة بعد تفرق أوصالهم في القبور".

=

=

قال ابن كثير:"أي: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} (من) للتبعيضِ، و (آياتٌ) جَمْعُ آيةٍ، وهي العلامةُ المعيَّنَةُ لما كانت له، العلامةُ التي تعيِّنُ الشيءَ وتُحَدِّدُه يقالُ لها: آيةٌ.

من آياتِ اللهِ؛ أي: من علاماتِ اللهِ على كمالِ قُدْرَتِه ﷻ وكمالِ سلطانِه ومن آياتِهِ خلقُ السَّمواتِ والأرضِ، فإنه لا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يَخْلُقَ مِثْلَهُم، وسبق الكلامُ على السَّمواتِ والأرضِ، ولم جمعت الأولى والثانيةُ أُفْرِدَتْ، وما أَشْبَهَ ذلك.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [(و) خَلَقَ (ما بَثَّ) فَرَّقَ ونَشَرَ {فِيهِمَا} أي في السَّمواتِ والأرضِ {مِنْ دَابَّةٍ} وهي ما يدبُّ على الأرضِ من الناسِ وغيرِهِم] فهو من آياتِ اللهِ.

فمن آياتِ اللهِ في هذه المخلوقاتِ أن اللهَ سبحانه وتعالى أنه أعطى كلَّ شَيْءٍ خَلْقَه ثم هدى، تَجِدُ الحيواناتِ وهي بُهمٌ، لا عقولَ لها، تجدُها تكسبُ رزْقَها وتذهبُ تطلُبُه، وتُخَزِّنُ ما تُخَزِّنُ منه إن كانت مما يُخَزِّنُ الأقواتَ، وتجدُها تحنُّ إلى أولادِها، وتَرْحَمُ أولادَها وتجوعُ لِشِبَعِهِم، إلى غيرِ ذلك مما إذا تأمَّلْتَه عَجِبْتَ من هذه المخلوقاتِ البُهمِ.

الطيورُ أعطاها اللهُ ﷻ قُوَّةَ نظرٍ بعيدةً، بدليلِ أنها ترى الحَبَّ وهي في جوِّ السماءِ، والآدميُّ لا يرى هذا بلا شكٍّ، لكن لمَّا كانت الطيورُ لا تمشي على الأرضِ يَسَّرَ اللهُ لها بصرًا نافذًا قويًّا حتى ترى الحَبَّةَ وهي في جوِّ السماءِ فتنزلَ وتأخُذَها وتطيرَ، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ العجيبةِ.

انظر مثلًا إلى الذَّرِّ الصغيرِ كيف يهتدي إلى جُحْرِه وهو يأتي إليه من بعيدٍ، ثم إنه يمشي على خطٍّ واحدٍ، شاهدناه بأعيُنِنا يمشي على خطٍّ واحدٍ على البساط الذي

=

ليس فيه أثرُ ترابٍ. فتجدُه يصلُ إلى النهايةِ وإذا به ينحرفُ على زاويةٍ، كيف اهتدى إلى هذا إلا بهدايةِ اللهِ ﷻ؟ وقد قيل: إنه كلما مشى فإنه يَخْرُجُ منه شيءٌ؛ أي: مادَّةٌ، يشمُّها الذَّرُّ الآخرُ فيمشي تَبَعَهُ، هذا من آياتِ اللهِ ﷻ.

تجدُ النملَ- وهو أكبرُ من الذَّرِّ- يحرصُ على أن يأتيَ بزادِهِ من بعيدٍ ثم يُخَزِّنَه في جُحْرِهِ، وإذا أراد أن يُخَزِّنَهُ أَكَلَ رؤُوسَ الحبِّ من أجلِ ألا يَنْبُتَ؛ لأنَّه لو بَقِيَ الحبُّ برؤوسه نَبَتَ وفَسَدَ عليه فتجدُه يَأْكل أعلى الحبَّةِ وأسْفَلَها حتى لا تَنْبُتَ، ثم إذا جاءَ المطرُ وابتلَّت الأرضُ ووَصَلَ البللُ إلى جُحْرِهِ تَجِدُه ينقُلُ هذا الحَبَّ ليُخْرِجَه إلى الشمسِ والهواءِ حتى يَيْبَسَ، مَن الذي عَلَّمَهُ؟ اللهُ ﷻ لا شكَّ، فهو من آياتِ اللهِ.

وما أحسنَ الإستعانةَ على هذا بقراءةِ كتابِ (مفتاحُ دارِ السعادةِ) لابنِ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ هذا ذكرٌ فيه عجائبُ، حتى ذكر به قِصَّةَ أن رجلًا وَضَعَ طُعْمًا لذَرَّةٍ من الذَّرَّاتِ- إما لحمًا أو غيرهُ- فحاولت الذَّرَّةُ أن تَحْمِلَها فعجزتْ، فرجعت إلى جُحْرِهَا، واستغاثت بأَخَواتِها فأقبلْنَ إليها يزفُّون، فلما أقبَلْن عليه نزعها- رَفَعَه من الأرضِ- فجعل الذَّرُّ تطلبُه ولا تجدُ شيئًا، فصرخت وبقيت الأولى التي كانت قد دَلَّتْ عليه، فوضع الطُّعْمَ، فلما تيقنتْه ذهبتْ إلى قومِها فَدَعَتْهُم، فلما أَقْبَلْنَ نَزَعَها، فطلبْنَه فلم يَكُنْ، فرجعن، ثم وُضِعَ الطُّعْمُ للمرةِ الثالثةِ فتأكدته هذه الذرةُ، ثم رجعتْ إلى قومِها تستفزعُهُم، فلما أقبلن نَزَعَه فلما طَلَبْنَه ولم يجدنه أَكَلْنَ هذه الذَّرَّةَ نهائيًّا، قَطَّعْنَها أوصالًا، يقولُ: فحكيتُ ذلك لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ متعجبًا منها قال: نعم كلُّ شيءٍ مفطورٌ على عقوبةِ الظالمِ الكاذِبِ، وهذه كَذَبَتْ عليهن وظَلَمَتْهُنَّ فلم يبقَ إلا أن تُعْدَمَ؛ لأنَّ الساعيَ في الأرضِ فسادًا يجبُ إعدامُهُ حتى الآدميُّ.

وهل عليه دِيَةُ هذه المقتولةِ؟ الجوابُ: هو ظالمٌ لها نسألُ اللهَ أن يَعْفُوَ عنه.

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠).

{وَمَا أَصَابَكُمْ} خِطَاب لِلْمُؤْمِنِينَ {مِنْ مُصِيبَة} بَلِيَّة وَشِدَّة {فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} أَيْ كَسَبْتُمْ مِنْ الذُّنُوب وَعَبَّرَ بِالْأَيْدِي لِأَنَّ أَكْثَر الْأَفْعَال تُزَاوَل بها {ويعفوا عَنْ كَثِير} مِنْهَا فَلَا يُجَازِي عَلَيْهِ وَهُوَ تَعَالَى أَكْرَم مِنْ أَنْ يُثْنِي الْجَزَاء فِي الْآخِرَة وَأَمَّا غَيْر الْمُذْنِبِينَ فَمَا يُصِيبهُمْ فِي الدُّنْيَا لِرَفْعِ دَرَجَاتهمْ فِي الْآخِرَة[1].

=

وكلُّ شيءٍ هداه اللهُ ﷻ لما خَلَقَه له حتى الذَّرُّ شاهدْتُه أنا في حوضِ نخلةٍ لما سقيتُ النخلةَ بالماءِ دخل الماءُ من تحت الأرضِ إلى جُحْرِ الذَّرِّ، فجعلت الذَّرُّ تحملُ بَيْضَها الأبيضَ بسرعةٍ، حتى أَخْرَجَتْه عن الماءِ، فالذي هداها لهذا هو اللهُ ﷻ. وآياتُ اللهِ كثيرةٌ؛ ولهذا قال اللهُ ﷻ: {وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ} وفي الآيةِ الأخرى {وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ} [الجاثيةِ: ٤] فأتى بالماضي وأتى بالمضارعِ الدالِّ على الإستمرارِ.

قال المُفسِّر ﵀: [{وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ} للحشرِ {إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ}]، {وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ}؛ أي: جَمعَ هذه المخلوقاتِ {إِذَا يَشَاءُ}؛ أي: إذا يشاءُ جَمعَهُم، فالمفعولُ به محذوفٌ دلَّ عليه السياقُ.

{قَدِيرٌ}؛ أي: لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، يقولُ المفسِّرُ ﵀: [في الضميرِ تَغْلِيبُ العاقِلِ] الضميرُ يعني في جَمْعِهِم تغليبُ العاقِلِ؛ لأنَّ الميمَ الدالَّةَ على الجَمْعِ لا تكونُ إلا في العقلاءِ، وأما غيرُ العقلاءِ فيؤتى بنونِ النِّسْوَةِ، لكن هنا أتى بضميرِ الجمْعِ مع أن ما في الأرضِ من دابَّةٍ أكثرُهُ غيرُ عقلاءَ، لكن يقولُ المُفسِّر يقولُ ﵀: تغليبٌ للعاقِلِ.

(١) قوله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} [الشورى:٣٠]، أي:"وما أصابكم-أيها الناس- من مصيبة في دينكم ودنياكم فبما كسبتم من

=

=

الذنوب والآثام".

قال الطبري: يقول:"وما يصيبكم أيها الناس من مصيبة في الدنيا في أنفسكم وأهليكم وأموالكم فإنما يصيبكم ذلك عقوبة من الله لكم بما اجترمتم من الآثام فيما بينكم وبين ربكم".

قال ابن كثير:"أي: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هو عن سيئات تقدمت لكم".

وفي قوله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} [الشورى:٣٠]، قولان:

أحدهما: أنه الحدود على المعاصي. قاله الحسن.

عن الحسن:"{وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ}... الآية، قال: هذا في الحدود".

عن الحسن:"{وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} [الشورى: ٣٠] قَالَ: «الْحُدُودُ» ".

الثاني: أنها البلوى في النفوس والأموال عقوبة على المعاصي والذنوب. وهذا معنى قول ابن عباس، وعكرمة.

قال ابن عباس:"يعجل للمؤمنين عقوبتهم بذنوبهم ولا يؤاخذون بها في الآخرة".

وقال عكرمة: "ما من نكبة أصابت عبدًا فما فوقها إلاّ بذنب لم يكن الله ليغفر له إلاّ بها، أو درجة لم يكن الله ليبلّغه إلاّ بها".

قال الحسن:"«بلغنا أنه ليس من أحد تصيبه عثرة قدم أو خدش عود، أو كذا، إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر» ".

قال الحسن:"ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا هو بذنب وما يعفوا الله عنا أكثر ثم قرأ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير".

=

=

عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من خدش عود، ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم قرأ: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠] ".

وفي الحديث الصحيح: "والذي نفسي بيده، ما يصيب المؤمن من نصب ولا وَصَب ولا هم ولا حُزَن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة يشاكها".

عن معاوية ابن أبي سفيان، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كَفَّرَ الله عنه به من سيئاته".

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: "إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله بالحَزَنِ ليكفرها".

عن الضحاك، قال: "ما تعلَّم رجلٌ القرآن ثمّ نسيه إلاّ بذنب، ثمّ قرأ {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}، قال: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن".

عن أبي البلاد، قال: "قلت للعلاء بن بدر: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}، وقد ذهب بصري وأنا غلام؟ قال: فبذنوب والديك".

عن أيوب، قال: "قرأت في كتاب أبي قلابة، قال: نزلت: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} وأبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يأكل، فأمسك فقال: يا رسول الله إني لراء ما عملت من خير أو شر؟ فقال:"أرأيت ما رأيت مما تكره فهو من مثاقيل ذر الشر، وتدخر مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة"، قال: قال أبو إدريس: فأرى مصداقها في كتاب الله، قال: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} ".

عن محمَّد بن سيرين، قال: "لما ركبه الدَّين اغتمّ لذلك، فقال: إنّي لأعرف هذا الغم، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة".

=

=

عن أحمد بن الحواري، قال: قيل لأبي سليمان الداراني: ما بال العقلاء أزالوا اللّوم عمن أساء إليهم؟ قال: لأنّهم يعلمون أنّ الله تعالى إنّما ابتلاهم بذنوبهم، قال الله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} ".

قوله تعالى: {وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى:٣٠]، أي:"ويعفو لكم ربكم عن كثير من السيئات، فلا يؤاخذكم بها".

قال الطبري: يقول: "ويعفو لكم ربكم عن كثير من إجرامكم، فلا يعاقبكم بها".

قال ابن كثير:"أي: من السيئات، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ} [فاطر: ٤٥] ".

عن علي، رضي الله عنه قال: "ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عز وجل، وحدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}. وسأفسرها لك يا علي: "ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا، فبما كسبت أيديكم والله تعالى أحلم من أن يُثَنِّى عليه العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه".

وعن أبي جُحَيفَة قال: دخلت على علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يَعيَه؟ قال: فسألناه فتلا هذه الآية: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} قال: ما عاقب الله به في الدنيا فالله أحلم من أن يُثَنِّي عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة".

عمران بن حصين، رضي الله عنه، قال: "دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلي في جسده، فقال له بعضهم إنا لَنَبْتَئِسُ لك لما نرى فيك. قال: فلا تبتئس بما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} ".

=

=

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ} هذه شَرْطِيَّةٌ. أَعْنِي {وَمَا} جَوَابُهَا {فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}.

وقَوْلُهُ: {فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} خَبَرُ مبتدأٍ مَحْذُوفٍ والتَّقْديرُ: فهو بما كَسَبَت أيديكُم.

يقولُ المفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{وَمَا أَصَابَكُمْ} خطابٌ للمؤمنين {مِنْ مُصِيبَةٍ}] بيانٌ لِـ (ما) [بَلِيَّةٌ وَشِدَّةٌ {فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}؛ أي: كَسَبْتُم من الذُّنوبِ، لكنه عَبَّرَ بالأيدي لأنَّ أَكْثَرَ الأفعالِ تُزَاوَلُ بها {وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} مِنْها، فلا يُجَازِي عليه، فهو تعالى أَكْرَمُ من أن يُثَنِّيَ الجزاءَ في الآخِرَةِ، أَمَّا غَيْرُ المُذْنِبِينَ فما يصيبُهُم في الدُّنْيا لرفْعِ درجاتِهِم في الآخِرةِ].

يقُولُ عَجَلَّ: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ} خَصَّ المفَسِّرُ هذا بالمؤمنين، ووجْهُ التَّخْصِيصِ أنَّه قال: {وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} والكُفَّارُ ليسوا أهلًا للعفْوِ، وقولُهُ رَحِمَهُ اللهُ: [{مِنْ مُصِيبَةٍ} بَلِيَّةٌ وشِدَّةٌ]، ويشْمَلُ المصائبَ الدِّينيَّةَ والمصائِبَ الدُّنْيويَّةَ، وأعْظَمُهَما المصائبُ الدِّينيَّةَ، فإنها أَعْظَمُ من المصائِبِ الدُّنْيويَّةِ، فإذا قُدِّرَ أن أحدًا أُصِيبَ بِانْتِكَاسَةٍ- والعياذُ باللهِ- فهو أَشَدُّ من أن يُهْلِكَ أَهْلَه وَمَالَه، فإنَّ المصائِبَ الدِّينيَّةَ أَعْظَمُ بكثيرٍ من المصائِبِ الدُّنْيَويَّةِ، إذ إنَّ المصائبَ الدُّنْيويَّةَ تَزُولُ وَتُنْسَى، كما قال بعضُهُم: إِمَّا أن تَصْبِرَ صَبْرَ الكِرَامِ، وإِمَّا أن تَسْلُوَ سَلْوَ البهائِمِ، لا بُدَّ أَنْ تَزُولَ.

أَمَّا المصائِبُ الدِّينيَّةُ- والعياذُ باللهِ- فَخَسَارةٌ في الدُّنْيا والآخِرةِ.

فإنْ قال قائلٌ: ما هو الدَّليلُ على أنَّ الإعْراضَ من المصائِبِ؟

فالجوابُ: الدَّليلُ قولُ اللهِ تبارك وتعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ} [المائدة: ٤٩]، فتأَمَّلْ أنَّ الذنوبَ صارتْ سببًا لإِعْرَاضِهِمْ، والإعْراضُ مُصِيبةٌ عظيمةٌ، المهِمُّ أن قَوْلَه: {مِنْ مُصِيبَةٍ} يشمَلُ

=

=

مَصائِبَ الدُّنْيا؛ كَتَلَفِ المالِ، ومَوْتِ الأحبَّةِ، والخَوْفِ، والفَقْرِ، وما أَشْبَهَ ذلك. ومصائِبُ الدِّينِ؛ كالمعاصي، والبِدَعِ، وكَراهةِ الحَقِّ، وكراهةِ أهْلِ الحَقِّ، وما أَشْبَهَ هذا، فمثلًا: الإنسانَ إذا أصابه فُتورٌ في الطَّاعةِ، أو إعْراضٌ عن الطَّاعةِ لا شكَّ أنها مُصيبةٌ، لكنَّها لا يُقرُّ عليها، يجبُ أن يَهْرُبَ منها كما يَهْرُبُ من المصائبِ الحسِّيَّةِ.

وكُلَّهُ {فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} والمرادُ بما كَسَبْتُمْ؛ لأنَّها قد تَكُونُ الكَسْبَ باليدِ، وقد يَكُونُ الكسْبَ بالرِّجْلِ، ويَكُونُ الكسْبُ بالعَيْنِ، ويَكُونُ الكَسْبُ بالشَّمِّ، ويكُونُ الكسْبُ باللِّسانِ، لكنْ عَبَّرَ بالأيدي عن الكُلِّ؛ لأنَّ أكْثَرَ ما تُزَاوَلُ الأعمالُ باليدِ، الآنَ في جلوسِنا هذا الرِّجْلُ لا تَعْمَلُ، أمَّا اليدُ فإنَّها تَعْمَلُ بلا شكٍّ، تَأْخُذُ الكِتابَ تَرْفَعُه تُنْزِلُه، تَكْتُبُ، أَكْثَرُ الأعمالِ تُزَاوَلُ باليدِ، فَعَبَّرَ بِاليَدِ عَنِ النَّفْسِ لهذا السَّبَبِ. {فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} بأن يَعْفُوَ عن كثيرٍ ممَّا أَذْنَبْتُمْ فلا يُؤاخِذُ به.

فإن قال قائلٌ: قولُهُ تعالى: {فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} [الشُّورَى: ٣٠]، ما الفَرْقُ بَيْنَه وبَيْنَ البَلاءِ الموجِبِ؟

فالجوابُ: أنَّ هذا لمن أُصِيبَه فيبَيِّنُ لهم أنَّ هذا بما كَسَبَت أيديهم؛ لعلَّهم يَتُوبون ويَرْجِعون إلى اللهِ، وأمَّا الإصابةُ بدونِ ذنبٍ فهذه لرِفْعَة الدَّرَجاتِ؛ لأنَّ الإصابَةَ يقابِلُها الصَّبْرُ، لا بُدَّ من صَبْرٍ عليها، والصَّبْرُ دَرَجَةٌ عاليةٌ لا ينالُهَا إلَّا من وُفِّقَ لها ولا يُمْكِنُ أن يُقَالَ: صابرٌ لمن لم يَمَسَّه أذًى، ولهذا كان البَلاءُ الَّذي للأنبياءِ مضاعَفًا على البَلاءِ الَّذي لغَيْرِهم حتَّى في الأمراضِ، فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ كان يُوعَكُ- يَعْنِي تأتيه الوَعْكَاتُ- كما يُوعَكُ الرَّجُلانِ منا، وشُدِّدَ عليه في المَوْتِ عليه الصلاة والسلام حتى يَكُونَ آخِرُ حياتِه على أتَمِّ مَقاماتِ الصَّبْرِ، أمَّا إذا قِيلَ ذلك في المذنبين فالمُرادُ أن يَنْتَهوا عن ذُنُوبِهِم.

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١).

{وَمَا أَنْتُمْ} يَا مُشْرِكُونَ {بِمُعْجِزِينَ} الله هَرَبًا {فِي الْأَرْض} فَتُفَوِّتُوهُ {وَمَا لَكُمْ مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره {مِنْ وَلِيّ وَلَا نَصِير} يَدْفَع عَذَابه عَنْكُمْ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} [الشورى:٣١]، أي:"وما أنتم- أيها الناس- بمعجزين قدرة الله عليكم، ولا فائتيه".

قال السدي:"يعني: ما أنتم بسابقي الله بأعمالكم الخبيثة، فتفوتوه هربا".

قال الطبري:"يقول: وما أنتم أيها الناس بمفيتي ربكم بأنفسكم إذا أراد عقوبتكم على ذنوبكم التي أذنبتموها، ومعصيتكم إياه التي ركبتموها هربا في الأرض، فمعجزيه، حتى لا يقدر عليكم، ولكنكم حيث كنتم في سلطانه وقبضته، جارية فيكم مشيئته".

قال الزجاج:"أي: ليس يعجز اللهَ خلْقٌ في السماء ولَا في الأرْضِ، وفي هذا قولان: **أَحَدُهُما**: معناهُ: ما أنتم بمعجزين في الأرض ولا أهل السماء مُعْجِزين في السَّمَاءِ. ويجوز- والله أعلم-: وما أنتُمْ بمعجزين في الأرْضِ، ولا لو كنتم في السماء، أي: لا ملجأ من الله إلا إليه".

قال النحاس:"{وما أنتُمْ بمعجزين}، قال محمد بن يزيد: أي: بسابقين، يقال: أعجز، إذا عدا فسبق".

قال ابن أبي زمنين:"يقوله للمشركين: ما أنتم بسابقي الله حتى لا يبعثكم ثم يعذبكم".

عن ابن الزبير:"{بمعجزين}، يعني: مثبطين ".

قال ابن زيد:"لا يعجز أهل الأرضين في الأرضين، ولا أهل السماوات في السماوات إن عصوه وقرأ: {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سبأ: ٣] ".

=

=

قوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [الشورى:٣١]، أي:"وما لكم من دون الله مِن وليٍّ يتولى أموركم، فيوصل لكم المنافع، ولا نصير يدفع عنكم المضارَّ".

قال السدي:"يعني: من قريب يمنعكم، يعني: الكفار".

قال ابن أبي زمنين:"{من ولي} يمنعكم من عذابه، {ولا نصير} ينتصر لكم".

قال الطبري: "{مِنْ وَلِيٍّ} يليكم بالدفاع عنكم إذا أراد عقوبتكم على معصيتكم إياه، ولا لكم من دونه {نَصِيرٍ} ينصركم إذا هو عاقبكم، فينتصر لكم منه، فاحذروا أيها الناس معاصيه، واتقوه أن تخالفوه فيما أمركم أو نهاكم، فإنه لا دافع لعقوبته عمن أحلها به".

وقال العثيمين: قوله تعالى: (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ) {وَمَا} نافيةٌ وهي تَعْمَلُ عَمَلَ ليس على لغةِ الحِجازِيِّين، والقرآنُ الكريمُ نَزَلَ بِلُغَتِهِم، وعلى هذا فيكُونُ قولُهُ: {أَنْتُمْ} اسمَها، وقوْلُه: {بِمُعْجِزِينَ} خَبَرَها، لكنَّه اقْتَرَنَ بالباءِ الزَّائدةِ إعرابًا، الزَّائدةِ معنًى؛ يعني أنَّها من حيث الإعرابُ زائدةٌ، لو حُذِفَتْ لتمَّ الكلامُ بدونِها، لكن من حيث المعنى غيرُ زائدةٍ، بل هي مفيدةٌ، وفائدةُ حروفِ الزِّيادةِ هي التَّوْكيدُ. كلَّما جاءك حرفٌ زائدٌ فهو لتأكيدِ العمومِ.

يقولُ: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} أي بِمُعْجِزِينَ اللهَ تبارك وتعالى إذا طَلَبَكم، فلن تُعْجِزُوه في الأرضِ.

وقولُ المفسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ: [{بِمُعْجِزِينَ} اللهَ هَرَبًا] هذا كالمثالِ، وإلَّا فالمعنى أعمُّ مما قال، أي: بمُعْجِزِين اللهَ هَرَبًا، وبمُعْجِزين اللهَ اختفاءً، وبمُعْجِزين اللهَ اضطجاعًا، وما أَشْبَهَ ذلك، الإنسانُ بالنسبةِ للإنسانِ ربما يُعْجِزُه إذا هَرَبَ منه ويكُونُ أَسْبَقَ منه، ربَّما يُعْجِزُه إذا اختفى عنه بجدارٍ، أو غارٍ، أو شجرٍ، أو ما أَشْبَهَ ذلك، ربَّما يُعْجِزُه إذا اختفى عنه بالإضطجاعِ على الأرضِ، وما أَشْبَهَ ذلك.

=

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢).

{وَمِنْ آيَاته الْجَوَار} السُّفُن {فِي الْبَحْر كَالْأَعْلَام} كَالْجِبَالِ فِي الْعِظَم.

إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣).

{إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيح فَيَظْلَلْنَ} يَصِرْنَ {رَوَاكِد} ثَوَابِت لَا تَجْرِي {عَلَى ظَهْره إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَات لِكُلِّ صَبَّار شَكُور} هُوَ الْمُؤْمِن يَصْبِر فِي الشِّدَّة وَيَشْكُر

=

فهل هذا الإعجازُ الَّذي يكونُ من الإنسانِ للإنسانِ هل يكونُ من الإنسانِ للهِ؟

لا؛ لأنَّ اللهَ تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} [آلِ عمرانَ: ٥] ولا يمتنعُ على قُدْرَتِه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، وهذا كالوعيدِ لهؤلاء.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ} أي: غَيْرِهِ] {وَمَا لَكُمْ} {مَا} هذه نافيةٌ ونقولُ: إنَّها حجازيَّةٌ؛ لأنَّ من شَرْطِ عَمَلِها عَمَلَ (ليس) التَّرْتيبَ، أن يَكُونَ الإسمُ هو المُقَدَّمَ، وهنا الخبرُ هو المُقَدَّمُ، وعليه فتكونُ نافيةً غَيْرَ عاملةٍ {وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ} {مِنْ} هذه زائدةٌ لتوكيدِ النَّفْيِ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} يَدْفَعُ عَذَابَهُ عنكم] {مِنْ وَلِيٍّ} يتولَّاكم، ويُحْسِنُ وَلايَتَكُم {وَلَا نَصِيرٍ} يَدْفَعُ عنكم. فليس هناك وَلِيٌّ يتولاكم من دُونِ اللهِ، ولا نَصِيرَ يَدْفَعُ عنكم عذابَ اللهِ، بل أنتم في قَبْضَتِه تبارك وتعالى أينما كُنْتُم.

فالوَلِيُّ هو الَّذي يتولَّى الأمورَ وقد لا يستطيعُ المُدافعةَ، يتولَّى أمورَهُم ولكن لا يستطيعُ أن يُدَافِعَ، والنَّصيرُ يستطيعُ أن يُدَافعَ، فليس لهم وَلِيٌّ يَجْلِبُ الخيراتِ، ولا نصيرٌ يَدْفَعُ الشُّرورَ.

فِي الرَّخَاء.

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤).

{أَوْ يُوبِقهُنَّ} عُطِفَ عَلَى يُسْكِنِ أَيْ يُغْرِقهُنَّ بِعَصْفِ الرِّيح بِأَهْلِهِنَّ {بِمَا كَسَبُوا} أَيْ أَهْلهنَّ مِنْ الذُّنُوب {وَيَعْفُ عَنْ كَثِير} مِنْهَا فَلَا يغرق أهله.

وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥).

{وَيَعْلَمُ} بِالرَّفْعِ مُسْتَأْنَف وَبِالنَّصْبِ مَعْطُوف عَلَى تَعْلِيل مُقَدَّر أَيْ يُغْرِقهُمْ لِيَنْتَقِم مِنْهُمْ وَيَعْلَم {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيص} مَهْرَب مِنْ الْعَذَاب وَجُمْلَة النَّفْي سَدَّتْ مَسَدّ مَفْعُولَيْ يَعْلَم وَالنَّفْي مُعَلَّق عَنْ الْعَمَل[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} [الشورى: ٣٢]، أي:"ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه القاهر السفن العظيمة كالجبال تجري في البحر".

قال الطبري: يقول:"ومن حجج الله أيها الناس عليكم بأنه القادر على كل ما يشاء، وأنه لا يتعذر عليه فعل شيء أراده، السفن الجارية في البحر. و {الجواري}: جمع جارية، وهي السائرة في البحر، {كالأعلام} يعني كالجبال: واحدها: علم؛ ومنه قول الشاعر:

.... **كأنّه عَلَمٌ فِي رَأسِهِ نارُ**

يعني: جبل".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه، تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره، وهي الجواري في البحر كالأعلام... أي: هي في البحر كالجبال في البر".

قال ابن قتيبة: {الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ}،" يعني: السفن، {كَالأَعْلامِ} أي الجبال.
=

=

واحدها: عَلَم".

قال السدي: الأعلام: الجبال".

قال أبو عبيدة: "{كَالْأَعْلَامِ}، أي: الجبال".

عن مجاهد، قوله: "{وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ}، يعني: «السفن» {كَالْأَعْلَامِ}، يعني: «كالجبال» ".

قال مقاتل: "يعني: السفن تجري في البحر بالرياح {كالأعلام}، شبه السفن في البحر كالجبال في البر".

قرأ نافع: «الجواري»، بياء في الوصل وبغير ياء في الوقف.

قوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ} [الشورى: ٣٣]، أي: "إن يشأ الله الذي أجرى هذه السفن في البحر يُسكن الريح، فتَبْقَ السفن سواكن على ظهر البحر لا تجري".

قال الطبري: يقول: "إن يشأ الله الذي قد أجرى هذه السفن في البحر أن لا تجري فيه، أسكن الريح التي تجري بها فيه، فثبتن في موضع واحد، ووقفن على ظهر الماء لا تجري، فلا تتقدم ولا تتأخر".

قال أبو عبيدة: "{رَوَاكِدَ}: سواكن ".

قال ابن قتيبة: "أي: سواكنَ على ظهر البحر".

عن ابن عباس، قوله: "{فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ}، يقول: وقوفا".

عن السدي: "{إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِه}: لا تجري".

قال قتادة: "سفن هذا البحر تجري بالريح فإذا أمسكت عنها الريح ركدت".

قال ابن كثير: "{إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ} أي: التي تسير بالسفن، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن، بل تظل راكدة لا تجيء ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أي: على وجه الماء".

=

=

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [الشورى: ٣٣]، أي:"إن في جَرْي هذه السفن ووقوفها في البحر بقدرة الله لَعظات وحججًا بيِّنة على قدرة الله لكل صبار على طاعة الله، وعن المعاصي، وعلى أقدار الله المؤلمة، شكور لنعمه وأفضاله".

قال الطبري:"يقول: إن في جري هذه الجواري في البحر بقُدرة الله لعظة وعبرة وحجة بينة على قُدرة الله على ما يشاء، لكل ذي صبر على طاعة الله، شكور لنعمه وأياديه عنده".

قال ابن كثير:"{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ} أي: في الشدائد {شكور} أي: إن في تسخيره البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، لدلالات على نعمه تعالى على خلقه {لِكُلِّ صَبَّارٍ} أي: في الشدائد، {شكور} في الرخاء".

قال الواحدي:"أي: لكل مؤمن، لأن من صفة المؤمن الصبر في الشدة، والشكر في الرخاء".

قال الزمخشري:"{لِكُلِّ صَبَّارٍ} على بلاء الله، {شَكُورٍ} لنعمائه، وهما صفتا المؤمن المخلص، فجعلهما كناية عنه، وهو الذي وكل همته بالنظر في آيات الله، فهو يستملى منها العبر".

قال ابن عطية: فيه" تشريف الصبار الشكور بالتخصيص، والصبر والشكر فيهما الخير كله، ولا يكونان إلا في عالم".

عن سعيد بن جبير، قوله: "{إن في ذلك لآيات}، قال: هو الرجل يبعث بخاتمه إلى أهله".

عن سعيد بن جبير، في قوله: "{إن في ذلك لآية}، قال:"هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا".

قال مطرف: "نعم العبد المؤمن إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر".

=

=

عن عون بن عبد الله، قال: "رب منعم عليه غير شكور، ومبتلى غير صبور".

قوله تعالى: {أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا} [الشورى:٣٤]، أي:"أو يهلكِ السفن بالغرق بسبب ذنوب أهلها".

قال الطبري:"أو يهلكهنّ بالغرق".

قال ابن قتيبة::"يُهْلِكْهُنَّ. يقال: فلان قد أوبقَتْه ذنوبه. وأراد: أهل السفن".

قال أبو عبيدة:"{أَوْ يُوبِقْهُنَّ} : يهلكهن".

عن ابن عباس، قوله: "{أَوْ يُوبِقْهُنَّ}، يقول: يهلكهنّ".

عن مجاهد، قوله: "{أَوْ يُوبِقْهُنَّ} : أو يهلكهنّ".

قال السدي:"يغرقهن بما كسبوا".

عن قتادة: "{أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا}، أي: بذنوب أهلها".

قال ابن زيد:"يوبقهنّ بما كسبت أصحابهنّ".

قال مقاتل:"{وإن يشأ} يهلكهن، يعني: السفن، بما عملوا من الشرك".

قال السمعاني:"أي: يهلك السفن بمن فيها، وقيل: أهل السفن".

قال الزمخشري:"المعنى: أنه إن يشأ يبتلى المسافرين في البحر بإحدى بليتين: إما أن يسكن الريح فيركد الجواري على متن البحر ويمنعهن من الجري، وإما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكهن إغراقا بسبب ما كسبوا من الذنوب".

قال ابن كثير:"أي: ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها".

وقال بعض علماء التفسير: "أي: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق، ولا إلى جهة مقصد".

قال ابن كثير:"وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول، وهو أنه

=

=

تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقواه فشردت وأبقت وهلكت. ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيرا جدا لهدم البنيان، أو قليلا لما أنبت الزرع والثمار، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحا من أرض أخرى غيرها؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم".

قوله تعالى: {وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى:٣٤]، أي:"ويعفُ عن كثير من الذنوب فلا يعاقب عليها".

قال مقاتل:"يعني: يتجاوز {عن كثير} ".

قال الواحدي: أي:"من ذنوبهم، فينجيهم من الهلكة، ولا يفرقهم".

قال الطبري:"يقول: ويصفح تعالى ذكره عن كثير من ذنوبكم فلا يعاقب عليها".

قال ابن كثير:"أي: من ذنوبهم. ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر".

قال الزمخشري:"فإن قلت: فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جزم جزمه؟

قلت: معناه: أو إن يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو عنهم".

قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:"أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".

قوله: {وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥)} [الشورى:٣٥]

ويَعْلَم الذين يجادلون بالباطل في آياتنا الدالة على توحيدنا، ما لهم من محيد ولا ملجأ من عقاب الله، إذا عاقبهم على ذنوبهم وكفرهم به.

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: ويعلم الذين يخاصمون رسوله محمدا-ﷺ- من

=

المشركين في آياته وعبره وأدلته على توحيده، ما لهم من محيص من عقاب الله إذا عاقبهم على ذنوبهم، وكفرهم به، ولا لهم منه ملجأ".

قال الواحدي:"يعني: أن الكفار الذين يكذبون بالقرآن، إذا صاروا إلى الله تعالى بعد البعث، علموا ألا مهرب لهم من عذاب الله".

قال ابن كثير:"أي: لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا".

عن السديّ، قوله: "{مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} : ما لهم من ملجأ".

قال ابن ابي زمنين:"ملجأ يلجئون إليه من عذاب الله، يقال: حاص عن الشيء؛ أي: تنحى عنه ".

قرأ نافع وابن عامر: «ويعلم الذين»، برفع «الميم».

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ} {مِنْ} للتبعيض، و {آيَاتِهِ} علاماتُهُ الدَّالَّةُ على رحمتِهِ وقُدْرَتِهِ وحِكْمَتِه {الْجَوَارِ} مبتدأٌ مؤخَّرٌ، ولكنَّها مُعْرَبَةٌ بتقديرِ الضَّمَّةِ على الياءِ المحذوفةِ للتَّخفيفِ، وأصْلُ {الْجَوَارِ} الجواري بالياءِ جَمْعُ جاريةٍ، والجاريةُ هي السَّفينَةُ، كما قال اللهُ تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} [الحاقَّة: ١١].

من آياتِ اللهِ ﷻ هذه السُّفنُ في البحرِ على الماءِ {كَالْأَعْلَامِ} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [أي: كالجبالِ في العِظَمِ]. هذه السُّفُنُ العظيمةُ المحمَّلَةُ بالأموالِ والأناسيِّ والحيوانِ من آياتِ اللهِ، أن تكونَ في هذا البحرِ المتلاطِمِ تمشي على الماءِ، تَنْخُرُ عُبَابَ الماءِ بما فيها من الأرزاقِ، لا شكَّ أنها من آياتِ اللهِ ﷻ.

هَدَّدَ اللهُ تبارك وتعالى راكِبِيها بما يلي {إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ} هذا أدنى عقوبةٍ يُسْكِنُ الرِّيحَ فَيَظْلَلن رواكِدَ على ظَهْرِه؛ لأنَّ السُّفُنَ سابقًا إنَّما تمشي حَسَبَ الرياحِ؛ لأنَّها تمشي على شِراعٍ، شراعٍ طويلٍ فتصطدمُ به الرِّياحُ فتسيرُ، فإذا سَكَنَتِ الرِّياحُ وَقَفَت؛ ولهذا قال: {إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ

فَيَظْلَلْنَ}؛ أي: الجواري {رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ}؛ أي: على ظَهْرِ البحْرِ، وحينئذٍ تَتَعَطَّلُ المصالحُ، وربُّما تأتي ريحٌ عاصفٌ تقصفُ بالسَّفينةِ فتُغْرِقُها.

فالأحوالُ إذن ثلاثةٌ: إمَّا رياحٌ طَيِّبةٌ تسيرُ بها السَّفينةُ على ما ينبغي، وإمَّا رياحٌ عاصفةٌ تُغْرِقُ السَّفينةَ، وإمَّا سُكُونٌ فتقفُ رواكِدَ على ظَهْرِ الماءِ، فهو سبحانه وتعالى يُبَيِّنُ أنَّ من آياتِهِ سَيْرَ هذه السُّفُنِ.

قال المفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ} يَصِرْنَ {رَوَاكِدَ} ثَوَابِتَ لا تَجْرِي {عَلَى ظَهْرِهِ}؛ أي: ظَهْرِ البَحْرِ {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}].

قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ} ثم قال: {لَآيَاتٍ}؛ لأنَّ التَّبعيضَ بعضُ الشَّيءِ، فإذا كان الشَّيءُ ألفًا فبعضُه قد يكونُ مائتين أو ثلاثَ مِئَةٍ، وإذا كان الشَّيْءُ اثنين فالبعضُ واحدٌ، والسُّفنُ كثيرةٌ لا تحصى؛ ولهذا قال {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ} باعتبارِ السُّفنِ الكثيرةِ الَّتي تجري على البحْرِ، وربَّما نقولُ باعتبارِ السَّفينةِ الواحدةِ مما يشاهدُه ركَّابُها في البحرِ من الآياتِ العظيمةِ الدالَّةِ على كمالِ قدرةِ اللهِ؛ ولهذا يُحَدِّثُنَا الَّذين يَذْهَبون في البحرِ لاصطيادِ السَّمَكِ عن عجائِبَ ممَّا يشاهِدون من السَّمكِ باختلافِ أنواعِها، واختلافِ ذواتِها كِبَرًا وصِغَرًا وشَكْلًا، ممَّا هو من أعظمِ آياتِ اللهِ.

قولُهُ: {صَبَّارٍ} صيغةُ مبالَغَةٍ؛ أي: كثيرِ الصَّبْرِ {شَكُورٍ} كَثِيرِ الشُّكرِ، فما وجْهُ الجمْعِ بين الصَّبْرِ والشُّكْرِ؟ وجْهُه ظاهرٌ؛ لأنَّ هذه السُّفُنَ إن جرت على ما ينبغي فوظيفةُ الإنسانِ الشُّكْرُ، وإن جرت على ما لا ينبغي فوظيفَتُه الصَّبْرُ، فالصَّابرُ والشَّاكرُ كلاهما سيرى من آياتِ اللهِ عَجَّلَ في هذه السُّفُنِ ما يُوقِنُ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّه رحيمٌ بالعبادِ، وغيرَ ذلك ممَّا سيراه.

يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [هو المؤْمنُ يصْبرُ في الشِّدَّةِ ويشكُرُ في الرَّخاءِ]، وقد يُقالُ المؤمنُ والكافرُ، لكنَّ الكافرَ يصْبِرُ ولا يَشْكُرُ، والمؤمِنُ يصْبِرُ ويشْكُرُ، يصْبِرُ في

=

موْضـع الـصَّبْرِ ويَـشْكُرُ في مَوْضِـعِ الـشُّكْرِ، أمَّـا الكـافرُ فيـصْبِرُ في مَوْضِـعِ الـصَّبْرِ ويَتَحَمَّلُ، ولكن لا يَشْكُرُ في مَوْضِعِ الشُّكْرِ، وإنما يزدادُ بَطَرًا وأَشَرًا.

قـال المفـسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أَوْ يُـوبِقْهُنَّ} عَطْـفٌ علـى {يُـسْكِنِ} أي: يُغْـرِقْهُنَّ بعَـصْفِ الرِّيح بِأَهْلِهِنَّ] هـذا قِسْمٌ ثالـثٌ {إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ} وإن يَـشَأْ يُـوبِقْهُنَّ؛ أي: يُغْرِقْهُنَّ. {بِمَا كَسَبُوا}؛ أي: بِسَبَبِ كَسْبِهم، والكسْبُ الَّذي يؤدِّي إلى العقوبةِ هو المعاصـي، إمَّـا بـتَرْكِ الواجبـاتِ، وإمَّـا بِفِعْلِ المُحَرَّمَـاتِ {وْ يُـوبِقْهُنَّ بِمَـا كَـسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ} [الشُّورَى: ٣٤].

قوْلُه: {وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ} ليست معطوفةً على {يُسْكِنِ}؛ لأنَّـه يُفْسِدُ المعنـى؛ إذ يكـونُ المعنـى إن يـشأْ يُسْكِنْ، أو يُوبِـقْ، أو يَعْفُـو عـن كثيـرٍ، وهـذا فاسـدٌ، ولكـنَّ المعنـى {يُـوبِقْهُنَّ بِمَـا كَـسَبُوا وَيَعْـفُ} الجملـةُ اسـتئنافيَّةٌ لكنَّهـا حُـذِفَتِ الـواوُ للتَّخفيفِ، المعنى أنَّ اللهَ تعالى يعفو عن كثيرٍ من الذُّنوبِ فلا يُعَاقِبُ عليها. قـال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ} منها فلا يُغْرِقُ أَهْلَهَا].

وقوله: {وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} قـال المفـسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [الرَّفْعُ مُسْتَأْنَفٌ، والنَّصْبُ معطوفٌ على تعليلٍ مُقَدَّرٍ؛ أي: يُغْـرِقُهُم لِيَنْتَقِمَ مـنهم وَيَعْلَمَ].

أَوَّلًا فيها قراءتان "وَيَعْلَمُ" {وَيَعْلَمَ} علـى قـراءةِ الرَّفـعِ الـواوُ اسـتئنافيَّةٌ تقـديرُها: وهو يَعْلَمُ الَّذين يجادلونك، وعلـى قـراءةِ النَّصْبِ وجَّهَهـا المفَـسِّرُ بأنها معطوفـةٌ على تعيينِ المُقَدَّرِ؛ أي: يُغْرِقَهُم لِيَنْتَقِمَ منه ويَعَلْمَ {أَوْ يُـوبِقْهُنَّ بِمَـا كَـسَبُوا وَيَعْـفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ} تَجِدُ أنَّ الكلامَ لا يتناسبُ إلَّا إذا قُدِّرَ مـا ناسـبُه، المُقَـدَّرُ على كلامِ المفَسِّرِ؛ أي: يُغْرِقُهم لِيَنْتَقِمَ منهم. قال المفـسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَيَعْلَـمَ الَّـذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} أي: مَهْرَبٍ من العذابِ].

وقوله: {يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَـا} المجادَلَـةُ هـي المُنـاظَرَةُ والمُخاصَـمَةُ مـأخوذةٌ مـن

=

فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦).

=

الجَدَلِ وهو الفَتْلُ، يُقالُ: جَدَلَ الحبْلَ؛ أي: فَتَلَه، وسُمِّي المُناظِرُ مجادِلًا؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من المتناظِرَيْن يَفْتِلُ حُجَّتَه لتقوى على حُجَّةِ الآخرِ، هذا أصْلُ المجادَلَةِ وهي المنازَعَةُ والمخاصَمَةُ، بآياتِنا لِيُثْبِتَ الباطلَ ويُبْطِلَ الحقَّ، تأمَّلْ مجُادَلَةَ المشركين للأنبياءِ ما قَصْدُهُم؟ إبطالُ الحقِّ الَّذي جاءت به الرُّسُلُ، وإثباتُ الباطلِ الَّذي هم عليه.

فإن قال قائلٌ: {يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا} ما المقصودُ بالآيةِ هنا الشَّرعيَّةُ أم الكونيَّةُ؟

فالجوابُ: الكونِيَّةُ والشَّرعيَّةُ، فالمجادَلَةُ في الآيةِ الكونيَّةِ أن يقولَ: إن يَشَأْ يُقَدِّرِ اللهُ كذا، ولماذا يُقَدِّرُ اللهُ مثلًا على الشَّعْبِ المُسْلِمِ الحروبَ والفِتَنَ، وما أَشْبَهَ ذلك، وفي الآياتِ الشرعيَّةِ يقولُ: لماذا أوجبَ اللهُ كذا، لماذا حَرَّمَ كذا وما أَشْبَهَ.

{مَا لَهُمْ} {مَا} نافيةٌ، ولا يَصِحُّ أن تَكونَ هنا حجازيَّةً، لعدم التَّرتيب، حيث قُدِّمَ الخَبَرُ، إذن هي {مَا} نَفْيِهُا مُجَرَّدٌ لا تَعْمَلُ، و {مَحِيصٍ} مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ دَخَلَتْ عليه مِن الزَّائِدَةُ، والمَحِيصُ المَهْرَبُ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} مَهْرَبٍ من العذابِ، وجُملةُ النَّفْيِ سَدَّتْ مَسَدَّ مفعولَيْ {وَيَعْلَمَ} والنَّفيُ مُعَلَّقٌ عن العملِ]، هذا جوابُ سؤالٍ مُقَدَّرٍ، وهو أين مفعولا {وَيَعْلَمَ} لأنَّ (يَعْلَمَ) من أفعالِ القلوبِ الَّتي تَنْصِبُ المبتدأَ والخبَرَ، يعني: أنَّها من أخواتِ (ظَنَّ) تنصبُ مفعولين، أين المفعولان؟

يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: "إنَّ عَمَلَها مُعَلَّقٌ الآن"، مُعَلَّقٌ بالنفْيِ، فجملةُ النَّفيِ سَدَّتْ مَسَدَّ المفعولين، وهذا يُعْلَمُ من درسِ النَّحْوِ؛ لأنَّ أفعالَ القلوبِ إمَّا أن تَعْمَلَ، وإمَّا أن تُعَلَّقَ، وإمَّا أن تُلْغَى، إذا أُلْغِيَتْ بَطَلَ عَمَلُها في المحلِّ واللَّفظِ، وإذا عُلِّقَتْ بَقِيَ عَمَلُها في المحلِّ دُونَ اللَّفظِ، وإذا عَمِلَتْ عَمِلَت باللَّفظِ والمحلِّ.

{فَمَا أُوتِيتُمْ} خِطَاب لِلْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرهمْ {مِنْ شَيْء} مِنْ أَثَاث الدُّنْيَا {فَمَتَاع الْحَيَاة الدُّنْيَا} يُتَمَتَّع بِهِ فِيهَا ثُمَّ يَزُول {وَمَا عِنْد الله} مِنْ الثَّوَاب {خَيْر وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبّهمْ يَتَوَكَّلُونَ} وَيَعْطِف عَلَيْهِ(١).

---

(١) قوله تعالى: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الشورى:٣٦]، أي:"فما أوتيتم-أيها الناس- من شيء من المال أو البنين وغير ذلك فهو متاع لكم في الحياة الدنيا، سُرعان ما يزول".

عن الأعمش: "{متاع الحياة الدنيا}، قال: مثل زاد الراعي".

قال الطبري: يقول:"فما أعطيتم أيها الناس من شيء من رياش الدنيا من المال والبنين، فهو متاع لكم تتمتعون به في الحياة الدنيا، وليس من دار الآخرة، ولا مما ينفعكم في معادكم".

قال ابن ابي زمنين:"{فما أوتيتم من شيء}، يعني: المشركين {فمتاع الحياة الدنيا} ينفد ويذهب".

قال ابن كثير:"أي: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة".

قوله تعالى: {وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الشورى:٣٦]، أي:"وما عند الله تعالى من نعيم الجنة المقيم خير وأبقى للذين آمنوا بالله ورسله، وعلى ربهم وحده يتوكلون".

قال الطبري:"وما عند الله للذين آمنوا به، وعليه يتوكلون في أمورهم، وإليه يقومون في أسبابهم، وبه يثقون، خير وأبقى مما أوتيتموه من متاع الحياة الدنيا".

قال ابن كثير:"أي: وثواب الله خير من الدنيا، وهو باق سرمدي، فلا تقدموا الفاني على الباقي؛ ولهذا قال: {لِلَّذِينَ آمَنُوا} أي: للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا، {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} أي: ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات =

=

وترك المحرمات".

عن محمد بن إسحاق: "{وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى}، قال: خيرٌ ثوابا، وأبقى عندنا".

عن كعب، قال: "مكتوب في التوراة: ابن آدم ضع كنزك، عندي، فلا غرق ولا حرق أدفعه إليك أفقر ما تكون إليه يوم القيامة".

قال عبد الله: "من استطاع منكم أن يضع كنزه حيث لا يأكله السوس ولا يناله السرق فليفعل".

عن ابن عباس: "{وعلى ربهم يتوكلون}، يقول: لا يرجون غيره".

عن سعيد بن جبير، قال: "التوكل على الله جماع الإيمان".

عن سعيد بن جبير، قال: "التوكل على الله نصف الإيمان".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{فَمَا أُوتِيتُمْ} الخطابُ للمؤمنين وغيرِهم، {مِنْ شَيْءٍ} من أثاثِ الدُّنْيا {فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى}].

قولُهُ: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ} (مَا) ليست نافيةً، لكنَّها زائدةٌ لعمومِ النَّهْيِ؛ أي: أيُّ شيءٍ أوتيتموه {فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}.

وقولُهُ رَحِمَهُ اللهُ: [الخطابُ للمؤمنين وغيْرِهِم]، صحيحٌ؛ لأنَّ هذا يُخَاطَبُ به المؤمنُ والكافرُ، الكافرُ يتمتعُ بالدُّنْيا؛ ولكنهم يتمتعون كما تَتَمَتَّعُ {الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [محمَّدٍ: ١٢]، والمؤمنُ يَتَمَتَّعُ بالدُّنْيا ولكنَّه إذا قام بعملِ الآخرةِ صار نعيمُهُ في الدُّنْيا وفي الآخرةِ.

قَوْلُهُ: {فَمَتَاعُ} الفاءُ رابطةٌ لجوابِ الشَّرْطِ، وهو قولُهُ: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ}؛ لأنَّ (ما) هنا شَرْطِيَّةٌ و {مِنْ شَيْءٍ} بيانًا لها، وجملةُ {فَمَتَاعُ} هذه جوابُ الشَّرْطِ، وعلى هذا فنقولُ: إنَّ (مَتَاعَ) خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: فهو متاعٌ،

=

=

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} يَتَمَتَّعُ فيها ثم يزولُ].

وهذا هو الواقعُ أنَّ متاعَ الحياةِ الدُّنْيا يزولُ، أو يُزَالُ عنه؛ يعني: إمَّا هذا وإمَّا هذا، لو قُدِّرَ أن الإنسانَ أن يبقى غنيًّا، صحيحَ الجسْمِ، آمِنَ المقامِ، أليس من الجائِزِ أن يُسْلَبَ هذا؟ بلى، فيكونُ متاعًا قد زال، فإن لم يَزُلْ عنه زال الإنسانُ عنه. مَن الَّذي مُتِّعَ أَبَدَ الآبدين؟ لا يوجَدُ، قال اللهُ تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ} [الأنبياء: ٣٤].

وقوله: {وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى} (مَا) هذه اسمٌ موصولٌ مبتدأٌ، و {خَيْرٌ} خَبَرُهُ، {وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى} خيْرٌ من متاعِ الدُّنْيا في ذاتِهِ ونوعِهِ وكلِّ مُتَعِه، {وَأَبْقَى}؛ أي: أَدْوَمُ؛ لأنَّ متاعَ الدُّنْيا يزولُ، فنعيمُ الآخرةِ جَمَعَ بين الوَصفَيْن: أنَّه خيرٌ، وأنَّه أبقى، فباعتبارِ نوعِهِ وجِنْسِه وأصنافِه هو خيرٌ، وباعتبارِ بقائِهِ هو أبقى، والإنسانُ لا يُريدُ من النَّعيم إلَّا هذا، لا يريدُ إلا الأَكْمَلَ والأبقى حتَّى لا يزولَ عنه، لكن لمن {لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}.

وذلك لأنَّ ما في الدُّنيا فهو متاعٌ زائلٌ مُنَغِّصٌ لا يكادُ يمرُّ بك أسبوعٌ إلَّا وَجَدْتَ التَّنغيصَ، وهذا على حدِّ قوْلِ الشَّاعِرِ:

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ... ويومٌ نُساءُ ويومٌ نُسَرُّ

أمَّا الآخرةُ فهي خيرٌ مَحْضٌ ليس فيه شَرٌّ، وأيضًا هو أبقى؛ يعني: أَدْوَمُ، متاعُ الدُّنيا قليلٌ يزولُ سريعًا، بخلافِ ما عند اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

واعْلَمْ أنَّ مِثْلَ هذه العِبارةِ وَرَدَتْ على ثلاثةِ أَوْجُهٍ:

الوجهُ الأَوَّلُ: أن يُخَاطَبَ بها الشَّخصُ بعينِهِ، فيقالَ له: إنَّ الآخرةَ خيرٌ لك.

والثَّاني: أن تَأْتِيَ مُقَيَّدَةً بأوصافٍ محبوبةٍ مطلوبةٍ.

والثَّالثُ: أن تأتِيَ مُطْلَقَةً.

=

قالَ اللهِ ﷻ لنبيِّه ﷺ: {وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى} [الضُّحى: ٤]، فالآن نَشْهَدُ أنَّ الآخرةَ للنَّبيِّ ﷺ خيرٌ له من الأُولى، هذا قُيِّدَ بشخصٍ معيَّنٍ، المُقَيَّدُ بأوصافٍ كالآيةِ الَّتي معنا، وكقولِهِ تعالى: {وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا} [يوسفَ: ١٠٩]، فهذه مقيَّدَةٌ بأوصافٍ. الثَّالثةُ مُطْلَقَةٌ؛ كقولِهِ تعالى: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [الأعلى: ١٦ - ١٧]، لكنَّ هذا المُطْلَقَ يُحْمَلُ على المُقَيَّدِ، أو يُقالُ: هذا باعتبارِ وصْفِه لا باعتبارِ من يَحْصُلُ له، فيكونُ من حيث الإجمالُ الآخرةُ خيرٌ وأبقى، أمَّا من حيث التَّفصيلُ فَيُفَصَّلُ في كلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِه.

وقوله: {لِلَّذِينَ آمَنُوا} آمنوا بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به، وقد سأل جبريلُ النَّبيَّ - صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم - عن الإيمانِ، فقال له: "الإيمانُ أن تُؤْمِنَ باللهِ، وملائكتِه، وكتبِه، ورسُلِه، واليوم الآخِرِ، والقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ". إذنْ آمِنوا بما يجبُ الإيمانُ به، هذه العبارةُ الَّتي تَشْمَلُ كُلَّ شيءٍ.

وقوله: {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} قَدَّمَ المعمولَ لإفادةِ الحَصْرِ والعنايةِ به {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} الرَّبُّ هو الخالقُ المالِكُ المُدَبِّرُ، {يَتَوَكَّلُونَ}؛ أي: يَعْتَمِدُونَ ويُفَوِّضُونَ أَمْرَهُم إليه تبارك وتعالى والتَّوَكُّلُ فَسَّرَه بعضُهُم بأنَّه: صِدْقُ الإعتمادِ على اللهِ في جلْبِ المنافعِ ودفْعِ المضارِّ مع الثِّقةِ باللهِ تبارك وتعالى صِدْقُ الإعتمادِ على اللهِ؛ يعني: أن تعتمدَ على اللهِ اعتمادًا صادقًا، لا تَلْتَفِتُ إلى سواه في جَلْبِ المنافعِ ودفْعِ المضارِّ، زِدِ: الثِّقةَ باللهِ ﷻ، يعني: تَعْتَمِدُ عليه ﷻ وأنت واثقٌ بأنه حَسْبُكَ وسيُعِينك، والتَّوكُّلُ على اللهِ نِصْفُ الدِّينِ، كما قال ﷻ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحةِ: ٥]، إذ لا يمكنُ للإنسانِ أن يأتيَ بشرائعِ الإسلامِ إلَّا بالتوكُّلِ على اللهِ والإعتمادِ عليه، انظرْ إلى قولِهِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، وإلى قولِهِ: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [هودٍ: ١٢٣]، تجدْ أنَّ اللهَ تعالى قَسَّمَ الدِّينَ

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧).

{وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِر الْإِثْم وَالْفَوَاحِش} مُوجِبَات الْحُدُود مِنْ عَطْف الْبَعْض عَلَى الْكُلّ {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} يَتَجَاوَزُونَ(١).

=

إلى قِسْمين: عبادةٍ، واستعانةٍ.

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ} [الشورى:٣٧]، أي:"والذين يجتنبون كبائر ما نهى الله عنه، وما فَحُش وقَبُح من أنواع المعاصي".

عن السديّ: "{وَالْفَوَاحِشَ}، قال: الفواحش: الزنى".

قال الواحدي:"«الفواحش»، يعني: الزنا وأنواعه".

وقال مقاتل: "«الفواحش»: ما يقام فيه الحد في الدنيا".

وذكر أهل التفسير في معنى «الكبائر»، وجوها:

أحدها: أنها كل ما نهى الله عنه من أول سورة النساء إلى رأس الثلاثين منها، وهذا قول عبد الله بن مسعود، وإبراهيم، وابن عباس في رواية سعيد بن جبير عنه.

والثاني: أن كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة. وهذا قول ابن عباس، وأبي العالية، وعبيدة في رواية ابن سيرين.

عن أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة، قال: "ما عصي الله به فهو كبير، ولقد ذكر الطرفة: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} ".

عن عوف، قال: "قام أبو العالية الرّياحي على حَلْقةٍ أنا فيها فقال: إن ناسًا يقولون: "الكبائر سبع"، وقد خفت أن تكون الكبائر سبعين أو يزدن على ذلك".

قال طاووس: "ذكروا عند ابن عباس الكبائر فقالوا: هي سبع. قال: هي أكثر من سبع وَسبع! قال سليمان: فلا أدري كم قالها من مرّة". في رواية أخرى:"قال: هي إلى السبعين أقرب"، وفي رواية أخرى:"إلى سبع مائة أقرب، إنه لا كبيرة مع

=

=

استغفار، ولا صغيرة مع إصرار ".

والثالث: أن الكبائر سبع: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة، وهذا قول عليّ، وعمرو بن عبيد، وعبيدة.

وقال عطاء: "الكبائر سبع: قتل النفس، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، ورمي المحصنة، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، والفرار يوم الزحف".

عن ابن عون، عن محمد قال: "سألت عبيدة عن الكبائر فقال: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله بغير حقها، وفرارٌ يومَ الزحف، وأكل مال اليتيم بغير حقه، وأكل الربا، والبهتان. قال: ويقولون: أعرابية بعد هجرة. قال ابن عون: فقلت لمحمد: فالسحر؟ قال: إن البهتان يجمع شرًّا كثيرًا".

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: الكبائر سبع: "أولهما الإشراك بالله، ثم قتل النفس بغير حقها، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم إلى أن يكبر، والفرار من الزحف، ورمي المحصنات والانقلاب إلى الأعراب بعد الهجرة".

وضمن هذا السياق روي عن عبيد الله بن عمير أنه قال: "الكبائر سبع، يتلو بكل واحدة آية: {مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ}، الآية، و {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا} الآية {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى} الآية، {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ} الآية، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا} الآية كلها"، وزاد في رواية أخرى:"التعرب بعد الهجرة، ثم قرأ {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ} ".

وروي عن صهيب مولى العُتْواريّ: "أنه سمع من أبي هريرة وأبي سعيد الخدري يقولان: خطبنا رسول الله ﷺ يومًا فقال: والذي نفسي بيده ثلاث مرات ثم أكبَّ، فأكبَّ كل رجل، منا يبكي، لا يدري على ماذا حلف، ثم رفع رأسه وفي

=

=

وجهه البِشر، فكان أحبَّ إلينا من حُمْر النَّعم، فقال: ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رَمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبعَ، إلا فتحت له أبواب الجنة، ثم قيل: ادخل بسلام".

والرابع: أنها تسع: الإشراك بالله، وقذف المحصنة، وقتل النفس المؤمنة، والفرار من الزحف، والسحر، وأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين المسلمين، وأكل الربا، وإلحاد بالبيت الحرام، وهذا قول ابن عمر.

أخرج ابن أبي حاتم عبيد بن عمير الليثي، أنه حدثه أبوه وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: "إجتنب الكبائر التي نهى الله عنها، ثم أن رجلا من أصحابه سأله فقال يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: هن تسع أعظمهن الشرك بالله، وقتل المؤمن بغير حق، وفرار يوم الزحف، والسحر وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وقذف المحصنة، وعقوق الوالدين المسلمين، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتا".

والخامس: أنها أربع: الإشراك بالله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من رَوْح الله، والأمن من مكر الله، وهذا قول ابن مسعود في رواية أبي الطفيل عنه.

والسادس: أنها ثلاث: اليأسُ من رَوْح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله. وهذا قول ابن مسعود في رواية مجاهد عنه.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس، "أن رسول الله ﷺ كان متكئا فدخل عليه رجل فقال: ما الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله والإياس من روح الله والأمن من مكر الله، وهذا أكبر الكبائر» ".

والسابع: أنها كل ما أوعد الله عليه النار، وهذا قول ابن عباس في إحدى الروايات، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والضحاك، وسهل التستري.

وقال مقاتل: "كل ذنب يختم بنار".

=

=

والثامن: السبعة المذكورة في المقالة الثانية وزادوا عليها: الزنى، والعقوق، والسرقة، و"سب أبي بكر وعمر"، والجمع بين الصلاتين من غير عذر، والإضرار بالوصية، والنهبة، البيعة وفراق الجماعة،

ومنع ماء السيول والعيون والأودية وطروق الفحل، وشرب الخمر، ويمين الغموس، و"الغلول ومنع الزكاة المفروضة، وكتمان الشهادة، وترك الصلاة معتمدا في شيء مما افترضه الله عليه، ونقض العهد وقطيعة الرحم"

والتاسع: أنها كل ما لا تصح معه الأعمال، وهذا قول زيد بن أسلم.

والعاشر: ما سماه الله في القرآن كبيرا أو عظيما نحو قوله تعالى: {إنه كان حوبا كبيرا} [النساء-٢]، {إن قتلهم كان خطئا كبيرا} [الإسراء-٣١]، {إن الشرك لظلم عظيم} [لقمان-١٣]، {إن كيدكن عظيم} [يوسف-٢٨]، {سبحانك هذا بهتان عظيم} [النور-١٦] {إن ذلكم كان عند الله عظيما} [الأحزاب-٥٣]. وهذا قول الحسن بن الفضل.

والحادي عشر: أن "الكبائر ما كان فيه المظالم بينك وبين العباد، والصغائر ما كان بينك وبين الله تعالى، لأن الله كريم يعفو. وهذا قول سفيان الثوري، واحتج بما روي عن أنس بن مالك من طريق الحسين بن داؤد البلخي، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ينادي مناد من بطنان العرش يوم القيامة: يا أمة محمد إن الله ﷻ قد عفا عنكم جميعا المؤمنين والمؤمنات، تواهبوا المظالم وادخلوا الجنة برحمتي".

الثاني عشر: أن الكبائر ذنوب أهل البدع، والسيئات ذنوب أهل السنة. قاله مالك بن مغول.

والثالث عشر: أن الكبائر ذنوب العمد، والسيئات الخطأ والنسيان وما أكره عليه، وحديث النفس المرفوع عن هذه الأمة.

=

=

والرابع عشر: أن الكبائر ذنوب المستحلين مثل ذنب إبليس، والصغائر ذنوب المستغفرين مثل ذنب آدم عليه السلام.

والخامس عشر: أن " الكبائر ما نهى الله عنه من الذنوب الكبائر، والسيئات مقدماتها وتوابعها مما يجتمع فيه الصالح والفاسق، مثل النظرة واللمسة والقبلة وأشباهها. وهذا قول السدي، واحتج بقول النبي ﷺ: "العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والرجلان تزنيان، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه".

والسادس عشر: أن الكبائر ما يستحقره العباد، والصغائر ما يستعظمونه فيخافون مواقعته، ذكره البغوي عن عبد الواحد.

روي عن أنس قال: "إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات".

والسابع عشر: أن الكبائر الشرك وما يؤدي إليه، وما دون الشرك فهو السيئات، قال الله تعالى: "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" [النساء-٤٨، ١١٦].

قال الطبري:": وأولى ما قيل في تأويل الكبائر بالصحة، ما صحَّ به الخبر، عن رسول الله ﷺ، دون ما قاله غيره، وإن كان كل قائل فيها قولا من الذين ذكرنا أقوالهم، قد اجتهد وبالغ في نفسه، ولقوله في الصحة مذهبٌ. فالكبائر إذن: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس المحرّم قتلها، وقول الزور وقد يدخل في قول الزور، شهادة الزور وقذف المحصنة، واليمين الغموسُ، والسحر ويدخل في قتل النفس المحرَّم قتلها، قتل الرجل ولده من أجل أن يطعم معه والفرارُ من الزحف، والزنا بحليلة الجار، وإذْ كان ذلك كذلك، صحَّ كل خبر رُوي عن رسول الله ﷺ في معنى الكبائر، وكان بعضه مصدِّقًا بعضًا. وذلك أن الذي روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: هي سبع يكون معنى قوله حينئذ: هي سبع

=

على التفصيل ويكون معنى قوله في الخبر الذي روي عنه أنه قال: هي الإشراك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وقول الزور على الإجمال، إذ كان قوله: وقول الزور يحتمل معاني شتى، وأن يجمعَ جميعَ ذلك قول الزور ".

قال أبو السعود:"واختلف في الكبائر والأقرب أن الكبيرة كل ذنب رتب الشارع عليه الحد او صرح بالوعيد وقيل ما علم حرمته بقاطع وعن النبي ﷺ أنها سبع الإشراك بالله تعالى وقتل النفس التي حرمها الله تعالى وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والربا والفرار من الزحف وعقوق الوالدين".

قوله تعالى: {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} [الشورى:٣٧]، أي:"وإذا ما غضبوا على مَن أساء إليهم هم يغفرون الإساءة، ويصفحون عن عقوبة المسيء".

قال الطبري: يقول:"وإذا ما غضبوا على من اجترم إليهم جرما، هم يغفرون لمن أجرم إليهم ذنبه، ويصفحون عنه عقوبة ذنبه".

قال الواحدي:"أي: يكظمون الغيظ، ويعفون عمن ظلمهم، يطلبون بذلك ثواب الله تعالى، وعفوه".

قال ابن ابي زمنين:"يعني: يغفرون للمشركين ، وهو منسوخ نسخه القتال ، وصار ذلك العفو بين المؤمنين".

قال ابن كثير:"أي: سجيتهم وخلقهم وطبعهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس، وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمات الله. وفي حديث آخر: «كان يقول لأحدنا عند المعتبة: ما له؟ تربت جبينه» ".

عن ابن عباس-من طريق العوفي- قوله: {والكاظمين الغيظ}، يقول: كاظمون على الغيظ، كقوله: {وإذا ما غضبوا هم يغفرون} [الشورى: ٣٧]، يغضبون في الأمرِ لو وقعوا فيه كان حرامًا، فيغفِرون، ويعفون؛ يلتمسون وجهَ الله بذلك".

=

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ} نَصَّ على أنه معطوفٌ عليه؛ لئلَّا يَظُنَّ الظانُّ أنَّ الواوَ هنا للإستئنافِ، وعلى هذا فيكونُ من بابِ عطفِ الصِّفاتِ، وليس من بابِ عطفِ الأعيانِ؛ فالَّذين استجابوا لرَبِّهم هم الَّذين آمنوا وعلى رَبِّهم يتوكلون، هل لهذا نظيرٌ؛ أي: عَطْفُ الأوصافِ لموصوفٍ واحدٍ؟

الجوابُ: كثيرٌ، قال اللهُ تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [الأعلى: ١- ٤] قولُهُ: {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} ليس هو شَيْئًا آخَرَ، بل هو الأوَّلُ، فيكونُ هذا من بابِ عَطْفِ الأوصافِ دونَ الأعيانِ، أنت إذا قلتَ: قام زيدٌ وعمرٌو وبكرٌ وخالدٌ، فهذا من بابِ عطفِ الأعيانِ؛ لأنَّ الثانيَ غيرُ الأوَّلِ، وإذا قلتَ: جاء زيدٌ الفاضلُ والكريمُ والشُّجاعُ؛ هذا من بابِ عطفِ الأوصافِ؛ لأنَّ الثَّانيَ هو الأوَّلُ، لكن اختلفت الصِّفَةُ، إذن فالعطفُ نوعان: عطفُ أعيانٍ، وعطفُ أوصافٍ.

فالآياتُ الَّتي معنا {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ} هذا من بابِ عطفِ الأوصافِ؛ لأنَّ الَّذين يَجْتَنِبون كبائرَ الإثْمِ والفواحشَ هم الَّذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون {يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ} كَبَائِرُ جَمْعُ كَبِيرَةٍ، وما ذَكَرَ الشَّرعُ أنَّه كبيرةٌ فهو كبيرةٌ؛ كقولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ في حديثِ أبي بَكْرَةَ: "ألا أُنَبِّئُكُمْ بأكبرِ الكبائرِ؟ " قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ، قال: "الإشراكُ باللهِ، وعُقُوقُ الوالدَيْنِ- وكان متَّكئًا فجلس- فقال: ألا وقَوْلُ الزُّورِ، ألا وشهادةُ الزُّورِ" هنا نَصَّ على أنَّها كبيرةٌ.

أمَّا ما لم يَنُصَّ عليه الشَّرعُ فقد اختلف العُلَمَاءُ رحمهم الله في حدِّ الكبيرةِ، وأَقْرَبُ شيءٍ ما اختاره شيخُ الإسلام ابْنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فقال: "إنَّ الكبيرةَ ما رُتِّبَ عليه عقوبةٌ خاصَّةٌ"؛ يعني: ما خُصَّ بعقوبةٍ؛ وذلك أنَّ المَنْهِيَّاتِ تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ: قِسْمٍ فيهِ النَّهيُ أو التَّحريمُ أو ما أَشْبَهَ ذلك، لكنْ لم يُذْكَرْ فيه عقوبةٌ،

=

وقِسْمٍ آخَرَ ذُكِرَ فيه العقوبةُ، فيقولُ: ما ذُكِرَ فيه عقوبةٌ خاصَّةٌ فهو كبيرةٌ، إذا رُتِّبَ على الذَّنبِ لعنةٌ، كقولِهِ: لَعَنَ اللهُ من لَعَنَ وَالِدَيْهِ. يكُونُ كبيرةً؛ لأنَّه رُتِّبَ عليه عقوبةٌ خاصَّةٌ وهي اللَّعنُ، وإذا رُتِّبَ عليه السُّخْطُ فهو كبيرةٌ؛ كقولِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ في المرأةِ "تَبِيتُ وزَوْجُهَا سَاخِطٌ عليها فإن اللهَ يَسْخَطُ عليها"، هذا كبيرةٌ، إذا قيل: "ليس منا من شَقَّ الجُيُوبَ ولَطَمَ الخُدُودَ ودعا بدعوى الجاهليَّةِ"، فهو كبيرةٌ، فالَّذي تَرَتَّبَ عليه البراءةُ منه، ليس منَّا كذا، "من غشَّ فليس منَّا"، وكذلك: "لا يُؤْمِنُ من لا يَأْمَنُ جارُه بَوَائِقَه"، كبيرةٌ؛ لأنَّه رُتِّبَ عليه نَفْيُ الإيمانِ.

إذن الكبيرةُ محدودةٌ- يعني تُعْرَفُ بالحَدِّ دونَ العَدِّ- وأحسنُ ما قيل فيها ما اختاره شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ من أنَّ الكبيرةَ ما رُتِّبَ عليه عقوبةٌ خاصَّةٌ.

وقَوْلُهُ: {وَالْفَوَاحِشَ} بالنَّصْبِ معطوفةٌ على {كَبَائِرَ}؛ أي: ويجتنبون الفواحشَ، قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهي موجِباتُ الحدود من عطفِ البعضِ على الكلِّ]. فَسَّرَ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ الفواحشَ بأنَّها ما تُوجِبُ الحَدَّ، فَلْنَعُدَّ الزِّنا فاحشةً، وهو بنصِّ القرآنِ {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً} [الإسراء: ٣٢]، نكاحُ ذواتِ المحارِمِ فاحشةٌ؛ لقولِ اللهِ تبارك تعالى: {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا} [النِّساءِ: ٢٢]، تأمَّلِ الآن أيُّهُما أعظمُ نكاحِ ذواتِ المحارِمِ أو الزِّنا؟

الجوابُ: الأوَّلُ؛ لأنَّ اللهَ قال فيه: {كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا}، وفي الزِّنَا قال: {إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} ولهذا كان القولُ الرَّاجحُ أنَّ الإنسانَ إذا زنى بمحارِمه وَجَبَ رَجْمُهُ، سواءٌ كان مُحْصَنًا أَمْ غَيْرَ مُحْصَنٍ.

والمفسِّرُ يقول: كلُّ ما فيه حدٌّ فهو فاحشةٌ؛ فالسَّرقةُ فاحشةٌ؛ وقَطْعُ الطَّريقِ فاحشةٌ؛ لأنَّ فيه حدًّا، والخمرُ فاحشةٌ، والصَّحيحُ أنَّ عقوبةَ الخمرِ ليست حدًّا،

=

بل هي عقوبةٌ لكنَّها لا تَنْقُصُ عن أربعين، والدَّليلُ أنَّها عقوبةٌ أنَّ شاربَ الخمرِ في عهدِ الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام يُؤتى به فيضربُه النَّاسُ الَّذي يضربُ بيَدِه، والَّذي يضربُ بثوبِهِ، والَّذي يضرِبُ بنعْلِه بدونِ حدٍّ معيَّنٍ، ثم جعلها أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أربعين، ثم جَعَلَهَا عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أربعين، ثم كَثُرَ شُرْبُ الخمرِ فزادها عُمَرُ إلى ثمانين، بعد أن استشار الصَّحابةَ فقال عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أرى أن تَجْعَلَهَا كأخفِّ الحدودِ. وأخفُّ الحدودِ حدُّ القذْفِ ثمانون، فَجَعَلَها عمرُ ثمانين، وهذا كالإجماعِ من الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أنَّ عقوبةَ شارِبِ الخمرِ ليستْ حدًّا؛ لأنَّه لو كانتْ حدًّا لا يُمْكِنُ لأيِّ أحدٍ أن يَزيدَ؛ ولهذا لو كَثُرَ الزِّنا في النَّاسِ لا نزيدُ عن مئةِ جَلْدَةٍ، أيضًا قال عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اجعلْها كأخفِّ الحدودِ.

فدلَّ هذا على أنَّها ليستْ حدًّا وإلَّا لما صحَّ أن يقولَ: اجعلْها كأخفِّ الحدودِ، وأيضًا إذا تَكَرَّرَ جَلْدُه ففي الرَّابعةِ يُقْتَلُ على رأيِ كثيرٍ من العُلَمَاءِ؛ لما جاء ذلك في السُّنَنِ: "إذا شَرِبَ فاجْلِدُوه، ثمَّ إن شَرِبَ فاجْلِدوه، ثمَّ إن شَرِبَ فاجْلِدُوه، ثمَّ إن شَرِبَ الرَّابعةَ فاقْتُلُوه". هذا الحديثُ صحيحٌ، ذَهَبَ إليه أهلُ الظَّاهِرِ، وأكثرُ العُلَمَاءِ يقولُ: لا يُقْتَلُ لو شَرِبَ ألفَ مرَّةٍ، ويُجْلَدُ ألْفَ مرَّةٍ. واختار شيخُ الإسلامِ قولًا وسطًا، وقال: إذا لم يَنْتَهِ النَّاسُ بدون القتلِ فإنه يُقْتَلُ؛ لئلَّا يتكاثرَ شُرْبُ الخمرِ، وأمَّا إذا انتهى النَّاسُ بدونِ القتلِ فإنه لا يُقْتَلُ.

المُهِمُّ أن المفسِّر رَحِمَهُ اللهُ يرى أنَّ الفواحشَ هي موجِباتُ الحدودِ، قال: [وهو من عطفِ البعضِ على الكلِّ]؛ لأنَّ الفواحشَ بعضُ كبائرِ الإثْمِ، فهو من بابِ عطفِ البعضِ على الكُلِّ، وهذا يقعُ كثيرًا عطفُ البعضِ على الكلِّ، كما أنَّه يَقَعُ أحيانًا عَطْفُ الكلِّ على البعضِ فقولُ اللهِ تعالى: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا} [القَدْرِ: ٤] هذا من بابِ عطفِ البعضِ على الكُلِّ، وإذا قلتَ: أَكْرِمْ زيدًا والطَّلبةَ، وهو منهم، فهو من بابِ عطفِ الكلِّ على البعضِ، وتخصيصُ بعضِ الأفرادِ بكونِهِ

=

=

معطوفًا أو معطوفًا عليه يَدُلُّ على العنايةِ به والإهتمامِ به.

قولُهُ: {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} (مَا) هنا زائدةٌ في الإعرابِ، وأمَّا في المعنى فهي للتَّوكيدِ، وأقولُ:

يا طالبًا خذْ فائدهْ ... (ما) بعد (إذا) زائدهْ

يعني: كلَّما أتتك (مَا) بعد (إذا) فهي زائدةٌ، كهذه الآيةِ {وَإِذَا مَا غَضِبُوا} المعنى وإذا غضبوا، وكقولِهِ تعالى: {حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ} [فُصِّلَت: ٢٠]؛ أي: حتَّى إذا جاؤوها، فخذ هذه الفائدةَ.

و(ما) من أوسعِ الحروفِ معنًى؛ لأنَّ لها عَشَرَةَ معانٍ أو أَكْثَرَ جُمِعَتْ في قولِ النَّاظِمِ:

محاملُ (ما) عشرٌ إذا رُمْتَ عَدَّها ... فحافظْ على بيتٍ سليمٍ من الشِّعرِ

ستفهمُ شرطَ الوصْلِ فاعجبْ لنُكْرِها ... بِكفٍّ ونفْيٍ زِيدَ تعظيمُ مَصْدَرِ

(سَتَفْهَمُ) إشارةٌ إلى (مَا) الإستفهاميَّةِ، (شرطٌ) إشارةٌ إلى (مَا) الشَّرْطِيَّةِ، (الوصْلُ) إشارةٌ إلى (مَا) الموصولةِ، (فاعجبْ) إشارةٌ إلى (ما) التعجبيَّةِ مِثْلَ أن تقولَ: ما أحسنَ زيدًا! (لنُكْرِها) إشارةٌ إلى (ما) النَّكِرةِ الموصوفةِ أو الواصفةِ، (بِكَفٍّ) إشارةٌ إلى (ما) الكافَّةِ وهي الدَّاخلةُ على (إنَّ) مثل: {إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [النِّساءِ: ١٧١]، (ونَفْيٍ) إشارةٌ إلى (مَا) النَّافيةِ، (زِيدَ) إشارةٌ إلى (مَا) الزَّائدةِ، (تعظيم) إشارةٌ إلى (مَا) التَّعظيميَّةِ مثلَ: لكنَّها {الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ} [الحاقَّةِ: ١ - ٢]، {الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ} [القارعةِ: ١ - ٢]، (مَصْدر) إشارةٌ إلى (ما) المَصْدَرِيَّةِ مثل: يُعْجِبُنِي ما فَعَلْتَ؛ أي: يُعْجِبُنِي فِعْلُكَ. هذه عَشَرَةُ معانٍ لـ (مَا).

وقوله: {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ}؛ يعني: إذا نالهم الغضبُ فإنَّهم يَمْلِكُون أنْفُسَهم، فيغفرون لمن أَغْضَبَهم، ومعنى {يَغْفِرُونَ} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [يتجاوزون] ونحن نَزيدُ شيئًا آخَرَ: السِّتْرَ. يعني: يتجاوزون عمَّن أساء إليهم

=

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨).

{وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ} أَجَابُوهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنْ التَّوْحِيد وَالْعِبَادَة {وَأَقَامُوا الصَّلَاة} أَدَامُوهَا {وَأَمْرهمْ} الَّذِي يَبْدُو لَهُمْ {شُورَى بَيْنهمْ} يَتَشَاوَرُونَ فِيهِ وَلَا يَعْجَلُونَ {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ} أَعْطَيْنَاهُمْ {يُنْفِقُونَ} فِي طَاعَة الله وَمَنْ ذُكِرَ صِنْف[1].

=

ويَسْتُرُونه.

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ} [الشورى:٣٨]، أي:"والذين استجابوا لربهم حين دعاهم إلى توحيده وطاعته".

قال الطبري: يقول:"والذين أجابوا لربهم حين دعاهم إلى توحيده، والإقرار بوحدانيته والبراءة من عبادة كل ما يعبد دونه".

قال ابن ابي زمنين:"أي: آمنوا".

قال الواحدي: أي:"أجابوه إلى ما دعاهم إليه، من توحيد الله تعالى، وعبادته".

قال ابن كثير:"أي: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره ".

عن ابن زيد:"{وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ}، الأنصار".

قوله تعالى: {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} [الشورى:٣٨]، أي:"وأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها".

قال مقاتل:"يقول: وأتموا الصلوات الخمس، داوموا عليها".

قال الطبري: يقول:"{وَأَقَامُوا الصَّلاةَ} المفروضة بحدودها في أوقاتها".

قال ابن كثير:"وهي أعظم العبادات لله ﷻ".

قال ابن ابي زمنين:"كانت الصلاة يوم نزلت هذه الآية ركعتين غدوة ، وركعتين

=

=

عشية قبل أن تفرض الصلوات الخمس".

عن الزهري: {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ}، قال: "إقامتها: أن يصلي الصلوات الخمس لوقتها".

قال الحسن:"فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالزكاة". وروي عن عطاء بن أبي رباح، وقتادة نحو ذلك.

قوله تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى:٣٨]، أي:"وإذا أرادوا أمرًا تشاوروا فيه".

قال الحسن: أي: "يتشاورون".

قال ابن كثير:"أي: لا يبرمون أمرا حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ} [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان عليه الصلاة السلام، يشاورهم في الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهم أجمعين، فاجتمع رأي الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، رضي الله عنهم ".

قال الواحدي:"{شُورَى}: هي «فعلى»، من: المشاورة، وهي الأمر الذي يتشاور فيه، يقال: صار هذا الأمر شورى بين القوم، إذا تشاوروا فيه، والمعنى: أنهم يتشاورون فيما يبدو لهم، ولا يعجلون في الأمر".

قال مقاتل:"كانت قبل الإسلام وقبل قدوم النبي ﷺ المدينة إذا كان بينهم أمر، أو أرادوا أمرا اجتمعوا فتشاوروا بينهم فأخذوا به، فأثنى الله عليهم خيرا".

عن ابن وهب، قال: قال ابن زيد، وقرأ: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} قال: فبدأ بهم، {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ}: الأنصار،

=

=

{وَأَقَامُوا الصَّلاةَ} وليس فيهم رسول الله ﷺ، {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} ليس فيهم رسول الله ﷺ أيضا".

قال الحسن: "والله ما تشاور قوم قط، إلا هداهم الله لأفضل ما بحضرتهم".

وفي الحديث: «إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها».

قوله تعالى: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [الشورى:٣٨]، أي:"ومما أعطيناهم من الأموال يتصدقون في سبيل الله، ويؤدون ما فرض الله عليهم من الحقوق لأهلها من زكاة ونفقة وغير ذلك من وجوه الإنفاق".

قال مقاتل:"{مما رزقناهم} من الأموال {ينفقون}، في طاعة الله".

قال ابن كثير:"وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب".

قال قتادة:"فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عوار وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ} الواوُ حرفُ عطفٍ، (الَّذين) معطوفةٌ على ما سَبَقَ، عطفُ أوصافٍ، والَّذين استجابوا لربِّهم.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ} أجابوه إلى ما دعاهم إليه من التَّوحيدِ والعبادةِ]. {اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ} بمعنى أجابوه، وقد سبق لنا ذِكْرُ الأمثلةِ على كَوْنِ استجاب بمعنى أجاب، وقولُهُ: [من التَّوحيدِ والعبادةِ] تفسيرٌ لا بَأْسَ به، ولو قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: استجابوا لرَبِّهم؛ أي: أجابوه إلى كلِّ ما دعاهم إليه من فِعْلِ الأوامرِ وتَرْكِ النَّواهي لكان أَبْيَنَ وأَعَمَّ.

وقوله: {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} معطوفةٌ على {اسْتَجَابُوا} فهي داخلةٌ في صلةِ الموصولِ، قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} أداموها] وفيها نظرٌ، بل معنى

=

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩).

{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْي} الظُّلْم {هُمْ يَنْتَصِرُونَ} صِنْف أَيْ يَنْتَقِمُونَ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ بِمِثْلِ ظُلْمه كما قال تعالى(١).

=

"أقاموا الصَّلاةَ": أَتَوْا بها مستقيمةً على الوجْهِ الَّذي طُلِبَ منهم؛ لأنَّ هناك فَرْقًا بين إقامةِ الصَّلاةِ وبين إدامةِ الصَّلاةِ، نعم إدامتُها من إقامَتِها لا شكَّ، ولكن ليست الإقامةُ هي الإدامةَ، إذن الإقامةُ معناها: أن يأتِيَ بالصَّلاةِ مستقيمةً على الوَجْهِ المطلوبِ. وقولُهُ: {الصَّلَاةَ}، يَعُمُّ الفريضةَ والنَّافلةَ.

وقوله: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} أَمْرُهُمْ؛ أي شَأْنُهُمْ، والمرادُ الشَّأنُ العامُّ لا الشَّأنُ الخاصُّ، الشَّأنُ العامُّ الَّذي يُهِمُّ الجميعَ يتشاورون فيه، ومعنى يتشاورون فيه. يعني: يتبادلون الرَّأيَ؛ هل يُقْدِمُونَ أو يُحْجِمُونَ، هل يُعَدِّلُونَ أو يُبْقُونَ الشَّيْءَ على ما هو عليه.

المهمُّ أن المشاورةَ هي تَدَاوُلُ الرَّأْيِ لِيَخْرُجُوا بنتيجةٍ مَرْضِيَّةٍ للجميعِ. قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{شُورَى بَيْنَهُمْ} يتشاورون فيه ولا يَعْجَلُونَ].

وقوله: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} (مِنْ) هنا للتَّبعيضِ، ويُحْتَمَلُ أن تكونَ للجنسِ، فإن كانت الأولى صار المدحُ لمن يُنْفِقُ بعضَ مالِهِ، وإن قلنا بأنَّها الجنسُ صار المدحُ لمن يُنْفِقُ مالَهُ كُلَّه أو بَعْضَه، فأيُّهُما أَوْلَى أن نَقُولَ للتَّبعيضِ أو للجنسِ؟

الجوابُ: للجنسِ أَوْلَى، لِيَشْمَلَ القليلَ والكثيرَ والكلَّ. قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ} أَعْطَيْنَاهُمْ {يُنْفِقُونَ} في طاعةِ اللهِ].

(١) قال البغوي:"{والذين إذا أصابهم البغي} الظلم والعدوان، {هم ينتصرون} ينتقمون من ظالميهم من غير أن يعتدوا".

قال الزمخشري:"هو أن يقتصروا في الانتصار على ما جعله الله لهم ولا يعتدوا".

قال السعدي:"دل قوله: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ} وقوله: {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ

=

ظُلْمِهِ} أنه لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه، وأما إرادة البغي على الغير، وإرادة ظلمه من غير أن يقع منه شيء، فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدب تأديبا يردعه عن قول أو فعل صدر منه".

واختلفوا في هذا «البَغْي»، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه بَغْيُ الكفار على المسلمين. قاله عطاء، وابن زيد.

قال عطاء: "هم المؤمنون الذين أخرجهم الكفار من مكة وبَغَوْا عليهم، ثم مَكنَّهم الله منهم فانتصروا".

قال ابن زيد: "ذكر المهاجرين صنفين، صنفا عفا، وصنفا انتصر، وقرأ: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ}، قال: فبدأ بهم {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ}... إلى قوله: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}، وهم الأنصار. ثم ذكر الصنف الثالث فقال: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُون} من المشركين".

الثاني: أنه عامّ في جميع البُغاة، سواء كانوا مسلمين أو كافرين. وهذا قول السدي.

الثالث: أنه بَغْيُ المسلمين على المسلمين خاصة. حكاه ابن الجوزي.

قال الطبري: و"القول الثاني أولى في ذلك بالصواب، لأن الله لم يخصص من ذلك معنى دون معنى، بل حمد كلّ منتصر بحقّ ممن بغى عليه".

قال ابن كثير:"أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا وعفوا، كما قال يوسف، عليه السلام، لإخوته: {لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٩٢]، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم =

=

مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه عن غَوْرَث بن الحارث، الذي أراد الفتك به عليه السلام حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ، عليه السلام، وهو في يده صَلْتا، فانتهره فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم، الذي سحره، عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه. وكذلك عفوه، عليه السلام، عن المرأة اليهودية – وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمود بن مسلمة- التي سمت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: "ما حملك على ذلك" قالت: أردت إن كنت نبيا لم يضرك، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك، فأطلقها، عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جدا، والحمد لله".

قال إبراهيم:"كانوا يكرهون للمؤمنين أن يستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفوا".

وقال إبراهيم-في رواية-:"كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم للفساق فيجترئوا عليهم".

قال الطبري:"فإن قال قائل: وما في الانتصار من المدح؟

قيل: إن في إقامة الظالم على سبيل الحقّ وعقوبته بما هو له أهل تقويما له، وفي ذلك أعظم المدح".

قال الزجاج:"هم محمودون؛ لأن من انتصر فأخذ بحقه ولم يجاوز في ذلك ما أمر الله به فلم يُسْرِفْ في القتل إن كان ولي دم ولا في قصاص فهو مطيع للهِ عز وجل، وكل مطيع محمود، وكذلك من اجتنب المعاصي فهو محمود، ودليل ذلك قوله: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا} ".

=

قال الشوكاني:"ذكر سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح كما ذكر المغفرة عند الغضب في معرض المدح لأن التذلل لمن بغى ليس من صفات من جعل الله له العزة حيث قال: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: ٨]، فالانتصار عند البغي فضيلة، كما أن العفو عند الغضب فضيلة".

قال ابن الجوزي:"واختلف في هذه الآية علماء الناسخ والمنسوخ، فذهب بعض القائلين بأنها في المشركين إلى أنها منسوخة بآية السيف، فكأنهم يشيرون إلى أنها أثبتت الانتصار بعد بَغْي المشركين، فلمّا جاز لنا أن نبدأهم بالقتال، دَلَّ على أنها منسوخة. وللقائلين بأنها في المسلمين قولان:

أحدهما: أنها منسوخة بقوله: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَر} [الشورى: ٤٣]، فكأنها نبَّهتْ على مدح المنتصِر، ثم أعلمنا أن الصبر والغفران أمدح، فبان وجه النسخ.

والثاني: أنها محكَمة، لأن الصبر والغفران فضيلة، والانتصار مباح، فعلى هذا تكون محكمة، وهو الأصح".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} الواوُ حرفُ عطفٍ، والمعطوفُ هنا باعتبارِ الصِّفاتِ؛ أي: من صفاتِهم أنَّهم إذا بغى عليهم أحدٌ انتصروا لأنفسِهم.

وقوله: {إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ} أي: العدوانُ من أحدٍ عليهم.

وقوله: {هُمْ يَنْتَصِرُونَ} ينتصرون لأنفسهم، لا يَظْهَرون مَظْهَرَ الضعيفِ الذَّليلِ، بل ينتصرُ لنفْسِه، والإنتصارُ للنَّفْسِ في مقامِ العزِّ أمْرٌ مطلوبٌ، أمَّا في مقامِ التَّواضعِ فهذا شيءٌ آخَرُ يأتي إن شاء اللهُ في المستقبلِ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{هُمْ يَنْتَصِرُونَ} صنف] المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ ذَكَرَ أنَّ الَّذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون صنفان، ولكنَّ الصَّحيحَ أنَّ هذا كُلَّه وَصْفٌ لموصوفٍ واحدٍ، وليس هناك أصنافٌ؛ وعليه فنقولُ: من صفاتِ الَّذين آمنوا وعلى ربِّهم

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠).

{وَجَزَاء سَيِّئَة سَيِّئَة مِثْلهَا} سُمِّيَتْ الثَّانِيَة سَيِّئَة لِمُشَابَهَتِهَا لِلْأُولَى فِي الصُّورَة وَهَذَا ظَاهِر فِيمَا يُقْتَصّ فِيهِ مِنْ الْجِرَاحَات قَالَ بَعْضهمْ وَإِذَا قَالَ لَهُ أَخْزَاك الله فَيُجِيبهُ أَخْزَاك الله {فَمَنْ عَفَا} عَنْ ظَالِمه {وَأَصْلَحَ} الْوُدّ بَيْنه وَبَيْن الْمَعْفُوّ عَنْهُ

=

يتوكلون أنَّهم ينتصرون لأنْفُسِهم إذا ظلموا؛ أي: يَنْتَقِمون ممن ظَلَمَهم بمِثْلِ ظُلْمِه بدونِ عُدْوانٍ، على أنَّ قولَهُ: {هُمْ يَنْتَصِرُونَ} لا يَسْتَلْزِمُ أن يأخذوا لأنْفُسِهم بحقِّها، بل إذا انتصروا فلهم أن يعفوا، وإذا عَفَوْا مع القُدرةِ كان ذلك أَكْمَلَ.

ومن فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ من صفاتِ الَّذين آمنوا وعلى ربِّهم يَتَوَكَّلون: أنَّهم لا يَرْضُون بالذُّلِّ والإنخناثِ عن الأخذِ بحقِّهم؛ لقولِهِ: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} وهل من لازمِ الإنتصارِ أن يقتصَّ، أو أن يَكُونَ له اليدُ العليا سواءٌ بالقِصاصِ، أو بالعفْوِ، أو بغيْرِ هذا؟

الظَّاهرُ الثَّاني؛ لأنَّه أعمُّ، لأنَّ من عفا عن قُدْرَةٍ وعزَّةٍ فإنَّه لا شكَّ منتصرٌ، ومن أَخذَ بحقِّهِ فهو منتصرٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاء لا ينتصرون لأنْفُسِهم إلَّا إذا تحقَّقوا البغْيَ عليهم، وأمَّا مجرد التُّهمةِ فلا يعتبرونها؛ يُؤْخَذُ ذلك من قولِهِ: {إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ} فلو اتَّهموا أحدًا أنَّه ظَلَمَهم فإنَّهم لا يتحركون، لكن إذا أصابَهم البغيُ حينئذٍ ينتصرون.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه يجبُ على من انتصر إذا أصابه البغْيُ ألَّا يتجاوزَ الحدَّ في الإستيفاءِ.

{فَـأَجْره عَلَـى الله} أَيْ إنَّ الله يَـأْجُرهُ لَا مَحَالَـة {إنَّـهُ لَا يُحِـبّ الظَّـالِمِينَ ؟} أَيْ الْبَادِئِينَ بِالظُّلْمِ فَيَتَرَتَّب عَلَيْهِمْ عقابه[1].

---

(١) قولـه تعـالى: {وَجَـزَاءُ سَـيِّئَةٍ سَـيِّئَةٌ مِثْلُهَـا} [الـشورى:٤٠]، أي:"وجـزاء سـيئة المسيء عقوبته بسيئة مثلها من غير زيادة".

قال الطبري:"معناه: وجزاء سيئة المسيء عقوبتـه بـما أوجبـه الله عليـه، فهـي وإن كانت عقوبة من الله أوجبها عليه، فهـي مـساءة لـه. والـسيئة: إنـما هـي الفعلـة مـن السوء، وذلك نظير قول الله ﷻ {وَمَـنْ جَـاءَ بِالـسَّيِّئَةِ فَـلا يُجْـزَى إِلا مِثْلَهَـا}، وقـد قيل: إن معنى ذلك: أن يجاب القائل الكلمة القزعة بمثلها".

قال ابن كثير:"قوله تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} كقوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَـيْكُمْ فَاعْتَـدُوا عَلَيْـهِ بِمِثْـلِ مَـا اعْتَـدَى عَلَـيْكُمْ} [البقـرة: ١٩٤] وكقولـه: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْـلِ مَـا عُـوقِبْتُمْ بِـهِ وَلَـئِنْ صَـبَرْتُمْ لَهُـوَ خَيْـرٌ لِلـصَّابِرِينَ} [النحـل: ١٢٩] فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله تعـالى: {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ} [المائدة: ٤٥] ".

قـال الزجـاج:"فـالأولى «سـيئة» في اللفـظ والمعنـى، والثانيـة «سـيئة» في اللفـظ، عاملها ليس بمسيء، ولكنها سميت سيئة لأنها مجازاة لسوء فإنما يجـازي الـسوء بمثله، والمجازاة به غيرُ سيّئة توجب ذَنْبـاً، وَإِنَّمَا قيل لهـا سـيئة لـيعلم أَن الجَـارِحَ والجاني يُقْتَص مِنْهُ بمقدار جنايته، وهذا مثل قولـه تعـالى: {فَمِـن اعتـدى علـيكم فَاعْتَـدُوا عَلَيْـهِ بِمِثْـلِ مَـا اعْتَـدَى عَلَـيْكُمْ) تأويلـه كـافئوه بمثلـه، وعلـى هـذا كـلام العرب".

قال النحاس:"أولى ما قيل فيه: معاقبـة المـسيء بـما يجـب عليـه وسـميت الثانيـة «سيئة»، لأنها مساءة للمقتص منه والنحويـون يقولـون هـذا علـى الازدواج وأكثـر العلماء على أن هذا في العقوبات والقصاص وأخذ المال لا في الكلام".

=

=

عن مجاهد: "{وجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها} هو جواب القبيح إذا قال: أخزاك الله. تقول: أخزاك الله. وإذا شتمك فاشتمه بمثلها، مِن غير أن تعتدي".

قال أبو بشر: "سمعت ابن أبي نجيح يقول في قوله: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا}، قال: يقول أخزاه الله، فيقول: أخزاه الله".

عَن ابْن جريج فِي قَوْله: "{وَجَزَاء سَيِّئَة سَيِّئَة مثلهَا} قَالَ: مَا يكون من النَّاس فِي الدُّنْيَا مِمَّا يُصِيب بَعضهم بَعْضًا وَالْقصاص".

قال السدي: "إذا شتمك بشتمة فاشتمه مثلها من غير أن تعتدي".

قال سفيان بن عُيَينة: "قلت لسفيان الثوري في قوله: {وجزاء سيئة سيئة مثلها}: ما هو؟ قال: هو أن يشتمك رجل فتشتمه، أو أن يفعل فتفعل به. فلم أجد عنده منه شيئًا، فسألت هشام بن حُجَيْر عن هذه الآية: {وجزاء سيئة سيئة مثلها}، قال: الجارح إذا جرح يُقتصّ منه، وليس هو أن يسبّك فتسبّه".

قال الشوكاني: "ولكن هذا الانتصار مشروط بالاقتصار على ما جعله الله له وعدم مجاوزته كما بينه سبحانه عقب هذا بقوله: وجزاء سيئة سيئة مثلها فبين سبحانه أن العدل في الانتصار هو الاقتصار على المساواة، وظاهر هذا العموم".

وفي حكم قوله تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} [الشورى: ٤٠]، قولان:

أحدهما: أنه عام، والآية محكمة. حكاه النحاس عن قتادة.

قال النحاس: "وكذا يدل ظاهر الكلام والله ﷻ أعلم".

الثاني: أنهما منسوخة بالجهاد. قاله ابن زيد.

قال ابن زيد: "{الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} من المشركين، {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ}... الآية، ليس أمركم أن تعفوا عنهم لأنه أحبهم {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ}، ثم نسخ هذا كله وأمره بالجهاد".

=

=

قال الطبري:"لم يثبت حجة في قوله: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} أنه مراد به المشركون دون المسلمين، ولا بأن هذه الآية منسوخة، فنسلم لها بأن ذلك كذلك".

قوله تعالى: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ} [الشورى:٤٠]، أي:"فمن عفا عن المسيء، وترك عقابه، وأصلح الودَّ بينه وبين المعفو عنه ابتغاء وجه الله، فأَجْرُ عفوه ذلك على الله".

قال الطبري: يقول:"فمن عفا عمن أساء إليه إساءته إليه، فغفرها له، ولم يعاقبه بها، وهو على عقوبته عليها قادر ابتغاء وجه الله، فأجر عفوه ذلك على الله، والله مثيبه عليه ثوابه".

قال مقاتل:"يعني: فمن ترك الجارح ولم يقتص {وأصلح} العمل كان العفو من الأعمال الصالحة، {فأجره على الله} ".

قال ابن أبي زمنين:"يقول: فمن ترك مظلمته {فأجره} ثوابه {على الله} ".

قال ابن كثير:"أي: لا يضيع ذلك عند الله كما صح في الحديث: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا» ".

قال الشوكاني:"أي: من عفا عمن ظلمه وأصلح بالعفو بينه وبين ظالمه، أي: أن الله سبحانه يأجره على ذلك، وأبهم الأجر تعظيما لشأنه، وتنبيها على جلالته".

عَن مُحَمَّد بن الْمُنْكَدر، قَالَ: "إِذا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة صرخَ صارخ الأَرْض أَلا من كَانَ لَهُ على الله حق فَليقمْ فَيقوم من عَفا وَأصْلح".

قال الحسن البصري:"يُنادي مُنادٍ يوم القيامة: مَن كان له أجرٌ على الله فلْيَقُم. قال: فيقوم مَن عفا في الدنيا".

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى:٤٠]، أي:"إن الله لا يحب الظالمين الذين يبدؤون بالعدوان على الناس، ويسيئون إليهم".

=

=

عن ابن عباس:"{إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} الذين يبدؤون بالظلم".
قال الطبري:"يقول: إن الله لا يحب أهل الظلم الذين يتعدّون على الناس، فيسيئون إليهم بغير ما أذن الله لهم فيه".
قال مقاتل:"يعني: من بدأ بالظلم والجراءة".
قال ابن كثير:"{إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} أي: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة، وقال بعضهم: لما كانت الأقسام ثلاثة: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية فذكر المقتصد وهو الذي يفيض بقدر حقه لقوله: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا}، ثم ذكر السابق بقوله: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى
اللهِ} ثم ذكر الظالم بقوله: {إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى من الظلم، ثم قال: {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ} أي: ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم".
عن سفيان بن عيينة: "{والله لا يحب الظالمين}، لا يقرب الظالمين".
قال الزمخشري:"قوله: {إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}، دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتداء خصوصا في حال الحرد والتهاب الحمية فربما كان المجازى من الظالمين وهو لا يشعر".
قال السعدي:"ذكر الله في هذه الآية، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم.
- فمرتبة العدل: جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.
- ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ} يجزيه أجرا عظيما، وثوابا كثيرا، وشرط الله في العفو الإصلاح
=

=

فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورا به، وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

- وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: {إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} سُمِّيَت الثَّانيةُ سَيِّئَةً؛ لمُشَابَهَتِها للأُولى في الصُّورةِ، وهذا ظاهرٌ فيما يُقْتَصُّ فيه من الجِراحاتِ، قال بعضُهُم: وإذا قال له أخزاك اللهُ، فيجيبُه أخزاك اللهُ] قولُهُ: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} هذه في الحقيقةِ قاعدةٌ أنَّ للإنسانِ أن ينتقم لنفْسِه السَّيِّئَةِ بمِثْلِها لا يَزيدُ؛ لأنَّه إن زاد فقد ظَلَمَ، والزِّيادةُ قد تكونُ في الكمِّيَّةِ، وقد تكونُ في الكيفيَّةِ، وقد تكونُ في النَّوعيَّةِ.

فإذا انتصر لنفْسِه فَضَرَبَ من ظَلَمَه ثلاثًا وقد ظَلَمَه باثْنَتَيْنِ هذا من بابِ الكمِّيَّةِ. وإذا ضَرَبَ من ضَرَبَه ضَرْبًا خفيفًا فانتصر لنفْسِه بِضَرْبٍ ثقيلٍ. هذا من بابِ الكيفيَّةِ، وإذا ضَرَبَ من اعتدى عليه بسوْطٍ ضعيفٍ بسوْطٍ أكْبَرَ، هذا من بابِ النَّوعيَّةِ.

المهمُّ: أنَّه لابدَّ أن تكونَ المُجازاةُ بمثْلِ السَّيِّئَةِ الَّتي أُسِيءَ إليه فيها ولا تزيدُ، فإن زاد فهو ظالمُ: ولهذا يُقالُ: هذه بهذه والبادئُ أَظْلَمُ.

فإن قال قائلٌ: إذا ظُلِمَ فدعا على الظَّالِمِ فهل لا يجوزُ له أن يَدْعُوَ عليه بأكثَرَ من مَظْلَمَتِه.

فالجوابُ: هذا هو الواجِبُ؛ لكن قد يَظُنُّ الظانُّ أنَّ هذه المَظْلِمَةَ لا يسوغُ أن

=

يُتَجَاوَزَ فيها، وهي مَظْلِمَةٌ عظيمةٌ؛ كدُعاءِ سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على من ظَلَمَه، وقال: إنَّه يَظْلِمُ الرَّعيَّةَ، ولا يَقْسِمُ في السَّوِيَّةِ، ويؤخِّرُ الصَّلاةَ عن وَقْتِها. فدعا عليه بدعوةٍ عظيمةٍ: اللهمَّ أَعْمِ بَصَرَهُ، وَأَطِلْ عُمرَهُ، وَعَرِّضْهُ للفِتَنِ.

فهذه قد يقولُ القائلُ: إن هذه أكبرُ من ظُلْمِه، ولكنَّها في الحقيقةِ ليست أكبرَ؛ لأنَّ ظُلْمَهُ له يَتَضَمَّنُ القَدْحَ في وَلِيِّ الأمْرِ، حيث وَلَّى على النَّاسِ مِثْلَ هذا.

مسألة: إذا ضَرَبَ مثلما ضُرِبَ يكفي، ونعلمُ أنَّ الضَّربةَ أكثرُ العُلَمَاءِ يقولون: لا قِصاصَ فيها؛ إلَّا أن يموتَ، ونَعْلَمُ أنَّ مِثْلَ هذه الضَّربةِ تَقْتُلُ غالبًا، فيُقْتَصُّ منه.

لكن لِنَقُلْ غَيْرَ هذه المسألةِ: فقيرٌ أَخَذ منه غنيٌّ عَشَرَةَ ريالاتٍ، صار الفقيرُ مُعْدَمًا، هذا الَّذي أَخَذَ منه عَشَرَةُ ريالاتٍ عنده ملايينُ، إذا أُخِذَ منه عَشَرَةُ ريالاتٍ ما ضَرَّه شيءٌ، فنقولُ: العدلُ أن يُعْطى هذا مِثْلَ ما أُخِذَ منه فقط.

فإن قال قائلٌ: أحيانًا يموتُ الظَّالمُ ولم يُقتصَّ منه، فهل يجوزُ الدُّعاءُ عليه بعد موتِهِ؟

فالجوابُ: لا بَأْسَ، له أن يَدْعُوَ عليه ولو بعد موتِهِ؛ مع أنَّ المظلومَ لو فُرِضَ أنَّه لم يَدْعُ؛ فإنَّ حَقَّه سوف يأتيه يومَ القيامةِ، وهو إذا استوفى بالدُّعاءِ عليه لم يَأْخُذْ من حسناتِهِ يومَ القيامَةِ.

وقوْلُ المفسِّرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: [سُمِّيَتِ الثَّانيةُ سَيِّئَةً لمشابَهَتِها الأُولى في الصُّورةِ]، فيه نظرٌ واضحٌ فالمقاصَّةُ سيئةٌ، لكن ليست سيئةً بالنِّسبةِ للفاعِلِ، بل هي سيئةٌ بالنِّسبةِ لمن اقْتُصَّ منه، تسوؤُه وتؤلمُه وترُدُّ اعتبارَه إذا كان يرى أنَّه فوق صاحِبِه، فهي سيئةٌ لا باعتبارِ الفاعِلِ ولكن باعتبارِ المُقْتَصِّ منه.

وأمَّا قولُهُ: [لمشابَهَتِها الأُولى] فلا يُمْكِنُ أن تُطْلَقَ السَّيِّئةُ لمُطْلَقِ المشابَهَةِ، أو لمجرَّدِ المشابَهةِ ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ هذا في الواقِعِ هذه قاعدةٌ في جميعِ الإقتصاصِ، فلننظرْ إذا شقَّ ثَوْبَكَ فهل تشقُّ ثوبَهُ؟ ظاهرُ الآيةِ نعم، لكن إذا كان

=

ثوبُك رديئًا يساوي عَشَرَةً وثوبُهُ جيدًا يساوي مئةً، إذا شَقَقْتَه يَنقُصُ العُشْرَ، مثلًا هذا الثوبُ يساوي عشرةَ ريالاتٍ شَقَّه المعتدي بشقٍّ يُنْزِلُ قيمتَه العُشْرَ، أي: ريالًا واحدًا، فهل نقولُ: العِبْرةُ بالمعنى فإنه لمَّا شقَّ ثوْبَكَ أَذَلَّكَ وأنت إذا اقْتَصَصْتَ منه وشَقَقْتَ ثَوْبَهُ أَذْلَلْتَه، وهو البادئُ، فَنَشُقُّ ثَوْبَهُ ولو كان أغلى؛ لأنَّ هذا الَّذي ثوْبُهُ بعَشَرَةٍ يَنْكَسِرُ اعتبارُه كالَّذي ثوبُهُ بمئةٍ، والمقصودُ إذلالُ المعتدي وكسْرُ اعتبارِهِ. وعلى هذا فنقولُ: من شَقَّ ثَوْبَكَ فَشُقَّ ثَوْبَهُ.

وهل المُعْتَبَرُ المساحةُ أو المُعْتَبَرُ النِّسبةُ؟ يعني مثلًا: هذا إنسانٌ قصيرٌ شُقَّ ثَوْبُه بمقدارِ شِبْرٍ، الشِّبْرُ هذا يُساوي العُشْرَ مثلًا من ثوْبِه، والآخرُ طويلٌ جدًّا شُقَّ ثَوْبُهُ بمقدارِ شِبْرٍ، هل يتساوى في النِّسبةِ مع ذاك؟

الجوابُ: لا يتساوى، إذن: العدلُ أن يَكُونَ المُعْتَبَرُ النِّسبةَ؛ فإذا شُقَّ نِصْفُ هذا الثوْبِ القصيرِ، مساحتُهُ ذراعٌ، والطَّويلُ شَقَّهُ بمساحةِ ذراعٍ، لكنه طويلٌ، طولَ الأوَّلِ مرتين، لا يكفي. نقولُ شُقَّ إلى أن تَبْلُغَ النِّسبةَ، إذا كان العُشْرَ فهذا العُشْرُ؛ لأنَّ هذا هو العدلُ في الحقيقةِ، لأنَّ المعتديَ أَفْسَدَ عُشْرَ ثوبِ المُعْتَدَى عليه، فَلْنُفْسِدْ عُشْرَ ثَوْبِه مع أنَّه هو المعتدي، وهذا ينطبقُ تمامًا على قولِ اللهِ تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} [الشُّورَى: ٤٠].

مثال ذلك: رجلٌ غاضِبٌ قال لشخصٍ: أنت حمارٌ، فهل يقولُ له: أنت الحمارُ؟

الجوابُ: يقولُهُ، لكن هل يقولُ: أنت حمارٌ وأبوك حمارٌ؟ الجوابُ: لا، هذا عُدْوَانٌ، لكن يقولُ: أنت حمارٌ.

فإذا قال له: لَعَنَكَ اللهُ، هل يقولُ: بل لعنك أنت؟

الجوابُ: معكم كتابُ اللهِ: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} فله أن يقولَ هذا؛ ولذلك إذا لَعَنَ الإنسانُ شخصًا لم يَكُنْ أهلًا له تَرْجِعُ اللَّعنةُ إلى الأوَّلِ؛ فَيُعَاقَبُ بمثلِ ما فَعَلَ.

=

=

واسْمَعْ كلامَ المفسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ يقولُ: [وهذا ظاهرٌ فيما يُقْتَصُّ فيه من الجراحاتِ] {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} الَّذي يُقْتَصُّ فيه من الجراحاتِ كُلُّ عُضْوٍ قَائِمٍ بنَفْسِه، وكلُّ جُرْحٍ ينتهي إلى عَظْمٍ، هذا فيه القِصاصُ.

وكلُّ عُضْوٍ قائم بنَفْسِه مِثْلَ: العينِ والإصْبَعِ وما أَشْبَهَ ذلك، هذا يُقْتَصُّ، رَجُلٌ قَطَعَ خِنْصَرَكَ تُقْطَعُ خِنْصَرَه. أو جُرْحٌ يَنْتَهِي إلى عَظْمٍ، جَرَحَه في رَأْسِه حتَّى بان عَظْمُ رأْسِه يُقتصُّ منه، جَرَحَهُ في ساقِه حتَّى بان العظْمُ يُقْتَصُّ؛ حتَّى لو كانت طبقةُ اللَّحمِ الَّتي على العظمِ في الجاني أَغْلَظَ، يُقْتَصُّ حتَّى يَصِلَ إلى العظْمِ، فإذا كان الجُرْحُ لا يَصِلُ إلى العَظْمِ؛ مِثْلَ أن جَرَحَه في فَخِذِه جُرْحًا لم يَنْتَهِ إلى العَظْمِ؛ يقولُ الفقهاءُ: إنَّه لا يُقْتَصُّ منه، وذلك لعدَمِ انضباطِ القِصاصِ، فهو لا يَنْضَبِطُ إلَّا إذا وَصَلَ للعَظْمِ، لكن نظرًا لتقدُّمِ الطِّبِّ، نقولُ: إذا أمكن أن يُقْتَصَّ منه اقْتُصَّ منه.

إذا قَطَعَ يَدَه من نِصْفِ الذِّراعِ الفقهاءُ يقولون: لا يُقْتَصُّ منه؛ لعدمِ الإنضباطِ، لكن إذا كان من المِفْصَلِ، كما لو قُطِعَ كَفُّهُ من مِفْصَلِهَا، يُقْتَصُّ منه.

والصَّحيحُ: أنَّه في الصُّورةِ الأولى: إذا قَطَعَ يَدَهُ من نِصْفِ الذراعِ، أنَّه إذا أَمْكَنَ القِصَاصُ؛ فإنه يُقْتَصُّ منه.

وفي عَصْرِنا الآن يُمْكِنُ على الشَّعْرَةِ، أو أدنى من الشَّعْرَةِ؛ فإذا كان لا يُمْكِنُ، وقال المَجْنِيُّ عليه: اقطعوا يَدَهُ وأنا أعفو عما قَطَعَ من الذِّراعِ، الصَّحيحُ أنَّه يُقْتَصُّ منه؛ فتُقْطَعُ كَفُّ الجاني، وإذا أَسْقَطَ الزَّائدَ- أعني: المجنيَّ عليه- سَقَطَ.

فإن قال المجنيُّ عليه: أنا أريدُ أن تَقُصُّوا كَفَّه وآخُذَ أَرْشَ الزَّائِدِ؛ له ذلك؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ} [المائدة: ٤٥] وهنا يقولُ: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا}.

إذن الَّذي يُقْتَصُّ به من الجراحاتِ كُلُّ عُضْوٍ مُسْتَقِلٍّ أو عَظْمٍ أو جُرْحٍ ينتهي إلى

=

=

عَظْمٍ، والباقي فيه خلافٌ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [قال بعضُهُم] يعني بعضَ العُلَمَاءِ [وإذا قال له: أخزاك اللهُ فيجيبُه أخزاك اللهُ]؛ لقولِهِ: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا}.

أما إذا قال: لَعَنَ اللهُ أباك فهل تقول: لَعَنَ اللهُ أباك؟ الجوابُ: لا؛ قال النَّبيُّ ﷺ: "لَعَنَ اللهُ من لَعَنَ وَالِدَيْهِ"، قالوا: يا رسولَ اللهِ، وهل يَلْعَنُ الرَّجُلُ والديه؟ قال: "نعم، يَسُبُّ أبا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أباه، ويَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ" هذا يَدُلُّ على عدمِ الجوازِ؛ لأنَّ قولَ الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام هذا، لبيانِ الواقعِ لا لبيانِ الحُكْمِ الشَّرعِيِّ، يعني: إن جرت العادةُ في المُسَابَّةِ بين النَّاسِ أنَّ الرَّجلَ إذا سَبَّ أبا الرَّجُلِ سَبَّ أباه.

وانْزِلْ إلى الأسواقِ انظُرِ المسابَّةَ بين النَّاسِ، إذا سبَّ أباه سبَّ أباه، فيكونُ قولُ الرَّسولِ هذا بيانًا للواقِعِ، وبيانُ الواقعِ لا يعطي الجوازَ شَرْعًا، والدَّليلُ على أنَّ بيانَ الواقعِ لا يُعطِي الجوازَ قَوْلُ النَّبيِّ ﷺ: "لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ من كَانَ قَبْلَكُم"، اليهودِ والنَّصارى، فليس لنا أن نَتَّبِعَ اليهودَ والنصارى، ولكنَّ هذا لبيانِ الواقِعِ.

كذلك أيضًا أخبر أنَّ المرأةَ تُسافِرُ من كذا إلى كذا وَحْدَها، لبيانِ الواقِعِ، وليس لبيانِ الحُكْمِ الشرعِيِّ.

فإذا قال قائلٌ: ما هو الَّذي حَمَلَكَ على أن تَجْعَلَ قولَهُ: "يَسُبُّ أبا الرجُلِ فَيَسُبُّ أباه، ويَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ" لبيانِ الواقِعِ لا لبيانِ الحُكْمِ الشَّرْعِيِّ؟

فالجوابُ: الَّذي حَمَلَني على هذا أنَّه لا يجوزُ العدْوانُ على أحدٍ لم يقعْ منه عدوانٌ، هذا ظُلْمٌ، كيف أسبُّ أباه؟! هذا ظُلْمٌ لا شكَّ، والظُّلْمُ لا يَأْذَنُ به الشَّرعُ، لكن لو قال قائلٌ: إنَّه إذا لَعَنَ والديه فلا تَطِيبُ نفسُ الَّذي لُعِنَ والداه إلَّا إذا لَعَنَ وَالِدَيِ الآخَرِ؛ لأنَّ لَعْنَ الوالدين إذلالٌ للولدِ، وهو يُريدُ أن يُطَيِّبَ نَفْسَه. نقولُ: الحمدُ للهِ، هذا ليس هناك ضرورةٌ؛ إذا لَعَنَ والديك الْعَنْه هو، وهذا أشدُّ في

=

=

الإذلالِ.

فالحاصلُ: أنَّه إذا دعا على أبيك وأُمِّكَ لا تَدْع على أبيه وأمِّهِ؛ لأنَّه لا ذَنْبَ لهما، والحديثُ تقدم الجوابُ عنه، أنَّه بيانٌ للواقِعِ لا للحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، ولكن لك أن تُحَوِّلَ السَّبَّ واللَّعْنَ إلى نَفْسِ الفاعِلِ لا إلى والديه.

فإن قال قائلٌ: هل القاتلُ يُقْتَلُ بِمِثْلِ ما قَتَلَ به أو يُقْتَلُ بالسَّيْفِ؟

فالجوابُ: يُقْتَلُ بِمِثْلِ ما قَتَلَ به؛ لأَنَّ النَّبي -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- رَضَّ رَأْسَ اليهوديِّ بين حَجَرَيْنِ، لأنَّه رَضَّ رَأْسَ الجاريةِ بين حَجَرَيْنِ، وقال ﷻ: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [البقرة: ١٩٤] لكن استثنى العُلَمَاءُ أن تكونَ الوسيلةُ مُحَرَّمَةً لذاتِها، فلا يُقْتَصُّ منه، قالوا: فلو تَلَوَّطَ رجلٌ بطفلٍ صغيرٍ، وهو يَعْرِفُ أَنَّ هذا الفِعْلَ يَقْتُلُه، ثمَّ مات الطفلُ من أَجْلِ هذا، فلا نُقِيمُ رجلًا يتلوَّطُ بهذا. قال بعضُ العُلَمَاءِ: لا نَفْعَلُ. وهذا معلومٌ؛ لأنَّ اللِّواطُ مُحَرَّمٌ لذاتِهِ، لكن هل نُدْخِلُ خشبةً في دُبُرِهِ حتَّى يموتَ؟ وهذا له وِجْهَةُ نظرٍ؛ لكن عندي أنَّ فيه نظرًا، وذلك لأنَّ الْخَشَبَةَ أشدُّ ألمًا من اللِّوَاطِ، فلا يُمْكِنُ القِصاصُ.

قولُهُ: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ} (مَنْ) هذه شَرْطِيَّةٌ، وفِعْلُ الشَّرْطِ {عَفَا}، والمعطوفُ عليه جملةُ {فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ} هي جوابُ الشَّرْطِ.

يقولُ اللهُ ﷻ: {فَمَنْ عَفَا}؛ أيْ: لم يُؤاخِذْ بالذَّنْبِ، يعني: عمَّن ظَلَمَه، {وَأَصْلَحَ} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [الوُدّ بينه وبين المَعْفُوِّ عنه {فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ}؛ أي: أنَّ اللهَ تعالى يَأجُرُه لا محالةَ].

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فَمَنْ عَفَا} عن ظَالِمِه] والعفوُ عنه يعني: عدمُ مؤاخَذَتِه. {وَأَصْلَحَ} يقولُ: [الوُدُّ بينه وبين ظالمِه]. وهذا تفسيرٌ قاصرٌ جدًّا، بل المرادُ أَصْلَحَ في عَفْوِهِ، أي: صار عَفْوُه مشتملًا على الإصلاحِ، وإنَّما قلنا ذلك؛ لأنَّ ما

=

=

ذَكَرْنَاه أعمُّ وأنْفَعُ بالنِّسبةِ للمعنى.

إذن {وَأَصْلَحَ} المُفَسِّرُ يراها قاصرةً على إصلاحِ الوُدِّ بينه وبين من ظَلَمَه، والصَّوابُ: أنَّ المُرادَ أَصْلَحَ في عَفْوِهِ؛ أي: كان عَفْوُهُ إصلاحًا.

{فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ} يقولُ المفَسِّرُ: [أي أنَّ اللهُ يَأْجُرُه لا محالةَ] أَجْرٌ بمعنى ثوابٍ، وسمَّى اللهُ- سبحانه- الثَّوابَ أجرًا؛ لأنَّه في مُقابِلِ عملٍ؛ كأُجْرَةِ الأجيرِ إذا قام بعمَلِه، وفيه أيضًا إيماءٌ إلى أنَّ هذا الثَّوابَ واجبٌ، كما يجبُ إعطاءُ الأجيرِ أَجْرَه، وقولُ المفَسِّرِ: [أي فإنَّ اللهَ يَأْجُرُه لا محالةَ] أَخَذَ هذا المعنى؛ يعني: قولَه: [لا محالةَ] من كَوْنِ الجملةِ اسميَّةً؛ لأنَّ الجُملةَ الإسميَّةَ تفيدُ الثُّبوتَ والإستمرارَ.

قولُهُ: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [أي: البادئين بالظُّلْمِ فيَتَرَتَّبُ عليهم عقابُهُ].

قوله: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ} الضَّميرُ يَعُودُ على اللهِ عَزَّ وَجَلَّ {لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}؛ أي: المعتدين سواءٌ ظلموا أنْفُسَهم أو ظلموا غَيْرَهم؛ فصاحبو المعاصي غَيْرُ محبوبين إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ والمعتدي على عبادِ اللهِ غيرُ محبوبٍ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وقولُ المفَسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ: [أي: البادئين بالظُّلْمِ]، فيه نظرٌ؛ فالآيةُ عامَّةٌ، تَشْمَلُ الظَّالمين ابتداءً والظَّالمين في الثَّاني. بمعنى: أنَّ المبتدئَ بالظُّلمِ غيرُ محبوبٍ إلى اللهِ، وكذلك من تجاوَزَ في حَقِّهِ؛ فإنه غيرُ محبوبٍ عند اللهِ؛ فإبقاءُ الآيةِ على إطلاقِهَا أَوْلَى؛ أي: {لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} ابتداءً، ولا اقْتِصاصًا.

مسألةٌ: إن قال قائل: إنَّ بَعْضَ العُلَمَاءِ أَخَذَ من قولِهِ تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} أنَّ الإنسانَ لو جَحَدَ لك مالًا؛ فلك أن تَأْخُذَ من ماله بمقدارِ ما جَحَدَ بدونِ عِلْمِه؟

الجوابُ: نعم، هذا ظاهرُ الآيةِ، أنَّه إذا أَخَذَ من مَالِكَ وَقَدَرْتَ على استردادِه من

=

وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١).

{وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْد ظُلْمه} أَيْ ظُلْم الظَّالِم إيَّاهُ {فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيل} مُؤَاخَذَة[1].

=

مالِهِ فلك هذا، ولكن قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم-: "أَدِّ الأمانةَ إلى مَنِ ائْتَمَنَكَ ولا تَخُنْ مَن خَانَكَ". ولو فُتِحَ هذا البابُ لكانت الأمورُ فوضى، كلُّ واحدٍ يَأْخُذُ من مالِ الثَّاني، ويقولُ: قد جَحَدَ لي مالي، فلا يَسْتَقِيمُ هذا، عمليًّا لا يَسْتَقيمُ. وأمَّا قضيَّةُ هِنْدَ فإنَّ السَّببَ فيها ظاهرٌ، كلُّ النَّاسِ يعرفون أنَّ هذه زَوْجَتُه، وأنَّه يجبُ عليه أن يُنْفِقَ، فإذا أَخَذَتْ من مالِهِ بغيْرِ عِلْمِهِ؛ وقالتْ: إنَّه لا يُنْفِقُ عليَّ، لم يَقُلِ النَّاسُ شيئًا، لأنَّ السَّببَ ظاهِرٌ، ومِثْلُهَا: لو نَزَلَ الضَّيفُ على أَحَدٍ، ولم يُقَدِّمْ له الضِّيافَةَ، وقَدَرَ على أن يَأْخُذَ شيئًا من مالِهِ بِقَدْرِ ضِيَافَتِهِ؛ فله ذلك لأنَّ السَّببَ ظاهرٌ. وبهذا يتمُّ الجمْعُ بين الأدلَّةِ.

(١) قوله تعالى: {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ} [الشورى:٤١]، أي:"ولمن انتصر ممن ظلمه من بعد ظلمه له".

قال الطبري: يقول:"ولمن انتصر ممن ظلمه ممن بعد ظلمه إياه".

قال السعدي:"أي: انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه".

قال مقاتل:"يقول: إذا انتصر المجروح، فاقتص من الجارح".

عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: "من دعا على من ظلمه فقد انتصر".

قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ} [الشورى:٤١]، أي:"فأولئك ما عليهم من مؤاخذة".

قال الطبري: "يقول: فأولئك المنتصرون منهم لا سبيل للمنتصر منهم عليهم بعقوبة لا أذى، لأنهم انتصروا منهم بحقّ، ومن أخذ حقه ممن وجب ذلك له

=

=

عليه، ولم يتعد، لم يظلم، فيكون عليه سبيل".
قال ابن أبي زمنين:"{فأولئك ما عليهم من سبيل}، أي: من حجة".
قال السعدي:"أي: لا حرج عليهم في ذلك".
قال مقاتل:"{فأولئك ما عليهم}، يعني: على الجارح، {من سبيل}، يعني: العدوان حين انتصر من الجارح ".
واختلف أهل التفسير في المعني بالآية الكريمة على قولين:
أحدهما: عني به كلّ منتصر ممن أساء إليه، مسلما كان المسيء أو كافرا. قاله قتادة.
قال قتادة:"هذا في الخمش يكون بين الناس".
وقال قتادة:"هذا فيما يكون بين الناس من القصاص، فأما لو ظلمك رجل لم يحلّ لك أن تظلمه"
روي عن ابن عون، قال: "كنت أسأل عن الانتصار {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ}... الآية، فحدثني علي بن زيد بن جدعان، عن أمّ محمد امرأة أبيه، قال ابن عون: زعموا أنها كانت تدخل على أمّ المؤمنين قالت: قالت أم المؤمنين: دخل رسول الله ﷺ، وعندنا زينب بنت جحش، فجعل يصنع بيده شيئا، ولم يفطن لها، فقلت بيده حتى فطَّنته لها، فأمسك، وأقبلت زينب تقحم عائشة، فنهاها، فأبت أن تنتهي، فقال لعائشة:"سُبيها" فسبتها وغلبتها وانطلقت زينب فأتت عليا، فقالت: إن عائشة تقع بكم وتفعل بكم، فجاءت فاطمة، فقال لها:"إنها حبة أبيك وربّ الكعبة"، فانصرفت وقالت لعليّ: إني قلت له كذا وكذا، فقال كذا وكذا؛ قال: وجاء عليّ إلى النبيّ ﷺ فكلَّمه في ذلك" وإسناده ضعيف.
الثاني: عُنِيَ به الانتصار من أهل الشرك، وقال: هذا منسوخ. قاله ابن زيد.
قال ابن زيد:"لمن انتصر بعد ظلمه من المؤمنين انتصر من المشركين وهذا قد

=

نسخ، وليس هذا في أهل الإسلام، ولكن في أهل الإسلام الذي قال الله تبارك وتعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيم} ".

عن زيد بن أسلم -من طريق هشام بن سعيد- قال: "{ولمن انتصر بعد ظلمه} إلى قوله: {في الأرض بغير الحق} المشركين الذين كانوا يظلمون الناس المسلمين {لهم عذاب أليم} ".

قال الطبري: "والصواب من القول أن يقال: إنه معنيّ به كل منتصر من ظالمه، وأن الآية محكمة غير منسوخة للعلة التي بينت في الآية قبلها".

قال القرطبي: "المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيل إلى لومه، بل يحمد على ذلك مع الكافر. ولا لوم إن انتصر الظالم من المسلم، فالانتصار من الكافر حتم، ومن المسلم مباح، والعفو مندوب".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ} اللَّامُ في قولِهِ: {وَلَمَنِ} اللَّامُ للابتداءِ، و (مَنْ) اسْمُ شرطٍ جازمٌ، وفِعْلُ الشَّرْطِ {انْتَصَرَ}، وجوابُهُ: {فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ}.

قوله: {وَلَمَنِ انْتَصَرَ} يعني: أخذ بحقِّ نَفْسِه {بَعْدَ ظُلْمِهِ} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: ظُلْمِ الظَّالِمِ إِيَّاهُ]؛ فظُلْمٌ هنا مَصْدَرٌ، هل هو مضافٌ إلى الفاعِلِ أو إلى المفعولِ به؟ كلامُ المفسِّرِ يدلُّ على أَنَّه مضافٌ إلى المفعولِ به، [أي ظلْمَ الظَّالِمِ إياه] وعلى هذا فالمصدرُ مضافٌ إلى مفعولِهِ، لا إلى فاعلِهِ، ولا يَصِحُّ أن يَكُونَ مضافًا إلى فاعِلِه؛ لأنَّه لو كان كذلك لكان المعنى: ولمن انتصر بعد أن يَظْلِمَ النَّاسَ، فأولئك ما عليهم من سبيلٍ، والظَّالمُ غير معتدٍ عليه، حتَّى ينتصرَ لنفْسِه. إذن فالمصدرُ مضافٌ إلى المفعولِ.

فقوله: {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ} وقد سبق أنَّ اللهَ تعالى مَدَحَ الَّذين إذا أصابَهُم البغْيُ انتصروا لأنْفُسِهم.

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢).

{إِنَّمَا السَّبِيل عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاس وَيَبْغُونَ} يَعْمَلُونَ {فِي الْأَرْض بِغَيْرِ الْحَقّ} بِالْمَعَاصِي {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَاب أَلِيم} مُؤْلِم[1].

=

وقولُهُ: {فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُؤَاخَذَةٍ]، وأَصْلُ السَّبيلِ الطريقُ؛ أي: ليس عليهم طريقٌ لِلَّوْمِ والمؤاخَذَةِ، وقولُهُ: {مِنْ سَبِيلٍ} {مِنْ} حرفُ جرٍّ زائدٌ، و {سَبِيلٍ} مبتدأٌ مؤخَّرٌ مرفوعٌ بضمَّةٍ مُقَدَّرَةٍ على آخِرِهِ، مَنَعَ من ظهورِها اشتغالُ المحَلِّ بحركةِ حرْفِ الجرِّ الزَّائِدِ. والمعنى: فأولئك ما عليهم سبيل.

فإذا قال قائلٌ: ما هي فائدةُ حروفِ الجرِّ الزَّائدةِ؟

فالجوابُ: أنَّ فائدَتَها التَّأكيدُ، يعني: تأكيدَ النَّفْيِ.

(١) قوله تعالى: {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ} [الشورى:٤٢]، أي:"إنما المؤاخذة على الذين يتعدَّون على الناس ظلمًا وعدوانًا".

قال الثعلبي:"يبدؤون بالظلم".

قال ابن كثير:"أي إنما الحرج والعنت على الذين يبدؤون الناس بالظلم، كما جاء في الحديث الصحيح «المستبان ما قالا فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم» ".

قال الطبري: يقول:"إنما الطريق لكم أيها الناس على الذين يتعدّون على الناس ظلما وعدوانا، بأن يعاقبوهم بظلمهم لا على من انتصر ممن ظلمه، فأخذ منه حقه".

عن ابن جريج:"{إِنَّمَا السَّبِيل على الَّذين يظْلمُونَ النَّاس} الْآيَة، قَالَ: من أهل الشّرك".

قوله تعالى: {وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [الشورى:٤٢]، أي:"ويتجاوزون

=

=

الحدَّ الذي أباحه لهم ربهم إلى ما لم يأذن لهم فيه، فيفسدون في الأرض بغير الحق".

قال الطبري:"يقول: ويتجاوزون في أرض الله الحدّ الذي أباح لهم ربهم إلى ما لم يأذن لهم فيه، فيفسدون فيها بغير الحق".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الشورى:٤٢]، أي:"أولئك لهم يوم القيامة عذاب مؤلم موجع".

قال ابن كثير:"أي: شديد موجع".

قال الطبري:"يقول: فهؤلاء الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق، لهم عذاب من الله يوم القيامة في جهنم مؤلم موجع".

قال أبو العالية:"الأليم: الموجع في القرآن كله"، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

عن محمد بن واسع قال: قدمت مكة فإذا على الخندق منظرة فأخذت، فانطلق بي إلى مروان بن المهلب وهو أمير على البصرة، فقال: حاجتك يا أبا عبد الله. قلت: حاجتي إن استطعت أن تكون كما قال أخو بني عدي، قال: ومن أخو بني عدي؟ قال: العلاء بن زياد، استعمل صديقا له مرة على عمل فكتب إليه: «أما بعد فإن استطعت أن لا تبيت إلا وظهرك خفيف، وبطنك خميص وكفك نقية من دماء المسلمين وأموالهم، فإنك إذا فعلت ذلك لم يكن عليك سبيل: {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عذاب أليم}، فقال: صدق والله ونصح، ثم قال: ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتي أن تلحقني بأهلي. قال: نعم ".

وقال العثيمين: قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ} يَعْمَلُونَ {فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} بالمعاصِي {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

=

=

مُؤْلِمٌ].

قولُهُ: {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ} هذه الجُمْلَةُ فيها أداةُ حصرٍ وهي (إنَّما)، والحَصْرُ إثباتُ الحُكْمِ في المذكورِ، ونفْيُه عمَّا سواه؛ فكأنَّه قال: لا سبيلَ إلَّا على هؤلاء {إِنَّمَا السَّبِيلُ} يعني: الطَّريقَ إلى اللَّوْمِ والقَدْحِ والمؤاخَذَةِ {عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ} سواءٌ بأموالِهم أو دمائِهم أو أعراضِهم؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ أَعْلَنَ في حَجَّةِ الوداعِ؛ فقال: "إنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ" فَظُلْمُ النَّاسِ يدورُ على هذه الأشياءِ الثَّلاثةِ: الدِّماءِ، والأموالِ، والأعراضِ. فمن اغتاب أحدًا فقد ظَلَمَه، ومن أخذ مَالَهُ فقد ظَلَمَه، ومن خانَه في معامَلةٍ بينه وبينه فقد ظَلَمَه، وهذه لا حَصْرَ لأمثِلَتِها، المُهِمُّ أنَّ الَّذين يظلِمون النَّاسَ عليهم اللَّومُ.

وقولُهُ: {وَيَبْغُونَ} فَسَّرَها المُفَسِّرُ بقولِهِ: [يعملون] وكأنَّه تحاشى أن يَجْمَعَ بين البغْيِ وبين القوْلِ بغيْرِ الحقِّ؛ فقال: [يعملون] من أجْلِ أن يَكُونَ الفِعْلُ يبغون له معنًى مستقلٌّ، وبغيْرِ الحقِّ له معنًى مستقلٌّ؛ والصَّوابُ: إبقاءُ الآيةِ على ظاهِرِهَا، ومعنى (يبغون): أي: يعتدون، من بغى على غيْرِه؛ أي: اعتدى عليه، قال اللهُ تعالى: {وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ}.

فقولُهُ: {وَيَبْغُونَ} معناها: يعتدون على غيْرِهم، ويتجاوزون حَدَّهم في معامَلَتِهم؛ ويكونُ قولُهُ: {بِغَيْرِ الْحَقِّ} صفةً كاشفةً تُبَيِّنُ أنَّ كلَّ بَغْيٍ فهو بغيرِ حقٍّ؛ فإبقاءُ النَّصِّ القرآنيِّ على ظاهِرِهِ هو الواجبُ، لا سيَّما أنَّ هذا التَّفسيرَ يَجْعَلُه قاصرًا.

إذن: {وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ}؛ أي: يعتدون فيها ويتجاوزون الحَدَّ {بِغَيْرِ الْحَقِّ} بيانٌ للواقِعِ؛ فهو صفةٌ كاشفةٌ إذ إنَّ كلَّ بَغْيٍ فإنَّه بغيْرِ حقٍّ.

والصِّفةُ الكاشفةُ معناها أنَّها كالتَّعليلِ لما سبق، وأيضًا ليس لها مفهومٌ، وهذا هو المُهِمُّ.

وقولُهُ: {بِغَيْرِ الْحَقِّ} فَسَّرَها بأنَّها المعاصي، ونعم المعاصي كُلُّهَا بغيْرِ حَقٍّ؛ لكن

=

وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣).

{وَلَمَنْ صَبْر} فَلَمْ يَنْتَصِر {وَغَفَرَ} تَجَاوَزَ {إِنَّ ذَلِكَ} الصَّبْر وَالتَّجَاوُز {لَمِنْ عَزْم الْأُمُور} أَيْ مَعْزُومَاتهَا بِمَعْنَى الْمَطْلُوبَات شَرْعًا(١).

=

لا تفهمْ من هذا أنَّ ذلك خاصٌّ بحقِّ اللهِ، بل هو عامٌّ في حقِّ اللهِ وغيْرِهِ؛ فالبغْيُ في حقِّ اللهِ مُحَرَّمٌ، وكذلك البغْيُ في حقِّ الآدميِّ.

وقوله: {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} المشارُ إليه الَّذين يَظْلِمون النَّاسَ وَيبْغُون في الأرضِ بغيْرِ الحقِّ {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: مؤلِمٌ، والإيلامُ بمعنى: الإيجاعِ؛ أي: أنَّه مُوجِعٌ.

(١) قوله تعالى: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ} [الشورى:٤٣]، أي:"ولمن صبر على الأذى، وقابل الإساءة بالعفو والصفح والسَّتر".

قال الطبري: يقول:"ولمن صبر على إساءة إليه، وغفر للمسيء إليه جرمه إليه، فلم ينتصر منه، وهو على الانتصار منه قادر ابتغاء وجه الله وجزيل ثوابه".

قال ابن كثير:"ثم إنه تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادبا إلى العفو والصفح: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ}، أي: صبر على الأذى وستر السيئة".

قال البغوي:"{وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ} فلم ينتصر".

قال الزمخشري:"{وَلَمَنْ صَبَرَ} على الظلم والأذى {وَغَفَرَ} ولم ينتصر وفوّض أمره إلى الله".

قوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [الشورى:٤٣]، أي:"إن ذلك من عزائم الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التي أمر الله بها، ورتَّب لها ثوابًا جزيلا وثناءً حميدًا".

قال الطبري:"يقول: إن صبره ذلك وغفرانه ذنب المسيء إليه، لمن عزم الأمور التي ندب إليها عباده، وعزم عليهم العمل به".

=

=

قال البغوي: "{إن ذلك} الصبر والتجاوز، {لمن عزم الأمور} حقها وجزمها".

قال ابن كثير: "أي: لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل".

قال سعيد بن جبير: يعني: لمن حق الأمور التي أمر الله بها".

قال الزجاج: "أي: الصابر يؤتى بصبره ثواباً فكل من زادت رغبته في الثواب فهو أتمُّ عَزْم، وقد قال بعض أهل اللغة إن معنى قوله تعالى: {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} أن منه القصاصَ والعفوَ".

حكى عن الحسن البصري -من طريق المبارك بن فَضالة- قال: "سبَّ رجلٌ رجلًا مِن الصدر الأول، فقام الرجل وهو يمسح العرَق عن وجهه، وهو يتلو: {ولَمَن صَبَرَ وغَفَرَ إنَّ ذَلِكَ لَمِن عَزْمِ الأُمُورِ}. قال الحسن: عَقِلَها -واللهِ- وفهِمها إذ ضيَّعها الجاهلون".

عن عبد الصمد بن يزيد- خادم الفضيل بن عياض- قال: "سمعت الفضيل بن عياض يقول: إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلا فقل: "يا أخي، اعف عنه". فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن أنتصر كما أمرني الله ﷻ. فقل له إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور".

قال الزمخشري: "وقالوا: العفو مندوب إليه، ثم الأمر قد ينعكس في بعض الأحوال، فيرجع ترك العفو مندوبا إليه، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي، وقطع مادة الأذى. وعن النبي ﷺ ما يدل عليه: وهو أن زينب أسمعت عائشة بحضرته، وكان ينهاها فلا تنتهي، فقال لعائشة: «دونك فانتصرى» ".

وقال العثيمين: قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وَلَمَنْ صَبَرَ} فلم يَنْتَصِرْ {وَغَفَرَ} تَجَاوَزَ]

=

=

يعني: عن الجاني [{إِنَّ ذَٰلِكَ} الصَّبْرَ والتَّجاوُزَ {لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} أي: مَعْزُومَاتِها، بمعنى المطلوباتِ شَرْعًا].

قولُهُ: {وَلَمَن صَبَرَ} اللَّامُ هذه لامُ الإبتداءِ، وتُفيدُ التَّوكيدَ، و (مَن) اسمُ شرطٍ جازمٌ، وفعلُ الشَّرْطِ {صَبَرَ} وجوابُ الشَّرْطِ {إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}.

انتبِهوا لهذا الإعرابِ، (مَن) شرطيَّةٌ، فِعْلُ الشَّرْطِ {صَبَرَ} وما عُطِفَ عليه جوابُ الشَّرْطِ: {إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}.

وهنا إشكالٌ: وهو أنَّه: إذا كان جوابُ الشَّرْطِ جملةً اسميَّةً، وَجَبَ اقترانُ الجوابِ بالفاءِ، كالآيةِ الَّتي قَبْلَها، الآيةُ الَّتي قَبْلها {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ} [الشُّورَى: ٤١]، وهنا حُذِفَتِ الفاءُ، الإشكالُ هنا كيف حُذِفَتِ الفاءُ في جوابِ الشَّرْطِ وهو جملةٌ اسميَّةٌ؟ الجوابُ: أنَّ الفاءَ قد تُحْذَفُ وإن كانت الجملةُ- أي جملةُ جوابِ الشَّرطِ- اسميَّةً، وأنشدوا على هذا قولَ الشَّاعِرِ:

مَنْ يَفْعَلِ الحسَنَاتِ اللهُ يشكُرُها ...

(من يَفْعَلِ الحسناتِ) هذه شرطيَّةٌ؛ فِعْلُ الشَّرْطِ (يَفْعَلُ)، جوابُ الشَّرْطِ: (اللهُ يَشْكُرُها) وليس فيها فاءٌ.

فقالوا: إنَّه يجوزُ أحيانًا حَذْفُ الفاءِ، واستدلُّوا بالآيةِ، واستدلُّوا بالبيتِ. قال بعضُهُم في الإعرابِ في الآيةِ: حَذْفُ الفاءِ يدلُّ على أن (مَن) ليست شرطيَّةً، وإنَّما هي اسمٌ موصولٌ، وعليه يكونُ المعنى: ولِلَّذي صَبَرَ وغَفَرَ إنَّ ذلك من عزمِ الأمورِ.

والحقيقةُ: أنَّ الإعرابَ الأوَّلَ والثَّانيَ جائزٌ؛ لكنَّ كَوْنَنَا نَجْعَلُ (مَن) اسمَ شرطٍ كالآيةِ الَّتي قَبْلَها أَوْلَى من حيث تلاؤُمُ السِّياقِ بعضِهِ مع بعضٍ، ويكونُ الإشكالُ في حذفِ الفاءِ في الجوابِ، وجوابُهُ: أنَّها قد تُحْذَفُ أحيانًا.

=

وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤).

{وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيّ مِنْ بَعْده} أَيْ أَحَد يَلِي هِدَايَته بَعْد إِضْلَال الله إِيَّاهُ {وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَاب يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ} إِلَى الدُّنْيَا {مِنْ سَبِيل} طَرِيق.

وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (٤٥).

{وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا} أَيْ النَّار {خَاشِعِينَ} خَائِفِينَ مُتَوَاضِعِينَ {مِنْ الذُّلّ يَنْظُرُونَ} إِلَيْهَا {مِنْ طَرْف خَفِيّ} ضَعِيف النَّظَر مُسَارَقَة وَمِنْ ابْتِدَائِيَّة أَوْ بِمَعْنَى الْبَاء {وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسهمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْم الْقِيَامَة} بِتَخْلِيدِهِمْ فِي النَّار وَعَدَم وُصُولهمْ إِلَى الْحُور الْمُعَدَّة لَهُمْ فِي الْجَنَّة لَوْ آمَنُوا وَالْمَوْصُول خَبَر إِنَّ {أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ} الْكَافِرِينَ {فِي عَذَاب مُقِيم} دَائِم

=

قولُهُ ﷻ: {وَلَمَنْ صَبَرَ}؛ أي: صَبَرَ على ظُلْمِ الظَّالِمِ إياه؛ وإن شئْتَ فقل: إنَّها عامَّةٌ، تَشْمَلُ كُلَّ من صَبَرَ على أَذِيَّةٍ من مَرَضٍ، أو سفرٍ، أو ما أَشْبَهَ ذلك، ولكنَّ العمومَ قد يَمْنَعُ القولَ به قولُهُ: {وَغَفَرَ} فإنَّ ظاهرَ هذا السِّياقِ أنَّ المرادَ صَبَرَ عن مؤاخذةِ الظَّالِمِ؛ {وَغَفَرَ}؛ أي: سترَ ما حَصَلَ عليه من ظُلْمٍ.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: [{إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} أي: معزوماتِها]، يعني: لدليلٌ على أنَّ الرَّجلَ من ذوي العزْمِ؛ لأنَّه تَحمَّلَ وَسَتَرَ، تحمَّلَ فَصَبَرَ وعفا فَغَفَرَ {إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}.

هُوَ مِنْ مَقُول الله تَعَالَى(١).

(١) قوله تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ} [الشورى:٤٤]، أي:"ومن يضلله الله عن الرشاد بسبب ظلمه فليس له من ناصر يهديه سبيل الرشاد".

قال الطبري:"يقول: ومن خذله الله عن الرشاد، فليس له من ولي يليه، فيهديه لسبيل الصواب، ويسدده من بعد إضلال الله إياه".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة: إنه ما شاء كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له وأنه من هداه فلا مُضِل له، ومن يضلل فلا هادي له، كما قال: {وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا} [الكهف: ١٧] ".

قوله تعالى: {وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ} [الشورى:٤٤]، أي:"وترى-أيها الرسول- الكافرين بالله يوم القيامة-حين رأوا العذاب- يقولون لربهم: هل لنا من سبيل إلى الرجوع إلى الدنيا؛ لنعمل بطاعتك؟ ".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وترى الكافرين بالله يا محمد يوم القيامة لما عاينوا عذاب الله يقولون لربهم: {هَلْ} لنا يا رب {إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ} وذلك كقوله: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا}... الآية، استعتب المساكين في غير حين الاستعتاب".

قال الشوكاني:"أي: المشركين المكذبين بالبعث، حين نظروا النار، وقيل: نظروا ما أعده الله لهم عند الموت يقولون: هل إلى الرجعة إلى الدنيا من طريق".

قال ابن كثير:"أي: يوم القيامة يتمنون الرجعة إلى الدنيا، {يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ}، كما قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ =

=
رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام: ٢٧، ٢٨] ".
عن السديّ، قوله: "{هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ}، يقول: إلى الدنيا".
قال السعدي: "أي: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا، لنعمل غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن".
وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ} (مَنْ) هذه شرطيَّةٌ، وهي للعمومِ يعني: أيُّ أحدٍ يُقدِّرُ اللهُ تعالى أن يُضِلَّ فإنَّه لا يُمْكِنُ أن يتولَّاه أحدٌ بَعْدَ اللهِ، ومعنى هذا: أَنَّه لا يُمْكِنُ أن يَهْدِيَه أحدٌ، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: {فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ} [الجاثية: ٢٣].
واقترن جوابُ الشَّرطِ بالفاءِ في قولِهِ: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ} لأنه مقترنٌ بـ (ما).
وقوله: {فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ} يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [أيُّ أحدٍ يلي هدايتَه بَعْدَ إضلالِ اللهِ إياه].
وقوله: {وَتَرَى} بَصَرِيَّةٌ، و {الظَّالِمِينَ} مفعولٌ به، و {يَقُولُونَ} جملةٌ حاليَّةٌ، و {لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ} (لمَّا) هذه جازمةٌ، بمعنى حِينَ {وَتَرَى الظَّالِمِينَ} والمرادُ بالظَّالمين هنا الكافرون، كما قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: ٢٥٤].
وقوله: {لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ} أي: حين رأوُا العذابَ بأعيُنِهم يقولون: {هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ} (هل) استفهامٌ للتَّمنِّي يعني: يَتَمَنَّوْنَ أن يَكُونَ لهم سبيلٌ إلى الرَّدِّ، وقولهم: {إِلَى مَرَدٍّ} وأي: إلى مَرْجِعٍ، والمرادُ: مَرْجِعٌ للدُّنيا ليعملوا صالحًا، ولكنَّ هذا التَّمَنِّيَ باءَ بالفشلِ؛ لأنَّ ذلك أمرٌ غيرُ مُمْكِنٍ، بل قد قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} [الأنعام: ٢٨] فهم يَتَمَنَّوْنَ هذا ويدَّعُون أنَّهم إذا رَجَعُوا صَلُحُوا ولكنَّ الأمْرَ ليس بذلك.
=

=

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ} أي: من طريقٍ]: والجوابُ: لا سبيلَ، وكما تقدَّم لو رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه، كما أنَّهم إذا غَشِيَهم موجٌ كالظُّلَلِ في البحارِ ودَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ له الدِّينَ؛ إذا نَجَوْا عادوا إلى الشِّرْكِ قال: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا} غُدُوًّا وعَشِيًّا كلمةُ (ترى) هنا والَّتي قبلها هل المرادُ بها الرَّسولُ ﷺ وَحْدَهُ أو ترى أيُّها المخاطَبُ؟

الجوابُ: الثَّاني؛ لأنَّنا إذا قلنا بالثَّاني صار أعمَّ ممَّا إذا قلنا بالأوَّلِ {وَتَرَاهُمْ} أيُّها الرَّائي {يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}.

قوله تعالى: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ} [الشورى:٤٥]، أي:"وترى-أيها الرسول- هؤلاء الظالمين يُعْرَضون على النار خاضعين متذللين".

قال الطبري: يقول:"وترى يا محمد الظالمين يعرضون على النار {خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ} يقول: خاضعين متذللين".

قال مقاتل:"يعني: على النار واقفين عليها، خاضعين من الذل الذي نزل بهم".

قال الشوكاني:"أي: ساكنين متواضعين عند أن يعرضوا على النار لما لحقهم من الذل والهوان".

قال السعدي:"أي: ترى أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم".

عن السديّ، قوله:"{خَاشِعِينَ}، قال: خاضعين من الذلّ".

قال ابن زيد:"الخشوع: الخوف والخشية لله ﷻ، وقرأ قول الله ﷻ: {لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ}... إلى قوله: {خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ}، قال: قد أذلهم الخوف الذي نزل بهم وخشعوا له".

قوله تعالى: {يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ} [الشورى:٤٥]، أي:"ينظرون إلى النار من طرْف ذليل ضعيف من الخوف والهوان".

=

=

قال الطبري:"يقول: ينظر هؤلاء الظالمون إلى النار حين يعرضون عليها من طرف خفي".

قال الباقلاني:"يعني به: الذلة والخوف والإستكانة والاستسلام لعذاب الله".

وفي قوله تعالى: {يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ} [الشورى:٤٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: ينظرون بأبصار قلوبهم دون عيونهم لأنهم يحشرون عميـًا، قاله أبو سليمان.

الثاني: يسارقون النظر إلى النار حذراً، قاله قتادة، والسدي، ومحمد بن كعب.

قال مقاتل:"يعني: يستخفون بالنظر إليها يسارقون النظر".

قال ابن كثير:"أي: ينظرون إليها مُسَارقَة خوفا منها، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما في نفوسهم، أجارنا الله من ذلك".

قال السعدي:"أي: ينظرون إلى النار مسارقة وشزرا، من هيبتها وخوفها".

الثالث: بطرفٍ ذليل، قاله ابن عباس، ومجاهد.

قال ابن قتيبة:"أي: قد غَضُّوا أبصارهم من الذلِّ".

قال الأخفش:"{من طرف خفي}، يقول: بطرف".

الرابع: معناه: لا يفتح عينه إنما ينظر ببعضها. قاله أبو عبيدة.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك، القول الذي ذكرناه عن ابن عباس ومجاهد، وهو أن معناه: أنهم ينظرون إلى النار من طرف ذليل، وصفه الله جلّ ثناؤه بالخفاء للذلة التي قد ركبتهم، حتى كادت أعينهم أن تغور، فتذهب".

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الشورى:٤٥]، أي:"وقال الذين آمنوا بالله ورسوله في الجنة، لما عاينوا ما حلَّ بالكفار من خسران: إن الخاسرين حقًّا هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بدخول النار".

=

=

قال الطبري: يقول:"وقال الذين آمنوا بالله ورسوله: إن المغبونين الذين غبنوا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة في الجنة".

قال ابن كثير:"أي: الخسار الأكبر {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي: ذهب بهم إلى النار فعدموا لذتهم في دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقراباتهم، فخسروهم".

قال الشوكاني:"أي: إن الكاملين في الخسران: هم هؤلاء الذين جمعوا بين خسران الأنفس والأهلين في يوم القيامة. أما خسرانهم لأنفسهم فلكونهم صاروا في النار معذبين بها، وأما خسرانهم لأهليهم فلأنهم إن كانوا معهم في النار فلا ينتفعون بهم، وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينهم وبينهم، وقيل خسران الأهل: أنهم لو آمنوا لكان لهم في الجنة أهل من الحور العين".

قال السعدي:"فوتوا أنفسهم جزيل الثواب، وحصلوا على أليم العقاب وفرق بينهم وبين أهليهم، فلم يجتمعوا بهم، آخر ما عليهم".

قال السدي:"غبنوا أنفسهم وأهليهم في الجنة".

قال مقاتل:"يعني: غبنوا أنفسهم فصاروا إلى النار وخسروا، وغبنوا أهليهم في الجنة فصاروا لغيرهم، ولو دخلوا الجنة أصابوا الأهل، فلما دخلوا النار حرموا فصار ما في الجنة والأهلين لغيرهم".

قال مجاهد وقتادة:"ليس أحد إلا وقد أعد الله له أهلا في الجنة ، إن أطاعه".

وعن ابن عباس- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أنه قال: "ليس من أحد من كافر ومسلم إلا وله أهل ومنزل في الجنة، فإن أطاع الله- تعالى- أتى منزله وأهله، وإن عصاه خسر نفسه وأهله، ومنزله في الجنة وورثه المؤمنون عنه".

قال الماتريدي:"لكن لا يحتمل أن يكون الله- عَزَّ وَجَلَّ- مع علمه أنه يموت كافرا أن يجعل له الأهل والمنزل في الجنة، اللهم إلا أن يفعل ذلك ليكون لهم حسرة على

=

=

ذلك وغيظا".

قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ} [الشورى:٤٥]، أي:"ألا إن الظالمين-يوم القيامة- في عذاب دائم، لا ينقطع عنهم، ولا يزول".

قال السعدي:"{أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ} أنفسهم بالكفر والمعاصي {فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ} أي: في سوائه ووسطه، منغمرين لا يخرجون منه أبدا، ولا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون".

قال الطبري: يقول:"ألا إن الكافرين يوم القيامة في عذاب لهم من الله مقيم عليهم، ثابت لا يزول عنهم، ولا يَبيد، ولا يخفّ".

قال ابن كثير:"أي: دائم سرمدي أبدي، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها".

قال الشوكاني:"هذا يجوز أن يكون من تمام كلام المؤمنين، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه، أي: هم في عذاب دائم لا ينقطع".

وقال العثيمين: ثُم قال المفسِّرُ: [{وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا}؛ أي: على النَّارِ] {خَاشِعِينَ} خائفين مُتَوَاضِعِينَ {مِنَ الذُّلِّ} (مِنَ) للسَّببيَّةِ؛ أي: بسببِ ذُلِّهِم، هؤلاء الَّذين كانوا في الدُّنيا مُسْتَكبِرين مُتَعَنْجِهِين لا يَرَوْنَ النَّاسَ شيئًا ولا يَقْبَلُون الحقَّ يُعْرَضُون على النَّارِ على هذا الوصْفِ {خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ} يعني: قد امتلأت قلوبُهُم ذلًّا.

فيُعْرَضُون عليها قبل أن يَدْخُلُوها، والكفَّارُ لا يحاولون الصُّعودَ على الصِّراطِ؛ لأنَّهم يُصْرَفُون إلى جهنَّم في عَرَصَاتِ القيامةِ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{يَنْظُرُونَ} إليها {مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ} ضعيفِ النَّظَرِ مُسَارَقَةً]؛ يعني: ينظرون إلى النَّارِ- والعياذُ باللهِ- {مِنْ طَرْفٍ} أي: من بَصَرٍ {خَفِيٍّ}؛ أي: ضعيفٍ، يُسَارِقُونَ النَّظَرَ، كالإنسانِ الَّذي هو خائفٌ من شيءٍ تَجِدُهُ ينظرُ إليه نظرًا ضعيفًا ثمَّ يَصْرِفُ النَّظَرَ على الفورِ؛ وذلك لشدَّةِ ذُلِّهِم، أعاذنا اللهُ وإيَّاكم من

=

=

حالِهم.

(ومن) ابتدائيَّةٌ أو بمعنى الباءِ (من) في قولِهِ: {مِنْ طَرْفٍ} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [ابتدائيَّةٌ أو بمعنى الباءِ]؛ أي: ينظرون بطَرَفٍ خَفِيٍّ، وإذا دار الأمْرُ بين أن تكونَ ابتدائيَّةً على بابِها أو بمعنى الباءِ فالأولى أن تُجْعَلَ على بابِها؛ يعني: يبتدئُ نَظَرُهم من الطَّرَفِ الخَفِيِّ {مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ}.

وقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا} قالوا مُثْنِينَ على اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُتَحَدِّثِينَ بِنِعَمِه قالوا: {إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}.

وقوله: {إِنَّ الْخَاسِرِينَ} {إِنَّ} تحتاجُ إلى اسمٍ وخبرٍ، فاسمُها {الْخَاسِرِينَ} خبرُها {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ}.

وقوله: {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}؛ أي: فَقَدُوها فَقَدُوا أنْفُسهم وأَهْلِيهم يومَ القيامةِ. قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [بتخليدِهم في النَّارِ وعدمِ وصولِهم إلى الحُورِ المُعَدَّةِ لهم في الجنَّةِ].

الخاسرون حقيقةً ليسوا الَّذين فقدوا المالَ، ولا الَّذين فقدوا الأهْلَ في الدُّنيا، الخاسرون حقيقةً هم الَّذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهْلِيهم، أمَّا خُسرانُ أهليهم فظاهرٌ؛ لأنَّه لا يُجْمَعُ بينهم وبين أهْلِيهم في النَّارِ بخلافِ أهلِ الجنَّةِ، فإن أهْلَ الجنَّةِ يقولُ اللهُ فيهم: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} [الطُّور: ٢١]، يعني: حتَّى لو كانتِ الذُّرِّيَّةُ نازلةَ المَرْتبَةِ، فإن اللهَ يَرْفَعُهُم إلى آبائِهِم هؤلاء- والعياذُ باللهِ- يُفَرَّقُ بينهم وبَيْنَ أَهْلِيهم في النَّارِ، حتَّى لو جُمِعَ بينهم فماذا يكونُ؟ فخُسْرَانُهُم أَهْلِيهم واضحٌ، لكن كيف خسروا أنْفُسَهم؟ خسروا أنْفُسَهم لأنَّهم لم يستفيدوا من الحياةِ الدُّنيا شيئًا، حياتهم خَسارةٌ؛ لأنَّهم لم يستفيدوا منها شيئًا فلم يؤمِنوا باللهِ ورُسُلِهِ.

وقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [بتخليدِهم في النَّارِ وعدمِ وصولِهم إلى الحُورِ المُعَدَّةِ لهم

=

وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦).

{وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاء يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره يَدْفَع عَذَابه عَنْهُمْ

=

في الجنَّةِ لو آمنوا] في هذا نظرٌ ظاهرٌ، والمرادُ بـ {وَأَهْلِيهِمْ} أَهْلُوهم في الدُّنيا وليس المرادُ الحُورَ المُعَدَّةَ لهم في الآخرةِ لو آمنوا؛ لأنَّ هذا قد عُلِمَ من قَبْلُ فإنَّه يقالُ للميِّتِ إذا دُفِنَ في قبْرِه: هذا مقعدُك من الجنَّةِ يعني لو آمَنْتَ، ويُقالُ للمؤمِنِ: هذا مَقْعَدُك من النَّارِ يعني لو لم تُؤْمِنْ. فالمرادُ بالأهلين هنا: أهلوهم في الدُّنْيا لم يربحوا، وقولُ المفسِّرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: [والموصولُ خبرُ إنَّ] {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ} هذا هو الموصولُ، ونَبَّهَ على ذلك؛ لئلَّا يظنَّ الظانُّ أنَّ الَّذين خَسِروا صفةٌ للخاسرين.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ} الكافرين {فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ} دائم وهو من مَقُولِ اللهِ تبارك وتعالى] يعني: ليس من مَقُولِ الَّذين آمنوا {وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ} [الشُّورَى: ٤٥].

ولو نَظَرْنا إلى السِّياقِ لقلنا: إن هذا بقيَّةُ كلامِ المؤمنين لكنَّ المفَسِّرَ نَبَّهَ على أنَّ هذا من كلامِ اللهِ، وليس من كلامِ الَّذين آمنوا، والسِّياقُ مُحْتَمِلٌ لهذا وهذا، محتمِلٌ أن يَكُونَ كما قال المفسِّرُ من كلامِ اللهِ، ومحتمِلٌ أن يَكُونَ من كلامِ الَّذين آمنوا، والَّذين آمنوا يعلمون أنَّ الظالمين في عذابٍ مُقيمٍ من الوقتِ الَّذي هم فيه في الدُّنيا؛ لأنَّهم قرؤوا كتابَ اللهِ وسُنَّةَ رسولِهِ ﷺ.

وقولُهُ: {أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ} هذه الجملةُ مؤكَّدةٌ بمُؤَكِّدَيْنِ: الأوَّلُ: {أَلَا}؛ لأنَّ {أَلَا} هنا للتَّنبيهِ، والتَّنبيهُ يقتضي التَّوكيدَ، والمؤكِّدُ الثَّاني: {إِنَّ الظَّالِمِينَ} (إنَّ)؛ لأنَّ إنَّ حَرْفُ توكيدٍ {فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ} أي: دائمٍ، والعياذُ باللهِ.

{وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيل} طَرِيق إلَى الْحَقّ فِي الدُّنْيَا وَإِلَى الْجَنَّة في الآخرة[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ} [الشورى:٤٦]، أي:"وما كان لهؤلاء الكافرين حين يعذبهم الله يوم القيامة من أعوان ونصراء ينصرونهم من عذاب الله".

قال الطبري: يقول:"ولم يكن لهؤلاء الكافرين حين يعذبهم الله يوم القيامة أولياء يمنعونهم من عذاب الله ولا ينتصرون لهم من ربهم على ما نالهم به من العذاب من دون الله".

قال مقاتل:"يقول: وما كان لهم من أقرباء يمنعونهم من الله".

قال ابن كثير:"أي: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال".

قال الشوكاني:"أي: لم يكن لهم أعوان يدفعون عنهم العذاب، وأنصار ينصرونهم في ذلك الموطن من دون الله، بل هو المتصرف سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن".

قال السعدي:"كما كانوا في الدنيا يمنون بذلك أنفسهم، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أملوها تقطعت، وأنه حين جاءهم عذاب الله لم يدفع عنهم".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ} [الشورى:٤٦]، أي:"ومن يضلله الله بسبب كفره وظلمه، فما له من طريق يصل به إلى الحق في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة".

قال الطبري: "يقول: ومن يخذله عن طريق الحق فما له من طريق إلى الوصول إليه، لأن الهداية والإضلال بيده دون كلّ أحد سواه".

قال ابن كثير:"أي: ليس له خلاص".

=

=

قال الشوكاني:"أي: من طريق يسلكها إلى النجاة".

قال السعدي:"فهؤلاء ضلوا حيث زعموا في شركائهم النفع ودفع الضر، فتبين حينئذ ضلالهم".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ} قال المفسِّرُ رَحَمَهُ اللَّهُ: [أي: غَيْرِهِ يَدْفَعُ عقابَه عنهم]، وما كان لهم؛ أي: للظَّالمين {مِنْ أَوْلِيَاءَ} (مِنْ) زائدةٌ إعرابًا، وهي للتَّوكيدِ {أَوْلِيَاءَ} يَنْصُرونهم؛ يعني: ليس لهم من يَتَوَلَّاهم وَينْصُرُهم من دونِ اللهِ أي: من عذابِه، و {دُونِ} هنا بمعنى غَيْرُ كما فَسَّرَها المفسِّرُ رَحَمَهُ اللَّهُ؛ لأنَّه لا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يَدْفَعَ عذابَ اللهِ عمَّن أراد اللهُ أن يُعَذِّبَه أبدًا ولا يَنْصُرَه منه، في الدُّنْيا لو أراد ظالمٌ أن يَظْلِمَ أحدًا أَمْكَنَ أن نَدْفَعَه، لكن عقوبةَ اللهِ لا يُمْكِنُ أحدًا أن يَدْفَعَهَا.

وقوله: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ} جملةٌ شرْطِيَّةٌ، وهي كما سبق جوابُها مقرونٌ بالفاءِ؛ لأنَّه اتَّصل بـ(ما) {فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ} قال المفسِّرُ رَحَمَهُ اللَّهُ: [أي: طريقٍ إلى الحقِّ في الدُّنيا وإلى الجنَّةِ في الآخرةِ] بل يكونُ أعمى - والعياذُ باللهِ -، ليس له سبيلٌ إلى الحقِّ؛ ولذلك تجدُ الَّذين قضى اللهُ بإضلالهِم يُقَدَّمُ لهم الحقُّ كالشَّمسِ في رابعةِ النهارِ ولكن لا يفهمونه، قد حِيلَ بينهم وبينه.

واستمعْ إلى قولِ اللهِ تعالى: {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [المطفِّفين: ١٣]، قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {كَلَّا} يعني: ليست أساطيرَ الأولينَ {بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[المطفِّفين: ١٤] الذُّنوبُ جَعَلَتْه يرى الحقَّ باطلًا ويرى الباطلَ حقًّا، تُتْلى عليه آياتُ اللهِ كالقرآنِ أو التَّوراةِ حين لم تُنْسَخْ، ولكنَّه يقولُ: هذه أساطيرُ الأوَّلينَ قد حِيلَ بينه وبين فَهْمِها؛ ولذلك كلَّما رأيْتَ قَلْبَك مطمئنًّا بالقرآنِ محبًّا له متدبرًا له، فاعلمْ أنَّه نَقِيٌّ من الذُّنوبِ، وكلَّما وجدْتَ الأمرَ بالعكْسِ فَطَهِّرِ القَلْبَ.

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧).

{اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ} أَجِيبُوهُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَة {مِنْ قَبْل أَنْ يَأْتِي يَوْم} هُوَ يَوْم الْقِيَامَة {لَا مَرَدّ لَهُ مِنَ الله} أَيْ أَنَّهُ إِذَا أَتَى بِهِ لَا يَرُدّهُ {مَا لَكُمْ مِنْ ملجإ} تلجأون إِلَيْهِ {يَوْمئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِير} إِنْكَار لذنوبكم(١).

---

(١) قوله تعالى: {اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ} [الشورى:٤٧]، أي:"استجيبوا لربكم-أيها الكافرون- بالإيمان والطاعة من قبل أن يأتي يوم القيامة، الذي لا يمكن رده".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره للكافرين به: أجيبوا أيها الناس داعي الله وآمنوا به واتبعوه على ما جاءكم به من عند ربكم {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ} لا شيء يرد مجيئه إذا جاء الله به، وذلك يوم القيامة".

قال ابن كثير:"لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة حَذَّر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: {اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ} أي: إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع".

قوله تعالى: {مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ} [الشورى:٤٧]، أي:"ما لكم من ملجأ يومئذ ينجيكم من العذاب".

قال الطبري: يقول:"ما لكم أيها الناس من معقل تحترزون فيه، وتلجئون إليه، فتعتصمون به من النازل بكم من عذاب الله على كفركم به، كان في الدنيا".

قال الزجاج:"أي: ليس لكم مَخلَصٌ من العَذَابِ".

قال ابن كثير:"أي: ليس لكم حصن تتحصنون فيه".

قال السعدي:"وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه، فيفوت ربه، ويهرب =

=

منه، بل قد أحاطت الملائكة بالخليقة من خلفهم، ونودوا {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ} ".

عن مجاهد، قوله: "{مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ}، قال: من مَحْرَز".

عن السديّ: "{مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ}، تلجئون إليه".

قوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ} [الشورى:٤٧]، أي:"ولا تستطيعون إنكار ما اجترحتموه من السيئات".

قال الطبري: **"**يقول: ولا أنتم تقدرون لما يحلّ بكم من عقابه يومئذ على تغييره، ولا على انتصار منه إذا عاقبكم بما عاقبكم به".

قال الزجاج:"ولا تَقْدِرُون أن تنكروا ما تقفون عليه مِنْ ذُنُوبَكُمْ ولا ما يَنْزِلُ بِكُمْ مِنَ العَذَاب".

قال النحاس: أي:"ولا تنكرون ما وقفتم عليه من أعمالكم".

قال ابن كثير:"ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره، تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه، {يَقُولُ الإنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ. كَلا لا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ} [القيامة: ١٠-١٢]".

قال الشوكاني:"المعنى: ما لكم من إنكار يومئذ، بل تعترفون بذنوبكم".

قال السعدي:"وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه. وهذه الآية ونحوها، فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات".

عن مجاهد، قوله: "{مِنْ نَكِيرٍ}، قال: ناصر ينصركم".

عن السديّ: "{وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ}، يقول: من عز تعتزون".

=

=

وقال العثيمين: قوله تعالى: {اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ} استجاب بمعنى أجاب؛ ولهذا قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أجيبوه بالتَّوحيدِ والعبادةِ] بالتَّوحيدِ ضدَّ الشِّرْكِ، والعبادةِ ضدَّ الإستكبارِ، وهذا واجبٌ على كلِّ مُسْلِمٍ أن يجيبَ اللهَ تبارك وتعالى بالإيمانِ به وتوحيدِهِ وطاعتِه.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ} هو يومُ القيامةِ {لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ} أي: أنَّه إذا أتى به لا يُرَدُّ] {لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ} أي: لا أَحَدَ يَرُدُّه ويَمْنَعُه، وقيل: {لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ} أي: أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لا يَرُدُّهُ إذا أتى به، وكلا المَعْنَيَيْنِ صحيحٌ.

فاللهُ تبارك وتعالى إذا أتى به فقد قضى به فلا يُمْكِنُ أن يَرُدَّه، وكذلك لا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يَرُدَّهُ من دون اللهِ، لا أَحَدَ يَمْنَعُه من اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ ولذلك لو أن أحدًا حاول أن يَرُدَّ يومَ القيامةِ لم يَتَمَكَّنْ {لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ}.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ} تلجؤون إليه يوْمَئذٍ {وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ} إنكارٌ لذنوبكم] {مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ} هذه جملةٌ مبتدأٌ وخبرٌ، قُدِّمَ فيها الخبرُ على المبتدأِ، وأُدْخِلَتْ (من) الزَّائدةُ على المبتدأِ من بابِ التَّوكيدِ؛ يعني: ما لكم أيُّ ملجأٍ من دونِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ والملجأُ بمعنى: المعاذُ أو الملاذُ، الَّذي يلوذُ به الإنسانُ عما نَزَلَ به.

وقولُهُ: {يَوْمَئِذٍ} أيْ: يومَ إذ يأتي ذلك اليومُ {وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ} قال: إنكارٍ لذنوبكم فكأنَّه فَسَّرَ النَّكيرَ بمصدرٍ وهو الإنكارُ، فإن صحَّ ما فسَّره به {وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ} فإنه يُشْكِلُ على هذا قولُ اللهِ تبارك وتعالى: {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣]، وهذا إنكارٌ، فعلى تفسيرِ المفسِّرِ: ما لكم من إنكارٍ لذنوبكم. يحتاجُ أن نَجْمَعَ بينه وبين هذه الآيةِ.

والجوابُ أن نقولَ: الجمعُ بينهما أنَّهم يُنْكِرون أوَّلًا {قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا

=

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨).

{فَإِنْ أَعْرَضُوا} عَنْ الْإِجَابَة {فَمَا أَرْسَلْنَاك عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} تَحْفَظ أَعْمَالهمْ بِأَنْ تُوَافِق الْمَطْلُوب مِنْهُمْ {إنْ} مَا {عَلَيْك إلَّا الْبَلَاغ} وَهَذَا قَبْل الْأَمْر بِالْجِهَادِ {وَإِنَّا إذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَان مِنَّا رَحْمَة} نِعْمَة كَالْغِنَى وَالصِّحَّة {فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ} الضَّمِير لِلْإِنْسَانِ بِاعْتِبَارِ الْجِنْس {سَيِّئَة} بَلَاء {بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} أَيْ قَدَّمُوهُ وَعَبَّرَ بِالْأَيْدِي لِأَنَّ أَكْثَر الْأَفْعَال تُزَاوَل بِهَا {فَإِنَّ الْإِنْسَان كفور} للنعمة[1].

=

مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣]، ظنًّا منهم أنَّهم إذا فعلوا ذلك نَجَوْا كما نجا أهلُ التَّوحيدِ، ثمَّ تَشْهَدُ عليهم ألسنتُهُم وأيديهم وأرْجُلُهم بما كانوا يَكْسِبُون وحينئذٍ يعترفون ويُقِرُّون، فيكونُ الإنكارُ أوَّلًا، ثمَّ الإقرارُ ثانيًا، وتكونُ الآيةُ هذه {وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ} أي: باعتبارِ المآلِ؛ أي: لا يُمْكِنُكُم أن تُنْكِروا.

وقيل: إنَّ نكيرًا بمعنى مُنْكِرٍ، كسميعٍ بمعنى مُسْمِعٍ، والمعنى: لا أَحَدَ يُنْكِرُ ما نَزَلَ بكم ويدفَعُه عنكم، وهذا المعنى أصحُّ وأنسبُ لسياقِ الآيةِ، {مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ} وما لكم من منكرٍ؛ يعني: لا ملجأَ تلجؤون إليه، ولا أحدَ يدافعُ عنكم ويُنْكِرُ ما نزل بكم.

(١) قوله تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا} [الشورى:٤٨]، أي:"إن أعرض هؤلاء المشركون-أيها الرسول- عن الإيمان بالله".

قال الطبري: يقول:"فإن أعرض هؤلاء المشركون يا محمد عما أتيتهم به من الحق، ودعوتهم إليه من الرشد، فلم يستجيبوا لك، وأبوا قبوله منك".

قال ابن كثير:"يعني: المشركين".

=

=

قوله تعالى: {فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [الشورى:٤٨]، أي:"فما أرسلناك عليهم حافظًا لأعمالهم حتى تحاسبهم عليها".

قال الطبري: يقول:"فدعهم، فإنا لن نرسلك إليهم رقيبا عليهم، تحفظ عليهم أعمالهم وتحصيها".

قال ابن كثير:"أي: لست عليهم بمصيطر. وقال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد: ٤٠] ".

قال عطاء: "{وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا}: تمنعهم مني".

قوله تعالى: {إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} [الشورى:٤٨]، أي:"ما عليك إلا البلاغ".

قال الطبري:"يقول: ما عليك يا محمد إلا أن تبلغهم ما أرسلناك به إليهم من الرسالة، فإذا بلغتهم ذلك، فقد قضيت ما عليك".

قال ابن كثير:"أي: إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم".

عن ابن وهب قال:"سألت ابن زيد عن قول الله:"{ما أرسلناك عليهم حفيظًا}، قال: هذا أول ما بعثه، قال: {إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ} [سورة الشورى: ٤٨]. قال: ثم جاء بعد هذا بأمره بجهادهم والغلظة عليهم حتى يسلموا".

قوله تعالى: {وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا} [الشورى:٤٨]، أي:"وإنَّا إذا أعطينا الإنسان منا رحمة مِن غنى وسَعَة في المال وغير ذلك، فَرِح وسُرَّ".

قال الطبري: يقول: "فإنا إذا أغنينا ابن آدم فأعطيناه من عندنا سعة، وذلك هو الرحمة التي ذكرها جلّ ثناؤه، سر بما أعطيناه من الغنى، ورزقناه من السعة وكثرة المال".

قال ابن كثير:"أي: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك".

قال ابن عباس:"يعني: الغِنى، والصِّحَّة".

=

=

عن ابن جريج:" {وَلَئِن أذقنا الإنسان منا رَحْمَة} الْآيَة، قَالَ: يَا ابْن آدم إِذا كَانَت بك نعْمَة من الله من السعَة والأمن والعافية... ".

قوله تعالى: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} [الشورى:٤٨]، أي:"وإن تصبهم مصيبة مِن فقر ومرض وغير ذلك بسبب ما قدمته أيديهم من معاصي الله، فإن الإنسان جحود يعدِّد المصائب، وينسى النعم".

قال الطبري: "يقول: وإن أصابتهم فاقة وفقر وضيق عيش بما أسلفت من معصية الله عقوبة له على معصيته إياه، جحد نعمة الله، وأيس من الخير، فإن الإنسان جحود نعم ربه، يعدد المصائب ويجحد النعم".

قال ابن كثير:" {وَإِنْ تُصِبْهُمْ} يعني: الناس، جدب ونقمة وبلاء وشدة، يجحد ما تقدم من النعمة ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقنط، كما قال رسول الله ﷺ للنساء: «يا معشر النساء، تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة: ولِمَ يا رسول الله؟ قال: «لأنكن تُكثرن الشكاية، وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوما قالت: ما رأيت منك خيرا قط». وهذا حال أكثر الناس إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال رسول الله ﷺ: «إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» ".

وقال العثيمين: ثم قال ﷻ مسلِّيًا النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم-: {فَإِنْ أَعْرَضُوا} يعني عن الإستجابةِ، ولم يستجيبوا، فلا لَوْمَ عليك، {فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [تَحْفَظُ أعمالَهُم بأن توافِقَ المطلوبَ منهم]. فالشرط (إن أَعْرَضوا) وجوابُ الشَّرْطِ: {فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} والمعنى:

=

=

إن أعرضوا فلا لَوْمَ عَلَيْكَ؛ لأنَّك لم تُرْسَلْ عليهم حفيظًا على أعمالهِم ولا مسيطِرًا عليهم، إنما أُرْسِلْتَ للإبلاغ، وقد حَصَلَ {فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} .

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إِنْ} ما] أراد أن يُفَسِّرَ (إِنْ) بمعنى (ما)، و (إِنْ) تأتي نافيةً كما هنا، وتأتي زائدةً، وتأتي شرطيَّةً، وتأتي مخفَّفَةً من الثَّقيلةِ. فهنا جاءت نافيةً، والغالبُ أنَّها تكونُ نافيةً إذا أتى بعدها إثباتٌ مثل {إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ} [فاطر: ٢٣] {إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} [الأعراف: ١٨٨] وما أَشْبَهَ ذلك، هذه تكونُ نافيةً بمعنى (مَا).

وتأتي شرطيَّةً مثل: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ} [البقرة: ٢٨٤].

وتأتي زائدةً كما في قولِ الشَّاعِرِ:

بني غُدانَةَ ما إن أنتم ذهبٌ ... ولا صَرِيفٌ ولكن أنتم الخزفُ

(بني غُدانةَ ما إن أنتم ذهب): هذه (إن) زائدةٌ؛ لأنَّها لو حُذِفَتْ لاستقام الكلامُ، لو قيل: بني غُدانةَ ما أنتم ذهب، استقام الكلامُ فهي زائدةٌ.

وتأتي مخفَّفةً من الثقيلةِ بمعنى: أنْ تكونَ هي بمعنى (إنَّ) ولكن خُفِّفَتْ، وفي هذه الحالِ يكونُ اسمُها ضميرَ الشأنِ محذوفًا، والجملةُ الَّتي بعدها تكونُ خبرًا.

هذه أربعة معانٍ لـ (إِنْ).

{إِنْ} بمعنى (ما) {عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} يعني: ما عليك إلَّا البلاغُ وقد بَلَّغَ البلاغَ المُبِينَ وتَعِبَ في ذلك تعبًا عظيمًا، وأُوذِيَ في ذلك أذًى عظيمًا ومع ذلك فهو صابرٌ مُحْتَسِبٌ؛ لأنَّه -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- يَعْلَمُ أنَّ ما أصابه في ذاتِ اللهِ فهو خيرٌ ورِفْعَةٌ، جاهدَ في اللهِ حقَّ جِهادِه وبلَّغَ الرِّسالةَ غايةَ البلاغِ، وأُوذِيَ على ذلك ولكنَّه صَبَرَ، وكان يقولُ:

هل أنتِ إلا إصبعٌ دَمِيتِ ... وفي سبيلِ اللهِ ما لَقِيتِ

=

=

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهذا قبل الأمْرِ بالجهادِ] إذن فالآيةُ على كلامِ المفسِّرِ منسوخةٌ.

والمفسِّرُ ونحْوُهُ دائمًا إذا أتى بمِثْلِ هذه الآيةِ يقولُ: "هذه منسوخةٌ" وهذا غلطٌ؛ لأنَّ النَّسْخَ ليس بالأمرِ الهَيِّنِ، ادِّعاءُ النَّسْخِ. يعني أنَّ المنسوخَ باطلٌ حكمًا زائلٌ، وهذا صعْبٌ أن تَرْفَعَ حُكْمَ آيةٍ أو حديثٍ لمجرَّدِ وَهْمٍ تَوَهَّمْتَهُ؛ لذلك لا يجوزُ للإنسانِ أن يَسْلُكَ هذا المسْلَكَ المُشِينَ، أنَّه إذا عَجَزَ عن الجمْعِ بين الآياتِ ذهب يقولُ: إنَّها منسوخةٌ.

فالنَّسْخُ يحتاجُ إلى العِلْمِ بتأخُّرِ النَّاسِخِ، ويحتاجُ أيضًا إلى تَعَذُّرِ إمكانِ الجمْعِ، فإن أَمْكَنَ الجَمْعُ فلا نَسْخَ.

فإن قال قائلٌ: هل قولُهُ: {إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} [الشُّورَى: ٤٨]، منسوخٌ؟

فالجوابُ: أبدًا؛ إلى آخِرِ رَمَقٍ من حياةِ النَّبيِّ ﷺ وهو عليه البلاغ، فلم يَنْسَخْ، والبلاغُ لا ينافي أن يَكُونَ معه جهادٌ، ولكن من حِكْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أنَّ اللهَ لم يَفْرِضِ الجِهادَ إلَّا حين قَوِيَتِ الأمَّةُ الإسلاميَّةُ، فلم يَفْرِضِ الجهادَ في مكَّةَ، وإنَّما فَرَضَه في المدينةِ حين صار للأمَّةِ الإسلاميَّةِ دولةٌ مستقلَّةٌ تستطيعُ أن تُجاهِدَ، فهذا من الحِكمةِ، ويعبَّرُ عنه أنَّه من بابِ التدرُّجِ في التَّشريعِ، ومن بابِ الحكمةِ في التَّشريعِ.

إذن نقولُ: إنَّ قوْل المفسِّرِ - عفا اللهُ عنه وغَفَرَ له -: [إنَّ هذا قبل الأمْرِ بالجهادِ] خطأٌ عظيمٌ نقولُ: البلاغُ واجبٌ عليه حتَّى بعد الأمْرِ بالجهادِ، ولا يتنافيان، لا ينافي أن يَكُونَ عليه البلاغُ وأن يَكُونَ مأمورًا بالجهادِ {إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ}.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً} نعمةً؛ كالغنى والصِّحَّةِ {فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ} الضَّميرُ للإنسانِ باعتبارِ الجنْسِ {سَيِّئَةٌ} بلاءٌ {بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}؛ أي: قَدَّمُوه، وعبَّرَ بالأيدي؛ لأنَّ أَكْثَرَ الأفعالِ تُزَاوَلُ بها {فَإِنَّ

=

الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} للنِّعْمَةِ].
قولُهُ: {وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا} معلومٌ أنَّ اللهَ تعالى واحدٌ، فلماذا قال: إنَّا؟
نقولُ: للتَّعظيمِ لإظهارِ العظمةِ والسُّلْطَةِ وقُوَّةِ المُلْكِ {إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً}؛ يعني: أَوْصَلْنَاها إليه، حتَّى كأنَّها طعامٌ ذاقَه لا يشكُّ فيه، وقولُهُ: {مِنَّا}؛ لأنَّ كلَّ نعمةٍ بنا فإنَّها من اللهِ، كما قال ﷻ: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ} [النَّحل: ٥٣].
وقوله: {مِنَّا رَحْمَةً} يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [نعمةٌ كالغنى والصِّحَّةِ] والمثالُ هنا لا يعني الحصْرَ، لكنَّه مثال، الغنى نِعْمَةٌ، الصِّحَّةُ نعمةٌ، الأولادُ نعمةٌ، الأمْنُ نعمةٌ، نِعَمُ اللهِ لا تُحْصى، كما قال اللهُ ﷻ: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النَّحلِ: ١٨]، إذن ما ذكره المفسِّرُ على سبيلِ التَّمثيلِ، والتَّمثيلُ لا يُعطي الحَصْرَ.
وقولُهُ: {فَرِحَ بِهَا} المرادُ بذلك: فَرَحُ البَطَرِ والأَشَرِ لا الفَرَحُ بالنعمةِ مع اعتقادِه أنَّها من عندِ اللهِ، فإنَّ هذا مأمورٌ به أن يَفْرَحَ الإنسانُ بنِعَمِ اللهِ، وفي الحديثِ: "إنَّ اللهَ إذا أَنْعَمَ على عبْدِه نعمةً يُحِبُّ أن يرى أَثَرَ نِعْمَتِه عليه".
ومن آثارِ النِّعمةِ الفَرَحُ؛ فالإنسانُ إذا رزقه اللهُ مالًا فَرِحَ، إذا عافاه اللهُ بعد المرضِ فَرِحَ، إذا تَزَوَّجَ فَرِحَ، إذا وُلِدَ له فَرِحَ، ولكنَّ الفَرَحَ نوعان:
* فَرَحُ أَشَرٍ وبَطَرٍ، فهذا مذمومٌ.
* وفَرَحٌ بنِعمةِ اللهِ تعالى مع التزامِ شريعتِه، فهذا ممدوحٌ ولا بأسَ به.
ولا ينبغي أن يَكُونَ الإنسانُ كالحمارِ لا يَفْرَحُ بنِعمةٍ ولا يتألَّمُ بنِقمةٍ، بل يجبُ أن يَكُونَ الإنسانُ إنسانًا منفعلًا مع الحوادِثِ، يَفرحُ في موضِعِ الفرَحِ، ويغتمُّ في موضِعِ الإغتمامِ.
وقولُه: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ} يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [الضَّميرُ للإنسانِ باعتبارِ

=

الجنسِ] أزال بذلك إشكالًا وهو أن الآيَةَ {وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ} [الشُّورَى: ٤٨]، والإنسانُ واحدٌ، كيف يقولُ: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ} فيُعيدُ الضَّميرَ عليه جمعًا؟ أجاب عنها المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ بأنَّ المرادَ بالإنسانِ الجنسُ، فيشْمَلُ كلَّ إنسانٍ. ويصحُّ أن يقولَ: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ} ضدَّ رَحْمَةٍ؛ ولهذا فَسَّرَها المفسِّرُ بالبلاءِ.

وقوله: {بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} أي: بما قدَّموا من المعاصي، وعبَّرَ بالأيدي؛ لأنَّ أَكْثَرَ الأفعالِ تُزَاوَلُ بها، لو أَنَّك فَكَّرْتَ أَيُّما أَكْثَرُ عملًا الأيدي أم الأرجُلُ؟ الجوابُ: الأيدي، فمشْيُكَ من بيْتِك للمسجِدِ كم خطوةً كم حركةً؟

فيُقالُ: إنَّ حركةَ الرِّجْلِ في جنسٍ واحدٍ، وهو المشْيُ، لكنَّ حركةَ اليدِ ما أَكْثَرَ أنواعَهَا فضلًا عن أفرادِها، فالأعمالُ حقيقةً إنَّما تُزاوَلُ باليدِ؛ لأنَّها أَكْثَرُ من أيِّ عضوٍ في البَدَنِ مزاوَلةً للأعمالِ، حتَّى لو قال قائلٌ: اللِّسانُ أكثرُ من اليدِ، مَن يُحصي كلماتِ اللِّسانِ؟ نُجيبُ عن هذا بما أَجَبْنا عن المشْيِ بأنَّها من جنسٍ واحدٍ، لكنَّ اليدَ تَبْطِشُ، تَضْرِبُ، تكتبُ، تمحو، يعني لا تُحصى أنواعَها؛ فلذلك عُبِّرَ بالأيدي عن النَّفْسِ.

ومن ذلك قولُهُ تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا} [يس: ٧١] {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا} المرادُ: مما عَمِلْنا، لكنَّ اللغةَ العربيَّةَ واسعةٌ تُعَبِّرُ بالأيدي عن النَّفْسِ، ومن ثَمَّ نَعْلَمُ أنَّه لا سَواءٌ بين خَلْقِ آدمَ بِيَدِ اللهِ وبين عَمَلِ أيدي اللهِ سبحانه وتعالى في الإِبِلِ ونحْوِها.

قولُهُ: {فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} أعاد الإفْرادَ بَعْدَ أن جاء الجمْعُ {وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ} هذا ابتداءٌ بالمُفْرَدِ، {فَإِنَّ الْإِنْسَانَ} خَتَمَها بالمفْرَدِ، من أجْلِ أن يَشْمَلَ الإنسانَ مجتمِعًا أو منفرِدًا، فهذه حالُهُ.

ولكنْ مَن المرادُ بالإنسانِ هنا؟ الظَّاهرُ - واللهُ أَعْلَمُ - أنَّ المرادَ بذلك الكافرُ؛ لأنَّه هو الَّذي يَنْطَبِقُ عليه فَرَحُ البَطَرِ والأَشَرِ، والكُفْرِ إذا أُصيبَ بسوءٍ.

=

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩).

{لِلَّهِ مُلْك السَّمَاوَات وَالْأَرْض يَخْلُق مَا يَشَاء يهب لمن يشاء} من الأولاد {إناث ويهب لمن يشاء الذكور}.

أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠).

{أَوْ يُزَوِّجهُمْ} أَيْ يَجْعَلهُمْ {ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَل مَنْ يَشَاء عَقِيمًا} فَلَا يَلِد وَلَا يُولَد لَهُ {إِنَّهُ عَلِيم} بِمَا يَخْلُق {قَدِير} عَلَى ما يشاء[1].

=

وقولُهُ: {فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} هذه ليست صِفَةَ مُبالَغَةٍ، هذه صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ يعني يكونُ من صفتِه الكُفْرُ.

(١) قوله تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الشورى: ٤٩]، أي:"لله سبحانه وتعالى ملك السموات والأرض وما فيهما".

قال الطبري: يقول:"لله سلطان السموات السبع والأرضين، يفعل في سلطانه ما يشاء".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع".

عن ابن عباس:"قال جبريل عليه السلام: يا محمد الله الخلق كله، والسموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم".

وروي عن عثمان بن سعيد مثله.

قوله تعالى: {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} [الشورى: ٤٩]، أي:"يخلق ما يشاء من الخلق".

قال الطبري:"ويخلق ما يحبّ خلقَه".

=

=

عَنْ محمد بْن إِسْحَاق قوله: "{يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} أي " يصنع مَا أراد، ويخلق مَا يشاء من بشر أَوْ غير بشر".

قوله تعالى: {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ} [الشورى: ٤٩]، أي:"يهب لمن يشاء من عباده إناثًا لا ذكور معهن، ويهب لمن يشاء الذكور لا إناث معهم".

قال الطبري:"يهب لمن يشاء من خلقه من الولد الإناث دون الذكور، بأن يجعل كل ما حملت زوجته من حمل منه أنثى، ويهب لمن يشاء منهم الذكور، بأن يجعل كل حمل حملته امرأته ذكرا لا أنثى فيهم".

قال ابن كثير:"{يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا}، أي:: يرزقه البنات فقط، {وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ}، أي: يرزقه البنين فقط".

قال البغوي: "{يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا}،فلا يكون له ولد ذكر، ومنهم: لوط-عليه السلام-، {وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ} فلا يكون له أنثى، كإبراهيم الخليل-عليه السلام- لم يولد له أنثى".

عن السدي: "{يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ} ليست معهم إناث".

عن الضحاك: قوله:"{يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ} ليس فيهم أنثى".

عن واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذّكر، وذلك إنّ الله تعالى يقول: {يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثـاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُور}، ألا ترى إنّه بدأ بالإناث قبل الذّكور».

قال ابن عطية:"وبدئ في هذه الآية بذكر الإناث تأنيسا بهن وتشريفا لهن ليتهمم بصونهن والإحسان إليهن، وقال النبي عليه السلام: «من ابتلي من هذه البنات بشيء

=

=

فأحسن إليهن كن له حجابا من النار» ".

قوله تعالى: {أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا} [الشورى: ٥٠]، أي:"ويعطي سبحانه وتعالى لمن يشاء من الناس الذكر والأنثى".

قال ابن كثير:"أي: ويعطي من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى، أي: من هذا وهذا".

قال البغوي: «كمحمد، عليه الصلاة والسلام»

عن السدي: "{أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا}، قال: يهب لهم إناثا وذكرانا".

قال الضحاك:"تلد المرأة ذكرا مرّة وأنثى مرّة".

قال ابن زيد:"أو يجعل في الواحد ذكرا وأنثى توأما".

عن مجاهد: "{أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا}، قال: يخلط بينهم، يقول: التزويج: أن تلد المرأة غلاما، ثم تلد جارية، ثم تلد غلاما، ثم تلد جارية".

قوله تعالى: {وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا} [الشورى: ٥٠]، أي:"ويجعل مَن يشاء عقيمًا لا يولد له".

قال البغوي:"فلا يلد ولا يولد له، كيحيى وعيسى، عليهما السلام".

قال ابن كثير:"أي: لا يولد له، فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيما لا نسل له ولا يولد له".

عن الضحاك والسدي: "{وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا}، لا يُولَد له".

عن ابن عباس، قوله: "{وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا}، يقول: لا يُلْقِح".

قال ابن زيد:"لا يلد واحدا ولا اثنين".

عن قتادة، قوله: "{يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ}، قادر والله ربنا على ذلك أن يهب للرجل ذكورا ليست معهم أنثى، وأن يهب للرجل ذكرانا

=

=

وإناثا، فيجمعهم له جميعا، {وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا}، لا يولد له".

عن إسحاق بن بشر، في قول الله تعالى: {يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً}، قال: "نزلت في الأنبياء -عليهم السلام- ثم عمت، {يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً}، يعني: لوطا -عليه السلام- لم يولد له ذكر إنما ولد له ابنتان. {وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ}، ويعني: إبراهيم -عليه السلام- لم يولد له أنثى، {أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً}، يعني: النبي صلى الله عليه وسلم ولد له بنون وبنات، {وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً}، يعني: يحيى وعيسى -عليهم السلام-".

قوله تعالى: {إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [الشورى: ٥٠]، أي:"إنه عليم بما يَخْلُق، قدير على خَلْق ما يشاء، لا يعجزه شيء أراد خلقه".

قال الطبري: يقول:"إن الله ذو علم بما يخلق، وقدرة على خلق ما يشاء لا يعزب عنه علم شيء من خلقه، ولا يعجزه شيء أراد خلقه".

قال ابن عطية:"هذا كله مدبر بالعلم والقدرة، وهذه الآية تقضي بفساد وجود الخنثى المشكل".

قال ابن كثير:"{قَدِيرٌ} أي: على من يشاء، من تفاوت الناس في ذلك. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى: {وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ} [مريم: ٢١] أي: دلالة لهم على قدرته، تعالى وتقدس، حيث خلق الخلق على أربعة أقسام، فآدم، عليه السلام، مخلوق من تراب لا من ذكر ولا أنثى، وحواء عليها السلام، مخلوقة من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام من ذكر وأنثى، وعيسى، عليه السلام، من أنثى بلا ذكر فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم، عليهما السلام؛ ولهذا قال: {وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ}، فهذا المقام في الآباء، والمقام الأول في الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير".

=

=

وقال العثيمين: قوله تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} الجملةُ خبريَّةٌ خَبَرُها مُقَدَّمٌ يُرادُ به الحصْرُ؛ لأنَّ القاعدةَ البلاغيَّةَ أنَّ تقديمَ ما حقُّهُ التَّأخيرُ يدلُّ على الحصْرِ والإختصاصِ، إذن {لِلَّهِ} لا لغيرِهِ {مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}؛ أي: خَلْقًا وتدبيرًا، فاللهُ تعالى مالكُ السَّمواتِ والأرضِ خَلْقًا وتدبيرًا؛ ولهذا قال: {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} وقولُهُ: {يَخلُقُ مَا يَشَاءُ} (ما) هذه موصولةٌ، ويُعَبَّرُ عنها غالبًا لما لا يَعْقِلُ، وكان التَّعبيرُ بـ (ما) ليعُمَّ الأعيانَ والأوصافَ؛ لأنَّه إذا قُصِدَتِ الأوصافُ عُبِّرَ بـ (ما) ولو كان لعاقلٍ.

انظرْ إلى قولِ اللهِ تعالى: {مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ} [النِّساءِ: ٣]، ولم يَقُلْ: مَن طاب، مع أنَّ النِّساءَ من العقلاءِ، لكن لما كانت المرأةُ إنما تُنْكَحُ من أجْلِ صفاتِها لا لعَيْنِها قال: {فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ}.

وهنا {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} نَقُولُ: عَبَّرَ بـ (ما)؛ لأنَّ المقصودَ بذلك الأعيانُ والأوصافُ، أمَّا الأعيانُ فلو سُئِلْنَا أيُّهما أكثرُ العاقلُ أو غيرُ العاقِلِ؟

فالجوابُ: على الأرضِ غيرُ العاقلِ، لكن في السَّماءِ لا، فالسَّماءُ أَوْسَعُ من الأرضِ، وما فيها موضعُ أرْبعِ أصابعَ إلَّا وفيه مَلَكٌ، فيكونُ العاقلُ باعتبارِ الجميعِ أكْثَرَ، لكن باعتبارِ ما في الأرضِ غيرِ العاقِلِ، كذلك أيضًا إذا اعتبرْنا الأوصافَ فالأوصافُ تَشْمَلُ العُقلاءَ وغيرَهُم؛ فلهذا عَبَّرَ بـ (ما).

{يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}؛ أي: يوجِدُه بَعْدَ العدَمِ، ولكنَّ الخَلْقَ ليس مُجَرَّدَ إيجادٍ، بل هو خَلْقٌ عن تقديرٍ {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ} هذا من جُمْلَةِ خَلْقِهِ أيضًا.

وقوله: {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا} الهِبَةُ هي التَّبرُّعُ بالشَّيْءِ مجانًا، وَوَصَفَ اللهُ تعالى الأولادَ بالهِبَةِ؛ لأنَّه لا طاقَةَ للإنسانِ في إيجادِهِم بل هو مجُرَّدُ فَضْلٍ من اللهِ ﷻ {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ} من الأولادِ إناثًا] قولُهُ: [من الأولادِ]

=

=

كيف تتلاءَمُ مع قولِهِ: [إناثًا]؟

الجوابُ: لأنَّ الأولادَ في اللغةِ العربيَّةِ تَشْمَلُ الذَّكَرَ والأنثى، كما في قولِهِ تعالى: {يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} [النِّساءِ: ١١].

وقوله: {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ} [الشُّورَى: ٤٩]، ولم يَقُلْ: ذكورًا، بل أتى بـ (أل) المعرفةِ الدَّالَّةِ على شرفِ مَدْلُولِها، فإنَّ الذُّكُورَ عند النَّاسِ أَشْرَفُ من الإناثِ، ولكن مع هذا جَبَرَ نَقْصَهُنَّ بتقديمِ ذِكْرِهِنَّ على الذكورِ، أو يقالُ: إنَّ اللهَ قَدَّمَ الإناثَ؛ لأنَّ إرادةَ الإنسانِ أن يَكُونَ أولادُهُ ذكورًا، فقدَّمَ الإناثَ إشارةً إلى أنَّ الأمْرَ إلى اللهِ وَحْدَهُ لا إلى ما يريدُ الإنسانُ ويهواه.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ} أي: يَجْعَلُهم] والصَّوابُ: يُصَنِّفُهم؛ لأنَّ التَّزويجَ بمعنى التَّصنيفِ، كما قال اللهُ تعالى: {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} [ص: ٥٨]؛ أي: أصنافٌ، فمعنى {يُزَوِّجُهُمْ}: أي: يُصَنِّفُهُم فَيَجْعَلُهُم صِنْفَيْنِ {ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا}.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا} فلا يَلِدُ ولا يُولَدُ له] فلا يَلِدُ باعتبارِ الأنثى، ولا يُولَدُ له باعتبارِ الذَّكَرِ.

فهذه أربعةُ أصنافٍ:

الأَوَّلُ: أن يَهَبَ لمن يشاءُ إناثًا.

الثَّاني: أن يَهَبَ ذكورًا.

الثَّالثُ: أن يَهَبَ ذكورًا وإناثًا.

الرَّابعُ: أن يَجْعَلَ الإنسانَ عقيمًا لا ذكورَ ولا إناثَ.

ذلك لأنَّ الأمْرَ أَمْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ولا أَحَدَ يستطيعُ أن يَخْلُقَ شيئًا من هذا بل اللهُ وَحْدَهُ هو الخالقُ.

فإن قال قائلٌ: وَرَدَ الحديثُ الَّذي فيه فضيلةُ تربيةِ البناتِ والصَّبْرِ على ذلك؛ فهل

=

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١).

{وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمهُ الله إِلَّا} أَنْ يُوحِي إِلَيْهِ {وَحْيًا} فِي الْمَنَام أَوْ بِإِلْهَامٍ {أَوْ} إِلَّا {مِنْ وَرَاء حِجَاب} بِأَنْ يُسْمِعهُ كَلَامه وَلَا يَرَاهُ كَمَا وَقَعَ لِمُوسَى عليه السلام {أَوْ} إِلَّا أَنْ {يُرْسِل رَسُولًا} مَلَكًا كَجِبْرِيل {فَيُوحِي} الرَّسُول إِلَى الْمُرْسَل إِلَيْهِ أَيْ يُكَلِّمهُ {بِإِذْنِهِ} أَيْ الله {مَا يَشَاء} الله {إِنَّهُ عَلِيّ} عَنْ صِفَات الْمُحْدَثِينَ {حَكِيم} في صنعه(١).

=

هذا الفضْلُ يَثْبُتُ للأُمِّ أيضًا أو أَنَّه خاصٌّ للأبِ؟

فالجوابُ: الظَّاهرُ أَنَّه يَثْبُتُ للجميعِ، ورد في الحديثِ للنَّسائِيِّ "أنَّ المرأةَ إذا مات لها ثلاثةٌ من الولدِ كان لها سِتْرًا من النارِ"، وأمَّا مسألةُ التَّربيةِ فلأنَّ الأبَ هو المسؤولُ عن تربيةِ الأولادِ، فيكونُ خاصًّا بالآباءِ.

وقوله: {إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} فهو: {عَلِيمٌ} بما يَخْلُقُ {قَدِيرٌ} على ما يَخْلُقُ، فهو يَعْلَمُ ما يَخْلُقُ عز وجل وقديرٌ على أن يَخْلُقُ ما أراد.

(١) قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا} [الشورى:٥١]، أي:"وما ينبغي لبشر من بني آدم أن يكلمه الله إلا وحيًا يوحيه الله إليه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وما ينبغي لبشر من بني آدم أن يكلمه ربه إلا وحيا يوحي الله إليه كيف شاء، أو إلهاما وإما غيره".

قال مقاتل:"يقول ليس لنبي من الأنبياء أن يكلمه الله {إلا وحيا} فيسمع الصوت فيفقه".

عن السدي، قوله: "{وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا}، قال: يوحي إليه".

قال البغوي:"يوحي إليه في المنام أو بالإلهام".

=

=

قال ابن الجوزي:"والمراد بالوحي-هاهنا-: الوحي في المنام".
قال ابن كثير:"هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله، ﷻ، وهو أنه تعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئا لا يتمارى فيه أنه من الله ﷻ، كما جاء في صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن رُوح القُدُس نفث في رُوعي: أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» ".

قال ابن عطية:"نزلت بسبب خوض كان للكفار في معنى تكليم الله موسى ونحو ذلك، ذهبت قريش واليهود في ذلك إلى تجسيم ونحوه، فنزلت الآية مبينة صورة تكليم الله عباده كيف هو، فبين الله أنه لا يكون لأحد من الأنبياء ولا ينبغي له ولا يمكن فيه أن يكلمه الله إلا بأن يوحي إليه أحد وجوه الوحي من الإلهام".
عن مسروق قال: «بينا أنا عند عائشة أم المؤمنين فقالت: يا أبا عائشة! من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، وتلت: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)} [الأنعام: ١٠٣]، {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} [الشورى:٥١] ".
وفي قوله تعالى: {وَحْيًا} [الشورى:٥١]، وجهان:
أحدهما: أنه نفث ينفث في قلبه فيكون إلهاماً، قاله مجاهد.
الثاني: رؤيا يراها في منامه، قاله زهير بن محمد.
وقال النقاش: أو وحي في منام".
قال إبراهيم النخعي: "كان من الأنبياء من يخط له في الأرض".
قوله تعالى: {أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} [الشورى:٥١]، أي:"أو يكلمه من وراء حجاب".
قال الطبري:"يقول: أو يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه، كما كلم موسى نبيه

=

=

ﷺ".

قال البغوي:"يسمعه كلامه ولا يراه، كما كلمه موسى -عليه الصلاة والسلام-".

قال مقاتل:"كما كان بينه وبين موسى".

قال ابن عطية:"أي: من خفاء عن المتكلم لا يحده ولا يتصور بذهنه عليه، وليس كالحجاب في الشاهد".

قال ابن كثير:"كما كلم موسى، عليه السلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحا» الحديث، وكان أبوه قد قتل يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا".

عن السدي، قوله:"{أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}، قال: موسى كلمه الله من وراء حجاب".

قوله تعالى: {أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ} [الشورى:٥١]، أي:"أو يرسل رسولا كما ينزل جبريل عليه السلام إلى المرسل إليه، فيوحي بإذن ربه -لا بمجرد هواه- ما يشاء الله إيحاءه".

قال الطبري:"يقول: أو يرسل الله من ملائكته رسولا إما جبرائيل، وإما غيره، فيوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن ربه ما يشاء ربه أن يوحيه إليه من أمر ونهي، وغير ذلك من الرسالة والوحي".

قال ابن عطية:"أي: من خفاء عن المتكلم لا يحده ولا يتصور بذهنه عليه، وليس كالحجاب في الشاهد".

قال البغوي:"أو بأن يرسل إليه ملكا يشافهه بوحي الله تعالى".

قال ابن كثير:"كما ينزل جبريل -عليه السلام- وغيره من الملائكة على الأنبياء، عليهم السلام".

=

=

عن السدي، قوله:"{أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ}، قال: جبرائيل يأتي بالوحي".

قال مقاتل:"ومن الأنبياء من يسمع الصوت فيفقه، ومن الأنبياء من يوحى إليه في المنام، وإن جبريل ليأتي النبي ﷺ كما يأتي الرجل صاحبه في ثياب البياض مكفوفة بالدر والياقوت ورجلاه مغموستان في الخضرة".

وقرأ نافع: «فَيُوحِي» بإرسال الياء، بمعنى الرفع عطفا به على {يُرْسِلَ}، وبرفع «يُرْسِلُ»، على الابتداء.

قوله تعالى: {إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الشورى:٥١]، أي:"إنه تعالى عليٌّ بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، قد قهر كل شيء ودانت له المخلوقات، حكيم في تدبير أمور خلقه".

قال الطبري: يقول:"إنه-يعني نفسه جلّ ثناؤه-: ذو علو على كل شيء وارتفاع عليه، واقتدار. حكيم: يقول: ذو حكمة في تدبيره خلقه".

قال مقاتل:"{إِنَّهُ عَلِيٌّ}، يعني: رفيع فوق خلقه، {حَكِيمٌ} في أمره".

قال الزمخشري:"{إِنَّهُ عَلِيٌّ} عن صفات المخلوقين، {حَكِيمٌ}، يجرى أفعاله على موجب الحكمة، فيكلم تارة بواسطة، وأخرى بغير واسطة: إما إلهاما، وإما خطابا".

قال ابن كثير:"فهو علي عليم خبير حكيم".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا} (ما كان) هذه الصِّيغةُ في القرآنِ الكريمِ تدلُّ على أنَّ الشَّيءَ مُمْتَنِعٌ غايةَ الإمتناعِ إمَّا قَدَرًا وإما شَرْعًا، قال اللهُ تعالى: {مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ} [مريمَ: ٣٥]، يعني: مُمْتَنِعٌ غايةَ الإمتناعِ، وقال تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} [التَّوبةِ: ١١٣] مُمْتَنِعٌ غايةَ الإمتناعِ شَرْعًا؛ لأنَّه يجوزُ أن يستغفروا، لكنَّه حرامٌ

=

=

عليهم.

وقوله: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ} هذا ممتنعٌ قَدَرًا يعني: حَسَبَ خَبَرِ اللهِ ﷻ وإلَّا فاللهُ قادرٌ على أن يُكَلمَ على غَيْرِ هـذا الوجْهِ، حَسَبَ خبر اللهِ يكونُ مُمْتنِعًا {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا} [الشُّورَى: ٥١] {لِبَشَرٍ} البشرُ هـم الآدمِيُّونَ سُمُّوا بشرًا؛ لأنَّ بَشَرَتَهُم باديةٌ إلَّا أن يستتروا غيْرَ الآدميِّ من الحيواناتِ مستورٌ، إمَّا بالريشِ وإمَّا بالصوفِ وإمَّا بالوَبَرِ وإمَّا بالشَّعْرِ.

إمَّا بالرِّيشِ مثْلَ: الطيرِ، وإمَّا بالشَّعْرِ مثْلَ: المَعْزِ، وإمَّا بالصُّوفِ كالضَّأْنِ، وإمَّا بالوَبَرِ كالإِبِلِ. الآدميُّ لم تُسْتَرْ بَشَرَتُه؛ والحكمةُ من ذلك أنَّه إذا شَعَرَ الإنسانُ بافتقارِه إلى الكسوةِ الحِسِّيَّةِ انتقل من هذا إلى افتقارِه إلى الكسوةِ المعنويَّةِ، انظر الحكمةَ من اللهِ ﷻ حتَّى يَعْرِفَ الإنسانُ أَنَّه محتاجٌ إلى سَتْرِ العورةِ المعنويَّةِ كما احتاجَ إلى سَتْرِ العورةِ الحسِّيَّةِ، وإلى هذا يشيرُ قولُ اللهِ تبارك وتعالى: {يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ} [الأعرافِ: ٢٦]، اللِّباسَ العاديَّ {وَرِيشًا} [الأعرافِ: ٢٦]، اللِّباسَ الجميلَ الَّذي يَتَزَيَّنُ به المرءُ، ثم قال: {وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ} [الأعرافِ: ٢٦]، لباسُ التَّقْوى هذا اللِّباسُ معنويٌّ، وقيل: إنَّ الآدميَّ سُمِّيَ بَشَرًا؛ لظهورِ أَثَرِ ما في قَلْبِه على بَشَرَتِه، إذا غَضِبَ الإنسانُ يَظْهَرُ أثرُ الغضبِ على بَشَرَتِه يَحْمَرُّ وَجْهُه وعيناه، وتَنْتَفِخُ أوداجُه ويقفُ شَعْرُه، وإذا بُشِّرَ بما يَسُرُّه يَتَهَلَّلُ وَجْهُه وتَجِدُ فيه البُشْرى، والظَّاهرُ - واللهُ أعلمُ - أنَّ المعنى الأوَّلَ أقوى، أنَّه سُمِّيَ بشرًا لظهورِ بَشَرَتِه إلَّا بساترٍ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا} إلَّا أن يُوحِيَ إليه وحيًا في المنامِ أو بإلهامٍ] هذا واحدٌ {أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}؛ يعني: يُكَلِّمُه مباشَرَةً غَيْرَ الوحْيِ الَّذي في القلبِ من وراءِ حجابٍ كما حَصَلَ لموسى عليه الصلاة والسلام وحَصَلَ لمُحَمَّدٍ عليه الصلاة والسلام ليلةَ المعراجِ، فإنَّ اللهَ كَلَّمَه من وراءِ حجابٍ، فما

=

=

هو الحجابُ الَّذي يَحْتَجِبُ اللهُ به؟

قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ: "حجابُهُ النُّورُ لو كَشَفَه لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِه ما انتهى إليه بَصَرُه مِن خَلْقِه"، هذا النُّورُ نورٌ عظيمٌ جدًّا لا يَتَصَوَّرُه أحدٌ، هذا هو الَّذي احْتَجَبَ اللهُ به عن الخَلْقِ- تعالى اللهُ- فإذا كان هذا النُّورُ من قُوَّتِه يُحْجَبُ فما بالُكَ بنورِ اللهِ ﷻ هو أَعْظَمُ وأَعْظَمُ، قال اللهُ تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النُّورِ: ٣٥] ولا يَتَصَوَّرُ أحدٌ ذلك أبدًا، وإنَّما يُكَلِّمُ اللهُ تعالى عبادَه من وراءِ حجابٍ؛ لأنَّه لو كَشَفَ الحجابَ لَهَلَكَ الإنسانُ ولم يستطعْ أن يَثْبُتَ أمام رؤيةِ اللهِ ﷻ.

ولمَّا قال موسى عليه الصلاة والسلام: {رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ} [الأعرافِ: ١٤٣] قال هذا شوقًا إلى اللهِ ﷻ لا شكًّا قال ذلك شوقًا إلى اللهِ قال اللهُ له: {لَنْ تَرَانِي} يعني: لا يُمْكِنُ أن تراني {وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ} الجبلِ الأصَمِّ الصُّلْبِ {فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ} هو تَجَلَّى لَمْ يَظْهَرْ كُلُّه، تَجَلَّى للجبلِ {جَعَلَهُ دَكًّا} [الأعرافِ: ١٤٣] انْدَكَّ الجبلُ مرةً واحدةً وساوى الأرضَ، أما موسى عليه الصلاة والسلام فلمَّا رأى هذا صَعِقَ- غُشِيَ عَلَيْهِ- من هَوْلِ ما رأى، فهل الآدميُّ الضعيفُ يَثْبُتُ لرؤيةِ اللهِ والجبلُ لم يَثْبُتْ؟ لا واللهِ، ولهذا انْدَهَشَ موسى وصَعِقَ وعَلِمَ أنَّه لا يُمْكِنُ أن يرى اللهَ ﷻ.

تنبيه: ذَكَرْنا أنَّه {تَجَلَّى} أي: بعْضُه ﷻ على أنِّي في قلقٍ من هذا، من كَوْنِ المرادِ بَعْضَه؛ لأنَّ الأَصْلَ أنَّه كُلُّه، لكن قد يقالُ: إنَّه يَمْنَعُ من هذا أنَّ اللهَ تعالى يعني: لا يحيطُ به شيءٌ من مخلوقاتِه، فلا يُمْكِنُ أن يتجلَّى كلُّه والأرضُ ما هي ليستْ بالنِّسبةِ إليه شيءٌ.

فإن قال قائلٌ: هل معنى هذا أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى سوف يَرْزُقُنا يومَ القيامةِ قُوَّةً في أبصارِنا حتَّى نَنْظُرَ إليه؟

=

=

فالجوابُ: أي نعم، قوةُ النَّاسِ يومَ القيامةِ لا تُنْسَبُ إليها قوةُ الدُّنْيا أبدًا، أليس يَمْكُثون خمسين ألْفَ سنةٍ لا يأكلون ولا يَشْرَبُون، هذا لا يُمْكِنُ أن يُطاقَ في الدُّنْيا، أليس الواحدُ يَنْظُرُ إلى مُلْكِهِ في الجنَّةِ مسيرةَ ألفيْ سَنَةٍ يرى أقصاه كما يرى أدناه؟ هذا لا يُمْكِنُ في البشرِ في الدُّنْيا.

مسألة: هل كَلَّمَ اللهُ أحدًا غَيْرَ موسى؟

الجوابُ: أيْ نَعَم، كَلَّمَ النَّبيَّ ﷺ، وكَلَّمَ آدمَ عليه الصلاة والسلام، لكنَّ موسى عليه الصلاة والسلام سُمِّيَ الكَلِيمَ؛ لأنَّه أوَّلُ ما أوحى اللهُ إليه كَلَّمَه وغَيْرُهُ أوحى اللهُ إليه بواسطةِ الخَلْق أوَّلًا ثمَّ بالشَّرعِ؛ وذلك لأنَّ الشَّرع يختصُّ بالأنبياءِ الشَّرْعُ المذكورُ هنا الوحيُ الخاصُّ بالأنبياءِ، هذا السَّببُ أنَّه خاصٌّ بالأنبياءِ.

وهل كلُّ من كَلَّمَه اللهُ تبارك وتعالى يكونُ نبيًّا؟

الجوابُ: نعم إذا كَلَّمَه اللهُ بشرعٍ كان نبيًّا، وإن كَلَّمَه بغيْرِ ذلك فقد يكونُ شيطانًا، أليس اللهُ تعالى خاطَبَ الشَّيطانَ قال: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥].

فإن قال قائلٌ: ما الحكمةُ في ذِكْرِ الخَلْقِ بعد الشَّرْعِ في الآياتِ؟

فالجوابُ: أقولُ: مما يدلُّ على أنَّ الإهتمامَ بالشَّرْعِ أَبْلَغُ والناسَ ما خُلِقُوا إلَّا للشَّرْعِ ما خُلِقَ النَّاسُ إلَّا للشَّرْعِ قال اللهُ تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذَّارياتِ: ٥٦].

قولُهُ: {إِلَّا وَحْيًا} الوحْيُ هو ما يَحْصُلُ للرسولِ من الإلهامِ أو الرؤيةِ المناميَّةِ؛ لأنَّ أَصْلَ الوحيِ الإعلامُ بسرعةٍ وخفاءٍ، هذا أَصْلُه في اللُّغةِ، فيكونُ {إِلَّا وَحْيًا}؛ أي: عن طريقِ الإلهام- وبيانُ الإلهامِ إما أن اللهَ يُوقِعُ في قَلْبِه، مِثْلَ قولِ الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام: "إنَّه أُوحِيَ أنَّه قد أُلْقِيَ في رَوْعِي أنَّه لن تَمُوتَ نَفْسٌ حتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَها وأَجَلَها"-؛ أو طريقِ المنامِ، أو من وراءِ حجابٍ يعني: يُكَلِّمُهُ اللهُ

=

=

تعالى مُكَالمةً صريحةً ولكن من وراءِ حجابٍ، والحجابُ المذكورُ هو النُّورُ كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ: "حجابُهُ النُّورُ لو كَشَفَه لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِه ما انتهى إليه بَصَرُه من خَلْقِه"؛ وذلك لأنَّ البَشَرَ لا يستطيعُ رؤيةَ اللهِ ﷻ في الدُّنيا.

وبعضُ المفَسِّرين قالوا: مُنَوِّرُ السَّمواتِ والأرضِ؛ لكنَّه خلافُ ظاهِرِ الآيةِ فيقالُ: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النُّورِ: ٣٥]، وليس هو النُّورَ المخلوقَ بل هو ﷻ نورٌ وكلامُهُ نورٌ وحجابُهُ نورٌ.

قال موسى لربِّه ﷻ: {رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ} قال ذلك شوقًا ومحبَّةً، فقال اللهُ تعالى: {لَنْ تَرَانِي} أي: لن تستطيعَ ذلك {وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ} فنظر موسى إلى الجبلِ، فلما تَجَلَّى اللهُ له جَعَلَه دكًّا انْدَكَّ حتَّى ساوى الأَرْضَ، فلمَّا رأى موسى هذا خَرَّ صَعِقًا؛ أي: غُشِيَ عليه من هَوْلِ ما وَجَدَ وعَدَمِ تَحَمُّلِه {فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [الأعرافِ: ١٤٣]، فإذن إذا أرادَ اللهُ أن يُكَلِّمَ أحدًا من الرسُلِ فلا بدَّ أن يَكُونَ هناك حِجابٌ.

القِسْمُ الثَّالثُ: {أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ} [الشُّورَى: ٥١] وهو جبريلُ يُرْسِلُه إلى المُرْسَلِ إليه فيوحِي إلى هذا الرَّسولِ بإذنِ اللهِ تعالى ما يشاءُ، وإنَّما خَصَّصْناه بجبريلَ؛ لأنَّ جبريلَ موكَّلٌ بالوحْيِ وقد كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ يَسْتَفْتِحُ في صلاةِ اللَّيلِ بهذا الإستفتاحِ: "اللهمَّ رَبَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السَّمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغيْبِ والشَّهادةِ، أنت تَحْكُمُ بين عبادِكَ فيما كانوا فيه يختلفون، اهْدِني لما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بِإِذْنِكَ، إنَّك تَهْدِي من تشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ"، هؤلاء الثَّلاثةُ كُلُّ واحدٍ منهم مُوَكَّلٌ بما فيه الحياةُ، جبريلُ بما فيه حياةُ القلوبِ، إسرافيلُ بما فيه حياةُ النَّاسِ للبعْثِ، ميكائيلُ بما فيه حياةُ الأرضِ الَّذي به يحيا البهائمُ والإنسانُ.

=

=

وقوله: {فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ} {بِإِذْنِهِ} أي: إِذْنِه القَدَرِيِّ {مَا يَشَاءُ} أي: مِمَّا أوحاه اللهُ إلى هذا الرَّسولِ الَّذي بَعَثَه إلى الرَّسولِ البشريِّ.

وقوله: {إِنَّهُ عَلِيٌّ} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عن صفاتِ المُحْدَثِين] هذا التفسيرُ تَفْسِيرٌ غلطٌ؛ لأنَّه يُوهِمُ أنَّ كلَّ صفةٍ للمخلوقِ لا تَثْبُتُ للخالِقِ، فالسَّمْعُ لا يَثْبُتُ للخالِقِ! والبصَرُ وكلُّ صفةٍ للمخلوقِ لا تَثْبُتُ للخالِقِ! ! ولذلك لو قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّه عليٌّ عن صفاتٍ عن مماثَلَةِ المخلوقين وصفاتِ النَّقصِ لو قال هذا لكان أَهْوَنَ، مع أنَّنا نقولُ: إنَّه عليٌّ بذاتِهِ وصفاتِهِ فذاتُهُ فوق كلِّ شيءٍ وصفاتُهُ هي المَثَلُ الأعلى، هذا هو الصَّوابُ.

لكن المفَسِّرَ- عفا اللهُ عنه- يُفَسِّرُ القرآنَ على طريقِ الأشاعرةِ؛ لأنَّه منهم؛ فلذلك يُحَرِّفُ الكَلِمَ عن مواضِعِهِ لِيُوَافِقَ مَذْهَبَهُ الباطِلَ وهذه آفةٌ قلَّ مَن يَسْلَمُ منها من أهْلِ العِلْمِ. تجدُ الرَّجُلَ يعتقدُ شيئًا ما في العقيدةِ أو في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ التَّكليفيَّةِ ثم يحاولُ في النُّصوصِ الَّتي تخالفُ ما ذهب إليه أن يَلْوِيَ أعناقَهَا إلى ما ذَهَبَ إليه فيجعلَ النُّصوصَ تابعةً، والواجبُ أن تكونَ متبوعةً، لكنَّ هذه آفةٌ ابتُلِيَ بها كثيرٌ من النَّاسِ.

وإنما نحن نقولُ: {عَلِيٌّ} يعني: بذاتِهِ وصفاتِهِ عن كلِّ نقْصٍ، أمَّا عن صفاتِ المُحْدَثِين؛ فهذا من الغرائبُ.

وقول المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [: {حَكِيمٌ} في صُنْعِه] هذا أيضًا ناقصٌ، بل هو حكيمٌ في صُنْعِه حكيمٌ في شَرْعِه، والحكمةُ في الشَّرْعِ أَبْلَغُ من الحكمةِ في الصُّنْعِ؛ لأنَّ الصُّنْعَ أمرٌ كَوْنِيٌّ لا طاقةَ للإنسانِ في تغييرِه ولا في الحيادةِ عنه أمَّا الأمْرُ الشَّرعيُّ، فهو الَّذي محلُّ التَّلاعُبِ من البشرِ، فنقولُ للبشرِ: لا تتلاعبوا بأحكامِ اللهِ فإنَّها صادرةٌ عن حِكْمَةٍ. إذن يُعْتَبَرُ تفسيرُ المفسِّرِ الَّذي قَصَرَه على الحِكَمةِ القَدَرِيَّةِ في صُنْعِ اللهِ تفسيرًا ناقصًا، فنقولُ: حكيمٌ في صُنْعِه وشرْعِه.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢).

{وَكَذَلِكَ} أَيْ مِثْل إيحَائِنَا إلَى غَيْرك مِنْ الرُّسُل {أَوْحَيْنَا إلَيْك} يَا مُحَمَّد {رُوحًا} هُوَ الْقُرْآن بِهِ تَحْيَا الْقُلُوب {مِنْ أَمْرنَا} الَّذِي نُوحِيهِ إلَيْك {مَا كُنْت تَدْرِي} تَعْرِف قَبْل الْوَحْي إلَيْك {مَا الْكِتَاب} الْقُرْآن {وَلَا الْإِيمَان} أَيْ شَرَائِعه وَمَعَالِمه وَالنَّفْي مُعَلَّق لِلْفِعْلِ عَنْ الْعَمَل وَمَا بَعْده سَدَّ مَسَدّ الْمَفْعُولَيْنِ {وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ} أَيْ الرُّوح أَوْ الْكِتَاب {نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاء مِنْ عِبَادنَا وَإِنَّك لَتَهْدِي} تَدْعُو بِالْوَحْيِ إلَيْك {إلَى صِرَاط} طَرِيق {مُسْتَقِيم} دين الإسلام.

صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣).

{صِرَاط الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْض} مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا {أَلَا إلَى الله تَصِير الْأُمُور} تَرْجِع[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قيل للنبي ﷺ: هل عبدت وثنًا قط؟ قال: "لا"، قالوا: فهل شربت خمراً قط؟ قال: "لا، وما زلت أعرف الذي هم عليه كفر، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان"، وبذلك نزل القرآن: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٦٤) ونسبه لأبي نعيم في "الدلائل" وابن عساكر.

* قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا} [الشورى: ٥٣]، =

=

أي:"وكما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك-أيها النبي- أوحينا إليك قرآنًا من عندنا".

قال الطبري: يقول:"وكما كنا نوحي في سائر رسلنا، كذلك أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن، وحيا ورحمة من أمرنا".

قال البغوي:"أي: كما أوحينا إلى سائر رسلنا، {أوحينا إليك روحا من أمرنا} ".

قال ابن كثير:"يعني: القرآن".

قال الزجاج: معناه:"ما نحيي به الخلق من أمرنا، أي: ما يُهْتَدَى به فيكون حيًّا".

قال السعدي:"هو هذا القرآن الكريم، سماه: روحا، لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير. وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم".

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا} [الشورى: ٥٣]،، على أقوال:

أحدها: رحمة من أمرنا. قاله الحسن.

الثاني: وحيا من أمرنا. قاله السدي.

الثالث: قرآنـًا من أمرنا، قاله الضحاك، ومالك بن دينار.

الرابع: كتابا. قاله الكلبي.

الخامس: يعني: جبريل. قاله الربيع.

قوله تعالى: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ} [الشورى: ٥٣]، أي:"ما كنت تدري قبله ما الكتب السابقة ولا الإيمان ولا الشرائع الإلهية؟ ".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ما كنت تدري يا محمد أي شيء الكتاب ولا الإيمان اللذين أعطيناكهما".

=

=

قال السعدي:"أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أميا لا تخط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب".

عن السديّ: "{مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإيمَانُ}، يعني: محمدا ﷺ".

وفي قوله تعالى: {وَلَا الْإِيمَانُ} [الشورى: ٥٣]، وجوه من التفسير:

أحدها:-وهو المشهور- أن المراد به: شرائع الإيمان، وهذا قد حكى عن محمد بن إسحاق بن خزيمة، وغيره من أئمة السنة.

قال محمد بن إسحاق بن خزيمة: "«الإيمان»- في هذا الموضع-: الصلاة، ودليله: قوله ﷻ: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [البقرة: ١٤٣]".

قال البغوي: {ما كنت تدري} قبل الوحي، {ما الكتاب ولا الإيمان}، يعني: شرائع الإيمان ومعالمه.. وأهل الأصول على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا مؤمنين قبل الوحي، وكان النبي ﷺ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم، ولم يتبين له شرائع دينه".

قال ابن كثير:"أي: على التفصيل الذي شرع لك في القرآن".

قال القشيري:"أي: تفصيل هذه الشرائع".

الثاني: أنه الإيمان بالله، وهذا يعرفه بعد بلوغه وقبل نبوته. حكاه الماوردي.

وحكي السمعاني:"عن بعضهم أن معناه: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان أي: قبل البلوغ".

الثالث: أنه أهل الإيمان، وهذا حكي عن الحسين بن الفضل البجلي.

الرابع: أنه بمعنى: الدعوة إلى الإيمان، قاله أبو العالية.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله: "من زعم أنّ النبيّ ﷺ كان على دين قومه، فهو قول سوءٍ، أليس كان لا يأكل ما ذُبح على النّصب؟ ".

وحكي عن بعض اهل العلم أنه-ﷺ- "كان على دين قومه أربعينَ سنةً".

=

=

والصواب أنه -ﷺ- كان على دين إبراهيم عليه السلام، لأن قومه كانوا على الشرك كما نطق القرآن بذلك في آيات كثيرة فمن ذلك: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البينة: ١]، والمراد بالمشركين -هنا-: قريش وما والاها، فتنبه، والله أعلم.

قوله تعالى: {وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا} [الشورى: ٥٣]، أي:"ولكن جعلنا القرآن ضياء للناس".

قال الطبري:"يقول: ولكن جعلنا هذا القرآن ضياء للناس، يستضيئون بضوئه الذي بين الله فيه، وهو بيانه الذي بين فيه، مما لهم فيه في العمل به الرشاد، ومن النار النجاة".

قال ابن كثير:"{وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ} أي: القرآن {نُورًا..} ".

قال الواحدي:"يعني: القرآن، ضياء، ودليلا على التوحيد والإيمان".

قال الراغب:"النور: الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار، وذلك ضربان دنيوي، وأخروي، فالدنيوي ضربان: ضرب معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية كنور العقل ونور القرآن. ومحسوس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة كالقمرين والنجوم والنيرات، فمن النور الإلهي قوله تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} [المائدة: ١٥]، وقال: {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام: ١٢٢]، وقال: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} [الشورى: ٥٢].. ".

قوله تعالى: {نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} [الشورى: ٥٣]، أي:"نهدي بهذا القرآن مَن نشاء مِن عبادنا إلى الصراط المستقيم".

قال الطبري: يقول:"نسدد إلى سبيل الصواب- وذلك الإيمان بالله- من نشاء

=

=

هدايته إلى الطريق المستقيم من عبادنا".

قال الواحدي: أي" نرشده إلى الدين الحق".

قال ابن كثير:" {نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا}، كقوله: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [فصلت: ٤٤] ".

عن السديّ: "{وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا}، يعني: بالقرآن".

قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: ٥٣]، أي:"وإنك- أيها الرسول- لَتَدُلُّ وَتُرْشِدُ بإذن الله إلى صراط مستقيم-وهو الإسلام-".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإنك يا محمد لتهدي إلى صراط مستقيم عبادنا، بالدعاء إلى الله، والبيان لهم".

قال سهل:"أي تدعو إلى ربك بنور هدايته".

قال ابن كثير:" {وَإِنَّكَ}، أي يا محمد {لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، وهو الخلق القويم".

قال السدي:"يقول: تدعو إلى دين مستقيم".

عن قتادة، قوله: "{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، قال تبارك وتعالى: {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ}: داع يدعوهم إلى الله ﷻ".

قال السعدي:"أي: تبينه لهم وتوضحه، وتنيره وترغبهم فيه، وتنهاهم عن ضده، وترهبهم منه".

قال الواحدي:"فالهدى-ههنا-: دعوة وبيان، والمعنى: وإنك لتدعو بما أوحينا إليك، إلى طريق مستقيم، يعني: الإسلام".

قال الشافعي-رحمه الله-: "وشهد له جل ثناؤه باستمساكه بما أمره به، والهدى في

=

=

نفسه، وهداية من اتبعه".

ويقرأ: «وَإِنَّكَ لتُهْدي»، مخاطبة للنبي -ﷺ- وأُمَّتِه، فيكون المعنى وإنك وأمتك لتُهدَوْنَ إلى صراط مستقيم.

قوله تعالى: {صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [الشورى: ٥٣]، أي:"هذا الدين الذي لا اعوجاج فيه هو دينُ الله الذي له ملك جميع ما في السموات وما في الأرض".

قال الطبري: يقول:"طريق الله الذي دعا إليه عباده، الذي له ملك جميع ما في السموات وما في الأرض، لا شريك له في ذلك. و «الصراط» الثاني: ترجمة عن الصراط الأول".

قال ابن كثير:"أي: شرعه الذي أمر به الله، {الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ} أي: ربهما ومالكهما، والمتصرف فيهما، الحاكم الذي لا معقب لحكمه".

قال السعدي:"أي: الصراط الذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته".

قوله تعالى: {أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} [الشورى: ٥٣]، أي:"ألا إلى الله-أيها الناس- ترجع جميع أموركم من الخير والشر، فيجازي كلا بعمله: إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر".

عن مجاهد:"{ولله عاقبة الأمور}، قال: وعند الله ثواب ما صنعوا". وروي عن زيد بن اسلم مثله.

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: ألا إلى الله أيها الناس تصير أموركم في الآخرة، فيقضي بينكم بالعدل".

قال الواحدي:"يعني: أمور الخلائق في الآخرة".

=

=

قال ابن كثير:"أي: ترجع الأمور، فيفصلها ويحكم فيها".

قال السعدي:"أي: ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازي كُلا بحسب عمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر".

قال تاج القراء:"وعيد بالجحيم ووعد بالجنة والنعيم".

قال الطبري:"فإن قال قائل: أو ليست أمورهم في الدنيا إليه؟

قيل: هي وإن كان إليه تدبير جميع ذلك، فإن لهم حكاما وولاة ينظرون بينهم، وليس لهم يوم القيامة حاكم ولا سلطان غيره، فلذلك قيل: إليه تصير الأمور هنالك وإن كانت الأمور كلها إليه وبيده قضاؤها وتدبيرها في كلّ حال".

وقال العثيمين: قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَكَذَٰلِكَ} أي: مِثْلَ إيحائِنا إلى غيْرِك من الرُّسلِ أَوْحَيْنَا إليك]. (كذلك) تأتي في القرآنِ كثيرًا، وحَسَبَ كلامِ المفَسِّرِ أنَّ الكافَ اسمٌ بمعنى مِثْلِ، فتكونُ مصدرًا لفعلٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: مِثْلَ ذلك. ثم تُفَسِّرُ الفِعْلَ بما يناسِبُ المقامَ؛ أي: مِثْل إيحائِنا لمن سبق من الرُّسُلِ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} يا مُحَمَّدُ]. أفادنا بقولِهِ: [يا مُحَمَّدُ] أنَّ الخِطابَ هنا خاصٌّ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ ولا يتعدَّاه إلى غيْرِه.

{رُوحًا} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [هو القرآنُ به تحيا القلوبُ] صَدَقَ المرادُ بالرُّوحِ هنا القرآنُ؛ لأنَّه تحيا به القلوبُ.

وقولُهُ: {مِنْ أَمْرِنَا} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [الَّذي نوحيه إليك] يعني: مما نأْمُرُ به، ويحتملُ أن يَكُونَ الأمرُ هنا واحدَ الأمورِ لا واحدَ الأوامِرِ؛ أي: من شَأْنِنا.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مَاكُنْتَ تَدْرِي} تَعْرِفُ قبل الوحْيِ إليك {مَا الْكِتَابُ} القرآنُ {وَلَا الْإِيمَانُ}؛ أيْ: شرائِعُه ومَعالِمُه].

أوحى اللهُ إلى نَبِيِّه نوحًا عليه الصلاة والسلام مِن أمْرِه- سواءٌ قلنا: واحدُ الأمورِ أو واحدُ الأوامِرِ-، وأخبر أنَّ للهِ المِنَّةَ الكبرى عليه في ذلك؛ لأنَّه كان قبل هذا ما

=

=

يدري؛ أي: ما يَعْلَمُ أو ما يَعْرِفُ {مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ} كَلِمَةُ {مَا الْكِتَابُ} يحتملُ أنَّ المرادَ بها ما الكتابةُ، ويحتملُ أن يُرادَ بذلك ما ذكره المفَسِّرُ وهو القرآنُ، أمَّا الأوَّلُ فلأنَّ اللهَ تعالى قال في نَبِيِّه صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} [العنكبوت: ٤٨]، وأمَّا كونُ المرادِ به القرآنَ فهذا أمثلتُه كثيرةٌ.

المهمُّ أنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ لم يكن يَعْرِفُ حتَّى الكتابةَ، لا يَكْتُبُ عليه الصلاة والسلام، ولم يَكُنْ يَعْرِفُ أيضًا الوحْيَ قبل أن يُوحَى إليه.

قولُهُ تعالى: {وَلَا الْإِيمَانُ} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: شرائعُهُ ومَعالِمُه] يعني: وما كُنْتَ تدري عن شرائعِ الإيمانِ، فلم يَكُنِ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ يدري عما شَرَعَه اللهُ له في هذه الشَّريعةِ كاملةً قَبْلَ ذلك.

ثم قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [والنَّفيُ مُعَلِّقٌ للفِعْلِ عن العملِ وما بعده سَدَّ مَسَدَّ المفعولَيْن] الجملةُ هذه للإعرابِ، كلمةُ {تَدْرِي} تَنْصِبُ مفعولَيْن، فهل بَعْدَها شيءٌ منصوبٌ؟ لا، بَعْدَها (ما) استفهاميَّةٌ مبتدأٌ و {الْكِتَابُ} خَبَرُه، ليس فيها شيءٌ منصوبٌ، إذا جاءتِ الجملةُ الإستفهاميَّةُ في محلِّ المفعولَيْن، فإنَّها تُعَلِّقُ الفِعْلَ عن العملِ ظاهرًا، ولكنَّ الجُمْلَةَ تَكُونُ في محلِّ نَصْبٍ، إذن الإستفهامُ هنا عَلَّقَ الفِعْلَ عن العملِ وما بَعْدَه سدَّ مَسَدَّ المفعولَيْن.

وقوله: {وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: الرُّوحَ أو الكتابَ] يعني: جعلنا الكتابَ الَّذي أَوْحَيْنا إليك أو الرُّوحَ الَّذي أَوْحَيْنا إليك، والمعنى لا يَختلفُ.

وقوله: {نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} اللهمَّ اهْدِنا به! النُّورُ يَهْتَدي به النَّاسُ، ومنه قولُ الخنساءِ في أخيها:

وإن صخرًا لتأتمُّ الهُداةُ به ... كأنه عَلَمٌ في رَأْسِه نارٌ

=

=

يعني: أنَّ النَّارَ تَجْعَلُ علامةً على الشَّيءِ إذا كان النَّاسُ في البَرِّ أَوْقَدُوا في اللَّيل نارًا على رأسِ جَبَلٍ أو على رأسِ أَكَمَةٍ؛ حتَّى يهتديَ بها من يُرِيدُهم. يقولُ: {جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ} [الشُّورَى: ٥٢] نَهدي بهذا النُّورِ من نشاءُ وهذا مبنيٌّ على حكمةِ اللهِ ﷻ كما قال تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان: ٣٠] فالحريُّ أن يُهْدى بهذا النُّورِ من تَمَسَّكَ به وعَمِلَ بما فيه، تصديقًا للأخبارِ، وتنفيذًا للأحكام، من فَعَلَ هذا صار القرآنُ له نورًا يهتدي به، كما قال اللهُ تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [مُحَمَّدٍ: ١٧]. وأمَّا من أَعْرَضَ عنه- والعياذُ باللهِ- فإنَّه سيكونُ حُجَّةً عليه ولا يَنْتَفِعُ به.

وقوله: {نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} قولُهُ: {مِنْ عِبَادِنَا} هل المرادُ العبوديَّةُ العامَّةُ أو الخاصَّةُ؟

الجوابُ: {نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} هذه تَقْسِمُ النَّاسَ إلى قِسْمَين: مهتدٍ وضالٍّ، فيكونُ {مِنْ عِبَادِنَا} المرادُ به العبوديَّةُ العامَّةُ؛ لأنَّه جَعَلَ العبوديَّةَ هذه قِسْمَيْنِ مهتدٍ وضالٍّ {مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ} يعني: يا مُحَمَّدُ. {لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [تدعو بالوحْيِ إليك إلى صراطٍ مستقيمٍ] لو أنَّ المفَسِّرَ قال: {لَتَهْدِي} أي: تدلُّ لكان أَوْضَحَ وأَخْصَرَ {لَتَهْدِي} بمعنى تدلُّ فهي هدايةُ الدِّلالةِ. إنَّما قال: [تدعو بالوحْيِ إليك] ولكنَّ هذا لا يكفي؛ لأنَّه لو دعا فهل يهتدي النَّاسُ، لكن إذا قلنا: تدلُّ فقد وَضَّحَ الطَّريقَ ودلَّ عليه، ثمَّ {فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} [الزُّمَر: ٤١].

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{إِلَى صِرَاطٍ} طريقٍ {مُسْتَقِيمٍ} يقولُ: دينُ الإسلامِ] وصَدَقَ الصِّراطُ المستقيمُ بَعْدَ بعثةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ، هو دينُ الإسلامِ.

وقوله: {صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} {صِرَاطِ اللهِ}

=

هذه بَدَلٌ من قولِهِ: الصِّراطِ المستقيمِ، وقولُهُ: {صِرَاطِ اللهِ} أضافه اللهُ تعالى إلى نفْسِه؛ لأنَّه الَّذي وَضَعَه لعباده؛ ولأنَّه مُوَصِّلٌ إليه، فأُضيفَ إلى اللهِ باعتبارين:

الأَوَّلُ: أنَّه الَّذي وَضَعَه للعِبادِ وشَرَعَه لهم.

والثَّاني: أنَّه مُوَصِّلٌ إليه.

وقوله: {إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} أي: قويمٍ غَيْرِ مُعْوَجٍّ {صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} {لَهُ} الجارُّ والمجرورُ خبرٌ مُقَدَّمٌ و {مَا فِي السَّمَاوَاتِ} مبتدأٌ مؤخَّرٌ، وتقديمُ الخبرِ يُفيدُ الحَصْرَ؛ أي: له وحده ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [مُلْكًا وخَلْقًا وعَبِيدًا] لو قَدَّمَ المفسِّرُ [خَلْقًا] على [مُلْكًا] لكان أَحْسَنَ؛ لأنَّ الخَلْقَ سابقٌ على المُلْكِ، ولكنِ الخُلْفَ في هذا سهلٌ، وقولُهُ: [عَبِيدًا] يعني: تدبيرًا يُدَبِّرُهُم {أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} [الشُّورَى: ٥٣] {أَلَا} هنا أداةُ استفتاحٍ والمقصودُ بها التَّنبيهُ والتَّأكيدُ.

وقولُهُ: {إِلَى اللهِ} مفعولٌ {تَصِيرُ} مُقَدَّمٌ عليها لإفادةِ الحَصْرِ؛ أي: إلى اللهِ لا إلى غَيْرِه {تَصِيرُ الْأُمُورُ}؛ أي: شؤونُ الخَلْقِ.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها- قوله تعالى: (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) (الشورى: ٤٩- ٥٠)، ثم قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) (الشورى: ٥١)، للسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف فيما أعقبت به كل آية من هاتين الآيتين فقيل في الأولى: (إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) وفي الثانية: (إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) وهل كـــــــان يمكــــــــن عكــــــــس الواقــــــــع؟

=

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الآية الأولى لما تضمنت الإعلام بانفراده سبحانه بملك السماوات والأرض وقهره جميع (من) فيهن، وأنه الخالق لكل شيء فلا اختيار لمخلوق ولا مشيئة، وكل صادر منه إحسان، فيهب لمن يشاء إناثـًا، وقدم ذكر الإناث لكراهة العرب إياهن، فأشار بتقديم ذكرهن إلى أن فلعهم وكراهتهم معارضة لما نفذت به مشيئته، ثم قال: (وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ)، وجاء لفظ الذكور معرفـًا ليشير بما تعطيه الألف واللام من العهدية إلى حالهم من الفضل ودرجة التقدم على الإناث، فكأنه في قوة أن لو قيل: الذين من أمرهم و (من) شأنهم، بتوازن تقديم الإناث وتعريف الذكور، فقدم ذكر الإناث لإرغام العرب، وعرف الذكرو لشرف المنزلة، ثم قال: (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا) أي على التساوي عدداً، ثم قال: (وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا)، فجعل من هذا كله أن الفعل لا يشركه فيه غيره، يفعل في ذلك كله ما أراده. فلما تضمنت الآية قهر العباد وانفراده سبحانه بالخلق والأمر ناسبها الختام بقوله تعالى: (إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) أي عليم بوجه الحكمة في ذلك، قدير على ما يريده. ولما قال في الآية بعد: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ) (الشورى: ٥١) فأوضحت الآية عليّ كماله تعالى وتنزيهه عن سمات الحدوث وأن المخصوصين من البشر للسفارة والرسالة إنما خطابه سبحانه لهم بهذه الوجوه المفصحة بتنزيهه عن شبه خليقته، فلا يصلون إلى ما يتقرر عنهم من خطابه تعالى إلا بأحد هذه الوجوه، وهي الوحي منامـًا أو إلهامـًا، وخلقـًا في قلب النبي، وعن هذا الضرب عبر بالوحي، ومنه قول إبراهيم، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لابنه: (يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) (الصافات: ١٠٢)، أو من وراء حجاب كتكليم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو إرساله سبحانه ملكـًا من القربين لديه يوحي بإذنه ما يشاء كما كان جبريل، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو المعروف

=

سُورَة الزُّخْرُف(١)

=

بهذه الخصيصة، والمعد من الملائكة للسفارة بينه سبحانه وبين رسله، يأتيهم بما يرسله تعالى به من القصص والأوامر والنواهي، فبهذه الطرق الثلاث وصول الرسل والأنبياء إلى ما عندهم من الله تعالى، وقد حصل من ذلك الإعلام بتنزيهه سبحانه وتعاليه عن التكيّيف، فناسب هذا ختام هذه الآية بقوله تعالى: (إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) أي عليّ عن مداناة البشر إلا باللطف والإحسان، حكيم في أفعالخ. فتبين وجه مناسبة هذا إتمام ما به ختم كما ناسب الختام قبله وهو قوله: (إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) ما أعقب به، فوضح أن كل ختام منهما لا يلائم غير موضعه، وأنه لو ختمت هذه الأخيرة بما به ختمت الأولى والأولى بما به ختمت هذه لم يكن ليناسب هذه المناسبة الحاصلة، والله أعلم بما أراد. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٣٧-٤٣٨).

(١) قال ابن قتيبة: السورة: "مكية كلها".

وقال ابن الجوزي:"هي مكية بإجماعهم".

وقال ابن عطية:"هذه السورة مكية بإجماع من أهل العلم".

* عدد آياتها [ثمان وثمانون] عند الشَّاميّين، وتسع عند الباقين. وكلماتها ثمانمائة وثلاث وثلاثون. وحروفها ثلاثة آلاف وأَربعمائة. الآيات المختلف فيها اثنتان: حم، مهين. مجموع فواصل آياتها (ملن).

❋ أسماء السورة:

تسمى: «سورة الزخرف» سميت في المصاحف العتيقة والحديثة «سورة الزخرف»، وبذلك ترجم لها الترمذي في كتاب التفسير من «جامعه»، وسميت كذلك في كتب التفسير.

=

=

قال ابن عاشور:"وكذلك وجدتها في جزء عتيق من مصحف كوفي الخط مما كتب في أواخر القرن الخامس".

ووجه التسمية أن كلمة {وَزُخْرُفًا} [الزخرف: ٣٥]، وقعت فيها ولم تقع في غيرها من سور القرآن فعرفوها بهذه الكلمة.

قال المهايمي:"سميت به لدلالة آيته على أن الدنيا في غاية الخسة في نفسها، وغاية العداوة مع ربها بحيث لا تليق بالأصالة إلا لأعدائه. وهذا من أعظم مقاصد القرآن".

ثانيا:-: «سورة حم الزخرف» سميت هذه السورة بإضافة كلمة «حم» إلى «الزخرف» على نحو ما بيناه في تسمية سورة «حم المؤمن»، وروى الطبرسي عن الباقر أنه سماها كذلك.

وبذلك ترجم لها البخاري في كتاب التفسير من «صحيحه»، كما وردت هذه التسمية عند مقاتل، والواحدي، والزركشي، وغيرهم.

* معظم مقصود السّورة: بيان إِثبات القرآن فى اللَّوح المحفوظ، وإِثبات الحُجّة والبرهان على وجود الصانع، والرد على عبّاد الأَصنام الذين قالوا: الملائكة بنات الله، والمنَّة على الخليل- ﷺ- بإِبقاءِ كلمة التوحيد فى عَقِبه، وبيان قسمة الأَرزاق، والإِخبار عن حسرة الكفار، وندامتهم يوم القيامة، ومناظرة فرعون، وموسى ومجادلة المؤمنين مع ابن الزِّبَعْرَى بحديث عيسى، وبيان شرف الموحّدين فى القيامة وعجز الكفَّار فى جهنَّم، وإِثبات إِلهيّة الحقّ فى السماءِ والأَرض، وأَمر الرّسول بالإِعراض عن مكافأَة الكفَّار فى قوله: {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ}.

المتشابهات: قوله تعالى: {مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ}، وفى الجاثية: {إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ}، لأَنَّ [ما] فى هذه السّورة متّصل بقوله: {وَجَعَلُوا

=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

حم (١).

{حم} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِهِ[2].

=

الملائكة} [الآية] والمعنى أَنَّهم قالوا: الملائكة بناتُ الله، وإِنَّ الله قد شاءَ منا عبادتنا إِيَّاهم. وهذا جهل منهم وكذب. فقال- سبحانه-: ما لهم بذلك من علم إِن هم إِلاَّ يخرصون أَى يكذبون. وفى الجاثية خلطوا الصّدق بالكذب؛ فإِن قولهم: نموت ونحيا صِدق؛ فإِن المعنى: يموت السّلف ويحيا الخلف، وهو كذلك إِلى أَن تقوم السّاعة. وكَذَبوا فى إِنكارهم البعث، وقولِهم: ما يهلكنا إِلاَّ الدّهر. ولهذا قال: {إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّوْنَ} أَى هم شاكُّون فيما يقولون.

قوله: {وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ}، وبعده: {مُقْتَدُوْنَ} خصّ الأَول بالاهتداءِ؛ لأَنه كلام العرب فى محاجّتهم رسولَ الله ﷺ وادّعائهم أَن آباءَهم كانوا مهتدين فنحن مهتدون. ولهذا قال عَقِيبه: {قال أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بأهدى}. والثانى حكاية عمّن كان قَبْلهم من الكفَّار، وادّعوا الاقتداءِ بالآباءِ دون الاهتداءِ، فاقتضت كلّ آية ما خُتِمت به.

قوله: {وَإِنَّآ إِلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ} وفى الشعراءِ: {إِنَّآ إِلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ}، لأَنَّ ما فى هذه السّورة عامّ لمن ركب سفينة أَو دابّة. وقيل: معناه {إِلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ} على مركب آخر، وهو الجنازة، فحسن إِدخال اللاَّم على الخبر للعموم. وما فى الشعراءِ كلام السّحَرة حين آمنوا ولم يكن فيه عموم. ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٢١- ٤٢٣).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

=

=

قال العلامة العثيمين في تفسيره: قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الله أعلم بمراده به].

{حم} هذان حرفان هجائيان؛ أحدهما حاء، والثاني ميم، لا إعراب لهما، وهل لهما معنى؟ يقول المفسر: [الله أعلم بمراده به]؛ إذن: لا ندري هل في معنى أو لا، ولا ندري ما المراد بالمعنى، فموقفنا من هذا التفويض، فالله أعلم؛ وهكذا يقال في كل حرف هجائي ابتدئت به السورة، مثل: {حم} [الزخرف: ١]، {الر} [يوسف: ١]، {ن} [القلم: ١]، {ق} [ق: ١]، {ص} [ص: ١]، وما أشبهها.

فالمفسر رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: ما لنا ولتفسيرها، [الله أعلم بمراده به]، قد يكون أراد معنى، وقد يكون لم يرد معنى، وقد يكون أراد معنى تدل عليه السورة، وقد يكون معنى آخر، ولكن القول هذا ضعيف.

والصواب أن نقول: لا معنى له، ليس المراد أنه حشو لا فائد منه، لكن المقصود: لا معنى له ذاتيا؛ بدليل قول الله سبحانه وتعالى: {إنا أنزلناه قرآنا عربيا} [يوسف: ٢]، وقوله سبحانه وتعالى: {إنا جعلناه قرآنا عربيا} [الزخرف: ٣]، وقوله ﷻ: {نزل به الروح الأمين (١٩٣) على قلبك لتكون من المنذرين (١٩٤) بلسان عربي مبين} [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥] ثلاث آيات.

واللسان العربي لم توضع فيه حروف هجائية لها معنى، وإنما وضعت فيه حروف هجائية لتركيب الكلام منها، وهي في اللغة العربية ثمانية وعشرون حرفا، عندما تقرأ: ألف، باء، تاء، ثاء، جيم، حاء، خاء، فليس لها معنى، إنما هي حروف تكون منها الكلمات، فإذا كانت كذلك -والقرآن الكريم نزل بلسان عربي-؛ فإننا نجزم بأنه ليس لهذه الحروف معنى، وإذا كان قد أراد بها شيئا نقول: لا يمكن أن يريد بها شيئا وهو نازل باللسان العربي، واللسان العربي لا يجعل لهذه الحروف الهجائية معنى، فنحن نجزم لقوله: {عربي} [النحل: ١٠٣].

فقوله: {طه (١) ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى} [طه: ١ - ٢] فـ {طه} ليس اسما

=

وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢).

{وَالْكِتَاب} الْقُرْآن {الْمُبِين} الْمُظْهِر طَرِيق الْهُدَى وَمَا يُحْتَاج إلَيْهِ مِنْ الشَّرِيعَة.

إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣).

{إنَّا جَعَلْنَاهُ} أَوْجَدْنَا الْكِتَاب {قُرْآنًا عَرَبِيًّا} بِلُغَةِ الْعَرَب {لَعَلَّكُمْ} يَا أَهْل مَكَّة {تَعْقِلُونَ} تَفْهَمُونَ معانيه.

وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤).

{وَإِنَّهُ} مُثْبَت {فِي أُمّ الْكِتَاب} أَصْل الْكُتُب أَيْ اللَّوْح الْمَحْفُوظ {لَدَيْنَا}

=

من أسماء الرسول، بل هي مثل {الر}، {حم}، حرفان هجائيان ليس لهما معنى، وإذا قال الإنسان: {ما أنزلنا عليك} خطاب؟

نقول: إذن اجعل {ن} من أسماء الرسول؛ لأن الله قال: {ن والقلم وما يسطرون (١) ما أنت بنعمة ربك بمجنون} [القلم: ١ - ٢] ولا قائل به.

فإذا قال قائل: ما الفائدة من هذه الحروف الهجائية إذا لم يكن لها معنى في حد ذاتها؟

أقول: الفائدة أشار إليها شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من العلماء الذين سبقوه ولحقوه رحمهم الله وهي التنبيه على أن هذا القرآن الكريم الذي عجز الناس أن يأتوا بمثله لم يأت بحروف جديدة فيحتج الناس ويقولون: هذه حروف لا نعرفها فهي جديدة. فالقرآن الكريم جاء بالحروف المعروفة عند المخاطبين، ومع ذلك أعجزهم.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ وغيره: ولذلك لا تجد سورة مفتتحة بهذه الحروف الهجائية إلا وجدت بعدها ذكر القرآن.

بَدَل عِنْدنَا {لَعَلِيٌّ} عَلَى الْكُتُب قَبْله {حَكِيم} ذُو حِكْمَة بَالِغَة.

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (٥).

{أَفَنَضْرِب} نَمْسِك {عَنْكُمُ الذِّكْر} الْقُرْآن {صَفْحًا} إمْسَاكًا فَلَا تُؤْمَرُونَ وَلَا تُنْهَوْنَ لِأَجْلِ {أَنْ كُنْتُمْ قوما مسرفين} مشركين لا.

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦).

{وكم أرسلنا من نبي في الأولين}.

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧).

{وَمَا} كَانَ {يَأْتِيهِمْ} أَتَاهُمْ {مِنْ نَبِيّ إلَّا كانوا به يستهزءون} كَاسْتِهْزَاءِ قَوْمك بِك وَهَذَا تَسْلِيَة لَهُ ﷺ.

فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨).

{فَأَهْلَكْنَا أَشَدّ مِنْهُمْ} مِنْ قَوْمك {بَطْشًا} قُوَّة {وَمَضَى} سَبَقَ فِي آيَات {مَثَل الْأَوَّلِينَ} صِفَتهمْ فِي الْإِهْلَاك فَعَاقِبَة قَوْمك كَذَلِكَ[1].

---

(١) هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة، فالواو في قوله- تعالى-: وَالْكِتابِ الْمُبِينِ للقسم، والمقسم به الكتاب، وجواب القسم قوله- تعالى- بعد ذلك: إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا....

أى: وحق هذا الكتاب الواضح المرشد إلى طريق الحق والسعادة، لقد جعلنا بقدرتنا وحكمتنا هذا الكتاب قرآنا عربيا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

أى: جعلناه كذلك لكي تفهموه وتتعقلوا معانيه، وتهتدوا إلى ما فيه من الأحكام السامية، والآداب العالية.

(تنبيه): قول المصنف: (أوجدنا الكتاب بلغة العرب) فيه نظر؛ وقد يكون =

=

المصنف تأثر بالزمخشري وهو جهمي معتزلي، فقد قال: ".... أي خلقناه" والصواب ما قاله ابن جرير وابن كثير: "أي أنزلناه....".

وقد تعلق المعتزلة بهذه الآية في زعمهم الباطل أن القرآن مخلوق.

وردا على هذه الشبهة نقول قد تعددت استعمالات " الجعل " في لغة العرب، لذا يقول ابن فارس:

" الجيم، والعين، واللام " كلمات غير منقاسة، لا يشبه بعضها بعضاً.

فنذكر من معاني الجعل ما يلي:

١- قد يأتي الجعل بمعنى التسمية والحكم، كما ورد في قوله تعالى (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا (١٩)) (الزخرف: ١٩)، وقوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ) (الأنعام: ١٠٠)

٢- وقد يأتي الجعل بمعني الخلق، كما في قوله تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} [الأعراف: ١٨٩]، وقوله تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) (الأنعام: ١).

٣- وقد يأتي الجعل بمعنى التصيير والتقدير، كما في قوله تعالى {فجعلهم جذاذاً} [الأنبياء: ٥٨]، وقوله تعالى {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)} [الفيل: ٥]، وقول إبراهيم عليه السلام (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ) (إبراهيم: ٤٠)

فقوله تعالى {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا} إنما يُحمل على المعنى الثالث، فالله عز وجل قدَّره وصيَّره كلاماً عربياً لنزوله على العرب، مصداقاً لقوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) (إبراهيم: ٤)

* فإن قيل:

ولم حملتم قوله تعالى {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا} على المعنى الثالث دون الثاني؟

=

=

*فالجواب من وجوه:

١- الأول: ما دل عليه الكتاب والسنة وإجماعات أهل السنة أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

٢- الثاني: أنَّ "جعل" إذا تعدت إلى مفعول واحد كانت بمعنى " خلق "، وأما إذا تعدت إلى مفعولين لم تكن بمعنى خلق، بل كانت بمعني التقديروالتصيير، مما يبطل دعوى الاستدلال بقوله تعالى {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} أن القرآن مخلوق.

* وما أجمل ما قاله الآلوسي في تفسير قوله تعالى {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}: والجعل هنا بمعني التصيير، لا بمعنى الخلق المعدَّى لواحد، لأن ذلك يأباه ذوق المقام؛ لأن الكلام لم يسق لتأكيد كونه مخلوقًا، وما كان إنكارهم متوجهًا عليه، بل هو مسوق لإثبات كونه قرآنًا عربيًا، لا يعسر عليهم فهم معانيه.

قال ابن أبي حاتم في كتاب «الرد على الجهمية» حدثنا أبي قال: قال أحمد بن حنبل: دل على أن القرآن غير مخلوق حديث عبادة، "أول ما خلق الله القلم فقال اكتب" الحديث"، قال: إنما نطق القلم بكلامه لقوله: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} . قال: فكلام الله سابق على أول خلقه فهو غير مخلوق".

قال أبو بكر المروذي: قال لي أبو عبد الله: أول من سألني عن الوقف علي الأشقر، فقلت له: القرآن غير مخلوق.

قال أبو داود السجستاني: "سمعت أحمد بن عبدة، يقول: ما أبالي شككت في القرآن غير مخلوق أو شككت في الله ﷻ".

قوله تعالى: {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ} [الزخرف:٢].

قال الطبري:"قسم من الله تعالى أقسم بهذا الكتاب الذي أنزله على نبيه محمد

=

=

ﷺ فقال: {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ} لمن تدبَّره وفكَّر في عبره وعظاته هداه ورشده وأدلته على حقيته، وأنه تنزيل من حكيم حميد، لا اختلاق من محمد ﷺ ولا افتراء من أحد".

قال التستري:"أي: بيّناه بلسان عربي مبين، يعني: بحروف المعجم التي بينها الله لكم".

قال ابن كثير:"{الْمُبِينِ}، أي: البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ؛ لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس".

قال السمعاني:"هو القرآن، وسماه مبينا؛ لأنه أبان فيه الهدى من الضلالة، والخير من الشر، وأبان فيه جميع ما يؤتى وجميع ما يتقى. ومعنى الآية هو القسم، فكأنه أقسم بحم وبالقرآن، وجواب القسم قوله: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} [الزخرف: ٣]، وكذلك قوله: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ} [الزخرف: ٤]، جواب القسم أيضا".

عن السديّ: "{حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ}: هو هذا الكتاب المبين".

قال الزجاج:"{الْمُبِينِ}، الذي أبان طرقَ الهدى من طرق الضلالة، وأبان كل ما تحتاج إليه الأمَّة".

قال الزمخشري:"{الْمُبِينِ}: البين للذين أنزل عليهم، لأنه بلغتهم وأساليبهم. وقيل: الواضح للمتدبرين".

قال مقاتل:"{الْمُبِينِ}، يعنى: البيّن ما فيه".

قال قتادة:"مبين والله بركته، وهداه ورشده".

قال السعدي:"هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة".

قوله تعالى {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ

=

=

حَكِيمٌ} [الزخرف:٣- ٤]

قال الطبري:"يقول: إنا أنزلناه قرآنا عربيا بلسان العرب، إذا كنتم أيها المنذرون به من رهط محمد ﷺ عربا {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} معانيه وما فيه من مواعظ، ولم ينزله بلسان العجم، فيجعله أعجميا، فتقولوا نحن: نحن عرب، وهذا كلام أعجمي لا نفقه معانيه".

قال الواحدي:"أي: صيرنا قراءة هذا الكتاب عربيا، لأن من التنزيل ما هو عبري وسرياني، وكتاب محمد ﷺ يقرأ بالعربية، وهذا يدل على أنه إذا قرئ بغير العربية لا يكون قرآنا".

قال ابن كثير:"أي: أنزلناه بلغة العرب فصيحا واضحا، {لَعَلَّكُمْ} تفهمونه وتتدبرونه، كما قال: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: ١٩٥] ".

قال الزجاج:"معناه: إنا بيَّنَّاه قرآنا عربياً".

قال مقاتل:"ليفقهوا ما فيه ولو كان غير عربي ما عقلوه".

عن مجاهد: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} ، قال: "نزل القرآن بلسان قريش، وهو كلامهم".

عن سعيد بن جبير، قوله: "{لعلكم} ، يعني: لكي".

عن سفيان في قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} [الزخرف: ٣] قال: وصفناه".

قال السعدي:"{إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} هذا المقسم عليه، أنه جعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه. وذكر الحكمة في ذلك فقال: {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان".

قال الإمام الشافعي: وأولى الناس بالفضل في اللسان، من لسانه لسان النبي- ﷺ- ولا يجوز- والله أعلم- أن يكون أهل لسانه اتباعا لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد، بل كل لسان تبع للسانه وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه، وقد

=

=

بين الله في غير آية من كتابه- منها- وقال: {حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الزخرف: ١- ٣] ".

قال الثعلبي:" {إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا}، أي: أنزلناه وسميناه وبيّناه ووصفناه، كقوله تعالى: {ما جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ} [المائدة: ١٠٣]، وقوله: {وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً} [الزخرف: ١٩]، وقوله: {جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} [الحجر: ٩١]، وقوله تعالى: {أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ} [التوبة: ١٩]. كلّها بمعنى الوصف والتسمية ويستحيل أن يكون بمعنى: الخلق".

قال البغوي:"قوله: {جعلناه}، أي: صيرنا قراءة هذا الكتاب عربيا. وقيل: بيناه. وقيل: سميناه. وقيل: وصفناه، يقال: جعل فلان زيدا أعلم الناس، أي وصفه".

قال السمعاني:" {إنا جعلناه} قال السدى: «أنزلناه»، وقال مجاهد: «قلناه». وعن بعضهم: «بيناه»، قاله سفيان الثوري.

وقوله- تعالى-: لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ بيان للحكمة التي من أجلها أنزل الله- تعالى- هذا القرآن بلسان عربي مبين. أى: جعلناه كذلك رجاء أن تعقلوا وتفهموا أوامره ونواهيه، وتوجيهاته وإرشاداته.

ثم بين- سبحانه- المنزلة السامية التي جعلها لهذا القرآن، والصيانة التامة التي أحاطه بها فقال: وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ.

والمراد بأم الكتاب: اللوح المحفوظ، وسمى بذلك لأن جميع الكتب السماوية منقولة عنه.

كما قال- تعالى-: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ.

وقيل: المراد بأم الكتاب: علمه الأزلى- ﷻ.

أى: وإن هذا القرآن المبين لثابت، وكائن في اللوح المحفوظ، وهو لَدَيْنا أى:

=

=

عندنا لَعَلِيٌّ أي: لرفيع الشأن، عظيم القدر حَكِيمٌ أي: محكم النظم في أعلى طبقات البلاغة. فلا يضيره تكذيب المكذبين، ولا طعن الطاعنين.

فالآية الكريمة تدل دلالة واضحة على القيمة العظيمة التي جعلها- سبحانه- لهذا القرآن، في علمه- تعالى- وتقديره، كما أن وصف هذا الكتاب بقوله لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ يؤكد هذه المنزلة السامية ويقررها.

قوله تعالى: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الزخرف: ٤]، أي:"وإنه في اللوح المحفوظ لدينا لعليٌّ في قَدْره وشرفه، محكم لا اختلاف فيه ولا تناقض".

قال الطبري: يقول:"وإن هذا الكتاب أصل الكتاب الذي منه نسخ هذا الكتاب عندنا لعليّ: يقول: لذو علوّ ورفعة، حكيم: قد أحكمت آياته، ثم فصلت فهو ذو حكمة".

قال السعدي:"{وَإِنَّهُ}، أي: هذا الكتاب {لَدَيْنَا} في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها {لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} أي: لعلي في قدره وشرفه ومحله، حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان".

قال مقاتل:"يقول لأهل مكة: إن كذبتم بهذا القرآن فإن نسخته في أصل {الكتاب}، يعني: اللوح المحفوظ {لدينا لعلي}، يقول: عندنا مرفوع، {حكيم}، يعني: محكم من الباطل".

عن عكرمة:"{وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا}، قال: أمّ الكتاب القرآن".

عن السديّ:"{وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ}، يقول: في الكتاب الذي عند الله في الأصل".

قال قتادة:"أمّ الكتاب: أصل الكتاب وجملته".

قال ابن عباس: "أول ما خلق الله القلم، فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق، قال: والكتاب عنده، قال: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ}، يعني: القرآن في أمّ

=

الكتاب الذي عند الله منه نسخ".

عن عطية بن سعد، قوله:"{وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ}، يعني: القرآن في أمّ الكتاب الذي عند الله منه نسخ".

قال الزجاج:"{أم الكتاب}: أصل الكتاب، وأصل كل شيء: أمُّه، والقرآن مثبت عند اللهِ في اللوح المحفوظ، والدليل على ذلك قوله: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج: ٢١- ٢٢]".

عن قتادة: "{لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ}، يخبر عن منزلته وفضله وشرفه".

قال ابن كثير:"وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ. تَنزيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الواقعة: ٧٧- ٨٠] وقال: {كَلا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ. بِأَيْدِي سَفَرَةٍ. كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١١- ١٦]؛ ولهذا استنبط العلماء، رحمهم الله، من هاتين الآيتين: أن المُحدِثَ لا يمس المصحف، كما ورد به الحديث إن صح؛ لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملأ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} ".

وبعد هذا البيان المشرف للقرآن الكريم، أتبع- سبحانه- ذلك بالكشف عن مدى الإسراف القبيح الذي ارتكبه المشركون حين أعرضوا عنه فقال- تعالى- :(أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً، أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ).

والهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، والضرب هنا: بمعنى التنحي والابتعاد والإهمال، تقول: ضربت عن فلان صفحا، إذا أعرضت عنه وتركته، والصفح: مصدر صفحت عنه، إذا أعرضت

=

عنه، وذلك بأن تعطيه صفحة وجهك أي: جانبه. وهو منصوب لنضرب من غير لفظه، كما في قولهم: قعدت جلوسا. أو على الحال من الفاعل: على المصدرية أي: صافحين، والمراد بالذكر هنا: القرآن الكريم.

والمعنى: أنعرض عنكم ونهملكم فلا نذكركم بالقرآن الكريم، ولا نرشدكم إلى هداياته.

بسبب إسرافكم على أنفسكم، ومحاربتكم للحق، وإيثاركم الغي على الرشد؟!!

لا لن نفعل ذلك، بل سننزل هذا القرآن على نبينا محمد ﷺ ومن شاء بعد ذلك فليؤمن، ومن شاء فليكفر.

قال الأخفش:"{أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ} يقول: لأن كنتم".

عن قتادة:"{أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ}، أي: مشركين".

واختلف أهل العلم في تفسير الآية على وجوه:

أحدها: أفنُمْسِكُ عن عذابكم ونترُكُكم على كفركم؟! وهذا معنى قول مجاهد، والسدي، وأبي صالح.

قال مجاهد:"تكذّبون بالقرآن ثم لا تعاقبون عليه".

الثاني: أفنُمْسِكُ عن إنزال القرآن من أجل أنكم لا تؤمِنون به؟! وهو معنى قول قتادة، وابن زيد.

وقال مقاتل:"يقول: لأهل مكة أفنذهب عنكم هذا القرآن سدى لا تسألون عن تكذيب به".

قال قتادة:"والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردّه أوائل هذه الأمة لهلكوا، فدعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك".

وقال قتادة:"لو أن هذه الأمة لم يؤمنوا لضرب عنهم الذكر صفحا، قال: الذكر ما أنزل عليهم مما أمرهم الله به ونهاهم صفحا، لا يذكر لكم منه شيئا".

=

=

قال ابن كثير:"قول قتادة لطيف المعنى جدا، وحاصله أنه يقول في معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير والذكر الحكيم- وهو القرآن- وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر به ليهتدي من قَدّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته".

الثالث: أفحسبتم أن نصفح ولما تفعلون ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس.

وقال الكلبي:"أفنترككم سدى لا نأمركم ولا ننهاكم".

وقال الكسائي: "أفنطوي عنكم الذكر طيّا، فلا تدعون ولا توعظون".

وحكي النقاش:"أفنهملكم فلا نعرفكم بما يجب عليكم".

وقال الماوردي: "أن نوعد ولا نؤاخذ، ونقول فلا نفعل".

قال الثعلبي:"وهذا من فصيحات القرآن، والعرب تقول لمن أمسك عن الشيء وأعرض عنه: ضرب عنه صفحا، والأصل في ذلك إنّك إذا أعرضت عنه ولّيته صفحة عنقك، قال كثير:

صفوحًا فما تلقاك إلا بخيلةً... فمَنْ ملَّ منها ذلك الوصلَ ملَّت

أي: معرضة بوجهها، وضربت عن كذا وأضربت، إذا تركته وأمسكت عنه".

قال الطبري:"الصواب تأويل من تأوّله: أفنضرب عنكم العذاب فنترككم ونعرض عنكم، لأن كنتم قوما مسرفين لا تؤمنون بربكم، لأن الله تبارك وتعالى أتبع ذلك خبره عن الأمم السالفة قبل الأمم التي توعدها بهذه الآية في تكذيبها رسلها، وما أحل بها من نقمته، ففي ذلك دليل على أن قوله: {أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا} وعيد منه للمخاطبين به من أهل الشرك، إذ سلكوا في التكذيب بما جاءهم عن الله رسولهم مسلك الماضين قبلهم".

وقرئ: «إنْ كُنْتُمْ» بكسر الألف من «إن»، بمعنى: أفنضرب عنكم الذكر صفحا إذ كنتم قوما مسرفين.

=

=

ثم سلى- سبحانه- نبيه ﷺ عن مكرهم فقال: وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وكَمْ هنا خبرية لإفادة كثرة الأنبياء والمرسلين وهي مفعول مقدم لأرسلنا.

وقوله مِنْ نَبِيٍّ تمييز لها.

أى: ما أكثر الرسل الذين أرسلناهم في الأمم الأولين لهدايتهم، فكان موقف أكثر هؤلاء الأمم من رسلهم. يدل على إعراضهم عنهم، وتكذيبهم لهم، فاصبر- أيها الرسول الكريم- على أذى قومك، كما صبر الذين من قبلك.

ثم أكد- سبحانه- هذا المعنى فقال: وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى: أن هؤلاء السابقين لم يأتهم نبي من الأنبياء لهدايتهم، إلا استهزءوا به، وسخروا منه، وأعرضوا عنه.

فماذا كانت نتيجتهم؟ كانت نتيجة استهزائهم برسلهم كما قال- تعالى-: فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ.

والضمير في قوله مِنْهُمْ يعود إلى القوم المسرفين، المخاطبين بقوله- تعالى-: أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً ... وفي الآية التفات من الخطاب الى الغيبة، لأنه كان الظاهر أن يقال: فأهلكنا أشد منكم بطشا- أيها المشركون-.

وقوله: أَشَدَّ مِنْهُمْ مفعول به لأهلكنا. وأصله نعت لمحذوف، أى: فأهلكنا قوما أشد منهم بطشا. والبطش: السطوة والقوة. يقال: فلان بطش بفلان إذا أخذه بقوة وعنف، ومنه قوله- تعالى-: وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ.

والمراد «بمثل الأولين» صفتهم المتمثلة في استئصال شأفتهم، وقطع دابرهم.

أى: هكذا كان موقف السابقين من رسلهم، لقد استهزءوا برسلهم فأهلكناهم، وكانوا أشد قوة وبطشا من قومك المسرفين- أيها الرسول الكريم- وقد اقتضت حكمتنا أن نسوق لقومك قصص هؤلاء السابقين وصفاتهم وما حل بهم من نكبات، لكي يعتبروا بهم، ولا ينهجوا نهجهم، حتى لا يصيب قومك ما أصاب

=

=

أولئك السابقين المكذبين.

قوله تعالى: {وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ} [الزخرف:٦]، أي:"كثيرًا من الأنبياء أرسلنا في القرون الأولى التي مضت قبل قومك أيها النبي".

قال الطبري: يقول:"{وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ} يا محمد في القرون الأولين الذين مضوا قبل قرنك الذي بعثت فيه كما أرسلناك في قومك من قريش".

قال السمعاني:"«كم» للتكثير".

قال ابن أبي زمنين:"أي: كثيرا".

قال القرطبي:"«كم»-هنا-: خبرية والمراد بها التكثير، والمعنى ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء. كما قال: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} [الدخان: ٢٥]، أي: ما أكثر ما تركوا".

قوله تعالى: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الزخرف:٧]، أي:"وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون كاستهزاء قومك بك".

قال الطبري:"يقول وما كان يأتي قرنا من أولئك القرون وأمة من أولئك الأمم الأولين لنا من نبيّ يدعوهم إلى الهدى وطريق الحق، إلا كان الذين يأتيهم ذلك من تلك الأمم نبيهم الذي أرسله إليهم يستهزئون سخرية منهم بهم كاستهزاء قومك بك يا محمد. يقول: فلا يعظمن عليك ما يفعل بك قومك، ولا يشقنّ عليك، فإنهم إنما سلكوا في استهزائهم بك مسلك أسلافهم، ومنهاج أئمتهم الماضين من أهل الكفر بالله".

قال مقاتل:"يعنى: بالعذاب {يستهزؤن}، بأنه غير نازل بهم".

قال مجاهد:"يعني: "بما جاءتهم به رسلهم من الحق، يقول: استهزءوا به".

قال القشيري:"ما أتاهم من رسول فقابلوه بالتصديق، بل كذّب به الأكثرون وجحدوا، وعلى غيّهم أصرّوا".

=

قال الفخر الرازي:"المعنى: أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء، فلا ينبغي أن تتأذى من قومك بسبب إقدامهم على التكذيب والاستهزاء لأن المصيبة إذا عمت خفت".

قوله تعالى: {فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا} [الزخرف:٨]، أي:"فأهلكنا مَن كذَّبوا رسلنا، وكانوا أشد قوة وبأسًا من قومك يا محمد".

قال ابن أبي زمنين:"يعني: أشد من مشركي العرب قوة".

قال الطبري: يقول:"فأهلكنا أشدّ من هؤلاء المستهزئين بأنبيائهم بطشا إذا بطشوا فلم يعجزونا بقواهم وشدة بطشهم، ولم يقدروا على الامتناع من بأسنا إذ أتاهم، فالذين هم أضعف منهم قوة أحرى أن لا يقدروا على الامتناع من نقمنا إذا حلَّت بهم".

قال القشيري:"أي: لم يعجزنا أحد منهم، ولم نغادر منهم أحدا، وانتقمنا من الذين أساءوا".

قوله تعالى: {وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ} [الزخرف:٨]، أي:"ومضت عقوبة الأولين بأن أهلِكوا؛ بسبب كفرهم وطغيانهم واستهزائهم بأنبيائهم".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: ومضى لهؤلاء المشركين المستهزئين بك ولمن قبلهم من ضربائهم مثلنا لهم في أمثالهم من مكذّبي رسلنا الذين أهلكناهم، يقول: فليتوقع هؤلاء الذين يستهزئون بك يا محمد من عقوبتنا مثل الذي أحللناه بأولئك الذين أقاموا على تكذيبك".

قال مقاتل:"يعني: شبه {الأولين} في العقوبة، حين كذبوا رسلهم، يقول: هكذا أمتك يا محمد في سنة من مضى من الأمم الخالية في الهلاك".

قال الواحدي: أي:"سبق فيما أنزلنا إليك تشبيه حال الكفار الماضية بحال هؤلاء في التكذيب، ولما أهلكوا أولئك بتكذيبهم، فعاقبة هؤلاء أيضا إلى هلاك".

=

قال البيضاوي: أي:"وسلف في القرآن قصتهم العجيبة، وفيه وعد للرسول ووعيد لهم بمثل ما جرى على الأولين".
عن قتادة: "{وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ}، قال: عقوبة الأولين".
عن مجاهد، قوله: "{مَثَلُ الأَوَّلِينَ}، قال: سُنتهم".
قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: سنة الأولين بالهلاك".
قال ابن أبي زمنين:"يعني: وقائعه في الأمم السالفة بتكذيبهم رسلهم".
قال النحاس:"يجوز أن تكون «مثل»-هاهنا- بمعنى: صفة، أي: صفتهم بأنهم أهلكوا لمّا كذّبوا، ويجوز أن يكون مثل على بابه".
وقال العلامة العثيمين في تفسيره: قال الله ﷻ: {والكتاب المبين} [الزخرف: ٢].
{والكتاب} الواو حرف قسم، وفسره رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه [القرآن]؛ لأن الله تعالى سمى القرآن كتابا فقال: {الم (١) ذلك الكتاب} وسمي كتابا:
١- لأنه كتب في اللوح المحفوظ.
٢- ولأنه كتب في المصاحف التي بأيدي السفرة الكرام البررة.
٣- ولأنه كتب في المصاحف التي بأيدينا.
وقوله: {المبين} يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المظهر طريق الهدى وما يحتاج إليه من الشريعة}.
{المبين} من أبان الشيء إذا أظهره؛ فمعنى كونه مبينا أنه مظهر للحق موضح له، بل لكل ما يحتاج الناس إليه.
فقولنا: {المبين} من أبان الشيء إذا أظهره، يعني: أن القران أظهر كل شيء يحتاج الناس إليه في دينهم ودنياهم؛ وقيل: المراد بـ {المبين} البين. والأعم أنه مظهر للحق؛ لأنه لا يظهر الحق إلا إذا كان هو ظاهرا، وعلى هذا ففسر
=

=

{المبين} بأنه المظهر، وإن فسرته بهما فلا بأس، فقلت: إنه بين مبين؛ لأن الكلمة إذا احتملت معنيين -وهذه قاعدة- لا ينافي أحدهما الآخر، وليس أرجح منه؛ فإنها تحمل عليهما.

إذن: إذا احتمل اللفظ معنيين متساويين لا ينافي أحدهما الآخر حمل عليهما جميعا.

* قال الله ﷻ: {إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون} [الزخرف: ٣].

{إنا جعلناه} يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أوجدنا الكتاب {قرآنا عربيا} بلغة العرب، {لعلكم} يا أهل مكة {تعقلون} تفهمون معانيه].

قوله ﷻ: {إنا جعلناه} ضمير الفاعل يعود على الله سبحانه وتعالى، وضمير المفعول يعود على القرآن، ومعنى {جعلناه} على كلام المفسر: أوجدناه {قرآنا عربيا}، والصواب أن المعنى: صيرناه قرءانا عربيا، أي: صيرناه بلغة العرب.

{لعلكم تعقلون} أي: تفهمون.

و{جعلناه} بمعنى: صيرناه، أحيانا جعل تكون بمعنى صير، وأحيانا تكون بمعنى خلق، حسب السياق، إذا نصبت مفعولين فهي بمعنى صير، وإذا نصبت مفعولا واحدا فهي بمعنى {خلق} مثل قوله سبحانه وتعالى: {وجعل الظلمات والنور} [الأنعام: ١] أي: بمعنى خلق؛ لأنها لم تنصب إلا مفعولا واحدا، أما إذا نصبت مفعولين فهي بمعنى صير.

والخطاب في قوله: {لعلكم} على كلام المفسر يعود إلى أهل مكة، والصواب أنه يعود إلى العرب كلهم، لأن العرب هم أهل مكة وغيرهم، فيكون المعنى: صيرناه بلغة العرب؛ لتفهموه أيها العرب.

انتهى الكلام عن الآيات من حيث اللفظ.

أما من حيث المعنى: فالله تعالى أقسم بالقرآن أنه جعله باللغة العربية من أجل

=

=

فهمه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: جواز القسم مع تأكد صحة المقسم بدون القسم، يعني: جواز أن يقسم الإنسان على الشيء مع أن قوله مقبول على كل حال، وجه الدلالة: أن الله ﷻ أقسم وقوله مقبول على كل حال وصدق بلا يمين، حينئذ يتولد من هذا: كيف يقسم الله ﷻ على الشيء وهو الصادق بدون قسم؟

فنقول: لفائدتين:

الأولى: بيان أهمية هذا الشيء، وأنه جدير بأن يقسم عليه.

والثانية: أن القسم من فصاحة الكلام في اللغة العربية، فإذا كان من فصاحة الكلام فالقرآن نزل باللغة العربية، فيكون هذا مطابقة بأسلوب اللغة العربية.

ويرد على هذا القسم بالقرآن: كيف أقسم الله بالقرآن مع أنه لا يجوز القسم بغير الله؟

والجواب على هذا: أن القرآن صفة من صفات الله، لأنه كلام الله، والقسم يجوز بالله وبالصفة من صفاته، فزال الإشكال.

الفائدة الثانية: بيان عظمة القرآن، لأن الله لا يقسم إلا بشيء عظيم، بل إن القسم نفسه-كما قال من فسره- تأكيد الشيء بذكر معظم بصفة مخصوصة بأحد حروف القسم. وحروف القسم ثلاثة: الواو، الباء، التاء.

مثال الواو: قوله: {والكتاب المبين} والواو هي أكثر ما يستعمل في القسم.

ومثال الباء: قول القائل: أقسم بالله أن هذا حق.

ومثال التاء: {قال تالله إن كدت لتردين} [الصافات: ٥٦].

الفائدة الثالثة: أن القرآن الكريم مبين لكل ما يحتاج إلى البيان؛ لقوله تعالى: {المبين} . ولكن هذا البيان ليس حاصلا لكل أحد، فمن الناس من يفهم من

=

=

القرآن أشياء كثيرة، ومن الناس من هو دون ذلك، ومن الناس من لا يفهم شيئا؛ فالأقسام ثلاثة؛ فمن الناس من يفتح الله عليه فيفهم من الآية الواحدة عشرات المسائل، ومن الناس من هو دون ذلك، ومن الناس من لا يفهم شيئا.

ولهذا لما سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عهد إليكم النبي ﷺ بشيء؟ قال: "لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما عهد إلينا بشيء، إلا فهما يؤتيه الله تعالى من شاء في القرآن، وإلا ما في هذه الصحيفة"، وإنما سئل علي عن ذلك لأنه أشيع في زمنه أن النبي ﷺ عهد إليه بالخلافة وقال: أنت الخليفة من بعدي. فبين رضي الله عنه أن ذلك لم يكن، والشاهد من هذا الأثر قوله: "إلا فهما يؤتيه الله من شاء من عباده".

ولذلك ترى بعض العلماء إذا تكلم عن الآية مستنبطا فوائدها يأتي بالعجب العجاب، ومن أبلغ ما قرأت ما يحصل لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله؛ فإن الله يفتح عليهما من فهم القرآن ما لا يكون لغيرهما، ومن الناس من فهمه دون ذلك، لكن درجات، ومن الناس من لا يفهم شيئا.

والدليل الأخير قوله تعالى: {ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني} [البقرة: ٧٨]، يعني: إلا قراءة، جمع أمنية، ومنه قول الشاعر في أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه:

تمنى كتاب الله أول ليله ... وآخره لاقى حمام الموارد

معنى (تمنى كتاب الله) أي: قرأ كتاب الله؛ لأن أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه قتل شهيدا في داره وهو يتهجد ويقرأ القرآن، فالذي لا يفهم لا يقدح في كون القرآن تبيانا لكل شيء؛ لأن القرآن في حد ذاته تبيان لكل شيء، كما أن الجبان الذي بيد سيف بتار لا يقدم فيقتل به، وليس هذا عيبا في السيف.

فإذا قال قائل: إن الله سبحانه وتعالى ذكر أشياء لا مجال للعلم فيها فأين بيانها؟

=

=

قلنا: بيانها في قول الله سبحانه وتعالى: {ليس كمثله شيء} [الشورى: ١١] فيما يتعلق بالصفات؛ لأن بيانها على وجه التفصيل لا تحتمله العقول، فكان من الحكمة ألا تفصل، وإلا فهو تبيان لكل شيء.

ذكر أن أحد العلماء كان في مطعم، وكان فيه رجل من النصارى، فاستغل النصراني الفرصة ليلقي على هذا العالم سؤالا يتحداه به، فأتى إليه وقال له: أيها الشيخ. قال: نعم، ماذا تريد؟ قال: القرآن كتابكم يقول: {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء} [النحل: ٨٩]، ونحن نصنع هذا الطعام فأين هذا في القرآن؟ وكان العالم المسلم ذكيا، قال: هذه موجودة في القرآن، أي موجود كيف نصنعها، قال: أين هو؟ فنادى الطباخ، وقال: كيف صنعت هذا؟ فجعل الطباخ يشرح له، فقال: هكذا جاء في القرآن. قال: كيف؟ قال: إن الله ﷻ قال: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} [النحل: ٤٣]. فأحالنا فيما لا نعرف على من يعرف، وهذا بيان، فلم نتحير الآن في معرفة كيف تصنع هذا الطعام؟ !

لو قال لنا قائل: القرآن تبيان لكل شيء، فكيف نصنع هذا التليفون؟ هل في القرآن وصف لصناعته؟ أين ذكره في القرآن؟

نقول: الحمد لله، الله سبحانه وتعالى أحالنا إلى سؤال من يعرف إذا كنا لا نعرف، وهذا بيان، فلم يوقفنا متحيرين.

إذن: في هذه الآية دليل على أن القرآن مبين لكل شيء، ولكن القرآن يحتاج إلى تدبر، وبدون التدبر لا يمكن أن تهتدي.

ثم اعلم أنك كلما أمعنت وتعمقت في تدبر القرآن فتح الله لك من أبواب المعرفة ما لم يكن من قبل، وصرت تستنبط من الآية الواحدة من الأحكام ما لا يستنبطه غيرك، فاحرصوا على هذا التدبر.

الآن-ولله المثل الأعلى- في كم يوما خلق الله السموات والأرض؟ ! لو شاء

=

=

لخلقها في لحظة {كن فيكون} لكنه خلقها في ستة أيام، ليعلم العباد أن الإتقان خير من العجلة، ولأن هذا الخلق له سنن وقواعد وأسباب كونية ينتج شيئا فشيئا، فأراد الله ﷻ أن يبين للعباد أن المهم هو الإتقان والإحكام دون السرعة، ولو أراد الله لكان في لحظة.

الفائدة الرابعة: أن هذا القرآن الذي أعجز العرب من الحروف التي يركبون منها كلامهم ومع ذلك أعجزهم.

الفائدة الخامسة: أن القرآن الكريم مكتوب، وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في الصحف التي بين أيدينا.

الفائدة السادسة: أن القرآن الكريم حادث؛ يعني: أنه بإرادة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: {إنا جعلناه قرآنا عربيا} والله قادر على أن يجعله بلغة أخرى لكن صيره باللغة العربية.

ومعلوم أن العرب حادثون، فيكون ما نزل باللغة حادثا، وهذا هو الحق؛ أن كلام الله سبحانه وتعالى حادث، بمعنى: أنه يتكلم متى شاء، ومتى شاء لا يتكلم، كما قال النبي ﷺ: "وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان".

قلنا: إن كلام الله سبحانه وتعالى حادث. والمعنى: أنه يحدث من كلامه ما شاء.

ومن أصول أهل السنة والجماعة: أن الله يتكلم بكلام حقيقي متى شاء، بما شاء، كيف شاء، ألم تعلموا أن الأشعرية الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري يقولون: إن الله لا يتكلم متى شاء أبدا. قالوا: لأن الكلام معنى قائم بنفسه، أزلي، لكنه يحدث أصواتا يخلقها متى شاء فتسمع. فيرون أن الكلام لا يتعلق بمشيئته.

فأيهما أكمل من يتكلم بمشيئته، وبما شاء، وكيف شاء، أم من لا يستطيع هذا؟

الجواب: الأول، لكن أربت بدعتهم إلا أن يقولوا بالثانية، وقد ألف شيخ

=

=

الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كتابا سماه (التسعينية) بين بطلان هذا القول من تسعين وجها رَحِمَهُ اللَّهُ وجزاه عن الأمة خيرا.

فإن قال قائل: وهل يجوز وصف القرآن بالحدوث؟

فالجواب: نعم، محدث وحادث؛ قال الله تعالى: {وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين} [الشعراء: ٥]، لكن لا تظن أن معنى محدث أي: أنه مخلوق، لا، محدث يعني: أن الله تكلم به حين نزوله.

فإن قال قائل: ما القول الراجح في نزول القرآن، أنه نزول واحد أو نزولان: نزل إلى السماء الدنيا، ثم نزل إلينا؟

فالجواب: الظاهر أنه نزول واحد، نزل من عند الله سبحانه وتعالى، تكلم به عَزَّ وَجَلَّ، ثم سمعه جبريل، ثم نزل به.

فإن قال قائل: على القول بأن للقرآن نزولا واحدا كيف نفسر {إنا أنزلناه في ليلة القدر [القدر: ١]؟

فالجواب: نفسر هذا بأن الله تعالى بدأ إنزاله في ليلة القدر.

الفائدة السابعة: أن كون القرآن باللغة العربية منقبة كبرى للعرب: أن يكون القرآن العظيم نزل بلغتهم؛ لقوله: {إنا جعلناه قرآنا عربيا}.

فإذا قال قائل: هذه عصبية وحمية للعرب ويفتخر بها العرب الملحدون فما الجواب؛ لأن هذا مشكل، فالعرب الملحدون الذين يبنون الولاء والبراء على القومية العربية يفخرون بهذا!.

فنقول: من كان كافرا فلا فخر، ولو كان من صميم العرب؛ والدليل: أبو لهب عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنزل الله في حقه سورة كاملة تتلى في الصلاة، وفي المساجد، وفي كل مكان مما يتلى فيه القرآن إلى يوم القيامة في ذمه، وهو من صميم العرب عم النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالعروبة لا تغني شيئا مع الكفر، فإذا اجتمع الدين والدنيا فما أحسن

=

=

الدين والدنيا إذا اجتمعا: صار مسلما وعربيا.

فإن قال قائل: هل في القرآن من الكلمات ما ليس بعربي؟

فالجواب: لا، أبدا، كل ما في القرآن عربي، لكن بعضه من صميم اللغة العربية، وبعضه معرب، أي: أصله غير عربي لكنه عرب، وإذا عرب صار عربيا، فإنه لما تكلم به العرب صار عربيا للاستعمال وإن كان أصله غير عربي، أرأيت أنت إذا أخذت الجنسية في بلد تكون منهم، وأنت في الأصل من غيرهم، فليس في القرآن ما ليس بعربي.

وأما قوله تعالى: {سندس}، {وإستبرق} وما أشبه ذلك؛ فإن هذه عربت فصارت من كلام العرب.

الفائدة الثامنة: أن الحجة لا تكون إلا بالفهم، أي: أن الحجة لا تقوم على العباد إلا إذا فهموها، لقوله: {لعلكم تعقلون} والعقل هنا بمعنى الفهم، فلو تلي القرآن على رجل أعجمي لا يعرف معناه ولم يقل له: هذا كلام الله. فإنه لا حجة قائمة، ويدل لهذا قوله ﷻ: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم} [إبراهيم: ٤]، فهذ مسألة عظيمة؛ الحجة لا تقوم على العباد إلا بفهمها ومعرفة معناها، وإلا فأي حجة في رجل يتكلم بكلام لا نفهمه؟ ! لا حجة؛ ولذلك لو قام أعجمي أمامنا ونحن عرب لا نعرف لغته وتكلم بأفصح ما يكون في لغته لا نفهم شيئا أبدا؛ فلا بد من فهم الحجة.

فإن قال قائل: قولكم: إن الحجة لا تقوم إلا بفهمه، هل ينبني على هذا أن القبوريين الذين لم يفهموا باب العبادة حق الفهم -ويقرؤون القرآن- أنهم معذورون بذلك؛ لأن البعض يقول: الحجة قائمة بوجود الكتاب والسنة؟

فالجواب: هؤلاء مقصرون، يعني: أنهم يعرض عليهم الحق ولكنهم لا يقبلونه، لكن لو فرضنا أن أناسا بعيدين عن المدن وعن العلم، وهم مسلمون، يصلون،

=

=

ويعملون كل أعمال الإسلام وهم قبوريون، هؤلاء لم تقم عليهم الحجة، لكن غالب القبوريين الآن-إن لم يكن كلهم- قد قيل لهم: إن هذا شرك، ولكن قصروا وقالوا: {إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون} [الزخرف: ٢٢].

وإن قال قائل: هل فهم القرآن يكون على حسب ذكاء الشخص أو على حسب تقواه لله جل وعلا؟

فالجواب: على هذا وهذا؛ ولذلك قال علي رضي الله عنه: "إلا فهما يؤتيه الله تعالى من شاء من عباده"، والتقوى لها تأثير في فهم القرآن الكريم؛ قال الله سبحانه وتعالى: {والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم} [محمد: ١٧] وقال في القرآن: {هدى للمتقين} [البقرة: ٢].

فإن قال قائل: ماذا تقولون في قول الله سبحانه وتعالى: {لأنذركم به ومن بلغ} [الأنعام: ١٩] ولم يقل: ومن فهمه؟ !

فالجواب: أن نقول {ومن بلغ} مقيد بالنصوص الأخرى الدالة على أنه لا بد من الفهم. أو يقال: {ومن بلغ} من العرب الذين يفهمونه، ولا بد من هذا، والله عز وجل أرحم وأحكم من أن يلزم العباد بما لا يفهمونه.

فإن قيل: سياق الآيات التي فيها: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} [النحل: ٤٣] إنما كان في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم فهل يصح الاستشهاد به على العموم؟

فالجواب: نعم يصح؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فائدة: بعض الناس يستنبط من الآيات ما لا تحتمله الآيات، أرأيتم أول ما خرج وصول البشر إلى القمر-ولعله حصل قبل أن يميز أكثركم، أكثركم شباب والحمد لله- لما حدثت هذه الحادثة وقالوا: إن البشر وصلوا إلى القمر وأخذوا منه عينة وجاؤوا بها إلى الأرض وادعوا أنها من القمر، أحجار سوداء رأيناها،

=

=

قال الناس: هذا موجود في القرآن، فالله ﷻ يقول: {يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان} [الرحمن: ٣٣] أي: بعلم، وهؤلاء وصلوا إلى أقطار السموات بالعلم، فقالوا: هذه الآية تدل على هذا.

لكن هذا التفسير محرم، وقول على الله، وكذب على الله، فإن الآية في سياق التحدي {يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان}، ولا يمكن أن يتحدى الله ﷻ أحدا بما يستطيع، التحدي معناه أن المخاطب لا يستطيع، هذه واحدة.

ثانيا: الآية {إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان} فبدأ بالسموات، فلا يمكن لهؤلاء أن ينفذوا من أقطار السموات، وإذا كان أفضل رسول في البشر، وأفضل رسول في الملائكة لم يدخل السماء الدنيا إلا باستفتاح وإذن فكيف بهؤلاء؟ !

فهؤلاء إن نفذوا من أقطار الأرض لم ينفذوا من أقطار السموات.

ثالثا: قال الله ﷻ بعد قوله: {لا تنفذون إلا بسلطان} قال: {يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران} [الرحمن: ٣٥] ولم يرسل على هؤلاء شواظ من نار ونحاس؛ فتفسير القرآن بما لا يحتمله هذا محرم؛ لأن المفسر يشهد أن الله أراد كذا.

ومثل قول بعضهم: {وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب} [النمل: ٨٨] قال: هذا دليل واضح على أن الأرض تدور.

والمسألة هذ حصل فيها معركة كبيرة: هل الأرض تدور أو لا تدور؟ وكتبت في ذلك منشورات في الصحف ورسائل صغيرة؛ إنكارا وتأييدا، فجاء هذا الرجل

=

المتعلم فقال: هذه في القرآن: {وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب} قيل: هذا يوم القيامة. قال: يوم القيامة لا يمكن أن يرى الشيء إلا على حقيقته، لا يراه على غير حقيقته. فقيل له جوابا على هذا: ألم تقرأ قول الله ﷻ: {إن زلزلة الساعة شيء عظيم (١) يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى} [الحج: ١ - ٢] فهذا رؤية الشيء على غير حقيقته، وهو ممكن؛ فالآية {وترى الجبال تحسبها جامدة} يوم القيامة {وهي تمر مر السحاب} لأنها تكون هباء.

فهذا أيضا من الغلط، وتحميل القرآن ما لا يحتمل.

قال الله ﷻ: {وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم} [الزخرف: ٤].

قوله: {وإنه} الضمير يعود على {والكتاب المبين}، وهو القرآن {في أم الكتاب} هو اللوح المحفوظ، وسمي أما؛ لأنه مرجع لجميع ما يكتب من بعده، والكتابة أنواع، والكتابة العظمى العامة الشاملة ما كتب في اللوح المحفوظ.

وقوله: {لدينا} أي: عندنا، والظرف هنا حال من {أم الكتاب} يعني: أن الذي لدى الله -في هذه الآية- هو {أم الكتاب}؛ أي: اللوح المحفوظ عند الله ﷻ وهو محفوظ من التغيير والتبديل، لأنه أم الكتاب.

وأما الكتب التي جاءت بها الملائكة ففيها تغيير وتبديل، كما قال الله ﷻ: {يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب} [الرعد: ٣٩].

وقوله: {لعلي حكيم} أي: ذو علو {حكيم} أي: ذو حكم وحكمة، وصفان عظيمان للقرآن الكريم وصف الله بهما نفسه.

(علي) بمعنى: عال، لكنه أبلغ؛ لأن (عليا) على وزن (فعيل) صفة مشبهة، والصفة المشبهة تدل على الثبوت والاستمرار.

و{حكيم} أي: ذو حكم وحكمة؛ فالقرآن حاكم، والقرآن مشتمل على حكمة.

=

ومعنى قولنا: (حاكم) أنه مرجع في الحكم لا يحكم بغيره، ومعنى (حاكم) أنه مهيمن على جميع الكتب حاكم عليها.
وقوله ﷻ: {وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم} يحتمل أن مراد {وإنه} أي: ذكره كما قال الله سبحانه وتعالى: {وإنه لفي زبر الأولين} [الشعراء: ١٩٦]، ومعلوم أن القرآن ليس في زبر الأولين، ولكن في زبر الأولين ذكره، ولكن إذا تأملنا قلنا: الأصل أن الضمير يرجع إلى المضمر الذي دل عليه، أي: إلى نفس المضمر الذي دل عليه، وحينئذ يكون {وإنه} -أي: القرآن- كله في اللوح المحفوظ.
فإن قال قائل: هذا القول يرد عليه أن في القرآن الكريم كلمات تحدث الله بها عن شيء مضى، مثل قول الله ﷻ: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها} [المجادلة: ١]، هذا الخبر بعد المجادلة، وقوله سبحانه وتعالى: {وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال} [آل عمران: ١٢١] إشارة إلى غزوة أحد {غدوت} خرجت في الغداة، هذا الخبر بعد أن غدا؛ لأن غدا فعل ماض، فهنا يشكل يقال: كيف كان في اللوح المحفوظ يتحدث الله عن شيء حصل قبل أن تنزل الآية؟
فيقال: لا إشكال؛ والجواب: أن الله كتب هذا في اللوح المحفوظ؛ لعلمه أنه سيقع، ثم أنزله بعد وقوعه، كما أن الحوادث الكونية مكتوبة في اللوح المحفوظ لعلمه تعالى أنها ستقع، ثم تكون حين يريد الله أن تكون.
وكنت قبل ذلك أرجح، بل أقول: يتعين أن الذي في اللوح المحفوظ ليس هو القرآن؛ لكن الذي في اللوح ذكر القرآن؛ أي أنه سينزل قرآنا على هذه الأمة، واستدلوا على هذا بقوله ﷻ: {وإنه لفي زبر الأولين} [الشعراء: ١٩٦]، والذي في زبر الأولين هو ذكر القرآن بلا شك، مستندا إلى مثل الآيات التي ذكرت: {قد

=

=

سمع الله قول التي تجادلك في زوجها} [المجادلة: ١] وقوله: {وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال} [آل عمران: ١٢١].

حتى عثرت على كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وبين ما ذكرت أخيرا؛ أنه لا مانع من أن يكتب في اللوح المحفوظ بلفظ الماضي؛ لأن الله سبحانه وتعالى علم أنه سيكون، وأنه سينزل هذه الآية بعد أن يكون.

وبناء عليه: تبين لي أن الذي في اللوح المحفوظ القرآن؛ بناء على ظاهر الآيات: {بل هو قرآن مجيد (٢١) في لوح محفوظ} [البروج: ٢١- ٢٢] والحمد لله الذي فتح علي، وجزى الله شيخ الإسلام ابن تيمية خيرا، وهذا يدل على أن الإنسان مهما كان لا بد أن يعتريه النقص.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: عناية الله تبارك وتعالى بهذا القرآن، وهذا يدل على شرفه؛ حيث جعله عنده في أم الكتاب.

الفائدة الثانية: أن القرآن عال بل علي، وهذا يدل على أن من تمسك بهذا القرآن فله العلو كقوله سبحانه وتعالى: {فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم} [محمد: ٣٥] فنقول: القرآن علي، ومن تمسك به فله العلو، وشاهد هذا الواقع؛ لما كانت الأمة الإسلامية متمسكة بالإسلام كان في العلو والظهور، وملكت به مشارق الأرض ومغاربها، ولما تقاعست وتخاذلت وتنازعت وتباغضت صار الأمر بالعكس، صار لها الذل، فالآن أمة العرب يدعون اليهود إلى السلم، ويكررون ذلك، ويمدون أيديهم إلى دول النصارى لتساعدهم على السلم؛ لأننا لم نتمسك بالقرآن، فكنا أذلة نتوسل لأعدائنا أن يقع السلم بيننا وبين أعدائنا.

فلو قال لنا قائل: نحن أمة القرآن ومع ذلك فالناس في ذل!.

=

=

قلنا: لأننا لم نتمسك بالقرآن، ولو تمسكنا بالقرآن لضمنا لأنفسنا العلو والغلبة والظهور، لكن الأمر بالعكس، فالآن غالب المسلمين يلهثون وراء الدنيا، معرضين عن الدين، يسألون: ما الذي ينمي الاقتصاد؟ ما الذي يصل به إلى الترف؟ وما أشبه ذلك، لكن ما الذي يقوي الدين؟ هذا قليل أو نادر، هذا قليل أو معدوم.

إذن: الكلمة {لعلي} على ظاهرها وعلى معناها، لكن بشرط أن نتمسك بهذا القرآن.

الفائدة الثالثة: أن من جادل بالقرآن فهو غالب؛ لأن الذي له العلو هو القرآن، أي إنسان يناظرك ووسيلة إقناعه ودحره القرآن فإنك ستغلبه بلا شك، لكن لما عدل كثير من الأمة إلى كلام أهل الكلام -الذي لا فائدة فيه- لم يهدوا إلى صراط المستقيم، ولم يغلبوا الأعداء، بل تسلط عليهم الأعداء.

حتى الفلاسفة الملحدون صاروا يحتجون بعمل الأشاعرة على ما هم عليه من الباطل، ويقولون: أنتم أيها الأشاعرة، أنتم أيها المعتزلة، حرفتم النصوص إلى ما ترونه عقلا، ونحن أيضا انصرفنا عن النصوص إلى ما نراه عقلا، فاحتجوا ببدع هؤلاء على إلحادهم، وقالوا: نحن وأنتم سواء، أنتم حرفتم ونحن حرفنا؛ ولكن لو تمسكنا بالقرآن لا يستطيع هؤلاء الفلاسفة أن يجابهونا.

واقرأ كتب أهل الكلام تجد صفحة صفحتين لا تأتي منهما إلا بفائدة واحدة، ولهذا صح أن نقول: إنهم أهل الكلام وكلامهم كلام، بمعنى أن كلامهم لا فائدة فيه، وانظر إلى قوله ﷺ لما شكا إليه الصحابة ما يجدون في نفوسهم من وساوس الشيطان قال: "ذاك صريح الإيمان"، وأمر من يجد هذه الوساوس أن يستعيذ بالله وينتهي: "فليستعذ بالله ولينته" كلمتان. فيكتب الفلاسفة والمتكلمون على هذا الكثير مما يدعون أنه عقليات، وهو وهميات.

=

=

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم التمسك بهذا الكتاب العزيز، وأن يعزنا به.

* قال الله ﷻ: {أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين} [الزخرف: ٥].

الهمزة هنا للاستفهام، المراد به النفي؛ بدليل أن المفسر قدر بعد ذلك قوله: لن. يعني: لن نضرب عنكم الذكر صفحا. المعنى: أننا لا يمكن أن نترككم بدون إنذار؛ لكونكم قوما مجرمين، بل لا بد من الإنذار كما تقول: ضربت عن هذا صفحا؛ يعني: أعرضت عنه، ولن ترفع به رأسا، والمراد بهذا -كما قلت- النفي؛ توبيخا لهولاء القوم الذين أعرضوا عما جاء به النبي ﷺ.

والضمير في قوله: (نضرب) يعود إلى الله ﷻ، وأتى بالضمير الدال على الجمع تعظيما لله تعالى، وليس للتعدد؛ لأن الله الواحد لا شريك له.

وقوله: {عنكم} يعود إلى كفار قريش الذين كذبوا محمدا ﷺ.

وقوله: {صفحا} مصدر معنوي لكلمة (نضرب)؛ لأن معناه (إعراضا).

فمعنى الآية إجمالا: أنعرض عن تذكيركم وإنذاركم. وهذا هو الذي يفعله العرب في كلامهم؛ يقول: أعرضت عنك صفحا يعني: لم أبال بك ولم ألتفت إليك.

وقوله: {أن كنتم قوما مسرفين}: {أن} وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول لأجله، أي: لأجل أن كنتم قوما مسرفين، فهي تعليلية. والإسراف مجاوزة الحد.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الله لم يترك عباده هملا، بل بين لهم الحق، ودعاهم إليه، وخوفهم من مخالفته فلم يبق لأحد عذر.

الفائدة الثانية: أن الإنسان معذور بالجهل إذا لم تبلغه الرسالة، وهذا له أدلة:

منها: قول الله تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده

=

=

وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا (١٦٣) ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما (١٦٤) رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} [النساء: ١٦٣-١٦٥].

ومنها: قوله تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} [الإسراء: ١٥].

ومنها: قوله تعالى: {وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون} [القصص: ٥٩]، والأدلة على هذا كثيرة.

وقال النبي ﷺ: "والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بما جئت به إلا كان من أصحاب النار"، فقال: "لا يسمع بي أحد".

فإن قال قائل: وهل يشترط مع بلوغ الرسالة أن يفهمها المخاطب؟

فالجواب: نعم، يشترط هذا؛ لقول الله ﷻ: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم} [إبراهيم: ٤]، أي فائدة في رسول يأتي إلى قوم لا يعرفون لغته وهو لا يعرف لغتهم؟ ! لا فائدة تحصل، والله سبحانه وتعالى أرحم وأحكم من أن يعذب قوما بدون أن يفهموا ما جاءت به الرسل.

يبقى النظر إذا كان الإنسان مسلما ولكنه يقوم بأعمال شركية لا يظن أنها شرك، فهل يحكم بشركه؟

فالجواب: لا، حتى تقوم عليه الحجة، فإذا قامت عليه الحجة، فحينئذ نحكم بشركه.

فإن قيل: وكذلك الذين يفعلون البدع؟

=

=

فالجواب: نعم، لكن المبتدع أشد؛ لأن المبتدع -والعياذ بالله- يضل به أناس كثيرون، والشرك لا يضر إلا صاحبه، اللهم إلا أن يكون هذا المشرك له طاعة عند قومه، ويكون سيدا في قومه يتبعونه، فهو من جنس المبتدع، أما إذا كان عاميا فإنه لا يؤثر إلا على نفسه؛ ولهذا قال بعض العلماء رحمهم الله: المبتدع لا توبة له؛ لأنه وإن تاب بنفسه لا يسلم من ضلالة الذين اتبعوه.

فإن قال قائل: إذا كان الرجل من المشركين أتاه رجل مسلم لكنه صوفي فأعطاه الإسلام على وجه الصوفية والأذكار المبتدعة، فصار يعمل بهذا ويعتقد أن هذا هو الإسلام، هل يعاقب عليه؟

فالجواب: لا يمكن أن يعذب أحد على باطل إلا إذا كان يعلم أنه باطل، فالله ﷻ أرحم وأحكم من أن يعذب شخصا وهو لا يدري، ولكن هناك أناس معاندون يذكر لهم الحق ويقول: لا، أنا أتبع شيخي. حتى لو كان الذي ذكر له الحق عالما معروفا يقول: لا، أتبع مشايخي. فهذا لا يعذر، لكن لو أن عاميا أعلمه أن هذا العمل لا يجوز وهذا شرك، ومشايخه كلهم يقولون: هذا حسن. فهو معذور، لأنه لا يثق، فلم يأت له الحق على وجه يثق به، فالآن نحن العلماء لو جاءنا إنسان على عكس ما جاء به علماؤنا ونحن لا نعرفه ما اتبعناه، لكن قد يقال: كونه أعلم بأنه على باطل وأن الحق خلافه يلزمه بأن يبحث ويسأل، فقد يؤاخذ من هنا، أي: من التقصير في طلب الحق.

وإذا قال قائل: رجل في الغابات بعيد عن المدن، بعيد عن الحضارات، لكنه ينتمي إلى دين كفر، فهل هذا معذور؟

فالجواب: أما في أحكام الدنيا فليس بمعذور. يعني: أننا نعامله معاملة الكافر؛ لأنه لا ينتمي إلى دين الإسلام، بخلاف الأول، نعامله في الدنيا معاملة الكافر، أما في الآخرة فأمره إلى الله سبحانه وتعالى لا ندري ماذا يكون، وقد جاء في

=

=

الحديث: "أن أهل الفترة يرسل الله إليهم رسلا يوم القيامة، يمتحنهم من أطاع دخل الجنة، ومن عصى دخل النار".

فإن قال قائل: على هذا القول يلزم أن تكون الآخرة دار تكليف؟

فالجواب: نعم، نلتزم بهذا، وقد دل القران على أن الآخرة دار تكليف؛ فقال ﷻ: {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون (٤٢) خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} [القلم: ٤٢ – ٤٣] فهنا كلفوا بالسجود مع أن الآخرة ليست دار تكليف في الأصل، لكن قد يكلف الناس فيها.

الفائدة الثالثة: أن أحكام الله ﷻ معللة بعلل مناسبة للحكم، وهذا من مقتضى حكمته؛ ألا تجد حكما إلا وله حكمة، ولكن هل يلزم من كونه له حكمة أن تكون معلومة لنا؟

الجواب: لا؛ لأن أفهامنا وعقولنا أدنى من أن تحيط علما بالله، بحكمة الله ﷻ، ولكننا نعلم أنه لا يحكم بشيء قدرا أو شرعا إلا وله حكمة، إذا حكم الله في الكتاب أو السنة بحكم فلا تبغ به بديلا؛ لقوله سبحانه وتعالى: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم} [الأحزاب: ٣٦]، ولما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن الحائض تقضي الصوم دون الصلاة؟ قالت: "كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة".

قال الله ﷻ: {وكم أرسلنا من نبي في الأولين (٦)} [الزخرف: ٦].

(كم) هذ خبرية تدل على الكثرة، عاملها ما بعدها {أرسلنا}، والإرسال هو الإيحاء إلى بشر بشريعة ويؤمر بتبليغها.

وقوله: {من نبي} بيان لـ (كم) والمراد هنا الرسول؛ لأنه قال: {وكم أرسلنا من

=

=

نبي} والنبي يطلق على الرسول كثيرا في القرآن الكريم: {إنه كان صديقا نبيا} [مريم: ٤١] وأمثال ذلك، والمراد: الرسول.

{في الأولين} أي: السابقين على هذه الأمة.

* قال الله ﷻ: {وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون} [الزخرف: ٧].

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وما} كان {يأتيهم}] قدر المفسر (كان)، لأن الأمر قد مضى، ولو كان على نسق الكلام {وما يأتيهم} لكان هذا في المستقبل؛ لذلك قدر المفسر (كان) وهذا يدل على عمق علم المفسر.

ولكن خير من ذلك أن نقول: لا حاجة إلى التقدير؛ لأنه إذا دار الأمر بين أن يكون في الكلام مقدر أو لا يكون مقدر، فالأصل عدم التقدير، فنقول: الآية باقية على ظاهرها، لكنها على حكاية الحال؛ يعني: كأن الماضي حاضر الآن، وهذا أبلغ في تخويف قريش من المخالفة.

فالمفسر قدر (كان)؛ لأن القرآن يتحدث عن شيء مضى، فلا بد أن يقدر فعلا ماضيا، ونحن نقول: لا حاجة إلى التقدير، وجاءت الآية في سياق الفعل المضارع الدال على الاستقبال حكاية للحال، كأن الأمر واقع الآن، فيكون هذا أبلغ في إنذار قريش وتحذيرهم.

وقوله: {وما يأتيهم من نبي}: {من} هذ زائدة إعرابا، لكنها مفيدة للمعنى، زائدة إعرابا بمعنى: أنها لو نزعت من السياق لتم بدونها، لو كان لفظ الآية الكريمة (وما يأتيهم نبي) يستقيم الكلام، ولكن جاءت (من) زيادة في الفائدة، وهي كما يقول علماء البلاغة وعلماء النحو: إن زيادة الكلمة -يعني: الحرف في الجملة- تدل على التوكيد، يعني: كل كلمة زائدة في القرآن من حيث الإعراب فهي مفيدة للمعنى.

وقوله: {وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون} لا يقبلون ولا يسكتون، بل

=

=

يستهزئون، والاستهزاء: السخرية؛ بمعنى: أنهم يسخرون بهم ويحتقرونهم؛ ليحذروا الناس منهم، فانظر إلى رحمة الله ﷻ كيف يرسل الرسل وهو يعلم أن هؤلاء المدعوين سيقابلونهم بالاستهزاء، ولكن إقامة للحجة.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الله تعالى أرسل عددا كثيرا من الأنبياء في السابقين، وقد جاء في بعض الأحاديث أنهم مئة وأربعة وعشرون ألفا، فالله أعلم؛ لأن هذا يحتاج إلى دليل صحيح صريح، وقد قال الله سبحانه وتعالى: {ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك} [غافر: ٧٨]، ومعلوم أن من لم يقصص علينا فلن نستطيع أن نعرف عدده.

الفائدة الثانية: أن الله تعالى أقام الحجة على جميع الخلق، ويؤيد هذا قوله: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} [فاطر: ٢٤].

الفائدة الثالثة: تسلية النبي- صلى الله عليه وعلى آله وسلم- في قوله: {وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون} فإن النبي ﷺ إذا علم أن الرسل من قبله يستهزأ بهم فإنه يتسلى ولا شك.

واعرف أنت هذا من نفسك؛ فإذا أصبت بمصيبة وأصيب غيرك بمثلها أو أشد، ألست تتسلى بهذا وتهون عليك المصيبة؟ بلى، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى: {ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون} [الزخرف: ٣٩]، يعني: أن اشتراكهم في العذاب لا يخفف العذاب عنهم، ولا يحصل لكم به تسل، لأن كل واحد من أهل النار-أعاذنا الله وإياكم منها- لا يرى أن أحدا منهم أخف عذابا؛ ولذلك يشتد حزنهم-والعياذ بالله- إذا رأى أنه هو أشد الناس عذابا وهو أهونهم.

الفائدة الرابعة: أن الاستهزاء بالرسل تكذيب لهم وزيادة، لقوله ﷻ: {إلا كانوا

=

=

به يستهزئون} واعلم أن الاستهزاء بالرسل كفر، والاستهزاء بالكتب كفر، والاستهزاء بالله كفر، قال الله تبارك وتعالى: {ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون (٦٥) لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم} [التوبة: ٦٥- ٦٦].

واختلف العلماء رحمهم الله فيمن استهزأ بالله أو آياته أو رسوله، أو سب الله أو كتابه أو رسوله، هل تقبل توبته أو لا تقبل؟ على قولين، والصحيح التفصيل في هذا، وهو أنه إن وجد ما يدل على استقامته وصحة توبته فإنها تقبل، وإلا فلا، وذلك لأن لهذا المستهزئ أو الساخر أو الساب ثلاث حالات:

الحال الأولى: أن يستمر في ذلك، فهذا لا توبة له، ويقتل ردة.

الحال الثانية: أن نعلم أنه تاب توبة نصوحة، لأنه استقام وصلحت حاله، فهذا تقبل توبته بلا إشكال.

الحال الثالثة: أن نتردد هل هو صادق في توبته أو غير صادق. فهذا يقتل، ويكون أمره إلى الله ﷻ نقتله لظاهر حاله؛ لأننا لم نتيقن أن هذه الحال قد تغيرت إلى ما يمنع قتله، فنقتله، أما في الآخرة فأمره إلى الله.

فإن قال قائل: أليس الاستهزاء بالله وسب الله ﷻ ذنبا عظيما لا يحتمل أن تقبل توبة فاعله؟

فالجواب: أن نقرأ قول الله سبحانه وتعالى في نفس الآية المذكورة: {لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة} [التوبة: ٦٦] يعني: إذا عفونا عن طائفة بتوبتهم عذبنا الطائفة الأخرى التي لم تتب، واقرأ قول الله سبحانه وتعالى: {قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم (٥٣)} [الزمر: ٥٣].

مسألة: هل تقبل توبة المرتد؟

=

=

الجواب: الصحيح أنها تقبل إذا قام الدليل على أنه صادق، أما إذا كان يلعب بنا فتقول: إنه تائب وهو على ما هو عليه فلا، ويقتل ما لم نعلم أنه تائب.

مسألة: ما حكم المستهزئ بأهل الدين؟

فالجواب: الذي يستهزئ بأهل الدين إذا استهزأ بهم لدينهم فهو مستهزئ بالدين، وإن استهزأ بهم لشكلهم فلا، ولذلك الآن لو وجدنا أحدا رفع ثوبه إلى نصف الساق من العلماء المعتبرين المطاعين لا تجد أحدا يستهزئ بهم، لكن لو جاء إنسان عامي استهزؤوا به، وهنا نقول: إن الاستهزاء هنا ليس استهزاء للدين، وإنما هو استهزاء بهذا الرجل، فيجب التفريق بين هذا وهذا.

* قال الله ﷻ: {فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين (٨)} [الزخرف: ٨].

(أهلكنا) يعني بالموت، {أشد منهم بطشا}: {أشد منهم} أي: من كفار قريش، {بطشا} أي: أقوة، {ومضى} أي: [سبق في آيات] {مثل الأولين}، {فأهلكنا أشد منهم بطشا} يعني: قوة، كقوم هود، وقوم صالح، ومن أشبههم، أهلكهم الله وهم أشد من هؤلاء الذين كذبوا محمدا- صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أشد بطشا، وأكثر أموالا وأولادا، ومع ذلك ما أغنت عنهم شيئا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان شدة صبر الرسل عليهم الصلاة والسلام حيث إنهم يستهزأ بهم، وهم صابرون حتى يأتي أمر الله، وإلا فمن الذي يطيق أن يدعو الناس وهم يستهزئون به، لولا أن يثبت الله ﷻ الإنسان بالقول الثابت، كما قال تعالى لنبيه- صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا (٧٤) إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات} [الإسراء: ٧٤].

الفائدة الثانية: تحذير قريش من رد دعوة النبي- صلى الله عليه وعلى آله وسلم-

=

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩)

{ولئن} لام قسم {سألتهم من خلق السماوات وَالْأَرْض لَيَقُولَنَّ} حُذِفَ مِنْهُ نُون الرَّفْع لِتَوَالِي النُّونَات وَوَاو الضَّمِير لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ {خَلَقَهُنَّ الْعَزِيز الْعَلِيم} آخِر جَوَابهمْ أَيْ الله ذُو الْعِزَّة والعلم زاد تعالى.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠).

{الذي جعل لكم الأرض مهادا} فِرَاشًا كَالْمَهْدِ لِلصَّبِيِّ {وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا} طُرُقًا {لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} إلَى مَقَاصِدكُمْ فِي أَسْفَاركُمْ.

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١).

{وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ} أَيْ بِقَدْرِ حَاجَتكُمْ إلَيْهِ وَلَمْ يُنْزِلهُ طُوفَانًا

=

؛ لأن الله تعالى توعدهم بذكر إهلاك من سبق، وكل إنسان له قلب إذا ذكر له حال الأمم السابقة، وأنهم أهلكوا فلا بد له أن يتعظ ولابد أن يخاف ويخشى.

الفائدة الثالثة: جواز التحويل على شيء سابق؛ لقوله سبحانه وتعالى: {ومضى مثل الأولين} أي: حالهم وصفاتهم، والتحويل فيه فائدة، وهي: أن يتذكر الإنسان ما مضى وأن يعود إليه.

وقد عاب قوم على الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ بكثرة حوالاته في (فتح الباري) والحقيقة أن لا عيب، ولا يرد على هذا أنه قد يحيل أحيانا ولا نجد ما أحال به، فأحيانا يقول: يأتي في باب كذا ولا نجده؛ لأنه قد يكون معذورا بالنسيان، أو ألحقه بنسخة لم تصل إلينا، أو ما أشبه ذلك.

المهم: فائدة الإحالات تذكير الإنسان ما سبق، واهتمامه بالكتاب، ورواج الكتاب كله؛ لأنه إذا كان هناك إحالات فلازم هذا أن يكون عندك كل الكتاب، لأنه سيحال عليه فلا بد أن يكون عندك.

{فَأَنْشَرْنَا} أَحْيَيْنَا {بِهِ بَلْدَة مَيْتًا كَذَلِكَ} أَيْ مِثْل هَذَا الْإِحْيَاء {تُخْرَجُونَ} مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاء.

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢).

{وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاج} الْأَصْنَاف {كُلّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْك} السُّفُن {وَالْأَنْعَام} كَالْإِبِلِ {مَا تَرْكَبُونَ} حُذِفَ الْعَائِد اخْتِصَارًا وَهُوَ مَجْرُور فِي الْأَوَّل أَيْ فِيهِ مَنْصُوب فِي الثَّانِي.

لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣).

{لِتَسْتَوُوا} لِتَسْتَقِرُّوا {عَلَى ظُهُوره} ذَكَرَ الضَّمِير وَجَمَعَ الظَّهْر نَظَرًا لِلَفْظِ مَا وَمَعْنَاهَا {ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَة رَبّكُمْ إذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَان الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مقرنين} مطيقين.

وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤).

{وَإِنَّا إِلَى رَبّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} لَمُنْصَرِفُونَ[1].

---

(١) اللام في قوله- تعالى-: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ للقسم. وجوابه قوله- تعالى- بعد ذلك: لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ....

والمعنى: وحق الله الذي لا إله إلا هو، لئن سألت- أيها الرسول الكريم- هؤلاء المشركين عمن خلق هذا الكون، ليقولن بدون تردد: الله- تعالى- المتصف في نفس الأمر بالعزة والعلم.

فالآية الكريمة تدل دلالة صريحة على أن هؤلاء المشركين يعترفون بأن الله هو الخالق لهذا العالم، وأن معبوداتهم بعض خلقه- تعالى- ولكنهم لجهلهم وانطماس بصائرهم أشركوها معه في العبادة، وقالوا: ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى =

=

اللهِ زُلْفى ...

ويبدو أن هاتين الصفتين: الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ليستا من أقوالهم. فهم كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق لهذا الكون، ولكنهم لم يكونوا يعرفون الله بصفاته التي جاء بها القرآن الكريم.

ولذا قال بعض العلماء: الذي يظهر أن هذا الكلام مجزأ، فبعضه من قولهم وبعضه من قول الله- تعالى-، فالذي هو من قولهم خَلَقَهُنَّ، وما بعده من قول الله- ﷻ، وأصل الكلام أنهم قالوا: خلقهن الله، ويدل عليه قوله- تعالى- في آية أخرى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ.

ثم لما قالوا: خلقهن الله وصف الله- تعالى- ذاته بهاتين الصفتين.

قال الطبري: يقول:"ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من قومك: من خلق السموات السبع والأرضين، فأحدثهن وأنشأهن؟ ".

عن عكرمة، قال: "هو قول الله: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ) [سورة لقمان: ٢٥/ سورة الزمر:٣٨]. فإذا سئلوا عن الله وعن صفته، وصفوه بغير صفته، وجعلوا له ولدًا، وأشركوا به".

عن مجاهد:"{وله أسلم من في السموات والأرض}، قال: هو كقوله: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ) [سورة الزمر: ٣٨] ".

قال ابن إسحاق:"ابتدع السماوات والأرض ولم يكونا إلا بقدرته، لم يستعن على ذلك بأحد من خلقه ولم يشركه في شيء من أمره بسلطانه القاهر وقوله النافذ الذي يقول به لما أراد أن يكون له كن فيكون ففرغ من خلق السماوات والأرض في ستة أيام".

قوله تعالى: {لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} [الزخرف:٩]، أي:"ليقولُنَّ: خلقهنَّ العزيز في سلطانه، العليم بهن وما فيهن من الأشياء، لا يخفى عليه

=

=

شيء".

قال الطبري: يقول:"ليقولنّ: خلقهنّ العزيز في سلطانه وانتقامه من أعدائه، العليم بهن وما فيهنّ من الأشياء، لا يخفى عليه شيء".

قال ابن كثير:"أي: ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله تعالى وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد".

قال السمعاني:"وهذا على طريق التعجيب من حالهم، أي: كيف يعبدون الأصنام ويزعمون أن لله شريكا، وقد أقروا أن الله تعالى خالق السموات والأرض؟ ".

قال الواحدي: أي:"أقروا بعزتي وعلمي، وهذا إخبار عن غاية جهلهم، إذ أقروا بأن الله خلق السموات والأرض، ثم عبدوا معه غيره، وأنكروا قدرته على البعث، وقد تم الإخبار عنهم".

قال البغوي:"أقروا بأن الله خالقها، وأقروا بعزه وعلمه ثم عبدوا غيره وأنكروا قدرته على البعث لفرط جهلهم. إلى هاهنا تم الإخبار عنهم".

قال محمد بن إسحاق: "العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء"، الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده".

قال أبو العالية:"{عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن أبي العالية:"{حكيم}، قال: حكيم في أمره".

ثم وصف- سبحانه- ذاته بصفات أخرى فقال: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً....

المهد والمهاد: الفراش الممهد المذلل الذي يستقر عليه من جلس فوقه.

أى: الخالق لهذا العالم هو الله العزيز العليم، الذي جعل لكم الأرض كالفراش

=

=

الممهد، حيث بسطها لكم، وجعلها صالحة لسيركم عليها، ولإنبات الزروع فيها.

وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا أي: وجعل لكم فيها طرقا متعددة، لكي تسلكوها، فتصلوا من بلد إلى آخر، ومن قطر إلى قطر، كما قال- تعالى- في آية أخرى وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً، لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً.

وقوله- تعالى-: لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ بيان للحكمة من جعل الأرض كذلك، أي: جعلها ممهدة كثيرة الطرق، لعلكم تهتدون إلى ما تريدون الوصول إليه من البلاد، ومن المنافع المتعددة.

قال الطبري:"يقول: الذي مهد لكم الأرض، فجعلها لكم وطاء توطئونها بأقدامكم، وتمشون عليها بأرجلكم".

قال ابن كثير:"أي: فراشًا قرارًا ثابتة، يسيرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا".

عن السديّ:"{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ مَهْدًا}، قال: بساطا".

عن الحسن، في قوله تعالى: {الْأَرْضَ مِهَادًا} [النبأ: ٦] قال: «فراشا».

قوله تعالى: {وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا} [الزخرف:١٠]، أي:"وسهَّل لكم فيها طرقًا لمعاشكم ومتاجركم".

قال الطبري:"يقول: وسهل لكم فيها طرقا تتطرّقونها من بلدة إلى بلدة، لمعايشكم ومتاجركم".

قال ابن كثير:"أي: طرقا بين الجبال والأودية".

قال ابن عطية:"«السبل»: الطرق".

عن قتادة: "{وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا}، أي: طرقا".

=

=

عن السديّ: "{وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا}، قال: الطرق".

قال ابن عباس:"سَهَّل لكم فيها طرقًا تسلكونها".

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الزخرف:١٠]، أي:"لكي تهتدوا بتلك السبل إلى مصالحكم الدينية والدنيوية".

قال الطبري:"يقول: لكي تهتدوا بتلك السبل إلى حيث أردتم من البلدان والقرى والأمصار، لولا ذلك لم تطيقوا براح أفنيتكم ودوركم، ولكنها نعمة أنعم بها عليكم".

قال الواحدي:"لكي تهتدوا في أسفاركم إلى مقاصدكم".

قال ابن كثير:"أي: في سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم".

قال السمعاني: أي:"تهتدون بسلوكها في أسفاركم. وقيل: في معايشكم وتصرفاتكم".

قال ابن عطية:"{تَهْتَدُونَ}، معناه: في المقاصد من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر، ويحتمل أن يريد: تَهْتَدُونَ بالنظر والاعتبار".

ثم وصف- سبحانه- ذاته بصفة ثانية فقال: {وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}.

أي: وهو- تعالى- الذي أنزل من السماء ماء بمقدار معين على قدر حاجتكم ومصلحتكم فلا هو بالكثير الذي يغرقكم، ولا هو بالقليل الذي لا يكفى حاجتكم، بل نزله بقدر كفايتكم، كما قال- سبحانه-: وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ، فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ.

وكقوله- تعالى- في آية ثانية: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ، وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ....

وقوله- سبحانه-: فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً بيان للآثار المترتبة على هذا الإنزال

=

=

للماء.

أي: نحن الذين بقدرتنا أنزلنا من السماء ماء على قدر حاجتكم، وحسبما تقتضيه مصلحتكم، فأحيينا بهذا الماء بلدة مجدبة، لا نبات فيها ولا زرع.

فالمراد بالنشور: الإحياء للأرض عن طريق إنبات الزرع بها، بعد أن كانت مجدبة.

وقوله: كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ بيان لإمكانية إحياء الناس بعد موتهم.

أي: مثل ذلك الإحياء للأرض بعد موتها، تخرجون أنتم من قبوركم أحياء يوم القيامة.

قال الطبري:"يعني: ما نزل جلّ ثناؤه من الأمطار من السماء بمقدار حاجتكم إليه، فلم يجعله كالطوفان، فيكون عذابا كالذي أنزل على قوم نوح، ولا جعله قليلا لا ينبت به النبات والزرع من قلته، ولكن جعله غيثا، حيا للأرض الميتة محييا".

قال السمعاني:"{بِقَدَرٍ}، أي: بمقدار معلوم، فلا ينقص عن حاجات الناس فلا ينتفعون به، ولا يزيد فيكون سيلا مهلكا، وهذا على أكثر الأحوال، وقد يكو بخلافه".

قال الزمخشري:"{بِقَدَرٍ}، بمقدار يسلم معه البلاد والعباد، ولم يكن طوفانا".

قال ابن كثير:"{بِقَدَرٍ}، أي: بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم، لأنفسكم ولأنعامكم" .. "حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيرًا لزرعها ولا تحتمل دِمْنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها: "الأرض الجرُز"، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طينًا أحمر، فيسقي أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزدرعوا فيه، لأن أرضهم سباخ يغلب

=

=

عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور ".

قال أبو هريرة:"ما نزل قطر إلا بميزان".

قال عكرمة:"ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشبة أو في البحر لؤلؤة".

قال خالد بن معدان: "إن المطر ماء يخرج من تحت العرش فينزل من سماء إلى سماء حتى يجتمع في السماء الدنيا فيقع في شيء يقال له الإبزم فيجتمع فيه ثم يجئ السحاب السوداء فتدخله فتشربه مثل شرب الإسفنجة فيسوقها الله حيث يشاء".

قوله تعالى: {فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا} [الزخرف:١١]، أي:"فأحيينا بالماء بلدة مُقْفِرَة من النبات".

قال الطبري: يقول: "فأحيينا به بلده من بلادكم ميتا، يعني مجدبة لا نبات بها ولا زرع، قد درست من الجدوب، وتعفنت من القحوط".

قال السمعاني:"معناه: أحيينا به أرضا ميتة".

قال ابن كثير:"أي: أرضا ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} [الزخرف:١١]، أي:"كما أخرجنا بهذا الماء الذي نزلناه من السماء من هذه البلدة الميتة النبات والزرع، تُخْرَجون-أيها الناس- من قبوركم بعد فنائكم".

قال الطبري: يقول:"كما أخرجنا بهذا الماء الذي نزلناه من السماء من هذه البلدة الميتة بعد جدوبها وقحوطها النبات والزرع، كذلك أيها الناس تخرجون من بعد فنائكم ومصيركم في الأرض رفاتًا بالماء الذي أنزله إليها لإحيائكم من بعد مماتكم منها أحياء كهيئتكم التي بها قبل مماتكم".

=

=

قال السمعاني:"يعني: تبعثون يوم القيامة".

قال ابن كثير:"ثم نبه بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: {كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} ".

قال قتادة:"كما أحيا الله هذه الأرض الميتة بهذا الماء كذلك تبعثون يوم القيامة".

عن سليمان بن موسى قال: قال أبو رزين العقيلي: "أتيت رسول الله ﷺ فقلت: كيف يحيي الله الموتى؟ قال: ما أتيت على أرض من أرضك وهي مجدبة؟ قلت: بلى. ثم أتيت عليها وهي مخصبة؟ قلت: بلى. ثم أتيت عليها وهي مجدبة؟ قلت: بلى: ثم أتيت عليها وهي مخصبة؟ قلت: بلى، قال: كذلك النشور".

قال الآلوسى: وفي التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذي هو إحياء الموتى، وعن إحيائهم بالإخراج، تفخيم الإنبات، وتهوين لأمر البعث، وفي ذلك من الرد على منكريه ما فيه.. ا.هـ.

وشبيه بهذه الآية قوله: وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ، فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ، كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

ثم وصف- سبحانه- ذاته بصفة ثالثة فقال: {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ} أى: خلق أصناف وأنواع المخلوقات كلها. فالمراد بالأزواج هنا: الأصناف المختلفة من الذكر والأنثى. ومن غير ذلك من أنواع مخلوقاته التي لا تحصى.

قال- سبحانه- سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ.

وقوله- تعالى-: وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ أى: وسخر لكم

=

=

بقدرته ورحمته من السفن التي تستعملونها في البحر، ومن الإبل التي تستعملونها في البر، ما تركبونه وتحملون عليه أثقالكم، وتنتقلون بواسطته من مكان إلى آخر. فما في قوله ما تَرْكَبُونَ موصولة، والعائد محذوف والجملة مفعول جَعَلَ وقوله: مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ بيان له مقدم عليه. أي: وجعل لكم ما تركبونه من الفلك والأنعام.

قوله تعالى: {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا} [الزخرف:١٢]، أي:"والذي خلق الأصناف كلها من حيوان ونبات".

قال الطبري: يقول:"والذي خلق كلّ شيء فزوّجه، أي: خلق الذكور من الإناث أزواجا، الإناث من الذكور أزواجا".

قال مقاتل:"يعني: الأصناف كلها".

قال الزجاج:"معناه: خلق الأصناف كلها، تقول: عندي من كلِّ زوج، أي: من كلِّ صنف".

قال القشيري:"أي: الأصناف من الخلق".

قال الواحدي:"أي: الأصناف والضروب والألوان والذكر والأنثى".

قال ابن كثير:"أي: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك، أي: من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها".

قال السعدي:"أي: الأصناف جميعها، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، من ليل ونهار، وحر وبرد، وذكر وأنثى، وغير ذلك".

وقال الحسن:"يعني: الشتاء والصيف، والليل والنهار، والسماء والأرض، وكل اثنين، فالواحد منهما زوج".

قال السمعاني:"أي: الأصناف كلها، ويقال: لكل شيئين قرينين زوجان، وكل واحد منهما زوج صاحبه، وذلك السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس

=

=

والقمر، والجنة والنار، وما أشبه ذلك. وكذلك ما يعود إلى أحوال الإنسان من المرض والصحة، والفقر والغنى، والخير والشر، والنوم واليقظة، وما أشبه ذلك".

قوله تعالى: {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ} [الزخرف:١٢]، أي:"وجعل لكم من السفن ما تركبون في البحر، ومن البهائم كالإبل والخيل والبغال والحمير ما تركبون في البر".

قال الطبري:"يقول: جعل لكم من السفن ما تركبونه في البحار إلى حيث قصدتم واعتمدتم في سيركم فيها لمعايشكم ومطالبكم، ومن الأنعام ما تركبونه في البر إلى حيث أردتم من البلدان، كالإبل والخيل والبغال والحمير".

قال الزجاج:"أي: خلق لكم وسخرها لكم".

قال ابن كثير:"{وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ}، أي: السفن {وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ} أي: ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها، وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها".

قال السعدي:"{وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ} أي: السفن البحرية، الشراعية والنارية، {مَا تَرْكَبُونَ} ".

عن مجاهد: "الفلك: السفينة".

ثم بين- سبحانه- الحكمة من هذا التذليل والتسخير للفلك والأنعام فقال: لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ.. والضمير في ظُهُورِهِ يعود إلى ما في قوله ما تَرْكَبُونَ وجاء مفردا رعاية للفظ ما وجمع الظهور لأن المراد بالمركوب جنسه.

والاستواء: الاستعلاء على الشيء، والتمكن منه، أى: سخر لكم من السفن والأنعام ما تركبونه، ولتستعلوا على ظهوره استعلاء المالك على مملوكه.

ثُمَّ تَذْكُرُوا بعد كل هذا التمكن والاستعلاء نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ أى:

=

=

على تلك السفن والأنعام التي تركبونها.

والضمير في عَلَيْهِ يعود- أيضا- الى ما في قوله ما تَرْكَبُونَ باعتبار لفظه وَتَقُولُوا على سبيل الشكر لله- تعالى- والاعتراف بفضله سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا.

أى: وتقولوا: جل شأن الله، وتنزه عن الشريك والمثيل، فهو الذي سخر لنا هذا المركوب من الفلك والأنعام، وجعله منقادا لنا، طائعا لأمرنا.

وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ أى: والحال أننا ما كنا لهذا المركوب الصعب بقادرين على التمكن منه، لولا أن الله- تعالى- سخره لنا، وجعله منقادا لأمرنا.

فقوله: مُقْرِنِينَ أى: مطيقين وقادرين وضابطين، من أقرن الشيء، إذا أطاقه وقدر عليه، حتى لكأنه صار له قرنا، أى: مثله في الشدة والقوة.

والمقصود: ما كنا بقادرين أو بمطيقين لتذليل هذه السفن والأنعام، لولا أن الله- تعالى- قد جعلها منقادة لنا، ومسخرة لخدمتنا.

ولا يخفى أن الجمل أقوى من الإنسان، وأن البحر لو لم يذلله- سبحانه- لنا، لما قدرت السفن على الجري فيه.

قال القرطبي: قوله: وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ أى: مطيقين.. أو ضابطين وفي أصله قولان: أحدهما: أنه مأخوذ من الإقران، يقال: أقرن يقرن إقرانا إذا أطاق. وأقرنت كذا: أطقته وحكمته، كأنه جعله في قرن- أى: حبل- فأوثقه به وشده.

والثاني: أنه مأخوذ من المقارنة، وهو أن يقرن بعضها ببعض في السير يقال: قرنت كذا بكذا إذا ربطته به، وجعلته قرينه.

وقوله: وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ من جملة ما يقولونه- أيضا- عند استوائهم على ظهور السفن والإبل.

أى: تقولون إذا استويتم عليه: سبحان الذي سخر لنا هذا المركب الصعب، وما كنا بقادرين على تذليله لولا أن الله- تعالى- وفقنا لذلك، وإنا إلى ربنا وخالقنا

=

=

لراجعون يوم القيامة، لكي يحاسبنا على أعمالنا، ويجازينا عليها بجزائه العادل.

قوله تعالى: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} [الزخرف:١٣]، أي:"لكي تستقروا على ظهور ما تركبون".

قال ابن كثير:"أي: لتستووا متمكنين مرتفقين على ظهور هذا الجنس".

قوله تعالى: {ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ} [الزخرف:١٣]، أي:"ثم تذكروا نعمة ربكم إذا ركبتم عليه".

قال الطبري: يقول:"ثم تذكروا نعمة ربكم التي أنعمها عليكم بتسخيره ذلك لكم مراكب في البر والبحر {إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ} فتعظموه وتمجدوه".

قال ابن كثير:" {ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ} أي: فيما سخر لكم".

قال السعدي:"وهذا شامل لظهور الفلك ولظهور الأنعام، أي: لتستقروا عليها، {ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ} بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها، والثناء عليه تعالى بذلك".

قال مقاتل:"يعني: يقولون الحمد لله".

قال الزمخشري:"معنى ذكر نعمة الله عليهم: أن يذكروها في قلوبهم معترفين بها مستعظمين لها".

قوله تعالى: {وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا} [الزخرف:١٣]، أي:"وتقولوا بألستنكم عند ركوبكم: سبحان الله الذي ذلَّل ويسَّر لنا ركوب هذا المركوب".

قال الطبري: أي:"وتقولوا تنزيها لله الذي سخر لنا هذا الذي ركبناه من هذه الفلك والأنعام، مما يصفه به المشركون، وتشرك معه في العبادة من الأوثان والأصنام {وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} ".

قال ابن كثير:"أي: مقاومين. ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه".

=

=

قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} [الزخرف:١٣]، أي:"وما كنا له مطيقين لركوبه لولا تسخيره تعالى لنا".

قال الطبري: أي:"وما كنا له مطيقين ولا ضابطين".

قال السمعاني:"أي: ما كنا نطيق تذليله وتسخيره لولا أن الله تعالى ذلله وسخره لنا".

عن مجاهد، قوله:"{مُقْرِنِينَ}، قال: الإبل والخيل والبغال والحمير".

وفي قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} [الزخرف:١٣]،وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: ضابطين، قاله ابو عبيدة، والأخفش.

قال أبو عبيدة:"يقال: فلان مقرن لفلان، أي: ضابط له مطيق، قال الكميت:

ركبتم صعبتى أشرا وحينا... ولستم للصّعاب بمقرنينا".

الثاني: أي: لم يجعلنا من قرن الدواب ومن أشكالها. حكاه الماتريدي.

قال الماتريدي:"أي: لم يجعلنا من قرن الدواب ومن قرنها بحيث نستعمل لما تستعمل الدواب، ونركب على الظهور".

الثالث: مطيقين، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن زيد، ومقاتل،والكلبي، والفراء، قال عمرو بن معد يكرب:

لَقَدْ عَلِمَ القَبَائِلُ مَا عُقَيْلٌ... لَنَا فِي النَّائِبَاتِ بِمُقْرِنِينَا

قال الماتريدي:"وأصل هذا التأويل أن الدواب والأنعام في أنفسها أشد وأكثر قوة وأعظمها من البشر، لكن الله- تعالى- بفضله ومنه علم الإنسان الحيل، حتى قدر على استعمال الدواب والأنعام مع قوتها وشدتها حيث شاءوا وسخرها لهم" (.

قال الفراء:"تقول للرجل: قد أقرنت لهذا، أي: أطقته، وصرت له قرنا".

قال ابن قتيبة:"يقال: أنا مُقْرِن لك؛ أي مطيق لك".

=

=

قال الواحدي:"معنى المقرن: المطيق، يقال: أقرنت هذا البعير، أي: أطقته".

قال معمر: "سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله تعالى: {وما كنا له مقرنين}، فلم يجبني، فقلت: اني سمعت قتادة يقول: مطيقين، فسكت، فقلت له: ما تقول ياأبا عمرو؟ فقال: حسبك قتادة، فلولا كلامه في القدر- وقد قال (-ﷺ-): اذا ذكر القدر فأمسكوا- لما عدلت به أحدا من أهل دهره".

عن قتادة: "{وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}، أي: مُطِيقين، لا والله لا في الأيدي ولا في القوّة".

وفي رواية:"«في العتاد في القوة».

قال ابن زيد:"لسنا له مطيقين، قال: لا نطيقها إلا بك، لولا أنت ما قوينا عليها ولا أطقناها".

وفي أصله قولان:

أحدهما: أن أصله مأخوذ من: «الإقران»، يقال: أقرن فلان إذا أطاق.

قال الزجاج:"من قولك: أنا لفلان مقرن، أي: مطيق، أي قد صرت قرناً له".

الثاني: أن أصله مأخوذ من: «المقارنة»، وهو أن يقرن بعضها ببعض في السير.

قال ابن قتيبة:"يقال: هو من قولهم: أنا قِرْن لفلان؛ إذا كنت مثله في الشدة، وإن فتحت- فقلت: أنا قَرْن لفلان.- أردتَ: أنا مثله في السنّ".

وقال النحاس:"يقال: هو قرنه في القتال وهو على قرنه، أي: مثله في السن".

قال الزمخشري:"وحقيقة «أقرنه»: وجده قرينته وما يقرن به، لأنّ الصعب لا يكون قرينة للضعيف. ألا ترى إلى قولهم في الضعيف: لا يقرن به الصعبة".

قوله تعالى: {وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} [الزخرف:١٤]، أي:"ولتقولوا أيضًا: وإنا إلى ربنا بعد مماتنا لصائرون إليه راجعون".

قال الطبري: أي:"وليقولوا أيضا: وإنا إلى ربنا من بعد مماتنا لصائرون إليه

=

=

راجعون".

قال البغوي: أي:"لمنصرفون في المعاد".

قال الزجاج:"أي: نحن مقرُّون بالبعث".

قال ابن كثير:"أي: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [البقرة: ١٩٧] وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله تعالى: {وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ [ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ]} [الأعراف: ٢٦] ".

عن سعيد بن جبير، قوله: "{إنا إلى ربنا منقلبون}، يعني: إنا إلى ربنا راجعون".

قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف اتصل بذلك قوله: {وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ} ؟ قلت: كم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحمت أو طاح من ظهرها فهلك، وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرقوا، فلما كان الركوب مباشرة أمر مخطر، واتصالا بسبب من أسباب التلف: كان من حق الراكب وقد اتصل بسبب من أسباب التلف أن لا ينسى عند اتصاله به يومه، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعد اللقاء الله بإصلاحه من نفسه، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه، ويستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه: تعالوا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق، فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف، فلا يزالون يسقون حتى تميل طلاهم وهم على ظهور الدواب، أو في بطون السفن وهي تجرى بهم، لا يذكرون إلا الشيطان، ولا يمتثلون إلا أوامره. وقد بلغني أنّ بعض السلاطين ركب وهو يشرب من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر، فلم يصح إلا بعد ما اطمأنت به الدار، فلم يشعر بمسيره

=

ولا أحس به، فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمره الله به في هذه الآية. وقيل: يذكرون عند الركوب ركوب الجنازة".

عن قتادة، قوله: "{لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ}: يعلمكم كيف تقولون إذا ركبتم في الفلك تقولون: {بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}، وإذا ركبتم الإبل قلتم: {سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ}، ويعلمكم ما تقولون إذا نزلتم من الفلك والأنعام جميعا تقولون: اللهمّ أنزلنا منزلا مباركًا وأنت خير المنزلين".

عن مجاهد: "من ركب ولم يقل: {سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين}، قال له الشيطان: تغنه فإن لم يحسن قال له تمنه".

عن ابن طاوس، عن أبيه:"أنه كان إذا ركب قال: اللهمّ هذا من منك وفضلك، ثم يقول: {سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} ".

وفي رواية: "أنه كان «إذا ركب قال: بسم الله، اللهم إن هذا من منك وفضلك علينا، الحمد لله ربنا»، ثم يقول: {سبحان الذي سخر لنا هذا} [الزخرف: ١٣] الآية".

وحكي ابن ابي زمنين عن طاووس: "حق على كل مسلم إذا ركب دابةً أو سفينة أن يقول: «اللهم لك الحمد هذا من فضلك ونعمك علينا، فلك الحمد ربنا، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون»، أي: راجعون إلى الله من آخر عمرنا على مركب آخر، وهو الجنازة، أمروا بهذا وعظا".

عن علي بن ربيعة، قال شهدت علي بن أبي طالب ﵁ أتي بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله ثم

=

قال {سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون} ثم قال: الحمد لله ثلاث مرات، ثم قال: الله أكبر ثلاث مرات، ثم قال: سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك، فقيل: يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكت؟ فقال: رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت ثم ضحك، فقلت: يا رسول الله، من أي شيء ضحكت؟ فقال: إن ربك سبحانه وتعالى يعجب من عبده إذا قال: اغفر لي ذنوبي، يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري » ". أخرجه أحمد (١/ ٩٧ رقم ٧٥٣)، وأبو داود (٢/ ٤٠ رقم ٢٦٠٢)، والترمذي (٥/ ٥٠١ رقم ٣٤٤٦)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٤٧ رقم ٨٧٩٩)، والطيالسي (ص٢٠ رقم ١٣٢)، وأبو يعلى (١/ ٤٣٩ رقم ٥٨٦)، والبزار (٧٧٣)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص٥٨ رقم ٨٨)، وابن حبان (٦/ ٤١٥ رقم ٢٦٩٨)، والدارقطني في العلل (٤/ ٦٢- ٦٣)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢٥٢ رق ١٠٠٩٧)، والطبراني في الدعاء (٧٨١، ٧٨٤، ٧٨٥، ٧٨٦، ٧٨٧)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (١٤٥- ١٤٦)، والضياء المقدسي في المختارة (٢/ ٢٩٥) والحديث صححه الترمذي، وابن حبان، وقال النووي في الأذكار (٢٨٠): إسناده صحيح، وقال المصنف كما في صيغ الحمد (١/ ٤٣): إسناده صحيح، وقال الحافظ كما فى كما في الفتوحات الربانية (٥/ ١٢٥): رجاله كلهم موثقون من رجال الصحيح إلا ميسرة وهو ثقة، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٢/ ٢٣٤): إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢/ ١٤٨): حسن لغيره.

وعن عبد الله بن عمر: "أن النبي -صلي الله عليه وسلم- كان إذا ركب راحلتَه كبَّر ثلاثـًا، ثم قال: « {سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا

=

=

لَمُنْقَلِبُونَ} »، ثم يقول: «اللهم إني أسألك في سفري هذا البرَّ والتقوى، ومنَ العمل ما تَرْضى، اللهم هون علينا السفر، واطْوِلَنَا البعيد، اللهم أنتَ الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصْحبنا في سفرنا، واخْلفْنَا في أهلنا»، وكان إذا رجع إلى أهله قال: «آيبون تائبون إن شاء الله، عابدون حامدون» " رواه مسلم.

وروي عن أبي الزبير، أن عليا الأزدي، أخبره أن ابن عمر علمهم:"أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر، كبر ثلاثا، ثم قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل»، وإذا رجع قالهن وزاد فيهن: «آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون».

وحكى سليمان بن يسار:"أن قوماً كانوا في سفر، فكانوا إذا ركبوا قالوا: {سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}، وكان فيهم رجل على ناقة له رازم وهي لا تتحرك هزالاً فقال أما أنا فإني لهذه مقرن، قال فقصمت به فدقت عنقه".

قال سهل في الآية:"إن الله خص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبعض الصديقين بمعرفة نعم الله تعالى عليهم قبل زوالها وحلم الله عنهم، ومن لم يعرف نعم الله عليه إلا في مطعمه ومشربه ومركبه فقد صغرت عنده نعم الله".

مسائل في دعاء ركوب الدابة.

المسألة الأولى: هل يشرع دعاء ركوب الدابة عند ركوب المصعد.

سئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٩/ ٣٠٦): هل يسن أن نقول دعاء

=

=

الركوب عندما نركب في المصعد الموجود في المباني والذي يصعد بالناس من طابق إلى طابق؟ وهل هناك حصر للحالات التي يقال فيها هذا الدعاء؟ أرشدونا جزاكم الله خيرا.

فأجاب: دعاء الركوب إنما يستحب عند ركوب العبد للدابة أو السيارة أو الطائرة أو الباخرة أو غيرها لقصد السفر. أما الركوب العادي في البلد أو في المصعد فلا أعلم في الأدلة الشرعية ما يدل على شرعية قراءة دعاء السفر.

ومعلوم عند أهل العلم أن العبادات كلها توقيفية، لا يشرع منها إلا ما دل عليه الدليل من الكتاب أو السنة أو الإجماع الصحيح، والله ولي التوفيق.

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: هل يلزم في ركوب الدابة كلما ركب الدابة يدعو بدعاء الركوب؟

فأجاب: ظاهر القرآن أن الإنسان كلما ركب على البعير أو السيارة أو السفينة أو القطار أن يقول: (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون) السائل: هل يقاس المصعد على ذلك؟ الجواب: لا. لا أظن المصعد الكهربائي كهذا، لا أظنه من هذا النوع وإنما هو درج مسهل.

المسألة الثانية: متى يقال دعاء السفر؟

سئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: ذهبنا من القصيم إلى الرياض في سفر قبل أمس؛ فأشكل علينا أنا والإخوة سؤالان، نقول: متى يقال دعاء السفر؟ هل هو عند الخروج من المدينة أم عند ركوب الدابة؟ وعندما رجعنا من الرياض اختلف الشباب في المكان الذي يقال فيه دعاء السفر، فقال البعض: مكانه عندما نشرف على المدينة- عنيزة- ونراها؛ لأنه فعل النبي ﷺ كما يزعمون، وقال بعضهم: بل مكانه حال خروجنا من الرياض متوجهين إلى القصيم ويدل عليه سياق الحديث حيث قال ﷺ في هذا الدعاء: (اللهم إنا

=

=

نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى) وقال: (اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل) فكيف يقول هذا وقد انتهى من سفره ووصل إلى أهله؟ أفتونا مأجورين.... فأجاب: الدعاء المأثور يذكر إذا ركب الدابة أو السيارة، لقوله تعالى: وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه [الزخرف:١٢ - ١٣] أي: ما جعل لنا من الفلك والأنعام، والآن نحن نركب الفلك لكنه فلك بري، والفلك ثلاثة أنواع: بري، وبحري، وجوي، ولا يعرف في عهد الرسول ﷺ إلا البحري لكنه الآن تنوع بهذا التنوع، فإذا استوى عليه قرأ الذكر وقال: (اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل) أما إذا رجع فإنه يقول: (آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون) إذا قفل من البلد التي رجع منها وعند رؤية بلده. فالأول يقال في حال السفر فقط، لكن (آيبون تائبون) في الرجوع عند العودة، أما سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين [الزخرف:١٣] فيقوله كلما ركب الدابة، سواء في السفر أو في الحضر حتى إذا ركبت السيارة الآن من بيتك إلى المسجد تقول: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون [الزخرف:١٣- ١٤].

المسألة الثالثة: حكم ذكر دعاء السفر على شكل جماعي.

سئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: دعاء السفر إذا كنا مجموعة هل يدعو أحدنا والمجموعة تأمن أو يدعو كل واحد منا على حدة؟

فأجاب: إذا كان يريد أن يدعو لهم لا بأس، يقول وهم يسمعون ويؤمنون؛ لأنه تعالى قال لموسى لما قال: (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) فكان الذي يقوله موسى، قال الله تعالى: (قد أجيبت دعوتكما) قال العلماء: تفسير هذا أن موسى كان يدعو وهارون يؤمن.

=

=

وإن قاله كل إنسان على حدة فلا بأس. وإلى هنا ينتهي هذا اللقاء، وسبحانك الله ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وقال العلامة العثيمين في تفسيره: قال الله ﷻ: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم (٩)} [الزخرف: ٩].

{ولئن سألتهم} الخطاب للنبي- صلى الله عليه وعلى آله وسلم-الجملة هذه فيها شرط وفيها قسم، فيها شرط {ولئن}، وفيها قسم دلت عليه اللام؛ لأن اللام موطئة للقسم، والقسم يحتاج إلى جواب، والشرط يحتاج إلى جواب، فالقسم يحتاج إلى جواب وهو ذكر المقسم عليه، والشرط يحتاج إلى جواب وهو جواب الشرط، فإذا اجتمعا ماذا نقدم؟

الجواب: يقول ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الألفية:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ... جواب ما أخرت فهو ملتزم

الآية الكريمة التي معنا المؤخر هو الشرط، إذن: احذف جواب الشرط واكتف بجواب القسم عنه؛ ولذلك نجد أن الآية قرن بالجواب اللام، وهي {ليقولن} ولو كان هذا جوابا للشرط لم نحتج إلى اللام.

وقوله: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض} حذف منه نون الرفع لتوالي النونات وواو الضمير؛ لالتقاء الساكنين {ليقولن} أصلها قبل الحذف (لتقولونن) عندنا ثلاث نونات، احذف النون الأولى؛ لأن حذفها معتاد، أي: حذف نون الرفع من المضارع كثير، ولأن نون التوكيد جاءت لغرض لو حذفناها لفات الغرض، وهو التوكيد، إذن: فنحذف نون الرفع، وهي النون الأولى؛ لتوالي النونات، ثم يأتي دور الضمير (لتقولونن) الواو حذفناها لالتقاء الساكنين، الساكنان هما: الواو الساكنة، والنون المشددة الحرف الأول منها ساكن، فتحذف الواو.

=

=

هذا التعليل هو من النحويين لا شك، وإلا فالرجل العربي حينما يتكلم بهذه الكلمات لا يخطر على باله أنه حذف نون الرفع وحذف واو الضمير وما أشبه ذلك. لكن علماء النحو رحمهم الله يلتمسون التوجيهات لكلام العرب، فوجدوا هذا التوجيه، ولو قلت لهم: من خلق السموات والأرض؟ {خلقهن العزيز العليم} انظر الجواب-وهو جواب صحيح مئة بالمئة-: {خلقهن} أي: السموات والأرض {العزيز العليم}.

وقوله: {العزيز} ذو العزة، والعزة أبرز معانيها الغلبة، يقال: عز فلان فغلب. ولها معنى آخر وهو: القدر، يعني: الشرف والرفعة. ولها معنى ثالث وهو: الشدة والصلابة؛ ومنها قولهم: أرض عزاز؛ أي: شديدة صلبة.

وإذا أردنا أن نطبق هذه المعاني على الوصف الذي اتصف الله به من العزة، فنقول؛ عزيز من العز وهو الغلبة، وعزيز من عزة القدر، ومعلوم أن الله ﷻ أعظم قدرا من كل شيء، وعزيز من عزة الشدة والصلابة والامتناع؛ وذلك أن الله تعالى ممتنع أن يتصف بأي سوء وأي عيب.

وقوله: {العليم} أي: ذو العلم التام.

وتأمل كيف جاؤوا بهذ العبارة {العزيز العليم} إشارة إلى أنهم موقنون بأنهم أذلاء أمام الله سبحانه وتعالى، وأن جميع ما في السموات والأرض فإنه صادر عن علم، قالوا: {العزيز العليم} وهذا الإقرار يلزمهم أن يقروا بأنه لا إله إلا الله، لكنهم لم يفعلوا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: فيها دليل على أن المشركين يقرون بتوحيد الربوبية لقولهم في الجواب: {خلقهن العزيز العليم} والأمر كذلك، وإقرارهم بتوحيد الربوبية يلزمهم أن يقروا بتوحيد الألوهية، فيمال: إذا أقررتم أنه لا خالق إلا الله فأقروا أنه

=

=

لا معبود حقا إلا الله.

الفائدة الثانية: أن للسموات عددا؛ لقوله: {السماوات} وقد جاء في القرآن الكريم وفي السنة النبوية أن عدد السموات سبع، قال الله تبارك وتعالى: {الله الذي خلق سبع سماوات} [الطلاق: ١٢].

أما الأرض فلم يأت في القرآن تصريح بأنها سبع، لكن ظاهر القرآن كذلك، مثل قوله ﷻ: {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن} [الطلاق: ١٢]، فإن الموازنة هنا لا يمكن أن تكون بالحجم ولا بالقوة؛ لأن السموات أوسع وأعظم من الأرض وأقوى، فلم يبق إلا العدد، وقد جاءت السنة صريحة في ذلك، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: "من اقتطع شبرا من الأرض ظلما طوقه يوم القيامة من سبع أرضين"، والسموات طباق، واحدة فوق الأخرى، وإذا كان واحدة فوق الأخرى لزم أن تكون السماء الثانية أوسع من الأولى؛ لأنها دائرة، والثالثة: أوسع من الثانية، وهلم جرا.

ولهذا قال ﷻ: {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون (٤٧)} [الذاريات: ٤٧] كلما ارتفعت في السموات اتسعت السموات، وهي طباق بلا شك كما في القرآن الكريم وكما جاء ذلك صريحا في حديث النعمان رضي الله عنه، أما الأرض فهي طباق أيضا بدليل أن من اقتطع شبرا من الأرض التي نحن عليها طوقه من سبع أرضين، ولولا أن الأرض الثانية تحت، والثالثة تحتها، وهكذا لم يطوق الإنسان من سبع أرضين؛ لأنه ما غصب إلا ظاهر الأرض، فتكون الأرضون طباقا.

أما كيف هذه الطباق، فإلى الآن لم نصل إلى علم بها، وعلماء الجيولوجيا الذين يحفرون أعماق الأرض لا يطلعون على هذا، فهو مجهول لنا، لكن الحديث: "طوقه يوم القيامة من سبع أرضين" يدل على أنها طباق.

الفائدة الثالثة: إثبات هذين الاسمين لله سبحانه وتعالى، وهما {العزيز العليم}

=

=

واعلم أخي أن كل اسم من أسماء الله فهو متضمن لصفة، فالعزيز متضمن لصفة العزة، والعليم متضمن لصفة العلم، وليس كل صفة يشتق منها اسم؛ ولهذا نقول: إن باب الصفات أوسع من باب الأسماء؛ لأنه يوجد صفات ليس لله منها أسماء، لكن لا يوجد اسم إلا ومنه صفة، والله أعلم.

قال الله ﷻ: {الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون} [الزخرف: ١٠].

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [طرقا {لعلكم تهتدون}].

قوله: {الذي جعل لكم} هذا ليس من كلام الذين سألوا النبي ﷺ. وقد انتهى كلامهم عند قوله: {ليقولن خلقهن العزيز العليم}، أما {الذي جعل لكم الأرض مهدا} فهذا من كلام الله ﷻ، ومعنى {جعل} صير، {لكم الأرض مهدا} أي: كالمهد، موطأة قرارا يطمئن بها الإنسان.

وقوله: {وجعل لكم فيها سبلا} أي: صير لكم فيها سبلا، أي: طرقا، هذه الطرق تكون بين الشعاب والجبال والوهاد، حتى إنه لتأتي الرياح الشديدة وتبقى هذه الطرق معلومة، يستدل على هذه الطرق بالجبال والشعاب والنجوم، كما قال الله ﷻ: {وعلامات وبالنجم هم يهتدون}.

وقوله: {لعلكم تهتدون}: (لعل) هنا للتعليل، ومن المعلوم أن (لعل) تأتي للتعليل -كما هنا- وتأتي للترجي، وتأتي للتوقع، والذي يعين المعنى هو سياق الكلام وقرائن الأحوال.

وقوله ﷻ: {تهتدون} أي: تعلمون الطرق، فالهداية هنا هداية الطرق إلى مقاصدكم في أسفاركم. والآن -والحمد لله- وجدت طرق ممهدة بينة من المدن والقرى وغيرها، كل ذلك بنعمة الله ﷻ.

فإن قال قائل: قوله سبحانه وتعالى: {لعلكم تهتدون} المقصود بالهداية هداية

=

=

الطرق، فهل يمكن أن يحمل على هداية الاعتبار بالآية؟

فالجواب: لا، فالسياق يمنع هذا.

قال الله ﷻ: {والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون} [الزخرف ١١].

وقوله: {الذي جعل لكم الأرض مهدا} قراءتان "مهادا" وقد جاءت في آية أخرى بهذا اللفظ، {مهدا} وهي بمعنى (مهاد).

قوله تعالى: {والذي نزل من السماء} أي: أنزله شيئا فشيئا، فتجد المطر ينزل من السماء نقطا، ولو جاء كأفواه القرب لأفسد الأرض وهدم البناء، ولكن من رحمة الله ﷻ أن جعله ينزل شيئا فشيئا، ومع ذلك تسيل منه الأودية وهو من نقطة نقطة، لكن مع كثرته تسيل به الشعاب.

وقوله: {من السماء ماء} السماء هنا المراد بها العلو، واعلم أن السماء يطلق على معنيين:

المعنى الأول: العلو.

والمعنى الثاني: السقف المحفوظ الذي هو السموات السبع.

فقوله سبحانه وتعالى: {والسحاب المسخر بين السماء والأرض} [البقرة: ١٦٤] المراد بالسماء هنا السقف المحفوظ، وكذلك قوله ﷻ: {وجعلنا السماء سقفا محفوظا} [الأنبياء: ٣٢]؛ وأما قوله: {أنزل من السماء} [الأنعام: ٩٩] المراد به العلو، لأن المطر ليس ينزل من السماء نفسها، ولكنه ينزل من العلو؛ بدليل قوله ﷻ: {والسحاب المسخر بين السماء والأرض} والسحاب ليس في السماء لاصقا، ولكنه بين السماء والأرض، وهو إلى الأرض أقرب.

إذن: فمن المعلوم أن المطر لا ينزل من السماء الدنيا، إنما ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض، والحكمة أن الله تعالى أنزله -أي: المطر- من

=

=

فوق أن يروي الأرض علويها وسفليها، والحكمة أن الله جعله نقطا حتى لا تفسد الأرض ويتهدم البنيان، لو كان ينزل كأفواه القرب لفسدت الأرض، لكن من حكمة الله أنه أنزله نقطا.

وقوله: {نزل من السماء ماء بقدر} أي: بقدر حاجتكم إليه، ولم ينزله طوفانا.

قوله: {بقدر} فسره رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: بقدر ما تحتاجون إليه، وله معنى آخر [بقدر] يعني: مقدر محدد، حتى النقطة قد علمها الله ﷻ، وعلم كيف تنزل، وعلم متى تنزل، وعلم أين تنزل، كل شيء بقدر؛ قال الله تعالى: {إنا كل شيء خلقناه بقدر (٤٩)} [القمر: ٤٩].

فيكون المعنى على هذا: أن هذا المطر الذي ينزل على كثرته وكثرة عدد نقاطه، ينزل بقدر محدد، والمعنى الذي ذكره المفسر معنى صحيح، والآية تحتمل هذا وهذا، والقاعدة عندنا في التفسير أن الكلمة في القرآن أو في السنة إذا كانت تحتمل معنيين على السواء ولا منافاة بينهما، فإنه يجب أن تحمل عليهما؛ توسعة للمعنى.

{فأنشرنا به بلدة ميتا}: (أنشرنا) أي: أحيينا، كما جاء ذلك في آيات أخرى؛ في قوله ﷻ: {فأحيينا به الأرض بعد موتها} [فاطر: ٩] فإذن (أنشرنا) بمعنى: أحيينا، وهذا شيء مشاهد، تجد الأرض قاحلة مجدبة ليس فيها خضراء، فإذا نزل المطر أصبحت تهتز من النبات من كل زوج بهيج.

وقوله: [{كذلك} أي: مثل هذا الإحياء] {تخرجون}، يعني: كما أحيينا الأرض بالمطر فكذلك نحييكم يوم القيامة؛ قال الله سبحانه وتعالى في آية أخرى {ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة} هامدة، {فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت} أي: علت بنباتها، {إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير} [فصلت: ٣٩].

=

=

من فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان نعمة الله ﷻ؛ حيث جعل لنا الأرض مهادا، ولو كانت صلبة ما استقررنا عليها، ولا حرثناها، ولا انتفعنا بها كثيرا، ولو كانت رخوة كذلك لم ننتفع بها، ولغاصت أقدامنا فيها، ولكن من نعمة الله أن جعلها كالمهاد.

الفائدة الثانية: نعمة الله علينا بما جعل لنا من الطرق على تباعد أقطارها، ونستدل على الطرق بالشعاب والجبال، وكذلك بالنجوم.

الفائدة الثالثة: إثبات حكمة الله سبحانه وتعالى فيما يخلق في قوله: {لعلكم تهتدون} وحكمة الله ﷻ فيما يخلق وفيما يشرع ثابتة، لكن من الحكم ما نعلم، ومن الحكم ما لا نعلم؛ لقصور أفهامنا، ومن الحكم ما يعلمه كثير من الناس، وتخفى على كثيرين آخرين.

الفائدة الرابعة: الإشارة إلى أنه إذا كان المقصود الحسي يحتاج إلى طرق، فكذلك المقصود المعنوي، وهو الوصول إلى دار كرامة الله عز جل، فإنه يحتاج إلى طرق لا بد أن نسلك هذه الطرق حتى نصل إلى المقصود، فإن لم نسلكها فلن نصل إلى المقصود.

الفائدة الخامسة: قدرة الله عز جل في إنزال المطر.

الفائدة السادسة: رحمة الله عز جل بإنزال المطر من فوق؛ لأنه لو كان من أسفل لغرقت الأرض السفلى دون أن يصل الماء إلى قمم الجبال، ولكن الله تعالى جعله ينزل من فوق حتى يروي العالي والناس، وإذا ارتوى العالي نزل إلى الناس.

الفائدة السابعة: أن هذا الماء النازل من السماء ينزل بقدر؛ على المعنيين اللذين ذكرناهما.

الفائدة الثامنة: أن الله تعالى يحيي الأرض بعد موتها بهذا الماء.

=

=

الفائدة التاسعة: إطلاق لفظ (الموت) على ما لا روح فيه-أي: ما لا روح فيه تحس-؛ لقوله عز جل: {بلدة ميتا} وإن من المعلوم أن الأرض ليست كحياة الحيوان-حياة إحساس- بل هي حياة نمو.

الفائدة العاشرة: قياس المعقول على المحسوس، وإن شئت فقل: قياس الغائب على الحاضر، لقوله: {كذلك تخرجون}، فقد قاس الغائب-وهو إحياء الموتى- على الحاضر الذي تشاهدونه، وهذا من طرق التعليل والتفهيم.

الفائدة الحادية عشرة: إثبات القياس، وأنه دليل، وهو دليل عقلي ثابت بالدليل السمعي؛ وذلك أن العقل ينتقل من المقيس عليه إلى المقيس، فهو دليل عقلي باعتبار كيفية الاستدلال به، ودليل سمعي لثبوته شرعا.

* قال الله ﷻ: {والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون (١٢)} [الزخرف: ١٢].

قوله تعالى: {والذي خلق الأزواج كلها} هذ عطف على ما سبق، وهو من باب عطف الصفات، وليس من باب عطف الذوات، والأصل في العطف أن يكون بين متغايرين في ذاتهما-هذا أصل-؛ فإذا قام الدليل على أن الذات واحدة صار من باب عطف الصفات، اقرأ قول الله ﷻ: {سبح اسم ربك الأعلى (١) الذي خلق فسوى (٢) والذي قدر فهدى (٣) والذي أخرج المرعى} [الأعلى: ١-٤]، هذا العطف من باب عطف الصفات؛ لأن الموصوف واحد، لكن الأصل في العطف أنه من باب تغاير الذوات، ما لم يقم دليل على أن المعطوف عليه شيء واحد، فيكون من باب عطف الصفات بعضها على بعض لموصوف واحد.

فالآيات التي معنا من باب عطف الصفات؛ لأن الموصوف واحد.

وقوله: {والذي خلق الأزواج كلها}: {وجعل} بمعنى الأصناف، كما قال ﷻ:

=

=

{احشروا الذين ظلموا وأزواجهم} [الصافات: ٢٢] أي: أصنافهم. وقال سبحانه وتعالى: {وآخر من شكله أزواج (٥٨)} [ص: ٥٨]، فقوله: {خلق الأزواج كلها} أي: الأصناف، كل الأصناف الخالق لها هو الله سبحانه وتعالى، وإنك لتعجب حينما تأتي إلى روضة تجد هذ الأشجار بعضها زهرها أحمر، وبعضها أزرق، وبعضها أصفر، ملونة، الذي خلقها ولونها هو الله ﷻ.

ويحتمل في الآية معنى آخر: {خلق الأزواج كلها} يعني: الشيئين المزدوجين اللذين يتولد بينهما ثالث، كالذكر والأنثى، والسالب والموجب، وما أشبه ذلك، الآية تحتمل المعنيين جميعا، وهما لا يتنافيان فتحمل عليهما جميعا.

وقوله: {وجعل لكم} بمعنى: صير.

وقوله: {ما تركبون} مفعول (جعل) أي: جعل لكم من الفلك، وهي السفن البحرية، وكان الناس لا يعرفون سواها فيما سبق، وأما الآن فجاءت السفن الجوية، وهي الطائرات، أما الأنعام فمثل الإبل والبغال وغيرها مما يركب {وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون}: الذي تركبونه. وهذ من نعمة الله ﷻ.

* قال الله ﷻ: {لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (١٣) وإنا إلى ربنا لمنقلبون} [الزخرف: ١٣- ١٤].

* * *

قوله: {لتستووا على ظهوره} اللام لام العاقبة، وليست لام التعليل؛ لأنه من الممكن أن يكون عند الإنسان أنعام كثيرة ولا يركبها، لكن اللام للعاقبة، تأتي اللام للعاقبة في القرآن الكريم وغيره كثيرا، ومنه قوله سبحانه وتعالى: {فالتقطه

=

=

آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا} [القصص: ٨] اللام في قوله: {ليكون} ليست للتعليل؛ لأن آل فرعون لم يلتقطوه لهذا الغرض، لكن التقطوه فصارت هذه النتيجة. وتسمى اللام في مثل هذا تسمى (لام العاقبة).

وقوله ﷻ: {لتستووا على ظهوره} أي: تعلوا عليها، وتستقروا عليها، {على ظهوره} يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ذكر الضمير وجمع الظهر، نظرا للفظ (ما) ومعناها] {لتستووا على ظهوره} جمع الظهر، ولم يقل: (على ظهره) وأفرد الضمير ولم يقل: (على ظهورها) نظرا للفظ (ما) ومعناها، لأن (ما) تصلح للمفرد والجمع، فتارة يراعى اللفظ وتارة يراعى المعنى، إذا روعي اللفظ أفرد الضمير، وإذا روعي المعنى صار بحسب المعنى المقصود.

وكذلك (من) تارة يراعى اللفظ وتارة يراعى معناه، اقرأ قول الله تعالى: {ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها} [الطلاق: ١١]، {ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله} راعى اللفظ فأرده، {خالدين فيها} راعى المعنى.

فقوله: {لتستووا على ظهوره} أي: ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام، فجمع باعتبار المعنى، وأفردها باعتبار اللفظ.

وقوله ﷻ: {ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه} يتذكر نعمة الله عليه؛ حيث يسر له هذا المركوب، ولولا تيسير الله ما تمكن من هذا، فلو جعل الله الإبل صعبة لا يمكن أن تركب ما انتفع الناس بها، ولو فقدت السفن ما استطاع الناس أن يعبروا من يابس إلى يابس، فليذكر الإنسان نعمة الله إذا استوى على ظهره. {وتقولوا} أي: بألسنتكم معترفين بقلوبكم: {سبحان الذي سخر لنا هذا} أي: ذلله لنا {وما كنا له مقرنين} قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مطيقين].

قوله تعالى: {وإنا إلى ربنا لمنقلبون} [الزخرف: ١٤] قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لمنصرفون].

=

=

من فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى: نعمة الله سبحانه وتعالى على عباده؛ حيث جعل لهم من الفلك والأنعام ما يركبونه.

وذكرنا أن الفلك يشمل الفلك الجوي والبحري. ويمكن أن نقول: والبري أيضا، كالسيارات، فهذه أفلاك؛ فإذن الأفلاك جوية وبحرية وبرية.

الفائدة الثانية: تذليل الله ﷻ الأنعام لنا؛ حيث سخرها لنركبها ونحملها، وهي ذليلة بين أيدينا، لقوله: {وجعل لكم من الفلك والأنعام}.

الفائدة الثالثة: أنه ينبغي للإنسان إذا ركب الأنعام -وكذلك الفلك- أن يجعل مركبه مريحا؛ لقوله: {لتستووا على ظهوره} إذ إنه لو لم يكن مريحا لم تتم النعمة، فينبغي أن يجعله مريحا بقدر الإمكان، وعلى حسب الحال.

الفائدة الرابعة: أنه ينبغي للإنسان أن يتذكر نعمة الله عليه لما سخر له من الفلك والأنعام؛ لقوله: {ثم تذكروا نعمة ربكم}: (النعمة) هنا مفرد مضاف، فهل المراد أن نذكر جميع النعم أو نذكر النعمة المناسبة للحال؟

الجواب: الظاهر هو الثاني؛ لأن الإنسان قد لا يستحضر حينما يتذكر كل النعم من الأموال والأولاد والأمن والطمأنينة، ولكن يذكر النعمة الحاضرة.

الفائدة الخامسة: استحباب هذا الذكر عند الركوب وهو: {سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (١٣) وإنا إلى ربنا لمنقلبون}.

فإن قال قائل: لماذا اختير كلمة (سبحان) دون (الله أكبر) مثلا؟

فالجواب: أن تسبيح الله يعني تنزيهه عن كل نقص وعيب، بخلاف الإنسان فإنه محتاج إلى الركوب فهو ناقص، فناسب أن يقول: {سبحان الذي سخر لنا هذا} حتى إنه بحاجة إلى هذه المركوبات، وأن الله عز جل منزه عن الحاجة.

يعني لو قال قائل: لماذا لم يقل: ما أعظم نعمة الله علي! أو الله أكبر! ؟

=

=

فالجواب: أنه لما رأى نفسه محتاجا إلى الركوب نزه الله سبحانه وتعالى عن الحاجة فقال: {سبحان الذي سخر لنا هذا}.

الفائدة السادسة: أن نذكر نعمة الله علينا بتسخير هذه الأنعام؛ لقوله ﷻ: {الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين} أي: مطيقين، لولا أن الله تعالى سخر البعير لنا ما أطقناها، فالبعير أقوى منا، وأكبر منا جسما، لو أن الله سبحانه وتعالى جعلها صعبة فلا يمكن لأحد أن يستقر عليها، أو أن يحمل عليها، أو أن يدخلها إلى أي مكان شاء، أو أن يخرجها متى شاء، ولكن الله سخر هذا لنا.

الفائدة السابعة: اعتراف العبد بقصوره وضعفه؛ لقوله: {وما كنا له مقرنين} أي: مطيقين.

الفائدة الثامنة: أن الإنسان إذا ركب هذه المركوبات يتذكر الركوب الذي هو غاية الدنيا؛ لقوله: {وإنا إلى ربنا لمنقلبون} وتفسير المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ لها بالانصراف أي: (لمنصرفون إلى الله) فيه قصور، والصواب: ما ذكرنا أنك إذا ركبت تتذكر ركوبك على النعش حين تنقلب إلى الله ﷻ، فيكون في هذا تذكر للحال المستقبلة لبني آدم، وهي حال الانقلاب إلى الله ﷻ، وهذا الذكر عام، كلما ركبت السيارة أو البعير أو الطائرة تذكر هذا: {سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (١٣) وإنا إلى ربنا لمنقلبون}.

فإن قال قائل: المصعد الكهربائي يشرع فيه هذا الدعاء: (سبحان الذي سخر لنا هذا)؟

فالجواب: هذا محل نظر؛ لأن هذا المصعد الكهربائي في منزلة الدرج، وليس بمنزلة الراكب الذي يسير، بل هذا يصعد إلى فوق، ففي كونه من باب المركوبات نظر.

مسألة: دعاء نزول المكان: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق) هل

=

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥).

{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَاده جُزْءًا} حَيْثُ قَالُوا الْمَلَائِكَة بَنَات الله لِأَنَّ الْوَلَد جُزْء مِنْ الْوَالِد وَالْمَلَائِكَة مِنْ عِبَاده تَعَالَى {إِنَّ الْإِنْسَان} الْقَائِل مَا تَقَدَّمَ {لَكَفُور مُبِين} بَيِّن ظَاهِر الكفر.

أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦).

{أَمْ} بِمَعْنَى هَمْزَة الْإِنْكَار وَالْقَوْل مُقَدَّر أَيْ أَتَقُولُونَ {اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُق بَنَات} لِنَفْسِهِ {وَأَصْفَاكُمْ} أَخْلَصَكُمْ {بِالْبَنِينَ} اللَّازِم مِنْ قَوْلكُمْ السَّابِق فَهُوَ مِنْ جُمْلَة الْمُنْكَر.

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧).

{وَإِذَا بُشِّرَ أَحدهم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَن مَثَلًا} جعَلَ لَهُ شَبَهًا بِنِسْبَةِ الْبَنَات إِلَيْهِ لِأَنَّ الْوَلَد يُشْبِه الْوَالِد الْمَعْنَى إِذَا أُخْبِرَ أَحَدهمْ بِالْبِنْتِ تُولَد لَهُ {ظَلَّ} صَارَ {وَجْهه مُسْوَدًّا} مُتَغَيِّرًا تَغَيُّر مُغْتَمّ {وَهُوَ كَظِيم} مُمْتَلِئ غَمًّا فَكَيْفَ يَنْسُب الْبَنَات إِلَيْهِ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ.

=

خاص بالسفر أو عام؟

فالجواب: عام، حتى إذا نزلت بيتا تقول: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، وعند النوم تقول: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، وفي أوراد الليل والنهار تقول: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، أما المسجد فله ذكر خاص، فالإنسان ليس نازلا في المسجد، إنما هو مقيم لطاعة معينة ويمضي.

أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨).

{أو} همزة الإنكار واو الْعَطْف بِجُمْلَةِ أَيْ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ {مَنْ يُنَشَّأ فِي الْحِلْيَة} الزِّينَة {وَهُوَ فِي الْخِصَام غَيْر مُبِين} مُظْهِر الْحُجَّة لِضَعْفِهِ عَنْهَا بِالْأُنُوثَةِ.

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩).

{وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَة الَّذِينَ هُمْ عِبَاد الرَّحْمَن إنَاثًا أَشَهِدُوا} حَضَرُوا {خَلْقهمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتهمْ} بِأَنَّهُمْ إنَاث {وَيُسْأَلُونَ} عَنْهَا فِي الْآخِرَة فَيَتَرَتَّب عَلَيْهِمْ الْعِقَاب.

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠).

{وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَن مَا عَبَدْنَاهُمْ} أَيْ الْمَلَائِكَة فَعِبَادَتنَا إيَّاهُمْ بِمَشِيئَتِهِ فَهُوَ رَاضٍ بِهَا قال تعالى {مَا لَهُمْ بِذَلِكَ} الْمَقُول مِنْ الرِّضَا بِعِبَادَتِهَا {مِنْ عِلْم إنْ} مَا {هُمْ إلَّا يَخْرُصُونَ} يَكْذِبُونَ فِيهِ فَيَتَرَتَّب عَلَيْهِمْ الْعِقَاب بِهِ.

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١).

{أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْله} أَيْ الْقُرْآن بِعِبَادَةِ غَيْر الله {فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ} أَيْ لَمْ يَقَع ذَلِكَ.

بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢).

{بَلْ قَالُوا إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّة} مِلَّة {وَإِنَّا} مَاشُونَ {عَلَى آثَارهمْ مُهْتَدُونَ} بِهِمْ وَكَانُوا يَعْبُدُونَ غَيْر الله.

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣).

{وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلك فِي قَرْيَة مِنْ نَذِير إلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا} مُنَعَّمُوهَا مِثْل قَوْل قَوْمك {إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّة} ملة {وإنا على آثارهم مقتدون} متبعون.

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤).

{قل} لهم {أ} تتبعون ذلك {ولو جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ} أَنْتَ وَمَنْ قَبْلك {كافرون} قَالَ تَعَالَى تَخْوِيفًا لَهُمْ.

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥).

{فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} أَيْ مِنْ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ قَبْلك {فانظر كيف كان عاقبة المكذبين}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن قتادة؛ قال: قال ناس من المنافقين: إن الله صاهر الجن؛ فخرجت من بينهم الملائكة؛ فنزل فيهم: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٧١)، و"لباب النقول" (ص ١٨٨) ونسبه لابن المنذر وعبد بن حميد. وهو ضعيف؛ لإرساله.

* المراد بالجعل في قوله- تعالى-: وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً ... الاعتقاد الباطل، والحكم الفاسد. والمراد بالجزء الولد. والمقصود به خصوص البنات، كما يدل عليه سياق الآيات.

قال الآلوسى ما ملخصه: قوله: وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً.. متصل بقوله- تعالى- قبل ذلك: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ... والمراد بيان
=

=

تناقضهم مع أنفسهم ... حيث اعترفوا بأنه- تعالى- خالق السموات والأرض، ثم وصفوه بصفات المخلوقين..

وعبر عن الولد بالجزء، لأنه بضعة- وفرع- من والده، كما قيل: أولادنا أكبادنا..

وقيل الجزء: اسم للإناث، يقال: أجزأت المرأة إذا ولدت أنثى.. ا.هـ.

أى: أن هؤلاء المشركين بلغ من تناقضهم في أقوالهم وأفعالهم، أنهم إذا سألهم سائل عن خالق هذا الكون قالوا: الله. ومع ذلك فهم لجهالتهم اعتقدوا اعتقادا باطلا بأن الملائكة بناته، مع أن الملائكة من مخلوقاته التي يشملها هذا الكون.

فالمقصود من الآية الكريمة تجهيل هؤلاء المشركين، وتعجيب كل عاقل من سفاهتهم.

والظاهر أن المراد بالإنسان في قوله- تعالى-: إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ الكافر والفاسق من بنى آدم، لأن الإنسان المؤمن لا يجحد نعم الله، وإنما يشكره- تعالى- عليها.

أى: إن الإنسان الكافر والفاسق عن أمر ربه، لشديد الجحود لنعم ربه، مظهرا ذلك في أقواله وفي أفعاله.

قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا} [الزخرف:١٥]، أي:"وجعل هؤلاء المشركون لله مِن خلقه نصيبًا، وذلك قولهم للملائكة: بنات الله".

قال الطبري: يقول:"وجعل هؤلاء المشركون لله من خلقه نصيبا، وذلك قولهم للملائكة: هم بنات الله".

قال الزجاج:"يعنى به: الذين جعلوا الملائكة بنات الله.

عن السديّ: "{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا}، قال: البنات".

قال ابن كثير:"جعلوا له من قسمي البنات والبنين أخسَّهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأنْثَى. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى} [النجم:

=

=

٢١، ٢٢]".

قال ابن الجوزي:"«الجَعْل»-هاهنا-، معناه: الحُكم بالشيء، وهم الذين زعموا أن الملائكةَ بناتُ الله والمعنى: جَعلوا له نصيباً من الولد".

قال يحيى:"«الجعل»: الوصف، يعني: وصفوا له من عباده شركاء".

قال يحيى:"«العبيد»، يعني: المماليك، يعني: من مماليكه جزءًا".

قال الزمخشري: "الهمزة للإنكار، تجهيلا لهم وتعجيبا من شأنهم، حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءا، حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين: وهو الإناث دون الذكور، على أنهم أنفر خلق الله عن الإناث وأمقتهم لهنّ، ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهنّ، كأنه قيل: هبوا أنّ إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة فرضا وتمثيلا، أما تستحيون من الشطط في القسمة؟ ومن ادعائكم أنه آثركم على نفسه بخير الجزأين وأعلاهما وترك له شرهما وأدناهما؟ ".

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا} [الزخرف:١٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن معنى «الجزء»-هاهنا-: العدل والشبيه، وذلك أنهم عبدوا الملائكة والجن، فجعلوهم لله عدلًا وشبيهًا، وهذا معنى قول قتادة، ومقاتل.

قال مقاتل:"يعني: عدلا، هو الولد، فقالوا: إن الملائكة بنات الله".

قال الشوكاني:"يعني: ما عبد من دون الله".

الثاني: أن معنى: «جُزْءًا»: نصيباً، قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة، وقطرب.

قال الازهري:"«الجزء» في كلام العرب: النصيب، وجمعه: أجزاء، ويقال: جزأت الحال بينهم، وجزأته إذا قسمته، يخفف وينقل، وكأن المعنى في قول الله جل وعز: {لمنقلبون وجعلوا له من عباده} {الزخرف: ١٥}، أي: جعلوا نصيب الله من الولد الإناث، دون الذكور، واستأثروا بالذكور".

=

=

قال عطاء الخراساني:"جعلوا له نصيبا وشريكا من عباده".

قال ابن قتيبة:"أي: نصيبًا. ويقال: شِبهًا ومِثْلا؛ إذ عبدوا الملائكة والجن".

الثالث: أن المراد بـ «الجزء» -هنا-: الملائكة، فإنهم جعلوهم أولادا لله سبحانه. قاله مجاهد.

الرابع: أن معنى «جُزْءًا» -هاهنا-: بنات. يقال: له جزء من عيال؛ أي: بنات. وهذا قول الزجاج، والمبرد، قال الشاعر:

إنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْماً فلا عَجَبٌ... قد تُجْزِئُ الحُرَّةُ المِذْكارُ أَحْيانا

قال الزجاج، "أي: إن أنثت، ولدت أنثى.. ثم قال: ولا أدري البيْتَ، قديم أم مَصْنُوع ".

قال المفضَّل بن سَلَمَةَ: «حكى لي بعض أهل اللغة: أجزأ الرجلُ؛ إذا كان يولد له بناتٌ. وأجزأت المرأةُ: إذا ولدت البناتِ». وأنشد:

زُوِّجْتُها من بَناتِ الأوسِ مُجْزِئَةً... للعَوْسَجِ اللَّدْنِ في أبياتِها زَجَل

وقال الازهري:"ولا أدري ما «الجزء» بمعنى: الإناث، ولم أجده في شعر قديم ولا رواه عن العرب الثقاب. ولا يعبأ بالبيت الذي ذكره لأنه مصنوع".

وكذلك جعل «صاحب الكشاف» تفسير «الجزء» بالبنات من بدع التفسير، قال الزمخشري: ومن بدع التفاسير تفسير الجزء بالإناث وادعاء أن «الجزء»- في لغة العرب- اسم للإناث، ما هو إلا كذب على العرب ووضح محدث متحول".

قال الشوكاني:"ويجاب عنه بأنه قد رواه الزجاج والمبرد، وهما إماما اللغة العربية وحافظاها ومن إليهما المنتهى في معرفتها، ويؤيد تفسير الجزء بالبنات ما سيأتي من قوله: {أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ} [الزخرف: ١٦]، وقوله: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ} [الزخرف: ١٧]، وقوله: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} [الزخرف: ١٩] ".

=

=

قولـه تعـالى: {إِنَّ الْإِنْـسَانَ لَكَفُـورٌ مُبِـينٌ} [الزخـرف:١٥]، أي:"إن الإنـسان لجحود لنعم ربه التي أنعم بها عليه، مظهر لجحوده وكفره يعدِّد المصائب، وينسى النعم".

قال الزمخشري: أي:"لجحود للنعمة ظاهر جحوده، لأنّ نسبة الولد إليه كفر، والكفر أصل الكفران كله".

ثم ساق- سبحانه- ما يدل على السخرية منهم ومن أحوالهم الشاذة فقال: أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ فالاستفهام للتوبيخ والإنكار.

وأَصْفاكُمْ أى: آثركم واختصكم. يقال: أصفى فلان فلانا بالشيء، إذا اختصه به. ومنه قولهم لما يختص السلطان به نفسه من الأشياء النفيسة: الصوافي.

أى: لقد زعمتم أن الملائكة بنات الله، فخبروني بربكم هل يعقل أن يتخذ الله- تعالى- أولاده من البنات اللائي هن أقل منزلة من البنين في تقديركم، ويترك لكم الذكور؟ إن من شأن الذي يختار جنس الأولاد أن يختار أعلاهم منزلة فبأى منطق زعمتم أن الملائكة بنات الله.

قال صاحب الكشاف: قوله: أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ ... أى: بل آتخذ والهمزة للإنكار، تجهيلا لهم، وتعجيبا من شأنهم، حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءا حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزءين. وهو الإناث دون الذكور..

فكأنه قيل: هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه- تعالى- جائزة فرضا وتمثيلا أما تستحون من الشطط في القسمة، ومن ادعائكم أنه آثركم على نفسه بخير الجزءين..؟ ا.هـ.

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه موبخا هؤلاء المشركين الذين وصفوه بأن الملائكة بناته: اتخذ ربكم أيها الجاهلون مما يخلق بنات، وأنتم لا ترضون لأنفسكم، وأخلصكم بالبنين، فجعلهم لكم".

=

=

قال الثعلبي:"{وأصفاكم}: أخلصكم وخصصكم {بالبنين} ".

قال ابن ابي زمنين:"أي: لم يفعل".

قال ابن كثير:"وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار".

قال الواحدي:"هذا استفهام توبيخ وإنكار، يقول: أتخذ ربكم لنفسه البنات؟ وأصفاكم أخلصكم، بالبنين كقوله: {أفأصفاكم ربكم بالبنين} [الإسراء: ٤٠] الآية".

قال القشيري:"قال لهم على جهة التوبيخ، وعابهم بما قالوا إذ- على حدّ قولهم- كيف يؤثرهم بالبنين ويجعل لنفسه البنات؟! ففى قولهم ضلال إذ حكموا للقديم بالولد. وفيه جهل إذ حكموا له بالبنات ولهم بالبنين- وهم يستنكفون من البنات".

قال السمعاني: معناه: أم اتخذ الله مما يخلق بنات واختار لكم البنين، وهذا، [على] طريق الإنكار لقولهم. وفي التفسير: أن هذا القول كان يقوله بنو كنانة وبنو عامر وحي ثالث. وعن بعضهم: أن جميع قريش كانت تقوله، فقيل لهم: من أين تقولون هذا؟ فقالت: سمعنا آباءنا يقولون كذلك، ونحن نشهد أنم لم يكذبوا".

ثم أكد- سبحانه- جهلهم وغفلتهم عن المنطق السليم فقال: وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ...

أى: أنهم قالوا الملائكة بنات الله، والحال أن الواحد منهم إذا بشره مبشر بأن امرأته قد ولدت له أنثى، صار وجهه مسودا من شدة الحزن، وظل ممتلئا بالهم والكرب.

فالمراد بقوله: بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا جنس البنات حيث قالوا: الملائكة بنات الله.

قال الجمل: قوله: وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ ... استئناف مقرر لما قبله. وقيل حال، على

=

=

معنى أنهم نسبوا إليه ما ذكر، ومن حالهم أن أحدهم إذا بشر به اغتم، والالتفات إلى الغيبة للإيذان بأن قبائحهم اقتضت الإعراض عنهم، وتحكى لغيرهم ليتعجب منها. وبِما في قوله بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا موصولة ومعناها البنات وضرب بمعنى جعل، والمفعول الأول الذي هو عائد الموصول محذوف. أى: ضربه، ومثلا هو المفعول الثاني، والمثل بمعنى الشبه أى المشابه ا.هـ.

قوله تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا} [الزخرف:١٧]، أي:"وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى-التي نسبها للرحمن حين زعم أن الملائكة بنات الله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وإذا بشر أحد هؤلاء المشركين الجاعلين لله من عباده حزءا بما مثل لله، فشبهه شبها، وذلك ما وصفه به من أن له بنات".

عن قتادة، قوله: "{بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلا} بما جعل لله".

عن مجاهد، قوله: "{بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلا}، قال: ولدا".

قال مقتل:"المثل: زعموا أن الملائكة بنات الله- تعالى-".

قال الفراء:"يريد الإناث".

قال الزمخشري: {بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا}، أي:"بالجنس الذي جعله له مثلا، أى: شبها لأنه إذا جعل الملائكة جزءا لله وبعضا منه، فقد جعله من جنسه ومماثلا له، لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد، يعنى: أنهم نسبوا إليه هذا الجنس".

قوله تعالى: {ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} [الزخرف:١٧]، أي:"صار وجهه مُسْوَدًّا من سوء البشارة بالأنثى، وهو حزين مملوء من الهم والكرب".

قال الطبري: يقول:"ظلّ وجه هذا الذي بشَّر بما ضرب للرحمن مثلا من البنات مسودّا من سوء ما بشر به، وهو حزين".

=

=

قال الزمخشري:"ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له: قد ولدت لك بنت اغتم واربدّ وجهه غيظا وتأسفا وهو مملوء من الكرب".

قال ابن كثير: أي:"يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتنسبونه إلى الله ﷻ؟ ".

وعن بعض العرب: "أن امرأته وضعت أنثى، فهجر البيت الذي فيه المرأة، فقالت:

مَا لأَبِي حَمْزَةَ لاَ يَأْتِينَا... يَظَلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا

غَضْبَانَ أَن لا نَلِدَ البَنِينَا... لَيْسَ لَنَا مِنْ القَضَاءِ مَا شِينَا

وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا".

عن قتادة: "{وَهُوَ كَظِيمٌ}، أي: حزين".

قال مقتل:"يعني: مكروب".

قال قتادة: "يقول: جعلوا له البنات وهم إذا بشِّر أحدهم بهنّ ظلّ وجهه مسودّا وهو كظيم".

قال الفراء:"يقول: خصصتم الرحمن بالبنات، وأنتم هكذا إذا ولد لأحدكم بنت أصابه ما وصف".

قال قتادة: "يقول: جعلوا له البنات وهم إذا بشِّر أحدهم بهنّ ظلّ وجهه مسودّا وهو كظيم".

قال قتادة:"هذا صنيع مشركي العرب، أخبرهم الله بخبث صنيعهم. فأما المؤمن، فهو حقيق إن يرضى بما قسم الله له، وقضاء الله خير من قضاء المرء لنفسه، ولعمري ما ندري أنه لخير لرب جارية خير لأهلها من غلام، وإنما أخبركم الله بصنيعهم لتجتنبوه وتنتهوا عنه، فكان أحدهم يغذو كلبه ويئد ابنته".

=

=

قال السدي:"كانت العرب يقتلون ما ولد لهم من جارية فيدسونها في التراب وهي حية، حتى تموت".

ثم أضاف- سبحانه- إلى تبكيتهم السابق تبكيتا آخر فقال: أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ.

والاستفهام للإنكار. وكلمة مَنْ عبارة عن جنس الإناث، وهي في محل نصب بمضمر معطوف على جَعَلُوا ويُنَشَّؤُا يربى وينشأ. يقال: نشأ فلان في بنى فلان، إذا شب وترعرع فيهم والْحِلْيَةِ: اسم لما يتحلى ويتزين به.

أى: أيجترئون ويجعلون لله- تعالى- الإناث، اللائي من شأنهن أن ينشأن في الزينة، لأن هذه الحياة هي المناسبة لهن ولتكوينهن الجسدى، واللائي من شأن معظمهن أنهن لا يقدرن على الدفاع عن أنفسهن لضعفهن وقصورهن في الجدال وفي بيان الحجة التي ترد الخصم، وتزيل الشبهة..

فالمقصود من الآية الكريمة تأنيب هؤلاء المشركين على جهلهم وسوء أدبهم، حيث إنهم نسبوا إلى الله- تعالى- الإناث اللائي من شأنهن النشأة في الحلية والدعة والنعومة، فصرن بمقتضى هذه النشأة، وبمقتضى تكوينهن البدني والعقلي، لا يقدرن على جدال أو قتال.. بينما نسبوا إلى أنفسهم الذكور الذين هم قوامون على النساء.

وشبيه بهذه الآية قوله- تعالى-: أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى. تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى.

قوله تعالى: {أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ} .

قال الطبري: يقول:"أو من ينبت في الحلية ويزين بها".

قال السجستاني:"{ينشأ فِي الْحِلْية} : يربى فِي الْحلِيّ، يَعْنِي: الثِّيَاب".

قال ابن كثير:"أي: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة".

قال السمعاني:"الحلية: الزينة، والمعنى: أنها مشغولة بزينتها ليس لها رأي في

=

=

الأمور، ولا تصرف في الأشياء".

قال الشنقيطي:"يعني: أيجعلون لله البنات، يجعلون له الولد، ثم يجعلون له أضعف الولدين جبلة وأنقصهما خلقة وهو الأنثى؛ ولذلك منذ تولد الأنثى وهي تجعل لها الزينات، وربما ثقبت آذانها وجعلت فيها الأقراط والشنوف، ثم تجعل في جيدها القلائد- من أنواع الحلي- وفي معاصمها، وفي خلاخلها، وتكسى الحلي والحلل منذ تولد إلى أن تموت، كل ذلك التزيين هو جبر لذلك النقص الخلقي الذي خلقها الله عليه وجبلها عليه.. أما الذكر فجمال ذكورته وكمال فحولته هو جمال وكمال طبيعي، ولذا لا تجد الدنيا على مرور الأزمنة والقرون تخرق آذان الذكور وتجملهم بالأقراط والشنوف، ولا تجعل لهم قلائد الحلي والخلاخيل والأساور، وإنما تجعل ذلك للأنثى، والإفرنج الذين يحاولون أنهما سواء يحمرون فم الأنثى ولا يحمرون فم الذكر، وكل ذلك يشير إلى الفرق الجبلي الطبيعي بينهما الذي جبلهما الله عليه.

فلما كان الله-جل وعلا- جعل الأنوثة في أصل طبيعتها وخلقتها ضعفا خلقيا ونقصا جبليا، وجعل الذكورة في أصل خلقتها كمالا طبيعيا وقوة جبلية، اقتضت حكمة العليم الخبير أن يجعل ذلك القوي بطبعه، الكامل بجبلته قيما على ذلك الضعيف بقوته، الناقص بجبلته؛ ليستجلب له ما يعجز عنه من الخير، ويدفع عنه ما يعجز عنه من الشر، ولذلك كان الرجل يترقب النقص في حياته دائما؛ فإنه يبذل دائما النفقات في صدقات الزوجات، والإنفاق عليهن، وفي مؤن الجهاد، وفي نوائب الدهر، فهو غارم باذل دائما، والمرأة تترقب طول حياتها الزيادة، وأن يملأ كيسها، تترقب رجلا يدفع لها مالا كثيرا في صداقها، ويقوم بجميع مؤنها ولوازمها في الدنيا، فهي تترقب الزيادة دائما، والرجل يترقب النقص دائما.

فلما كان الحكيم الخبير أراد أن يقسم عليهما الميراث آثر مترقب النقص دائما

=

=

على مترقب الزيادة دائما جبرا لبعض نقصه المترقب؛ ولذا تجد الرجل وأخته، تجد أخته تدفع لها الأموال الكثيرة في صداقها، ويقوم غيره بنفقاتها وكل ما يلزم لها، والرجل أخوها الآخر هو الذي يبذل ما عنده في نفقات زوجاته ومهورهن، ونوائب الدهر، ومعونات الجهاد، وغير ذلك".

وفي قوله تعالى: {أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ} [الزخرف:١٨]، وجهان من التفسير:

أحدهما: يعني: الجواري والنساء، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، ومقاتل، وأبو عبيدة، وغيرهم.

قال ابن قتيبة:"أي: رُبِّيَ في الحُليّ، يعني: البناتِ".

قال الزجاج:"المعنى: أجَعَلُوا من يُنَشَّأُ في الحلية- يعني: البنات- لله".

قال ابن عباس:"يعني" النساء، جعل زيهن غير زي الرجال".

قال مقاتل:"يعني: ينبت في الزينة، يعني: الحلي مع النساء".

قال قتادة: "الجواري، يسفههنّ بذلك، غير مبين بضعفهنّ".

قال مجاهد:"الجواري، جعلتموهنّ للرحمن ولدا، كيف تحكمون".

عن مجاهد، قال: "رخص للنساء في الحرير والذهب، وقرأ: {أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}، قال: يعني المرأة".

الثاني: يعني: الأَصنام، قاله زيد بن أسلم، ورواه الطبري عن ابن زيد.

قال زيد: "إن الذي قال الله الذي {ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين}، إنها الأصنام".

قال ابن زيد:"هذه تماثيلهم التي يضربونها من فضة وذهب يعبدونها هم الذين أنشئوها، ضربوها من تلك الحلية، ثم عبدوها، {وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}، قال: لا يتكلم، وقرأ، {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} ".

قال الزجاج:"وقد قيل إنَّه يعني به الأصنام، والأجود: أن يكون يعني به

=

=

المؤنث".

قال الطبري:"وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عُنِي بذلك الجواري والنساء، لأن ذلك عقيب خبر الله عن إضافة المشركين إليه ما يكرهونه لأنفسهم من البنات، وقلة معرفتهم بحقه، وتحليتهم إياه من الصفات والبخل، وهو خالقهم ومالكهم ورازقهم، والمنعم عليهم النعم التي عددها في أول هذه السورة ما لا يرضونه لأنفسهم، فاتباع ذلك من الكلام ما كان نظيرا له أشبه وأولى من اتباعه ما لم يجر له ذكر".

وفى قراءة عبد الله: «أومن لا ينشؤا إلا فى الحلية».

قوله تعالى: {وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} [الزخرف:١٨]، أي:"وهو في الجدال غير مبين لحجته؛ بسبب نشأته في الزينة والنعمة؟ ".

قال الطبري: "يقول: وهو في مخاصمة من خاصمه عند الخصام غير مبين، ومن خصمه ببرهان وحجة، لعجزه وضعفه، جعلتموه جزء الله من خلقه وزعمتم أنه نصيبه منهم، وفي الكلام متروك استغنى بدلالة ما ذكر منه وهو ما ذكرت".

قال الفراء:"يقول: لا يبلغ من الحجة ما يبلغ الرجل".

قال مقاتل:"يقول: هذا الولد الأنثى ضعيف قليل الحيلة، وهو عند الخصومة والمحاربة غير بين ضعيف عنها".

قال ابن قتيبة:"{غَيْرُ مُبِينٍ} للحجة".

قال الزجاج:"يعنى: البنات، أي: الأنثى لا تكاد تستوفي الحجة ولا تبين، وقد قيل في التفسير: إن المرأة لا تكاد تحتج بحجة إلا عليها.

عن السدي:"{أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}، قال: النساء".

عن قتادة، قال: "وأما قوله: {وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِين}، يقول: قلما تتكلم امرأة فتريد أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها".

=

=

قال ابن كثير أي: "وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عَيِيَّة، أَوَ مَنْ يكون هكذا ينسب إلى جناب الله ﷻ؟! فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما في معناه، ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض شعراء العرب:

وَمَا الحَلْي إلا زينَةٌ من نقيصةٍ... يتمّمُ من حُسْن إذا الحُسْن قَصَّرا

وأَمَّا إِذَا كان الجمالُ موفَّرا... كحُسْنك، لم يَحْتَجْ إلى أن يزَوَّرا

وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت: «ما هي بنعم الولد: نصرها بالبكاء، وبرها سرقة» ".

قال الزمخشري: -في الآية-يقول: "أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته، وهو: [أنه] يتربى في الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال: كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان يحتج به من يخاصمه، وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهنّ عن فطرة الرجال، يقال: قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها. وفيه. أنه جعل النشء في الزينة والنعومة من المعايب والمذام، وأنه من صفة ربات الحجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه، ويربأ بنفسه عنه، ويعيش كما قال عمر رضى لله عنه: «اخشوشنوا واخشوشبوا وتمعددوا». وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى".

قال السمعاني:"الآية وردت للإنكار عليهم يعني: أنكم جعلتم نصيبي من عبادي مثل هؤلاء، وجعلتم نصيبكم البنين".

ثم توعدهم- سبحانه- بسوء المصير بسبب افترائهم الكذب فقال: وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ.. والجعل هنا بمعنى

=

=

القول والحكم على الشيء، كما تقول جعلت زيدا أفضل الناس، أى حكمت عليه بذلك.

أى: أن هؤلاء المشركين زعموا وحكموا بأن الملائكة الذين هم عباد الرحمن، وصفوة خلقه، وأهل طاعته، زعموا أنهم إناث، فهل كانوا حاضرين وقت أن خلقناهم حتى حكموا عليهم بهذا الحكم الباطل؟

كلا إنهم لم يكونوا حاضرين، ولذا سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ فِي صحائف أعمالهم المليئة بالسيئات وَيُسْئَلُونَ عنها سؤال تأنيب وتوبيخ يوم القيامة.

فالمراد بالكتابة والسؤال: معاقبتهم على افترائهم الكذب، وتجهيلهم فيما قالوه.

قوله تعالى: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} [الزخرف:١٩]، أي:"وجعل هؤلاء المشركون بالله الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا".

عن السُّدّيّ: "{وجَعَلُوا المَلائِكَةَ}، يعني: وصَفوا".

عَن قَتَادَة: "{وَجعلُوا الْمَلَائِكَة الَّذين هم عباد الرَّحْمَن إِنَاثًا}، قَالَ: قد قَالَ ذَلِك أنَاس من النَّاس وَلَا نعلمهُمْ إِلَّا الْيَهُود: أَن الله ﷻ صاهر الْجِنّ فَخرجت من بنيه الْمَلَائِكَة".

قال الطبري: يقول: "وجعلوا ملائكة الله الذين هم عنده يسبحونه ويقدسونه إناثا، فقالوا: هم بنات الله جهلا منهم بحق الله، وجرأة منهم على قيل الكذب والباطل".

قال مقاتل:"يقول: ووصفوا {الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا}، لقولهم إن الملائكة بنات الله".

قال ابن كثير:"أي: اعتقدوا فيهم ذلك".

قال الزجاج:"«الجَعْلُ»-ههنا- في معنى: القول والحكم على الشيء. تقول: قدْ جَعَلْتُ زيداً أعلم الناس، أي: قد وصفته بذلك وحكمت به".

=

=

قال السمعاني:"معناه: وصفوا، وليس الجعل هاهنا بمعنى الخلق، إنما هو بمعنى الوصف والتسمية".

قال أبو هلال العسكري:"أي: جعلوا اسمهم اسم الإناث ووصفهم، وفعلوا ذلك".

قال الزمخشري:"قد جمعوا في كفرة ثلاث كفرات. وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد، ونسبوا إليه أخس النوعين وجعلوه من الملائكة...، فاستخفوا بهم واحتقروهم".

قال ابن قتيبة:"{عِبَادُ الرَّحْمَنِ}، أي: عبيده، يقال: عبد وعبيد وعباد".

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: {عِبَادُ الرَّحْمَنِ}، بالنون، وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي «عبد الرحمن»، بالباء، وقرئ «عند الرحمن».

عن سعيد بن جبير، قال: "كنت أقرأ هذا الحرف: {الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا}، فسألت ابن عباس فقال: {عِبَادُ الرَّحْمَنِ}، قلت: فإنها في مصحفي «عند الرحمن»، قال: فامحها واكتبها {عِبَادُ الرَّحْمَنِ}، بالألف والباء. وقال: أتاني رجل اليوم وددت أنه لم يأتني فقال: كيف تقرأ هذا الحرف: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا}، قال: إن أناسا يقرءون «الذين هم عند الرحمن» فسكت عنه، فقلت: اذهب إلى أهلك! ".

قوله تعالى: {أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ} [الزخرف:١٩]، أي:"أحضروا حالة خَلْقهم حتى يحكموا بأنهم إناث؟ ".

قال الطبري: يقول:"أشهدوا هم ذلك فعلموه؟ ".

قال الثعلبي:"أحضروا خلقهم حتى يعرفوا إنهم أناث".

قال ابن كثير:"أي: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: {أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ} أي: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثا".

=

=

قال مقاتل:"يقول الله- تعالى- للنبي ﷺ: أشهدوا خلقهم؟ فسئلوا فقالوا: لا. فقال النبي ﷺ: فما يدريكم أنها إناث؟ قالوا: سمعنا من آبائنا، وشهدوا أنهم لم يكذبوا، وأنهم إناث؟ ".

قال يحيى:"أي: ما أشهدتهم شيئا من ذلك، فمن أين ادعوا أن الملائكة بنات الله؟ ".

قال الزمخشري:"وهذا تهكم بهم، بمعنى أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم، فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك، ولا تطرّقوا إليه باستدلال، ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم، فلم يبق إلا أن يشاهدوا خلقهم، فأخبروا عن هذه المشاهدة".

قال الشوكاني:"وبخهم وقرعهم فقال: {أشهدوا خلقهم}، أي: أحضروا خلق الله إياهم فهو من الشهادة التي هي الحضور، وفي هذا تهكم بهم وتجهيل لهم".

وقرئ: «أشهدوا خلقهم»، بضم الألف.

قوله تعالى: {سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} [الزخرف:١٩]، أي:"ستكتب شهادتهم، ويُسألون عنها في الآخرة".

قال الطبري: يقول:"ستكتب شهادة هؤلاء القائلين: الملائكة بنات الله في الدنيا، بما شهدوا به عليهم، ويسألون عن شهادتهم تلك في الآخرة أن يأتوا ببرهان على حقيقتها، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلا".

قال مقاتل:"{ستكتب شهادتهم} بأن الملائكة بنات الله، في الدنيا، {ويسئلون} عنهما في الآخرة".

قال الزمخشري:"{سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ} التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم، {وَيُسْئَلُونَ}، وهذا وعيد".

قال ابن كثير:"{سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ}، أي: بذلك، {ويسألون} عن ذلك يوم

=

=

القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد".

قال الشوكاني:"المعنى: سنكتب هذه الشهادة التي شهدوا بها في ديوان أعمالهم لنجازيهم على ذلك ويسئلون عنها يوم القيامة".

قرأ الجمهور: {سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ}، بضم التاء الفوقية وبناء الفعل للمفعول ورفع: {شَهَادَتُهُمْ}، وقرأ السلمي وابن السميقع وهبيرة عن حفص «سنكتب» بالنون، وبناء الفعل للفاعل ونصب: «شهادتهم»، وقرأ أبو رجاء «شهاداتهم» بالجمع.

ثم حكى- سبحانه- لونا من ألوان معاذيرهم الكاذبة فقال: وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ.

أى: وقال هؤلاء المشركون على سبيل الاحتجاج بالأعذار الباطلة: لو شاء الرحمن عدم عبادتنا للملائكة أو للأصنام ما عبدناهم.

ثم يرد الله- تعالى- عليهم بما يخرس ألسنتهم، ويهدم معاذيرهم فقال: ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ.

أى. قالوا ما قالوه من غير علم أو برهان.. لأن مشيئة الله لا يعلمها أحد سواه، ولأنه- سبحانه- قد اقتضت حكمته ومشيئته. أن يجعل للإنسان القدرة على اختيار طريق الحق أو طريق الباطل، وهم قد اختاروا طريق الباطل، واستحبوا الكفر على الإيمان دون أن يكرههم على ذلك مكره، فما قالوه ما هو إلا نوع من أنواع خرصهم وكذبهم وظنونهم الفاسدة.

قوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ} [الزخرف:٢٠]، أي:"وقال هؤلاء المشركون من قريش: لو شاء الرحمن ما عبدنا أحدًا من دونه".

قال الطبري: يقول:"وقال هؤلاء المشركون من قريش: لو شاء الرحمن ما عبدنا أوثاننا التي نعبدها من دونه، وإنما لم يحلّ بنا عقوبة على عبادتنا إياها لرضاه منا

=

=

بعبادتناها".

قال ابن أبي زمنين:"أي: لو كره الله هذا الدين الذي نحن عليه لحولنا عنه إلى غيره، ولكن الله لم يكرهه".

قال الثعلبي:"وإنما لم يعجل عقوبتنا على عبادتنا إياها لرضا منا بعبادتها".

قال القشيري:"إنما قالوا ذلك استهزاء واستبعادا لا إيمانا وإخلاصا".

عن مجاهد، قوله: "{لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ}، يعنون الأوثان، لأنهم عبدوا الأوثان".

قوله تعالى: {مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ} [الزخرف:٢٠]، أي:"ما لهم بحقيقة ما يقولون مِن ذلك مِن علم".

قال الطبري:"يقول: ما لهم بحقيقة ما يقولون من ذلك من علم، لأنهم لا خبر عندهم مني بذلك ولا بُرْهان، وإنما يقولونه ظنا وحسبانا ".

قال ابن كثير:"أي: بصحة ما قالوه واحتجوا به ".

قال ابن أبي زمنين:"قال الله: {ما لهم به من علم} بأني أمرت أن يعبدوا غيري، إنما قالوا ذلك على الشك والظن".

قال مجاهد:"يقول الله: {مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ}، يعني: الأوثان أنهم لا يعلمون ".

وقال قتادة: عبدوا الملائكة".

قوله تعالى: {إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [الزخرف:٢٠]، أي:"إنما يقولونه تخرُّصًا وكذبًا؛ لأنه لا خبر عندهم من الله بذلك ولا برهان".

قال الطبري:"يقول: ما هم إلا متخرّصون هذا القول الذي قالوه، وذلك قولهم: {لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم} ".

قال الواحدي:"أي: ما هم إلا كاذبون فيما قالوا".

=

=

قال ابن كثير:"أي: يكذبون ويتقولون".

قال البغوي: أي:"ما هم إلا كاذبون في قولهم: إن الله تعالى رضي منا بعبادتها، وقيل: إن هم إلا يخرصون، في قولهم: إن الملائكة إناث وإنهم بنات الله".

قال ابن عطية:"ذكر الله تعالى احتجاج الكفار لمذهبهم ليبين فساد منزعهم، وذلك أنهم جعلوا إمهال الله لهم وإنعامه عليهم وهم يعبدون الأصنام، دليلا على أنه يرضى عبادة الأصنام دينا، وأن ذلك كالأمر به، فنفى الله عن الكفرة أن يكون لهم علم بهذا وليس عندهم كتاب منزل يقتضي ذلك، وإنما هم يظنون ويَخْرُصُونَ ويخمنون، وهذا هو الخرص والتخرص".

قال مجاهد، قوله:"" {إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ}، قال: ما يعلمون قدرة الله على ذلك".

وفي رواية:"لم يعلموا قدرة الله ﷻ على ذلك".

قال السمعاني: تعلق بهذه الآية القدرية، وقالوا: حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم، ثم عقبه بالإنكار والتهديد فقال: {ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون} أي: يكذبون، وعندكم أن الأمر على ما قالوا.

والجواب من وجهين:

أحدهما: أن معنى قوله: {ما لهم بذلك من علم} أى: مالهم بقولهم إن الملائكة بنات الله من علم إن هم إلا يخرصون يعنى: في هذا القول وقد تم الكلام على هذا عند قوله: {لو شاء الرحمن ما عبدناهم} والإنكار غير راجع إليه، ويجوز أن يحكى من الكفار ما هو حق مثل قوله: {وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه} وهذا القول حق وصدق، فإن قيل: أول الآية وآخرها خرج مخرج الإنكار عليهم فكيف يحكى عنهم ما

=

=

هو حق؟ والجواب عنه: أنهم قالوا هذا لا على اعتقاد الحق ولكن لدفع القبول عن أنفسهم، وقد كانوا أمروا بالقبول، فأرادوا أن يدفعوا القبول من أنفسهم بهذا القول، كما أن في الآية الآخرى أرادوا أن يدفعوا الأمر بالإنفاق عن أنفسهم بما قالوه، والقول على هذا القصد غير صحيح.

والوجه الثاني: أن معنى قوله: {ما لهم بذلك من علم} أي: ما لهم في هذا القول من عذر.

وقوله: {إن هم غلا يخرصون} أي: يطلبون ما لا يكون من طلب العذر بهذا الكلام، حكاه النحاس، والأول ذكره الفراء والزجاج وغيرهما".

وقوله- تعالى-: أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ إضراب عن نفى أن يكون لهم فيما ادعوه علم عن طريق العقل، إلى إبطال أن يكون لهم علم من جهة النقل.

وأَمْ بمعنى بل والهمزة. والاستفهام للإنكار والتوبيخ، أى: بل أأعطيناهم كتابا من قبل القرآن، فيه ما يشهد بصحة أقوالهم فهم بهذا الكتاب مستمسكون؟ كلا إننا لم نعطهم شيئا من ذلك.

قوله تعالى: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ} [الزخرف:٢١]، أي:"أَحَضَروا خَلْق الملائكة، أم أعطيناهم كتابًا من قبل القرآن الذي أنزلناه".

قال الطبري: يقول:"ما آتينا هؤلاء المتخرّصين القائلين لو شاء الرحمن ما عبدنا الآلهة كتابا بحقيقة ما يقولون من ذلك، من قبل هذا القرآن الذي أنزلناه إليك يا محمد".

قال الزجاج:"أي: أم هل قالوا عن كتابٍ، المعنى: أشهدوا خلقهم أم آتيناهم بكتاب بما قالوه من عبادتهم ما يعبدون من دون الله".

قال مقاتل:"يقول: {أم} أعطيناهم كتابا من قبل هذا القرآن بأن يعبدوا غيره".

=

=

قال الزمخشري:"{أم آتيناهم كتابا} قبل هذا الكتاب، نسبنا فيه الكفر والقبائح إلينا، فحصل لهم علم بذلك من جهة الوحى".

قال يحيى:"بما هم عليه من الشرك".

قال السمعاني:"أي: بما زعموا ان الملائكة خلقوا إناثا".

قال الماتريدي:"أي: لم نؤتهم كتابا ليكون لهم العلم بذلك؛ يسفههم في قولهم؛ لأنهم قوم لا يؤمنون ولا يصدقون".

قوله تعالى: {فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ} [الزخرف:٢١]، أي:"فهم به مستمسكون يعملون بما فيه، ويحتجون به عليك أيها الرسول؟ ".

قال الطبري:"يقول: فهم بذلك الكتاب الذي جاءهم من عندي من قبل هذا القرآن، مستمسكون يعملون به، ويدينون بما فيه، ويحتجون به عليك".

قال السمعاني:"وهذا على طريق الإنكار أيضا".

قال مقاتل:"فإنا لم نعطهم".

قال الراغب:"استمسكت بالشيء: إذا تحريت الإمساك".

ثم بين- سبحانه- مستندهم الحقيقي فقال: (بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ).

أى: أنهم ليس لهم في الحقيقة مستند لا من العقل ولا من النقل، وإنما مستندهم الوحيد تقليدهم لآبائهم في جهالاتهم وسفاهاتهم وكفرهم. فقد قالوا عند ما دعاهم الرسول ﷺ الى الدين الحق: إنا وجدنا آباءنا على أمة، أى على دين وطريقة تؤم وتقصد، وهي عبادة هذه الآلهة وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ وطريقتهم مُهْتَدُونَ أى: سائرون بدون تفكر أو تدبر، أو حجة أو دليل، فهم أشبه ما يكونون بقطيع الأنعام الذي يسير خلف قائده دون أن يعرف إلى أى طريق يسير..

قوله تعالى: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ}.

=

قال الطبري: يقول:"ما آتينا هؤلاء القائلين: لو شاء الرحمن ما عبدنا هؤلاء الأوثان بالأمر بعبادتها، كتابا من عندنا، ولكنهم قالوا: بل وجدنا آباءنا على دين وملة، وذلك هو عبادتهم الأوثان".

قال ابن كثير:"أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين هاهنا، وفي قوله: {إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [الأنبياء: ٩٢] ".

عن مجاهد، قوله: "{عَلَى أُمَّةٍ}: مِلَّة".

قال الشافعي:"على دين".

قال مجاهد:"يقول: وجدنا آباءنا على دين".

عن السديّ: "{قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ}، قال: على دين".

قال قتادة: "قد قال ذلك مشركو قريش: إنا وجدنا آباءنا على دين".

قال ابن ابي زمنين: أي:"ملة، وهي ملة الشرك".

قال الزجاج:"ويقرأ «عَلَى إِمَّةٍ»، بالكسرِ، فالمعنى: على طريقة".

قال الفراء:"{إمة} لغة بني تميم، يريدون: حالا حسنة، أنشدني المفضل:

ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ وَالْإِمَّـ... ـةِ وَارَتْهُمُ هُنَاكَ الْقُبُورُ".

قال الزمخشري:"وقرئ: «على إمة»، بالكسر، وكلتاهما من: «الأمّ» وهو القصد، فالأمة: الطريقة التي تؤم، أي: تقصد، كالرحلة للمرحول إليه. والأمة: الحالة التي يكون عليها الآم وهو القاصد. وقيل: على نعمة وحالة حسنة".

قوله تعالى: {وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ} [الزخرف:٢٢]، أي:"وإنا على آثار آبائنا فيما كانوا عليه متبعون لهم، ومقتدون بهم".

قال قتادة:"وإنّا مُتَّبعوهم على ذلك".

قال الطبري: أي:"فنحن نعبدها كما كانوا يعبدونها".

=

قال ابن كثير:"{وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ}، أي: ورائهم {مهتدون}، دعوى منهم بلا دليل".

قال ابن ابي زمنين: "أي: أنهم كانوا على هدى ونحن نتبعهم على ذلك الهدى".

قال القشيري:"أخبر أنهم ركنوا إلى تقليد لا يفضى إلى العلم".

وقوله- سبحانه-: (وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها، إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ، وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ) تسلية للرسول ﷺ عما أصابه منهم من أذى، ومن قول باطل.

والكاف بمعنى مثل. واسم الإشارة ذلك يعود إلى حال الكافرين من قبلهم.

أى: لا تحزن- أيها الرسول الكريم- لما تراه من إعراض المشركين عن دعوتك. فإن شأنهم كشأن سابقيهم في الكفر والضلال، فإننا ما أرسلنا من قبلك من رسول في قرية من القرى، أو في قوم من الأقوام، إلا قال المنعمون منهم، والذين أبطرهم الترف لمن جاءهم بالحق: إنا وجدنا آباءنا على دين وطريقة تؤم وتقصد، وإنا على آثارهم، وعلى نهجهم، مقتدون. أى: مقتدون بهم في عبادتهم وأفعالهم.

وخص المترفين بالذكر، لأنهم القادة الذين صرفهم التنعم وحب الجاه والسلطان، عن النظر والتدبر والاستماع للحق، وجعلهم يستحبون العمى على الهدى.

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ} [الزخرف:٢٣]، أي:"وكذلك ما أرسلنا من قبلك-أيها الرسول- في قرية مِن نذير ينذرهم عقابنا على كفرهم بنا، فأنذروهم وحذَّروهم سخَطنا وحلول عقوبتنا، إلا قال الذين أبطرتهم النعمة من الرؤساء والكبراء: إنَّا وجدنا آباءنا على ملة ودين".

=

قال الطبري: يقول:"وهكذا كما فعل هؤلاء المشركون من قريش فعل من قبلهم من أهل الكفر بالله، وقالوا مثل قولهم، لم نرسل من قبلك يا محمد في قرية، يعني إلى أهلها رسلا تنذرهم عقابنا على كفرهم بنا فأنذروهم وحذروهم سخطنا، وحلول عقوبتنا بهم{لا قَالَ} رؤساؤهم وكبراؤهم: إنا وجدنا آباءنا على ملة ودين".

قال الزجاج:"أي: قد قال لك هَؤلاء كما قال أمثالهم للرسل مِنْ قَبْلك".

عن قتادة، قوله: "{إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا}، قال: رؤساؤهم وأشرافهم".

وقال قتادة:"قادتهم ورءوسهم فى الشرك".

قال ابن ابي زمنين:"هم أهل السمعة والقادة في الشرك".

قال الواحدي:"ملوكها وأغنياؤها، ورؤساؤها".

قال الزمخشري:"«مُتْرَفُوها»: الذين أترفتهم النعمة، أى: أبطرتهم، فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي، ويعافون مشاق الدين وتكاليفه".

قوله تعالى: {وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ} [الزخرف:٢٣]، أي:"وإنا على منهاجهم وطريقتهم مقتدون".

قال الطبري:"يعني: وإنا على منهاجهم وطريقتهم مقتدون بفعلهم نفعل كالذي فعلوا، ونعبد ما كانوا يعبدون؛ يقول جلّ ثناؤه لمحمد ﷺ: فإنما سلك مشركو قومك منهاج من قبلهم من إخوانهم من أهل الشرك بالله في إجابتهم إياك بما أجابوك به، وردّهم ما ردّوا عليك من النصيحة، واحتجاجهم بما احتجوا به لمُقامهم على دينهم الباطل".

قال الزجاج:"معناه: نقتدي بهم".

قال الثعلبي: أي:"مستنون متبعون".

قال ابن ابي زمنين:"أي: أنهم كانوا مهتدين فنحن نقتدي بهداهم".

=

عن مجاهد، قوله: "{وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}، قال: بفعلهم".

قال مجاهد:"أي: نقتدي بفعلهم".

قال قتادة:"فاتبعوهم على ذلك".

ويحكى القرآن رد الرسول ﷺ فيقول: قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ..

أي: قال الرسول ﷺ لقومه الذين أصروا على تقليد آبائهم في الكفر والضلال: أتتبعون آباءكم وتقتدون بهم في الكفر، حتى ولو جئتكم بدين أهدى وأصوب مما كان عليه آباؤكم؟

وقوله:- تعالى-: قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ ... قراءة ابن عامر وحفص عن عاصم.

وقرأ الجمهور قل أولو جئتكم ... على أن الأمر للرسول ﷺ.

وقوله- تعالى-: قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ أى: قال المترفون في الرد على رسلهم: إنا بما أرسلتم به من الهدى والدعوة إلى الدين الحق كافرون، وباقون على الدين الذي كان عليه آباؤنا.

قوله تعالى: {قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ} [الزخرف:٢٤]، أي:"قال محمد ﷺ ومَن سبقه من الرسل لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة: أتتبعون آباءكم، ولو جئتكم مِن عند ربكم بأهدى إلى طريق الحق وأدلَّ على سبيل الرشاد مما وجدتم عليه آباءكم من الدين والملة؟ ".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، القائلين إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون {أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ} أيها القوم من عند ربكم {بِأَهْدَى} إلى طريق الحق، وأدل لكم على سبيل الرشاد {مِمَّا وَجَدْتُمْ} أنتم عليه آبائكم من الدين والمِلَّة ".

قال السمعاني:"معناه: أتتبعون ما وجدتم عليه آباءكم وإن جئتكم بأهدى منه".

=

=

قال ابن كثير: "{قل} أي: يا محمد لهؤلاء المشركين: {أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ..} ".

وقرأ أبو جعفر وأبو شيخ وخالد: «أو لو جئناكم»، بالنون والألف، وقرأ الأعمش: «أو لو أتيتم».

قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [الزخرف:٢٤]، أي: "قالوا في عناد: إنا بما أرسلتم به جاحدون كافرون".

قال الطبري: "يقول: فقال ذلك لهم، فأجابوه بأن قالوا له كما قال الذين من قبلهم من الأمم المكذّبة رسلها لأنبيائها: إنا بما أرسلتم به يا أيها القوم جاحدون منكرون".

قال ابن كثير: "أي: ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به، لما انقادوا لذلك بسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله".

وقوله- سبحانه-: فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ بيان للعاقبة السيئة التي حاقت بهم بسبب إصرارهم على كفرهم وتقليدهم لآبائهم.

أى: قالوا للرسل هذا القول الذي يدل على إيثارهم الغي على الرشد، فانتقمنا منهم.

بأن أخذناهم أخذ عزيز مقتدر، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة. ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا.

فَانْظُرْ- أيها العاقل- وتأمل كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ لقد كانت عاقبتهم أن دمرناهم تدميرا.

قوله تعالى: {فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} [الزخرف:٢٥]، أي: "فانتقمنا من هذه الأمم المكذبة رسلها بإحلالنا العقوبة بهم خَسْفًا وغرقًا وغير ذلك".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فانتقمنا من هؤلاء المكذّبة رسلها من الأمم

=

=

الكافرة بربها، بإحلالنا العقوبة بهم".

قال ابن كثير:"أي: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب، كما فصله تعالى في قصصهم".

قال السمعاني:"أي: بالإهلاك والعقوبة".

قال الشوكاني:"وذلك الانتقام: ما أوقعه الله بقوم نوح، وعاد، وثمود".

قوله تعالى: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الزخرف:٢٥]، أي:"فانظر- أيها الرسول- كيف كان عاقبة أمرهم إذ كذبوا بآيات الله ورسله؟ ".

قال الطبري: يقول:"فانظر يا محمد كيف كان عقبى أمر الذين كذبوا رسل الله إلام صار، يقول: ألم نهلكهم فنجعلهم عبرة لغيرهم؟ ".

قال ابن كثير:"أي: كيف بادوا وهلكوا، وكيف نجى الله المؤمنين؟ ".

قال الشوكاني:"فإن آثارهم موجودة".

عن قتادة: "{فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}، قال: شر والله، أخذهم بخسف وغرق، ثم أهلكهم فأدخلهم النار".

قال ابن عطية:"الآية وعيد لقريش وضرب مثل بمن سلف من الأمم المعذبة المكذبة بأنبيائها كما كذبت هي بمحمد عليه السلام".

هذا، والمتأمل في هذه الآيات الكريمة، يراها من أجمع الآيات القرآنية التي حكت الأقوال الباطلة التي تفوه بها المشركون، وردت عليهم ردا منطقيا حكيما يهدمها من قواعدها.

لقد ذكرت- أولا- أنهم جعلوا لله- تعالى- من عباده جزءا ... ثم ردت عليهم بأنهم جاحدون لنعم الله، وأنهم لو كانوا يعقلون لما حكموا هذا الحكم الذي يدل على جهلهم وغفلتهم، لأنه لو كان الأمر كما ذكروا- على سبيل الفرض والتقدير- لما اختار- سبحانه- لذاته جنس البنات، وأعطاهم البنين..

=

=

ثم ذكرت- ثانيا- حالهم عند ما يبشرون بالأنثى، وتهكمت بهم حين نسبوا إلى الله مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ والمقصود بذلك جنس البنات، ثم ذكرت- ثالثا- أنهم حكموا على الملائكة بأنهم إناث، وردت عليهم بأن حكمهم هذا ساقط، لأنهم لم يشهدوا خلقهم حتى يحكموا عليهم هذا الحكم الفاسد، وأنهم سيجازون على أحكامهم التي لا دليل عليها، بما يستحقون من عقاب.

ثم ذكرت- رابعا- معاذيرهم التي اعتذروا بها عند ما حاصرتهم الحجج الدامغة، فقد قالوا: لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ فرد- سبحانه- عليهم بقوله: ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ، لأن قولهم هذا ما هو إلا لون من ألوان الاحتيال على الحقيقة بالأقوال الساقطة.

ثم ذكرت- خامسا- أنهم في إصرارهم على كفرهم لم يستندوا إلى دليل عقلي أو نقلي، وإنما استندوا على شيء واحد هو التقليد لآبائهم في جهلهم وضلالهم..

وهكذا ذكر القرآن أقوالهم وشبهاتهم.. ثم رد عليها بما يدحضها.

وقال العلامة العثيمين في تفسيره: * قال الله ﷻ: {وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين} [الزخرف: ١٥].

قوله: {وجعلوا} الضمير يعود على مشركي قريش. أي: صيروا {له} أي: لله {من عباده} أي: من مخلوقاته، وجميع المخلوقات عباد لله ﷻ، والمراد بالعباد هنا: الملائكة {جزءا} أي: بعضا منه، حيث قالوا: الملائكة بنات الله، واليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى: قالوا المسيح ابن الله.

وقوله: {جزءا}، لأن الولد جزء من أبيه، كما قال النبي ﷺ في ابنته فاطمة رضي الله عنها: "إنها بضعة مني يريبها ما رابني"، وذلك حينما تحدث الناس أن علي بن أبي طالب يريد أن يتزوج عليها بنت أبي جهل فأنكر النبي- صلى الله عليه وعلى آله

=

=

وسلم- ذلك وقال: "لا يمكن أن تكون بنت نبي الله مع بنت عدو الله".

إذن: الجزء البعض، والقائل ثلاثة أصناف من الناس: المشركون، واليهود، والنصارى.

فهؤلاء المشركون-والعياذ بالله- جعلوا له من عباده جزءا، وتأمل قوله: {من عباده} يتبين لك أن كونهم من عباد الله يمنع غاية المنع أن يكونوا جزءا من الله عز جل؛ لأن المعبود غير العابد، فلا يمكن أن يكون العابد جزءا من المعبود.

وقوله: {إن الإنسان لكفور مبين} المراد الجنس. يعني أن جنس الإنسان {لكفور} بين الكفر، فلا يرد على هذا أن يقال: من الإنسان من هو مؤمن كامل الإيمان؛ لأننا نقول: إنه قد يراد به الجنس، كقوله: {وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا} [الأحزاب: ٧٢]، والمؤمن ليس ظلوما جهولا، لكن جنس الإنسان ظلوم جهول.

وقوله: {إن الإنسان لكفور مبين} أي: بين الكفر، وذلك لأن (بان) بمعنى (ظهر) تكون بالهمزة وتكون بغير الهمزة، بمعنى أنه يجوز لغة أن تقول: بان الفجر، وأبان الفجر. وعليه فيكون معنى {مبين} أي: واضح الكفر، ولا شك أن الذي يقول: الملائكة بنات الله، أو عيسى ابن الله، أو عزير ابن الله. لا شك أنه قد كفر كفرا بينا.

وتستعمل (أبان) بالهمزة متعدية، يقال: أبان الشيء بمعنى: أظهره، ومنه قوله تعالى: {حم (١) والكتاب المبين} الذي سبق في أول السورة، أي: المظهر للحقائق المبين لها.

فإذا قال قائل: هل كلما جاء مثل هذا التعبير نحمله على الجنس؟

فالجواب: لا نحمله على الجنس إلا إذا قام الدليل على هذا، وإلا فالأصل العموم، فقوله: {وخلق الإنسان ضعيفا (٢٨)} [النساء: ٢٨]، المراد كل

=

=

الإنسان، لكن إذا تعذر أن نحملها على العموم جعلناها للجنس، وأضرب لك مثلا يتبين به المقام: الرجل خير من المرأة. المراد الجنس، وليس المعنى: كل واحد من الرجال خير من كل امرأة من النساء؛ لأن من النساء من هو خير من كثير من الرجال، لكن المراد الجنس. يعني: هذا الجنس خير من هذا الجنس.

وإن قال قائل: بدأ الله سبحانه وتعالى في هذه السورة بقوله: {إنا جعلناه قرآنا عربيا}، ثم بعد ذلك قال: {الذي جعل لكم الأرض مهدا}، ثم قال ﷻ: {وجعل لكم من الفلك} جعل، جعل، جعل؛ ثم جاء بعدها {وجعلوا له من عباده جزءا} فهل هناك تناسب بين هذه؟

فالجواب: يقال: إن هذا تناسب لفظي؛ لأنه أحيانا يكون الكلام -إذا كان على نسق واحد- أبلغ، فيكون هذا من باب التناسب اللفظي.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الولد جزء من والده، لقوله: {وجعلوا له من عباده جزءا}؛ ولذلك كان الولد في التعصيب في باب الميراث مقدما على الوالد، بمعنى: أنه لو مات ميت عن أبيه وابنه، فلأبيه السدس فرضا، والباقي للابن تعصيبا، فسهم الابن الآن خمسة من ستة، وسهم الأب واحد من ستة؛ لأن الابن جزء من أبيه فقدم.

الفائدة الثانية: أنه يجوز للأب أن يتملك من مال ولده؛ لأن ولده جزؤه، وإذا كان جزءا منه، صار كسائر جسده، ولهذا جاء في الحديث: "أنت ومالك لأبيك" فللأب أن يتملك من مال ولده ما شاء، بشرط أن لا يكون الولد محتاجا إليه، أو تتعلق به نفسه، فمثلا إذا كان عند الابن أمة قد تسراها وتعلقت بها نفسه؛ فإنه لا يجوز للأب أن يتملكها، مع أنه لا يمكن أن يطأها؛ لأنها حليلة ابنه، لكن حتى ولا التملك؛ لأن حاجته متعلقة بها.

=

=

وكذلك لو تعلقت بماله ضرورة، كابن عنده مال أعده للمهر حين يتزوج، فليس للأب أن يأخذ منه شيئا، كذلك لو كان عنده سيارة أعدها لحاجته وضرورته، فليس للأب أن يتملكها، إنما يتملك الفضل فقط، دليل هذا قوله ﷺ: "لا ضرر ولا ضرار".

الفائدة الثالثة: بيان عتو المشركين واليهود والنصارى، حيث جعلوا الذي {لم يلد ولم يولد (٣) ولم يكن له كفوا أحد} [الإخلاص: ٣- ٤] جعلوه والدا.

الفائدة الرابعة: أن الإنسان بطبيعته كفور مبين، هذا إذا جعلنا (الإنسان) للجنس، أما إذا جعلنا (الإنسان) يعود على الذي جعل من عباده جزءا، فإنه يكون خاصا، لكن المعنى الأول هو ظاهر قوله سبحانه وتعالى: {إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا (٧٢)} [الأحزاب: ٧٢] فأصل الإنسان الظلم والجهل إلا أن يمن الله عليه بالعلم والإيمان.

* قال الله ﷻ: {أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين (١٦)} [الزخرف: ١٦].

ثم قال الله ﷻ: {أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين}: {أم} هنا منقطعة، بمعنى بل والهمزة، واعلم أن (أم) تأتي متصلة إذا كانت بين شيئين متساويين، ومنقطعة إذا كان ما بعدها منقطعا عما قبلها، ففي قوله: {سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم} [البقرة: ٦] هذه متصلة، وفي مثل هذه الآية {أم} منقطعة، المنقطعة يقدرها النحويون بـ (بل) والهمزة.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أم} بمعنى همزة الإنكار، والقول مقدر، أي: أتقولون {اتخذ مما يخلق بنات} لنفسه {وأصفاكم} أخلصكم {بالبنين} اللازم من قولكم السابق فهو من جملة المنكر].

=

=

قوله تعالى: {أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين}: {أم اتخذ} قدره المفسر بمعنى: (بل يقولون)، ولا حاجة لهذا التقدير، بل هو كلام من عند الله أنكر على هؤلاء، يعني: بل على قولكم: {اتخذ مما يخلق بنات} لأنهم قالوا: الملائكة بنات الله، {وأصفاكم بالبنين} يعني: أخلصكم بالبنين وخصكم بها؛ لأنهم يقولون: البنات لله، والبنون لنا. فهل هذا عدل، هل هذا حق.

الجواب: هذا منكر وجور، على الأقل لو قالوا: إنهم سواء لكان أهون، مع أنه منكر، لكن {ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون} هذا غاية ما يكون من الجور والظلم.

وقوله: {أم اتخذ مما يخلق بنات} وهم الملائكة الذين زعموا أنهم بنات الله {وأصفاكم بالبنين} فالهمزة إذن مقدرة للإنكار.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: الإنكار على هؤلاء الذين جعلوا لله ولدا؛ لقوله: {أم اتخذ مما يخلق بنات} كيف يكون المخلوق ولدا للخالق؟ ! ولهذا قال: {مما يخلق بنات}، وهذا لا يمكن؛ لأن المخلوق منفصل بائن عن الخالق فلا يصح أن يكون ولدا له.

الفائدة الثانية: الإشارة إلى جور أولئك القائلين بأن الملائكة بنات الله؛ لقوله: {وأصفاكم بالبنين} يعني: أيعقل أن يكون هكذا.

قال الله ﷻ: {وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم} [الزخرف: ١٧].

قوله: {وإذا بشر أحدهم} يعني: بذلك قريشا وأشباههم ممن يكرهون البنات ويئدونهم.

قوله: {وإذا بشر أحدهم} أي: أخبر بأنه ولد له بنت {ظل وجهه مسودا}.

=

=

وقوله هنا: {ضرب للرحمن مثلا} ولم يقل كما قال في الآية الثانية {وإذا بشر أحدهم بالأنثى}؛ لأنها سبقها ذكر قول هؤلاء: إن الملائكة بنات الله. فضربوها مثلا لله سبحانه وتعالى، فإذا بشر أحدهم بهذا الذي ضربه مثلا للرحمن {ظل وجهه مسودا} أي: صار وجهه مسودا.

و(ظل) هنا بالظاء المشالة؛ لأنها بمعنى: صار، أما (ضل) التي هي بالضاد فهي بمعنى: تاه وضاع، تقول: ضل الطريق. بمعنى: تاه وضاع.

أما {ظل وجهه مسودا} فهو بمعنى صار وجهه مسودا. أي: بعد أن كان أبيض.

فإن قال قائل: قوله: {ظل وجهه مسودا} هذه في الدنيا والآخرة أم في الدنيا؟

فالجواب: لا، في الدنيا.

وقوله: {وهو كظيم} أي: مملوء غيظا وحزنا.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا} جعل له شبها بنسبة البنات؛ لأن الولد يشبه الوالد، والمعنى: إذا أخبر أحدهم بالبنت تولد له، {ظل} صار، {وجهه مسودا} متغيرا تغير مغتم {وهو كظيم} ممتلئ غما، فكيف ينسب البنات إليه تعالى عن ذلك،، وهذا معنى ما تكلمنا فيه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: ذكر حال هؤلاء عندما يبشرون بالبنات: أن الواحد منهم يتغير ظاهره وباطنه، ظاهره في اسوداد وجهه، وباطنه بامتلائه ظنا.

الفائدة الثانية: التنديد التام بهؤلاء؛ حيث إنهم إذا بشروا بالأنثى صارت لهم هذ الحال، وهم يدعونها للخالق عَزَّوَجَلَّ.

الفائدة الثالثة: إثبات اسم الرحمن لله سبحانه وتعالى، والرحمن يعني: ذو الرحمة الواسعة، وهذا الاسم الكريم تنكره قريش، قال تعالى: {وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن}، ولما أراد النبي أن يكتب كتاب الصلح في

=

=

الحديبية وقال للكاتب: "اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم" أبى رسول قريش وقال: إننا لا نعرف الرحمن، ولكن اكتب: باسمك اللهم. وليس هذا من باب التنزل، ولكن من باب التأليف وإمضاء المعاهدة.

ورحمة الله ﷻ تشمل الكافرين، فلولا رحمة الله ﷻ ما بقي الكافر لحظة واحدة، فالكافر مرحوم، والمؤمن مرحوم، لكن الفرق أن المؤمن مرحوم في الدنيا والآخرة، والكافر مرحوم في الدنيا، قد أغدق الله عليه النعم، وعجل له الطيبات، لكنه في الآخرة يعامل بالعدل، ويجازى بما يستحق.

إذن نقول: الرحمة العامة تشمل المؤمن والكافر، والخاصة تختص بالمؤمنين.

الفائدة الرابعة: تغير البشرة بما يسر أو يسوء، فإذا بشر الإنسان بما يسر فإن وجهه يبرق من السرور، وتحس بأنه مسرور به، والعكس بالعكس.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن الجسم تبع للقلب، فإذا استنار القلب وفرح فكذلك الجسم، والعكس بالعكس.

الفائدة الخامسة: أن المشركين لا يرضون بتقدير الله فإنهم يتغيرون ظاهرا وباطنا، ظاهرا باسوداد الوجوه، وباطنا بالامتلاء ظنا.

* قال الله ﷻ: {أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين (١٨)} [الزخرف: ١٨].

ثم قال ﷻ: {أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين}، الهمزة للاستفهام، والواو حرف عطف، و (من) اسم موصول يعني: أو الذي ينشأ في الحلية أي: يربى فيها ويحتاج إليها.

وقوله: {أومن} يقول المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [همزة الإنكار، واو العطف بجملة أي: يجعلون لله {ينشأ في الحلية} يعني: أن العطف هنا على تقدير يجعلون، بقي عندنا: أين المعادل؟ المعادل كمن ليس كذلك.

=

=

ومعنى {ينشأ} أي: يربى {في الحلية} قال المفسر: [أي: الزينة {في الخصام} عند الخصومة {غير مبين} غير مظهر للحجة؛ لضعفه عنها بالأنوثة].

وقوله: {وهو في الخصام غير مبين} أي: مظهر لما في نفسه يعني: كمن ليس كذلك. والإشارة بهذا الوصف إلى الأنثى؛ لأن الأنثى تنشأ في الحلية وتحلى لتتجمل فتحتاج إلى ما يكملها، وهي أيضا ليست ذات خصومة، بل هي في الخصام غير مبين، كمن ليس كذلك.

فالمرأة ليست جميلة بذاتها، ولكنها محتاجة إلى ما يجملها، ولهذا تجد عند النساء من الموضات، كمن ليس لهن هم إلا الموضات والتجمل والتحسين، وما أشبه ذلك؛ لأنها بنفسها قاصرة، كذلك أيضا بقولها قاصرة: {وهو في الخصام غير مبين} عند المخاصمة تكون مغلوبة لا تظهر الحجة؛ لأنها ضعيفة بالأنوثة.

بقي: ما هو المقابل؟ {أومن ينشأ} لا بد من مقابل: كمن ليس كذلك، أي: كمن لا يحتاج إلى أن ينشأ في الحلية، وكمن هو في الخصام مبين، وهو الذكر، المعنى: أن الله يضيف لوما إلى لوم على هؤلاء حيث يجعلون لله القاصر في مقاله وفعاله، ويجعلون لهم الكامل.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: قصور المرأة، وأنه لا يمكن أن تساوي الرجل في عقلها ودلها؛ لقوله: {أومن ينشأ في الحلية ...} إلى آخره.

الفائدة الثانية: أن المرأة ليس لها هم إلا التجمل والعناية بمظهرها.

الفائدة الثالثة: أن المرأة ليست ذات خصام، بل هي ضعيفة لا تستطيع أن تخاصم ولا تبين ما في قلبها من الحجة، ولهذا لما تولت بنت كسرى على الفرس، وبلغ ذلك النبي ﷺ قال: "لن يفلح قولم ولوا أمرهم امرأة".

=

=

واختلف الناس في معنى قوله: "لن يفلح قولم ولوا أمرهم امرأة" هل هذا خاص بهذ القضية المعينة، بمعنى: أن هؤلاء لن يفلحوا؛ لأنهم ولوا أمرهم امرأة، أو أن هذا عام لكل من ولى أمره امرأة.

فإن نظرنا إلى العموم: "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة" قلنا: هذا عام في كل قوم ولوا أمرهم امرأة، وإن نظرنا إلى القضية المعينة قلنا: إنه خاص. وإذا نظرنا إلى الواقع فهل المرأة التي تتولى أمور الرجال هل تفلح؟

الجواب: إن أفلحت فذلك بمعونة الرجال، أو فلاح نسبي؛ يعني: امرأة مثلا تكون رئيسة وزارة، لن يفلح قومها إلا بمساندة الرجال لها، هذه واحدة، أو يقال: هو فلاح نسبي، فلو تولى غيرها من الرجال؛ لكان ذلك أفلح لهم.

وكذلك أيضا لن يفلحوا إذا ولوا أمرهم في غير الرئاسة كالوزارة مثلا، لن يفلحوا، ومن عرف النساء وكثرة خصومهن ومشاكلهن إذا تولوا حتى إدارة مدرسة؛ عرف أن المرأة لا تصلح إطلاقا للولاية، اللهم إلا على بني جنسها، فهذا ربما؛ لأن الضعيف للضعيف.

الفائدة الرابعة: الثناء على الرجال؛ لأنهم إذا كانت النساء لا تكمل بذاتها، ولا بالفعال، ولا بالمقال، فهذا يعني أن الرجال كمل، وانظر إلى قول الله تعالى: {ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين (١٢)} [التحريم: ١٢] يتبين لك أن القنوت والعبادة في الرجال أكثر؛ ولهذا جاء في الحديث: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام".

كل هذا نريد أن يبقى في أذهاننا أن المرأة قاصرة، وأن من يحاولون أن يجعلوها كالرجال؛ فإنهم مخالفون للفطرة والطبيعة، كما أنهم مخالفون للشريعة.

=

=

خطب النبي ﷺ النساء في يوم عيد، يوم الفرح والسرور، وبين حالهن فقال: "ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن" مع أنه يوم فرح ويوم سرور، كان من المتوقع أن يدخل عليهم النبي ﷺ السرور، لكن لا بد أن يبين حالهن الآن، أولئك القوم من الكفار وغيرهم الذين ساووا النساء بالرجال في أكثر الأشياء أحوالهم غير مستقيمة، وغير تامة، مع أنهم لن يستطيعوا أن يلحقوا النساء بالرجال من كل وجه، هذا مستحيل.

قال الله ﷻ: {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون (١٩)} [الزخرف: ١٩].

قوله تعالى: {وجعلوا} الضمير يعود على المشركين، ومعنى: {وجعلوا} أي: صيروا؛ ولذلك نصبت مفعولين {الملائكة الذين هم عباد الرحمن} الذين أتموا العبودية على الوجه الأكمل؛ حيث وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم {عباد مكرمون (٢٦) لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون} [الأنبياء: ٢٦- ٢٧] {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا} وذلك بقولهم: إن الملائكة بنات الله. انظروا هذا الافتراء!

أولا: افتروا بأنهم بنات الله.

ثانيا: افتروا بأنهم بنات، وما يدريهم أن الملائكة بنات؟ لكن لما كان وصف الأنوثة وصفا رديئا-عندهم- قالوا: هم إناث والبنون لهم.

وقال الله ﷻ منكرا عليهم: {أشهدوا خلقهم} يعني: أحضروا خلقهم، وعرفوا أنهم إناث، والاستفهام هنا للإنكار أو للتحدي. يعني: أن الله أنكر عليهم، أو تحداهم هل حضروا أو لا، وهذا كقوله تعالى: {ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا (٥١)} [الكهف: ٥١].

=

=

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: {ستكتب شهادتهم} بأنهم إناث] {ستكتب} تكتب على أنها فرية وشهادة زور، ويعاقبون عليها، والسين هنا للتقريب والتحقيق، وتكتب لم يبين فاعل الكتابة، فالله أعلم، هل يكتبها الله أو الملائكة؟ والظاهر أنهم الملائكة؛ لأن الملائكة موكلون بعمل بني آدم يكتبون {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (١٨)} [ق: ١٨].

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ويسألون} عنها في الآخرة فيترتب عليها العقاب].

فإن قال قائل: على قراءة نافع: "وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن" على قراءة نافع كيف نفسر عنده؟

فالجواب: {عباد الرحمن} كما جاء في القرآن.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان افتراء هؤلاء المشركين من وجهين:

الوجه الأول: أنهم جعلوا الملائكة إناثا، وما يدريهم؟ !

الوجه الثاني: أنهم نسبوهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

الفائدة الثانية: تحدي هؤلاء المفترين بقوله: {أشهدوا خلقهم} والجواب: لا.

الفائدة الثالثة: تهديد أولئك المفترين بأن شهادتهم ستكتب، ويعاقبون عليها؛ لقوله: {ستكتب شهادتهم}.

الفائدة الرابعة: إثبات الحساب في قوله: {ويسألون}.

الفائدة الخامسة: أن أقوال الإنسان تكتب عليه كأفعاله؛ لأن الشهادة هنا بالقول.

* قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون (٢٠)} [الزخرف: ٢٠].

ثم قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم} أي: الملائكة فعبادتنا إياهم بمشيئته، فهو راض بها ...] إلى آخره.

=

=

{وقالوا} أي: المشركون {لو شاء الرحمن ما عبدناهم}: {لو} هذه حرف امتناع لامتناع {لو شاء الرحمن ما عبدناهم} لكننا عبدناهم لمشيئة الله، والعجب أنهم قالوا: {ما عبدناهم} فإن كانوا يريدون الملائكة فقد تناقضوا، وإن كانوا يريدون الأصنام، فهذا له كلام آخر، إذا كانوا يريدون الملائكة فهم قالوا: {ما عبدناهم} مع أنهم جعلوا الملائكة إناثا، وكان مقتضى ذلك أن يقولوا: (ما عبدناهن) فيرجع الضمير إلى الملائكة ضمير مؤنث، أما إذا كان المراد {ما عبدناهم} أي: ما عبدنا آلهتنا؛ فلا إشكال.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ما لهم بذلك من علم}: {ما لهم بذلك} القول من الرضا بعبادتها {من علم إن هم} أي: ما هم {إلا يخرصون} يكذبون فيترتب عليهم العقاب بهم].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: {ما لهم بذلك من علم}: {من} هنا تعرب زائدة إعرابا، لكنها في المعنى مفيدة، تفيد التوكيد، ولولا القرآن لكان السياق: (ما لهم بذلك علم)، لكن تزاد الحروف للتوكيد؛ لتوكيد النفي في هذه الآية يعني: أن قولهم: {لو شاء الرحمن ما عبدناهم} قول مبني على الخرص والظن، والمحاجة بالباطل، وإلا فهم عملوا وعبدوا بدون أن يعلموا أنه مكتوب عليهم؛ لأنه لا يعلم المكتوب إلا إذا وقع.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن هؤلاء احتجوا بالقدر فقالوا: {لو شاء الرحمن ما عبدناهم}.

الفائدة الثانية: بطلان الاحتجاج بالقدر؛ لقوله: {ما لهم بذلك من علم}.

وقولهم: {لو شاء الرحمن ما عبدناهم} صحيح، لكن الاحتجاج به غير صحيح، لو شاء الرحمن ما عبدوهم كقوله: {ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا} [البقرة: ٢٥٣]، فهذا القول صحيح، لكن

=

=

الاحتجاج به غير صحيح، وإنما قلنا: إنه صحيح، لأن الله تعالى يشاء كل شيء، كل شيء فهو واقع بمشيئة الله، لكن لا حجة بشيء لا تعلمه أنت، إذ إنك لا تعلم أن هذا مقدر عليك إلا إذا وقع، فالقدر سر مكتوم لا يعلم إلا إذا وقع المقدور.

الفائدة الثالثة: الرد على القدرية الذين ينكرون أن الله تعالى يشاء أفعال العباد، فالقدرية -وهم المعتزلة- يقولون: إن الإنسان خالق عمله، مريد له، مستقل به، وأن الله سبحانه وتعالى لا إرادة له به، سبحان الله! أيقول الله ﷻ: {إنا كل شيء خلقناه بقدر (٤٩)} [القمر: ٤٩] وتقولون أنتم: لا؟

قابلهم قوم آخرون، وهم الجبرية، وقالوا: كل شيء واقع فهو بمشيئة الله، والإنسان مجبر على العمل وليس مختارا، وهذا أيضا قول باطل، وكل يعرف الفرق بين الفعل الاختياري وبين الفعل الاضطراري، فكل يعرف الفرق بين أن ينزل الإنسان من السطح من على الدرج شيئا فشيئا وبين أن يتدحرج بدون اختيار منه.

وهم -أعني: الجبرية- يقولون: إن الكل سواء، ينزل باختيار، أو يتدحرج بغير اختيار، الكل سواء، وما حركة الإنسان إلا كحركة السعفة في الريح.

وهذا أيضا قول باطل، ولا يمكن أن تقوم به أمة، ولا أن تقوم به ملة، ولا أن تقوم به دنيا ولا أخرى، وإلا لقلنا: كل إنسان يتسلط على آخر، ثم يقول: هذا بقضاء الله وقدره، ما أملك، هل يرضى هؤلاء أن يأتي شخص ويرضهم رضا، ثم يقول: هذا بقدر الله؟

الجواب: لا أحد يرضى بذلك، ولما أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تقطع يد السارق قال: مهلا يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت إلا بقدر الله. قال: ونحن لا نقطع يدك إلا بقدر الله.

فكل إنسان يعرف أن الإنسان مختار، وله إرادة تامة بها يفعل، لو أننا قلنا بقول

=

=

الجبرية لكانت عقوبة الله للمجرمين ظلما؛ لأنهم سيقولون: يا ربنا فعلنا هذا بغير اختيارنا، والذين يقولون: إن الله لا علاقة له بفعل العبد فهم أيضا مخطئون.

ولهذا يسمى هؤلاء القدرية مجوس هذه الأمة؛ لأنهم جعلوا للحوادث خالقين، حوادث بشرية من خلق البشر، وحوادث إلهية من خلق الله ﷻ، فسموا مجوس هذ الأمة؛ لأن المجوس يقولون: إن الحوادث لها خالقان: الشر تخلقه الظلمة، والنور يخلق الخير، هذ عقيدة المجوس، وفي ذلك يقول المتنبي في ممدوحه:

وكم لظلام الليل عندك من يد ... تخبر أن المانوية تكذب

ظلام الليل ظلمة، وأنت أيها الممدوح لك الكرم في الليل والنهار.

فقولهم: {لو شاء الرحمن ما عبدناهم} صحيح لكن ليس حجة؛ ولهذا قال الله ﷻ: {ما لهم بذلك من علم}.

الفائدة الرابعة: أن المحتج بالقدر لا علم عنده. وكيف لا يكون عنده علم، وهو يعلم أنه إنما وقع بمشيئة الله؟

فالجواب: هو إنما علم بعد الوقوع، لكن قبل الوقوع لا يعلم؛ إذن لا حجة له، لأن الحجة دليل، والدليل لا بد أن يسبق المدلول، فعلمهم لاحق، وليس بسابق.

الفائدة الخامسة: أن قولهم هذا مبني على الكذب، لقوله ﷻ: {إن هم إلا يخرصون} أي: يكذبون. ولنا أن نقول: {يخرصون} بمعنى يظنون، كما قال الله ﷻ في آية أخرى {إن هم إلا يظنون} [الجاثية: ٢٤].

قال الله ﷻ: {أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون (٢١)} [الزخرف: ٢١].

ثم قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {أم آتيناهم كتابا من قبله} أي: القرآن بعبادة غير الله {فهم به مستمسكون}.

{أم آتيناهم}: {أم} بمعنى (بل)، وهمزة للاستفهام، والمعنى: بل هل نحن

=

=

آتيناهم كتابا من قبل القرآن فهم به مستمسكون؟

الجواب: لا، لم يقع ذلك، فأول كتاب نزل على العرب هو القرآن، وهو آخر كتاب؛ لأنه لم يبعث من العرب رسول إلا محمد ﷺ، كما قال الله في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: {ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة} [البقرة: ١٢٩].

ولهذا لو قال لنا قائل: هل في العرب رسول سوى محمد عليه الصلاة والسلام؛ لقلنا: لا، لا يوجد إلا واحد.

{أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون} ؟

الجواب: لا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تكرار الحجج بقدر إنكار الخصم، وكلما تكررت الحجج ازداد الأمر قوة.

الفائدة الثانية: أنك إذا أتيت بدليل مقنع فلا لوم عليك، إذا آليت بدليل آخر وثالث، ما دام المقام يقتضي ذلك، انظروا إلى الذين يجادلون أهل الباطل، وبالأخص شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله-كيف يأتون بالأدلة متتابعة متكاثرة مع أن المدلول يمكن أن يثبت بدليل واحد؟

والجواب: أن هذا من أجل التقوية، شيخ الإسلام له كتاب اسمه (التسعينية في الرد على الأشعرية) الذين قالوا: إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، أبطل رحمه الله هذا القول من تسعين وجها، ويكفي في إبطاله وجه واحد، يعني: كلما تكررت الأدلة قويت الحجة.

أرأيتم الآن في الأمور المحسوسة لو أن شخصا أتى وأخبركم بخبر وهو ثقة عندكم صدقتموه، فإذا جاء آخر ازدادت الثقة، وإذا جاء ثالث ازدادت الثقة؛

=

=

ولهذا قال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إن المتواتر يفيد القطع؛ لكثرة من رواه، المتواتر يعني: الحديث الذي يأتي من طرق كثيرة.

الفائدة الثالثة: أنه لم ينزل على العرب كتاب سوى القرآن؛ لقوله سبحانه وتعالى: {أم آتيناهم كتابا من قبله}.

الفائدة الرابعة: منة الله سبحانه وتعالى على العرب؛ حيث أنزل عليهم كتابا واحدا هداية للخلق أجمعين إلى يوم القيامة، بينما الرسل الآخرون تنزل عليهم الكتب هداية لأقوامهم، فهي -أي: الكتب- هداية في قوم معينين، وفي وقت معين، لكن هذا الكتاب -جعلني الله وإياكم من المتمسكين به- نازل صالحا لكل زمان ومكان وأمة.

قال الله ﷻ: {بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون (٢٢)} [الزخرف: ٢٢].

{بل} هذه للإضراب، إضراب انتقال، يعني: انتقلوا إلى شيء آخر، قالوا: {إنا وجدنا آباءنا على أمة} أي: على ملة، وإنا ماشون على آثارهم، مهتدون بهم، وكانوا يعبدون غير الله.

هذ حجة من حججهم، احتجوا في الأول بالقدر، الآن احتجوا بالقدوة، قالوا {إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون} نتكلم على معنى (أمة)، يقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ملة] وقد ذكرنا قريبا أن (أمة) في القرآن تدل على عدة معان:

١ - أنها تكون بمعنى: إمام، مثل قوله سبحانه وتعالى: {إن إبراهيم كان أمة قانتا} [النحل: ١٢٠].

٢- تكون بمعنى: وقت، كقوله تعالى: {وادكر بعد أمة} [يوسف: ٤٥].

٣- تكون بمعنى: طائفة من الناس، كقوله تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا}.

=

=

٤- تكون بمعنى الدين، كقوله: {إنا وجدنا آباءنا على أمة} أي: على ملة.

إذا قال قائل: هذه الكلمات التي تأتي لعدة معان ما الذي يعين المعنى؟

فالجواب: السياق، وقرائن الأحوال، إذا قلت لرجل غني: البس العباءة. ولرجل فقير: البس عباءة. هل تختلف العباءتان؟ الأول: الغني يعني: البس عباءة غني، والثاني: البس عباءة فقير. اختلف المعنى لحال المخاطب، فالمهم أن الذي يعين المعنى هو السياق.

ومن ثم قلنا: إنه لا مجاز في اللغة العربية إطلاقا، ولا في القرآن أيضا، والمسألة هذه فيها أقوال ثلاثة:

القول الأول: أن المجاز واقع في اللغة العربية والقرآن، وهذا الذي عليه جمهور العلماء.

القول الثاني: أنه واقع في اللغة غير واقع في القرآن، اختاره طائفة منهم: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب كتاب (أضواء البيان).

القول الثالث: منهم من قال: لا مجاز في القرآن ولا في اللغة. وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، وهذا هو الحق؛ لأن الكلمة ليس لها معنى ذاتي، الكلمة في ضمن جملة، فإذا دلت الكلمة في موقع ما على معنى من المعاني فهو الحقيقة، لو قلت: رأيت أسدا يحمل الحقيبة إلى المسجد ليقرأ، لا يمكن أن يتبادر إلى ذهن واحد من الناس أن المراد بالأسد السبع المعروف، بل لو ادعى هذا مدع لرد عليه كل أحد، فالذي منع هذا هو السياق.

إذن: الأسد هنا حقيقة في موضعها، وهي تدل على الشجاعة، فبدلا من أن أقول: رأيت رجلا شجاعا يحمل حقيبة، أقول: رأيت أسدا.

وانتبهوا لهذا ففيه فائدة عظيمة، وكثيرا ما يحتج الناس فيقولون: كيف لا يكون في القرآن مجاز والله يقول: {فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض} [الكهف: ٧٧]،

=

=

أي: مائلا، والجدار ليس له إرادة؟

فالجواب:

أولا: نمنع قولك: الجدار ليس له إرادة. بل له إرادة، بلا شك، قال الله ﷻ: {تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم} [الإسراء: ٤٤]، فهذه المخلوقات تسبح بإرادة بلا شك، وإلا لم يكن في هذا ثناء على الله.

ثانيا: نقول: ما الذي يمنع الإرادة في الجماد والنبي ﷺ ثبت عنه أنه قال في أحد، وهو جبل حصى: "جبل يحبنا ونحبه" فأثبت المحبة لهذا الجبل، والمحبة أخص من الإرادة.

ثالثا: نقول: إرادة كل شيء بحسبه، فميل الجدار، يعني أنه يريد أن يسقط، كميل الإنسان، فنعرف أنه يريد أن يركع مثلا، ولا مانع.

قالوا: إذن تخلصتم من هذا، فما تقولون في قوله: {واخفض لهما جناح الذل من الرحمة} [الإسراء: ٢٤]، المعنى: تواضع لهما رحمة بهما، فيقولون: الذل هل له جناح؟

فنقول: أما الذل فهو أمر معنوي، والإنسان إذا لم يذل ترفع وعلا بنفسه، فقال: اخفض جناح الذل، بدل جناح الترفع، وذكر الجناح؛ لأنه هو الذي يطير به الطير إلى السماء، فالآية واضحة أن المعنى تطامن للوالدين، وتذلل لهما، واخفض لهما الجناح، وهذا غاية ما يكون من التذلل لهما.

فإن قال قائل: ما المحذور الشرعي في إثبات المجاز إذا قلنا بالمجاز؟

فالجواب:

أول محذور: أن المجاز باتفاق القائلين به يصح نفيه، وهذا يعني: أنه يصح تكذيب القرآن، فيقول مثلا: {يريد أن ينقض} الجدار ليس له إرادة)، وهذا لا

=

=

يصح؛ ولهذا اعتمد الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ هذ الحجة اعتمادا قويا، قال: أبرز علامات المجاز أنه يصح نفيه، وليس في القرآن شيء يصح نفيه.

ثانيا: أن هذا المجاز الذي سماه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ طاغوتا توصلوا به إلى إنكار الصفات، وقالوا: اليد مجاز عن النعمة، والاستواء مجاز عن الاستيلاء، والعين مجاز عن الإحاطة، وهلم جرا، ومن قال: إن شيخ الإسلام وابن القيم أنكرا ذلك- وشددا في الإنكار- لأن أهل التعطيل توصلوا بالمجاز إلى إنكار الصفات-، فهذا كذب عليهما، بل هما أنكراه مطلقا حتى في أبسط الأشياء.

فإن قال قائل: ما الرد على القائلين بأن المجاز يدل على فصاحته وإعجاز القرآن؟

فالجواب: هذا غلط، كيف يدل على فصاحته وهو يصح أن ينفى ويكذب.

فإن قال قائل: في كتاب (فتح رب البرية) كأنه يفهم من الكلام إثبات أصل المجاز؛ لأنك قلت: المعنى المجازي لا يقبل إلا بثلاثة شروط، ومن حجج الذين يثبتون المجاز يقولون: إن القرآن جاء على أساليب اللغة، فاللغة فيها مجاز، فمن إعجاز القرآن لم يخرج عن أساليب اللغة؟

فالجواب: نحن نقول: اللغة ليس فيها مجاز أصلا. يعني: ننكر الأصل، فنقول: اللغة ليس فيها مجاز.

وما كتبناه أولا في أصول الفقه حيث ذكرنا المجاز، فإننا ماشون على خطة رسمت لنا من قبل المعاهد، وليس عن اعتقاد منا، ولقد نبهناهم بأنه يجب أن تكتبوا حاشية على هذا فتقولوا: هذا على القول بالمجاز، وأننا لا نرى ذلك.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون} [الزخرف: ٢٣].

يعني: مثل هذا الذي قيل لك قيل لمن قبلك: {ما أرسلنا من قبلك في قرية من

=

=

نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة} والحكمة من هذا تسلية النبي ﷺ من وجه، وإنذار هؤلاء المكذبين له من وجه آخر، وأنه سيصيبهم ما أصاب غيرهم مما أصروا على تقليد آبائهم الباطل.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها} أي: منعموها مثل قول قومك: {إنا وجدنا آباءنا على أمة} ملة {وإنا على آثارهم مقتدون} متبعون].

الحكمة منه هو تسلية النبي ﷺ، وإنذار هؤلاء المكذبين أن جميع الأمم السابقة يقولون لأقوامهم: {إنا وجدنا آباءنا على أمة} أي: على ملة {وإنا على آثارهم} أي: ما يسيرون عليه من الدين {مقتدون} أي: متبعون مقلدون.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تسلية النبي ﷺ بأن هذا الذي قيل له قد قيل لمن قبله، كقوله تعالى: {ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك} [فصلت: ٤٣].

الفائدة الثانية: اتفاق أهل الباطل على هدف واحد، ألا وهو تكذيب الرسل، واتباع آبائهم.

الفائدة الثالثة: تحريم التقليد بالباطل، وأما التقليد بالحق فلا بأس به، فإذا كان رجل لا يعرف حكم مسألة في دين الله، وليس عنده قدرة على الاجتهاد، فإن فرضه التقليد؛ لقول الله تعالى: {فاسألوا أهل الذكر} [النحل: ٤٣]؛ ولقول الله تعالى: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} [البقرة: ٢٨٦]؛ ولقوله سبحانه وتعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم} [التغابن: ١٦].

وأما من حرم التقليد مطلقا فقوله باطل مخالف لظاهر القرآن، وأما من ألزم به مطلقا فقوله باطل مخالف لما يجب الإيمان به من اتباع الرسل.

فالصواب: أن التقليد للضرورة جائز؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

=

=

"التقليد بمنزلة أكل الميتة، إن اضطر إنسان إليه فهو جائز، وإلا فلا".

ولكن لا يمكن أن نقول للعامي صاحب السوق: اجتهد في هذ المسألة حتى تعرف حكم الله، ولو بقي يجتهد لخبط، لكن فرضه أن يسأل.

فإن قال قائل: هل يجوز التقليد في أصول الدين، أو في فروع الدين فقط؟ فالجواب: أولا تقسيم الدين إلى أصول وفروع حادث لم يكن معروفا في عهد الصحابة، ويدل على بطلانه أنهم يجعلون الصلاة والزكاة والصيام والحج من فروع الدين، مع أنها أركان الإسلام، فالصواب: أن الشرع لا ينقسم إلى أصول وفروع، وأن هذا اصطلاح حادث، لكنه ينقسم إلى أصول علمية، وأصول عملية، فالأصول العلمية هو الاعتقادات، والعملية هو العبادات المكلف بها، هذا هو الذي يدل عليه النص.

إذن نقول: قولنا: هل يجوز التقليد في أصول الدين وفروعه، أو في فروعه فقط؟ أصل التقسيم حادث مبتدع، ولو كان عليه أكثر العلماء الآن، وهو أيضا غير صحيح. وجه بطلانه أنه جعل الصلاة والزكاة والصيام والحج من فروع الدين وهي أصل من أصول الدين أركان الإسلام.

ثم نقول: التقليد فيما تسميه أصل الدين وفروعه جائز، قال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} [النحل: ٤٣]، والرسالة على تقسيم هؤلاء إلى أصول وفروع من الأصول، ومع هذا يقول ﷻ: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} اسألوا: هل أرسلنا رجالا، أو أرسلنا ملائكة، {إن كنتم لا تعلمون}.

والقاعدة: أن كل من عجز أن يدرك الحق بنفسه وجب عليه التقليد، سواء في الأمور العلمية أو العملية، لا فرق.

=

=

الفائدة الرابعة: أن هؤلاء القوم المكذبين للرسل ليس عندهم حجة إلا مجرد ما كان عليه الآباء، وهذا ليس بحجة، وعلى هذا فلا يجوز الاحتجاج بعمل الناس، كما يفعله بعض القوم، فإذا نهيت عن شيء يفعله كل الناس فهذا ليس بحجة، ولا يمكن أن تقابل الله بهذ الحجة، كل الناس يفعلون هذا، فهذا لا يمكن أن ينفعك عند الله، قل: هذا دل الكتاب أو السنة على جوازه.

قال الله ﷻ: {قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون} [الزخرف: ٢٤].

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قال} أي: لهم {أولو} تتبعون ذلك {جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به} أنت ومن قبلك {كافرون}].

{قال أولو جئتكم}: {قال} أي: الرسول الذي يرسله الله ﷻ، ويقابل بأنهم وجدوا آباءهم على أمة، {قال} لهم: {أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم} يعني: أتردون قولي وتتبعون ما كان عليه آباؤكم ولو جئتكم بأهدى منه؟! والاستفهام هنا واضح أنه للإنكار والتوبيخ. يعني: كيف تتبعون ما عليه آباؤكم، وأنا قد جئتكم بأهدى؟! {أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم} وهو شرع الله ﷻ.

ومع هذا فالرد واحد: {قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون} وهذا غاية ما يكون من العناد، يعني: حتى ولو جئتنا بأهدى مما وجدنا عليه آباءنا فإنا كافرون، ولا نقول كما قلنا أولا: {إنا وجدنا آباءنا على أمة} بل نقول: كافرون مطلقا، وهذا أبلغ ما يكون في العناد-نسأل الله العافية- وهذا كقول الذين استكبروا من قوم صالح {قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون} [الأعراف: ٧٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان معالجة الرسل عليهم الصلاة والسلام للمكذبين، أنهم

=

=

يدلون عليهم بالحجج المقنعة، ولكن الكافرون يعاندون.

الفائدة الثانية: جواز التفضيل بين شيئين قد لا يكون في الطرف الآخر شيء من المعنى، لقوله: {أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم}: {بأهدى} اسم تفضيل، ومع ذلك فإنا نقول: ما وجدوا عليه آباءهم ليس فيه هدى؛ لكن التنزل مع الخصم لا بأس به، وإن لم يكن في الطرف الآخر شيء.

وانظر إلى قول الله سبحانه وتعالى: {آلله خير أما يشركون} [النمل: ٥٩] {أما يشركون} هذ الأصنام، وهل في الأصنام خير؟

لا، لكن من أجل مجادلة الخصم نقول لهم: هل الله خير أم آلهتك، وإنا نعلم أن آلهته ليس فيها خير؛ فهنا قال: {أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم} نعلم أن ما كان عليه آباؤهم ليس فيه هدى، بل هو ضلال، ولكننا نخاطب من يرى أنه هدى، فنخاطبه على قدر ما عنده من الفهم.

ومن ذلك ما يستعمله شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من العلماء رحمهم الله في مجادلة أهل الكلام؛ حيث يتمشى فيما يجادلهم به على حسب اصطلاحهم وإن كان ينكر أصل ما هم عليه، لكن المجادلة مع الخصم لا بأس أن ينزل الإنسان على حسب فهم الخصم حتى يكون ذلك أبلغ في الاحتجاج عليه.

الفائدة الثالثة: أن أولئك المعاندين الذين يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ليس عندهم نية في أن يؤمنوا، لأنهم لما غلبوا في الحجة {قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون} يعني: لن نؤمن، مهما أوتيتم من الحجة فلن نؤمن، وهذا غاية ما يكون من الاستكبار عن الحق.

قال الله ﷻ: {فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين} [الزخرف: ٢٥].

{فانتقمنا منهم} أي: أنزلنا بهم النقمة، وهي العقوبة، {فانظر كيف كان عاقبة المكذبين} انظر يا محمد، أو انظر أيها المخاطب كيف كان عاقبة المكذبين، إذا

=

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦).

{و} اذكر {إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيم لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء} أي بريء {مما تعبدون}.

إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧).

{إلا الذي فطرني} خلقني {فإنه سيهدين} يرشدني لدينه.

=

نظرنا وجدنا العاقبة الهلاك والدمار، فلنعتبر.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان قدرة الله ستحانه وتعالى، وأنه تبارك وتعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، فإن الله قادر على أن ينتقم منهم بأول مرة، لكن يملي للظالم، فإذا أخذه أخذه أخذ عزيز مقتدر.

الفائدة الثانية: الأمر بالاعتبار والنظر في الأمور؛ لقوله: {فانظر كيف كان عاقبة المكذبين} والنظر هنا نظر قلب.

الفائدة الثالثة: أن عاقبة المكذبين الهلاك والدمار؛ لأن الله أهلك كل المكذبين، أهلك قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وفرعون، كل المكذبين أهلكهم الله سبحانه وتعالى، لكن هذ الأمة -ولله الحمد- جعل الله هلاك عدوها على يدها، وذلك بالحروب؛ لأن هلاك عدوك على يدك أشفى للقلب من هلاكه به من عند الله ﷻ.

ولهذا كان هلاك المكذبين للرسول محمد ﷺ على أيديهم كما قال ﷻ: {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (١٤) ويذهب غيظ قلوبهم} [التوبة: ١٤- ١٥].

الفائدة الرابعة: وجوب النظر والاعتبار.

الفائدة الخامسة: أن عاقبة المكذبين للرسل هي الهلاك والدمار.

الفائدة السادسة: هذه الأمة من تكذيب رسولها أن يصيبهم ما أصاب غيرهم.

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨).

{وَجَعَلَهَا} أَيْ كَلِمَة التَّوْحِيد الْمَفْهُومَة مِنْ قَوْله إنِّي ذَاهِب إلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ {كَلِمَة بَاقِيَة فِي عَقِبه} ذُرِّيَّته فَلَا يَزَال فِيهِمْ مَنْ يُوَحِّد الله {لَعَلَّهُمْ} أَيْ أَهْل مَكَّة {يَرْجِعُونَ} عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ إلَى دِين إبْرَاهِيم أَبِيهِمْ.

بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩).

{بَلْ مَتَّعْت هَؤُلَاءِ} الْمُشْرِكِينَ {وَآبَاءَهُمْ} وَلَمْ أُعَاجِلهُمْ بالعقوبة {حتى جاءهم الحق} القرآن {وَرَسُول مُبِين} مُظْهِر لَهُمْ الْأَحْكَام الشَّرْعِيَّة وَهُوَ مُحَمَّد ﷺ.

وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠).

{ولما جاءهم الحق} القرآن {قالوا هذا سحر وإنا به كافرون}.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١).

{وَقَالُوا لَوْلَا} هَلَّا {نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآن عَلَى رَجُل مِنْ} أَهْل {الْقَرْيَتَيْنِ} مِنْ أَيَّة مِنْهُمَا {عَظِيم} أَيْ الْوَلِيد بْن الْمُغِيرَة بِمَكَّة أَوْ عُرْوَة بْن مَسْعُود الثقفي بالطائف.

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢).

{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَة رَبّك} النُّبُوَّة {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنهمْ مَعِيشَتهمْ فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا} فَجَعَلْنَا بَعْضهمْ غَنِيًّا وَبَعْضهمْ فَقِيرًا {وَرَفَعْنَا بَعْضهمْ} بِالْغِنَى {فَوْق بَعْض دَرَجَات لِيَتَّخِذ بَعْضهمْ} الْغَنِيّ {بَعْضًا} الْفَقِير {سُخْرِيًّا} مُسَخَّرًا فِي الْعَمَل لَهُ بِالْأُجْرَةِ وَالْيَاء لِلنَّسَبِ وَقُرِئَ بِكَسْرِ السِّين {وَرَحْمَة رَبّك} أَيْ الْجَنَّة {خَيْر مِمَّا يَجْمَعُونَ} فِي الدُّنْيَا.

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣).

{وَلَوْلَا أَنْ يَكُون النَّاس أُمَّة وَاحِدَة} عَلَى الْكُفْر {لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُر بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ} بَدَل مِنْ لِمَنْ {سَقْفًا} بِفَتْحِ السِّين وَسُكُون الْقَاف وَبِضَمِّهِمَا جَمْعًا {مِنْ فِضَّة وَمَعَارِج} كَالدَّرَجِ مِنْ فِضَّة {عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} يَعْلُونَ إِلَى السَّطْح.

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤).

{ولبيوتهم أبوابا} من فضة {و} جَعَلْنَا لَهُمْ {سُرُرًا} مِنْ فِضَّة جَمْع سَرِير {عليها يتكئون}.

وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥).

{وَزُخْرُفًا} ذَهَبًا الْمَعْنَى لَوْلَا خَوْف الْكُفْر عَلَى الْمُؤْمِن مِنْ إِعْطَاء الْكَافِر مَا ذُكِرَ لَأَعْطَيْنَاهُ ذَلِكَ لِقِلَّةِ خَطَر الدُّنْيَا عِنْدنَا وَعَدَم حَظّه فِي الْآخِرَة فِي النَّعِيم {وَإِنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة {كُلّ ذَلِكَ لَمَا} بِالتَّخْفِيفِ فَمَا زَائِدَة وَبِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنَى إِلَّا فَإِنْ نَافِيَة {مَتَاع الْحَيَاة الدُّنْيَا} يَتَمَتَّع بِهِ فِيهَا ثُمَّ يَزُول {وَالْآخِرَة} الجنة {عند ربك للمتقين[1]}.

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن قتادة في قوله-تعالى-: {عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}؛ قال: الرجل: الوليد بن المغيرة؛ قال: لو كان ما يقول محمد حقًا أنزل علي هذا القرآن أو على أبي مسعود الثقفي، والقريتان الطائف ومكة، وأبو مسعود الثقفي من الطائف واسمه عروة بن مسعود.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ١٩٦)، والطبري في "جامع البيان" (٢٥/ =

=

٤٠)، وعبد بن حميد في "تفسيره"؛ كما في "فتح الباري" (٦/ ٣١٥) من طرق عن قتادة به. وهو مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٧٥) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم.

وعن مجاهد في قوله-تعالى-: {عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}؛ قال: نزلت في عتبة بن ربيعة وابن عبد ياليل الثقفي.

أخرجه عبد بن حميد في "تفسيره"؛ كما في "فتح الباري" (٦/ ٣١٥) من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد به. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

* أى: واذكر- أيها الرسول الكريم- لقومك حال جدك إبراهيم- عليه السلام- وقت أن قال لأبيه آزر، ولقومه الذين كانوا عاكفين على عبادة الأصنام، مقلدين في ذلك آباءهم..

قال لهم: إننى برىء مما تعبدونه من هذه الأوثان.

وذكرهم- سبحانه- هنا بحال إبراهيم، لأنه كان أعظم آبائهم، ومحط فخرهم، والمجمع على محبته منهم.

فكأنه- تعالى- يقول لهم: هذا هو حال جدكم إبراهيم الذي تعتزون به فلماذا لم تقلدوه في إنكاره لعبادة الأصنام، وفي هجره لما كان عليه أبوه وقومه، وإخلاصه العبادة لله- تعالى- وحده.

وقوله: بَراءٌ مصدر وقع موقع الصفة وهي برىء، على سبيل المبالغة في التبري من عبادتهم لغير الله- تعالى- يقال: تبرأت من فلان، فأنا منه براء.

أى: كرهت قوله وفعله والقرب منه.

قال الطبري: يقول:"{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ} الذين كانوا يعبدون ما يعبده مشركو قومك يا محمد".

=

=

قال الشوكاني:"أي: واذكر لهم وقت قوله لأبيه وقومه الذين قلدوا آباءهم وعبدوا الأصنام ".

قال القاسمي:"أي: اذكر وقت قوله هذا، ليروا كيف تبرأ عن التقليد وتمسك بالدليل. أو ليقلدوه إن لم يكن لهم بد من التقليد، فإنه أشرف آبائهم".

قال ابن عطية:"المعنى: واذكر إذا قال إبراهيم، ولما ضرب تعالى المثل لمحمد ﷺ بالنذر وجعلهم إسوة له، خص إبراهيم بالذكر لعظم منزلته، وذكر محمدا ﷺ بمنابذة إبراهيم عليه السلام لقومه، أي: فافعل أنت فعله وتجلد جلده".

قوله تعالى: {إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ} [الزخرف:٢٦]، أي:"براء مما تعبدون من دون الله".

قال القاسمي:"أي: بريء من عبادتكم أو معبودكم".

قال الطبري: يقول:"{إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ} من دون الله، فكذّبوه، فانتقمنا منهم كما انتقمنا ممن قبلهم من الأمم المكذّبة رسلها".

قال الفراء:"العرب تقول: نحن منك البراء والخلا".

قال الأخفش:"تقول العرب: أنا براء منك".

قال الزجاج:"{بَرَاءٌ}: بمعنى: بريء، {مِمَّا تَعْبُدُونَ}، والعرب تقول للواحد منها: أنا البراء منك، وكذلك الاثنان والجماعة والذكر والأنثى يقولون: نحن البراء منك والخلاء منك، ولا يقولون: نحن البراءان منك ولا البراءونَ".

عن قتادة، قوله: "{إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ}، يقول: إنني بريء مما تعبدون، إلا الذي خلقني".

عن قتادة، قوله: "{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ}،... الآية، قال: كايدهم، كانوا يقولون: إن الله ربنا: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ}، فلم يبرأ من ربه".

=

=

وفي قراءة ابن مسعود: «بريء».

قال الفراء:"العرب تكتب: يستهزئ يستهزأ، فيجعلون الهمزة مكتوبة بالألف في كل حالاتها. يكتبون: شيء، شيأ، ومثله كثير في مصاحف عبد الله وفى مصحفنا: {وَيُهَيِّئْ لَكُم} [الكهف: ١٦]، و «يهيأ»، بالألف".

والاستثناء في قوله: إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ منقطع، أى: أنا برىء من عبادة أصنامكم، لكني أعبد الذي خلقني وفطرني بقدرته، فإنه هو الذي سيهدين إلى الصراط المستقيم.

ويصح أن يكون متصلا بناء على أنهم كانوا يعبدون الله- تعالى- ويشركون معه في هذه العبادة أصنامهم.

أى: إننى برىء من عبادة أصنامكم، إلا أنى لا أعبد إلا الله- تعالى- الذي فطرني. أى: خلقني بقدرته على غير مثال سابق.

وقال هنا سَيَهْدِينِ وقال في آية أخرى: الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، للدلالة على ثقة إبراهيم- عليه السلام- بفضل ربه- تعالى- عليه، وأنه يهديه في الحال وفي الاستقبال، وأن هذه الهداية مصاحبة له في كل وقت من أوقات حياته.

قال الطبري:"يقول: إني بريء مما تعبدون من شيء إلا من الذي خلقني، فإنه سيقومني للدين الحقّ، ويوفقني لاتباع سبيل الرشد".

قال الزجاج:"المعنى: إنا نتبرأ مما تعبدون إلا من الله عز وجل، ويجوز أن يكون {إلا}، بمعنى: «لكن»، فيكون المعنى: لكن الذي فطرني فإنه سيهدين".

عن السديّ: "{إِلا الَّذِي فَطَرَنِي}، قال: خلقني".

قال السمعاني:"{سيهدين}، أي: يرشدني".

قال الماتريدي:"أي: سيثبتني على الهدى".

قال الشوكاني:"سيرشدني لدينه ويثبتني على الحق".

=

=

قال الزمخشري:"فإن قلت: ما معنى قوله: {سَيَهْدِينِ}، على التسويف؟ قلت: قال مرة: {فَهُوَ يَهْدِينِ}، ومرّة: {فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}، فاجمع بينهما وقدّر، كأنه قال: فهو يهدين وسيهدين، فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال".

قال القاسمي:"«السين» إما للتأكيد، ويؤيده آية الشعراء {يَهْدِينِ} [الشعراء: ٧٨]، بدونها. والقصة واحدة، والمضارع في الموضعين للاستمرار. وإما للتسويف والاستقبال، والمراد: هداية زائدة على ما كان له أولا. فيتغاير ما في الآيتين من الحكاية أو المحكي، بناء على تكرر قصته".

والضمير المنصوب في قوله- تعالى- بعد ذلك: وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ ... يعود إلى كلمة التوحيد، المشتملة على البراءة من كل عبادة لغير الله- تعالى-، والمعبر عنها قبل ذلك بقوله- تعالى-: إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ.

وضمير الفاعل المستتر في قوله- سبحانه-: وَجَعَلَها ... يعود إلى الله- تعالى-. أى: وجعل الله- تعالى- بفضله وكرمه، كلمة التوحيد، باقية في عقب ابراهيم، وفي ذريته من بعده، بأن جعل من ذريته الأنبياء والصالحين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا.

ويؤيد هذا المعنى قوله- تعالى- في سورة الصافات: سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ، كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ...

ويصح أن يكون ضمير الفاعل يعود إلى إبراهيم- عليه السلام، على معنى أنه أوصى ذريته من بعده بعبادة الله- تعالى- وحده، وأنه دعا ربه أن يجعل في ذريته من يعبده وحده.

فيكون المعنى: وجعل ابراهيم هذه الكلمة وهي كلمة التوحيد باقية في ذريته حيث أوصاهم بعبادة الله وحده.

=

=

ويشهد لذلك قوله- تعالى-: وَوَصَّى بِها- أى بكلمة التوحيد- إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .... .

ثم بين- سبحانه- الحكمة في ذلك الجعل فقال: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى: جعلها كذلك رجاء أن يرجع إلى كلمة التوحيد من أشرك من ذرية ابراهيم، ببركة دعائه لهم بالإيمان ودعاء من آمن منهم.

فلقد حكى القرآن عن إبراهيم أن دعا الله- تعالى- بقوله: رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ... وبقوله: وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ.

قال الطبري: يقول:"وجعل قوله: {إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلا الَّذِي فَطَرَنِي} ، وهو قول: «لا إله إلا الله»، كلمة باقية في عقبه، وهم ذريّته، فلم يزل فى ذريّته من يقول ذلك من بعده".

قال ابن كثير:"أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي «لا إله إلا الله»، أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم، عليه السلام ".

قال صاحب المنار:"أي: جعل البراءة من الشرك ونزغاته وتقاليده والاعتصام بالتوحيد الخالص كلمة باقية في عقبه يدعو إليها النبيون والمرسلون منهم".

قال القاسمي:"أي: شهادة التوحيد، كلمة موصي بها، موروثة متداولة محفوظة".

قال السعدي:" {وَجَعَلَهَا} أي: هذه الخصلة الحميدة، التي هي أم الخصال وأساسها، وهي إخلاص العبادة لله وحده، والتبرِّي من عبادة ما سواه، {كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} أي: ذريته.. فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام حتى دخلهم الترف والطغيان".

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} [الزخرف:٢٨]، وجهان من

=

=

التفسير:

أحدهما: يعني: «لا إله إلا الله»، لم يزل في ذريته من يقولها، قاله مجاهد، وقتادة، وعكرمة، والسدي، وبه قال ابن قتيبة، والزجاج.

قال قتادة:"شهادة أن لا إله إلا الله، والتوحيد لم يزل في ذريته من يقولها من بعده".

قال قتادة:"التوحيد والإخلاص، ولا يزال في ذرّيته من يوحد الله ويعبده".

قال الزجاج:"يعني بها: كلمة التوحيد، وهي: «لا إله إلا الله»، باقية في عقب إبراهيم، لا يزال من ولده من يوحد الله ﷻ".

قال الزمخشري: يعني:"وجعل إبراهيم صلوات الله عليه كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله: {إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي}، {كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ}، في ذريته، فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده".

الثاني: الإسلام، لقوله تعالى: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ} [الحج: ٧٨]، وقوله: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ} [البقرة: ١٢٨]، وقوله تعالى: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٢]. قاله عكرمة، وابن زيد، والقرظي.

قال ابن كثير:"وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة".

قال الفراء: أي:"اسم الإسلام، يقول لازمة لمن اتبعه، وكان من ولده".

وقال عبدالقاهر الجرجاني:"بأنه وضع في تلبية الحج: «لبيك لا شريك لك»، وبأنه قال: {وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ١٠٢]".

وفي قوله تعالى: {فِي عَقِبِهِ} [الزخرف:٢٨]، وجوه:

أحدها: ولده، قاله مجاهد، عكرمة، والزجاج.

قال ابن زيد:"عقبه: ذرّيته".

=

=

قال عكرمة:"أوصى بها ولده".

قال ابن شهاب:"العقب: الولد، وولد الولد".

قال الراغب:"«العقب»: مؤخر الرجل، وقيل: عقب، وجمعه: أعقاب، وروي: «ويل للأعقاب من النار»، واستعير العقب للولد وولد الولد".

الثاني: في آل محمد-ﷺ-، قاله السدي.

الثالث: أنه رجل واحد، وذلك محمد-ﷺ-. حكاه السمعاني.

الرابع: يعني: من خلَفه، قاله ابن عباس.

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الزخرف:٢٨]، أي:"لعلهم يرجعون إلى طاعة ربهم وتوحيده، ويتوبون من كفرهم وذنوبهم".

قال الطبري:"يقول: ليرجعوا إلى طاعة ربهم، ويثوبوا إلى عبادته، ويتوبوا من كفرهم وذنوبهم".

قال السمعاني:"أي: يرجعون إلى الهدى بعد الضلالة".

قال ابن ابي زمنين: أي:"لكي يرجعوا إلى الإيمان".

قال الزمخشري: يعني:"لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم".

قال الفراء: أي:"لعل أهل مكة يتبعون هذا الدين إذا كانوا من ولد إبراهيم صلى الله عليه، فذلك قوله: {لعلهم يرجعون} إلى دينك ودين إبراهيم صلى الله عليهما".

قال النحاس: أي:"إلى دينك ودين إبراهيم صلى الله عليهما إذ كانوا من ولده".

وقوله- سبحانه-: بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ إضراب عن كلام محذوف ينساق إليه الكلام، والمراد «بهؤلاء» أهل مكة المعاصرين للنبي ﷺ وقوله: مَتَّعْتُ من التمتع بمعنى إعطائهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب والنعم المتعددة، واشتغالهم بذلك عن طاعة الله- تعالى-

=

=

وشكره.

والمعنى: اقتضت حكمتنا أن نجعل كلمة التوحيد باقية في بعض ذرية إبراهيم لعل من بقي من هذه الذرية على الشرك أن يرجع إليها، ولكنهم لم يرجعوا بل أصروا على كفرهم، فلم أعاجلهم بالعقوبة، بل متعت هؤلاء المشركين المعاصرين لك- أيها الرسول الكريم- بأن أمددتهم بالنعم المتعددة هم وآباءهم، وبقيت تلك النعم فيهم: حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وهو دعوتك إياهم إلى إخلاص العبادة لنا، وجاءهم رَسُولٌ مُبِينٌ هو أنت- أيها الرسول الكريم- فإن رسالتك واضحة المعالم، بينة المقاصد، ليس فيها شيء من الغموض الذي يحملهم على الإعراض عنها.

فالمقصود من الآية الكريمة، بيان أن الكلمة الباقية في عقب إبراهيم وهي كلمة التوحيد، لم يتبعها جميع أفراد ذريته، بل اتبعها قوم وكفر بها آخرون وأن هؤلاء الكافرين- وعلى رأسهم كفار قريش- لم يعاجلهم الله- تعالى- بالعقوبة، بل أعطاهم نعما متعددة، فلم يشكروه- تعالى- عليها، واستمروا على ذلك، حتى جاءهم الحق، فلم يؤمنوا به، ولا بمن حمله إليهم وهو الرسول المبين ﷺ.

قال الطبري: يقول:"{بَلْ مَتَّعْتُ} يا محمد {هَؤُلاءِ} المشركين من قومك {وَآبَاءَهُمْ} من قبلهم بالحياة، فلم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم".

قال مقاتل:"يعني: كفار مكة وآباءهم".

قال ابن أبي زمنين:"يعني: قريشا لم أعذبهم".

قال الثعلبي: أي:"لم أهلكهم ولم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم".

قال الواحدي:"يعني: المشركين، يقول: أمتعتهم بأنفسهم وأموالهم، وأنواع النعم، ولم أعاجلهم بعقوبة كفرهم".

قال ابن كثير:"{بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ}، يعني: المشركين، {وآباءهم}، أي: فتطاول

=

=

عليهم العمر في ضلالهم".
قال الزمخشري:"يعني: أهل مكة، وهم من عقب إبراهيم بالمدّ في العمر والنعمة، فاغتروا بالمهلة، وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد".
وقرئ: «بل متعنا».
عن قتادة:"أنّه كان يقرؤها: (بَلْ مَتَّعْتَ هَؤُلَآءِ) بنصب التاء".
قال الزمخشري:"فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ: {مَتَّعْتُ} بفتح التاء؟
قلت: كأن الله تعالى اعترض على ذاته في قوله: {وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، فقال: بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق، حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد. وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم، لأنه إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سببا في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان، لا أن يشركوا به ويجعلوا له أندادا، فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه، ثم يقبل على نفسه فيقول. أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله".
قوله تعالى: {حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ} [الزخرف:٢٩]، أي:"حتى جاءهم القرآن ورسول يبيِّن لهم ما يحتاجون إليه من أمور دينهم".
قال الطبري:"يقول: لم أهلكهم بالعذاب حتى أنزلت عليهم القرآن، وبعثت فيهم رسولا مبينا، يعني: محمدا ﷺ، يبين لهم بالحجج التي يحتج بها عليهم أنه لله رسول محقّ فيما يقول".
قال مقاتل:"{حتى جاءهم الحق}، يعني: القرآن، {ورسول مبين}، يعني: محمدا ﷺ بيّن أمره".
قال ابن كثير:"أي: بين الرسالة والنذارة".

=

=

قال الثعلبي:"يبين لهم الأعلام والأحكام وهو محمد ﷺ".

قال الواحدي:"يبين لهم الأحكام والدين، وكان من حق هذا الإنعام أن يطيعوا الرسول بإجابته، فلم يجيبوه، وعصوا".

قال الزمخشري:"{مبين} الرسالة واضحها بما معه من الآيات البينة".

عن الضحاك: {حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ}، "قال: الإسلام".

عن قتادة بن دعامة: (بَلْ مَتَّعْتَ هَؤُلاءِ وآباءَهُمْ حَتّى جاءَهُمُ الحَقُّ ورَسُولٌ مُبِينٌ)، قال: هذا قول أهل الكتاب لهذه الأمة".

ثم بين- سبحانه- موقفهم من الحق الذي جاءهم به الرسول ﷺ فقال: وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ.

أى: وحين جاءهم الرسول ﷺ بالحق من عند ربهم، لكي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.. قالوا- على سبيل الجحود والعناد-: هذا الذي جئتنا به نوع من السحر، وإنا به كافرون مكذبون.

والتعبير بقوله: جاءَهُمُ يشعر بأن الحق قد وصل إليهم دون أن يتعبوا أنفسهم في البحث عنه، ومع ذلك فقد استقبلوه بالجحود والإنكار.

قال الطبري: يقول:"ولما جاء هؤلاء المشركين القرآنُ من عند الله، ورسول من الله أرسله إليهم بالدعاء إليه ".

قال ابن الجوزي:"يعني: قريشاً في قول الأكثرين".

وقال قتادة: "هم اليهود".

قوله تعالى: {قَالُوا هَذَا سِحْرٌ} [الزخرف:٣٠]، أي: قالوا: "هذا الذي جاءنا به هذا الرسول سحرٌ يسحرنا به، وليس بوحي مِن عند الله".

قال الزمخشري:"فكذبوا به وسموه ساحرا وما جاء به سحرا، ولم يوجد منهم ما رجاه إبراهيم".

=

=

قال السدي:"هؤلاء قريش، قالوا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ: هذا سحر".

قوله تعالى: {وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ} [الزخرف:٣٠]، أي:"وإنا به مكذّبون، لا نصدّق أنه كلام الله".

قال الطبري: "يقول: قالوا: وإنا به جاحدون، ننكر أن يكون هذا من الله".

قال ابن كثير:"أي: كابروه وعاندوه ودفعوا بالصدور والراح كفرا وحسدا وبغيا".

ثم حكى- سبحانه- لونا آخر من ألوان حسدهم وعنادهم فقال: (وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)

المراد بالقريتين مكة أو الطائف. ومقصودهما إحداهما، كالوليد بن المغيرة من مكة، وكعروة بن مسعود من الطائف..

ويعنون بالعظم: كثرة المال، والرئاسة في قومه.

أى: وقال هؤلاء المشركون- على سبل العناد والحسد-: هلا أنزل هذا القرآن، الذي يقرؤه علينا محمد ﷺ على رجل عظيم في ماله وسلطانه، ويكون من إحدى هاتين القريتين، وهما مكة أو الطائف.

فهم لجهلهم وانطماس بصائرهم، استكثروا أن ينزل هذا القرآن على محمد ﷺ الذي وإن كان في القمة من الشرف والسمو بين قومه إلا أنه لم يكن أكثرهم مالا وسلطانا، وهم يريدون أن تكون النبوة في زعيم من زعمائهم، أو رئيس من رؤسائهم.

قال الطبري: يقول:"وقال هؤلاء المشركون بالله من قريش لما جاءهم القرآن من عند الله: هذا سحر، فإن كان حقا فهلا نزل على رجل عظيم من إحدى هاتين القريتين: «مكة» أو «الطائف» ".

قال ابن كثير:"أي: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من

=

=

القريتين؟ يعنون: مكة والطائف".

قال الفراء:"قال هذا: الوليد بن المغيرة المخزومي، والقريتان: مكة والطائف".

قال الزجاج:"المعنى: على رجل من رَجُلَي القريتين عظيم.. والقريتان-ههنا-: مكة والطائف".

عن ابن عباس، وقتادة:"القريتان: الطائف ومكة".

وفي عظيم «مكة»، قولان:

أحدهما: أنه الوليد بن المغيرة القرشيّ، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، والشعبي، والفراء، والزجاج.

قال قتادة:"الرجل: الوليد بن المغيرة، قال: لو كان ما يقول محمد حقا أنزل عليّ هذا".

قال قتادة:"القريتان: مكة والطائف؛ قال: قد قال ذلك مشركو قريش، قال: بلغنا أنه ليس فخذ من قريش إلا قد ادّعته، وقالوا: هو منا، فكنا نحدّث أن الرجلين: الوليد بن المغيرة، وعروة الثقفي أبو مسعود، يقولون: هلا كان أنزل على أحد هذين الرجلين".

الثاني: عتبة بن ربيعة، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"هو عُتبة بن ربيعة، وكان ريحانة قريش يومئذ".

وأما عظيم «الطائف»، ففيه أربعة أقوال:

أحدها: أنه حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، قاله ابن عباس، والزجاج.

الثاني: عمير بن عبد ياليل الثقفي، قاله مجاهد.

الثالث: عروة ابن مسعود الثقفي، قاله قتادة، وابن زيد، والفراء.

قال ابن زيد:"كان أحد العظيمين: عروة بن مسعود الثقفي، كان عظيم أهل الطائف".

=

=

الرابع: أنه كنانة بن عبد بن عمرو بن عمير، قاله السدي، والشعبي.
قال ابن كثير:"الظاهر: أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان".
قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال كما قال جلّ ثناؤه، مخبرا عن هؤلاء المشركين: {وَقَالُوا لَوْلا نزلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}، إذ كان جائزا أن يكون بعض هؤلاء، ولم يضع الله تبارك وتعالى لنا الدلالة على الذين عنوا منهم في كتابه، ولا على لسان رسوله ﷺ، والاختلاف فيه موجود على ما بيَّنت".
وقال النحاس:"قول قتادة أشبه بالصواب، لأن معمرا روى عنه، أنه قال: «قال الوليد بن المغيرة: لو كان ما يقول محمد حقا، أنزل علي أو على أبي مسعود الثقفي». فخبر قتادة بسبب نزول الآية".
قال ابن عطية:"وإنما قصدوا إلى من عظم ذكره بالسن والقدم، وإلا فرسول الله ﷺ كان حينئذ أعظم من هؤلاء، لكن لما عظم أولئك قبل مدة النبي وفي صباه استمر ذلك لهم".
وهذا منهم- كما يقول الآلوسى- لجهلهم بأن رتبة الرسالة، إنما تستدعى عظيم النفس، بالتخلي عن الرذائل الدنية، والتحلي بالكمالات والفضائل القدسية، دون التزخرف بالزخارف الدنيوية.
وقد وبخهم الله- تعالى- على جهلهم هذا بقوله: (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ..)
فالاستفهام للإنكار والتهكم بهم، والتعجب من تفكيرهم.
والمراد بالرحمة: ما يشمل النبوة، وما أنزله على نبيه ﷺ من وحى، وما منحه إياه من خلق كريم، وخير عميم.
أى: كيف بلغ الجهل والغباء بهؤلاء المشركين إلى هذه الدرجة؟ إنهم ليس

=

=

بيدهم ولا بيد غيرهم عطاء ربك، وليس عندهم مفاتيح الرسالة ليضعوها حيث شاءوا، وليختاروا لها من أرادوا. ومادام الأمر كذلك فكيف يعترضون على نزول القرآن عليك- أيها الرسول الكريم-؟.

ومعنى الأية: أهم يقسمون النبوة فيضعونها حيث شاؤوا؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في حياتهم الدنيا من الأرزاق والأقوات، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات: هذا غنيٌّ وهذا فقير، وهذا قويٌّ وهذا ضعيف؛ ليكون بعضهم مُسَخَّرًا لبعض في المعاش. ورحمة ربك-أيها الرسول- بإدخالهم الجنة خير مما يجمعون من حطام الدنيا الفاني.

قال الماوردي:"يعني: النبوة فيضعوها حيث شاءوا".

قال الطبري: يقول:"أهؤلاء القائلون: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يا محمد، يقسمون رحمة ربك بين خلقه، فيجعلون كرامته لمن شاءوا، وفضله لمن أرادوا، أم الله الذي يقسم ذلك، فيعطيه من أحبّ، ويحرمه مَنْ شاء؟ ".

قال ابن كثير:"أي: ليس الأمر مردودا إليهم، بل إلى الله، ﷻ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبا ونفسا، وأشرفهم بيتا وأطهرهم أصلا".

ثم بين- سبحانه- مظاهر قدرته في خلقه فقال: (نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ...) أى: نحن قسمنا بينهم أرزاقهم في هذه الدنيا، ولم نترك تقسيمها لأحد منهم، ونحن الذين- بحكمتنا- تولينا تدبير أسبابها ولم نكلها إليهم لعلمنا بعجزهم وقصورهم.

ونحن الذين رفعنا بعضهم فوق بعض درجات في الدنيا، فهذا غنى وذاك فقير، وهذا مخدوم، وذاك خادم، وهذا قوى، وذاك ضعيف.

=

=

ثم ذكر- سبحانه- الحكمة من هذا التفاوت في الأرزاق فقال: لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا.

أى: فعلنا ذلك ليستخدم بعضهم بعضا في حوائجهم، ويعاون بعضهم بعضا في مصالحهم، وبذلك تنتظم الحياة، وينهض العمران. ويعم الخير بين الناس، ويصل كل واحد إلى مطلوبه على حسب ما قدر الله- تعالى- له من رزق واستعداد..

ولو أنا تركنا أمر تقسيم الأرزاق إليهم لتهارجوا وتقاتلوا، وعم الخراب في الأرض، لأن كل واحد منهم يريد أن يأخذ ما ليس من حقه، لأن الحرص والطمع من طبيعته.

وإذا كان هذا هو حالهم بالنسبة لأمور دنياهم فكيف أباحوا لأنفسهم التحكم في منصب النبوة، وهو بلا شك أعلى شأنا، وأبعد شأوا من أمور الدنيا.

وقوله سُخْرِيًّا بضم السين- من التسخير، بمعنى تسخير بعضهم لبعض وخدمة بعضهم لبعض، وعمل بعضهم لبعض، فالغنى- مثلا- يقدم المال لغيره، نظير ما يقدمه له ذلك الغير من عمل معين..

وبذلك تنتظم أمور الحياة، وتسير في طريقها الذي رسمه- سبحانه- لها.

قال الجمل ما ملخصه: قوله: لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا أى: ليستخدم بعضهم بعضا، فيسخر الأغنياء بأموالهم، الأجراء الفقراء بالعمل، فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض، هذا بماله، وهذا بأعماله، فيلتئم قوام العالم، لأن الأرزاق لو تساوت لتعطلت المعايش، فلم يقدر أحد منهم أن ينفك عما جعلناه إليه من هذا الأمر الدنىء، فكيف يطمعون في الاعتراض في أمر النبوة، أيتصور عاقل أن نتولى قسم الناقص، ونكل العالي إلى غيرنا..؟ ا.هـ.

هذا، والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها تقرر سنة من سنن الله- تعالى- التي لا

=

=

تغيير لها ولا تبديل، والتي تؤيدها المشاهدة في كل زمان ومكان، فحتى الدول التي تدعى المساواة في كل شيء.. ترى سمة التفاوت في الأرزاق وفي غيرها واضحة جلية، وصدق الله في قوله:

وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ.

ومن الآيات التي تشبه هذه الآية قوله- تعالى-: وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ .... .

وقوله- سبحانه-: انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ، وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا .

ثم ختم- سبحانه- هذا التهوين لحطام الدنيا فقال: وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً، لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ، وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ.

ولَوْلا حرف امتناع لامتناع. والكلام على حذف مضاف. والمراد بالأمة الواحدة:

أمة الكفر. والمعارج جمع معرج وهي المصاعد التي يصعد عليها إلى أعلى.

أى: ولولا كراهة أن يكون الناس جميعا أمة واحدة مجتمعة على الكفر حين يشاهدون سعة الرزق، ورفاهية العيش، ظاهرة بين الكافرين..

لولا كراهية ذلك. لجعلنا بمشيئتنا وقدرتنا، لمن يكفر بالرحمن، الشيء الكثير من حطام الدنيا، بأن نجعل لبيوتهم سقفا من فضة، ولجعلنا لهم مصاعد فخمة عليها يرقون إلى أعلى مساكنهم.

ولجعلنا- أيضا- لبيوتهم أبوابا جميلة، وسررا ثمينة عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ أى: على السرر يتكئون وهم جالسون فوقها.

وَزُخْرُفاً أى: ولجعلنا لهم زخرفا، ليستعملوه في أسقف منازلهم، وفي أبواب

=

=

بيوتهم، وفي غير ذلك من شئون حياتهم.

والزخرف: يطلق على الشيء الذي يتزين به. فيشمل الذهب والفضة، وغيرهما مما يستعمله الناس في تزيين بيوتهم.

وقوله: وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا، وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ أى: وما كل ما ذكرناه من البيوت الموصوفة بما ذكرناه من الصفات السابقة، إلا شيء يتمتع به المتمتعون في الحياة، التي أمرها إلى زوال واضمحلال..

أما الآخرة التي زينتها باقية لا تنتهي ولا تنقطع، فهي عند ربك خاصة بالمؤمنين الصادقين، الذين آثروا النعيم الباقي على النعيم الفاني، فقدموا في دنياهم العمل الصالح، الذي ينفعهم في أخراهم.

وقال العلامة العثيمين في تفسيره: قال الله ﷻ: {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون (٢٦) إلا الذي فطرني فإنه سيهدين} [الزخرف: ٢٦- ٢٧].

{وإذ} مفعول لفعل محذوف، التقدير: واذكر إذ قال إبراهيم، وإنما ذكر إبراهيم لأن إبراهيم تنتمي إليه جميع الأمم، اليهود قالوا: إنه يهودي. والنصارى قالوا: إنه نصراني. والعرب قالوا: إنهم متبعون ملته. فأراد الله أن يبين أن إبراهيم عليه السلام كان بريئا من الشرك وأهله.

{وإذ قال إبراهيم} التقدير: واذكر إذ قال إبراهيم، إبراهيم الخليل عليه السلام هو إمام الحنفاء الذي قال الله تعالى فيه لنبيه محمد: {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين} [النحل: ١٢٣].

وكان إبراهيم عليه السلام كغيره من الأنبياء بعث إلى قومه خاصة، كما قال النبي ﷺ: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي منها: وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة".

وقوله: {لأبيه} وهو آزر {وقومه} الذين أرسل إليهم.

=

=

وقد ذكر الله محاجة إبراهيم لأبيه في سورة مريم على وجه مبسوط، وفي غيرها على وجه مختصر أحيانا، ومتوسط أحيانا، فجرت محاورة بينه وبين أبيه في سورة مريم فقال ﷻ: {واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا (٤١) إذ قال لأبيه ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا} إن دعوته لم يسمعك، وإن وافقته لم يرك، وإن استعنت به لم ينفعك، ولا يغني عنك شيئا {ياأبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك} [مريم: ٤١- ٤٣].

والخطاب الآن مبني على الترقيق، والتلطيف، والتنزل أمام الأب؛ قال: {ياأبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك} ولم يقل: يا أبتي إنك جاهل وأنا عالم، بل قال: {ياأبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك} وهذا من أدبه عليه السلام، فقد جاءه من العلم الوحي وأبوه ليس كذلك، جاءه من العلم التوحيد وأبوه ليس كذلك.

فقال: {فاتبعني} الولد يقول لأبيه: (اتبعني)، لأن الابن معه حق، والأب ليس كذلك {أهدك صراطا سويا (٤٣) ياأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا} [مريم: ٤٣- ٤٤] {لا تعبد الشيطان} يعني: عبادة الطاعة، وكل من أطاع شيئا فقد عبده على حسب الحال {إن الشيطان كان للرحمن عصيا} أي: عاصيا {ياأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن} [مريم: ٤٥]، أي: يصيبك {فتكون للشيطان وليا} [مريم: ٤٥]، فجعل ولايته للشيطان من العذاب، لأن إعراض الإنسان عن الحق مصيبة ببعض الذنوب، كما قال ﷻ: {فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم} [المائدة: ٤٩].

نحن نظن أن العقوبات هي البلاء ينزل بالإنسان من مرض وفقر، وما أشبه ذلك، وهذا-حقا- عقوبة، ولكن هناك عقوبة أشد وهي الإعراض عن الحق {فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم} هذا أعظم من عقوبة البلاء الحسي الجسدي؛ ولهذا قال: {ياأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن

=

=

فتكون للشيطان وليا} [مريم: ٤٥] كان جواب الأب جوابا قاسيا: {قال أراغب أنت عن آلهتي ياإبراهيم} [مريم: ٤٦]، أنكر عليه الرغبة.

ولهذا قال أهل البلاغة: الذي يلي همزة الاستفهام هو المنكر، يعني: لم يقل: يا إبراهيم أراغب. بل بدأ بالإنكار على الطريقة، قال: {أراغب أنت عن آلهتي ياإبراهيم} وهذا استفهام إنكار وتوبيخ.

ثم قال: {لئن لم تنته} يعني: عن دعوتك إياي عن التوحيد {لئن لم تنته لأرجمنك} وعيد يقوله الأب لابنه، وابنه يترقق له، ويتحنن إليه بقوله: {ياأبت} {ياأبت} {ياأبت} وهذا جواب الأب.

وهذا القول: {لئن لم تنته لأرجمنك} قاله أيضا غيره من المكذبين للرسل؛ فرعون قال لموسى عليه السلام: {لأجعلنك من المسجونين} [الشعراء: ٢٩].

ثم قال: {واهجرني مليا} [مريم: ٤٦]، يعني: اتركني {مليا} أي: زمنا طويلا، يعني: يقول: دعني على ما أنا عليه ولا تكلمني، قال: {قال سلام عليك} [مريم: ٤٧] هذه النهاية من إبراهيم، فما أحلمه عليه الصلاة والسلام! ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: {إن إبراهيم لأواه حليم} [التوبة: ١١٤]، قال: {سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا} [مريم: ٤٧]، فاستغفر له حتى نهاه الله عز وجل.

الشاهد من هذا: أن أبا إبراهيم كان مشركا اسمه آزر، كما قال عز وجل: {وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة} [الأنعام: ٧٤]، العجب أن بعض الناس- نسأل الله العافية- حرف كلام الله سبحانه وتعالى عما أراد الله، بناء على هواه، فقال: أبو إبراهيم ليس مشركا، بل هو على التوحيد، ولا يمكن أن يكون أبو النبي مشركا وآزر هو عمه وليس أباه، فانظر كيف الهوى! ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار، فكيف نقول: ليس أباه، وهو عمه، والله يقول: {وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر} كيف نقول: إنه عمه. وهو يقول: يا أبتي؟ !

=

=

أما يستحي قائل هذا القول! أما يتقي الله سبحانه وتعالى بتحريف الكلم عن مواضعه، بناء على عقيدة فاسدة أن أبا الرسول لا يمكن أن يكون كافرا!

ونقول: سبحان الله! تأملوا كون أبي الرسول كافرا وابنه نبي- أعظم دليل على قدرة الله ﷻ، وأنه يخرج الحي من الميت، وأن النسب لا ينفع أصحابه.

والله لو قلنا هذا لعجوز من عجائز المسلمين: إن آزر عم إبراهيم وليس أباه. لانتقدنا، بل نقول: أبو إبراهيم كافر، وأبو محمد كافر، وماذا يضر النبي ﷺ إذا كان أبوه كافرا؟ لا يضره شيئا، بل هذا أكبر دليل على كمال قدرة الله ﷻ، وأنه يخرج الأنبياء من أصلاب هؤلاء الكفار، لكن-الحمد لله- لم يخرج نبي أبدا من سفاح.

أما مسألة الكفر والإيمان فهذا لا يعد انتهاكا لأعراض الأنبياء.

الشاهد من هذا أن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه صراحة وقال لقومه: {إنني براء مما تعبدون} والجملة هذه مؤكدة كما هو معلوم بـ (إن)، قال المفسر رحمه الله: [{براء} بريء] وهذا نقص من المفسر، لأن (براء) صفة مشبهة، وبريء اسم فاعل، والصفة المشبهة أعظم؛ لأنها تدل على الدوام والثبات والاستمرار، فـ (براء) أعظم من (بريء)، و (براء) يعني: صفة البراءة، الصفة الدائمة الثابتة المستمرة، البراء مما أنتم عليه.

وقوله: {مما تعبدون} أي: من الذي تعبدونه.

وقوله: {إلا الذي فطرني} والمراد بالذي يعبدونه: الأصنام التي ينحتونها هم بأيديهم، ثم يعبدونها؛ ولهذا قال لهم إبراهيم عليه السلام في جملة مناظراته: {قال أتعبدون ما تنحتون (٩٥) والله خلقكم وما تعملون} [الصافات: ٩٥- ٩٦]، فكيف تعبدونها وهي مخلوقة؟ ! كيف تعبدونها وأنتم الذين تنحتونها؟ !

وقوله: {إلا الذي فطرني}: {إلا} أداة استثناء، لكن هل الاستثناء هنا منقطع أو

=

=

هو متصل؟

الجواب: إن كانوا يعبدون الله وغيره فالاستثناء متصل، وإن كانوا لا يعبدون الله فالاستثناء منقطع، والاستثناء المنقطع هو الذي يكون ما بعد (إلا) من غير جنس الذي قبلها، ومثل له النحويون بقولهم: (جاء القوم إلا حمارا). والحمار من غير جنس القوم، فيكون الاستثناء منقطعا، أما إذا قيل: (جاء القوم إلا زيدا). فالاستثناء هنا متصل؛ لأن زيدا من جنس المستثنى منه.

ونطبق ما هنا على القاعدة، فقوله: {إلا الذي فطرني} إن كانوا يعبدون الله وغيره فالاستثناء هنا متصل، وإن كانوا لا يعبدون الله فالاستثناء منقطع.

وقوله: {إلا الذي فطرني} لم يقل: إلا الله. من أجل أن يقيم الدليل على أنه لا يستحق العبادة إلا هو، فالذي فطرك أول مرة وأوجدك من العدم هو الذي يستحق أن يعبد؛ لأنه الذي خلقك، يعني: لو قال قائل: لماذا لم يقل: إلا الله؟

فالجواب: ليقيم الحجة على أنه لا ينبغي أن يعبد إلا الله ﷻ، وهذا كقوله تعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم} [البقرة: ٢١]، ومعلوم أن الرب خالق، لكنه أتى بقوله: {الذي خلقكم} وهو معلوم، ليقيم الحجة على أنه المستحق للعبادة وحده.

قال المفسر رحمه الله: {إلا الذي فطرني} خلقني {فإنه سيهدين} سيرشدني لدينه] والهداية نوعان كما سيأتي إن شاء الله في بيان الفوائد.

قال الله ﷻ: {وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون} [الزخرف: ٢٨].

قال تعالى: {وجعلها} قال المفسر رحمه الله: [أي: كلمة التوحيد المفهومة من قوله: {إني ذاهب إلى ربي سيهدين} [الصافات: ٩٩].

وقوله: {وجعلها} الضمير يعود على الكلمة التي قالها.

قال المفسر رحمه الله: هي قوله: [{وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين}]، وهذا غلط

=

=

من المفسر، فالكلمة التي قالها هي أقرب كلمة وهي: {إنني براء مما تعبدون (٢٦) إلا الذي فطرني} وهي كلمة التوحيد، أما قوله: {إني ذاهب إلى ربي سيهدين} فلا علاقة له في الآية.

إذن: {وجعلها} الضمير عائد على الكلمة التي قالها، {إنني براء مما تعبدون (٢٦) إلا الذي فطرني}.

ومعنى قوله: {وجعلها} أي: صيرها هي الطريقة التي يسير عليها من بعده، {كلمة باقية في عقبه} عقب إبراهيم، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: ذريته، فلا يزال فيهم من يوحد الله] هكذا قال المفسر أن المعنى: أن هذه الكلمة ستبقى في ذريته، ولا يمكن أن تشرك الذرية كلها، بل لا بد أن تبقى، والصواب خلاف هذا.

فالصواب: أن المعنى جعل هذ الكلمة هي الكلمة الوحيد التي يسير عليها من بعده، سواء التزموها أم لم يلتزموها.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لعلهم} أي: أهل مكة] ولو قيل: {لعلهم} أي: عقبه؛ لأن الآيات ليس فيها ذكر أهل مكة، فيها العقب.

ومعلوم أن أهل مكة من عقبه، وأن بني إسرائيل من عقبه، فإذا قلنا: إن الضمير في {لعلهم يرجعون} يعود إلى {عقبه} صار أعم مما قال المفسر؛ لأنه خصها بجزء من العقب، وهذا قصور بلا شك؛ ولهذا اتخذ هذ القاعدة (لا تفسر القرآن بأخص مما يدل عليه)، بمعنى: إذا كان القران يدل على شيء عام فلا تخصصه، إلا إذا كان هناك دليل، وإلا فأبقه على عمومه.

إذن: {وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون} الضمير يعود على العقب من قريش وبني إسرائيل.

لكن ما معنى {وجعلها كلمة باقية}؟

على كلام المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ يعني: أنها ستبقى هذ الكلمة في العقب، فلا يمكن أن

=

=

يفقد منهم التوحيد.

والصواب: أن جعلها جعلا شرعيا، بمعنى أنه عهد إلى عقبه أن يوحدوا الله ﷻ فمنهم من أطاع ومنهم من عصى.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: مزية عظيمة لإبراهيم عليه السلام: وهي إعلانه البراءة مما يعبد قومه {إنني براء مما تعبدون}.

الفائدة الثانية: التوحيد الخالص في إبراهيم؛ لقوله سبحانه وتعالى: {إنني براء مما تعبدون (٢٦) إلا الذي فطرني} وهذا معنى قولي: (لا إله إلا الله). فـ {إنني براء} بإزاء (لا إله)، و {إلا الذي فطرني} بإزاء (إلا الله)، إذن هذ الكلمة {إنني براء مما تعبدون} بمعنى: لا إله إلا الله. تماما.

الفائدة الثالثة: أنه ينبغي للإنسان أن يقرن الحكم بالدليل؛ لأنه أبلغ، ذلك حين قال إبراهيم: {إلا الذي فطرني}.

الفائدة الرابعة: قوة الرجاء-أي: رجاء إبراهيم بالله ﷻ؛ لقوله: {فإنه سيهدين} والسين هذ تدل على التحقيق.

والهداية نوعان:

النوع الأول: هداية الدلالة بمعنى الدلالة على الحق، وهذه تكون من الله، ومن عباد الله.

النوع الثاني: هداية التوفيق للحق، وهذ لا تكون إلا من الله ﷻ لا أحد يملكها، نسأل الله أن يهدينا وإياكم.

ثم الآيات الواردة في هذا: منها ما يتعين حمله على هداية التوفيق، ومنها ما يتعين حمله على هداية الدلالة، ومنها ما يشمل الأمرين، فالآيات الواردة في الهداية، فقول المصلي: {اهدنا الصراط المستقيم} [الفاتحة: ٦] يشمل الأمرين: هداية

=

=

الدلالة وهي العلم، وهداية التوفيق وهي العمل، فهل أنت أيها المصلي تشعر بهذا إذا قلت: {اهدنا الصراط المستقيم} أو تشعر بأنك تتلو القرآن فقط؟

الثاني غالبا، فأكثر الناس يقول: {اهدنا الصراط المستقيم} يقرؤها على أنها آية تقرأ، لا يشعر بأن المعنى اهدني: علمني ووفقني للعمل، لا يشعر بهذا، لكن استشعر هذا الشيء حتى تعرف على أي شيء تؤمن.

مثال هداية الدلالة وحدها: قول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد: {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم} [الشورى: ٥٢] هذه هداية دلالة يعني: تدل الناس إلى الصراط المستقيم.

ومثال هداية التوفيق قول الله سبحانه وتعالى: {إنك لا تهدي من أحببت} [القصص: ٥٦]، يقول للرسول ﷺ يعني: لن توفق أحدا لهداية ولو كنت تحبه؛ ولهذا حاول النبي عليه الصلاة والسلام حين حضر عمه أبا طالب وهو في سياق الموت، حاول أن يوحد الله ولكن عجز، قال في سياق الموت: "يا عم قل: لا إله إلا الله. كلمة أحاج لك بها عند الله" وكان عنده رجلان من قريش جليسا سوء، فقالا لأبي طالب: أترغب عن ملة عبد المطلب.

يعني: جده الذي تفتخر به قريش، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب.

وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

فالهداية التي عجز عنها النبي ﷺ هي هداية التوفيق، أما هداية الدلالة فقد قال: "قل: لا إله إلا الله".

وقول الله ﷻ: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} [فصلت: ١٧] من هداية الدلالة.

وقوله تعالى: {واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم} [الأنعام: ٨٧] يشمل الأمرين جميعا.

=

=

فإن قال قائل: هل للإنسان أن يدعو فيقول: "يا رب اهدني هداية التوفيق". يعين هداية معينة؟

فالجواب: لا، يقول: اللهم اهدني. وينوي الهدايتين، أو يقول: اللهم علمني ووفقني للعمل الصالح.

الفائدة الخامسة: تمام نصح إبراهيم عليه السلام لعقبه؛ حيث جعل كلمة التوحيد باقية فيه، وهذا بمنزلة الوصية للعقب أن يقوموا بهذه الوصية.

الفائدة السادسة: الرجوع إلى ما كان عليه الأسلاف من الحق؛ لقوله عز وجل: {لعلهم يرجعون}.

قال الله عز وجل: {بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين} [الزخرف: ٢٩].

ثم قال سبحانه وتعالى: {بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين} {بل} هذ للإضراب، إضراب انتقال؛ لبيان منة الله عز وجل على قريش.

قال المفسر رحمه الله: [{متعت هؤلاء} المشركين]، أي: أبقيتهم [{وآباءهم} ولم أعاجلهم بالعقوبة] بل أبقاهم بدون عقوبة مع شركهم وكفرهم، واتخاذ أصنام كاللات والعزى وهبل ومناة. {حتى} للغاية يعني: إلى أن {حتى جاءهم الحق ورسول مبين}: {حتى جاءهم الحق} يقول رحمه الله: [القرآن] والصواب ما هو أعم: القرآن، والإسلام، والسنة. فهو أعم مما قاله المفسر.

ونحن نقول بالقاعدة التي أشرنا إليها قبل قليل، وهي إبقاء القرآن على عمومه فلا نخصصه، فنقول: {جاءهم الحق} أي: الذي أتى به رسول الله ﷺ من القرآن والسنة وغير ذلك من الشريعة.

قال رحمه الله: [{ورسول مبين} مظهر علم الأحكام الشرعية، وهو محمد ﷺ].

{ورسول} نكره للعلم به، ونكره للتعظيم، وقوله: {مبين} أي: مظهر للأحكام

=

=

الشرعية والأمر كما قال الله ﷻ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان أن الله بيده كل شيء؛ إن شاء متع الناس وأبقاهم، وإن شاء أهلكهم، لقوله: {بل متعت هؤلاء} فالتمتيع عائد إليه وحده.

وأفعال الله ليس لها حصر، فالذي متعهم الله ﷻ، وكل ما في الكون فهو من فعل الله فلا حصر له.

الفائدة الثانية: أن الله ﷻ له الحكمة في إبقاء الكافر على وجه الأرض، وإلا لأهلكه، لكن له الحكمة، ومن الحكمة أن يأتي حق فيؤمن به، فيسعد في الدنيا والآخرة، ومن الحكمة في بقاء الكفار أن يكون في ذلك امتحان للمؤمنين مع هؤلاء الكفار، بجهاد الكفار، وظهور نعمة الله على المسلمين بالإسلام.

الفائدة الثالثة: أن ما جاء به النبي ﷺ فهو حق، إن كان أخبارا فهي صدق، وإن كانت أحكاما فهي عدل، وليس فيما جاء به النبي ﷺ باطل، كله حق.

الفائدة الرابعة: أن محمدا ﷺ رسول الله حقا.

الفائدة الخامسة: أن النبي ﷺ بين كل ما تحتاجه أمته إليه من خير فتفعله، ومن شر فتتركه، قال أبو ذر رضي الله عنه: لقد توفي رسول الله ﷺ وما من طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما.

وإذا شئت مصداق هذا القول فانظر: الشريعة الإسلامية جاءت بتقرير التوحيد، وهذا أعظم ما يكون، جاءت ببيان الصلاة والزكاة والحج والصيام، جاءت بآداب الأكل والشرب، جاءت بآداب التخلي منهما -من الأكل والشرب- جاءت بآداب اللباس، حتى لبس الثوب جاءت الشريعة به، تدخل الكم الأيمن قبل الأيسر، وتخلع الأيسر قبل الأيمن، جاءت بآداب معاملة الناس بعضهم مع بعض.

=

=

كل شيء دقيق أو جليل فالشريعة جاءت ببيانه-ولله الحمد- لكن يضل من يضل، ويهتدي من يهتدي.

قال الله ﷻ: {ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون} [الزخرف: ٣٠].

نسأل الله العافية {ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر} ويعنون به القرآن؛ لأن القرآن أبين الكلام وأفصح الكلام، وقد قال النبي ﷺ: "إن من البيان لسحرا"؛ ولهذا كانت قريش تأتي خفية في الليل لتستمع قراءة النبي ﷺ، أخذ بألبابها وجرها جرا عنيفا إلى استماعه فقالوا: {هذا سحر} سحرنا محمد، محمد ساحر، كاهن، مجنون {وإنا به كافرون}.

نسأل الله العافية! فأكدوا أنهم كافرون به؛ لأنه-على زعمهم- سحر، وإذا كان القرآن سحرا فالذي جاء به يكون ساحرا، ولهذا لقبوا النبي ﷺ بألقاب السوء؛ حتى ينفر الناس من دعوته، ولكن-والحمد لله- كلما أحدثوا شرا أحدث الله خيرا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: شدة عناد المكذبين للرسول ﷺ؛ حيث زعموا أن ما جاء به سحر مع أنه حق.

الفائدة الثانية: شدة عنادهم؛ حيث أعلنوا إعلانا صريحا أنهم كافرون به {قالوا هذا سحر وإنا به كافرون}.

قال الله ﷻ: {وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} [الزخرف: ٣١].

قالوا أيضا لما جاءهم الحق: {وقالوا لولا} قال المفسر رحمه الله: [هلا] {نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم}: {لولا} بمعنى: هلا، ولها أمثلة: مثل

=

=

قوله: {لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء} [النور: ١٣] أي: هلا جاؤوا عليه بأربعة شهداء.

وقوله: {نزل هذا القرآن على رجل من القريتين} هذه علة أخرى لردهم القرآن، يقولون: لو كان هذا القرآن نزل على رجل عظيم من القريتين، وهما مكة والطائف. يعني: لكنا قبلناه، لكنه لم ينزل على رجل عظيم من القريتين فلا نقبله،-سبحان الله- ما أعظم عنادهم! إن محمدا ﷺ هو أعظم رجل في قريش، إن نظرت إلى سلسلة آبائه وجدت الأمر كذلك، وإذا نظرت إلى خلقه ومعاملته وجدت الأمر كذلك، حتى كانوا يلقبونه بالأمين، ولما جاء الحق صار كذابا، صار ساحرا، صار مجنونا، صار كاهنا.

إذن: تعللوا الآن بعلة ثانية-غير أن القرآن سحر-، وهي أنهم قالوا: لو أن القرآن نزل على رجل عظيم من أهل الطائف، أو أهل مكة لقبلناه، ولكن نزل على محمد، وليس عظيما في قومه، فلا نقبله.

يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{على رجل من القريتين} أي: من أية منهما] إما مكة، وإما الطائف. {عظيم} أي: معظم في قومه، ثم سماهم: [الوليد بن المغيرة بمكة، أو عروة بن مسعود الثقفي بالطائف] وهذا التعيين يحتاج إلى دليل، فإذا صح-من حيث التاريخ- أن أهل مكة يعنون هذين الرجلين فلا غرابة، وإلا فتبقى الآية على إبهامها، وأنهم تعللوا بهذه العلل الباطلة، بأن القران لم ينزل على رجل عظيم من القريتين.

* قال الله ﷻ: {أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون} [الزخرف: ٣٢].

قوله سبحانه وتعالى: {أهم يقسمون رحمت ربك} الاستفهام هنا للإنكار.

=

=

يعني: هل هم الذين يقسمون رحمة الله، فيجعلون لهذا حظا ولهذا حظا، أو يقولون: هذا لا يستحق وهذا يستحق. {أهم يقسمون رحمت ربك} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالنبوة] وهذا أيضا مما يؤخذ على المفسر، لأنه خصه بالنبوة، ونحن نقول: بالنبوة وغيرها.

هم لا يقسمون رحمة الله لا بالنبوة ولا بالقوة، ولا بالأكل ولا بالشرب، ولا غير ذلك.

فإن قال قائل: الآية هذه {رحمت ربك} مذكورة في سياق قوله تعالى: {لولا نزل هذا القرآن على رجل} وهنا خص النبوة بأن تكون بأحد الرجلين؟

فالجواب: نقول: نعم السياق في النبوة، لكن إذا كان عاما دخلت فيه النبوة؛ ولهذا قال الأصوليون: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والسياق لا يكون دليلا؛ لأنه لو قلنا: إنه عام لم يخرج ما دل عليه السياق، أما إذا كان يخرج ما دل عليه السياق فمعلوم أنه لا يصح.

وعلى هذا نقول: المراد برحمة الله ما هو أعم من النبوة. يعني: النبوة، وسعة الرزق، والأمن، وكثرة الأولاد، وما أشبه ذلك، فهم لا يقسمون هذا.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: {نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا} وهذا دليل حسي لا يمكن إنكاره. يعني: إن كانوا صادقين هم الذين يقسمون رحمة الله فلينظروا {نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا} أي: قدرناها هذا غني، وهذا فقير، وهذا متوسط، هذا قادر، وهذا عاجز، وقريش لا تنكر هذا؛ لأنه شيء معلوم ملموس محسوس {نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا} فجعلنا بعضهم غنيا، وبعضهم فقيرا، وهذا مثال، وإلا فنقول: وجعلنا بعضهم ضعيفا وبعضهم قويا، وبعضهم قادرا وبعضهم عاجزا.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فجعلنا بعضهم غنيا، وبعضهم فقيرا {ورفعنا بعضهم}

=

=

بالغنى {فوق بعض درجات}].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالغنى] ولكن هذا أيضا من القصور، والصواب: أنه رفع بعضهم فوق بعض درجات في الغنى، والعلم، والعقل، والخلق، وغير ذلك. رفع الله بعض الناس على بعض درجات. أي: درجات واسعة.

{ليتخذ بعضهم بعضا سخريا} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: {ليتخذ بعضهم} الغني {بعضا} الفقير {سخريا} مسخرا في العمل لهم بالأجرة، والياء للنسب، وقرئ بكسر السين].

رفع الله تعالى بعضهم فوق بعض درجات {ليتخذ بعضهم بعضا سخريا} يقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بعضهم} الأغنياء {بعضا} الفقراء] هذا قاصر؛ لأن المراد {ليتخذ بعضهم بعضا سخريا} حتى في غير الغنى، حتى في الذكاء، حتى في الصناعة، فتجد رجلا مثلا عنده خبرة في الصناعة يأتي بالعمال هو فوقهم، كذلك في الذكاء يجلس مع قوم ويتحدث إليهم بذكائه المفرط، وهم دون ذلك، فيرفعهم الله.

المهم: أنه لا يجوز أن نخصص عموم القرآن إلا بدليل.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [الياء للنسب] أي: لنسب التسخير.

وقوله: [قرئ بكسر السين] المفسر له اصطلاح لا بد أن نفهمه، إذا قال: (وفي قراءة) فهي سبعية، وإذا قال: (قرئ) فهي شاذة؛ هذا اصطلاحه، فهنا يقول: [قرئ بكسر السين]، فتكون القراءة شاذة خارجة عن القراءات السبع، وهذا هو الصواب أنها قراءة شاذة؛ لأن السين بالكسر الاستهزاء، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: {أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار} [ص: ٦٣]، فقال سبحانه وتعالى: {أتخذناهم سخريا} أي: هزءا.

وأما بالضم (سخريا) فهو من التسخير، يعني: التذليل؛ إذن: المناسب هنا الضم؛

=

=

لأنه من التسخير لولا اختلاف الناس هذا الاختلاف لتعطلت المصالح، فلو كانوا كلهم أغنياء فلا أحد يقوم بالعمل؛ لأنه إذا طلب منه أن يعمل قال له: إذا كان عندك ألف ريال أنا عندي ألفان. وكذلك أيضا بقية الأوصاف لولا هذا الاختلاف ما قامت الدنيا أبدا، وهذا من حكمة الله ﷻ.

ثم هناك حكمة أخرى وهي أن يعرف بهذا قدرة الله تبارك وتعالى حيث جعل هذا البشر من جنس واحد وبقوة واحدة، ومع ذلك يتفاضلون تفاضلا كبيرا فيما أعطاهم الله ﷻ من الغنى وغيره.

فإن قال قائل: القاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، الآية: {ليتخذ بعضهم بعضا سخريا} لماذا لا يحتمل المعنيين السخرية، وأيضا التسخير؟

فالجواب: أن هذا لا يستقيم؛ لأن اختلاف الطبقات ليس من أجل أن يستهزئ بعضهم ببعض، لكن من أجل أن يسخر بعضهم بعضا في العمل، ولا يمكن أن الله ﷻ بحكمته يجعل طبقات مختلفة من أجل أن يستهزئ بعضهم ببعض.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ورحمت ربك} أي: الجنة {خير مما يجمعون} في الدنيا].

قوله: [{ورحمت ربك} أي: الجنة] فيه أيضا شيء من القصور، الرحمة تطلق على الجنة بلا شك كما قال الله تعالى لها يخاطبها: "أنت رحمتي أرحم بك من أشاء"، وقال تعالى: {فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (١٠٦) وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون} [آل عمران: ١٠٦ - ١٠٧] يعني: الجنة، لكن ينبغي أن يقال: رحمة الله أعم من هذا، حتى رحمة الله تعالى للعبد بهدايته للإسلام والإيمان خير مما يجمعون، فالأولى التعميم دون التخصيص.

فإن قال قائل: قول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: {ورحمت ربك} أي: أنه الجنة، هل هذا من تأويله؟

=

=

فالجواب: لا، بل من التقصير في التفسير، ليس تأويلا؛ لأن الجنة رحمة، وذكرنا أن الله ﷻ قال للجنة: "أنت رحمتي أرحم بك من أشاء"، لكن كونه قصرها على واحد من الرحمة فهذا قصور.

من فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى: مجادلة المشركين بالباطل؛ لقولهم: {وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} وجه ذلك أن قريشا تعرف أن محمدا ﷺ أحق الناس بالرسالة لو صدقوا بها؛ لأنه من خيرة العرب نسبا، ولأنه الأمين الصادق، وهم يسمونه الأمين من قبل أن يأتي بالرسالة.

الفائدة الثانية: أن القرية تطلق على المدن الكبيرة، بل على أم المدن؛ لقوله: {من القريتين عظيم}؛ ولقوله تعالى في آية أخرى: {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك} [محمد: ١٣]، قريته التي أخرجته هي مكة، في عرفنا الآن تطلق القرية على المدينة الصغيرة، ولو أنك قلت لأهل المدينة الكبيرة: أنتم أهل القرية. لاشتاطوا غضبا، ولكن يقال: القرآن بيننا، القرية تطلق حتى على المدينة الكبيرة؛ لأنها مأخوذة من القري، وهو الاجتماع.

الفائدة الثالثة: إنكار الله عليهم، وبيان أنهم ليسوا الذين يقسمون رحمة الله؛ لقوله: {أهم يقسمون رحمت ربك}.

الفائدة الرابعة: إقامة الدليل الذي لا انفكاك عنه بأنهم لا يستطيعون قسم رحمة الله، يؤخذ من قوله: {نحن قسمنا بينهم معيشتهم} فهذا لا يمكنهم إنكاره، هم يعرفون أن فيهم الغني والفقير، والقوي والضعيف، والذكي والبليد، والعاقل والسفيه، هم يعرفون هذا.

الفائدة الخامسة: الحكمة في أن الله ﷻ جعل الناس على درجات؛ لقوله: {ليتخذ بعضهم بعضا سخريا}.

=

=

الفائدة السادسة: إثبات التعليل والحكمة لأفعال الله سبحانه وتعالى أي: أنه ﷻ يفعل لحكمة- لا بد أن يكون لحكمة- لقوله: {ليتخذ بعضهم بعضا سخريا} لأن اللام هنا للتعليل.

وتعليل أحكام الله الكونية موجود بكثرة في القرآن، والأحكام الشرعية كالإيجاب والتحريم والإباحة معللة، فكل حكم من أحكام الله الكونية أو الشرعية لا بد له من حكمة.

ولكن هنا سؤال: هل هذه الحكم معلومة للخلق أو ليست معلومة؟

فالجواب: منها ما هو معلوم، ومنها ما ليس بمعلوم؛ لأن عقولنا قاصرة مهما بلغنا من العقل فهو قاصر، إذن خذ هذ الفائدة: جميع أحكام الله الكونية والشرعية معللة بحكمة، لكن من الحكم ما نعلمه ومنها ما لا نعلمه، هكذا يجب.

فإن قال قائل: أيهما أبلغ في التعبد أن يعبد الله وهو لا يعرف الحكمة، أو أن يعبد الله وهو يعرف الحكمة؟

فالجواب: أما من جهة التذلل المطلق فتعبد الإنسان بشيء لا يعرف حكمته أبلغ من تعبده بشيء يعرف حكمته؛ لأنه إذا تعبد بشيء يعرف حكمته فإنه قد يتعبد لله من أجل هذه الحكمة، لكن إذا لم يعرف الحكمة صار أبلغ للتذلل، كأنه يقول: سأعبد الله سواء عرفت الحكمة من هذا أو لا.

مثال ذالك: رمي الجمرات في الحج، يأتي الإنسان بحصى معينة، ويرميها في مكان معين، بينما لو أتى بأضعاف تلك الحصى بعد عشرة أيام ورمى في هذا المكان؛ لعد هذا عبثا، فما الحكمة؟

الجواب:

أولا: الحكمة أن ذلك لإقامة ذكر الله؛ ولهذا كلما رمى الإنسان قال: الله أكبر.

=

=

ثانيا: أن يظهر بذلك أثر التعبد المطلق، حيث يفعل الإنسان هذا الفعل دون أن يعرف الغاية منه على وجه التحديد، وأمثال هذا كثير، ولهذا أطلق الفقهاء رحمهم الله على الأحكام التي لا تعلم حكمتها اسم تعبدية، أو هذا تعبد، أو ما أشبه ذلك؛ لأنه ليس الغرض منه إلا إقامة العبادة لله ﷻ.

الفائدة السابعة: جواز استخدام العمال، تؤخذ من قوله تعالى: {ليتخذ بعضهم بعضا سخريا}.

الفائدة الثامنة: الحكمة العظيمة في هذا-أي: في التفاوت- لأنه لولا هذا التفاوت ما عرف قدر نعمة الله على الغني بالغنى، وعلى العاقل بالعقل، وعلى القوي بالقوة، وهكذا، لولا الجنون ما عرف قدر قيمة العقل، ولولا المرض ما عرف قدر قيمة الصحة، إذن هذا من الحكمة.

الفائدة التاسعة: أن رحمة الله سبحانه وتعالى ومنها الجنة {خير مما يجمعون} أي: من كل ما يجمعون؛ لأنه الغاية التي يسعى إليها كل مؤمن، بل يجب أن يسعى إليها كل عاقل.

الفائدة العاشرة: الإشارة إلى خطورة الجمع-أي: جمع الأموال- وأن ذلك قد ينسي الآخرة، وهو كذلك، فجمع الأموال ينسي الآخرة إلا من رحم ربي؛ ولهذا قال النبي ﷺ: "والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم، فتهلككم كما أهلكتهم".

وهذا هو الواقع، فالدنيا والدين في الغالب لا يجتمعان، إلا من رحم الله، وكم من إنسان كان فقيرا مستقيما على دين الله فأغناه الله فصار غناه سببا لطغيانه واستغنائه عن ربه، قال الله سبحانه وتعالى: {كلا إن الإنسان ليطغى (٦) أن رآه استغنى} [العلق: ٦ - ٧].

قال الله ﷻ: {ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن

=

=

لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون} [الزخرف: ٣٣].

{ولولا} هذ حرف فيها شرط: (لولا كذا لكان كذا)، فهي حرف امتناع لوجود {ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا} لكن امتنع الجعل لئلا يكون الناس أمة واحدة.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا} على الكفر] بدليل قوله: {لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة}.

{لجعلنا} أي: صيرنا {لمن يكفر بالرحمن} وهو الله عَزَّ وَجَلَّ {لبيوتهم} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بدل من {لمن}] بدل اشتمال {لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم}، والبدل هو المقصود بالحكم، فيكون المعنى: لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن.

وقوله تعالى: {سقفا} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بفتح السين وسكون القاف، وبضمهما جمعا] بفتح السين وسكون القاف. أي: سقفا، مفرد، وبضمها جمعا {سقفا}، المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ قال بهذا وهذا، فهل يعني: ذلك أنهم قراءتان؟

فالجواب: نعم هما قراءتان سبعيتان؛ لأنه لم يفضل أحدهما على الآخر فهما صحيحان، وهذا أيضا من أسلوبه رَحِمَهُ اللَّهُ، أنه إذا قال بكذا وكذا فهما قراءتان سبعيتان.

إذن: يجوز أن تقرأ: "لبيوتهم سقفا من فضة" أو {لبيوتهم سقفا من فضة}.

وقوله تعالى: {من فضة} وهي معروفة.

وقوله تعالى: {ومعارج} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كالدرج من فضة] أيضا {عليها يظهرون} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يعلون إلى السطح].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون} [الزخرف: ٣٤].

وقوله تعالى: {ولبيوتهم} أي: وجعلنا لبيوتهم أيضا {أبوابا} يعني: من فضة، {و} جعلنا لهم (سررا) يعني: من فضة جمع سرير {عليها يتكئون} أي:

=

=

يعتمدون {وزخرفا} ذهبا.

استمع لهذا التصوير يعني: لولا أن يكفر الناس جميعا لجعلنا للكافر هذه البيوت، {سقفا من فضة}، سقفا من فضة يعني: بدل ما يكون السقف من خشب أو من صبات أسمنت يكون من فضة، والمراد فضة لامعة تجذب النظر، وتسر العين {ومعارج عليها يظهرون} قيل: إنها الدرج؟

وقال بعض المتأخرين: إنها المصاعد الكهربائية التي تسمى (أسانسير، ولفت، ومصعد)، وما أشبه ذلك؛ لأن الدرج العادية لا تلفت النظر كثيرا؛ ولهذا قال: {عليها يظهرون} أي: يعلون حتى يصلوا إلى السقف، وأيا كان هذا أو هذا، فإنها درج غريبة ليست كالدرج المعتاد.

والثالث {أبوابا} المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: [من فضة] بناء على ما ذكر في أول الآية {سقفا من فضة} ولكن هذا ليس بمتعين، بل نقول: أبوابا فخمة ليست كالمعتاد، سواء من فضة، أو من حديد، أو من خشب، المهم أنها أبواب غير معتادة.

{وسررا} جمع سرير، وهو ما يجلس عليه.

{عليها يتكئون} أيضا مع السرر متكأ يتكأ عليه. أي: يعتمد، سواء من خلف الظهر، أو من اليمين، أو من الشمال، وهو كناية عن كثرة الإرفاه.

قال الله ﷻ: {وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين} [الزخرف: ٣٥].

قال تعالى: {وزخرفا} هذا الذهب، فهي {سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون} أبواب فخمة {وسررا} مريحة {وزخرفا} يعني: ذهبا، خمسة أشياء.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [المعنى: لولا خوف الكفر على المؤمن من إعطاء الكافر ما ذكر لأعطيناه ذلك؛ لقلة خطر الدنيا عندنا، وعدم حظه في الآخرة في النعيم].

=

=

ووجه ذلك أن النفوس ميالة إلى اللهو واللعب والترف، فإذا رأى الإنسان هذا الترف للكافر؛ فإن ذلك يغريه ويضره، كما يفعل الآن -بالنسبة للمنصرين ضلال النصارى-، يمشون إلى الأقاليم الفقير ويزينون لهم الدنيا، وهؤلاء الفقراء يتبعونهم؛ لأن النفوس مجبولة على محبة المال، والفخر والخيلاء.

قال الله ﷻ: {وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا}.

يقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [(إن) مخففة من الثقيلة] الثقيلة: المشددة، والمخففة: ما حذف تشديدها. [{وإن كل ذلك لما} فـ (ما) زائدة، والتشديد بمعنى (إلا)]، أي: فيهما قراءتان: لما ولما، [فـ (إن) نافية] خلط المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ، الآن (إن) إعرابها على أنها مخففة من الثقيلة، فهي مؤكدة، ثم قال في الأخير: فـ (إن) نافية. وفرق بين الإثبات والنفي، لكن هذا ينبني على (لما) إن قرئت بالتخفيف فـ (إن) مخففة من الثقيلة، وإن قرئت بالتشديد فـ (إن) نافية؛ فصار اختلاف الإعراب في (إن) مبنيا على اختلاف القراءة في (لما) فعلى قراءة التشديد تكون (إن) نافية، و (لما) بمعنى (إلا).

وشاهد هذا قوله تعالى: {إن كل نفس لما عليها حافظ} [الطارق: ٤] أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ، وأما إذا قرئت (لما) بالتخفيف فـ (إن) مخففة من الثقيلة، وتكون (ما) زائدة، ويكون التقدير: وإن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا. لأن (ما) زائدة.

إذن {لما} فيها قراءتان الأولى التشديد، وبناء على هذ القراءة تكون (إن) نافية و {لما} بمعنى (إلا)، والشاهد لهذا قوله تعالى: {إن كل نفس لما عليها حافظ} [الطارق: ٤]، أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ.

القراءة الثانية "لما" بالتخفيف، وعلى هذه القراءة تكون (إن) مخففة من الثقيلة بمعنى (إن) وتكون (لما) زائدة ويكون تقدير الكلام: إن كل ذلك لمتاع الحياة

=

=

الدنيا. المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ دمج القراءتين، ولكن هذا هو التفصيل.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{متاع الحياة الدنيا} يتمتع به فيها-الدنيا- ثم يزول {والآخرة} الجنة {عند ربك للمتقين}].

{والآخرة} لو قيل: كل الآخرة الجنة وعرصات القيامة وسلامتهم من شدة هول القيامة، لو قيل ذلك لكان أعم، فصارت الدنيا للكفار مهما أعطوا فإنه نعيمهم، الآخرة للمتقين، جعلني الله وإياكم منهم.

واعلم أن هذه الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، مهما بلغت من النعيم فإنها سجن المؤمن، ومهما بلغت من الجحيم فإنها جنة الكافر.

هذه القصة ذكرها العلماء في ترجمة ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان ابن حجر قاضي القضاة في مصر، فمر ذات يوم من بيته إلى مقر عمله على العربة، تجرها الخيول، أو البغال في مركب، مر ذات يوم برجل يهودي زيات-يعني: يبيع الزيت- فاستوقف اليهودي قاضي القضاة، وقال له: إن نبيكم يقول: "الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر" كيف يتفق هذا مع حالي وحالك، أنت الآن في نعيم تجرك الخيول، ولك جاه وشرف ومنزلة، وهو اليهودي بهذا الذل، ثياب وسخة وتعب، فكيف هذا؟ !

قال: نعم، ما أنا فيه الآن بالنسبة لنعيم الجنة سجن، لأن نعيم الجنة أعلى وأعظم من هذا، أما بالنسبة لك فأنت في جنة بالنسبة لعذاب النار، لأنك إن مت على اليهودية فأنت في النار، ويعتبر ما فيه اليهودي الآن: جنة، لأن هذا اليهودي فيما يبدو لي-والله أعلم- أنه ينشد الحقيقة، يريد الحقيقة، فلما بين له ابن حجر هذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

سبحان الله! فالإنسان العاقل الذي يريد الحقيقة لا بد أن يهتدي.

المهم: يقول الله عَزَّ وَجَلَّ لما ذكر هذه الأشياء: {لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها

=

=

يظهرون} قال: ما هذا إلا متاع الحياة الدنيا.

انظر: متاع كالمتاع يحمله المسافر {والآخرة عند ربك للمتقين} لأن الدنيا مهما طالت بالإنسان، فلا بد من الزوال، إما أن تزول الدنيا عنه، وإما أن يزول هو عن الدنيا، ولهذا قال الشاعر: لا طيب للعيش ما دامت منغصة ... لذاته بادكار الموت والهرم

صحيح أن الإنسان إذا تذكر أين مآله، إما موت مبكر، وإما هرم مخرف، الآن يوجد الذين بلغوا عمرا طويلا، ووصلوا إلى حد الهرمة، هم بأنفسهم متضايقون وأهلوهم متضايقون، تجد الإنسان يتضايق من أبيه وأمه، وإن كان المؤمن يصبر لكن لا بد أن يتضايق، أو موت عاجل وينتهي الموضوع.

هذا حال الدنيا في الواقع، ولذلك الغنيمة الغنيمة، بادر العمر قبل فواته، اعمل صالحا، وطلب العلم من أفضل الأعمال، لكن بشرط أن يكون العالم عاملا، أما علم بلا عمل فالجهل -والله- خير منه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن هذ المتعة الدنيوية ما هي إلا متاع الحياة الدنيا فهي زائلة.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن لا يتعلق الإنسان بها، وأن لا يهتم بها، وأن يعلم أنه عائش بدونها وليس لك من الدنيا إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت.

الفائدة الثانية: التزهيد في هذ الأمور، وأن لا تهتم بها، لا تعلق قلبك بمظاهر الدنيا، فإنك إن فعلت هلكت؛ ولهذا كان النبي ﷺ إذا رأى من الدنيا ما يعجبه قال: "لبيك إن العيش عيش الآخرة"، لبيك يعني: إجابة لك، ليصرف قلبه عما يعجبه مما رآه في الدنيا، ثم وطن النفس وقال: "إن العيش عيش الآخرة" والله هذا هو الحق.

=

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦).

{وَمَنْ يَعْشُ} يَعْرِض {عَنْ ذِكْر الرَّحْمَن} أَيْ الْقُرْآن {نُقَيِّض} نُسَبِّب {لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِين} لَا يُفَارِقهُ.

وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧).

{وَإِنَّهُمْ} أَيْ الشَّيَاطِين {لَيَصُدُّونَهُمْ} أَيْ الْعَاشِينَ {عَنِ السَّبِيل} أَيْ طَرِيق الْهُدَى {وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} فِي الْجَمْع رِعَايَة مَعْنَى مَنْ.

حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨).

{حَتَّى إِذَا جَاءَنَا} الْعَاشِي بِقَرِينِهِ يَوْم الْقِيَامَة {قال} له {يا} للتنبيه {ليت بَيْنِي وَبَيْنك بُعْد الْمَشْرِقَيْنِ} أَيْ مِثْل بُعْد مَا بَيْن الْمَشْرِق وَالْمَغْرِب {فَبِئْسَ الْقَرِين} أَنْتَ لي قال تعالى.

وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩).

{وَلَنْ يَنْفَعكُمْ} أَيْ الْعَاشِينَ تَمَنِّيكُمْ وَنَدَمكُمْ {الْيَوْم إِذْ ظَلَمْتُمْ} أَيْ تَبَيَّنَ لَكُمْ

=

أما عيش الدنيا فإنه مهما طاب لك محفوف بنكد قبله ونكد بعده؛ لأنك لن تحصله غالبا إلا بتعب، ثم إذا حصلته هل سيبقى لك هذا أو لا يبقى؟ هل ستبقى له أو لا تبقى؟ ولا بد من أحد الأمرين: إما تموت وتتركه، وإما أن يهلك وأنت حي.

الفائدة الثالثة: البشرى للمتقين، وأن لهم الآخرة، فالآخرة خير للمتقين، ففيه البشارة وأن الإنسان المتقي إذا انتقل من الدنيا فلا يندم؛ لأنه انتقل إلى دار أحسن وأفضل مما فارقهم.

الفائدة الرابعة: الحث على التقوى، وذلك لأن ذكر الجزاء والثواب يستثير النفس حتى يصل الإنسان إلى الوصف الذي يحصل به على الثواب.

ظُلْمكُمْ بِالْإِشْرَاكِ فِي الدُّنْيَا {أَنَّكُمْ} مَعَ قُرَنَائِكُمْ {فِي الْعَذَاب مُشْتَرِكُونَ} عِلَّة بِتَقْدِيرِ اللَّام لِعَدَمِ النَّفْع وَإِذْ بَدَل مِنْ الْيَوْم.

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٠).

{أَفَأَنْتَ تُسْمِع الصُّمّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَال مُبِين} بَيِّن أَيْ فَهُمْ لا يؤمنون.

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١).

{فَإِمَّا} فِيهِ إدْغَام نُون إنْ الشَّرْطِيَّة فِي مَا الزَّائِدَة {نَذْهَبَنَّ بِك} بِأَنْ نُمِيتك قَبْل تَعْذِيبهمْ {فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ} فِي الْآخِرَة.

أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢).

{أَوْ نُرِيَنك} فِي حَيَاتك {الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ} بِهِ مِنْ الْعَذَاب {فَإِنَّا عَلَيْهِمْ} عَلَى عَذَابهمْ {مُقْتَدِرُونَ} قادرون.

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣).

{فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إلَيْك} أَيْ الْقُرْآن {إنَّك على صراط} طريق {مستقيم}.

وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤).

{وَإِنَّهُ لَذِكْر} لَشَرَف {لَك وَلِقَوْمِك} لِنُزُولِهِ بِلُغَتِهِمْ {وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} عَنْ الْقِيَام بِحَقِّهِ.

وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥).

{وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلك مِنْ رُسُلنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُون الرَّحْمَن} أَيْ غَيْره {آلِهَة يعبدون} قيل هُوَ عَلَى ظَاهِره بِأَنْ جَمَعَ لَهُ الرُّسُل لَيْلَة الْإِسْرَاء وَقِيلَ الْمُرَاد

أُمَم مِنْ أَيّ أَهْل الْكِتَابَيْنِ وَلَمْ يَسْأَل عَلَى وَاحِد مِنْ الْقَوْلَيْنِ لِأَنَّ الْمُرَاد مِنْ الْأَمْر بِالسُّؤَالِ التَّقْرِير لِمُشْرِكِي قُرَيْش أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ رَسُول مِنْ الله وَلَا كِتَاب بِعِبَادَةِ غَيْر الله(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

وعن محمد بن عثمان المخزومي: أن قريشاً قالت: قيضوا لكل رجل رجلاً من أصحاب محمد يأخذه؛ فقيضوا لأبي بكر رضي الله عنه طلحة بن عبيد الله، فأتاه وهو في القوم، فقال أبو بكر رضي الله عنه: إلامَ تدعوني؟ قال: أدعوك إلى عبادة اللات والعزى! قال أبو بكر رضي الله عنه: وما اللات؟ قال: ربنا، قال: وما العزى؟ قال: بنات الله، قال أبو بكر: فمن أمهم؟ فسكت طلحة، فلم يجبه، فقال طلحة لأصحابه: أجيبوا الرجل، فسكت القوم، فقال طلحة: قم يا أبا بكر، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ فأنزل الله-تعالى-: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٧٧)، و"لباب النقول" (ص ١٨٨، ١٨٩) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

وعن جابر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ في قوله: {فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١)}: نزلت في علي بن أبي طالب، أنه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٨٠)، وقال: وأخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن جابر به. ومن دون جابر متهمون بالكذب.

* قوله- سبحانه-: يَعْشُ أى: يعرض. يقال عشا فلان يعشو، كدعا يدعو، وعشي يعشى، كرضي يرضى، إذا ضعف بصره، ومنه قولهم: ناقة عشواء، إذا كانت لا تبصر إلا شيئا قليلا، والمراد هنا: عمى البصيرة وضعف إدراكها للخير.
=

=

ومنه قولهم: ركب فلان العشواء، إذا خبط أمره على غير هدى أو بصيرة.
والمعنى: ومن يتعام عن ذكر الرحمن، ويعرض عن قرآنه، ويتجاهل هدى الرسول ﷺ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً أى، نهيئ ونسبب له شيطانا رجيما يستولى عليه، ويستحوذ على قلبه وعقله.
فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ أى: فذلك الشيطان يكون ملازما ومصاحبا لهذا الإنسان الذي أعرض عن القرآن، ملازمة القرين لقرينه، والشيء لظله.
ومن الآيات التي تشبه هذه الآية قوله- تعالى-: وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ .
ثم بين- سبحانه- الآثار التي تترتب على مقارنة الشيطان للإنسان فقال: وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ.
والضمير في وَإِنَّهُمْ يعود إلى الشيطان باعتبار جنسه، وفي قوله- تعالى- لَيَصُدُّونَهُمْ يعود إلى وَمَنْ في قوله وَمَنْ يَعْشُ ... باعتبار معناها.
أى: ومن يعرض عن طاعة الله، نهيئ له شيطانا، فيكون ملازما له ملازمة تامة، وإن هؤلاء الشياطين وظيفتهم أنهم يصدون هؤلاء الفاسقين عن ذكر الله- تعالى-، وعن سبيله الحق وصراطه المستقيم.
وَيَحْسَبُونَ أى: هؤلاء الكافرون أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ إلى السبيل الحق. فالضمائر في قوله وَيَحْسَبُونَ وما بعده يعود إلى الكافرين.
ويصح أن يكون الضمير في قوله وَيَحْسَبُونَ يعود إلى الكفار، وفي قوله أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ يعود إلى الشيطان، فيكون المعنى:
ويظن هؤلاء الكافرون أن الشياطين مهتدون إلى الحق، ولذلك اتبعوهم وأطاعوهم.

=

=

ثم بين- سبحانه- ما يكون بين هذا الإنسان الكافر وبين قرينه من الشياطين يوم القيامة، فقال- تعالى-: حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ.

أى: لقد استمر هذا المعرض عن ذكر الله في غيه. ومات على ذلك حتى إذا جاءنا يوم القيامة للحساب والجزاء، قالَ لقرينه الذي صده عن طريق الحق..

يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ أى: أتمنى أن تكون المسافة التي بيني وبينك من البعد والمفارقة، كالمسافة التي بين المشرق والمغرب.

فالمراد بالمشرقين المشرق والمغرب فعبر- سبحانه- بالمشرقين على سبيل التغليب لأحدهما على الآخر.

فَبِئْسَ الْقَرِينُ أى: فبئس القرين أنت- أيها الشيطان- فالمخصوص بالذم محذوف.

ثم بين- سبحانه- بعد ذلك ما سيقال لهذا العاشى عن ذكر الله ولقرينه على سبيل التأنيب والتوبيخ فقال: وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ....

والضمير في قوله: يَنْفَعَكُمُ يعود إلى التمني المذكور في قوله: يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ... وإِذْ ظرف لما مضى من الزمان، بدل من الْيَوْمَ.

أى: ولن ينفعكم ندمكم وتمنيكم اليوم شيئا، بعد أن تبين لكم أنكم كنتم ظالمين في الدنيا، ومصرين على الكفر والضلال.

وقوله: أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ تعليل لما قبله. أى: ولن ينفعكم اليوم تمنيكم وندمكم لأنكم في هذا اليوم أنتم وقرناءكم مشتركون في العذاب، كما كنتم في الدنيا مشتركين في سببه، وهو الكفر والضلال.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه: قوله: أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ في محل الرفع على الفاعليه. يعنى: ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع

=

=

الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه لتعاونهم في تحمل أعبائه. لأن كل واحد منكم، به من العذاب ما هو فوق طاقته..

ولك أن تجعل الفاعل التمني في قوله: يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ... على معنى: ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمنى مباعدة القرين، وقوله: أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ تعليل، أى: ولن ينفعكم تمنيكم، لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب ... وتقويه قراءة من قرأ أَنَّكُمْ بالكسر ا.هـ.

وبعد هذا التوبيخ الشديد للمعرض عن ذكر الله ولشيطانه، يوجه الله- تعالى- خطابه لنبيه ﷺ ليزيده تسلية وتثبيتا فيقول: أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ.

والاستفهام للنفي أى: أفأنت- أيها الرسول الكريم- تستطيع أن تسمع الصم صوتك، أو أن تهدى الذين انطمست بصائرهم إلى الطريق الحق. أو أن تخرج من كان في الضلال الواضح إلى الهدى والرشاد؟

كلا إنك لن تستطيع ذلك، لأن الهداية والإضلال، من الله- تعالى- وحده. وأنت- أيها الرسول الكريم- عليك البلاغ ونحن علينا الحساب.

فالمقصود من الآية الكريمة تسلية الرسول ﷺ ونهيه من أن يضيق صدره بسبب إعراضهم المستمر عن دعوة الحق، وبيان أن الهداية والإضلال بيد الله- تعالى- وحده.

وسماهم- سبحانه- صما وعميا، مع أنهم يسمعون ويبصرون، لأنهم بمنزلة الصم والعمى في عدم انتفاعهم بالهدى والرشاد الذي جاءهم به ﷺ.

وقوله- تعالى-: وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ معطوف على العمى والصم باعتبار تغاير الصفات.

أى: أنت- أيها الرسول الكريم- لن تستطيع هداية من كان أصم وأعمى، ومن

=

=

كان مصرا على الضلال المبين وما دام الأمر كذلك فسر في طريقك، دون أن تذهب نفسك عليهم حسرات..

وقوله- سبحانه-: فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ زيادة في تسليته وتثبيته ﷺ.

أى: أن أمرك- أيها الرسول الكريم- مع هؤلاء الظالمين لا يخلو عن حالين: إما أن نتوفينك قبل أن ترى نقمتنا منهم.. وفي هذه الحالة فسنتولى نحن عذابهم والانتقام منهم، حسب إرادتنا ومشيئتنا، وإما أن نبقى حياتك حتى ترى بعينيك العذاب الذي توعدناهم به، فإنا عليهم وعلى غيرهم مقتدرون على تنفيذ ما نتوعد به من دون أن يستطيع أحد الإفلات من قبضتنا وقدرتنا.

قال ابن كثير: أى: نحن قادرون على هذا وعلى هذا. ولم يقبض الله- تعالى- رسوله، حتى أقر عينه من أعدائه، وحكمه في نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيهم .

وشبيه بهذه الآية قوله- تعالى-: وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ ا.هـ.

والفاء في قوله- تعالى-: فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ... واقعة جوابا لشرط مقدر.

أى: إذا كان الأمر كما ذكرنا لك من أن أمرك مع هؤلاء المشركين لا يخلو عن حالين:

فاستمسك- أيها الرسول الكريم- بما أوحينا إليك من هدايات وإرشادات إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ وطريق قويم لا عوج فيه ولا اضطراب.

وَإِنَّهُ أى: هذا القرآن لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ أى: لشرف عظيم لك ولشرف عظيم لأهل مكة الذين بعثت فيهم بصفة خاصة، ولغيرهم ممن آمن بك بصفة عامة

=

=

كما قال- تعالى-: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ... أي: عزكم وشرفكم.

وقوله: وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ تحذير من مخالفة ما اشتمل عليه هذا القرآن من أحكام وآداب وتشريعات.

أي: وسوف تسألون يوم القيامة عنه، وعن القيام بحقه، وعن مقدار تمسككم بأوامره ونواهيه وعن شكركم لله- تعالى- على منحكم لهذه النعمة.

ثم أضاف- سبحانه- إلى هذا التثبيت لنبيه ﷺ تثبيتا آخر فقال: وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ.

والمقصود من الآية الكريمة بيان أن الرسل جميعا، قد دعوا أقوامهم إلى عبادة الله- تعالى- وحده، كما قال- سبحانه-: وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ .

وكما قال- تعالى-: وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه: ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لاستحالته، ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم، وأنهم ما جاءوا قط بعبادة الأوثان، وإنما جاءوا بالأمر بعبادة الله- تعالى- وحده..

وقيل: إن النبي ﷺ جمع الله له الأنبياء، في ليلة الإسراء في بيت المقدس، فصلى بهم إماما، وقيل له سلهم: فلم يتشكك ولم يسأل.

وقيل معناه، سل أمم من أرسلنا من قبلك، وهم أهل الكتابين: التوراة والإنجيل فإذا سألهم فكأنما سأل- رسلهم- فالكلام على حذف مضاف ا.هـ.

فالآية الكريمة تقرر على كل الوجوه بأبلغ أسلوب، أن جميع الرسل قد جاءوا بعقيدة واحدة، وبدين واحد، هو عبادة الله- تعالى- ونبذ كل معبود سواه.

وقال العلامة العثيمين في تفسيره: قال الله ﷻ: {ومن يعش عن ذكر الرحمن

=

=

نقيض له شيطانا فهو له قرين (٣٦) وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون (٣٧) حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين} [الزخرف: ٣٦- ٣٨].

قال الله تبارك وتعالى: {ومن يعش عن ذكر الرحمن} لما ذكر أحوال الدنيا، وأنه لولا أن يكون الناس أمة واحدة على الكفر لمتع الكفار بما سمعتم، وهذه الدنيا لا بد أن تحمل الإنسان على الإعراض عن ذكر الله ﷻ؛ قال: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا}.

قوله: {ومن يعش} فسرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ بـ[يعرض]، ولكن التفسير المطابق أن معنى: {يعش} أي: يتعامى حتى يرى رؤية الأعشى الذي يبصر في النهار ولا يبصر في الليل، فمعنى: {يعش} أي: يتعامى كما فسرها بذلك ابن كثير وغيره من المفسرين، ولكن المفسر فسرها بـ[يعرض]؛ لأنه من لازم التعامي الإعراض.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ومن يعش عن ذكر الرحمن} أي: القرآن] فجعل المفسر ذكر الرحمن يعني: القرآن، وأضافه إلى الرحمن؛ لأن إنزاله رحمة للخلق، هكذا مشى المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والصواب: خلاف ذلك، والمراد بـ {ذكر الرحمن} تذكر الرحمن، يعني: من تعامى عن ذكر الرحمن في قلبه واستحضاره لعظمة ربه وجلاله، فإنه يقيض له الشيطان، فيكون هذا جزاء على إعراضه وتعاميه عن ذكر ربه، وهذا كقوله تعالى: {ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا} [الجن: ١٧].

فالصواب أن المراد بذكر الرحمن ليس القرآن، بل المراد بذكر الرحمن ذكر الله نفسه. يعني: يغفل قلبه عن ذكر الله، ولا يذكر الله بقلبه، فهذا هو الذي يقيض له الشيطان فيتبع هواه، كما قال ﷻ: {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا}.

=

=

فإن قال قائل: قوله: {ومن يعش} هل هذا يكون بالتقصير في أمور الطاعات أو انتهاك المحرمات؟

فالجواب: لا، الآية تدل على مسألة قلبية {ومن يعش} يتعامى. فإذا صلح القلب صلحت الجوارح.

وقوله: {نقيض له شيطانا} قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [نسبب له] وهذا قريب من المعنى المطابق، وإلا فإن معنى {نقيض} أي: نهيئ له شيطانا يحل محل ذكر الله سبحانه وتعالى فيستولي الشيطان على قلبه، والشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، كما قال سبحانه وتعالى: {الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم} [البقرة: ٢٦٨].

{نقيض له شيطانا}: {فهو} أي: الشيطان {له} أي: للعاشي عن ذكر الله {قرين} قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [لا يفارقه]، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ووجه ذلك: أن الإنسان فعال مريد متحرك قلبا وقالبا، فلا بد من أن يشتغل بشيء، فإما أن يكون بذكر الله، وإما أن يكون بوساوس الشيطان، ولا بد، لا تجد أحدا قلبه ساكن لا يتحرك ولا يريد، هذا مستحيل.

ولهذا جاء في الحديث في الأسماء: "أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام" همام الإرادة القلبية، والحارث العمل، كل إنسان هكذا لا بد. فيهيئ الله له هذا الشيطان الذي يقارنه ولا يفارقه.

فإن قال قائل: بالنسبة لقرناء السوء، إذا كان هناك إنسان منحرف يظن الإنسان أنه إذا كان معه ربما يدعوه، هل يصاحبه أو يصادقه؟

فالجواب: ليس هذا صحيحا، بل يجلس معه للدعوة للحق ويفارقه؛ لأنه لا بد إذا لازمه أن يتأثر، ولا ندري هل يؤثر المستقيم على المنحرف، أو المنحرف على المستقيم.

=

=

والمشاهد الآن في الغالب أن المنحرف هو الذي يؤثر على المستقيم، هذا لا نعلمه، فأنت لا تقارنه، تأتي تزوره أو تدعوه إلى بيتك فقط. أما أن تلازمه وتجعله صاحبا لك فأنت على خطر عظيم، والإنسان تسول نفسه أنه إذا صاحبه كان سببا في إقامته، ويكون الأمر بالعكس مثل المرأة يخطبها إنسان منحرف، وترغب أن تتزوجه، وتقول في نفسها، أو يقول وليها: يهديه الله. لعل الله يهديه إذا تزوج، ويكون الأمر بالعكس، هذ المرأة المستقيمة تكون منحرفة بواسطة هذا الزوج.

والواجب على الإنسان إذا كان له أخ مستقيم ثم انحرف -من ناحية نصحه أو تركه بالكلية- لأن الانحراف ينصب على المعاصي وعلى الدنيا؛ الواجب أن يدعوه، فالنبي ﷺ ألم يدع عشيرته الأقربين، فلماذا لا يدعوه؟ !

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وإنهم} أي: الشياطين {ليصدونهم} أي: العاشين {عن السبيل} أي: طريق الهدى {ويحسبون أنهم مهتدون}].

{ويحسبون} أي: العاشون الذين صدتهم الشياطين {أنهم مهتدون} قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [في الجمع رعاية معنى (من)].

الشيطان -نعوذ بالله منه- إذا استولى على قلب الإنسان زين له سوء عمله، وظن أنه على حق، ولكنه على باطل، وهؤلاء هم أخسر الناس أعمالا، كما قال تعالى: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا} [الكهف: ١٠٣]، الجواب بينه الله، قال: {الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا} [الكهف: ١٠٤]؛ لأن الشيطان زين لهم هذا، وقال: أنتم على حق، أنتم الأعلون. وسول لهم، وأملى لهم، حتى تبعوه.

ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: {وإنهم} أي: الشياطين {ليصدونهم} أي: العاشين {عن السبيل} أي: سبيل الحق وطريق الهدى].

{ويحسبون} الواو تعود على العاشين {وإنهم} أي: العاشين {مهتدون} أي:

=

=

على هدى، وهذا غاية ما يكون من الخسران -والعياذ بالله- أن يتمادى الإنسان بالباطل، وهو يظن أنه على حق.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في الجمع رعاية معنى (من)] الجمع هو قوله: {ويحسبون}، {وإنهم ليصدونهم} ففيها رعاية معنى (من) في قوله: {ومن يعش} كلمة (من) و (ما)، وما أشبههما من الألفاظ العامة، يجوز مراعاة معناها ومراعاة لفظها، فاللفظ مفرد {ومن يعش}؛ ولذلك عاد الضمير إليه بالمفرد {ومن يعش}، {نقيض له} أيضا مراعاة اللفظ {فهو له} مراعاة اللفظ، {وإنهم ليصدونهم} مراعاة المعنى {ويحسبون أنهم مهتدون} كذلك مراعاة المعنى.

إذن: إذا أتتك (من) موصولة كانت أو شرطية فلك أن تراعي في ضميرها اللفظ فتجعله مفردا، والمعنى فتجعله حسب ما أريد بها، وانظر إلى قوله تعالى: {ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار} [الطلاق: ١١]، كل هذا مراعاة اللفظ {خالدين فيها أبدا} مراعاة المعنى {قد أحسن الله له رزق} مراعاة اللفظ، فتجد هذه الآيات تارة روعي اللفظ، وتارة روعي المعنى.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{حتى إذا جاءنا} العاشي بقرينه يوم القيامة {قال} له: (يا) للتنبيه {ياليت بيني وبينك بعد المشرقين} أي: مثل بعد ما بين المشرق والمغرب {فبئس القرين} أنت لي].

{حتى إذا جاءنا} يعني: الشيطان وقرينه، وذلك يوم القيامة تبرأ كل واحد من الآخر {قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين} (يا) هذه للتنبيه، ولا تصح أن تكون للنداء؛ لأن (يا) التي للنداء لا تدخل إلا على اسم، لا تدخل على حرف كما هنا، ولا على فعل، فإذا وجدت داخلة على حرف أو فعل فهي للتنبيه {ياليت بيني وبينك} ومثل ذلك قوله تعالى: {قيل ادخل الجنة قال ياليت قومي يعلمون} [يس: ٢٦] فهي للتنبيه.

=

=

وقيل: إن (يا) داخلة على منادى محذوف، والتقدير في هذه الآية: يا هذا ليت بيني وبينك بعد المشرقين. يعني: تقدر المنادى اسما: يا هذا ليت بيني وبينك بعد المشرقين.

فإذا قال قائل: أيهما أولى نقدر منادى مناسبا للسياق من أجل أن يصح حلول (يا) في هذا المكان، أو نقول: الأصل عدم التقدير. ونجعل الياء للتنبيه؟

فالجواب: الثاني أولى؛ لأنه إذا دار الأمر بين أن يكون في الكلام شيء محذوف أو لا، فالأولى أن لا يكون فيه شيء محذوف.

وقوله: {بعد المشرقين} يقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ما بين المشرق والمغرب]، وعليه فيكون في الكلام تغليب، وهو تغليب المشرق على المغرب، والتغليب هذا جار في اللغة العربية، مثل قوله ﷺ: بين كل أذانين صلاة" إذا جعلنا مطلق الأذان هو الأذان الذي يكون به دخول الوقت.

أما إذا جعلنا الأذان بمعنى الإعلام فإن الأذانين ليس فيها تغليب؛ لأن كلا من الإقامة والأذان يسمى الأذان، لكن قولهم: القمران. يعنون بذلك الشمس والقمر، وقولهم: العمران. يعنون بذلك أبا بكر وعمر، هذا من باب التغليب، فيكون {بعد المشرقين} أي: بعد ما بين المشرق والمغرب، ولكن ذكر بلفظ المشرق تغليبا.

ويحتمل أن يكون معنى قوله: {بعد المشرقين} أي: مشرق الشمس شتاء ومشرقها صيفا؛ لأن بينهما مسافة عظيمة جدا لا يعلم قدرها إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، وكلا المعنيين صحيح. يعني: سواء جعلنا اللفظ للتغليب أو لا، والمراد أن هذا العاشي الذي أضله الشيطان إذا جاء معه يوم القيامة تبرأ منه، وقال: ليتك بعيد عني وأنا بعيد عنك.

فإن قال قائل: (رب المشرقين) أحيانا تأتي في القرآن مفردة، وأحيانا تأتي جمعا،

=

=

وأحيانا تأتي تثنية؟

فالجواب: المشارق والمشرق والمشرقين، تأتي على هذ الأوجه الثلاثة ولا منافاة بينها؛ فقوله تعالى: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو} [المزمل: ٩] هذا مفرد.

والمراد بالمشرق هنا الجهة، لأن الجهات أربع: شرق، وغرب، وجنوب، وشمال. فالمشرق يعني: جهة المشرق، والمغرب يعني: جهة المغرب.

أما قوله تعالى: {المشارق والمغارب} [المعارج: ٤٠] بالجمع، فالمراد مشارق النجوم والكواكب والشمس والقمر، لأن كل واحد منها له مشرق، أو المراد بالمشارق مشارق الشمس، لأن كل يوم للشمس مشرق، ولولا ذلك ما رأيتها تنتقل من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال.

أما {رب المشرقين ورب المغربين} [الرحمن: ١٧] المثنى، فالمراد بذلك مشرقا الصيف والشتاء.

وقوله: {فبئس القرين} الجملة إنشائية للذم، قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أنت] يعني: أنه قد حذف فيها المخصوص؛ لأن (بئس) و (نعم) لابد فيهما من فاعل ومخصوص، وتفصيل ذلك في كتب النحو، ولا علينا منه في هذا المكان.

من فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى: التحذير من الغفلة عن ذكر الله؛ لأنك إذا غفلت عن ذي الله تعالى حل محل ذكر الله وساوس الشيطان.

الفائدة الثانية: أن الله سبحانه وتعالى يعاقب العبد بما يقتضيه الذنب، وهذا كقوله تعالى: {فكلا أخذنا بذنبه} [العنكبوت: ٤٠]، فهذا الرجل لما أخلى قلبه من ذكر الله عوقب أن يحل محله الشيطان.

الفائدة الثالثة: الحذر من قرناء السوء؛ لأن الشياطين ليس اسما خاصا لشياطين

=

=

الجن، بل حتى الإنس لهم شياطين، قال الله سبحانه وتعالى: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن} [الأنعام: ١١٢]، وقال تعالى: {قل أعوذ برب الناس (١) ملك الناس (٢) إله الناس (٣) من شر الوسواس الخناس (٤) الذي يوسوس في صدور الناس (٥) من الجنة والناس (٦)}. [الناس: ١ - ٦].

ففي هذا التحذير من قرناء السوء، وقد حذر النبي -صلى الله عليه من قرناء السوء؛ حيث شبه قرين السوء أو جليس السوء بنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة، ثم إن الواقع كذلك.

فما أكثر ما يمر علينا ممن يتصلون بنا يشكون من قوم كانوا مستقيمين وأئمة مساجد، أو مؤذني مساجد اتصل بهم أناس من أصحاب السوء، فانحرفوا انحرافا كاملا، ومثل هؤلاء -والعياذ بالله- إذا انحرفوا -نسأل الله الثبات- يكون انحرافهم أشد وأعظم، كالماء الذي حبسته ثم أطلقت الحبس سيندفع بقوة.

فالمهم: أن الإنسان إذا أعرض عن ذكر الله قيض الله له الشيطان من الإنس أو من الجن، فهو له قرين.

الفائدة الرابعة: أن الملازم أشد تأثيرا من العابر الذي يلازمك، ويبقى قرينا معك أشد تأثيرا من العابر، بمعنى: أنك لو جلست مع إنسان صاحب سوء لمدة ساعة أو ساعتين ربما تأثرت به وربما لا تتأثر، لكن إذا كان مقارنا فإنه سيؤثر؛ ولهذا قال: {فهو له قرين}.

أقول هذا لتحذروا من الاستمرار مع قرناء السوء؛ ولتعلموا أنكم متى علمتم أنه قرين سوء فإنه يجب عليكم البعد عنه، لا تقل: أخشى أن يتأثر، أخشى أن يقول: لماذا كان الرجل صاحبا لي ثم فارقني؟ لا يهمك هذا، الذي يهمك هو نفسك فأنقذها.

الفائدة الخامسة: العمى عمى القلب -والعياذ بالله- لما تعامى بعينه عن ذكر

=

=

الرحمن، وبقلبه أيضا؛ قيض له هذا الشيطان الذي يصده عن الهدى وهو يحسب أنه مهتد {وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون} وما أكثر هذا! أهل البدع الذين أصروا على بدعهم، صغيرة كانت أو كبيرة، ألم يكونوا قد استحسنوها؟

فلماذا استحسنوها وهي بدعة مضللة؛ لأن الشيطان صدهم عن الحق، أهل الأفكار الرديئة، كالعلمانيين، والشيوعيين، والبعثيين، ومن أشبههم، لماذا استمروا على ذلك؟ لأن الشيطان ركب قلوبهم -والعياذ بالله- فجعلهم يظنون أن هذا السيئ حسن، وهذا أشد ما يكون من الفتنة أن يرى الإنسان السيئ حسنا فيمضي فيه.

الفائدة السادسة: أن بعض الظن إثم، وجهه أن هؤلاء ظنوا أنهم على حق فاستمروا في الباطل.

الفائدة السابعة: أن هذا القرين في الدنيا يتبرأ من صاحبه يوم القيامة يقول: {ياليت بيني وبينك بعد المشرقين}.

الفائدة الثامنة: أنه مع تمنيه هذا الذي لن يدرك منه شيئا، يثني على قرينه هذا بالذم والقدح فيقول: فبئس القرين أنت.

الفائدة التاسعة: أن من القرناء من هو قرين خير وقرين سوء، وهو كذلك، وقد بين النبي ﷺ هذا أبين شيء؛ حيث قال: "مثل الجليس الصالح كحامل المسك، إما أن يحذيك" يعني: يعطيك هدية، "وإما أن يبيع، وإما أن تجد منه رائحة طيبة، والجليس السوء كنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك" بالشرر الذي يتطاير من النار إذا نفخت "وإما أن تجد منه رائحة كريهة".

* قال الله ﷻ: {ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون} [الزخرف: ٣٩].

=

=

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {ولن ينفعكم} أي: العاشين تمنيكم وندمكم {اليوم إذ ظلمتم} أي: تبين لكم ظلمكم بالإشراك في الدنيا {أنكم} مع قرنائكم {في العذاب مشتركون} علة لتقدير اللام؛ لعدم النفي و (إذ) بدل من اليوم].

يعني: لا ينفعكم الإشراك في العذاب. هذا هو الصحيح، وعلى هذا فتكون {أنكم} ليست للتعليل كما ذهب إليه المفسر، بل هي فاعل (ينفع)، والمعنى لا ينفعكم اشتراككم في العذاب.

ووجه ذلك: أنه جرت العادة أن الإنسان إذا عذب ورأى غيره يعذب هان عليه الأمر، وتسلى، في يوم القيامة يشترك أهل النار في العذاب، لكن لا ينفعهم هذا شيئا. هذا هو الصواب الذي تدل عليه الآية، أما المفسر فجعل قوله: {أنكم في العذاب مشتركون} علة في تقدير اللام أي: لأنكم في العذاب مشتركون، ولكن هذا بعيد من اللفظ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن المشتركين في عذاب الآخرة لا ينفعهم الاشتراك، بخلاف الاشتراك في العذاب في الدنيا فإنه يسلي الإنسان، ويهون عليه؛ ولهذا قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

الفائدة الثانية: أن هؤلاء المعذبين هم الذين ظلموا، وما ظلموا لقوله: {إذ ظلمتم}.

الفائدة الثالثة: أنهم-أي: المعذبين- يعرفون أنهم مشتركون في العذاب، ولكن ذلك لا يسليهم ولا يهون عنهم المصيبة.

* قال الله ﷻ: {أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين}

=

=

[الزخرف: ٤٠].

ثـم قـال الله تبـارك وتعـالى: {أفأنـت تـسمع الـصم أو تهـدي العمـي ومـن كـان في ضلال مبين} بين، أي: فهم لا يؤمنون.

الهمزة للنفي يعني: أنك لا تسمع الصم، ولا تهدي العمي؛ لأن هـذا مركـون إلى الله ﷻ.

{ومـن كـان في ضـلال مبـين} أي: بـين، والمـراد بالـسماع هنـا إسـماع الهـدى، والمراد بالهدى هدي الهدى، ولـيس المعنـى أن تـسمع الـصم صـوتك؛ لأن هـذا شيء يشترك فيه كل الناس، لكن إذا كان الخطاب للرسول عليه الصلاة والـسلام صار الإسماع هنا إسماع الحق، والمراد بالهدى الهدى إلى الحق.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تسلية النبي ﷺ حيث كان يندم على عدم اهتداء النـاس، فبـين الله له أن الأمر ليس إليه، بل إلى الله، وحينئذ تهون عليه المصيبة ويرضى ويسلم عليه الصلاة والسلام.

الفائدة الثانية: أن الكفار بمنزلة أهل الصمم الذين لا يـسمعون، وقـد وصـفهم الله تعالى في آيات أخرى بأنهم {صم بكم عمي فهم لا يعقلون} أو {صم بكـم عمـي فهم لا يرجعون} [البقرة: ١٨].

الفائدة الثالثة: أن العمى سبب لأن يتيـه الإنـسان عـن الطريـق؛ لقولـه: {أو تهـدي العمي}.

الفائـدة الرابعـة: أن مـن كـان في ضـلال مبـين-أي: منغمـسا في الـضلال- فإنـه لا يهتدي في الغالب.

قال الله ﷻ: {فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون} [الزخرف: ٤١].

(إمـا) يقـول المفـسر رحمه الله: [فيـه إدغـام نـون (إن) الـشرطية في (مـا) الزائـدة] فإمـا

=

=

وأصله، (فإن ما)، لكن اجتمعت النون الساكنة مع الميم فأدغمت إحداهما في الأخرى فصارت {فإما نذهبن}.
وقوله: [مع (ما) الزائدة] اعلم أنه ليس في القرآن شيء زائد، كل ما في القرآن فإنه في محله والسياق يحتاج إليه، لكن مرادهم بالزيادة هي التي يتم الكلام بدونها، لا التي يمكن الكلام بدونها، هذا بالنسبة للقرآن. يعني: لو حذفت لاستقام الكلام، وإلا فإن لها معنى، وهو التوكيد {فإما نذهبن بك} يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{فإما نذهبن بك} بأن نميتك قبل تعذيبهم {فإنا منهم منتقمون} في الآخرة] كما قال، يعني: أننا إن ذهبنا بك، فلن نغفلهم من العذاب، بل نعذبهم.
وقول المفسر: [في الآخرة] فيه نظر، والصواب في الدنيا يعني: أنا إن ذهبنا بك قبل أن نعذبهم فإننا لا بد أن نعذبهم، وهذا تهديد واضح لهؤلاء المكذبين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
* قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون} [الزخرف: ٤٢].
قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {أو نرينك الذي وعدناهم} في حياتك من العذاب {فإنا عليهم} أي: على عذابهم {مقتدرون} قادرون].
فالمسألة إما أن نعذبهم قبل أن تموت، وإما أن تموت قبل أن يعذبهم، فإن مت قبل أن نعذبهم، فإنهم لن يفلتوا من العذاب سننتقم منهم، وإن عذبناهم قبل موتك فإنا قادرون على ذلك، ولن نؤخر عنهم العذاب عجزا.
وقول المفسر: {فإنا عليهم} أي: على عذابهم، الصواب العموم على عذابهم وعلى ذواتهم، وعلى جميع أحوالهم.
وقوله: [{مقتدرون} قادرون] أيضا فيه قصور؛ لأن المقتدر أبلغ من القادر، فإن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فهو أبلغ من القادر، وعلى كل حال.

=

=

فالآية معناها الإجمالي: أننا إن ذهبنا بك للموت، فإننا لن نغفلهم عن العذاب، وإن عذبناهم في حياتك؛ فسترى عذابهم بنفسك.

من فوائد الآيتين الكريمتين (٤١- ٤٢):

الفائدة الأولى: التهديد للمكذبين للرسول ﷺ وأن عذابهم واقع لا محالة.

الفائدة الثانية: تسلية النبي ﷺ فإن رسول الله جاء بالهدى والحق والآيات، فإذا كذب فسيكون ذلك ثقيلا على نفسه، فسلاه الله ﷻ بهذا الوعيد.

الفائدة الثالثة: وصف الله تبارك وتعالى بالانتقام، كما وصفه في آيات أخرى.

ولكن هل يوصف به على الإطلاق، فيقال مثلا: المنتقم؟

فالجواب: لا، لأن كلمة المنتقم ليست مدحا في ذاتها حتى تقابل بما يكون سببا للانتقام؛ ولهذا تمر بنا أسماء الله الحسنى التي عدها بعض الناس منها المنتقم، وهذا غلط، فإن ذلك ليس من أسماء الله؛ لأن الله لم يذكر ذلك من أسمائه، وإنما ذكره مقيدا بحال من الأحوال؛ وهنا {فإنا منهم منتقمون} مقيد بحال من الأحوال، وهي تكذيب هؤلاء، وهو كقوله تعالى: {إنا من المجرمين منتقمون} [السجدة: ٢٢].

الفائدة الرابعة: عظمة الله ﷻ حيث وصف نفسه بالجمع، ومن المعلوم أنه ليس المراد بالجمع التعدد؛ لأن الله إله واحد، لكن المراد بالجمع هنا التعظيم.

الفائدة الخامسة: أن الوعد يأتي في الشر والعقوبة، خلافا لمن قال: الوعد في الخير والإيعاد في الشر، وأنشدوا على ذلك قول الشاعر:

وإني إن أوعدته أو وعدته ... لمخلف العادي ومنجز موعدي

فالصواب أن معناها أنها تطلق على هذا وعلى هذا، فهنا قال: {الذي وعدناهم} وعلى قياس قول البيت يكون التعبير: الذي أوعدناهم، ولكن الصحيح أنها جائزة لهذا وهذا.

=

=

الفائدة السادسة: بيان غلبة قدرة الله ﷻ على كل قدرة؛ لقوله: {فإنا عليهم مقتدرون} وهو كذلك، ولما قالت عاد: {من أشد منا قوة} قال الله ﷻ: {أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة} [فصلت: ١٥]، فلا قوة تمانع قوة الله ﷻ، ولا قدرة تمانع قدرته، بل هو العزيز الغالب على كل أحد.

* قال الله ﷻ: {فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم} [الزخرف: ٤٣].

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{فاستمسك بالذي أوحي إليك} أي: القرآن {إنك على صراط مستقيم} طريق مستقيم].

{فاستمسك} بمعنى: تمسك، لكن زيدت حروفها للمبالغة. أي: تمسك تمسكا قويا {بالذي أوحي إليك} والموحي هو الله ﷻ، والموحى القرآن، وإنما قال: {بالذي أوحي إليك} ليثبت رسالته، وإلا لو قال بالقرآن كفى، لكن من أجل تثبيت الرسالة قال: {بالذي أوحي إليك} والوحي هو إنباء الله سبحانه وتعالى لرسله بما يشرعه لعباده.

{إنك على صراط مستقيم} أمر وتثبيت، فالأمر: {فاستمسك بالذي أوحي إليك} والتثبيت: {إنك على صراط مستقيم}، وإذا كان على صراط مستقيم فإن العقل يقتضي أن لا يحيد عنه، بل أن يستمسك به تماما، والصراط هو الطريق الواسع المستقيم، فالطريق الضيق لا يسمى صراطا، والطريق المعوج يمينا وشمالا لا يسمى صراطا، لا يسمى صراطا إلا ما كان طريقا واسعا مستقيما، كما قال الله -سبحانه وتعالى: {اهدنا الصراط المستقيم} أي: الطريق الواسع المستقيم.

* قال الله ﷻ: {وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون} [الزخرف: ٤٤].

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {وإنه لذكر} لشرف {لذكر لك ولقومك} بنزوله بلغتهم

=

=

{وسوف تسألون} عن القيام بحقه].

{وإنه} أي: القرآن الذي أوحي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام {لذكر لك} أي: لشرف على ما فسره به المفسر. أي: أنكم تشرفون به؛ لنزوله بلغتكم؛ ولكونه نزل على واحد منكم، فهو شرف.

هذا ما ذهب إليه المفسر ولا مانع منه، لكن الصواب: أن المراد بالذكر هنا التذكير يعني: وإن هذا الذي أوحي إليك لتذكير لك ولقومك.

فإن قال قائل: يرد على هذا أنه تذكير لكل الناس.

فالجواب: أن هذا كقوله تعالى: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم} [الجمعة: ٢] مع أنه بعث لجميع الناس.

وقوله: {وسوف تسألون} يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عن القيام بحقه] ومن حقه العمل به، ومن حقه إبلاغه للناس، ولهذا يعتبر العرب هم الإشعاع لعامة الناس في نقل الشريعة الإسلامية، ليس في الجزيرة حين نزل الوحي إلا عرب، هؤلاء العرب بثوا الإسلام في جميع أقطار الدنيا، وهذا من حقه {وسوف تسألون} عما فيه من الأمر بالجهاد، هل جاهدتم أم لا؟ {وسوف تسألون} عن تنفيذ جميع شرائعه؛ ولهذا كلام المفسر هنا جيد عن القيام بحقه.

* قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون} [الزخرف: ٤٥].

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن} أي: من غير {آلهة يعبدون}، (اسأل) الخطاب للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لقوله: {من أرسلنا من قبلك من رسلنا} {أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون} وسوف يكون الجواب: (لا).

والمقصود من هذا الأمر هو إقامة الحجة على المشركين الذين يعبدون مع الله

=

=

إلها آخر، يقول للنبي: اسأل جميع الرسل السابقين، هل جعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون حتى يقوم هؤلاء المشركون فيعبدون مع الله غيره.

ففيه إقامة الحجة على المشركين، أن جميع الرسل السابقين ليس فيهم من يحل الإشراك بالله ﷻ.

فإن قال قائل: كيف يسأل من أرسل الله من الرسل قبله وهو لم يدركهم؟

فالجواب: أن هذا من أساليب اللغة العربية، والمعنى: إنك إن تسأل على الفرض والتخيير فلن تجاب بـ (نعم)، بل سيكون الجواب: (لا)، فهو من باب التحدي لهؤلاء المشركين الذين يدعون أنهم على حق.

وقوله: {أجعلنا} أي: صيرنا {من دون الرحمن آلهة يعبدون} قيل: هو على ظاهره بأن جمع له الرسل ليلة الإسراء. يعني: وسألهم، لكن هذا القول ضعيف؛ لأن جميع الأحاديث الواردة في الإسراء ليس فيها هذا.

ثم إن المقصود بالإسراء إظهار شرف النبي ﷺ، بل هذا من مقصود الإسراء، إظهار شرفه على الرسل، فكيف يوجه إليهم هذا السؤال؟ ! فهذا القول ضعيف جدا ولا وجه له.

وقيل: المراد أمم من أهل الكتابين، وهذا أيضا ليس بصواب يعني: هؤلاء يقولون: المعنى {واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا} يعني: اسأل الأمم الذين أرسل إليهم، وهؤلاء باقون إلى بعثة النبي ﷺ، وهذا ضعيف مخالف لظاهر القرآن، فالقرآن يقول: {واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا} والأمم التابعة للرسل فيهم مشركون، فالنصارى أقرب الأمم فيهم مشركون، فلا يتوجه سؤالهم مع كونهم مشركين، هذا أيضا ضعيف.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ولم يسأل على واحد من القولين]؛ لأن المراد من الأمر بالسؤال التقرير لمشركي قريش، أنه لم يأت رسول من الله ولا كتاب بعبادة غير الله، هذا

=

=

صحيح، يعني: أن السؤال إنما أريد به إلزام قريش بأنه لم يأت أحد من الرسل بإباحة عبادة غير الله، هذا المقصود، وهذا كقوله تعالى: {فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك} [يونس: ٩٤]، لكن هنا السؤال فيها أعم؛ لأنه قال: {فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك} ولم يخص ذلك بالرسل.

من فوائد الآيات الكريمة (٤٣- ٤٥):

الفائدة الأولى: حث النبي ﷺ على التمسك بما أوحي إليه، وإذا كان النبي ﷺ يحث على ذلك فنحن من باب أولى.

الفائدة الثانية: أن محمدا ﷺ كان رسول الله حقا؛ لإثبات الوحي إليه.

الفائدة الثالثة: تثبيت النبي ﷺ على الاستمساك بما أوحي إليه، وذلك بأنه على صراط مستقيم.

الفائدة الرابعة: أن الشريعة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام صراط مستقيم، لا اعوجاج فيه، ولا انحراف.

الفائدة الخامسة: أن هذا القرآن الكريم فيه ذكر للعرب -أي: شرف لهم- وفيه تذكير لهم؛ لقوله: {وإنه لذكر لك ولقومك}.

الفائدة السادسة: تحميل المسؤولية العظيمة على العرب، وهي أنهم سوف يسألون عن هذا الوحي هل قاموا بحقه أو لم يقوموا بحقه.

الفائدة السابعة: إقامة البينة الكبرى على أنه لم يقل أحد من الرسل السابقين: إن هناك آلهة تعبد من دون الله؛ لقوله: {واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا}.

الفائدة الثامنة: إثبات اسم الرحمن لله ﷻ؛ لقوله: {أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون} والرحمن هو أحد الاسمين اللذين لا يسمى بهما غير الله، وهما الله والرحمن، لا يوصف بهما سوى الله، الرحيم يوصف به غير الله، العزيز يوصف

=

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦).

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْن وَمَلَئِهِ} أي القبط {فقال إني رسول رب العالمين}.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧).

{فلما جاءهم بآياتنا} الدالة على رسالته {إذا هم منها يضحكون}.

وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨).

{وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَة} مِنْ آيَات الْعَذَاب كَالطُّوفَانِ وَهُوَ مَاء دَخَلَ بُيُوتهمْ

=

به غير الله، السميع يوصف به غير الله، وهكذا، لكن هذين الاسمين الكريمين- الله والرحمن- لا يوصف بهما أحد، ولا يسمى بهما أحد إلا الله تعالى وحده لا شريك له.

الفائدة التاسعة: اتفاق الرسل على التوحيد، وهذا كقوله تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: ٢٥]، وهذا قد اتفق عليه الرسل، وقال الله تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل: ٣٦].

والرسل ما جاءت إلا لإصلاح الخلق، والخلق لا يمكن صلاحهم ولا إصلاحهم إلا إذا قاموا بتوحيد الله سبحانه وتعالى، فإن لم يقوموا بتوحيده تشتتت قلوبهم، وصار كل واحد منهم يذهب مذهبا غير الآخر، لأن كل أمة تريد أن يكون لها معبود خاص، فتحصل الفوضى بين العباد، فإذا اجتمع الناس على عبادة الله وحده؛ حصل الاتفاق بدون فوضى.

وَوَصَلَ إِلَى حُلُوق الْجَالِسِينَ سَبْعَة أَيَّام وَالْجَرَاد {إِلَّا هِيَ أَكْبَر مِنْ أُخْتهَا} قَرِينَتهَا الَّتِي قَبْلهَا {وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} عَنْ الْكُفْر.

وَقَالُوا يَاأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩).

{وَقَالُوا} لِمُوسَى لَمَّا رَأَوْا الْعَذَاب {يَا أَيُّهَا السَّاحِر} أَيْ الْعَالِم الْكَامِل لِأَنَّ السِّحْر عِنْدهمْ عِلْم عَظِيم {أُدْعُ لَنَا رَبّك بِمَا عَهِدَ عِنْدك} مِنْ كَشْف الْعَذَاب عَنَّا إنْ آمَنَّا {إنَّنَا لَمُهْتَدُونَ} أَيْ مُؤْمِنُونَ.

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠).

{فَلَمَّا كَشَفْنَا} بِدُعَاءِ مُوسَى {عَنْهُمْ الْعَذَاب إذَا هُمْ يَنْكُثُونَ} يَنْقُضُونَ عَهْدهمْ وَيُصِرُّونَ عَلَى كُفْرهمْ.

وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١).

{وَنَادَى فِرْعَوْن} افْتِخَارًا {فِي قَوْمه قَالَ يَا قَوْم أَلَيْسَ لِي مُلْك مِصْر وَهَذِهِ الْأَنْهَار} مِنْ النِّيل {تَجْرِي مِنْ تَحْتِي} أَيْ تَحْت قُصُورِي {أَفَلَا تُبْصِرُونَ} عَظَمَتِي.

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢).

{أَمْ} تُبْصِرُونَ وَحِينَئِذٍ {أَنَا خَيْر مِنْ هَذَا} أَيْ مُوسَى {الَّذِي هُوَ مَهِين} ضَعِيف حَقِير {وَلَا يَكَاد يُبِين} يُظْهِر كَلَامه لِلُثْغَتِهِ بِالْجَمْرَةِ الَّتِي تَنَاوَلَهَا فِي صِغَره.

فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣).

{فَلَوْلَا} هَلَّا {أُلْقِيَ عَلَيْهِ} إنْ كَانَ صَادِقًا {أساورة مِنْ ذَهَب} جَمْع أَسْوِرَة كَأَغْرِبَةِ جَمْع سِوَار كَعَادَتِهِمْ فِيمَنْ يُسَوِّدُونَهُ أَنْ يُلْبِسُوهُ أَسْوِرَة ذَهَب وَيُطَوِّقُونَهُ

طَوْق ذَهَب {أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَة مُقْتَرِنِينَ} مُتَتَابِعِينَ يَشْهَدُونَ بِصِدْقِهِ.

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤).

{فَاسْتَخَفَّ} اسْتَفَزَّ فِرْعَوْن {قَوْمه فَأَطَاعُوهُ} فِيمَا يُرِيد مِن تكذيب موسى {إنهم كانوا قوما فاسقين.

فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥).

{فلما آسفونا} أغضبونا {انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين}.

فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦).

{فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا} جَمْع سَالِف كَخَادِمٍ وَخَدَم أَيْ سَابِقِينَ عِبْرَة {وَمَثَلًا لِلْآخَرِينَ} بَعْدهمْ يَتَمَثَّلُونَ بِحَالِهِمْ فَلَا يَقْدَمُونَ عَلَى مِثْل أَفْعَالهمْ[١].

---

(١) قصة موسى- عليه السلام مع فرعون ومع بنى إسرائيل، على رأس القصص التي تكرر الحديث عنها في القرآن الكريم، في سور متعددة، وذلك لما فيها من مساجلات ومحاورات بين أهل الحق وأهل الباطل، ولما فيها من عبر وعظات لقوم يعقلون.

لقد وردت هذه القصة في سور: البقرة، والأعراف، ويونس، وهود، والإسراء، وطه، والقصص، والصافات، وغافر.. ولكن بأساليب متنوعة يكمل بعضها بعضا.

وهنا تبدأ هذه القصة بقوله- تعالى-: وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ، فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ.

أى: والله لقد أرسلنا نبينا موسى- عليه السلام بِآياتِنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، والتي على رأسها اليد والعصا.. وأرسلناه بهذه الآيات إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ أى: أشراف قومه فقال لهم ناصحا ومرشدا: إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ إليكم، لآمركم =

=

بعبادة الله- تعالى-: وحده، وأنهاكم عن عبادة غيره.

فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ أى: فحين جاء موسى- عليه السلام- إلى فرعون وملئه بآياتنا الدالة على قدرتنا، سارعوا إلى الضحك منها، والسخرية بها، بدون تأمل أو تدبر، شأن المغرورين الجهلاء.

فقوله- تعالى-: إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ جواب فَلَمَّا والتعبير يشير إلى مسارعتهم إلى السخرية والاستخفاف بالآيات التي جاء بها موسى- عليه السلام، مع أن هذه الآيات كانت تقتضي منهم التدبر والتفكر لو كانوا يعقلون.

وقوله- سبحانه-: وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها ... بيان لقسوة قلوبهم، وعدم تأثرها بالآيات والمعجزات.

أى: وما نريهم من آية دالة على صدق نبينا موسى، إلا وتكون هذه الآية أكبر من أختها السابقة عليها، في الدلالة على ذلك، مع كون الآية السابقة عظيمة وكبيرة في ذاتها.

والمقصود بالجملة الكريمة، بيان أن هؤلاء القوم لم يأتهم موسى- عليه السلام بآية واحدة تشهد بصدقه فيما جاءهم به من عند ربه، وإنما أتاهم بمعجزات متعددة، وكل معجزة أدل على صدقه مما قبلها.

ويصح أن يكون المراد وصف الجميع بالكبر، على معنى أن كل واحدة لكمالها في ذاتها، إذا نظر إليها الناظر، ظنها أكبر من البواقي لاستقلالها بإفادة الغرض الذي جاءت من أجله.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: والغرض بهذا الكلام، أنهن موصوفات بالكبر، لا يكدن يتفاوتن فيه، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل. وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير، أن تختلف آراء الناس في تفضيلها، فيفضل بعضهم هذا، وبعضهم ذاك، فعلى ذلك بنى الناس كلامهم فقالوا: رأيت

=

=

رجالا بعضهم أفضل من بعض، وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها، فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك، ومنه بيت الحماسة:

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسرى بها السارى ا.هـ

وقوله- تعالى-: وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بيان للمصير السيئ الذي آلوا إليه.

أى: وأخذناهم بسبب إصرارهم على الكفر والمعاصي، بالعذاب الدنيوي الشديد لكي يرجعوا عما هم عليه من كفر وفسوق، ولكنهم لم يرجعوا.

فالمراد بالعذاب هنا العذاب الدنيوي، الذي أشار إليه- سبحانه- بقوله: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ، آياتٍ مُفَصَّلاتٍ، فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ.. .

ثم حكى- سبحانه- ما قالوه بعد أن نزل بهم العذاب، فقال: وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ.

وجمهور المفسرين على أن قولهم هذا، كان على سبيل التعظيم لموسى- عليه السلام- لأنهم كانوا يوقرون السحرة، ويعتبرونهم العلماء.

قال ابن كثير: قوله يا أَيُّهَا السَّاحِرُ أى: العالم ... وكان علماء زمانهم هم السحرة، ولم يكن السحر عندهم في زمانهم مذموما، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص، لأن الحال حال ضرورة منهم إليه، فهي تقتضي تعظيمهم لموسى- عليه السلام ... ا.هـ.

وما في قوله: بِما عَهِدَ عِنْدَكَ مصدرية: أى: بعهده عندك، والمراد بهذا العهد: النبوة. وسميت عهدا، لأن الله- تعالى- عاهد نبيه أن يكرمه بها، أو لأن لها حقوقا تحفظ كما يحفظ العهد.

وقوله: إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ مرتب على كلام محذوف.

=

أى: وحين أخذنا فرعون وقومه بالعذاب، قالوا لموسى- على سبيل التذلل والتعظيم من شأنه- يا أيها الساحر الذي غلبنا بسحره وعلمه، ادع لنا ربك بحق عهده إليك بالنبوة، لئن كشف عنا ربك هذا العذاب الذي نزل بنا إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ أى إننا لمؤمنون ثابتون على ذلك، متبعون لك في كل ما تأمرنا به أو تنهانا عنه.

فدعا موسى- عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه أن يكشف عنهم العذاب، فأجاب الله دعوته بأن كشف عنهم، فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة أنهم نقضوا عهودهم، واستمروا على كفرهم، كما قال- تعالى-: فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ أى: فحين كشفنا عنهم العذاب الذي حل بهم إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ أى: إذا هم ينقضون عهدهم بالإيمان فلا يؤمنون. يقال: نكث فلان عهده ونقضه، إذا لم يف به.

ومن سوء أدبهم أنهم قالوا: ادع لنا ربك، فكأن الله- تعالى- رب موسى وحده، وليس ربا لهم.

وشبيه بهاتين الآيتين قوله- تعالى-: وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ، وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ. فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ.

ثم حكى- سبحانه- جانبا من طغيان فرعون وفجوره، واستخفافه بعقول قومه فقال:

وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ... أى: أن فرعون جمع زعماء قومه، وأخبرهم بما يريد أن يقول لهم.

أو أنه أمر مناديا ينادى في قومه جميعا، ليعلمهم بما يريد إعلامهم به، وأسند- سبحانه- النداء إلى فرعون، لأنه هو الآمر به.

والتعبير بقوله: فِي قَوْمِهِ يشعر بأن النداء قد وصل إليهم جميعا ودخل في قلوبهم.

وقوله- تعالى-: قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي

=

أَفَلا تُبْصِرُونَ ... حكاية لما قاله فرعون لقومه.

أى: أن فرعون جمع عظماء قومه، وقال لهم- بعد أن خشي إيمانهم بموسى: يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ بحيث لا ينازعني في ذلك منازع، ولا يخالفني في ذلك مخالف، فالاستفهام للتقرير.

وفضلا عن ذلك فإن هذه الأنهار التي ترونها متفرعة من النيل تجرى تحت قدمي، أو من تحت قصرى.

أَفَلا تُبْصِرُونَ ذلك، وتستدلون به على قوة أمرى، وسعة ملكي، وعظم شأنى فمفعول تُبْصِرُونَ محذوف، أى: أفلا تبصرون عظمتي.

وأَمْ في قوله: أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ هي المنقطعة المقدرة بمعنى بل التي هي للاضراب، والإشارة بهذا تعود لموسى- عليه السلام.

أى: بل أنا خير من هذا الذي هو فقير وليس صاحب ملك أو سطوة أو مال.. وفي الوقت نفسه لا يَكادُ يُبِينُ أى: لا يكاد يظهر كلامه لعقدة في لسانه.

ثم أضاف إلى ذلك قوله- كما حكى القرآن عنه: فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ.

والأسورة: جمع سوار، وهو كناية عن تمليكه، وكانوا إذا ملكوا رجلا عليهم، جعلوا في يديه سوارين، وطوقوه بطوق من ذهب، علامة على أنه ملكهم.

أى: فهلا لو كان موسى ملكا أو رسولا، أن يحلى نفسه بأساور من ذهب، أو جاء إلينا ومعه الملائكة محيطين به، ومتقارنين معه، لكي يعينوه ويشهدوا له بالنبوة.

ولا شك أن هذه الأقوال التي تفوه بها فرعون، تدل على شدة طغيانه، وعلى عظم غروره، وعلى استغلاله الضخم لغفلة قومه وسفاهتهم وضعفهم.

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال ما ملخصه: وهذا الذي قاله فرعون- لعنه الله- كذب واختلاق، وإنما حملة على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى-

=

=

عليه السلام بعين كافرة شقية، وقد كان موسى من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوى الألباب.

وقوله: وَلا يَكادُ يُبِينُ افتراء- أيضا- فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل ربه أن يحل عقدة من لسانه، فاستجاب الله- تعالى- له وفرعون إنما أراد بهذا الكلام، أن يروج على رعيته، لأنهم كانوا جهلة أغبياء.. .

وقوله- تعالى-: فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ بيان لما كان عليه فرعون من لؤم وخداع، ولما كان عليه قومه من جبن وخروج على طاعة الله- تعالى-.

أى: وبعد أن قال فرعون لقومه ما قال من تطاول على موسى- عليه السلام طلب منهم الخفة والسرعة والمبادرة إلى الاستجابة لما قاله لهم، فأجابوه إلى طلبه منهم، لأنهم كانوا قوما خارجين على طاعتنا، مؤثرين الغي على الرشد، والضلالة على الهداية..

ثم بين- سبحانه- سوء عاقبتهم فقال: (فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ. فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ).

وقوله: آسَفُونا أى: أغضبونا أشد الغضب، من أسف فلان أسفا، إذا اشتد غضبه وسَلَفاً أى: قدوة لمن بعدهم من الكفار في استحقاق مثل عقوبتهم. وهو مصدر وصف به على سبيل المبالغة، ولذا يطلق على القليل والكثير. يقال: سلفه الشيء سلفا، إذا تقدم ومضى. وفلان سلف له عمل صالح، أى: تقدم له عمل صالح ومنه: الأسلاف، أى: المتقدمون على غيرهم.

قال الطبري: (يعني بقوله: آسفونا: أغضبونا، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل).

=

=

وقال ابن عطية: (و {آسفونا} [الزخرف:٥٥] معناه: أغضبونا بلا خلاف).
وقال السمرقندي: (قوله تعالى: {فلما آسفونا انتقمنا منهم}، يعني: أغضبونا، قال أهل اللغة: الأسف: الغضب).
وصفة الغضب ثابتة لله تعالى كما أثبتها لنفسه سبحانه بقوله: {ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه} [النساء:٩٣]، وقوله: {ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه} [محمد:٢٨]، فهي عند أهل الحق صفة حقيقية لله ﷻ على ما يليق بجلاله سبحانه ولا تشبه ما يتصف به المخلوق من ذلك، ولا يلزم منها ما يلزم في المخلوق، قال ابن أبي العز: (ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضى والعداوة والولاية والحب والبغض ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى).
بل في قوله تعالى: {فلما آسفونا انتقمنا منهم} [الزخرف:٥٥] رد على من فسر السخط والغضب بالانتقام فإنه نتيجة لهما كما أن الثواب نتيجة الرضى، والعقل يدل على إثبات السخط والغضب، فإن الانتقام من المجرمين وتعذيب الكافرين دليل على السخط والغضب، وليس دليلا على الرضى ولا على انتفاء الغضب والسخط.
ويقال لمن تأول الغضب بإرادة الانتقام، لم تأولت ذلك؟ فلا بد أن يقول: إن الغضب غليان دم القلب وذلك لا يليق بالله تعالى، فيقال له: غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب لا أنه الغضب، ويقال له أيضا: كذلك الإرادة والمشيئة فينا فهي ميل الحي إلى الشيء أو إلى ما يلائمه ويناسبه؛ فإن الحي منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر إليه ويزداد بوجوده وينتقص بعدمه، فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى

=

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧).

{ولما ضرب} جعل {بن مَرْيَم مَثَلًا} حِين نَزَلَ قَوْله تَعَالَى {إنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله حَصَب جَهَنَّم} فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ رَضِينَا أَنْ تَكُون آلِهَتنَا مَعَ عِيسَى لِأَنَّهُ عُبِدَ مِنْ دُون الله {إذَا قَوْمك} أَيْ الْمُشْرِكُونَ {مِنْهُ} مِنْ الْمَثَل {يَصِدُّونَ} يَضْحَكُونَ فَرَحًا بِمَا سَمِعُوا.

وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨).

{وَقَالُوا أَآلِهَتنَا خَيْر أَمْ هُوَ} أَيْ عِيسَى فَنَرْضَى أَنْ تَكُون آلِهَتنَا مَعَهُ {مَا ضَرَبُوهُ} أَيْ الْمَثَل {لَك إلَّا جَدَلًا} خُصُومَة بِالْبَاطِلِ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ مَا لِغَيْرِ الْعَاقِل

=

الذي صرفته عنه سواء، فإن جاز هذا جاز ذاك، وإن امتنع هذا امتنع ذاك.

فإن قال: الإرادة التي يوصف الله بها مخالفة للإرادة التي يوصف بها العبد وإن كان كل منهما حقيقة، قيل له: فقل إن الغضب الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد وإن كان كل منهما حقيقة، فإذا كان ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات لم يتعين التأويل بل يجب تركه؛ لأنك تسلم من التناقض، وتسلم أيضا من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب. والله تعالى أعلم.

أى: فلما أغضبنا فرعون وقومه أشد الغضب، بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان، انتقمنا منهم انتقاما شديدا، حيث أغرقناهم أجمعين في اليم فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً أى قدوة لمن بعدهم في الكفر في استحقاق مثل عقوبتهم كما جعلناهم مَثَلًا أى: عبرة وموعظة لِلْآخِرِينَ الذين يعملون مثل أعمالهم..

وبذلك نرى في هذه الآيات الكريمة، جانبا من قصة موسى- عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون وملئه.

فَلَا يَتَنَاوَل عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام {بَلْ هُمْ قَوْم خَصِمُونَ} شديدو الخصومة.

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩).

{إِنْ} مَا {هُوَ} عِيسَى {إِلَّا عَبْد أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ} بِالنُّبُوَّةِ {وَجَعَلْنَاهُ} بِوُجُودِهِ مِنْ غَيْر أَب {مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيل} أَيْ كَالْمَثَلِ لِغَرَابَتِهِ يُسْتَدَلّ بِهِ عَلَى قُدْرَة الله تَعَالَى عَلَى مَا يشاء.

وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠).

{وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ} بَدَلكُمْ {مَلَائِكَة فِي الْأَرْض يَخْلُفُونَ} بِأَنْ نُهْلِككُمْ.

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١).

{وَإِنَّهُ} أَيْ عِيسَى {لَعِلْم لِلسَّاعَةِ} تُعْلَم بِنُزُولِهِ {فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا} أَيْ تَشُكُّنَّ فِيهَا حُذِفَ منه نون الرفع للجزم واو الضَّمِير لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ {وَ} قُلْ لَهُمْ {اتَّبِعُونِ} عَلَى التَّوْحِيد {هَذَا} الَّذِي آمُركُمْ بِهِ {صِرَاط} طَرِيق {مُسْتَقِيم}.

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢).

{وَلَا يَصُدَّنكُمْ} يَصْرِفنكُمْ عَنْ دِين الله {الشَّيْطَان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوّ مُبِين} بَيِّن الْعَدَاوَة.

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣).

{وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ} بِالْمُعْجِزَاتِ وَالشَّرَائِع {قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ} بِالنُّبُوَّةِ وَشَرَائِع الْإِنْجِيل {وَلِأُبَيِّن لَكُمْ بَعْض الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ} مِنْ أَحْكَام التَّوْرَاة مِنْ أَمْر الدِّين وَغَيْره فَبَيَّنَ لَهُمْ أمر الدين {فاتقوا الله وأطيعون}.

إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤).

{إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صراط} طريق {مستقيم}.

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥).

{فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَاب مِنْ بَيْنهمْ} فِي عِيسَى أَهُوَ الله أو بن الله أَوْ ثَالِث ثَلَاثَة {فَوَيْل} كَلِمَة عَذَاب {لِلَّذِينَ ظَلَمُوا} كَفَرُوا بِمَا قَالُوهُ فِي عِيسَى {مِنْ عَذَاب يَوْم أَلِيم} مُؤْلِم.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦).

{هَلْ يَنْظُرُونَ} أَيْ كُفَّار مَكَّة أَيْ مَا يَنْتَظِرُونَ {إِلَّا السَّاعَة أَنْ تَأْتِيهِمْ} بَدَل مِنْ السَّاعَة {بَغْتَة} فَجْأَة {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} بِوَقْتِ مجيئها قبله[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-؛ قال: لقد علمت آية من القرآن ما سألني عنها رجل قط، فما أدري أعلمها الناس؛ فلم يسألوا عنها، أم لم يفطنوا لها؛ فيسألوا عنها؟! ثم طفق يحدثنا، فلما قام؛ تلاومنا أن لا نكون سألناه عنها، فقلت: أنا لها إذا راح غدا، فلما راح الغد؛ قلت: يا ابن عباس! ذكرت أمس: أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدري أعلمها الناس؛ فلم يسألوا عنها، أم لم يفطنوا لها؟ فقلت: أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها، قال: نعم؛ إن رسول الله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال لقريش: "يا معشر قريش! إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير"، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم، وتقول في محمد، فقالوا: يا محمد! ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا، فلئن كنت صادقا؛ فإن آلهتهم لكما تقولون، قال: فأنزل الله -عَزَّ وَجَلَّ-: {ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون (٥٧)}، قال: قلت: ما يصدون؟ قال: يضجون، {وإنه لعلم للساعة}؛ قال: هو خروج عيسى ابن مريم -عَلَيْهِ السَّلَامُ- قبل يوم القيامة)

=

=

أخرجه أحمد (١/ ٣١٧)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٥٤)، والطبري في تفسيره (٢٥/ ٥٤)، وابن حبان (٦٨١٧)، والحارث في مسنده (٧٢٠- بغية)، والطحاوي في المشكل (٩٨٧)، والواحدي في أسباب النزول (ص ٢٥٢)، والهروي في ذم الكلام (٦٥٨) والحديث صححه السيوطي في لباب النقول ص ١٨٩)، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة (٣٢٠٨)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وذكره العلامة الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول (ص ١٨٠- ١٨١)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الصحيح غير عاصم- وهو ابن أبي النجود- فقد روى له أصحاب السنن، وحديثه في الصحيحين مقرون، وهو صدوق حسن الحديث.

* قوله (يَصِدُّونَ) قرأها الجمهور بكسر الصاد. وقرأها ابن عامر والكسائي بضم الصاد. وهما بمعنى واحد. ومعناهما: يضجون ويصيحون فرحا. يقال: صد يصد- بكسر الصاد وضمها- بمعنى ضج- كعكف- بضم الكاف وكسرها. ويرى بعضهم أن يَصِدُّونَ- بكسر الصاد- بمعنى: يضجون ويصيحون ويضحكون ... وأن يَصِدُّونَ- بضم الصاد- بمعنى يعرضون. من الصد بمعنى الإعراض عن الحق.

والمعنى: وحين ضرب ابن الزبعرى، عيسى ابن مريم مثلا، وحاجك بعبادة النصارى له، فاجأك قومك- كفار قريش- بسبب هذه المحاجة، بالصياح والضجيج والضحك، فرحا منهم بما قاله ابن الزبعرى، وظنا منهم أنه قد انتصر عليك في الخصومة والمجادلة.

فمن في قوله مِنْهُ الظاهر أنها للسببية، كما في قوله- تعالى-: مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً....

=

=

والمراد بالمثل هنا: الحجة والبرهان.

قال الآلوسى: والحجة لما كانت تسير مسير الأمثال شهرة، قيل لها مثل. أو المثل بمعنى المثال. أى: جعله مقياسا وشاهدا على إبطال قوله ﷺ: إن آلهتهم من حصب جهنم، وجعل عيسى- عليه السلام- نفسه مثلا من باب: الحج عرفة ا.هـ.

ثم بين- سبحانه- أقوالهم التي بنوا عليها باطلهم فقال: وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ... ؟ والضمير هُوَ يعود إلى عيسى- عليه السلام-.

ومرادهم بالاستفهام تفضيل عيسى- عليه السلام- على آلهتهم، مجاراة للنبي ﷺ.

فكأنهم يقولون: لقد أخبرتنا بأن عيسى ابن مريم رسول من رسل الله- تعالى- وأنه خير من آلهتنا.. فإن كان في النار يوم القيامة لأن الله- تعالى- يقول: إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا في النار.

وقد أبطل الله زعمهم هذا بقوله: ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا.

أى: لا تهتم- أيها الرسول الكريم- بما قالوه، فإنهم ما ضربوا لك هذا المثل بعيسى إلا من أجل مجادلتك بالباطل، وليس من أجل الوصول إلى الحق.

وقوله: بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ مؤكد لما قبله من كونهم قالوا ذلك لأجل الجدل بالباطل، لا لطلب الحق، وإضراب عن مزاعمهم وعن مجاراتهم في خصومتهم.

أى: ذرهم- أيها الرسول الكريم- في باطلهم يعمهون، فإنهم قوم مجبولون على الخصومة، وعلى اللجاج في الباطل.

فقوله: خَصِمُونَ جمع خصم- بفتح فكسر- وهو الإنسان المبالغ في الجدل والخصومة، دون أن يكون هدفه الوصول إلى الحق.

وجاء التعبير في قوله: ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بصيغة الجمع، مع أن ضارب المثل واحد، وهو ابن الزبعرى، لأن إسناد فعل الواحد إلى الجماعة، من الأساليب المعروفة في اللغة العربية، ومنه قول الشاعر:

=

=

فسيف بنى عبس وقد ضربوا به ... نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

فإنه قد نسب الضرب إلى جميع بنى عبس، مع تصريحه بأن الضارب واحد، وهو ورقاء..

ولأنهم لما أيدوا ابن الزبعرى في قوله، فكأنهم جميعا قد قالوه..

ثم بين- سبحانه- حقيقة عيسى- عليه السلام فقال: إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ، وَجَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ.

أى: ليس هو أى: عيسى- عليه السلام إلا عبد من عبادنا الذين أنعمنا عليهم بنعمة النبوة وَجَعَلْناهُ مَثَلًا أى: أمرا عجيبا، جديرا بأن يسير ذكره كالأمثال لِبَنِي إِسْرائِيلَ الذين أرسلناه إليهم، حيث خلقناه من غير أب، وأعطيناه المعجزات الباهرات التي منها: إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ... وهذا كله دليل على وحدانيتنا، وكمال قدرتنا ونفاذ إرادتنا.

فالآية الكريمة ترفع من شأن عيسى- عليه السلام، وتحدد منزلته، وتنفى عنه غلو المغالين في شأنه، وإنقاص المنقصين من قدره.

ثم أكد- سبحانه- كمال قدرته فقال: وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ.

و «من» في قوله- تعالى- مِنْكُمْ يصح أن تكون للبدلية، فيكون المعنى: ولو نشاء إهلاككم أيها الكافرون لفعلنا ولجعلنا بدلا منكم ملائكة يخلفونكم بعد موتكم، ولكنا لم نشأ ذلك لحكم نحن نعلمها.

ويصح أن تكون للتبعيض فيكون المعنى: ولو نشاء لجعلنا منكم يا رجال قريش ملائكة، بطريق التوليد منكم، من غير واسطة نساء، فهذا أمر سهل علينا، مع أنه أعجب من حال عيسى الذي تستغربونه، لأنه جاء من غير أب، مع أن الأم من طبيعتها الولادة.

=

=

فالمقصود بالآية الكريمة بيان أن قدرة الله- تعالى- لا يعجزها شيء، وأن ما تعجبوا منه، الله- تعالى- قادر على أن يأتى بما هو أعجب منه.

قال صاحب الكشاف: قوله وَلَوْ نَشاءُ لقدرتنا على خلق عجائب الأمور، وبدائع الفطر، لَجَعَلْنا مِنْكُمْ أى: لولدنا منكم يا رجال مَلائِكَةً يخلفونكم في الأرض، كما يخلفكم أولادكم، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة، ولتعلموا أن الملائكة أجسام.. وذات الله- تعالى- متعالية عن ذلك ا.هـ.

ثم بين- سبحانه- بعض ما يتعلق بعيسى- عليه السلام فقال: وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ.

فالضمير في إِنَّهُ يعود إلى عيسى لأن السياق في شأنه، وقيل يعود إلى القرآن أو إلى الرسول ﷺ وضعف ذلك لأن الكلام في شأن عيسى.

والمراد بالعلم: العلامة، واللام في قوله لِلسَّاعَةِ بمعنى على. والكلام على حذف مضاف.

والمعنى: وإن عيسى- عليه السلام عند نزوله من السماء في آخر الزمان حيا، ليكونن علامة على قرب قيام الساعة، ودليلا على أن نهاية الدنيا توشك أن تقع..

قال الآلوسى: وَإِنَّهُ أى: عيسى عليه السلام لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ أى: أنه بنزوله شرط من أشراطها.

وقد نطقت الأخبار بنزوله- عليه السلام في آخر الزمان، فقد أخرج البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لينزلن ابن مريم، حكما عدلا فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد ا.هـ.

وقال ابن كثير ما ملخصه: قوله: إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ الصحيح أن الضمير يعود على عيسى، فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة كما قال-

=

=

تعالى- وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ... أى: قبل موت عيسى.
وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ «أنه أخبر بنزول عيسى قبل يوم القيامة، إماما عادلا، وحكما مقسطا» ا.هـ.

وقوله: فَلا تَمْتَرُنَّ بِها أى: فلا تشكن في وقوعها في الوقت الذي يشاؤه الله- تعالى-، فقوله تَمْتَرُنَّ من المرية بمعنى الشك والريب.

وقوله: وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ أى: واتبعوا- أيها الناس- ما جئتكم به من عند ربي، فإن هذا الذي جئتكم به، هو الطريق المستقيم الذي يوصلكم إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ أى: ولا يمنعنكم الشيطان بسبب وسوسته لكم، عن طاعتي واتباعى إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ أى: إن الشيطان عداوته لكم ظاهرة، وكيده لكم واضح، كما قال- تعالى-: إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا. إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ.

ثم حكى- سبحانه- ما قاله عيسى- عليه السلام- لقومه، عند ما بعثه الله إليهم فقال: وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ، قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ.

والبينات: جمع بينة. وهي صفة لموصوف محذوف، والمراد بها: المعجزات التي أيد الله- تعالى- بها عيسى- عليه السلام-.

والمراد بالحكمة: التشريعات والتكاليف والمواعظ التي أرشدهم إليها، عن طريق الكتاب الذي أنزله الله تعالى إليه، وهو الإنجيل.

أى: وحين جاء عيسى- عليه السلام- إلى قومه، قال لهم على سبيل النصح والإرشاد: يا قوم لقد جئتكم بالمعجزات البينات الواضحة التي تشهد بصدقى وجئتكم بالإنجيل المشتمل على ما تقتضيه الحكمة الإلهية من آداب وتشريعات ومواعظ.

=

=

وقوله: وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ متعلق بمحذوف والتقدير: قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها، وجئتكم- أيضا- لأبين لكم ولأصحح لكم بعض الأمور التي تختلفون فيها.

وقال- سبحانه- وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ولم يقل كل الذي تختلفون فيه، للإشعار بالرحمة بهم، وبالستر عليهم، حيث بين البعض وترك البعض الآخر، لأنه لا ضرورة تدعو إلى بيانه.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: هلا بين لهم كل الذي يختلفون فيه؟ قلت: كانوا يختلفون في الديانات، وما يتعلق بالتكليف، وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته والسؤال عنه، وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعنيهم من أمر دينهم.. ا.هـ.

وقوله- تعالى-: فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ.

أى: إذا كان الأمر كما ذكرت لكم، فاتقوا الله- تعالى- بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه، وبأن تطيعوني في كل ما آمركم به أو أنهاكم عنه.

وإن الله- تعالى- هو ربي وربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة، وهذا الذي آمركم به أو أنهاكم عنه، هو الطريق القويم، الذي يوصلكم إلى السعادة الدنيوية والأخروية.

ثم بين- سبحانه- موقف أهل الكتاب من دعوة عيسى- عليه السلام- فقال:

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ..

والأحزاب: جمع حزب. والمراد بهم الفرق التي تحزبت وتجمعت على الباطل من بعد عيسى.

وضمير الجمع في قوله مِنْ بَيْنِهِمْ يعود إلى من بعث إليهم عيسى- عليه السلام- من

=

=

اليهود والنصارى.

وقيل: يعود إلى النصارى خاصة، لأنهم هم الذين اختلفوا في شأنه، فمنهم من قال: هو الله ومنهم من قال: هو ابن الله. ومنهم من قال: ثالث ثلاثة.

قال الآلوسى: قوله: فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ أى: الفرق المتحزبة مِنْ بَيْنِهِمْ أى: من بين من بعث إليهم، وخاطبهم بما خاطبهم من اليهود والنصارى وهم أمة دعوته- عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقيل: المراد النصارى، وهم أمة إجابته، وقد اختلفوا فرقا: ملكانية، ونسطورية، ويعقوبية ا.هـ.

وقوله- تعالى-: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ بيان للعقاب الشديد الذي أعده الله- تعالى- لهم، بسبب اختلافهم وبغيهم، ونسبتهم إلى عيسى ما هو برىء منه.

أى: فهلاك وعذاب شديد للذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وبافترائهم على عيسى- عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما أشد حسرتهم في هذا اليوم العصيب.

والاستفهام في قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ للنفي.

وينظرون بمعنى: ينتظرون. والخطاب لكفار مكة الذين أعرضوا عن دعوة الحق.

أى: ما ينتظر هؤلاء المشركون إلا قيام الساعة، وهذا القيام سيأتيهم فجأة، وبدون شعور منهم بها، وحينئذ يندمون ولن ينفعهم الندم، ولو كانوا عقلاء لاتبعوا الحق الذي جاءهم به رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قبل فوات الأوان.

فالآية الكريمة دعوة لهؤلاء المشركين إلى الاستجابة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا دعاهم لما يصلحهم، من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال.

=

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧).

{الْأَخِلَّاء} عَلَى الْمَعْصِيَة فِي الدُّنْيَا {يَوْمئِذٍ} يَوْم الْقِيَامَة مُتَعَلِّق بِقَوْلِهِ {بَعْضهمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} الْمُتَحَابِّينَ فِي الله عَلَى طَاعَته فَإِنَّهُمْ أَصْدِقَاء وَيُقَال لَهُمْ.

يَاعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨).

{يَا عِبَاد لَا خَوْف عَلَيْكُمْ الْيَوْم وَلَا أنتم تحزنون}.

الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩).

{الذين آمنوا} نعت لعبادي {بآياتنا} القرآن {وكانوا مسلمين}.

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠).

{ادْخُلُوا الْجَنَّة أَنْتُمْ} مُبْتَدَأ {وَأَزْوَاجكُمْ} زَوْجَاتكُمْ {تُحْبَرُونَ} تُسَرُّونَ وَتُكْرَمُونَ خَبَر الْمُبْتَدَأ.

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١).

{يُطَاف عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ} بِقِصَاعٍ {مِنْ ذَهَب وَأَكْوَاب} جَمْع كُوب وَهُوَ إنَاء لَا عُرْوَة لَهُ لِيَشْرَب الشَّارِب مِنْ حَيْثُ شَاءَ {وَفِيهَا مَا تشتهيه الأنفس} تلذذا {وتلذ الأعين} نظرا {وأنتم فيها خالدون}.

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢).

{وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون}.

=

وشبيه بهذه الآية قوله- تعالى-: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها. فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ.

لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣).

{لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَة كَثِيرَة مِنْهَا} أَيْ بَعْضهَا {تأكلون} وكل ما يؤكل يخلف بدله.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤).

{إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون}.

لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥).

{لَا يُفَتَّر} يُخَفَّف {عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} ساكتون سكوت يأس.

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦).

{وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين.

وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧).

{وَنَادَوْا يَا مَالِك} هُوَ خَازِن النَّار {لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبّك} لِيُمِتْنَا {قَالَ} بَعْد أَلْف سَنَة {إنكم ماكثون} مقيمون في العذاب دائما.

لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨).

قال تعالى {لَقَدْ جِئْنَاكُمْ} أَيْ أَهْل مَكَّة {بِالْحَقِّ} عَلَى لسان الرسول {ولكن أكثركم للحق كارهون}.

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩).

{أَمْ أَبْرَمُوا} أَيْ كُفَّار مَكَّة أَحْكَمُوا {أَمْرًا} فِي كَيْد مُحَمَّد النَّبِيّ {فَإِنَّا مُبْرِمُونَ} مُحْكِمُونَ كَيْدنَا فِي إهْلَاكهمْ.

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠).

{أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَع سِرّهمْ وَنَجْوَاهُمْ} مَا يُسِرُّونَ إلَى غَيْرهمْ وَمَا يَجْهَرُونَ بِهِ بَيْنهمْ {بَلَى} نَسْمَع ذَلِكَ {وَرُسُلنَا} الْحَفَظَة {لَدَيْهِمْ} عِنْدهمْ

{يَكْتُبُونَ} ذَلِكَ[١].

(١) قوله- تعالى-: الْأَخِلَّاءُ جمع خليل بمعنى صديق. وسمى الأصدقاء أخلاء، لأن المودة التي بينهم تخللت قلوبهم واختلطت بنفوسهم.
أى: الأصدقاء في الدنيا، يصير بعضهم لبعض يوم القيامة أعداء، لأنهم كانوا يجتمعون على الشرور والآثام في الدنيا، وكانوا يتواصون بالبقاء على الكفر والفسوق والعصيان فلما جاء يوم القيامة، وانكشفت الحقائق.. انقلبت صداقتهم إلى عداوة.
إِلَّا الْمُتَّقِينَ فإن صداقتهم في الدنيا تنفعهم في الآخرة، لأنهم أقاموها على الإيمان والعمل الصالح والطاعة لله رب العالمين.
فالآية الكريمة إنذار للكافرين الذين كانت صداقاتهم في الدنيا تقوم على محاربة الحق، ومناصرة الباطل ... وبشارة عظيمة للمتقين الذين بنوا صداقتهم في الدنيا على طاعة الله- تعالى- ونصرة دينه، والعمل بشريعته.
ثم بشر الله- تعالى- عباده بجملة من البشارات الكريمة، فقال- تعالى-: يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ. ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ.
والخوف معناه: توقع ما يخشاه ويغتم له الإنسان في المستقبل. والحزن معناه: غم يلحق الإنسان من أجل شيء مضى.
وقوله: تُحْبَرُونَ أى: تفرحون وتسرون سرورا عظيما يظهر حباره- بفتح الحاء وكسرها- أى: أثره الحسن على وجوهكم وأفئدتكم، فهو من الحبر- بفتح الحاء والباء- بمعنى الأثر. ويصح أن يكون من الحبر- بسكون الباء- بمعنى الزينة وحسن الهيئة.
وبهذا ترى الآيات الكريمة قد نفت عنهم الخوف والحزن، وفتحت لهم أبواب
=

=

الجنة، وأعلمتهم بأنهم سيكونون هم وأزواجهم في سرور دائم.

أى: يقول الله- تعالى- لعباده المؤمنين يوم القيامة: يا عباد الذين شرفتكم بالإضافة إلى ذاتى، لا خوف عليكم اليوم من أمر المستقبل، ولا أنتم تحزنون على أمر مضى.

وقوله: الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ في محل نصب، صفة لقوله «يا عباد» أى: يا عباد الذين آمنوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق نبينا ﷺ. وكانوا في الدنيا مخلصين وجوههم لنا، وجاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا..

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ أى: ونساؤكم المؤمنات تُحْبَرُونَ أى: تسرون وتتلذذون بتلك النعم التي أنعم بها- سبحانه- عليكم.

فالمراد بأزواجهم هنا: نساؤهم، لأن في هذه الصحبة تلذذا أكثر، ونعيما أكبر.

والإضافة في قوله أَزْواجُكُمْ للاختصاص التام، فتخرج الأزواج غير المؤمنات.

ومنهم من يرى أن المراد بقوله وَأَزْواجُكُمْ: نظراؤكم وأشباهكم في الطاعة لله- تعالى-.

أى: ادخلوا الجنة أنتم وأشباهكم في الإيمان والطاعة، دخولا لا تنالون معه إلا الفرح الدائم، والسرور الذي لا انقطاع له.

وشبيه بهذه الآية قوله- تعالى-: إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ. هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ.

ثم بين- سبحانه- مظاهر أخرى لتكريمه لهؤلاء العباد فقال: يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ....

والصحاف: جمع صحفة، وهي الآنية الواسعة الكبيرة التي توضع فيها الأطعمة.

والأكواب: جمع كوب وهو ما يوضع فيه الشراب.

وفي الكلام حذف يعرف من السياق، والتقدير: يقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم

=

=

وأزواجكم تحبرون، فإذا ما دخلوها واستقروا فيها، يطاف عليهم بأطعمة وأشربة في أوان من ذهب.

ولم تذكر الأطعمة والأشربة للعلم بها، إذ لا معنى للطواف بالصحاف والأكواب وهي فارغة..

وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ أى: وفي الجنة التي دخلوها كل ما تشتهيه الأنفس من أنواع المشتهيات، وكل ما تتلذذ بين الأعين وتسر برؤيته.

وَأَنْتُمْ أيها المؤمنون فِيها خالِدُونَ خلودا أبديا لا نهاية له.

ثم ختم- سبحانه- هذا التكريم لعباده بقوله: وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ.

واسم الإشارة تِلْكَ مبتدأ وخبره الْجَنَّةُ وما بعدهما صفة الجنة.. وفي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب على سبيل التشريف.

وقال- سبحانه- وَتِلْكَ بالإفراد، للإشعار بأن الخطاب لكل واحد من أهل الجنة، على سبيل العناية به، والإعلاء من شأنه.

أى: ويقال لهم يوم القيامة على سبيل التشريف: وهذه الجنة التي أورثتموها بسبب أعمالكم الصالحة في الدنيا، لكم فيها فاكهة كثيرة، وثمار شهية لذيذة، منها تأكلون أكلا هنيئا مريئا.

وعبر بقوله- تعالى- أُورِثْتُمُوها للإشعار بأنها قد صارت إليهم بفضل الله وكرمه، كما يصير الميراث إلى الوارث.

وقوله بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بيان للأسباب التي أوصلتهم إلى هذه المنازل العالية، فإن أعمالهم الطيبة التي تقبلها الله- تعالى- منهم، جعلتهم- بفضله وإحسانه- في أعلى الدرجات وأسماها.

وكعادة القرآن الكريم في المقارنة بين الأخيار والأشرار جاء الحديث عن سوء

=

=

عاقبة الكافرين بعد الحديث عن حسن عاقبة المؤمنين، فقال- تعالى- إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ.

أى: إن الكافرين بالحق، الراسخين في الإجرام، الكاملين فيه، سيكونون يوم القيامة، في عذاب جهنم خالدين فيه خلودا أبديا.

لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ أى: لا يخفف عنهم العذاب، فقوله يُفَتَّرُ مأخوذ من الفتور بمعنى الهدوء والسكون، يقال: فترت الحمى، إذا خفت حدتها، وفتر المرض إذا سكن قليلا.

وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ أى: وهم في هذا العذاب في أقصى درجات الحزن والذلة واليأس يقال: أبلس فلان إبلاسا، إذا سكت عن الكلام سكوتا مصحوبا بالحزن وانقطاع الحجة.

ثم بين- سبحانه- أن ما نزل بهؤلاء المجرمين من عذاب كان بسبب كفرهم فقال- تعالى-: وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ.

أى: نحن ما ظلمنا هؤلاء الكافرين بإنزال هذا العذاب المهين الدائم بهم، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم، باستحبابهم العمى على الهدى، وإيثارهم الغي على الرشد.

ثم حكى- سبحانه- بعض أقوالهم بعد نزول العذاب بهم فقال: وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ.

والمراد بذلك سؤال مالك خازن النار، واللام في قوله لِيَقْضِ لام الدعاء.

أى: وبعد أن طال العذاب على هؤلاء الكافرين، نادوا في ذلة واستجداء قائلين لخازن النار: يا مالك ادع لنا ربك كي يقضى علينا، بأن يميتنا حتى نستريح من هذا العذاب.

فالمراد بالقضاء هنا: الإهلاك والإماتة، ومنه قوله- تعالى-: فَوَكَزَهُ مُوسى

=

=

فَقَضى عَلَيْهِ.. أى: فأهلكه.

وفي هذا النداء ما فيه من الكرب والضيق، حتى إنهم ليتمنون الموت لكي يستريحوا مما هم فيه من عذاب.

وهنا يجيئهم الرد بما يزيدهم غما على غمهم، وهو قوله- تعالى-: قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ أى: قال مالك في الرد عليهم: إنكم ماكثون فيها بدون موت يريحكم من عذابها، وبدون حياة تجدون معها الراحة والأمان.

وقوله- سبحانه-: لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ تأكيد منه- تعالى- وتقرير لرد مالك عليهم، ومبين لسبب مكثهم فيها..

أى: لقد جئناكم- أيها الكافرون- بالحق على ألسنة رسلنا الذين لم يتركوا وسيلة من الوسائل إلا وسلكوها معكم في الإرشاد إلى طريق الهدى، ولكن أكثركم كان كارها للحق والهدى، معرضا عنهما إعراضا كليا، مصرا على كفره وشركه.

وعبر- سبحانه- بالأكثر لأن قلة منهم لم تكن كارهة للحق، ولكنها كانت منقادة لأمر سادتها وكبرائها.. أما الذين كانوا يعرفون الحق ولكن يكرهونه، فهم الزعماء والكبراء، لأنهم يرون في اتباعه انتقاصا من شهواتهم وتصادما مع أهوائهم.

ثم وبخهم- سبحانه- على مكرهم، وبين أنه مكر بائر خائب فقال: أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ.

وأَمْ هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة، والجملة الكريمة كلام مستأنف مسوق لتأنيب المشركين على ما دبروه من كيد للرسول ﷺ وللمؤمنين. والإبرام: الإتقان للشيء والإحكام له، وأصله الفتل المحكم. يقال: أبرم فلان الحبل، إذا أتقن فتله.

=

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١).

{قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَد} فَرْضًا {فَأَنَا أَوَّل الْعَابِدِينَ} لِلْوَلَدِ لَكِنْ ثَبَتَ أَنْ لَا وَلَد لَهُ تَعَالَى فَانْتَفَتْ عِبَادَته.

سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢).

{سبحان رب السماوات وَالْأَرْض رَبّ الْعَرْش} الْكُرْسِيّ {عَمَّا يَصِفُونَ} يَقُولُونَ مِنْ الْكَذِب بِنِسْبَةِ الْوَلَد إلَيْهِ.

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣).

=

أى: بل أحكموا كيدهم للنبي ﷺ ولأصحابه؟ إن كانوا يظنون ذلك فقد خاب ظنهم، لأن مكرنا أعظم من مكرهم، وكيدنا يزهق كيدهم..

فالمقصود بالآية الكريمة الانتقال من عدم إجابة ندائهم، إلى تأنيبهم على ما كان منهم في الدنيا من مكر بالحق وأهله، وكيف أن هذا المكر السيئ كانت نتيجته الخسران لهم.

وقوله- سبحانه-: أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ ... توبيخ آخر لهم على جهلهم وانطماس بصائرهم.

والمراد بالسر هنا: حديثهم مع أنفسهم، والمراد بنجواهم: ما تكلم به بعضهم مع بعض دون أن يطلعوا عليه أحدا غيرهم.

أى: بل أيظن هؤلاء الجاهلون أننا لا نعلم ما يتحدثون به مع أنفسهم، وما يتحدثون به مع غيرهم في خفية واستتار.

وقوله- سبحانه-: بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ أى: إذا كانوا يظنون ذلك فقد خابوا وخسروا، فإننا نعلم سرهم ونجواهم. ورسلنا الذين يحفظون عليهم أعمالهم، ملازمون لهم، ويسجلون عليهم كل صغيرة وكبيرة.

{فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا} فِي بَاطِلِهِمْ {وَيَلْعَبُوا} فِي دُنْيَاهُمْ {حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} فِيهِ الْعَذَاب وَهُوَ يَوْم الْقِيَامَة.

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤).

{وهو الذي} هو {في السماء إلـه} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِسْقَاط الْأُولَى وَتَسْهِيلهَا كَالْيَاءِ أي معبود {وفي الأرض إله} وَكُلّ مِنْ الظَّرْفَيْنِ مُتَعَلِّق بِمَا بَعْده {وَهُوَ الْحَكِيم} فِي تَدْبِير خَلْقه {الْعَلِيم} بِمَصَالِحِهِمْ.

وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥).

{وتبارك} تعظم {الذي له ملك السماوات وَالْأَرْض وَمَا بَيْنهمَا وَعِنْده عِلْم السَّاعَة} مَتَى تقوم {وإليه يرجعون} بالياء والتاء.

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦).

{وَلَا يَمْلِك الَّذِينَ يَدْعُونَ} يَعْبُدُونَ أَيْ الْكُفَّار {مِنْ دُونه} أَيْ مِنْ دُون الله {الشَّفَاعَة} لِأَحَدٍ {إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ} أَيْ قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} بِقُلُوبِهِمْ مَا شَهِدُوا بِهِ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَهُمْ عِيسَى وَعُزَيْر وَالْمَلَائِكَة فَإِنَّهُمْ يَشْفَعُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ.

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧).

{وَلَئِنْ} لَام قَسَم {سَأَلْتهمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله} حُذِفَ مِنْهُ نُون الرَّفْع وَوَاو الضَّمِير {فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} يُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَة الله.

وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨).

{وَقِيلِهِ} أَيْ قَوْل مُحَمَّد النَّبِيّ وَنَصْبه عَلَى الْمَصْدَر بِفِعْلِهِ الْمُقَدَّر أَيْ وَقَالَ

{يَا رَبِّ إن هؤلاء قوم لا يؤمنون}.

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩).

قال تعالى {فَاصْفَحْ} أَعْرِضْ {عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَام} مِنْكُمْ وَهَذَا قَبْل أَنْ يُؤْمَر بِقِتَالِهِمْ {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} بِالْيَاءِ والتاء تهديد لهم[1].

---

(١) وإِنْ في قوله- تعالى-: قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ ... يرى بعضهم أنها شرطية، وأن الكلام مسوق على سبيل الفرض والتقدير.

والمعنى: قل- أيها الرسول الكريم- ردا على هؤلاء الكافرين الذين نسبوا الولد إلى الله- تعالى-، قل لهم: إن كان للرحمن ولد- على سبيل الفرض والتقدير- فأنا أول العابدين لهذا الولد، ولكن هذا الفرض قد ثبتت استحالته يقينا لا شك معه، فما أدى إليه، وما ترتب عليه من نسبتكم الولد إلى الله- تعالى- محال- أيضا- وإذا فأنا لا أعبد إلا الله- تعالى- وحده، وأنزهه- سبحانه- عن الولد أو الشريك.

ومن الآيات الكريمة التي نفت عن الله- ﷻ الولد قوله- تعالى-: بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «١».

وقوله- ﷻ: وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا. تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً. وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً «٢».

ومن المفسرين الذين رجحوا أن تكون إِنَّ هنا شرطية، الإمام ابن جرير، فقد قال بعد أن ذكر بعض الأقوال في ذلك: وأولى الأقوال عندنا بالصواب في ذلك، قول من قال:

معنى إِنَّ الشرط الذي يقتضى الجزاء. ومعنى الكلام: قل يا محمد لمشركي

=

قومك، الزاعمين أن الملائكة بنات الله، إن كان للرحمن ولد- على سبيل الفرض- فأنا أول العابدين. ولكنه لا ولد له فأنا أعبده لأنه لا ينبغي أن يكون له ولد.

وإذا وجه الكلام إلى ما قلنا من هذا الوجه، لم يكن على وجه الشك، ولكن على الإلطاف في الكلام، وحسن الخطاب، كما قال- جل ثناؤه- وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ا.هـ.

وقال ابن كثير: يقول- تعالى-: قُلْ يا محمد إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ.

أى: لو فرض هذا لعبدته على ذلك، لأنى عبد من عبيده، مطيع لجميع ما أمرنى به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض هذا كان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه- تعالى-، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز- أيضا- كما قال- تعالى-: لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ، سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ ا.هـ.

وقال صاحب الكشاف- رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله- تعالى-: قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ..

وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح.. فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ أى: فأنا أول من يعظم ذلك الولد، وأسبقكم إلى طاعته..

وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض، وهو المبالغة في نفى الولد، والإطناب فيه.. وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد، وهي محال في نفسها، فكان المعلق بها محالا مثلها.. ا.هـ.

ويرى بعض العلماء أن إِنْ في الآية نافية بمعنى ما، فيكون المعنى: قل- أيها الرسول- لهؤلاء الكافرين: ما كان للرحمن من ولد، وما صح وما أمكن ذلك، فهو مستحيل عقلا وشرعا ... وما دام الأمر كذلك، فأنا أول العابدين لله-

=

=

تعالى- المنزهين له عن الولد والشريك وغيرهما.

قال الإمام القرطبي: قوله- تعالى-: قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ ... اختلف في معناه. فقال ابن عباس والحسن والسدى: المعنى: ما كان للرحمن ولد. إِنْ بمعنى ما، ويكون الكلام على هذا تاما، ثم تبتدى بقوله- تعالى- فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ.

وقيل المعنى: قل يا محمد، إن ثبت له ولد، فأنا أول من يعبد ولده، ولكن يستحيل أن يكون له ولد، وهو كما تقول لمن تناظره: إن ثبت ما قلت بالدليل، فأنا أول من يعتقده، وهذا مبالغة في الاستبعاد، أى: لا سبيل إلى اعتقاده..

وإِنْ على هذا للشرط، وهو الأجود.

وقيل إن معنى الْعابِدِينَ الآنفين. وقال بعض العلماء لو كان كذلك لكان العبدين..

بغير ألف، يقال: عبد- بكسر الباء- يعبد عبدا- بفتحها- إذا أنف وغضب فهو عبد، والاسم العبدة، مثل الأنفة.. ا.هـ.

ويبدو لنا أن الرأيين يؤديان إلى نفى أن يكون لله- تعالى- ولد وإن كان الرأى الأول- وهو أنّ حرف إِنْ للشرط- هو المتبادر من معنى الآية وعليه جمهور المفسرين.

ثم نزه- ﷻ ذاته عن أقوال المفترين فقال: سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ.

وسبحان: اسم مصدر بمعنى التنزيه والتقديس، منصوب على أنه مفعول مطلق بفعل محذوف، أى: سبحت الله- تعالى- تسبيحا، ونزهته تنزيها، عن أن يكون له ولد أو شريك، فهو- ﷻ رب السموات، ورب الأرض رب العرش العظيم، وهو المتعالي عن كل ما وصفه الكافرون والفاسقون من صفات لا تليق بجلاله.

=

=

وجاء هذا التنزيه والتقديس بلفظ سُبْحانَ، لا بلفظ الفعل سبح أو يسبح، لأن النقص الذي أرادوا إلصاقه به شنيع، فكان من المناسب أن يؤتى بأقوى لفظ في التنزيه والتقديس.

وما في قوله: عَمَّا يَصِفُونَ مصدرية، أى: عن وصفهم لله الولد، ويصح أن تكون موصولة والعائد محذوف. أى: عن الذي يصفونه به.

وفي إضافة رب إلى العرش، مع أنه أعظم الأجرام، تنبيه على أن جميع المخلوقات تحت ملكوته وربوبيته، فكيف يتخذ من خلقه ولدا؟.

والفاء في قوله- تعالى-: فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا.. للافصاح عن شرط مقدر..

أى: إذا كان الأمر كما ذكرنا لك- أيها الرسول الكريم- فاترك هؤلاء الكافرين يخوضون في باطلهم، وينهمكون في لعبهم..

حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ وهو يوم القيامة، الذي سنحاسبهم فيه حسابا عسيرا، ونعاقبهم بالعقوبة التي يستحقونها.

فالآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ عما لحقه منهم من أذى، وتهديد لأولئك الكافرين على أقوالهم الباطلة، وأفعالهم الشنيعة.

ثم أكد- سبحانه- أنه هو الإله الحق، وأن كل ما عداه باطل، فقال: وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ، وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ.

والجار والمجرور في قوله فِي السَّماءِ وفِي الْأَرْضِ متعلق بلفظ إِلهٌ، لأنه بمعنى معبود أو بمعنى مستحق للعبادة، وهذا اللفظ الكريم خبر مبتدأ محذوف، أى: هو إله..

أى: وهو- سبحانه- وحده المعبود بحق في السماء، والمعبود بحق في الأرض، لا إله غيره، ولا رب سواه، وهو- ﷻ الْحَكِيمُ في كل أقواله وأفعاله الْعَلِيمُ بكل شيء في هذا الوجود.

=

=

فالآية الكريمة تدل على أن المستحق للعبادة من أهل السماء ومن أهل الأرض، هو الله- تعال-، وكل معبود سواه فهو باطل.

قال الجمل ما ملخصه: قوله- سبحانه-: وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ.. الجار والمجرور متعلق بلفظ إله، لأنه بمعنى معبود في السماء ومعبود في الأرض..

وبما تقرر من أن المراد بإله: معبود، اندفع ما قيل من أن هذا يقتضى تعدد الآلهة، لأن النكرة إذا أعيدت نكرة تعددت، كقولك: أنت طالق وطالق.

وإيضاح هذا الاندفاع، أن الإله بمعنى المعبود، وهو- تعالى- معبود فيهما. والمغايرة إنما هي بين معبوديته في السماء، ومعبوديته في الأرض، لأن المعبودية من الأمور الإضافية فيكفى التغاير فيها من أحد الطرفين، فإذا كان العابد في السماء غير العابد في الأرض، صدق أن معبوديته في السماء غير معبوديته في الأرض مع أن المعبود واحد، وفيه دلالة على اختصاصه- تعالى- باستحقاق الألوهية، فإن التقديم يدل على الاختصاص.. ا.هـ.

وقوله- تعالى-: وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما ثناء منه- سبحانه- على ذاته بما هو أهله.

ولفظ تَبارَكَ فعل ماض، أى تعالى الله وتعظم، وزاد خيره وكثر إنعامه، وهو مأخوذ من البركة- بفتح الراء- بمعنى الكثرة من كل خير.. أو من البرك- بسكون الراء- بمعنى الثبوت والدوام.. وكل شيء ثبت ودام فقد برك.

أى: وتعالى الله وتقدس، وثبت خيره، وزاد إنعامه، فهو- سبحانه- الذي له ملك السموات والأرض، وله ملك ما بينهما من مخلوقات أخرى لا يعلمها أحد سواه.

وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ أى: وعنده وحده لا عند غيره العلم التام بوقت قيام الساعة. فالمصدر وهو عِلْمُ مضاف لمفعوله وهو السَّاعَةِ والعالم بذلك هو الله- تعالى-.

=

=

والمراد بالساعة: يوم القيامة، وسميت بذلك لسرعة قيامها، كما قال- تعالى- وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ.... وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أى: وإليه وحده مرجعكم للحساب أو الجزاء، وليس إلى أحد سواه- عَزَّ وَجَلَّ.

ثم بين- سبحانه- أنه لا شفاعة لأحد إلا بإذنه، فقال: ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون.

والمراد بالموصول في قوله: وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ ... الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله- تعالى-، وهو فاعل، وجملة يَدْعُونَ صلة لا محل لها من الإعراب، والعائد محذوف.

والشفاعة من الشفع بمعنى الضم، لأن الشفيع ينضم إلى المشفوع له، فيصير شفعا بعد أن كان فردا.

والاستثناء في قوله إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ متصل، لأن المستثنى منه عام، ثم استثنى منه الموحدون، كعيسى ابن مريم.

والمعنى: ولا يملك المعبودون من دون الله- تعالى- الشفاعة لأحد من الناس، إلا من شهد بالحق منهم، وأخلص العبادة لله- تعالى- وحده، كعيسى ابن مريم، وعزير، والملائكة، فهؤلاء يملكونها إذا أذن الله- سبحانه- لهم بها.

ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا، إذا كان المستثنى منه خاصا بالأصنام فيكون المعنى:

ولا تملك الأصنام الشفاعة لأحد، لكن من شهد بالحق وبوحدانية الله كعيسى ابن مريم وغيره، فإنه يملكها بإذن الله- تعالى-.

ويصح أن يكون المراد بقوله: إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ المؤمن المشفوع فيه فيكون المعنى: ولا يملك أحد الشفاعة لأحد. إلا لمن آمن بالله- تعالى- وشهد

=

=

الشهادة الحق وهو المؤمن، فإنه تجوز الشفاعة له، أما الكافر فلا يملك أحد أن يشفع له. كما قال- تعالى-:
وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى..
وجملة وَهُمْ يَعْلَمُونَ حالية. أى: والحال أنهم يعلمون علما يقينا، أن المستحق للعباد هو الله- تعالى-.
وقيد- سبحانه- الشهادة بقوله وَهُمْ يَعْلَمُونَ للإشعار بأن الشهادة بالحق مع العلم بها هي المعتدة، أما الشهادة بدون علم بالمشهود به فإنها لا تكون كذلك.
وجمع- سبحانه- الضمير هُمْ باعتبار معنى مِنْ، وأفرده في ضمير شَهِدَ باعتبار لفظها.
ثم بين- سبحانه- ما كان عليه المشركون من تناقض بين أقوالهم وأفعالهم فقال:
وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ.
أى: والله لئن سألت- يا محمد- هؤلاء الكافرين عمن خلقهم وخلق من يعبدونهم من دون الله، ليقولن: الله هو الخالق لكل المخلوقات.
وقوله: فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ استفهام قصد به التعجب من أحوالهم المتناقضة أى: ما دمتم قد اعترفتم بأن الخالق لكم ولغيركم هو الله، فكيف انصرفتم عن عبادة الله إلى عبادة غيره.
وكيف أشركتم معه غيره في ذلك مع اعترافكم بأنه- سبحانه- هو الخالق لكل شيء.
يقال: أفك فلان فلانا يأفك إفكا- من باب طرب وعلم- إذا صرفه وقلبه عن الشيء.
وسميت قرى قوم لوط بالمؤتفكات لأن جبريل جعل عاليها سافلها بأمر الله- تعالى-.

=

=

ثم حكى- سبحانه- ما تضرع به الرسول ﷺ إلى ربه فقال: وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ ...

والقيل، والقال، والقول ... كلها مصادر بمعنى واحد. والضمير يعود إلى الرسول ﷺ وقراءة الجمهور بفتح اللام وضم الهاء، على أنه معطوف على قوله- تعالى- قبل ذلك: سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ ويكون مقول القول: يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ.

والمعنى: أيحسب هؤلاء الكافرون الجاهلون، أننا لا نسمع سرهم ونجواهم، ونسمع تضرع رسولنا إلينا بقوله: يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ؟

إن كانوا يحسبون ذلك الحسبان، فقد كذبوا وخسروا، لأننا نعلم ذلك وغيره علما تاما.

ويصح أن يكون قوله- تعالى- وَقِيلِهِ منصوبا بفعل محذوف والتقدير: ويعلم قيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون..

وقرأ عاصم وحمزة وَقِيلِهِ بكسر اللام والهاء، عطفا على الساعة أى: وعنده- سبحانه- علم الساعة، وعلم قول الرسول ﷺ يا رب إن هؤلاء المشركين قوم لا يؤمنون.

والتعبير بالنداء بلفظ الرب، يشعر بالقرب، ويوحى بالإجابة ويفيد كمال التضرع..

كما أن التعبير بقوله قَوْمٌ يشير إلى أن كفرهم كان كفرا جماعيا، لا كفرا فرديا.

وقوله- تعالى-: فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إرشاد وتسلية من الله- تعالى- لنبيه. أى: فأعرض عنهم، ولا تطمع في إيمانهم لشدة كفرهم، وَقُلْ سَلامٌ أى: وقل لهم: أمرى وشأنى الآن مسالمتكم ومتاركتكم.. فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ سوء عاقبة كفرهم وإصرارهم على باطلهم.

سورة الدخان(١)

(١) قال ابن الجوزي:"هي مكّيّة كلّها بإجماعهم".
وقال الفيروزآبادي:"السورة مكية إجماعا".
وقال ابن عطية:"هذه السورة مكية لا أحفظ خلافا في شيء منها".
وقيل أنها مكية إلا قوله: {إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} [الدخان: ١٥]. ذكره الزمخشري ولم يعزه إلى قائل.
* آياتها تسع وخمسون فى عدّ الكوفة، وسبع فى عدّ البصرة، وستّ للباقين. كلماتها ثلاثمائة وست وأربعون. وحروفها ألف وأربعمائة وأحد وثلاثون. المختلف فيها من الآى أربع: حم، {إِنَّ هاؤلاء لَيَقُولُونَ}، {إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم}، {فِي البطون}. فواصل آياتها كلّها (من)
* أسماء السورة:
• الاسم الأول: «سورة الدخان»:
سميت في المصاحف وفي كتب السنة «سورة الدخان»، ووجه تسميتها بذلك، وقوع لفظ «الدخان» في قوله تعالى: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ} [الدخان: ١٠]، وهي آية من آيات الله أيد بها رسوله ﷺ، وجعلها آية لتخويف الكفار بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ، فقد أصيبوا بالقحط والمجاعة التي تجعل الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان المنتشر في الفضاء، ولذلك سميت به اهتماما بشأنه، وقد وردت لفظة: «الدخان» بمعنى آخر في سورة فصلت، قال تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: ١١].
روي عن مسروق، قال: "دخلت على عبد الله ثم قال: إن رسول الله ﷺ لما دعا قريشا كذبوه واستعصوا عليه، فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف»
=

=

فأصابتهم سنة حصت، يعني كل شيء، حتى كانوا يأكلون الميتة، فكان يقوم أحدهم فكان يرى بينه وبين السماء مثل الدخان من الجهد والجوع، ثم قرأ: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الدخان: ١١]، حتى بلغ: {إِنَّا كَاشِفُو العَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} [الدخان: ١٥]، قال: عبد الله أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ قال: والبطشة الكبرى يوم بدر".

قال المهايمي:"سميت به لدلالة آيته على أنه جزاء غشيان أدخنة النفوس الخبيثة، بصائر قلوب أهلها وأرواحهم. ولذلك رأوا الدلائل شبهات الشياطين، وجعلوا المميز بينهما مجنونا، وإن القرآن كاشف عنه، ككشف الدخان المحسوس عنهم".

• الاسم الثاني: «سورة حم الدخان»:

تسمى «حم الدخان»، وبذلك رويت عن رسول الله ﷺ، وعن الصحابة -رضوان الله عليهم-.

ويرى ابن عاشور ان اللفظين بمنزلة اسم واحد، لأن كلمة «حم» غير خاصة بهذه السورة، فلا تعد علما لها، واستدل بأن السيوطي لم يعدها من عداد الاسم اء ذوات الأكثر من اسم.

* معظم مقصود السورة: نزول القرآن فى ليلة القدر، وآيات التوحيد، والشكاية من الكفَّار، وحديث موسى وبنى إِسرائيل وفرعون، والرّد على منكرى البعث، وذلّ الكفار فى العقوبة، وعزّ المؤمنين فى الجنَّة، والمنَّة على الرّسول بتيسير القرآن على لسانه فى قوله: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ}.

* المتشابهات: قوله: {إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأولى} مرفوع. وفى الصّافات منصوب. ذكر فى المتشابه، وليس منه؛ لأَنَّ ما فى هذه السّورة مبتدأ وخبر، وما فى الصّافّات استثناء.

=

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

حم (١).

{حم} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِهِ[٢].

وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢).

{وَالْكِتَاب} الْقُرْآن {الْمُبِين} الْمُظْهِر الْحَلَال مِنْ الْحَرَام.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣).

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَة مُبَارَكَة} هِيَ لَيْلَة الْقَدْر أَوْ لَيْلَة النِّصْف مِنْ شَعْبَان نَزَلَ فِيهَا مِنْ أُمّ الْكِتَاب مِنْ السَّمَاء السَّابِعَة إِلَى سَمَاء الدُّنْيَا {إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ} مُخَوِّفِينَ به

فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤).

{فِيهَا} أَيْ فِي لَيْلَة الْقَدْر أَوْ لَيْلَة النِّصْف مِنْ شَعْبَان {يُفْرَق} يُفْصَل {كُلّ أَمْر حَكِيم} مُحَكَّم مِنْ الْأَرْزَاق وَالْآجَال وَغَيْرهمَا الَّتِي تَكُون فِي السَّنَة إِلَى مِثْل تِلْكَ اللَّيْلَة

أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥).

{أَمْرًا} فَرْقًا {مِنْ عِنْدنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} الرُّسُل مُحَمَّدًا وَمَنْ قَبْله.

=

قوله: {وَلَقَدِ اخترناهم على عِلْمٍ عَلَى العالمين} أى على علم منَّا. ولم يقل فى الجاثية: {وَفَضَّلْنَاهُمْ} على علم لأَنه ذكر فيه: {وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ}.

قوله: {وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض} بالجمع؛ لموافقة أَوّل السّورة: {رَبِّ السماوات والأرض}.

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦).

{رَحْمَة} رَأْفَة بِالْمُرْسَلِ إلَيْهِمْ {مِنْ رَبّك إنَّهُ هو السميع} لأقوالهم {العليم} بأفعالهم

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧).

{رب السماوات وَالْأَرْض وَمَا بَيْنهمَا} بِرَفْعِ رَبّ خَبَر ثَالِث وَبِجَرِّهِ بَدَل مِنْ رَبّك {إنْ كُنْتُمْ} يَا أَهْل مَكَّة {مُوقِنِينَ} بِأَنَّهُ تَعَالَى رَبّ السَّمَاوَات والأرض فأيقنوا بأن محمدا رسوله.

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨).

{لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين}[1].

---

(١) الواو في قوله- تعالى-: وَالْكِتابِ الْمُبِينِ للقسم، وجوابه إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ ...

والمراد بالليلة المباركة: ليلة القدر ...

أى: وحق هذا القرآن الواضح الكلمات، البين الأسلوب، لقد ابتدأنا إنزاله في ليلة كثيرة البركات والخيرات.

فأنت ترى أن الله- تعالى- قد وصف هذه الليلة بأنها مباركة، لزيادة خيرها وفضلها، ولما تتابع فيها من نعم دينية ودنيوية..

ولله- تعالى- أن يفصل بعض الأزمنة على بعض وبعض الأمكنة على بعض وبعض الرسل على بعض.. لا راد لفضله، ولا معقب لحكمه ...

قال ابن كثير: «يقول الله- تعالى- «مخبرا عن هذا القرآن الكريم: أنه أنزله في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، كما قال- تعالى-: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ.. وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال- تعالى-: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ..

=

=

ومن قال بأنها- أي: الليلة المباركة- ليلة النصف من شعبان- كما روى عن عكرمة- فقد أبعد النّجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان» ا.هـ.

هذا وقد فصل بعضهم أدلة من قال بأن المراد بها ليلة القدر، وأدلة من قال بأن المراد بها ليلة النصف من شعبان ا.هـ.

والحق أن المراد بها ليلة القدر، التي أنزل فيها القرآن من شهر رمضان، كما نصت على ذلك آية سورة البقرة التي تقول: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ....

والأحاديث التي أوردها بعضهم في أن المراد بها ليلة النصف من شعبان، أحاديث مرسلة أو ضعيفة، أو لا أساس لها.. فثبت أن المراد بها ليلة القدر.

قوله تعالى: {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ}.

قال الطبري:"قسم من الله تعالى أقسم بهذا الكتاب الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ فقال: {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ} لمن تدبَّره وفكَّر في عبره وعظاته هداه ورشده وأدلته على حقيته، وأنه تنزيل من حكيم حميد، لا اختلاق من محمد ﷺ ولا افتراء من أحد".

وفي تسمة القرآن مبينـًا ثلاثة أوجه:

أحدها: لأنه بيِّن الحروف، قاله أبو معاذ.

قال التستري:"أي: بينّاه بلسان عربي مبين، يعني: بحروف المعجم التي بينها الله لكم".

قال ابن كثير:"{الْمُبِينِ}، أي: البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ؛ لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس".

الثاني: لأن الله تعالى قد بين فيه أحكامه وحلاله وحرامه، قاله مقاتل.

الثالث: لأنه بين الهدى والرشد والبركة، قاله قتادة.

=

=

قال قتادة:"مبين والله بركته، وهداه ورشده".

قال الزجاج:" {الْمُبِينِ}، الذي أبان طرقَ الهدى من طرق الضلالة، وأبان كل ما تحتاج إليه الأمَّة".

قال السمعاني:"لأنه أبان فيه الهدى من الضلالة، والخير من الشر، وأبان فيه جميع ما يؤتى وجميع ما يتقى".

قال السعدي:"هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة".

قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ} [الدخان: ٣]، أي:"إنا أنزلناه في ليلة القدر المباركة كثيرة الخيرات، وهي في رمضان".

قال الزجاج:"نزل جملة إلى السماءِ الدنْيَا في ليلة القَدْرِ، ثم نزل عَلَى رَسُول الله- ﷺ- شيئاً بعد شيء".

واختلف أهل التأويل في تلك الليلة على قولين:

أحدهما: أنها ليلة النصف من شعبان؛ قاله عكرمة.

قال عكرمة:"في ليلة النصف من شعبان يبرم أمر السنة، وينسخ الأحياء من الأموات، ويكتب الحاج فلا يزاد فيهم لا ينقص منهم أحد".

عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس، قال: قال رسول الله ﷺ: **"تقطع** الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه في الموتى".

قال ابن كثير:"ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان- كما روي عن عكرمة- فقد أبعد النَّجْعَة فإن نص القرآن أنها في رمضان. والحديث الذي رواه عبد الله بن صالح، عن الليث، عن عقيل عن الزهري: أخبرني

=

=

عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل لينكح ويولد له، وقد أخرج اسمه في الموتى» فهو حديث مرسل، ومثله لا يعارض به النصوص".

الثاني: أنها ليلة القدر. قاله قتادة، وابن زيد.

قال ابن زيد:"تلك الليلة ليلة القدر، أنزل الله هذا القرآن من أمّ الكتاب في ليلة القدر، ثم أنزله على الأنبياء في الليالي والأيام، وفي غير ليلة القدر".

عن قتادة:" {إِنَّا أَنزلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ} : ليلة القدر، ونزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من رمضان، ونزلت التوراة لستّ ليال مضت من رمضان، ونزل الزَّبور لستّ عشرة مضت من رمضان، ونزل الإنجيل لثمان عشرة مضت من رمضان، ونزل الفُرقَان لأربع وعشرين مضت من رمضان".

قال الطبري:"الصواب من القول في ذلك قول من قال: عنى بها ليلة القدر، لأن الله جلّ ثناؤه أخبر أن ذلك كذلك لقوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ} خلَقْنا بهذا الكتاب الذي أنزلناه في الليلة المباركة عقوبتنا أن تحلّ بمن كفر منهم، فلم ينب إلى توحيدنا، وإفراد الألوهة لنا".

وفي تسميتها «مُبَارَكَةٍ»، ثلاثة وجوه:

أحدها: لما ينزل فيها من الرحمة.

الثاني: لما يجاب فيها من الدعاء.

الثالث: لاتصال البركات بعضها ببعض. قاله سهل.

قال سهل:"أنزل الله ليلة القدر القرآن جملة إلى بيت العزة في سماء الدنيا من اللوح المحفوظ على أيدي الملائكة السفرة، وأنزل على روح محمد ﷺ وهو الروح المبارك، فسماها ليلة القدر مباركة لاتصال البركات بعضها ببعض".

وقوله- سبحانه-: إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ استئناف مبين لمقتضى الإنزال..

=

=

والإنذار: إخبار فيه تخويف وترهيب، كما أن التبشير إخبار فيه تأمين وترغيب.

أى: أنزلنا هذا القرآن في تلك الليلة المباركة، أو ابتدأنا إنزاله فيها، لأن من شأننا أن نخوف بكتبنا ووحينا، حتى لا يقع الناس في أمر نهيناهم عن الوقوع فيه.

وقوله- تعالى-: فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ جملة مستأنفة- أيضا- لبيان وجه تخصيص هذه الليلة بإنزال القرآن فيها.

وقوله يُفْرَقُ أى: يفصل ويبين ويكتب. وحَكِيمٍ أى: ذو حكمة، أو محكم لا تغيير فيه.

أى: في هذه الليلة المباركة يفصل ويبين ويكتب، كل أمر ذي حكمة باهرة، وهذا الأمر صادر عن الله- تعالى-، الذي لا راد لقضائه، ولا مبدل لحكمه.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه: فإن قلت: إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ما موقع هاتين الجملتين؟

قلت: هما جملتان مستأنفتان، فسر بهما جواب القسم الذي هو قوله- تعالى-: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ كأنه قيل: أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصا، لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم.

ومعنى يُفْرَقُ يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم..» ا.هـ.

قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ}.

قال ابن كثير:"أي: معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعًا، لتقوم حجة الله على عباده".

قوله تعالى: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [الدخان: ٤]، أي:"في ليلة القدر يُفصل ويُبيَّن كلُّ أمرٍ محكم من أرزاق العباد وآجالهم وسائر أحوالهم فلا يُبدَّل ولا

=

=

يُغيِّر".

قال السمعاني:"أي: يقضي كل أمر محكم، وذلك من الأرزاق والآجال والحياة والموت والخير والشر".

قال ابن كثير:"أي: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها، وقوله: {حكيم}، أي: محكم لا يبدل ولا يغير".

قال الفراء:"{يُفْرَقُ}، أي: يفصل".

قال أبو عبيدة:"يفصل ويقسط".

قال العز بن عبدالسلام:"{يُفْرَقُ}: يُقضى، أو يكتب، أو ينزل، أو يخرج ".

قال النحاس:"قيل إن معنى {يُفْرَقُ}: يفصل، أي: يفصل بين المؤمن والكافر والمنافق، فيقال للملائكة هذا ويعرفونه".

قال عكرمة:"يقضي في ليلة القدر كل أمر محكم".

وفي تفسير قوله تعالى: {كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [الدخان: ٤]، وجوه:

أحدها: الآجال والأرزاق والسعادة والشقاء من السنة إلى السنة، قاله ابن عباس.

عن أبي مالك، في قوله: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}، قال: "أمر السنة إلى السنة ما كان من خلق أو رزق أو أجل أو مصيبة، أو نحو هذا".

قال ابن عباس:"يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر حتى يكتب الحاج، يحج فلان ويحج فلان".

قال ابن عباس:"إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى ثم قرأ: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}، يعني: ليلة القدر، قال: ففي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل موت أو حياة أو رزق كل أمر الدنيا يفرق تلك الليلة إلى مثلها من قابل".

=

=

قال عن عمر مولى غفرة: "يقال: ينسخ لملك الموت من يموت ليلة القدر إلى مثلها، وذلك لأن الله ﷻ يقول: {إِنَّا أَنزلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ}، وقال: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}، قال: فتجد الرجل ينكح النساء، ويغرس الغرس واسمه في الأموات".

عن ربيعة بن كلثوم، قال: "كنت عند الحسن، فقال له رجل: يا أبا سعيد، ليلة القدر في كلّ رمضان؟ قال: إي والله، إنها لفي كلّ رمضان، وإنها الليلة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضي الله كلّ أجل وأمل ورزق إلى مثلها".

عن محمد بن سوقة، عن عكرمة، قال: سمعته يقول: "يؤذن للناس بالحج ليلة القدر فيكتبون بأسمائهم، قال محمد، وأظنه قال: "وأسماء آبائهم لا يغادر أحدا ممن كتب تلك الليلة، ولا يزاد فيهم ولا ينقص منهم "، ثم قرأ عكرمة {فيها يفرق كل أمر حكيم} ".

قال الزجاج:"يَفْرُق الله ﷻ في ليلة القدر كل أمر فيه حكمة من أرزاقِ العِبادِ وآجالِهِمْ وجميع أَمْرِهم الذي يكون مُؤَجَّلاً إلى ليلة القدر التي تكون في السنة المقبلة".

الثاني: يفرق فيها أمر الدنيا من السنة إلى السنة. قاله ابن عباس، وقتادة.

قال قتادة:"هي ليلة القدر فيها يُقضى ما يكون من السنة إلى السنة".

قال قتادة:"كُنَّا نُحدَّثُ أنه يُفْرق فيها أمر السنة إلى السنة".

قال ابو عبدالرحمن:"يدبر أمر السنة في ليلة القدر".

قال هلال بن يساف: "كان يقال: انتظروا القضاء في شهر رمضان".

قال مقاتل:"يقضي الله في ليلة القدر كل أمر محكم من الباطل ما يكون في السنة كلها إلى مثلها من العام المقبل من الخير والشر والشدة والرخاء والمصائب".

الثالث: كل ما يقضى من السنة إلى السنة، إلا الشقاوة والسعادة فإنه في أم الكتاب

=

=

لا يغير ولا يبدل، قاله ابن عمر، ومجاهد.

قال مجاهد:"يقضى في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدّم ما يشاء، ويؤخر ما يشاء فأما كتاب السعادة والشقاء فهو ثابت لا يغير".

الرابع: كل ما يقضى من السنة إلى السنة إلا الحياة والموت، قاله مجاهد، وبه قال العز بن عبدالسلام.

قال مجاهد:"في ليلة القدر: يفرق كل أمر يكون في السنة إلى مثلها من السنة الأخرى من المعايش والمصائب كلها إلا الحياة والموت".

قال الطبري: **"**عنى بقوله: {فيها يفرق كل أمر حكيم} في هذه الليلة المباركة يقضى ويفصل كل أمر أحكمه الله تعالى في تلك السنة إلى مثلها من السنة الأخرى، ووضع حكيم موضع محكم، كما قال: {الم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ}، يعني: المحكم".

قال العز بن عبدالسلام:"{حكيم}، هنا: بمعنى: «محكم»، وليلة القدر في رمضان باقية ما بقي الدهر ولا وجه لقول من قال رفعت بموت الرسول [ﷺ] أو جوز كونها في جميع السنة".

قال الماوردي:"«الحكيم»-هنا- هو «المحكم»، وليلة القدر باقية ما بقي الدهر، وهي في شهر رمضان في العشر الأواخر منه. ولا وجه لقول من قال إنها رفعت بموت النبي-ﷺ-، ولا لقول من

جوزها في جميع السنة لأن الخبر والأثر والعيان يدفعه. واختلف في محلها من العشر الأواخر من رمضان على أقاويل ذكرها في سورة القدر أولى".

ثم بين- سبحانه- أن مرد هذه الكتابة والتقدير للأشياء إليه وحده فقال: أَمْراً مِنْ عِنْدِنا ...

ولفظ أَمْراً.. يرى بعضهم أنه حال من كُلُّ أَمْرٍ.. أى: يفرق في هذه الليلة المباركة

=

=

كل أمر ذي حكمة، حالة كون هذا الأمر من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا.

ويصح أن يكون منصوبا على الاختصاص، وتنكيره للتفخيم، أى: أعنى بهذا الأمر الحكيم، أمرا عظيما كائنا من عندنا وحدنا. وقد اقتضاه علمنا وتدبيرنا.

وقوله: إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ.. بدل من قوله: إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ.

أى أنزلنا هذا القرآن، في تلك الليلة المباركة لأن من شأننا إرسال المرسلين إلى الناس، لأجل الرحمة بهم، والهداية لهم، والرعاية لمصالحهم.

وقوله: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ تعليل لما قبله. أى: فعل ما فعل من إنزال القرآن، ومن إرسال الرسل، لأنه- سبحانه- هو السميع لمن تضرع إليه، العليم بجميع أحوال خلقه.

قوله تعالى: {أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا}.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: في هذه الليلة المباركة يُفْرق كلّ أمر حكيم، أمرا من عندنا".

قال ابن كثير:"أي: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه".

قال الفراء:"معناهُ: الفرق فيها أمر من عندنا".

قال أخفش:"{أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا}، وقوله: {رَحْمَةً مِنْ رَبِّك} منصوبان على الحال". قال

الزجاج: "المعنى: إنا أنزلناه آمرين أَمْراً وراحمين رحْمةً وفي قوله تعالى: {أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا} ".

وفي قوله تعالى: {أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا} [الدخان: ٥]، ثلاثة وجوه:

أحدهما: أن الأمر هو القرآن أنزله الله من عنده، حكاه النقاش.

الثاني: أنه ما قضاه الله في الليلة المباركة من أحوال عباده، قاله ابن عيسى.

=

=

الثالث: أنه إرسال محمد-ﷺ- نبيًا. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} [الدخان: ٥- ٦]، أي:"نرسل الأنبياء إلى البشر بالشرائع الإلهية لهدايتهم وإرشادهم من أجل الرأفة والرحمة بالعباد".

قال ابن كثير:"أي: إلى الناس رسولا يتلو عليهم آيات الله مبينات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه".

قال القشيري:"{رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}: وهي الرسول- ﷺ، قال صلوات الله عليه: «أنا رحمة مهداة» ".

قال ابن عطية:"{إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}، يحتمل أن يريد الرسل والأنبياء، ويحتمل أن يريد الرحمة التي ذكر بعد، وعلى التأويل الأول نصب قوله: رَحْمَةً على المصدر، ويحتمل أن يكون نصبها على الحال".

قال الزمخشري:"فإن قلت: {إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} بم يتعلق؟

قلت: يجوز أن يكون بدلا من قوله: {إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ} و {رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} مفعولا له، على معنى: إنا أنزلنا القرآن، لأنّ من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم، وأن يكون تعليلا ليفرق. أو لقوله أَمْراً مِنْ عِنْدِنا ورحمة: مفعولا به، وقد وصف الرحمة بالإرسال كما وصفها به في قوله تعالى: {وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ}، أي: يفصل في هذه الليلة كل أمر. أو تصدر الأوامر من عندنا، لأنّ من عادتنا أن نرسل رحمتنا. وفصل كل أمر من قسمة الأرزاق وغيرها من باب الرحمة، وكذلك الأوامر الصادرة من جهته عز وعلا، لأنّ الغرض في تكليف العباد تعريضهم للمنافع. والأصل: إنا كنا مرسلين رحمة منا، فوضع الظاهر موضع الضمير إيذانا بأنّ الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين".

=

=

قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الدخان: ٦]، أي:"إنه هو السميع يسمع جميع الأصوات، العليم بجميع أمور خلقه الظاهرة والباطنة".

قال السعدي:"أي: يسمع جميع الأصوات ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه فرحمهم بذلك ومن عليهم فله تعالى الحمد والمنة والإحسان".

ثم وصف- سبحانه- ذاته بما يدل على كمال قدرته، ونفاذ إرادته فقال: رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما.. من هواء، ومن مخلوقات لا يعلمها إلا الله- تعالى-.

إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ أى: إن كنتم على يقين في إقراركم حين تسألون عمن خلق السموات والأرض وما بينهما.

وجواب الشرط محذوف، أى: إن كنتم من أهل الإيقان علمتم بأن الله- تعالى- وحده، هو رب السموات والأرض وما بينهما.

قوله تعالى: {رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [الدخان: ٧]، أي:"الذي أنزل القرآن وهو ربُّ السمواتِ والأرض وخالقهما ومالكهما ومن فيهما".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره الذي أنزل هذا الكتاب يا محمد عليك، وأرسلك إلى هؤلاء المشركين رحمة من ربك، مالك السموات السبع والأرض وما بينهما من الأشياء كلها".

قال ابن كثير:"أي: الذي أنزل هذا القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما".

قال السعدي:"أي: خالق ذلك ومدبره والمتصرف فيه بما شاء".

عن عثمان بن سعيد، قال جبريل: "يا محمد، لله الخلق كله والسموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم".

=

=

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ} [الدخان: ٧]، أي:"إن كنتم من أهل الإيمان واليقين".
قال ابن كثير:"أي: إن كنتم متحققين".
قال السعدي:"أي: عالمين بذلك علما مفيدا لليقين فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق".
قال الطبري: يقول:"إن كنتم توقنون بحقيقة ما أخبرتكم من أن ربكم ربّ السموات والأرض، فإن الذي أخبرتكم أن الله هو الذي هذه الصفات صفاته، وأن هذا القرآن تنزيله، ومحمدا ﷺ رسوله حق يقين، فأيقنوا به كما أيقنتم بما توقنون من حقائق الأشياء غيره".
قال الواحدي:"أَيْ: إن أيقنتم بأنَّه ربُّ السماوات والأرض فأيقنوا أنَّ محمداً رسوله لأنه أرسله".
قال البيضاوي:"أي: إن كنتم من أهل الإيقان في العلوم، أو كنتم موقنين في إقراركم إذا سئلتم من خلقها؟ فقلتم الله، علمتم أن الأمر كما قلنا، أو إن كنتم مريدين اليقين فاعلموا ذلك".
قال ابن عطية:"قوله: {إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ}، تقرير وتثبيت، أي: إن كنت موقنا بهذا يكون يقينك، كما تقول لإنسان تقيم نفسه: العلم غرضك إن كنت رجل".
قال الزمخشري:"فإن قلت: ما معنى الشرط الذي هو قوله: {إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ}؟ قلت: كانوا يقرون بأن للسماوات والأرض ربا وخالقا، فقيل لهم: إنّ إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب، ثم قيل: إن هذا الرب هو السميع العليم الذي أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السماوات والأرض
وما بينهما إن كان إقراركم عن علم وإيقان، كما تقول: إنّ هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه واشتهر وإسخاؤه إن بلغك حديثه وحدثت بقصته".

=

=

لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ- سبحانه- يُحْيِي من يريد إحياءه، وَيُمِيتُ من يريد إماتته، هو- تعالى- رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ.

أي: هو- سبحانه- الذي تعهدكم بالرعاية والتربية والخلق، كما فعل ذلك مع آبائكم الأولين، الذين أنتم من نسلهم.

قوله تعالى: {لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ} [الدخان: ٨]، أي:"لا إله يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، يحيى الأموات ويميت الأحياء".

قال الطبري:"يقول: لا معبود لكم أيها الناس غير ربّ السموات والأرض وما بينهما، فلا تعبدوا غيره، فإنه لا تصلح العبادة لغيره، ولا تنبغي لشيء سواه، هو الذي يحيي ما يشاء، ويميت ما يشاء مما كان حيا ".

قال السعدي:"أي: لا معبود إلا وجهه، وهو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة وسيجمعكم بعد موتكم فيجزيكم بعملكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر".

قال البيضاوي:"إذ لا خالق سواه. يحيي ويميت كما تشاهدون".

قال القرطبي:"أي: هو خالق العالم، فلا يجوز أن يشرك به غيره ممن لا يقدر على خلق شي. وهو يحيي الأموات ويميت الأحياء".

عن محمد بن إسحاق:"{لا إله إلا هو}، قال: ليس معه غيره شريكا في أمره".

قال سهل:"لا إله على الحقيقة إلا من يقدر على الإيجاد من العدم، وعلى العدم من الإيجاد".

عن محمد بن إسحاق:"{يحيي ويميت}، أي: يعجل ما يشاء ويؤخر ما يشاء، من ذلك بآجالهم بقدرته".

قوله تعالى: {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ} [الدخان: ٨]، أي:"هو خالقكم وخالق من قبلكم من آبائكم وأجدادكم".

قال الطبري:"يقول: هو مالككم ومالك من مضى قبلكم من آبائكم الأوّلين،

=

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩).

{بَلْ هُمْ فِي شَكّ} مِنْ الْبَعْث {يَلْعَبُونَ} اسْتِهْزَاء بِك يَا مُحَمَّد فَقَالَ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف.

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠).

قال تعالى {فَارْتَقِبْ يَوْم تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُبِين} فَأَجْدَبَتْ الْأَرْض وَاشْتَدَّ بِهِمْ الْجُوع إلَى أَنْ رَأَوْا مِنْ شِدَّته كَهَيْئَةِ الدُّخَان بَيْن السَّمَاء وَالْأَرْض.

يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١).

{يَغْشَى النَّاس} فَقَالُوا {هَذَا عَذَاب أَلِيم}.

رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢).

{رَبّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَاب إنَّا مُؤْمِنُونَ} مُصَدِّقُونَ نَبِيّك.

أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣).

قال تعالى {أَنَّى لَهُمْ الذِّكْرَى} أَيْ لَا يَنْفَعهُمْ الْإِيمَان عِنْد نُزُول الْعَذَاب {وَقَدْ

=

يقول: فهذا الذي هذه صفته، هو الربّ فاعبدوه دون آلهتكم التي لا تقدر على ضرّ ولا نفع".

قال ابن عطية: "أي: مالككم ومالك آبائكم الأولين".

قال السمعاني: "أي: المتقدمين".

قال السعدي: "أي: رب الأولين والآخرين مربيهم بالنعم الدافع عنهم النقم".

قال القرطبي: "أي: مالككم ومالك من تقدم منكم، واتقوا تكذيب محمد لئلا ينزل بكم العذاب".

عن محمد إسحاق: "{ربكم ورب آبائكم الأولين}، أي: وخلق آبائكم الأولين". وفي رواية: "وخلق آبائكم الأولين وخلقكم، من آبائكم".

جَاءَهُمْ رَسُول مُبِين} بين الرسالة.

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤).

{ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّم} أَيْ يُعَلِّمهُ القرآن بشر {مجنون}.

إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥).

{إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَاب} أَيْ الْجُوع عَنْكُمْ زَمَنًا {قَلِيلًا} فَكَشَفَ عَنْهُمْ {إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} إلَى كُفْركُمْ فعادوا إليه.

يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦).

اُذْكُرْ {يَوْم نَبْطِش الْبَطْشَة الْكُبْرَى} هُوَ يَوْم بدر {إنا منتقمون} منهم والبطش الأخذ بقوة[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما؛ قال: إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ؛ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد؛ حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد؛ فأنزل الله ﷻ: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢)}، قال: فأتي رسول الله ﷺ، فقيل له: يا رسول الله! استسق لمضر؛ فإنها قد هلكت، قال: "لمضر؟ إنك لجريء"؛ فاستسقى، فسقوا؛ فنزلت: {إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} فلما أصابتهم الرفاهية؛ عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية؛ فأنزل الله ﷻ: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)}؛ قال: يعني: يوم بدر.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٨٢١) وفي رواية لمسلم (رقم ٢٧٩٨): عن مسروق؛ قال: جاء إلى عبد الله رجل فقال: تركت في المسجد رجلاً يفسر
=

=

القرآن برأيه، (وفي رواية: كنا عند عبد الله جلوساً، وهو مضطجع بيننا، فأتاه رجل؛ فقال: يا أبا عبد الرحمن! إن قاصاً عند أبواب كندة يقص ويزعم)، يفسر هذه الآية؛ {يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ} قال: يأتي الناس يوم القيامة دخان فيأخذ بأنفاس الكفار ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام؛ فقال عبد الله [-وجلس وهو غضبان-: يا أيها الناس! اتقوا الله،] من علم منكم علماً؛ فليقل به، ومن لم يعلم؛ فليقل: الله أعلم؛ فإن من فقه الرجل أن يقول لما لا علم له به: الله أعلم؛ فإن الله ﷻ قال لنبيه ﷺ: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦)}، [ص: ٨٦] إنما كان هذا: أن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ؛ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد؛ حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، وحتى أكلوا العظام (وفي رواية: إن رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إدباراً؛ فقال: "اللهم سبع كسبع يوسف"، قال: فاخذتهم سنة حصدت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع، وينظر إلى السماء أحدهم؛ فيرى كهئة الدخان)، فأتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله! استغفر الله لمضر؛ فإنهم قد هلكوا، فقال: "لمضر؟ إنك لجريء"، (وفي رواية: فأتاه أبو سفيان؛ فقال: يا محمد! إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا؛ فادع الله لهم)، قال: فدعا الله لهم؛ فأنزل الله ﷻ: {إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥)} قال: فمطروا، فلما أصابتهم الرفاهية؛ قال: عادوا إلى ما كانوا عليه، قال: فأنزل الله ﷻ: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١)} {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)}؛ قال: يعني: يوم بدر.

قلنا: وهو عند البخاري (رقم ١٠٠٧- أطرافه) ولكن ليس فيه التصريح بسبب النزول.

=

=

* بَـلْ في قولـه- تعـالى-: بَـلْ هُـمْ فِـي شَـكٍّ يَلْعَبُـونَ للاضـراب الإبطـالى، لأن المقصود من الآية الكريمة، نفى إيقانهم بأن خالق السموات والأرض هو الله، لعدم جريهم على ما يقتضيه هذا الإيقان، لأنهم لو كانوا موقنين حقا بذلك، لأخلصوا لله- تعالى- العبادة والطاعة.

فيكون المعنى: إن هؤلاء الكفار لم يكونوا موقنين بأن رب السموات والأرض وما بينهما هو الله، بل قالوا ما قالوا في ذلك على سبيل الشك واللعب.

قال مقاتل:"يقول: بل هم من القرآن في شك لاهون".

قال البغوي:"{بل هم في شك} من هذا القرآن، يهزؤون به لاهون عنه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره ما هم بموقنين بحقيقة ما يقال لهم ويخبرون من هذه الأخبار، يعني بذلك مشركي قريش، ولكنهم في شكّ منه، فهم يلهون بشكهم في الذي يخبرون به من ذلك".

قال الواحدي:"{بل هم في شك} من البعث والنَّشر {يلعبون} مُشتغلين بالدُّنيا".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون، أي: قد جاءهم اليقين، وهم يشكون فيه، ويمترون ولا يصدقون به ".

قال ابن عباس: "في ضلال يتمادون".

وقال مقاتل: "{بَلْ هُمْ} لكن هم {فِي شَكٍّ} مِن هذا القرآن {يَلْعَبُونَ} لاهُون عنه".

قال القرطبي:"أي: ليسوا على يقين فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار في قولهم: إن الله خالقهم، وإنما يقولونه لتقليد آبائهم من غير علم فهم في شك. وإن توهموا أنهم مؤمنون فهم يلعبون في دينهم بما يعن لهم من غير حجة. وقيل:"يلعبون" يضيفون إلى النبي ﷺ الافتراء استهزاء. ويقال لمن أعرض عن المواعظ:

=

=

لاعب، وهو كالصبي الذي يلعب فيفعل ما لا يدري عاقبته".

قال ابن عطية:" {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ}، إضراب قبله نفي مقدر، كأنه يقول: ليس هؤلاء ممن يؤمن ولا ممن يتبع وصاة، بل هم في شك يلعبون في أقوالهم وأعمالهم".

قال السعدي:"فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته بما يوجب العلم التام ويدفع الشك أخبر أن الكافرين مع هذا البيان {فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ} أي: منغمرون في الشكوك والشبهات غافلون عما خلقوا له قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر".

قال الشوكاني:"أضرب عن كونهم موقنين إلى كونهم في شك من التوحيد والبعث، وفي إقرارهم بأن الله خلقهم، وخالق سائر المخلوقات، وأن ذلك منهم على طريقة اللعب والهزو".

قال الآلوسى: «قوله: بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ... إضراب إبطالى، أبطل به إيقانهم لعدم جريهم على موجبه، وتنوين شَكٍّ للتعظيم، أى: في شك عظيم. يَلْعَبُونَ أى: لا يقولون ما يقولون عن جد وإذعان، بل يقولونه مخلوطا بهزء ولعب. وهذه الجملة خبر بعد خبر لهم.. والالتفات عن خطابهم لفرط عنادهم، وإهمال أمرهم..» ا.هـ

والفاء في قوله- تعالى-: فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، ولتسلية الرسول ﷺ وأمره بالصبر حتى يحكم الله بينه وبينهم.

والارتقاب: الانتظار، وأكثر ما يستعمل الارتقاب في الأمر المكروه والمراد باليوم مطلق الوقت، وهو مفعول به لارتقب.

قوله تعالى: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ}.

قال الطبري: يقول:"فانتظر يا محمد لمشركي قومك يوم تأتيهم السماء من البلاء

=

=

الذي يحل بهم على كفرهم بمثل الدخان المبين لمن تأمله أنه دخان".
عن قتادة: "{فَارْتَقِبْ}، أي: فانتظر".
قال ابن كثير:"{بِدُخَانٍ مُبِينٍ}، أي: بين واضح يراه كل أحد".
قال الزمخشري: أي:"ظاهر حاله لا يشك أحد في أنه دخان".
وفي تفسير قوله تعالى: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ} [الدخان: ١٠]، ثلاثة أقوال:
أحدها: ما أصاب أهل مكة من شدة الجوع حتى صار بينهم وبين السماء كهيئة الدخان لما دعا عليهم رسول الله-ﷺ- في إبطائهم عن الإيمان وقصدهم له بالأذى، فقال: «اللَّهُمَّ اكفِنِيهِم بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ». قاله ابن مسعود، وأبو سعيد الخدري، ومجاهد، ويحيى بن سلام، ومقاتل، وبه قال الفراء، وابن قتيبة.
قال الزجاج:"في أكثر التفسير أن الدخان قَدْ مَضى وذلك حين دعا رسول الله-ﷺ- عَلَى مُضَرٍ فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مُضَرٍ واجْعَلْها عَلَيْهِم سِنِينَ كسني يُوسُفَ». أي: اجْعَلْهُم سِنُوهم في الجدب كسني يوسف. والعَرَبُ أيضاً تسمي الجدبِ السَّنَةَ، فيكونُ المْعَنى اجعلها عليهم جَدُوباً. فارتفع القَطْرُ، وأجْدَبَتِ الأرضُ وصار بين السماء والأرض كالدخَان".
قال ابن قتيبة:"قيل للجوع: دخان ليُبْسِ الأرض في سنة الجدب، وانقطاع النبات، وارتفاع الغبار. فشُبِّهَ ما يرتفع منه بالدخان. كما قيل لسنة المجاعة: غَبْرَاءُ؛ وقيل: جُوع أغْبَرُ وربما وضعت العرب الدخانَ موضع الشر إذا علا، فيقولون: كان بيننا أمر ارْتَفَع له دخان".
قل يحيى:"أخذوا بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الميتة والعظام، وأجهدوا حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء دخانا".
قال مقاتل:"وذلك أن النبي ﷺ دعا الله- ﷻ- على كفار قريش فقال: «اللهم

=

=

أعني عليهم بسبع كسنين يوسف»، فأصابتهم شدة حتى أكلوا العظام والكلاب والجيف من شدة الجوع، فكان الرجل يرى بينه وبين السماء الدخان من الجوع".

قال مجاهد:"الجدب وإمساك المطر عن كفار قريش".

قال مسروق: "كنا جلوسا عند عبد الله بن مسعود فجاء رجل فقال: سمعت رجلا آنفا عند أبواب كندة، يقول: إنه سيأتي على الناس دخان يأخذ بأنفاس الكفار، ويكون على المؤمنين كهيئة الزكمة فغضب ابن مسعود، وقال: يا أيها الناس من علم منكم شيئا فليقل، ما يعلم ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن الله يقول لنبيه ﷺ: {قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين} [ص: ٨٦] إن قريشا لما آذوا النبي ﷺ، وكذبوه دعا عليهم فقال: "اللهم خذهم بسنين كسني يوسف، فأخذتهم سنة أهلكت كل شيء حتى أصابهم جوع شديد وجهد حتى أكلوا الميتة وأكلوا القضب، حتى جعل أحدهم يخيل إليه أنه يرى ما بينه وبين السماء دخانا، فجاء أبو سفيان، فقال: يا محمد إنك بعثت بالرحمة والعافية والخير، وإن قومك قد هلكوا، ثم تلا ابن مسعود {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين} [الدخان: ١٠] حتى بلغ {كاشفو العذاب قليلا} [الدخان: ١٥] قال: "فيكشف عذاب الآخرة، ثم قال: {يوم نبطش البطشة الكبرى} [الدخان: ١٦]: هذا يوم بدر، واللزام: القتل يوم بدر وقد مضى هذا كله، وآية الروم قد مضت".

قال ابن مسعود:"خمس قد مضين: الدخان، واللزام، والبطشة، والقمر، والروم".

قال ابن مسعود:"البطشة الكبرى يوم بدر، وقد مضى الدخان".

قال ابن مسعود:"قد مضى الدخان، كان سنين كسني يوسف".

=

=

قال إبراهيم: "مضى الدخان لسنين أصابتهم".

قال عوف: "سمعت أبا العالية يقول: إن الدخان قد مضى".

قال الضحاك: "قد مضى شأن الدخان".

قال أحمد الكرجي القصاب: "قوله: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ}، دليل على أنه كان في الدنيا، لأن السماء مطوية يوم القيامة".

قال عاصم: "شهدت جنازة فيها زيد بن عليّ فأنشأ يحدّث يومئذ، فقال: إن الدخان يجيء قبل يوم القيامة، فيأخذ بأنف المؤمن الزكام، ويأخذ بمسامع الكافر، قال: قلت رحمك الله، إن صاحبنا عبد الله قد قال غير هذا، قال: إن الدخان قد مضى وقرأ هذه الآية: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ}، قال: أصاب الناس جهد حتى جعل الرجل يرى ما بينه وبين السماء دخانا، فذلك قوله: {فَارْتَقِبْ}، وكذا قرأ عبد الله إلى قوله {مُؤْمِنُونَ}، قال: {إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلا}، قلت لزيد: فعادوا، فأعاد الله عليهم بدرا، فذلك قوله: {وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا}، فذلك يوم بدر، قال: فقبل والله، قال عاصم: فقال رجل يردّ عليه، فقال زيد-رحمة الله عليه-: أما إن رسول الله ﷺ قد قال: «إِنَّكُمْ سَيَجِيئُكُمْ رُوَاةٌ، فَمَا وَافَقَ الْقُرآن فَخُذُوا بِهِ، ومَا كانَ غيرَ ذلكَ فَدَعُوهُ» ".

الثاني: أنه يوم فتح مكة لما حجبت السماء الغيوم، قاله عبد الرحمن بن الأعرج.

قال ابن كثير: "وهذا القول غريب جدًا بل منكر".

الثالث: أنه دخان يهيج بالناس يوم القيامة يأخذ المؤمن منه كالزكمة، وينفخ الكافر حتى يخرج من كل مسمع منه، قاله علي رضي الله عنه، وابن عباس، وابن عمر، والحسن. ورواه حذيفة اليمان وأبو مالك الأشعري مرفوعا.

عن أبي مالك الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن ربكم أنذركم ثلاثا:

=

=

الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال".

وعن رِبْعِيِّ بن حَرَاش، قال: سمعت حُذيفة بن اليمان يقول: قال رسول الله ﷺ: «أول الآيات الدجال، ونزول عيسى بن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا، والدخان»، قال حذيفة: يا رسول الله وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية: {يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكام. وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره".

وفي الصحيحين:"أن رسول الله ﷺ قال لابن الصياد: «إني خبأت لك خَبْأ" قال: هو الدُّخ. فقال له: «اخسأ فلن تعدو قدرك». قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ} ".

قال ابن كثير:"وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان، وهم يُقَرطمون العبارة؛ ولهذا قال: «هو الدُّخ»، يعني: الدخان. فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته وأنها شيطانية، فقال له: «اخسأ فلن تعدو قدرك» ".

قال الحسن: "إن الدخان قد بقي من الآيات، فإذا جاء الدخان نفخ الكافر حتى يخرج من كلّ سمع من مسامعه، ويأخذ المؤمن كزكمة".

قال علي رضي الله عنه:"لم تمض آية الدخان بعد يأخذ المؤمن كهيئة الزكام، وتنفخ الكافر حتى ينفد".

قال ابن عمر:"يخرج الدخان، فيأخذ المؤمن كهيئة الزكمة، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق، حتى يكون كالرأس الحنيذ".

=

=

عن عبد الله بن أبي مليكة، قال: "غدوت على ابن عباس ذات يوم، فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت، قلت: لـمَ؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت".

قال ابن كثير:"وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن. وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما، التي أوردناها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن".

قال الطبري:"الصواب في ذلك ما روي عن ابن مسعود من أن الدخان الذي أمر الله نبيه ﷺ أن يرتقبه، هو ما أصاب قومه من الجهد بدعائه عليهم، على ما وصفه ابن مسعود من ذلك إن لم يكن خبر حذيفة الذي ذكرناه عنه عن رسول الله ﷺ صحيحا، وإن كان صحيحا، فرسول الله ﷺ أعلم بما أنزل الله عليه، وليس لأحد مع قوله الذي يصح عنه قول.

وإنما لم أشهد له بالصحة، لأن محمد بن خلف العسقلاني حدثني أنه سأل روادا عن هذا الحديث، هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا فقلت له: فقرأته عليه، فقال: لا فقلت له: فقرئ عليه وأنت حاضر فأقر به، فقال: لا فقلت: فمن أين جئت به؟ قال: جاءني به قوم فعرضوه علي وقالوا لي: اسمعه منا فقرءوه علي، ثم ذهبوا، فحدثوا به عني، أو كما قال؛ فلما ذكرت من ذلك لم أشهد له بالصحة، وإنما قلت: القول الذي قاله عبد الله بن مسعود هو أولى بتأويل الآية، لأن الله جل ثناؤه توعد بالدخان مشركي قريش وأن قوله لنبيه ﷺ: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ} في سياق خطاب الله كفار قريش وتقريعه إياهم بشركهم بقوله: {لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ} ثم أتبع ذلك قوله لنبيه عليه الصلاة

=

=

والسلام: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ} أمرا منه له بالصبر إلى أن يأتيهم بأسه وتهديدا للمشركين فهو بأن يكون إذ كان وعيدا لهم قد أحله بهم أشبه من أن يكون أخره عنهم لغيرهم.

وبعد، فإنه غير منكر أن يكون أحل بالكفار الذين توعدهم بهذا الوعيد ما توعدهم، ويكون محلا فيما يستأنف بعد بآخرين دخانا على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ عندنا كذلك، لأن الأخبار عن رسول الله ﷺ قد تظاهرت بأن ذلك كائن، فإنه قد كان ما روى عنه عبد الله بن مسعود، فكلا الخبرين اللذين رويا عن رسول الله ﷺ صحيح".

قال التستري في الآية:"الدخان في الدنيا قسوة القلب والغفلة عن الذكر، ولا عقوبة أعظم في الدنيا من فساد القلب. وقد حكي عن أويس القرني وهرم بن حيان أنهما التقيا يوماً، فقال هرم لأويس: ادعُ الله. فقال: يصلح لك نيتك وقلبك فلن تعالج شيئاً أشد منهما، بينما قلبك مقبل إذ هو مدبر، وبينما هو مدبر إذ هو مقبل، ولا تنظر إلى صغير الخطيئة، وانظر إلى عظمة من عصيت، فإنك إن عظمتها فقد عظمت الله تعالى، وإن صغرتها فقد صغرت الله تعالى".

قوله تعالى: {يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الدخان: ١١]، أي:"يشمل كفار قريش ويعمهم من كل جانب ويقولون حين يصيبهم الدخان: هذا عذاب أليم".

قال الطبري: "يقول: يغشى أبصارهم من الجهد الذي يصيبهم، فيقولون مما نالهم من ذلك الكرب والجهد: هذا عذاب أليم. وهو الموجع، وترك من الكلام «يقولون» استغناء بمعرفة السامعين معناه من ذكرها".

قال مقاتل:"{يَغْشَى النَّاسَ}، يعني: أهل مكة، {هَذَا} الجوع {عَذَابٌ أَلِيمٌ}، يعني: وجيع".

قال الزمخشري:"{يَغْشَى النَّاسَ}: يشملهم ويلبسهم".

=

=

قال ابن كثير:"أي: يتغشاهم ويَعُمهم، ولو كان أمرا خياليًّا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه: {يَغْشَى النَّاسَ}، وقوله: {هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ}، أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا، كقوله تعالى: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} [الطور: ١٣، ١٤]، أو يقول بعضهم لبعض ذلك".

قال أبو العالية:"الأليم: الموجع في القرآن كله"، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

قوله تعالى: {رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ} [الدخان: ١٢]، أي:"ويقولون مستغيثين: ربَّنا ارفع عنا العذاب فإننا مؤمنون بمحمد وبالقرآن إن كشفته عنا".

قال الطبري: "يعني: أن الكافرين الذين يصيبهم ذلك الجهد يضرعون إلى ربهم بمسألتهم إياه كشف ذلك الجهد عنهم، ويقولون: إنك إن كشفته آمنا بك وعبدناك من دون كلّ معبود سواك، كما أخبر عنهم جل ثناؤه: {رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ} ".

قال النحاس:"أي: يقول الناس الذين أصابهم الجدب «هذا عذاب أليم» ".

قال ابن كثير:"أي: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنعام: ٢٧]. وكذا قوله: {وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ} [إبراهيم: ٤٤] ".

عن قتادة:"{رَبَّنا اكْشِفْ عَنّا العَذابَ إنّا مُؤْمِنُونَ}، قال: الدُّخان".

عن سليمان بن مهران الأعمش-من طريق وكيع- قال: "قالوا: {رَبَّنا اكْشِفْ عَنّا العَذابَ}، يعني: الجوع. فقيل له: إنْ كشفنا عنهم عادوا إلى كفرهم. فدعا ربّه، =

=

فكشف عنهم، فعادوا، فانتقم الله منهم يوم بدر، فذلك قوله: {فارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ} إلى قوله: {مُنْتَقِمُونَ} ".

وقال مقاتل:"ثم إن أبا سفيان بن حرب، وعتبة ابن ربيعة، والعاص بن وائل، والمطعم بن عدي، وسهيل بن عمرو، وشيبة ابن ربيعة، كلهم من قريش، أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد، استسق لنا، فقالوا: {رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ}، يعني: الجوع، {إِنَّا مُؤْمِنُونَ}، يعني: إنا مصدقون بتوحيد الرب وبالقرآن".

قوله تعالى: {أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى} [الدخان: ١٣]، أي:"كيف يكون لهم التذكر والاتعاظ بعد نزول العذاب بهم".

قال مقاتل:"يقول: من أين لهم التذكرة، يعني: الجوع الذي أصابهم بمكة".

قال ابن كثير:"يقول: كيف لهم بالتذكر".

قال الزمخشري:"كيف يذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب".

عن مجاهد: "{أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى}، بعد وقوع هذا البلاء".

عن ابن عباس، قوله: "{أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى}، يقول: كيف لهم".

قوله تعالى: {وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ} [الدخان: ١٣]، أي:"والحال أنه قد أتاهم رسولٌ بيّن الرسالة، مؤيدٌ بالبينات الباهرة، والمعجزات القاهرة، ومع هذا لم يؤمنوا به ولم يتعبوه؟ ".

قال ابن كثير: أي:"وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والنذارة".

قال مقاتل:"يعني: محمدا ﷺ {مبين}، يعني: هو بين أمره".

قال الزمخشري:"{وَقَدْ جاءَهُمْ} ما هو أعظم وأدخل في وجوب الادّكار من كشف الدخان، وهو ما ظهر على رسول الله ﷺ من الآيات البينات من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات".

=

=

قوله تعالى: {ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ} [الدخان: ١٤]، أي:"ثم أعرضوا عنه وقالوا: علَّمه بشر أو الكهنة أو الشياطين، هو مجنون وليس برسول؟ ".

قال مجاهد:"تولوا عن محمد عليه الصلاة والسلام، وقالوا: معلم مجنون".

قال الزمخشري:"فلم يذكروا وتولوا عنه، وبهتوه بأن عداسا غلاما أعجميا لبعض ثقيف هو الذي علمه، ونسبوه إلى الجنون".

قال ابن كثير: أي:"ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه، بل كذبوه وقالوا: معلم مجنون. وهذا كقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} [الفجر: ٢٣، ٢٤]، وقوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ. وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ. وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ} [سبأ: ٥١- ٥٤] ".

قال مقاتل:"جاءهم بالهدى، {ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ}، يقول: ثم أعرضوا عن محمد ﷺ إلى الضلالة، {وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ} قال ذلك عقبة بن أبي معيط إن محمدا مجنون، وقالوا إنما يعلمه جبر غلام عامر ابن الحضرمي، وقالوا: لئن لم ينته جبر غلام عامر بن الحضرمي فأوعدوه: لنشترينه من سيده، ثم لنصلينه حتى ينظر هل ينفعه محمد أو يغني عنه شيئا".

ثم بين- سبحانه- جانبا من مظاهر فضله عليهم، ورحمته بهم، فقال: إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عائِدُونَ.

أى: إنا بفضلنا ورحمتنا كاشفو العذاب عنكم كشفا قليلا- أيها المشركون-، ولكنكم لم تقابلوا فضلنا عليكم، ورحمتنا بكم، بالشكر والطاعة بل قابلتم ذلك بالإصرار على الكفر، والثبات على الجحود.

=

=

فالمراد بقوله- تعالى- إِنَّكُمْ عائِدُونَ: عزمهم وإصرارهم على الاستمرار على الكفر، لأنهم لم يوجد منهم إيمان، حتى يتركوه ويعودوا إلى الكفر، وإنما الذي وجد منهم هو الوعد بالإيمان إذا انكشف عنهم العذاب، فلما انكشف عنهم، نقضوا عهودهم، واستمروا على كفرهم.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين الذين أخبر عنهم أنهم يستغيثون به من الدخان النازل والعذاب الحالّ بهم من الجهد، وأخبر عنهم أنهم يعاهدونه أنه إن كشف العذاب عنهم آمنوا، إنا كاشفوا الضرّ النازل بهم بالخصب الذي نحدثه لهم، إنكم أيها المشركون إذا كَشَفْتُ عنكم ما بكم من ضرّ لم تفوا بما تعدون وتعاهدون عليه ربكم من الإيمان، ولكنكم تعودون في ضلالتكم وغيكم، وما كنتم قبل أن يكشف عنكم".

قال الزمخشري:"أى ريثما نكشف عنكم العذاب تعودون إلى شرككم لا تلبثون غب الكشف على ما أنتم عليه من التضرع والابتهال".

قال السمعاني:"{نا كاشفوا العذاب}، أي: بدعاء النبي، والعذاب هو الدخان والقحط".

قال مقاتل:"فدعا النبي ﷺ فقال: اللهم اسقنا غيثا مغيثا عاما طبقا مطبقا غدقا ممرعا مريا عاجلا غير ريث نافعا غير ضار، فكشف الله- تعالى- عنهم العذاب، فذلك قوله: {إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ}، يعني: الجوع {قَلِيلًا} إلى يوم بدر، {إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} إلى الكفر فعادوا فانتقم الله منهم ببدر فقتلهم".

عن قتادة: "{إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلا}، يعني: الدخان".

قال ابن زيد:"قد فعل، كشف الدخان حين كان".

والآية تحتمل ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: المعنى: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى

=

=

ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله: {وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [المؤمنون: ٧٥]، وكقوله: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام: ٢٨]. وهذا قول ابن مسعود، وبه قال مقاتل.

قال ابن مسعود:"فكشف ثم عادوا في كفرهم، فأخذهم الله يوم بدر، قال الله تعالى: {يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون} [الدخان: ١٦] ".

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه "أن قريشا لما أبطئوا على النبي ﷺ بالإسلام، قال: «اللهم اكفنيهم بسبع كسبع يوسف» فأصابتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا العظام، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها مثل الدخان، قال الله: {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين} [الدخان: ١٠]، قال الله: {إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون} [الدخان: ١٥]، أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ وقد مضى الدخان، ومضت البطشة".

الثاني: أنكم عائدون إلى نار جهنم. قاله قتادة.

عن قتادة: "{إِنَّكُمْ عَائِدُونَ}، إلى عذاب الله". وفي رواية:"عائدون إلى النار".

الثالث: أن يكون المراد: إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: {إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس: ٩٨]، ولم يكن العذاب باشرهم، واتصل بهم بل كان قد انعقد سببه ووصوله عليهم، ولا يلزم أيضًا أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخبارًا عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا: {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا} [الأعراف: ٨٨، ٨٩]، وشعيب -عليه السلام- لم يكن قط

=

=

على ملتهم وطريقتهم. ذكره ابن كثير.

ثم هددهم- سبحانه- تهديدا ترتعد له القلوب فقال: يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ.

وقوله يَوْمَ منصوب بفعل مقدر. وقوله نَبْطِشُ من البطش بمعنى الأخذ بقوة وعنف. يقال: بطش فلان بفلان يبطش به، إذا نكل به تنكيلا شديدا.

أى: اذكر- أيها العاقل- لتعتبر وتتعظ يوم أن نأخذ هؤلاء الكافرين أخذ عزيز مقتدر، حيث ننتقم انتقاما يذلهم ويخزيهم.

وهذا البطش الشديد منا لهم سيكون جزءا منه في الدنيا، كانتقامنا منهم يوم بدر وسيكون أشده وأعظمه وأدومه عليهم ... يوم القيامة.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إنكم أيها المشركون إن كشفت عنكم العذاب النازل بكم، والضرّ الحالّ بكم، ثم عدتم في كفركم، ونقضتم عهدكم الذي عاهدتم ربكم، انتقمت منكم يوم أبطش بكم بطشتي الكبرى في عاجل الدنيا، فأهلككم، وكشف الله عنهم، فعادوا، فبطش بهم جلّ ثناؤه بطشته الكبرى في الدنيا، فأهلكهم قتلا بالسيف".

قال مقاتل:"فكانت البطش في المدينة يوم بدر أكثر مما أصابهم من الجوع بمكة، فذلك قوله: {إِنَّا مُنْتَقِمُونَ} بالقتل وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وعجل الله أرواحهم الى النار".

قال السمعاني: أي:"يوم القيامة، إنا منتقمون بالعقوبة من الكفار".

وفي تفسير قوله: {الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى} [الدخان:١٦]، ثلاثة أقوال:

أحدهما: القتل بالسيف يوم بدر، قاله ابن مسعود-في رواية-، وأُبي بن كعب، وابن عباس، ومسروق، ومجاهد، والضحاك، وأبو العالية،، وعطاء الخراساني، وابن زيد.

=

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧).

{وَلَقَدْ فَتَنَّا} بَلَوْنَا {قَبْلهمْ قَوْم فِرْعَوْن} مَعَهُ {وَجَاءَهُمْ رَسُول} هُوَ مُوسَى عليه السلام {كَرِيم} عَلَى الله تَعَالَى.

أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨).

{أَنْ} أَيْ بِأَنْ {أَدُّوا إِلَيَّ} مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنْ الْإِيمَان أَيْ أَظْهِرُوا إِيمَانكُمْ لِي يَا {عِبَاد الله إِنِّي لَكُمْ رَسُول أَمِين} عَلَى مَا أُرْسِلْت بِهِ.

وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩).

=

الثاني: عذاب جهنم يوم القيامة، قاله ابن مسعود -في واية أخرى-، وابن عباس، والحسن، وعكرمة.

قال الحسن: "إنّ يوم البطْشة الكُبرى يوم القيامة".

عن عكرمة، قال: "قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة".

قال إبراهيم: "مرّ بي عكرمة، فسألته عن البطشة الكبرى فقال: يوم القيامة؛ قال: قلت: إن عبد الله بن مسعود كان يقول: يوم بدر، وأخبرني من سأله بعد ذلك فقال: يوم بدر".

الثالث: أنها قيام الساعة لأنها خاتمة بطشاته في الدنيا. أفاده الماوري.

وفي الفرق بين النقمة والعقوبة ثلاثة وجوه:

أحدها: أن العقوبة بعد المعصية لأنها من العاقبة، والنقمة قد تكون قبلها، قاله ابن عيسى.

الثاني: أن العقوبة قد تكون في المعاصي، والنقمة قد تكون في خلقه لأجله.

الثالث: أن العقوبة ما تقدرت، والانتقام غير مقدر.

{وَأَنْ لَا تَعْلُوا} تتَجَبَّرُوا {عَلَى اللهِ} بِتَرْكِ طَاعَته {إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ} بُرْهَان {مُبِين} بَيِّن على رسالتي فتوعدوه بالرجم.

وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠).

فقال {وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون} بالحجارة.

وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١).

{وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي} تُصَدِّقُونِي {فَاعْتَزِلُونِ} فَاتْرُكُوا أَذَايَ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ.

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢).

{فَدَعَا رَبّه أَنَّ} أَيْ بِأَنَّ {هَؤُلَاءِ قَوْم مجرمون} مشركون.

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣).

فقال تعالى {فَأَسْرِ} بِقَطْعِ الْهَمْزَة وَوَصْلهَا {بِعِبَادِي} بَنِي إِسْرَائِيل {لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ} يَتَّبِعكُمْ فِرْعَوْن وَقَوْمه.

وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤).

{وَاتْرُكِ الْبَحْر} إذَا قَطَعْته أَنْتَ وَأَصْحَابك {رَهْوًا} سَاكِنًا مُنْفَرِجًا حَتَّى يَدْخُلهُ الْقِبْط {إِنَّهُمْ جُنْد مُغْرَقُونَ} فَاطْمَأَنَّ بِذَلِكَ فَأُغْرِقُوا.

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥).

{كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّات} بَسَاتِين {وَعُيُون} تَجْرِي.

وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦).

{وَزُرُوع وَمَقَام كَرِيم} مَجْلِس حَسَن.

وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧).

{وَنِعْمَة} مُتْعَة {كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ} نَاعِمِينَ.

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨).

{كَذَلِكَ} خَبَر مُبْتَدَأ أَيْ الْأَمْر {وَأَوْرَثْنَاهَا} أَيْ أَمْوَالهمْ {قَوْمًا آخَرِينَ} أَيْ بَنِي إِسْرَائِيل.

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩).

{فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاء وَالْأَرْض} بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ يَبْكِي عَلَيْهِمْ بِمَوْتِهِمْ مُصَلَّاهُمْ مِنْ الْأَرْض وَمُصْعَد عَمَلهمْ مِنْ السَّمَاء {وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ} مُؤَخَّرِينَ للتوبة.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠).

{وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيل مِنَ الْعَذَاب الْمُهِين} قَتْل الْأَبْنَاء وَاسْتِخْدَام النِّسَاء.

مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١).

{مِنْ فِرْعَوْن} قِيلَ بَدَل مِنْ الْعَذَاب بِتَقْدِيرِ مُضَاف أَيْ عَذَاب وَقِيلَ حَال مِنْ الْعَذَاب {إنه كان عاليا من المسرفين}.

وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢).

{وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ} أَيْ بَنِي إِسْرَائِيل {عَلَى عِلْم} مِنَّا بِحَالِهِمْ {عَلَى الْعَالَمِينَ} أَيْ عَالِمِي زَمَانهمْ أي العقلاء.

وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (٣٣).

{وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَات مَا فِيهِ بَلَاء مُبِين} نِعْمَة ظَاهِرَة مِنْ فَلْق الْبَحْر وَالْمَنّ وَالسَّلْوَى وغيرها[1].

---

(١) اللام في قوله- تعالى-: وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ.. موطئة للقسم. وقوله فَتَنَّا من الفتن بمعنى الاختبار والامتحان. يقال: فتنت الذهب بالنار، إذا أدخلته فيها لتعرف جودته من رداءته.

=

=

والمراد به هنا: إخبارهم وامتحانهم، بإرسال موسى- عليه السلام وبالتوسعة عليهم تارة، وبالتضييق عليهم تارة أخرى.

والمعنى: والله لقد اختبرنا فرعون وقومه من قبل أن نرسلك- أيها الرسول الكريم- إلى هؤلاء المشركين، وكان اختبارنا وامتحاننا لهم عن طريق إرسال نبينا موسى إليهم، وعن طريق ابتلائهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون إلى طاعتنا، ولكنهم لم يرجعوا فأهلكناهم.

فالآية الكريمة المقصود بها تسلية الرسول ﷺ عما أصابه من قومه، ببيان أن تكذيب الأقوام لرسلهم، حاصل من قبله، فعليه أن يتأسى بالرسل السابقين في صبرهم.

والمراد بالرسول الكريم في قوله:- تعالى-: وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ: موسى- عليه السلام، فقد أرسله- سبحانه- إلى فرعون وقومه، فبلغهم رسالة ربه، ولكنهم كذبوه وعصوه..

ووصف- سبحانه- نبيه موسى بالكرم، على سبيل التشريف له، والإعلاء من قدره، فقد كان- عليه السلام كليما لربه، ومطيعا لأمره، ومتحليا بأسمى الأخلاق وأفضلها.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ}.

عن قتادة:"{ولَقَدْ فَتَنّا} قال: ابتلينا".

قال الطبري:"يعني تعالى ذكره: ولقد اختبرنا وابتلينا يا محمد قبل مشركي قومك مثال هؤلاء قوم فرعون من القبط".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر".

قال مقاتل:"حتى ازدروه كما ازدرى أهل مكة النبي ﷺ لأنه ولد فيهم فازدروه

=

=

فكان النبي ﷺ فتنة لهم، كما كان موسى- صلى الله عليه- فتنة لفرعون وقومه، فقالت قريش: أنت أضعفنا وأقلنا حيلة فهذا حين ازدروه كما ازدروا موسى- عليه السلام- حين قالوا: {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا} [الشعراء: ١٨]، فكانت فتنة لهم من أجل ذلك ذكر فرعون دون الأمم".

قوله تعالى: {وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ} [الدخان:١٧]، أي:"وجاءهم رسول كريم، وهو موسى عليه السلام".

قال الطبري:"يقول: وجاءهم رسول من عندنا أرسلناه إليهم، وهو موسى بن عمران صلوات الله عليه.. ووصفه جل ثناؤه بالكرم، لأنه كان كريما عليه، رفيعا عنده مكانه، وقد يجوز أن يكون وصفه بذلك، لأنه كان في قومه شريفا وسيطا".

قال مقاتل:"يعني: الخلق، كان يتجاوز ويصفح، يعني: موسى حين سأل ربه أن يكشف عن أهل مصر الجراد والقمل".

قال ابن كثير:"يعني: موسى كليمه، عليه السلام".

عن قتادة، قوله: "{رَسُولٌ كَرِيمٌ}، قال: موسى عليه السلام".

وأَنْ في قوله- تعالى- أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ.. مفسرة لأن مجيء الرسول إليهم يتضمن معنى القول. وقوله: أَدُّوا إِلَيَّ بمعنى سلموا إلى، أو ضموا إلى ...

قوله: عِبادَ اللهِ مفعول به. والمراد بهم بنو إسرائيل.

والمعنى: جاء إلى فرعون وقومه رسول كريم، هو موسى- عليه السلام، فقال لهم: سلموا إلى بنى إسرائيل، وأطلقوهم من الذل والهوان، واتركوهم يعيشون أحرارا في هذه الدنيا.

ويؤيد هذا المعنى قوله- تعالى- في موضع آخر: فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ، فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ...

ويصح أن يكون المراد بقوله أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ.. بمعنى: أن استجيبوا لدعوتى،

=

=

والمراد بالعباد: ما يشمل بنى إسرائيل وغيرهم، ويكون لفظ عِبادَ اللهِ منصوب بحرف نداء محذوف.

وعليه يكون المعنى: أرسلنا إلى فرعون وقومه رسولا كريما، فجاء إليهم وقال لهم على سبيل النصح والإرشاد: يا عباد الله، إنى رسول الله إليكم، فاستمعوا إلى قولي، واتبعوا ما أدعوكم إليه من عبادة الله- تعالى- وحده، وترك عبادة غيره.

قال الآلوسى: قوله: أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ.. أى: أطلقوهم وسلموهم إلى، والمراد بهم بنو إسرائيل الذين كان فرعون يستعبدهم، والتعبير عنهم بعباد الله، للإشارة إلى أن استعباده إياهم ظلم منه لهم..

أو أدوا إلى حق الله- تعالى- من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله، على أن مفعول أَدُّوا محذوف، وعباد منادى، وهو عام لبنى إسرائيل والقبط والأداء بمعنى الفعل للطاعة- وقبول الدعوة..» ا.هـ.

وقوله- سبحانه-: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ تعليل لما تقدم. أى: استجيبوا لدعوتى، وأطيعوا أمرى، فإنى مرسل من الله- تعالى- إليكم، وأمين على الرسالة، لأنى لم أبدل شيئا مما كلفنى به ربي.

قوله تعالى: {أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ} .

قال مقاتل:"يقول: وخل سبيلهم فإنهم أحرار ولا تستعبدهم".

قال الزجاج:"أن أسلموا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ، يعني بني إسرائيل كما قال: {فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ} ، أي: أطلقهم من عَذَابِكَ، وجائز أن يكون {عِبَادَ اللهِ} مَنْصُوبـًا على النداء، فيكون المعنى أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ ما أمركم الله به يا عباد الله ".

قال ابن عباس:"يقول: اتبعوني إلى ما أدعوكم إليه من الحق".

قال مجاهد:"أرسلوا معي بني إسرائيل".

عن قتادة: {أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ} ، يعني به: بني إسرائيل، قال لفرعون: علام

=

تحبس هؤلاء القوم، قوما أحرارا اتخذتهم عبيدا، خلّ سبيلهم".
قال ابن زيد:"يقول: أرسل عباد الله معي، يعني بني إسرائيل، وقرأ: {فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ}، قال: ذلك قوله: {أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ}، قال: ردّهم إلينا".
قال القشيري:"يطالبهم بازالة الظلم عن بنى إسرائيل، وأن يستبصروا، واستنفرهم لله، وأظهر الحجّة من قبل الله".
قوله تعالى: {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} [الدخان:١٨]، أي:"إني لكم رسول أمين على وحيه ورسالته".
قال الطبري:"يقول: إني لكم أيها القوم رسول من الله أرسلني إليكم لا يدرككم بأسه على كفركم به، أمين على وحيه ورسالته التي أوعدنيها إليكم".
قال ابن كثير:"أي: مأمون على ما أبلغكموه".
قال مقاتل:"{أمين} فيما بيني وبين ربكم".
قال ابن عطية:"{رَسُولٌ أَمِينٌ}، معناه: على وحي الله تعالى أؤديه إلى عباده".
قال الكلبي: "أمين فيكم قبل الرسالة فكيف تتهموني اليوم".
وقوله- سبحانه-: وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ.. معطوف على قوله: أَنْ أَدُّوا.. وداخل في حيز القول.
أى: قال لهم: أرسلوا معى بنى إسرائيل، واستجيبوا لدعوتى، واحذروا أن تتجبروا أو تتكبروا على الله- تعالى-، بأن تستخفوا بوحيه أو تعرضوا عن رسوله ...
إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ أى: إنى آتيكم من عنده- تعالى- بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها، وببرهان ساطع يشهد بصدقى وأمانتى..
وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ أى: وإنى اعتصمت واستجرت بربي

=

وربكم من أن ترجمونى بالحجارة، أو من أن تلحقوا بي ما يؤذيني، وهذا الاعتصام بالله- تعالى- يجعلني لا أبالى بكم، ولا أتراجع عن تبليغ دعوته- سبحانه- بحال من الأحوال.

وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ أى: وقال لهم- أيضا- في ختام نصحه لهم: إنى لن أتراجع عن دعوتكم إلى الحق مهما وضعتم في طريقي من عقبات وعليكم أن تؤمنوا بي، فإن لم تؤمنوا بي. فكونوا بمعزل عنى بحيث تتركونى وشأنى حتى أبلغ رسالة ربي، فإنه لا موالاة ولا صلة بيني وبينكم، مادمتم مصرين على كفركم.

فأنت ترى أن موسى- عَلَيْهِ السَّلَامُ قد طلب من فرعون وقومه الاستجابة لدعوته، ونهاهم عن التكبر والغرور، وبين لهم أنه رسول أمين على وحى الله- تعالى-، وأنه معتصم بربه من كيدهم، وأن عليهم إذا لم يؤمنوا به أن يتركوه وشأنه، لكي يبلغ رسالة ربه، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر.

ولكن الإرشادات الحكيمة من موسى لفرعون وقومه، لم تجد أذنا صاغية، فإن الطغيان في كل زمان ومكان، لا يعجبه منطق الحق والعدل والمسالمة، ولكن الذي يعجبه هو التكبر في الأرض بغير الحق، وإيثار الغي على الرشد..

قوله تعالى: {وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللهِ} [الدخان: ١٩]، أي:"وألا تتكبروا على الله بتكذيب رسله".

قال ابن عباس:"يقول: لا تفتروا على الله".

قال قتادة:"أي: لا تبغوا على الله".

قال الطبري: يقول:"أن لا تطغوا وتبغوا على ربكم، فتكفروا به وتعصوه، فتخالفوا أمره".

قال مقاتل:"يعني: لا تعظموا على الله أن توحدوه".

=

=

قال ابن كثير:"أي: لا تستكبروا عن اتباع آياته، والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه، كقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠] ".

قال ابن عطية:"عبّر بالعلو عن الطغيان والعتو على الله تعالى وعلى شرعه وعلى رسوله".

قوله تعالى: {إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} [الدخان: ٢٠]، أي:"إني آتيكم ببرهان واضح على صدق رسالتي".

قال الطبري:"يقول: إني آتيكم بحجة على حقيقة ما أدعوكم إليه، وبرهان على صحته، مبين لمن تأملها وتدبرها أنها حجة لي على صحة ما أقول لكم".

قال مقاتل:"يعني: حجة بينة، وهي: اليد والعصا".

قال الزجاج:"أي: بِحِجةٍ وَاضحةٍ بَيِّنَةٍ تَدل على أني نبيٌّ".

قال ابن كثير:"أي: بحجة ظاهرة واضحة، وهي ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة".

قال قتادة:"{إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ}، أي: بعذر مبين".

قوله تعالى: {وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ} [الدخان: ٢١]، أي:"وإني استجرت بالله ربي وربكم أن تقتلوني رجمًا بالحجارة".

قال الطبري:"يقول: وإني اعتصمت بربي وربكم، واستجرت به منكم أن ترجمون".

قال ابن كثير:"أي: أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إليَّ بسوء من قول أو فعل".

قال ابن عطية:"كلام قاله موسى عليه السلام لخوف لحقه من فرعون وملئه و: عُذْتُ معناه: استجرت وتحرمت".

=

=

واختلف أهل التفسير في معنى «الرجم» هنا على ثلاثة أقوال:

أحدها: يعني: الرجم بالحجارة، قاله قتادة.

الثاني: أن تقتلوني، قاله السدي، ومقاتل، والزجاج.

الثالث: يعني: رجم القول، قاله ابن عباس، وأبو صالح.

قال أبو صالح:"الرجم: بالقول". وقال: "أن تقولوا هو ساحر". وفي رواية:"ان يقولوا ساحر أو كاهن أو شاعر".

قال ابن عطية:"الأول أظهر، لأنه أعيذ منه ولم يعذ من الآخر، بل قيل فيه عليه السلام وله".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما دلّ عليه ظاهر الكلام، وهو أن موسى عليه السلام استعاذ بالله من أن يرجُمه فرعون وقومه، والرجم قد يكون قولا باللسان، وفعلا باليد. والصواب أن يقال: استعاذ موسى بربه من كل معاني رجمهم الذي يصل منه إلى المرجوم أذًى ومكروه، شتما كان ذلك باللسان، أو رجما بالحجارة باليد".

قوله تعالى: {وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ} [الدخان: ٢١]، أي:"وإن لم تصدقوني على ما جئتكم به فخلُّوا سبيلي، وكفُّوا عن أذاي".

قال الطبري: يقول:"وإن أنتم أيها القوم لم تصدّقوني على ما جئتكم به من عند ربي، فاعتزلون: يقول: فخلوا سبيلي غير مرجوم باللسان ولا باليد".

قال مقاتل:"يقول: وإن لم تصدقوني- يعني: فرعون وحده- {فاعتزلون}، فلا تقتلون".

قال الفراء:"يَقُولُ: فاتركون لا عليّ، ولا لي".

قال الزجاج:"أي: إن لم تؤمنوا لي فلا تكونوا عليَّ ولا مَعِي".

قال ابن قتيبة:"أي: دعوني كَفَافًا لا عليَّ ولا لي".

=

=

قال ابن كثير:"أي: فلا تتعرضوا إليّ، ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا".

قال قتادة:"أي: فخلُّوا سبيلي".

ثم إن موسى- عليه السلام يلجأ إلى ربه يطلب منه العون والنصرة فيقول- كما حكى القرآن عنه-: فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ.

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف، يفهم من السياق، والتقدير: وبعد أن أمر موسى فرعون وقومه بإخلاص العبادة لله- تعالى- ونهاهم عن الإشراك به.. بعد كل ذلك أصروا على تكذيبه، وأعرضوا عن دعوته، وآذوه بشتى ألوان الأذى فدعا ربه دعاء حارا قال فيه:

يا رب إن هؤلاء القوم- وهم فرعون وشيعته- قوم راسخون في الكفر والإجرام، فأنزل بهم عقابك الذي يستحقونه.

قال الطبري: يقول:"فدعا موسى ربه إذ كذّبوه ولم يؤمنوا به، ولم يؤدّ إليه عباد الله، وهموا بقتله بأن فرعون وقومه {قَوْمٌ مُجْرِمُونَ} يعني: أنهم مشركون بالله كافرون".

قال مقاتل:"يعني: أهل مصر، {قوم مجرمون}، فلا يؤمنون".

قال الزمخشري:"قيل: كان دعاؤه: اللهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم: وقيل هو قوله رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وإنما ذكر الله تعالى السبب الذي استوجبوا به الهلاك، وهو كونهم مجرمين".

قال ابن كثير:"فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تعالى: {وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا

=

=

حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا} [يونس: ٨٨، ٨٩]. وهكذا قال هاهنا: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ} فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه".

وقرئ: «إنّ هؤلاء»، بالكسر على إضمار القول، أى: فدعا ربه فقال: إن هؤلاء.

ثم حكت السورة الكريمة بعد ذلك ما يدل على أن الله- تعالى- قد أجاب دعاء موسى- عليه السلام، وأنه- سبحانه- قد أرشده إلى ما يفعله فقال: فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ.

قال الجمل: «قوله: فَأَسْرِ قرأ الجمهور بقطع الهمزة وقرأ نافع وابن كثير بوصلها، وهما لغتان جيدتان: الأولى من أسريت والثانية من سريت. قال- تعالى- سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ وقال: وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ والإسراء السير ليلا، فذكر الليل- هنا- تأكيد له بغير اللفظ- إذ الإسراء والسرى: السير ليلا» ا.هـ.

والكلام على تقدير القول، أى: فقال الله- تعالى- على سبيل التعليم والإرشاد: سر يا موسى ببني إسرائيل وبمن آمن معك من القبط من مصر، بقطع من الليل إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ من جهة فرعون وملئه، متى علموا بخروجكم.

قوله تعالى: {فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا} [الدخان:٢٣]، أي:"فأَسْر-يا موسى- بعبادي-الذين صَدَّقوك، وآمنوا بك، واتبعوك، دون الذين كذبوك منهم- ليلا".

قال القرطبي:"أي: فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أن أسر بعبادي، أي: بمن آمن بالله من بني إسرائيل. {ليلا}، أي: قبل الصباح".

قال الطبري:"فِي الكلام محذوف استغني بدلالة ما ذُكر عليه منه، وهو: فأجابه ربه بأن قال له: فأسر إذ كان الأمر كذلك بعبادي، وهم بنو إسرائيل، وإنما معنى الكلام: فأسر بعبادي الذين صدّقوك وآمنوا بك، واتبعوك دون الذين كذّبوك

=

=

منهم، وأبَوْا قبول ما جئتهم به من النصيحة منك، وكان الذين كانوا بهذه الصِّفَة يومئذ بني إسرائيل. وقال: {فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلا}، لأن معنى ذلك: سر بهم بليل قبل الصباح".

قرأ أهل الحجاز: «فاسر» بوصل الألف. وكذلك ابن كثير، من: «سرى». وقرأ الباقون: «فأسر»، بالقطع، من: «أسرى».

قوله تعالى: {إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ} [الدخان:٢٣]، أي:"إنكم متبعون من فرعون وجنوده فتنجون، ويغرق فرعون وجنوده".

قال الطبري:"يقول: إن فرعون وقومه من القبط متبعوكم إذا شخصتم عن بلدهم وأرضهم في آثاركم".

قال مقاتل:"يقول: يتبعكم فرعون وقومه".

قال القرطبي:"أمر موسى عليه السلام بالخروج ليلا. وسير الليل في الغالب إنما يكون عن خوف، والخوف يكون بوجهين: إما من العدو فيتخذ الليل سترا مسدلا، فهو من أستار الله تعالى. وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان بحر أو جدب، فيتخذ السرى مصلحة من ذلك. وكان النبي ﷺ يسري ويدلج ويترفق ويستعجل، بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة. وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في السنة فبادروا بها نقيها» ".

قوله تعالى: (وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً)

أي: ومتى وصلت إلى البحر- أي: البحر الأحمر- فاضربه بعصاك، ينفلق- بإذن الله- فسر فيه أنت ومن معك، واتركه ساكنا مفتوحا على حاله، فإذا ما سار خلفك فرعون وجنوده أغرقناهم فيه.

يقال: رها البحر يرهو، إذا سكن. وجاءت الخيل رهوا، أي: ساكنة، ويقال-

=

=

أيضا-:

رها الرجل رهوا، إذا فتح بين رجليه وفرق بينهما، وهو حال من البحر.

ا.هـ.

قال الطبري:"يقول: وإذا قطعت البحر أنت وأصحابُك، فاتركه ساكنا على حاله التي كان عليها حين دخلته. وقيل: إن الله تعالى ذكره قال لموسى هذا القول بعد ما قطع البحر ببني إسرائيل فإذ كان ذلك كذلك، ففي الكلام محذوف، وهو: فسرَى موسى بعبادي ليلا وقطع بهم البحر، فقلنا له بعد ما قطعه، وأراد ردّ البحر إلى هيئته التي كان عليها قبل انفلاقه: اتركْه رَهْوًا".

قال مقاتل:"وذلك أن بني إسرائيل لما قطعوا البحر قالوا لموسى- صلى الله عليه- فرق لنا البحر كما كان فإنا نخشى أن يقطع فرعون وقومه آثارنا فأراد موسى- عليه السلام- أن يفعل ذلك كان الله- تعالى- أوحى إلى البحر أن يطيع موسى- عليه السلام- فقال الله لموسى: «واترك البحر رهوا» يعني صفوفا، ويقال ساكنا".

قال ابن كثير:"وذلك أن موسى، عليه السلام، لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلا بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم. فأمره الله أن يتركه على حاله ساكنًا".

قال قتادة:"لما خرج آخر بني إسرائيل أراد نبي الله ﷺ أن يضرب البحر بعصاه، حتى يعود كما كان مخافة آل فرعون أن يدركوهم، فقيل له: {وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ} ".

قال قتادة:"لما قطع البحر، عطف ليضرب البحر بعصاه ليلتئم، وخاف أن يتبعه فرعون وجنوده، فقيل له: {وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا} كما هو، {إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُون} ".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا} [الدخان:٢٤]، وجوه:

=

=

أحدها: سمتـًا، قاله ابن عباس -في رواية-.

الثـاني: طريقـًا، أي: الطريـق بـين المـاء. قالـه كعـب، وابـن عبـاس -في روايـة-، والحسن.

قال ابن عباس:"الرهو: أن يترك كما كان، فإنهم لن يخلُصوا من ورائه".

وعن محمد بن كعب القرظي:"طريقا مفتوحا".

قال الراغب: «رهـوا»: أي:"سـعة مـن الطريـق، ومنـه: الرهـاء للمفـازة المستوية، ويقال لكل جوبة مستوية يجتمع فيها الماء: رهو، ومنه قيـل: «لا شـفعة في رهـو» ".

الثالث: طريقا يَبَسا، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، وابن أبي نجيح.

قال عكرمة:"يابسا كهيئته بعد أن ضربه، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يـدخل آخرهم".

وفي رواية قال مجاهد:"كهيئته وامضه".

قال قتادة:"كما هو طريقا يابسا".

الرابع: جددا. قاله عكرمة -أيضا-.

الخامس: سهلاً، قاله ابن عباس أيضا، والربيع، وابن زيد.

قال ابن عباس:"يقال: الرهو: السهل".

السادس: دَمثا، قاله ابن عباس -في رواية-، والضحاك (٢٠).

وروي عن الضحاك ايضا، قال:"سهلا دمثا". وروي عن الحسن مثله.

قـال السـمين الحلبـي:"قيـل: رهـوًا، أي: دمثًـا سـهلاً لـيس برمـلٍ ولا حـزن، وفي الحديث، وقد سئل عن غطفان فقال: «رهوة تنبع ماء» ".

السابع: منفرجـًا، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"طريقا منفرجا".

=

=

وقال عطاء الخراساني:"يابسا منفرجا".

قال تاج القراء: أي:"منفرجـاً واسعـًا، من قولهم: امراة زهْوَى".

قال الأصمعي: مَرَّ [جمل] فالج بأعرابي، فقال: سبحان الله رهو بين سنامين، أي: فجوة. فقال: رهى ما بين رجليه، أي: فتح".

الثامن: ساكنـًا، أي: كما جزته، قاله ابن عباس، ومجاهد-في رواية-، وقتادة، والكلبي، والفراء، وابو عبيدة، وابن قتيبة، والأخفش، وقطرب، والنحاس (٢٠)، وحكاه الزجاج عن اهل اللغة.

قال أبو سعيد: «الرهو»-في اللغة-: "ما اطمأن وارتفع ما حوله".

قال ابن عطية:"وهذا القول هو الذي تؤيده اللغة، فإن العيش الواهي هو الذي هو في خفض ودعة وسكون".

ومنه قول القطامي:

يمشين رهواً فلا الأعجاز خاذلةٌ... ولا الصدور على الأعجاز تتكل

وقول الشاعر:

كأَنَّما أَهْلُ حُجْرٍ يَنْظُرُونَ مَتَى... يَرَوْنَنِي خارِجا طَيْرٌ يَنَادِيد

طَيرٌ رأَتْ بازِيا نَضْحُ الدّماءِ بِهِ... وأُمُّهُ خَرَجَتْ رَهْوًا إلى عِيد

يعني: عليها سكون.

وقال بشر بن أبى خازم:

فإن أهلك عمير فربّ زحف... يشبّه نقعه رهوا ضبابا

قال أبو عبيدة:"يقال: أره على نفسك. أي: ارفق بها ولا تخرق. يقال: عيش راه".

قال ابن عرفة: وهما [أي: السكون والإنفراج] يرجعان إلى معنى واحد وإن اختلف لفظاهما، لأنه إذا سكن جريه انفرج. وكذلك كان البحر يسكن جريه

=

=

وانفرج لموسى عليه السلام".

قال النحاس:"هذه الأقوال متقاربة"، "ومعنى «رهوا» أي: ساكنا حتّى يحصلوا فيه وهو ساكن ولا ينفروا منه".

قال الواحدي:"وكل هذا من نعت الطريق الذي أظهره الله في البحر، وكأن ذلك الطريق يجمع هذه الأوصاف".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال معناه: اتركه على هيئته كما هو على الحال التي كان عليها حين سلَكْته، وذلك أن الرهو في كلام العرب: السكون".

قال ابن عطية:"فقيل لموسى عليه السلام: اترك البحر ساكنا على حاله من الانفراق ليقضي الله أمرا كان مفعولا. والرهو: من أسماء الكركي الطائر، ولا مدخل له في تفسير هذه الآية، ويشبه عندي أن سمي رهوا لسكونه، وأنه أبدا على تماهل".

قال الرازي: «وفي لفظ رَهْواً قولان:

أحدهما: أنه الساكن، يقال: عيش راه، إذا كان خافضا وادعا ساكنا ...

والثاني: أن الرهو هو الفرجة الواسعة، أى: ذا رهو، أى: ذا فرجة حتى يدخل فيها فرعون وقومه فيغرقوا.. وإنما أخبره- سبحانه- بذلك حتى يبقى فارغ القلب من شرهم وإيذائهم».

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ} [الدخان:٢٤]، أي:"إن فرعون وجنوده مغرقون في البحر".

قال مقاتل:"{إنهم} إن فرعون وقومه، {جند مغرقو}، فأغرقهم الله في نهر مصر وكان عرضه يومئذ فرسخين".

قال الواحدي:"أخبر الله تعالى موسى أنه يغرقهم ليطمئن قلبه في ترك البحر كما جاوزه".

=

=

قال الشوكاني:"أخبر سبحانه موسى بذلك ليسكن قلبه ويطمئن جأشه".

قال ابن كثير:"بشره بأنهم جند مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دركًا ولا يخشى".

فقوله: إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ تعليل للأمر بتركه رهوا، أى: اترك البحر على حاله، فإن أعداءك سيغرقون فيه إغراقا يدمرهم ويهلكهم.

ثم بين- سبحانه- سوء مآلهم فقال: كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وكَمْ هنا خبرية للتكثير والتهويل، أى: ما أكثر ما ترك هؤلاء المغرقون خلفهم من بساتين ناضرة، وعيون يخرج منها الماء النمير..

وَزُرُوعٍ كثيرة متنوعة وَمَقامٍ كَرِيمٍ أى: ومحافل ومنازل كانت مزينة بألوان من الزينة والزخرفة..

وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ أى: وتنعم وترفه كانوا فيه يتلذذون، بما بين أيديهم من رغد العيش. وكثرة الفاكهة.

والنعمة- بفتح النون- بمعنى التنعم والتلذذ، والنعمة- بالكسر- المنة والإنعام بالشيء وتطلق على الجنس الصادق بالقليل والكثير.

قوله تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} [الدخان: ٢٥]، أي:"كم ترك فرعون وقومه بعد مهلكهم وإغراق الله إياهم من بساتين وجنات ناضرة، وعيون من الماء جارية".

قال الطبري: يقول:"كم ترك فرعون وقومه من القبط بعد مهلكهم وتغريق الله إياهم من بساتين وأشجار، ومنابع ما كان ينفجر في جنانهم".

قوله تعالى: {وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} [الدخان: ٢٦]، أي:"ومزارع عديدة فيها أنواع المزروعات ومنازل حسنة".

قال الطبري: يقول:"وزروع قائمة في مزارعهم، وموضع كانوا يقومونه شريف كريم".

=

=

وفي قوله تعالى: {وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} [الدخان: ٢٦]، أقوال:

أحدها: أنها المنابر، قاله ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد.

قال عبد الله بن عمرو:"كان بها ألف منبر".

الثاني: المساكن الحسنة، قاله أبو عمرو، والسدي، ويحيى بن سلام، ومقاتل.

الثالث: مجالس. قاله أبو عبيدة، وأنشد قول عبّاس بن مرداس:

فأَيِّي ما وأَيُّكَ كانَ شَرًّا... فقِيدَ إلى المَقَامَة لا يَرَاها

يدعو عليه بالعمى، يقول: من كان منا شرًّا أعماه الله في الدنيا فلا يبصر مجلسه، وقيل: مات على عماه فيقاد إلى موضع إقامة الناس في العرصات، و «المُقامة»: بفتح الميم وضمها: المجلس ومكان اجتماع الناس.

الرابع: أنه مرابط الخيل لأنها أكرم مذخور لعدة وزينة. أفاده الماوردي.

الخامس: أن «المقام الكريم» هو: «الفَيُّوم». قاله ابن لهيعة.

وفي «الكريم»، ثلاثة أوجه:

أحدها: هو الحسن، قاله سعيد بن جبير، وقتادة.

الثاني: هو المعطي لديه كما يعطي الرجل الكريم صلته، قاله ابن عيسى.

الثالث: أنه كريم لكرم من فيه، قاله ابن بحر.

قال ابن كثير:"{وَمَقَامٍ كَرِيمٍ}: هي المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة".

قال النحاس:"المقام في-اللغة-: الموضع من قولك: قام يقوم".

قوله تعالى: {وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ} [الدخان: ٢٧]، أي:"وعيشة كانوا فيها متنعمين مترفين".

قال مقاتل:"يعني: أرض مصر معجبين".

عن قتادة: "{وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ}: ناعمين، قال: إي والله، أخرجه الله من جناته وعيونه وزروعه حتى ورّطه في البحر".

=

=

وقوله: كَذلِكَ في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك.

قال الجمل ما ملخصه: «قوله: كَذلِكَ.. خبر مبتدأ محذوف. أي: الأمر كذلك. فالوقف يكون على هذا اللفظ، وتكون الجملة اعتراضية لتقرير وتوكيد ما قبلها ... ويبتدأ بقوله: وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ وهو معطوف على كَمْ تَرَكُوا.. أي: تركوا أمورا كثيرة وأورثناها قوما آخرين، وهم بنو إسرائيل».

وقال الزمخشري: الكاف في محل نصب، على معنى: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ ليسوا منهم.

فعلى هذا يكون قوله وَأَوْرَثْناها معطوفا على تلك الجملة الناصبة للكاف، فلا يجوز الوقف على كَذلِكَ حينئذ ا.هـ.

وقال الآلوسى: والمراد بالقوم الآخرين: بنو إسرائيل، وهم مغايرون للقبط جنسا ودينا. ويفسر ذلك قوله- تعالى- في سورة الشعراء: كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ وهو ظاهر في أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر، بعد هلاك فرعون وملكوها.

وقيل: المراد بالقوم الآخرين غير بنى إسرائيل ممن ملك مصر بعد هلاك فرعون، لأنه لم يرد في مشهور التواريخ أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر، ولا أنهم ملكوها قط.

وما في سورة الشعراء من باب قوله- تعالى-: وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ أو من باب: عندي درهم ونصفه. فليس المراد خصوص ما تركوه، بل نوعه وما يشبهه.

وقيل: المراد من إيراثها إياهم: تمكينهم من التصرف فيها، ولا يتوقف ذلك على رجوعهم إلى مصر، كما كانوا فيها أولا .. ا.هـ

والآية صريحة في توريث بنى إسرائيل للجنات والعيون.. التي خلفها فرعون

=

=

وقومه بعد غرقهم، بمعنى أنهم عادوا إلى مصر بعد غرق فرعون ومن معه، ولكن عودتهم كانت لفترة معينة، خرجوا بعدها إلى الأرض المقدسة التي دعاهم موسى- عليه السلام لدخولها كما جاء في قوله- تعالى-: يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ. وَلا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ ...

قوله تعالى: {كَذَلِكَ}.

قال الطبري: يقول:"هكذا كما وصفت لكم أيها الناس فعلنا بهؤلاء الذي ذكرتُ لكم أمرهم، الذين كذّبوا رسولنا موسى ﷺ".

قال مقاتل:"يقول: هكذا فعلنا بهم في الخروج من مصر".

قال الزجاج:"المعنى: الأمر كذلكْ، موضع {كذلك} رفع على خبر الابتداء المضمَر".

قوله تعالى: {وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ} [الدخان:٢٨]، أي:"وأورثنا تلك النعم من بعد فرعون وقومه قومًا آخرين خلفوهم من بني إسرائيل".

قال الطبري: يقول:"وأورثنا جناتهم وعيونهم وزروعهم ومقَاماتهم وما كانوا فيه من النعمة عنهم قوما آخرين بعد مهلكهم، وقيل: عُنِي بالقوم الآخرين بنو إسرائيل".

قال مقاتل:": {وَأَوْرَثْنَاهَا}، يعني: أرض مصر، {قَوْمًا آخَرِينَ}، يعني: بني إسرائيل فردهم الله إليها بعد الخروج منها".

عن قتادة، قوله: "{كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ} - يعني: بني إسرائيل".

قال الحسن:"رجعوا إلى مصر بعدما أهلك الله فرعون وقومه".

قال ابن عطية:"وسماها: وراثة، من حيث كانت أشياء أناس وصلت إلى قوم آخرين من بعد موت الأولين، وهذه حقيقة الميراث في اللغة وربطها الشرع بالنسب وغيره من أسباب الميراث، والآخرون من ملك مصر بعد القبط. وقال

=

=

قتادة: القوم الآخرون، هم بنو إسرائيل، وهذا ضعيف، لأنه لم يرو أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في شيء من ذلك الزمان ولا ملكوها قط، إلا أن يريد قتادة أنهم ورثوا نوعها في بلاد الشام، وقد ذكر الثعلبي عن الحسن أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون".

ثم بين- سبحانه- أن فرعون وقومه بعد أن غرقوا، لم يحزن لهلاكهم أحد، فقال:

(فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ).

أى: أن هؤلاء المغرقين، الذين كانوا ملء السمع والبصر، وكانوا يذلون غيرهم، وكانوا يملكون الجنات والعيون ... هؤلاء الطغاة، لم يحزن لهلاكهم أحد من أهل السموات أو أهل الأرض، ولم يؤخر عذابهم لوقت آخر في الدنيا أو في الآخرة، بل نزل بهم الغرق والدمار بدون تأخير أو تسويف..

فالمقصود من الآية الكريمة بيان هوان منزلة هؤلاء المغرقين، وتفاهة شأنهم، وعدم أسف أحد على غرقهم، لأنهم كانوا ممقوتين من كل عاقل..

قوله تعالى: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ}.

قال الطبري: يقول:"فما بكت على هؤلاء الذين غرّقهم الله في البحر، وهم فرعون وقومه، السماء والأرض".

قال ابن كثير:"أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم".

قال ابن عطية:"نفت هذه الآية أن تكون السماء والأرض بكت على قوم فرعون، فاقتضى أن للسماء والأرض بكاء".

وفي قوله تعالى: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ} [الدخان:٢٩]، وجوه من التفسير:

=

=

أحدها: فما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض. وهذا قول الحسن.

وعلى هذا القول: أقام السماء والأرض مقام أهلهما، كما قال تعالى: {وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ} [يوسف: ٨٢]، أراد أهل القرية، وقال: {حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها} [محمد: ٤]، أي: يضع أهل الحرب السّلاح.

قال النحاس:"العرب إذا عظمت هلاك الإنسان قالت: بكت عليه السماء وأظلمت له الشمس على التمثيل، كما قال:

والشمس طالعة ليست بكاسفة.... تبكي عليك نجوم الليل والقمرا".

الثاني: أن السماء والأرض تبكيان على المؤمن أربعين صباحًا؛ قاله ابن عباس، ومجاهد.

وقال مجاهد:"حُدثت أن المؤمن إذا مات بكت عليه الأرض أربعين صباحا".

قال أبو يحيى: "فقلت له: أتبكي الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي على عبد، كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل؟ ".

الثالث: أنه يبكي عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء، قاله علي- كرم الله وجهه-، وابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة.

قال سعيد بن جُبير: "أتى ابن عباس رجل، فقال: يا أبا عباس أرأيت قول الله تبارك وتعالى: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ}، فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي

كان يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه، بكى عليه؛ وإذا فقده مُصَلاه من الأرض التي كان يصلي فيها، ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في

=

=

الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى السماء منهم خير، قال: فلم تبك عليهم السماء والأرض".

وعن ابن عباس، قوله:"{فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ}... الآية، قال: ذلك أنه ليس على الأرض مؤمن يموت إلا بكى عليه ما كان يصلي فيه من المساجد حين يفقده، وإلا بكى عليه من السماء الموضعُ الذي كان يرفع منه كلامه، فذلك لأهل معصيته: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ}، لأنهما يبكيان على أولياء الله".

وروي عن سعيد بن جبير، قال:"إن بقاع الأرض التي كان يصعد عمله منها إلى السماء تبكي عليه بعد موته، يعني: المؤمن".

وقال الضحاك:"لا تبكي السماء والأرض على الكافر، وتبكي على المؤمن الصالح معالمُه من الأرض ومقرُّ عمله من السماء".

وقال قتادة:"بقاع المؤمن التي كان يصلي عليها من الأرض تبكي عليه إذا مات، وبقاعه من السماء التي كان يرفع فيها عمله".

وقال مقاتل:"وذلك أن المؤمن إذا مات بكى عليه معالم سجوده من الأرض، ومصعد عمله من السماء أربعين يوما وليلة، ويبكيان على الأنبياء ثمانين يوما وليلة، ولا يبكيان على الكافر".

الرابع: ما روي عن أنس بن مالك. قال: قال رسول الله-ﷺ-: «"ما من عبد إلا وله في السماء بابان باب يصعد منه عمله، وباب ينزل عليه منه رزقه فإذا مات فقداه وبكيا عليه، وتلا هذه الآية: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ}، وذكر أنهم لم يكونوا يعملون على وجه الأرض عملا صالحا يبكى عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح، فتفقدهم فتبكي عليهم".

=

=

وفي رواية عن شريح بن عبيد الحضرمي، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، ألا لا غربة على المؤمن، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ}، ثم قال: «إِنَّهُما لا يَبْكِيانِ على الكافر» ".

وفي بكاء السماء والأرض ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه كالمعروف من بكاء الحيوان. حكاه الماوردي وقال:"ويشبه أن يكون قول مجاهد".

الثاني: أنه حمرة أطرافها، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وإبراهيم، وعطاء، والسدي.

عن عبيد المكتب عن إبراهيم- رضي الله عنه- قال: "ما بكت السماء منذ كانت الدنيا، إلا على اثنين قيل لعبيد: أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه وحيث يصعد عمله. قال: وتدري ما بكاء السماء؟ قال لا. قال: تحمر وتصير وردة كالدهان، إن يحيى بن زكريا لما قتل، احمرت السماء وقطرت دما، وإن حسين بن علي يوم قتل احمرت السماء".

وروي عن السديّ قال: "لما قتل الحسين بن عليّ رضوان الله عليهما بكت السماء عليه، وبكاؤها حمرتها".

وعن محمد بن سيرين. قال:"أخبرونا إن الحمرة التي مع الشفق لم تكن، حتى قتل الحسين رضي الله عنه".

قال ابن كثير:"وذكروا أيضًا في مقتل الحسين أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم عَبِيط، وأنه كسفت الشمس، واحمر الأفق، وسقطت حجارة. وفي كل من ذلك نظر، والظاهر أنه من سُخْف الشيعة وكذبهم، ليعظموا الأمر- ولا شك أنه عظيم- ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه، وقد وقع ما هو أعظم من

=

=

ذلك- قتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ولم يقع شيء مما ذكروه، فإنه قد قتل أبوه علي بن أبي طالب، وهو أفضل منه بالإجماع ولم يقع شيء من ذلك، وعثمان بن عفان قتل محصورًا مظلومًا، ولم يكن شيء من ذلك. وعمر بن الخطاب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قتل في المحراب في صلاة الصبح، وكأن المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك، ولم يكن

شيء من ذلك. وهذا رسول الله ﷺ وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة يوم مات لم يكن شيء مما ذكروه. ويوم مات إبراهيم ابن النبي ﷺ خسفت الشمس فقال الناس: الشمس خسفت لموت إبراهيم، فصلى بهم رسول الله ﷺ صلاة الكسوف، وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ".

الثالث: أنها أمارة تظهر منها تدل على حزن وأسف. حكاه الماوردي.

قال ابن عطية:"والمعنى الجيد في الآية: أنها استعارة باهية فصيحة تتضمن تحقير أمرهم، وأنهم لم يتغير عن هلاكهم شيء، وهذا نحو قوله تعالى: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ} [إبراهيم: ٤٦] على قراءة من قرأ: «لتزول» بكسر اللام ونصب الفعل وجعل {إِنْ} [إبراهيم: ٤٦] نافية، ومثل هذا المعنى قول النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا ينتطح فيها عنزان»، فإنه يتضمن التحقير، لكن هذه الألفاظ هي بحسب ما قيلت فيه، وهو قتل المرأة الكافرة التي كانت تؤذي النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ. وعظم قصة فرعون وقومه يجيء بحسبها جمال الوصف وبهاء العبارة في قوله: فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ ومن نحو هذا أن يعكس قول جرير:

لَمّا أتى خبرُ الزُّبَير تهدّمت... سورُ المدينة والجبالُ الْخُشّع

فيقال في تحقير: مات فلان فما خشعت الجبال".

قوله تعالى: {وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ} [الدخان:٢٩]، أي:"وما كانوا مؤخَّرين عن

=

العقوبة التي حلَّت بهم".

قال الطبري:"يقول: وما كانوا مؤخرين بالعقوبة التي حلَّت بهم، ولكنهم عوجلوا بها إذ أسخطوا ربهم ﷻ عليهم".

قال مقاتل:"لم يناظروا بعد الآيات التسع حتى عذبوا بالغرق".

قال ابن كثير:"استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم".

عن السدي: {مُنْظَرِينَ} " بمنظرين من ان يعذبوا".

ثم بين- سبحانه- جانبا من نعمه على بنى إسرائيل فقال: وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ.

أى: والله لقد نجينا- بفضلنا ورحمتنا- بنى إسرائيل من العذاب المهين، الذي كان ينزله بهم أعداؤهم، كقتلهم للذكور، واستبقائهم للإناث..

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولقد نجَّينا بني إسرائيل من العذاب الذي كان فرعون وقومه يعذّبونَهُم به، المهين يعني المذلّ لهم".

قال الواحدي:"يعني: قتل الأبناء، واستخدام النساء، والتعب في العمل".

قال ابن كثير:"يمتن عليهم تعالى بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة".

عن قتادة:" {وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ} بقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم".

قال الماتريدي:" {العذاب الْمُهِينِ} الذي نزل بفرعون وقومه، وهو الغرق في البحر، أغرق أولئك ونجى هؤلاء، ويحتمل أن يكون المراد: أنه نجاهم من العذاب الذي كانوا يعذبون؛ من نحو القتل والاستخدام والاستعباد وأنواع العذاب الذي كانوا يعذبون هم ما داموا بين أظهرهم وفي أيديهم، فنجاهم من

=

ذلك؛ حيث أخرجهم من بين أيديهم- والله اعلم- وهو أشبه؛ لما قال: {وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ} ".

وقوله: مِنْ فِرْعَوْنَ بدل من العذاب على حذف المضاف، والتقدير: من عذاب فرعون.. أو على المبالغة كأن فرعون نفس العذاب، لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم.

ثم بين- سبحانه- حال فرعون فقال: إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ أى: نجيناهم من فرعون الذي كان متكبرا متجبرا، ومن المسرفين في فعل الشرور، وفي ارتكاب القبائح..

قوله تعالى: {مِنْ فِرْعَوْنَ} [الدخان:٣١]، أي:"من العذاب من فرعون".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب من فرعون، فقوله {مِنْ فِرْعَوْنَ} مكرّرة على قوله {مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ} مبدلة من الأولى".

عن ابن إسحاق: "أن اسمه الوليد بن مُصعب بن الريان".

قال محمد بن إسحاق:"عن ابن إسحاق قال: لم يكن منهم فرعون أعتى على الله، ولا أعظم قولا، ولا أطول عمرا في ملكه منه، وكان اسمه فيما ذكر لي: الوليد بن مصعب".

عن الحسن، قال: "كان فرعون علجا من همذان".

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ} [الدخان:٣١]، أي:"إنه كان جبارًا من المشركين، مسرفًا في العلو والتكبر على عباد الله".

قال الطبري: يقول:"إنه كان جبارا مستعليًا مستكبراً على ربه، من المتجاوزين ما ليس لهم تجاوزه. وإنما يعني جل ثناؤه أنه كان ذا اعتداء في كفره، واستكبار على ربه جلّ ثناؤه".

قال ابن كثير:"أي: مستكبراً جبارًا عنيدًا، كقوله: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ

=

=

وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا} [القصص: ٤]، وقوله: {فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ} [المؤمنون: ٤٦]، وقوله {فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ} [العنكبوت: ٣٩]، فكان فرعون سِرفًا في أمره، سخيف الرأي على نفسه".

قال الماتريدي:"{عَالِيًا}، أي: غالبًا عليهم، قاهرًا لهم بأنواع القهر الذي كان يقهرهم".

عن ابن عباس، في قوله: {مِنَ الْمُسْرِفِينَ}، قال: "من المشركين".

وعن الضحاك قال: "من الفتّاكين".

قال ابن أبي زمنين:"أي: المتكبرين".

قال السمعاني:"أي: جبارا متكبرا من المشركين".

قال الواحدي:"كان جبارا عاصيا من المشركين، والعالي في الإحسان صفة مدح، والعالي في الإساءة صفة ذم".

ثم بين- سبحانه- جانبا آخر من إكرامه لبنى إسرائيل فقال: وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ.

والاختيار: الاصطفاء على سبيل التشريف والتكريم، أى: ولقد اصطفينا بنى إسرائيل على عالمي زمانهم، ونحن عالمون بذلك علما اقتضته حكمتنا ورحمتنا.

فقوله عَلى عِلْمٍ في موضع الحال من الفاعل، والمراد بالعالمين: أهل زمانهم المعاصرين لهم، بدليل قوله- تعالى- في الأمة الإسلامية: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...

وهذا الاصطفاء والاختيار، إنما مرده إلى من يعمل منهم عملا صالحا، أما الذين لم يعملوا ذلك فلا مزية لهم ولا فضل، ولذا نجد كثيرا من الآيات تذم من يستحق الذم منهم.

=

=

ومن ذلك قوله- تعالى-: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ. كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ، لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ.

قال الطبري:"ولقد اخترنا بني إسرائيل على علم منا بهم على عالمي أهل زمانهم يومئذ، وذلك زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه".

قال الثعلبي:"يعني مؤمني بني إسرائيل، على علم منا لهم. على عالمي زمانهم".

قال قتادة:"أي: اختيروا على أهل زمانهم ذلك، ولكلّ زمان عالم".

قال قتادة:"عالم ذلك الزمان".

قال مجاهد:"على من هم بين ظَهْرَانِيهِ".

قال ابن كثير:"وهذه كقوله تعالى: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ} [الأعراف: ١٤٤] أي: أهل زمانه، وكقوله لمريم: {وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٤٢] أي: في زمانها؛ فإن خديجة أفضل منها، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، أو مساوية لها في الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام".

وقال النحاس:"{وَلَقَدِ اخْتَرْناهُم} الضمير يعود على «بني إسرائيل»، أي: اخترناهم للرسالة والتشريف عَلى عِلْمٍ، لأن من اخترناه منهم للرسالة يقوم بأدائها عَلَى الْعالَمِينَ لكثرة الرسل فيهم وقيل: عالم أهل زمانهم".

قال السمعاني:"قوله: {على العالمين} أي: على عالمي زمانهم، ويقال: على جميع العالمين؛ لأنه خصهم بكثرة الأنبياء منهم، فلهم الفضل على جميع العالمين بهذا المعنى".

وقوله تعالى: {وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ} [الدخان:٣٢]، يحتمل ثلاثة وجوه:

أحدها: {اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ}، أي: بسبب علم آتيناهم ذلك، لم يؤت ذلك

=

=

غيرهم؛ لتظهر فضيلة العلم على العالمين وشرفه.

الثاني: {اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ} منا بأسباب فيهم وأشياء لم تعلم تلك الأسباب والمعاني في غيرهم، بها استوجبوا الاختيار على العالمين.

الثالث: {اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ}، أي: بسبب علم أحوجنا غيرهم إليهم، فصاروا مختارين مفضلين بسبب تعليمهم إياهم ما احتاجوا إليه؛ فيكون لهم فضل الأستاذ على التلميذ، وهذا كما يقال: إن العرب أفضل من الموالي؛ لأن الموالي احتاجوا إلى العرب في معرفة لسانهم، ومعرفة أشياء احتاجوا إليها، فاستوجبوا الفضيلة؛ لحاجتهم إليهم؛ ولذلك فضلت قريش على سائر العرب؛ لما احتاجت سائر العرب إلى قريش في معرفة أشياء لا يصلون إلى ذلك إلا أنهم فضلوا على غيرهم لذلك؛ فعلى ذلك يحتمل أنه أحوج إلى بني إسرائيل غيرهم في معرفة أشياء، فاستوجبوا بذلك الاختيار والفضيلة على غيرهم.

ثم بين- سبحانه- بعض المعجزات التي جاءتهم على أيدى رسلهم فقال: وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ.

أى: وأعطيناهم من المعجزات الدالة على صدق رسلهم كموسى وعيسى وغيرهما، ما فيه بلاء مبين.

أى: ما فيه اختبار وامتحان ظاهر، ليتميز الخبيث من الطيب، والكافر من المؤمن.

ومن هذه الآيات: فلق البحر بالنسبة لموسى، وإبراء الأكمه والأبرص، بالنسبة لعيسى.

قال الطبري: يقول:"وأعطيناهم من العِبر والعِظات ما فيه اختبار يبين لمن تأمله أنه اختبار اختبرهم الله به".

قال ابن كثير:"أي: من الحجج والبراهين وخوارق العادات {مَا فِيهِ} اختبار

=

=

ظاهر جلي لمن اهتدى به".

قال الفراء:"البَلاء: قد يكون نعمًا، وعذابًا. ألا ترى أنك تَقُولُ: إن فلانًا لحسن البلاء عندك تريدُ الإنعام عليك".

واختلف أهل التفسير في ذلك البلاء، على أقوال:

أحدها: أنه أنجاهم الله من عدوّهم، ثم أقطعهم البحر، وظلَّل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المنّ والسلوى، قاله قتادة.

ويكون هذا الخطاب متوجهـًا إلى بني إسرائيل.

قال الفراء:"يريد: نعم مبينّة، منها: أن أنجاهم من آل فرعون، وظللهم بالغمام، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى، وهو كما تَقُولُ للرجل: إن بلائي عندك لحسن".

قال ابن قتيبة:"أي: نِعَمٌ بَيِّنَة عظام".

قال النحاس:"فالبلاء-ههنا-: النعمة على هذا القول، كما قال الشاعر:

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو".

الثاني: أنها العصا ويده البيضاء، ويكون الخطاب متوجهـًا إلى قوم فرعون. حكاه الماوردي.

الثالث: أنه الشر الذي كفهم عنه والخير الذي أمرهم به، قاله عبد الرحمن بن زيد.

قال ابن زيد:" {بلاء مبين} لمن آمن بها وكفر بها، بلوى نبتليهم بها، نمحصهم بلوى اختبار، نختبرهم بالخير والشرّ، نختبرهم لننظر فيما أتاهم من الآيات من يؤمن بها، وينتفع بها ويضيعها".

وعلى هذا القول يكون الخطاب متوجهـًا إلى الفريقين معـًا من قوم فرعون وبني إسرائيل.

قال الفراء:"وَقَدْ قيل فيهما: إن البلاء عذاب، وكلٌّ صواب".

=

=

قال النحاس:"وقد يكون البلاء -ههنا-: العذاب ضد النعمة، أي: لحقهم البلاء لما كفروا بآيات الله".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه آتى بني إسرائيل من الآيات ما فيه ابتلاؤهم واختبارهم، وقد يكون الابتلاء والاختبار بالرخاء، ويكون بالشدّة، ولم يضع لنا دليلا من خبر ولا عقل، أنه عنى بعض ذلك دون بعض، وقد كان الله اختبرهم بالمعنيين كليهما جميعا. وجائز أن يكون عنى اختباره إياهم بهما، فإذا كان الأمر على ما وصفنا، فالصواب من القول فيه أن نقول كما قال جل ثناؤه إنه اختبرهم".

الفهرس

